ايريك موريز
المؤسّسة
العربيّة
للدّراسات
والنشر
مدخل الى التاريخ العسكري
تعريب : أكرم ديري والمقدّم الهيثم الأيوبي

ايريك موريز

مَدخل إلى التاريخ العسكري

تعريب
أكرم ديري والمقدم الهيثم الأيوبي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

مدخل
إلى التاريخ العسكري

INTRODUCTION A L'HISTOIRE MILITAIRE

الطبعة الثانية ١٩٧٩

مُقَدِّمة

يأتي هذا الكتاب في الوقت الملائم . في الوقت الذي يحاول البعض فيه الحط من التاريخ وإفقاده مزاياه . لذا فإن من الضروري جداً أن نلتقط من هذا التاريخ التعاليم الخالدة التي تتلاءم مع الحاضر ، وأن نراه يجدِّدُ شبابه بصورة تُلفت الانظار ، في وقت يؤكد فيه بعض المثقّفين هرمه وفناءه .

منذ زمن قصير ، وضع السيد بوربون بوسيه مبدأ « التجرد » كشرطٍ أساسي من شروط دراسة الحاضر وتنظيمه على ضوء معطيات الغد . وكان بوسيه يعني بذلك أن التنبؤ بالمستقبل والادعاء بخلقه يتطلب مرونة فكرية كبيرة ، وروحاً متحررة قادرة على إتاحة حرية التعبير الكاملة لكل الافكار دون إصدار حكم مسبق مغلوط على آثارها اللاحقة .

وبوسع العسكريين ان يتوصلوا بسهولة إلى هذا التحرر الفكري ، مع ان مجال غيرهم أوسع وأرحب من مجالهم ، لأنهم غالباً ما يكونون مرتبطين بأوامر إلزامية ، بيدَ أنَّ التاريخ الذي يُفهم من خلال طابعه التركيبي هو أفضل مادة قادرة على توليد هذه الحرية الفكرية العليا . وكل من يطمح فعلاً ، في مجال الفن العسكري ، الى دراسة الحاضر وبحثه على ضوء معطيات المستقبل ، ينبغي عليه أن يبدأ قبل كل شيء بدراسة التاريخ . إن ما ينبغي أن نقوله في هذا الصدد هو ما أكده المارشال فوش فيما يتعلق بالتاريخ حينما قال : « ينبغي في بادىء الامر ان نتعلم كيف نفكر » .

وينصب الاهتمام ، في كل جيشٍ حديثٍ معاصر ، على إعداد الفنيين ، وهذا عمل

سليم لأن هذه العناصر التقنية ضرورية ، ولا يمكن لأي جيش أن يستغني عنها . ولكن ينبغي أن لا يحول هذا الاهتمام بأي حالٍ من الاحوال دون تأكيد الاهتمام بالثقافة . فالفنيون لا يربحون المعارك ، وانما يربحها القادة المثقفون .

وتنتج الثقافة كما كتب كاستون فرجيه « عن استخدام الذكاء الذي يعني الاهتمام بالتحليل والتركيب والقيام بهما » . ولا يمكن أن تكون الثقافة ثقافة علمية ، وهي تنحط وتهبط عندما تنزل الى مستوى التقنية البحتة . ولكنها يجب أن تكون في الوقت نفسه علمية ، وهذا أمر آخر .

ويبرهن هذا الكتاب على أن في وسع المؤرخ المبدع أن يجمع بين الحقيقة العلمية والخيال الخلاّق . ولقد كان كاتبه عسكرياً واعياً بضرورات مهنته ومطالبها بالاضافة الى كونه انساناً مثقفاً . وهذه هبة عظيمة نتمناها لكل من يريدون ان يقتفوا خطواته ويستفيدوا من كتابه .

باريس في ٢ يوليو (تموز) ١٩٦٤

مدير معهد الدراسات العليا

للدفاع الوطني

الفريق الأول

التوقيع

الجُـزء الأول

أهمية التاريخ ونقاط ضعفه

ان التاريخ هو العلم الذي ينبغي عليك ان تستقي منه على الدوام . فلاتقرأه لتتعلم سرد القصص، بل اقرأه لتتعلم الحرب والأخلاق والسياسة . إنني ادين لهذا العلم بكلما أعرف .

« رسالة المارشال دوبل ايسل الى ابنه »

لكي نغذي دماغ جيش من الجيوش ، في ايام السلم ، ونجعله يتجه باستمرار نحو الحرب فليس هناك كتاب اخصب من كتاب التاريخ .

« المارشال فوش »



الفَصْلُ الأول

دور التاريخ العسكري

في اعداد الضباط

يستند اعداد الضابط وتدريسه أساساً على قاعدتين أولاهما معنوية ، والثانية تقنية .

إن السمة المعنوية عامل من عوامل التماسك والالتحام . فهي تثبت الالهام وتوطده ، وتصنع الفكر العسكري . ويقول بسيشاري في هذا الصدد : « نحن لسنا الا وسيلة من وسائل بلادنا . الا أننا نشكل هدفاً لذواتنا وللآخرين . وهو هدف مهم بالنسبة للجميع ... إن دورنا هو الحفاظ على مثل عسكري اعلى ، وان لا يكون هذا المثل عسكرياً على المستوى القومي ، بل أن يكون عسكرياً صرفاً » .

إن التطور التقني عامل من عوامل تباعد الآراء واختلافها . ويحتاج الجيش الى عدد متنوع كبير من التكتيكيين ، والمنظمين ، والاداريين ، والاطباء ، والعلماء . وكلما اختلفت اشكال الجيش وتنوعت ، كلما وفّر مكاناً اقل لتعدد الاختصاصات . والضابط ملزم منذ الانتساب الى المدرسة الحربية حتى سن التقاعد ، على القيام باختبارات متتابعة لاختصاصه .

إلا أن المادة الوحيدة التي ساهمت خلال كل الازمان في نقل السمة المعنوية والمحافظة على عامل مشترك في التطور التقني هي **التاريخ العسكري** لأن هذا التاريخ يؤهل الاحساس والتفكير العسكري ، مع التحكم بالفنون المختلفة ، وبقساوة الانظمة العسكرية .

ويعود الحذر او الازدراء الذي يتعرض له **التاريخ العسكري** الى سببين مرتبطين ببعضهما ارتباطاً وثيقاً هما :

١ – الجهل بتطور النظريات المفسرة للتاريخ العام .

٢ – انكار امكانات التاريخ العسكري وحدوده .

ومن المفيد ، قبل الشروع ببحث هذه النقاط ان نستخدم الأدلة الدامغة . فأكثر المدافعين عن التثقيف بواسطة التاريخ هم قادة كبار لم يخفوا أبداً ما يدينون به في دراساتهم له .

وكان سوفوروف ، اول قائد روسي دافع عن التثقيف العسكري بواسطة التاريخ في روسيا . وطالب ضباطه بالانكباب على دراسة علم يتجاوز كل الأنظمة . وكان يطالبهم ، بالاضافة الى ذلك ، بالتحلي بالصفات الأخلاقية وصفات الرجولة ، اذ كان يقول دائماً :

ان كلمة « لا أعرف» تسبب كثيراً من الشرور ... إنّ التكتيك بدون تاريخ عسكري ، ظلمات ... إنه فوق كل الأنظمة » ثم جاءت الثورة الماركسية فعززت هذه الاتجاهات لأن المعارف العسكرية في نظر لينين هي « الوسائل التي تستخدمها الطبقات والشعوب لحل مشاكلها التاريخية الكبرى » . وخلال الحرب العالمية الأخيرة نجد في ظل ستالين مؤرخاً عسكرياً خرج من صفوف الجيش القيصري القديم هو : شابوشنيكوف ، الذي أضحى فيما بعد القائد العام للجيوش السوفيتية . وبفضل نفوذه أصبح للتاريخ العسكري بالنسبة للضباط الروس احترام يصل الى درجة التقديس .

وفي ألمانيا ، يعتبر للتاريخ العسكري أساساً لتدريب الضباط منذ أيام فريدريك الثاني ، الذي يعتبر التاريخ « تجربة ناضجة بصورة مبكرة ، ووعياً بالعلاقة القائمة بين الأحداث الحاضرة وأحداث الماضي ... وتحسناً نحو الكمال بفضل المقارنات » . وقد كانت كتابات مولتكه غزيرة في هذا المجال . ودفع هذا الاقتناع بأهمية التاريخ العسكري ، القيادة الألمانية العليا لإدارة أعمال الفرع التاريخي فيها تبعاً لخطة واضحة دوماً ومفيدة ، كانت ثمراتها تغذي طلاب الأكاديمية الحربية الألمانية ثلاث سنوات بمعدل ست ساعات في الأسبوع .

وقد كان الفرنسيون بصورة خاصة ، المرجع الرئيسي في الاعتماد على التاريخ ودراسته في أوروبا أثناء النصف الأول من القرن الثامن عشر ، عندما ظهر الشوفاليه دوفولارد والمارشال دوساكس والكونت جيبير . ولا يتمتع بونابرت بأية ثقافة عسكرية غير الثقافة التي كسبها من تأمل مؤلفات القادة لأنه كان يقضي ثلاثة أرباع وقته (حتى حصار طولون) في اجازات يدرس خلالها هذه المؤلفات . حتى أن المؤلف الذي كتبه جيبير كان يرافق القائد العام لجيش ايطاليا . ولا يخفي بونابرت الفائدة التي جناها من قراءته لهذه الكتب ، إذ يقول : « من الممكن تعلم التكتيك والتطورات وعمل المهندسين والمدفعية من الأنظمة والمذكرات ،

كما نتعلم الهندسة تقريباً ، الا ان معرفة الاجزاء العليا من الحرب لا تكتسب **إلا بالتجربة وبدراسة تاريخ الحروب ومعارك كبار القادة..** أعد قراءة تاريخ معاركهم الثمانية والتسعين واحذُ حذوهم . تلك هي الوسيلة الوحيدة لتغدو قائداً عظيماً » .

ولقد استطاع المارشال فوش أن يحدد بكل دقة الدور الخاص لكلٍ من التجربة والدراسة التاريخية في تدريب الضباط . وكتب في ذلك قائلاً : « إن الأنظمة العسكرية صالحة لإدارة تمرين من التمارين ، ولكننا نحتاج في لحظة الخطر لشيء آخر . فالشجاعة المادية والبدنية للجندي لا علاقة لها بالشجاعة المعنوية التي ينبغي ان يتحلى بها القائد **والتي تستند الى ما يعرف** . إن على القائد أن يتمتع بالمعرفة كيما يملك مثل هذه الشجاعة، كما أن عليه أن يمارس العمل لتطبيق المعرفة ، وإلا تَوَهَّمَ في لحظة من اللحظات بأنه يعرف ، ثم لا يلبث وهمَه أن يتبدد ويظهر جهله عند أول صعوبة . وعندها نجد أمامنا شخصاً عاجزاً عن القيادة . ولكي يستطيع القائد ممارسة العمل لا يكفي أن يتعلم الأنظَمة ، فليس المطلوب هو أن نجعل الجنود يقومون بالــدوران الى اليسار او بالسير الى أمام . إن عــلى القائد أن يتعلم كيف يفكر . فالأنظمة عبارة عن دليل للبلهـــاء ، وهي تؤدي بالمرء الى الخمول الفكري » [1]

وبهذا القول أراد فوش أن يحافظ على المميزات التجريبية للفن العسكري ، ويعود باستمرار الى الموضوع التالي : تتحكم الاحداث بطرق التفكير . وليست الاستراتيجية سوى عمل من اعمال الشخصية والمنطق السليم ... ولا يمكن القيام بأي عمل من الاعمال في مواجهة الوقائع والاحداث المحتومة . . . وترتبط الاحداث في الحرب ببعضها ارتباطاً كاملاً ، وتتشابك ويؤثر كل حدث على الحدث الآخر ، ولا يستطيع الانسان ان يفعل ما يريد . ولكل عملية من العمليات سبب يبرر وجودها ويكون غرضها . ويثبت هذا الغرض بعد تحديده قيمة الوسائل التي ينبغي ان توضع موضع التنفيذ ، وطريقة استخدام القوى . وفي كل حالة من الحالات ، يشكل هذا الغرض الرد على السؤال المشهور الذي طرحه « فردي دوفرنو ، عندما وصل الى ساحة المعركة في ناشود . فقد أخذ فردي يقدح زناد فكره أمام الصعوبات التي كانت تبدو امامه مفتشاً على مثال او درس يكون بالنسبة اليه بمثابة خط من خطوط السلوك التي ينبغي اتباعها ، فلم يجد ما يوحي اليه أو يلهمه بشيء ، فقال : « ليذهب التاريخ ومبادئه الى الجحيم ! **المهم أن أعرف ما هو الهدف ؟** » . وبهذا السؤال توجه

---

(۱) Maréchal Foch, De la Conduite de la guerrc, Berger-Levrault, editeurs.

فكر فردي وتحدد . وتوصل الى الطريقة الموضوعية لمعالجة الامور »[1] .

هذه الجملة المشهورة « ليذهب التاريخ الى الجحيم ! » تعيدنا الى التاريخ مباشرة لسبب بسيط هو أن الخيال المبدع يعمل على بناء على معارف مكتسبة انتقلت الى الحالة اللاشعورية . وينسبها فوش الى السؤال التالي حينما يقول : « **ما هو الهدف ؟** »

« إنَّ من الواجب أن نكتشف وسط الحالات الخاصة ، حقيقـــة الوضع الراهن كما يبدو ، وهو مغلف بضباب المجهول ، وان نُقَدِّرَ ما نراه بصورة سليمة ، وان نتنبأ بما بما لا نراه ، وان نتخذ القرار ، ونعمل فيما بعد بكل تصميم دون أن نجد العلل والمبررات. وعلينا أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار عنصرين اثنين ، أحدهما معروف : وهو ارادتنا ، والآخر مجهول : وهو ارادة الخصم . وان نضيف إلى هذه الارادة العوامل الأخرى التي هي من طابعٍ آخر ، والتي تنجو وتفلت من كل التنبؤات كالحرارة والأمراض، و حوادث السكك الحديدية والاختلافات والاخطاء ، وكل العناصر التي لا يتحكم بها الانسان . ولنُسمِّ هذه العناصر باسم الصدفة والقدر ، أو لنعاملها على أنها عناصر إلـــهية . ومن الواضح أن المعلومات النظرية لاتكفي لهذا الغرض . ونحتاج في هذا المجال الى تطورٍ حرٍ ، فني وعملي ، في صفات الفكر والطبع ، يستند الى ثقافة عسكرية سابقة ، **وتوجهه التجربة ، سواء أكانت تجربة نستخلصها من التاريخ العسكري ، او تجربة نكتسبها في وجودنا وحياتنا »[2] .**

والخلاصة ، ينبغي علينا ان نتعلم كيف نبني تفكيرنا من خلال التاريخ .

سأل هانوتو ذات يوم فوش : « عندما تكون في ساعة من الساعات التي يتوجب عليك فيها أن تتدخل ، هل يساعدك شيء من هذه الدراسات العميقة على حل المعضلات؟» فأجاب فوش قائلا : « أبداً ، الا أن هذه الدراسات **تعطيني الثقة** » . كل هذا يؤكد الطابع اللاشعوري الفاعل للتاريخ .

إن الخفة التي يعالج فيها كثير من الضباط الاكفاء التاريخ ، لا تعود فقط الى أنهم يجهلون ما يمكن أن يعطيه التاريخ ، بل إلى ثقل تجربتهم العسكرية ذاتها . ويذكر البعض وضع ضباط واطارات (كادرات) الثورة الفرنسية ، أو وضع جان دارك ليدعموا عدم جدوى الدراسات النظرية إذا ما قورنت بالحس السليم والتجربة العملية . وهم يتجاهلون

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .

أمراً اساسياً، هو أن المعارف المكتسبة تبدو في بعض « العقد التاريخية » وكأنها تقادمت فجأة، وأصبحت بالية ، وان الذين يعرفون منها اقل المعارف هم أولئك الذين ينجون من هذه « العقد التاريخية » بصورة افضل من غيرهم ، لأنهم متحررون من وزن التقاليد . الا أن هذا لايستبعد قيمة مبدأ آخر هو: « إن معاناة أحداث الحرب لا تؤدي إلى اكتساب تجربة حربية إلا بعد تأمل وتفكير ، فالأحداث التي نعيشها في الحرب ليست سوى صور، و لا تتكون تجربة الحرب الا عندما ننسق ما بين هذه الاحداث » . ولهذا السبب كان فون متش مفتش التدريب في الجيش الألماني عام ١٩٢٤ يرسل الى دورات التدريب ضباطاً عاشوا سوات من المعارك القاسية . ويبرر ذلك بقوله : « دعوني أضحك من تجربتكم الحربية ، فانتم تعتقدون أنكم حصلتم عليها . إلا أنكم لم تحصلوا الا على ذكرى وقائع عشتموها ..»

فالتناقض القائم بين الوقائع التي عاشوها ، والتجربة التي طال فيها التأمل والدرس ، يفسر سبب صعوبة القيام بالحرب والتفكير فيها بآن واحد .

إن تعلم كيفية التفكير من خلال التاريخ منهاج مثبط للعزيمة عندما نتأمل ضعف المعلومات المكتسبة في الكلية الحربية ، والتسابق الرهيب فيما بين الالتزامات المهنية للضابط واعداد الدورات والشهادات التي لا تهم سوى المظهر « النظامي » لمهنته .

ويمكن التوصل الى تعلم التفكير عبر التاريخ ومن خلاله ببطء بفضل قراءات تحليلية هامة تترك لوقت طويل انطباع متحف مليء بالغبار لأمجاد زائلة عفى عليها الزمن . ومن الممكن التوصل الى ذلك مرة واحدة بالتاريخ التركيبي . وقد يقرأ المرء عن طريق الصدفة « تحولات الحرب الكبرى » لكولان، فيصرخ تحت تأثير الالهام قائلاً : « بحق الشيطان ، لماذا أخفوا عني كل هذا ؟ إن التاريخ العسكري يبدو بشكل قابل للهضم . وبالامكان الإفادة منه بطريقة مجدية وعقلانية » .

ولقد كتبنا هذا الكتاب بهدف تجنب تأثيرات « الالهامات » المتأخرة .

الفصل الثاني

تطور النظريات المفسرة

للتاريخ العام

إن أوّل شرط يتحتم توفيره لدراسة التاريخ دراسة مفيدة ومثمرة هو أن نتيح له نوعاً من الجِدَّة ، إذا امكن ، وأن نُؤمن بقدرته على إعطائنا التعاليم والدروس . وفي هذا المجال يمكن التمييز بين النظريات المفسرة الميتافيزيقية والنظريات المفسرة العلمية . وتدعي النظريات الأولى أنها تبحث عن علل الأحداث ، والأسباب المحركة لها ، واتجاه التاريخ . أما النظريات الثانية فيقتصر عملها على البحث في كيفية وقوع الأحداث ، وعلى تحديد الشروط التجريبية التي يرتبط بها ظهور تلك الأحداث . ولكل هذه النظريات محور هو اتخاذ موقف متعلق بالعللية او الغائية . فهل ترتبط الحوادث التاريخية ببعضها ارتباطاً عابراً أو انها مدفوعة بهدف بعيد ؟ وهل يمكن اعتبار سياق هذه الحوادث سياقاً جامداً ، ام انه يسمح ببعض ذبذبات الاحتمالات ؟

وسنذكر باختصار ان **النظريات الميتافيزيقية في تفسير التاريخ** ، التي يمكن ربطها بنظرية عامة للتطور ، سواء أكانت نظرية خطية أو دائرية ، ان تلك النظريات الميتافيزيقية قد أبرزها مفكرون مشهورون من أمثال ماكيافيلي وفيكو وكونت ونيتشه وميليارد وسبنجلر . ويشكل البعث الكاثوليكي والتطور الماركسي جزءاً منها على المستوى ذاته . وتقيم هذه النظريات مورفولوجيا التاريخ العالمي ، وتستخلص اسباب الأحداث من الاعتبارات العلمية ، والسياسية والفلسفية والدينية . ويكمن موضوعها المشترك في « ضرورة » تلح على التيار التاريخي وتعطيه معنىً كبيراً . إن هذا النوع من الاعتبارات قد يفيد الفيلسوف الا انه قليل الفائدة بالنسبة للعسكري .

اما **النظريات العلمية** فلها على العكس آثار عملية. فقد تطورت ونمت بصورة متوازية مع تطور مفاهيم العلم بصورة ملفتة للانتباه، مع تأكيدها لامكانات الافادة من التاريخ العام واستثماره. ومقابل العلم التقييدي (العللية) الذي يجعل من الصدفة المحرك للاحداث، نجد مفهوم التاريخ **التربوي** الخالص الذي يدافع عنه فاليري، وسينيبوس. وبقدر تفتت العلم التقييدي (العللية) وجدنا التاريخ **التركيبي** يأخذ مكانه من جديد مع بير، ويتحرك الى تاريخ احتمالي لدى فاندريس.

وقد استطاع فاليري اسقاط اعتبار التاريخ عندما ردد العبارات التالية: «اننا ندخل المستقبل، ونحن نسير القهقرى. هذا الدرس هو بالنسبة لي أهم دروس التاريخ وأكثرها صحة، **لأن التاريخ هو علم الأشياء التي لا تتكرر أبداً** (بالمعنى العام). فالأشياء التي تتكرر (بالمعنى الجزئي)، والتجارب التي يمكن القيام بها من جديد، والملاحظات التي تتراكم بعضها فوق بعض، ترتقي الى علم الفيزياء أو علم الحياة .... إن التاريخ لا يسمح لنا أبداً بالتنبؤ، ولكن إذا اقترن باستقلال في التفكير فانه يستطيع مساعدتنا على الرؤية بصورة أفضل».

وقد كان المؤرخ سينيبوس أكثر جديّة عندما صرح بأنه حاول ان يستقصي العناصر المركبة للحوادث التاريخية دون جدوى، وكان يؤمن بأن من الواجب نبذ كل مبدأ قياسي، وكل مبدأ منطقي، والاقتصار على اتباع سياق تجريبي: «**فللتاريخ بصورة خاصة قيمة تربوية**. فإذا طلبنا اليه ايجاد صيغ عامة باستخلاص التتابعات الثابتة للأحداث، فقد التاريخ بالتدريج كل فضيلة تعليمية. ولا يساوي عندئذ عناء كتابته». لذا فان من غير المجدي محاولة تركيب الأحداث التاريخية، حتى ولو كان تركيباً جزئياً. ولقد اقتصر المؤرخون على وضع التحاليل بعضها فوق بعض لاغراض فكرية أو فنية.

وقد سمح هذا المفهوم بصورة خاصة لباندا وروبنل بالتشهير بأوهام المؤرخين العسكريين. فكتب الأول ما يلي: «إني أفتش عن الدرس الذي يستطيع قادة الجيوش الحديثة استخلاصه من معارك هانيبال أو الاسكندر، ومن معارك اوستيرليتز او يينا، ان لم يكن هذا الدرس يقول إنّ النصر يستلزم تدمير قوات الخصم، او اية حقيقة بديهية اخرى من هذا الطراز، لا يتطلب الحصول عليها قضاء ليال طويلة في البحث والتمحيص» وكان الثاني يعتبر دراسة التاريخ من قبل العسكريين «دراسة مخيفة ومشؤومة» وكان يقول: «إن معرفة معركة بونابرت الأولى في ايطاليا معرفة جيدة قد تكون اضمن وسيلة لعدم القيام بها مرة ثانية. فالقائد الجيد، هو القائد الذي يجهل التقاليد ولا يعرف

غير الفرصة » . والحقيقة إن مثل هذه الاعتبارات تكشف بشكل خاص عن بعض تام بما ينوي العسكريون استخلاصه من تعاليم الدراسات التاريخية .

وعندما غير العلم جلده امكن القيام بخطوة كبرى ، في اللحظة التي استطاع فيها هذا العلم ان يحلل العوامل المشكوك فيها . وقد صرح اينشتاين في يوم من الايام انه لم يكن يحب ابداً « نظرية ايدنجتون » . فرد عليه ايدنجتون : « انها مسألة من مسائل الذوق » . وقد تأيد تدريجياً ان كل معرفة تتضمن احتمالاً معيناً ، وإن ذاتية التفسيرات لم تكن شيئاً خاصاً بالتاريخ .

وفي مثل هذا المناخ ، وجدنا بآن واحد هبوط نفوذ اولئك الذين لا يريدون أن يطلبوا شيئاً من التاريخ ، لانه ليس علمياً بما فيه الكفاية ، واولئك الذين كانوا يطلبون منه كل شيء على اسس ميتافيزيقية . واستطاع التركيب التاريخي لبير أن يفرض نفسه في منتصف الطريق اذ كتب ما يلي :

« عندما كنا نعارض فلسفة التاريخ ، كنا نحتج على ازدراء ولا مبالاة الكثير من المؤرخين إزاء فلسفات التاريخ القديمة ... فقيمة التاريخ المجدية قيمة ضعيفة إذا اقتصرت على دراسة التغيير ، وعلى وصف التطور ... وهي أيضاً مختلطة – الى حد ما عن وعي – بتعميمات نظرية أو تجريبية ، ينبغي ان يحل محلها تعميمات علمية .. إن القوانين العامة للمؤرخين هي دوماً – على وجه التقريب – قوانين التطور . وهناك قوانين من نوع آخر لا تعطى كأنها مفتاح التاريخ . فهي تطرح في التعايش أو الوراثة وجوهاً للتشابه تكون تجريبية احياناً ، واحياناً اخرى مرتبطة بأسباب . ولكن لا يمكن القول إنها تقود تشابك الحوادث التاريخية ... **فالتاريخ لا يشتمل على مجرد تكرار وتشابه ، لكنه ليس بعيداً ولا غريباً على أوجه التشابه ، وعلى التكرار ، فهو على العكس** يحتاج اليها كقاعدة من القواعد .... ان تعبير القانون التاريخي تعبير مقبول اذا اخذناه كدليل للوقائع الانسانية ذات الطابع العام ، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بوقائع فريدة وغريبة .... وفي مواجهة التفسير الحقيقي الذي تشتمله كلمة **لماذا** ، هذه الكلمة التي يرفضها العلم ، نجد تأكيد العلاقات والشروط ، والبحث عن شكل الوصول الى كيف[1] » .

فعندما نجد التاريخ وقد اتخذ موقعه مجدداً على مستوى العلوم الأخرى في ادعاءاتها ، وفي عوامل الشك القائمة فيها ، يرى بير ان نفتح لعلم التاريخ طريق القيام بالتركيبات .

---

(١) La Synthése en Histoire. Henri Berr - Editions Albin Michel.

ويقول بير في ذلك : يتحول التركيب الى نتائج عملية ، ويغدو سيداً للحياة . ويجعلنا نفهم بشكل افضل اتجـاه العمل ، وامكانياته ، والمقاومات التي تمنـع التحولات السريعة جداً ، وهـذا التركيب لا يحدد للانسان دوره في المجتمـع فحسب ، بل انـه يساعده على وعي دوره في الكون .... وعلى حين يحاول التاريخ – التربوي باشكاله المختلفة ، وبمجموعة من الوقائع ، إعادة صنع الحيـاة بصورة حذرة الى حـد ما ، نرى علم التاريخ يحاول تفسيرها . فعلم يدرك بهذا الشكل يعطينا ما هو افضل من التنبؤ ، إنه يعطينا القدرة . ويؤكد البعض أن التاريخ لا علاقة له بالحياة لأنه علمي أكثر من اللازم . الا أنني مقتنع بأن العكس هو الصحيح ، وأن سبب عدم ارتباطه بالحياة يرجع الى انه ليس علمياً بما فيه الكفاية » .

ولم يكن المدافعون عن التاريخ العسكري يطلبون من التاريخ أكثر من ذلك ، عندما أبرز لهم فاندريس ان الرؤية إلى مدى ابعد عمل شرعي . وقد حاول فاندريس تفكيك الميكانيكية التاريخية ليميز ما تخفيه الاحداث التاريخية في هذين الاسلوبين من تفسير التاريخ ، مستنداً الى واقع يؤمن بقدرة العلم الحديث على أن يأخذ مظاهر عقلانية أو احتمالية ، تبعاً لأنواع الحوادث أو الظواهر التاريخية . وتمكن فاندريس من التوصل الى الاستنتاج التالي : « هناك عقلانية في التاريخ ، لأن الرجال ليسوا مستقلين استقلالاً ناجزاً عن محيطهم الخارجي ، فهم يعيشون على الأرض ، ويخضعون إلى شروط طبيعية متعددة . وهناك احتمالية في التاريخ لأن الرجال مستقلون ومكتفون ذاتياً . »

« **فالتاريخ مقيد بشروط** . وهناك اثباتات متعددة جغرافية ، واقتصادية ، ونسب متعلقة بالطاقة ، تؤثر على قيادة الرجال وتعدلها . ويملك الرجل السياسي مقدرة التأثير على هذه الشروط والأسانيد ... فوضع التاريخ النظري لا يفعل شيئاً سوى جعل هذا الجزء من السياسة جزءاً واضحاً ومفهوماً . لكن التاريخ ليس محدداً ، اذ يحتفظ كل رجل بقسط كبير من الحرية في حياته مع الآخرين ... **ويبدل التاريخ مقياسه أيضاً** ، على مستوى الحريات الفردية . فالحريات الفردية تسير الى التضاؤل يوماً بعد يوم بسبب التقدم التقني ، ولأن العلم يتيح امكانيات أوسع وأرحب للعمل ، الا انه لا يغير طبيعته ، لأن الأمر يتعلق دوماً بامكانات العمل[1] . »

وانه لشيء هام بالنسبة للعسكرين أن يعرفوا بأن معظم الحالات الواقعية التي بحثها

---

(١) De la probabilité en histoire - Pierre vendryés. Editions : Albin Michel .

فاندريس هي حالات من طبيعة عسكرية [1] . وقد أبرزت هذه الحالات بوضوح امكانات تضييق الاحتمالات العملياتية الى أصغر حد ممكن . وبهذا الشكل نجد قدرات التأثير على التاريخ وجعله واضحاً ومفهوماً ، ونجد امكانية رسم صورة سينمائية للقوات قادرة على ان تجعل هذه القدرات بينة وواضحة .

لقد توصلنا اذن الى أفضل النظريات التي تفسر التاريخ ، والتي تستطيع أن تؤكد أكثر من غيرها ثقتنا في التاريخ العسكري . ولنتذكر أخيراً أن أقسى الضربات التي وجهت الى هذه الثقة لم تكن من فعل المختصين أمثال سينيبوس او روبنل، بل من فعل فاليري الشاعر ، وباندا التجريبي . وما زال بوسعنا في فرنسا أن ندفع الثمن الذي يكلفه جهلنا بالأولين ، أما الآخران فان من يتجاهلهما يعتبر امياً .

هذا مع العلم بأن من السهل جداً ان نكون في صف « فاليري » .

(١) campagnes d' Egypte, des Grisons, de MARENGO, de HOHENLINDEN.

الفصل الثالث

إمكانات التاريخ العسكري وحدوده

يتعرض التاريخ العسكري ، كالتاريخ العام تماماً الى صعوبات النقد الداخلي (النقد الذي يهتم بصحة وامانة الوثيقة التاريخية) وبالنقد الخارجي (النقد الذي يمس حقيقة الوثيقة وشرعيتها). والضباط الذين يدرسون التاريخ بغرض التثقيف لا بغرض استثمار الوثائق التاريخية الأساسية ، لا يهتمون بهذه الوثائق . فهم يقبلون نتيجة العمل الاستثماري الذي قام به الآخرون . ومع ذلك فمن المفيد بالنسبة لهم معرفة صعوبات هذا العمل ، على ضوء غرضين اثنين :

- التعرف على الموقف المتميز للتاريخ العسكري في البناء الموضوعي للوقائع .
- الاحتراس من بعض الأخطاء الكبرى التي ارتكبها بعض المحدثين المتحمسين.

وقد استطاع المقدم تورنيس أن يدق اجراس الانذار بالنسبة لهذه المواضيع اذ قال : **« ليس هناك علم أكثر فائدة للضابط من التاريخ العسكري . كما أنه ليس هناك علم يمكن أن يكون اكثر ضرراً منه ، اذا ما أخذ بصورة سيئة . »**[1] .

وليس هناك من شك أن القيادة ، في فرنسا على الأقل ، قد اعتبرت التاريخ دوماً عائقاً من العوائق . ويعتبر تورنيس ان هذا الحذر يتأتى من ثقل التاريخ : فقد كان

---

(١) L' Histoire Militaire, Lieutenant colonel TOURNES.

التاريخ يوقف حركة التحليقات والشطحات الاستراتيجية المغامرة ، ولم يكن منهجياً ولا عقلانياً بما فيه الكفاية لينافس لعبة الحرب (التمارين على الخرائط أو صندوق الرمل) . ونتيجة لذلك كانت القيادة تطالب التاريخ بأن يكون جاهزاً للرد على أكثر المطالب اختلافاً وتبايناً ، أو تطالبه باستثمار مطابق لعقيدتها ، وذلك كي ما تتجنب تحليلات بطيئة التفتح ، الا أن رؤية المؤرخين العسكريين هي بالطبيعة خالية من الأحكام المسبقة . صحيح ان عليهم ان يخشوا من مصائد مستنداتهم والاخطاء التي يمكن أن يقعوا بها بسبب هذه المستندات ، ولكنهم يتمتعون مع ذلك بمزايا واسعة جداً ، ومجهولة في مجالات الدراسات التاريخية الأخرى . فمن مصلحة القيادة ، بسبب هذا الواقع أن تثق بهم وان تتذرع بالصبر .

ولا تكون وثائق المستثمرين صحيحة وكاملة كما هي الحال في مجال التاريخ السياسي . ويبقى هؤلاء المستثمرون ، كالآخرين ، معرضين للخطأ ومأخوذين بالعمل الذي انصرفوا اليه ، ولكنهم يتميزون عنهم بأن مفهومهم ماركسي ، وحرية عملهم اكبر وتطبق على أحداث أقل تعقيداً .

يقول الماركسيون : « ليس هناك مجال لتكوين احكام على التاريخ عن طريق ايديولوجيات ونوايا ، بل عن طريق الآثار والنتائج .... ففي العمل يحدد الغرض الوسائل التي تسمح بتحقيقه ، أو يغدو عن طريق الغرض عندئذ لا شيء[1] » . ودون ان نناقش بأي حال ما اذا كان الماركسيون أوفياء لنظريتهم فمن المهم أن نشير الى أن هذه النظرية تلخص طموح كل مؤرخ عسكري . فهو يريد ان يكون براجماتياً كي ما يتوصل الى الحلول الفعالة . وهذه الرغبة اضطرت المؤرخ العسكري الى التقرب من الحقيقة حتى عندما كانت لا تعجبه . وهو يعرف انه اذا تخلى عن هذا الطريق فلن يجد أي مصدر من المصادر ينبري لمعونته .

ويتمتع المؤرخ السياسي بمشاركة وولاء الذين يتفقون معه في ميولهم واتجاهاتهم . أما المؤرخ العسكري فلا يعرف إلا منافسة أقرانه ، ويتعرض لنقد مرؤوسيه ورقابة عدوه . وأياً كان المعسكر الذي يقف فيه المؤرخ العسكري فانه يحاول ان يقارن بين المصادر المتنازعة ليحدد اسباب الفشل والنجاح ، وبخاصة عندما يساهم في النكبات ، ويتبع كل

---

(١) Libération par le Marxisme. J. Dumazedier.

المرافعات الدفاعية دوماً نقد ذاتي صادق . وهذا الحدث حدث نادر جداً في السياسة .

وتبقى المبادىء السياسية في مستوى العقائد ، أما المبادىء العسكرية فتخضع للنقد الدائم . ولا تؤثر نكبة من النكبات على عقيدة سياسية متأصلة الجذور ، في حين تؤدي مثل هذه النكبة إلى مراجعة كل القيم العسكرية . وبعد كل الذبذبات الخاصة بالمصلحة والأهواء والشك يحتفظ التاريخ العسكري بأكبر الفرص للمعرفة الموضوعية .

ويقوم التاريخ العسكري أخيراً بدوره معتمداً على عدد محدود من المركبات والمشاعر البدائية . وعندما نقارنه بالتاريخ العام ، من هذه الزاوية ، نراه يقتصر احياناً على وزن قدرات الحركة والتمفصل والتدمير التي تولد نوعاً من الآلية المتأثرة بعوامل الخوف والحماسة .

ومما لا شك فيه ان الوصول الى الحقائق الموضوعية بطيء جداً . فالوثائق الفورية ، والتي تبدو ظاهرياً أكثر صحة من غيرها تبقى بحاجة الى التحقق منها ، كما أن المصادر الاستراتيجية هي أكثر أمانة من المصادر التكتيكية . وينبغي أيضاً ان لا ننسى ان القائد يحكم استناداً الى ما يؤمن بمعرفته ، ولا يقول شيئاً سوى ما يعتقد بجدواه للتلاؤم مع التنفيذ ، وانه لا يفسر نواياه دوماً . ففي عام ١٨٠٥ تخيل نابليون خلال عدة أيام ترتيباً معادياً لا وجود له ، وحشد خيالة جيشه بمتناول قلب القوات المعادية ، على حين كان يبدو أن حشد تلك الخيالة بشكل متقدم ذو فائدة كبيرة .

ومن الممكن أن تُلَطَّخَ الوثائق الاحصائية بأخطاء إرادية أو قياسية للتستر على وضعٍ معين ، أو لتبسيط عرضٍ ما . أما الوثائق المخصصة للقيادة أو للجمهور فهي تستهدف الحصول على آثار دعائية . وهناك كثير من الوقائع اليومية التي كتبت على ضوء الأمر الواقع تغدو غير صادقة وكاذبة احياناً . وماذا نقول عن البلاغات الرسمية ؟ وقد كان بورييف يتهم « بلاغات الجيش الكبير » بما يلي « إنها ستغدو وثائق طريفة للتاريخ ، ولكنها لن تكون كذلك من زاوية الحقيقة . »

وعلى مستوى استثمار الوثائق ، ينبغي أن نحسب ايضاً حساباً لمحرري الساعة الأولى الذين لا يترددون أبداً عن « ايصال مناورة من المناورات الى مستوى الكمال » . ويمكن اعتبارهم كمثل من يرتكب جرماً بدافع الإهمال ، كي يفسر بصورة افضل « خطأ الآخرين » . فالخطأ المرتكب عن نية حسنة يمكن وقوعه ايضاً بدافع عدم التجربة أو بدافع التبجح والادعاء . وقد كتب المارشال دوبروغلي في هذا المعنى قائلاً : « ما أكثر

ما نسمعه من الضباط من محاكمات طويلة عن الاستراتيجية ، وعما تحققه العسكرية من أعمال رائعة ، ولكن ما أندر الضباط القادرين على قيادة القطعة التي أوكلت اليهم . »
ومن الشائع عزل عامل من العوامل الخاصة في التطور لكي نعطيه اهمية لا تتفق مع الحاضر . بهذا الشكل رأينا بعد عام ١٨٧٠ ضباطاً شباناً يطالبون باستخدام تشكيلات القتال المنضمة ، بحجة أن نابليون كان يستخدمها قبل خمسين عاماً . ومن الاسهل ايضاً في الوقت الحاضر اهمال عامل التسارع الذي يبطل بسرعة ضلال أحدث النزاعات .

ولقد رأينا من هذه الزاوية نزاعاً قديماً جداً يستيقظ ، هو النزاع ، بين **التاريخ ودراسة الحاضر على ضوء آفاق الغد** . كما رأينا أن التاريخ الحديث يعمل جاهداً للوصول الى « كيفية » تحقيق التدابير والإجراءات ، ويحاول جهده أن يدخل فيها مفاهيم الاحتمال العلمية . وعندما يتعرض مؤرخ من المؤرخين لسابقة تاريخية او لتجانس وتماثل ما ، فهو يجد فيها تماثلاً في التذبذب لا تماثلاً سببياً . وقد نبالغ بعض الشيء حينما نُدعّم الرأي القائل بأن المؤرخ الحديث لا يبالي بالاسباب . فهو يعرف أن لنماذج الذبذبات ذاتها اسباباً مختلفة .

فدراسة الحاضر وتنظيمه على ضوء المعطيات العلمية للغد، موقف فكري منسق يستهدف العمل . والهدف هو تحليل التطور الممكن للعوامل الموجودة ، على أن نضيف الى ذلك احتمال ظهور عوامل تكميلية باستخدام كل الانظمة بشكل لا نهمل فيه أية قوة محتملة . ويستهدف هذا التحليل تحديد افضل احتمالات التطور والعمل على تفتحها . ولا تبدو الطريقتان اذن مستبعدتين .

ومن الغريب ، ان المتحمسين لدراسة الحاضر على ضوء الدراسة العلمية لآفاق المستقبل يقبلون تنافس كل الانظمة ، ما عدا التنافس بين أنظمة التاريخ ، لأنهم يرون بأن التاريخ لا يولد إلا « تأكيدات خاطئة » . ولا نستطيع القبول بهذا الفكرة حرفياً لأن التاريخ يبدأ بالأمس . ولا يستطيع البحاثة أن يتجرد من تجربته الخاصة ، أو بالأحرى ، لا يستطيع ان يتجرد من التجربة الموجودة في الأنظمة المدعوة للتنافس في تنبؤاتها عن التطور . وهذا ليس له أي معنى . ويزيد من عدم معناه وخلوه من أية دلالة أن دراسة الماضي ، في كل نظام ، ينبغي أن تسمح بالتمييز بين أخصب طرق العمل في موقف الباحث والمنقب ، وشروط ظهور العوامل الجديدة . فهل من الممكن ان نتخيل موقفاً أكثر تمحيصاً وتنقيباً عن الحاضر ودراسته على ضوء المعطيات العلمية للمستقبل من الناحية التاريخية من موقف فاندريس ؟

ويعود الشك الذي حافظنا على التاريخ ضمن إطاره الى الخوف « من إعداد الحرب الأخيرة بصورة غير مفيدة في وقت تكون فيه مدة تحول طراز الحياة البشرية أقل من مدة هذه الحياة . فعندما نضع البحاثة أمام حقيقة مناورات تورين في عام ١٦٤٦ ، ومارلبورو في عام ١٧٠٤ ، ونابليون في عام ١٨٠٥ فانه يرى في هذه المناورات ظاهرة من ظواهر « التاريخ البطيء » الذي عفى عليه الزمن بسبب سرعة التطور . وعلى العكس فانه ليس لديه أي تفسير لظاهرة « فولارد » لأن الهدف هنا هو الإنسان ، الذي أجاب على هذا السؤال في مطلع القرن الثامن عشر بالشكل التالي :

« نظراً لأن جنرالاتنا لا يحسنون استخدام الجيوش الحديثة ، فماذا سيحدث لو أسندنا قيادتها الى الاستراتيجيين اليونانيين الذين تحدث عنهم بوليب منذ تسعة عشر قرناً ؟»

كان الجواب على هذا السؤال هو الصورة الأولى للحرب النابولونية . فحتى ولو قالوا بأن موقع فولارد كان على عتبة التسارع التاريخي ، فان وثبته التي تعادل تسعة عشر قرناً من الزمان وثبة تترك الانسان حالماً ، ومن الممكن بسهولة أن ندعم الرأي القائل بأن الفرق بين الجيوش القديمة وجيوش القرن الثامن عشر يعادل الفرق بين الجيوش التقليدية والجيوش الذرية .

إلا أن ما نخشاه هو أن ينبهر المدافعون عن دراسة الحاضر على ضوء المعطيات العلمية للمستقبل بوهم التمدين الحديث . ومن المؤكد أن برجر هو الذي زودنا في مطلع القرن بأول نظرية عامة في دراسة الحاضر وتنظيمه علمياً . وهو نفسه لم ينخدع بهذه النظرية عندما حدّد معيار موقف البحث والتنقيب قائلاً : « في هذه اللحظة التي استعاض فيها انسان العصر النيوليتي (عصر الحجر المصقول) عن الزراعة بطراز حياتي مستند الى عملية القطف ، لأنه اعتباراً من هذه اللحظة دخل مفهوم الحساب بالنسبة لقضايا المستقبل». وقد اضطر العسكريون أنفسهم ، في كل الأزمان ، الى دراسة الواقع دراسة علمية مستندة الى معطيات المستقبل ، حتى ولو كانت هذه الدراسة ضمن حدود انشاء عقيدة من العقائد ، أو بصورة أوثق وأكثر صلة ، عند وضع خطة من خطط العمليات .

وأخيراً ، فإن التاريخ يزود عمل البحث في الحاضر ودراسته بدعم حالات واقعية لا يمكن التعويض عنها على المستوى المعنوي والبسيكولوجي ، لأنه لا وجود لحساب عملياتي واقعي يتفوق على النوعية . ولهذا فمن المسموح به أن نأمل بوجود مناخ من فهم أفضل في الجدال الذي يجري بين الفنيين والانسانيين في حين أنهم يكملون بعضهم بعضاً.

وقد كانت رئاسة الأركان العامة للجيش الفرنسي واعية كل الوعي لهذه المجموعة من الوقائع عندما أقدمت في سبتمبر (أيلول) ١٩٥٧ على اعادة الاعتبار للتاريخ العسكري في المدارس العسكرية ، وفي الدورات التحضيرية لمدرسة الحرب . وقد كان موقفها يتلخص في هذه العبارات : « ينبغي أن يعتبر التاريخ العسكري كعنصر ضروري وخصب ، لا في الثقافة العامة فحسب بل في الثقافة المهنية للضباط أيضاً . وقد شكل معظم القادة الذين كانوا رمزاً للعسكرية شخصيتهم وحكمهم بتأمل الوقائع التاريخية ..... ويترتب على هذا التعليم استثمار الوقائع الموضوعة ضمن اطارها الحقيقي ، وينبغي عليه أن يبرز الطابع التطوري للتنظيم العسكري ، وبسيكولوجية القائد والمقاتل عبر المراحل التاريخية الكبرى . » ان هدفنا من تعليم التاريخ العسكري اذن هو التاريخ المركب من العلاقات ، والذي يقبل مفهوم القانون ، بالمعنى الذي أشار اليه بير ، كدليل « للوقائع الانسانية ذات الطابع العام ، المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوقائع الفردية[1] » .

ان الادعاء بارضاء هذه الرغبة يعني في الواقع اعادة سبك **تحولات الحرب الكبرى** لكولان، في قالب اكثر جدة . وسيشتمل مخططنا على النقاط الهامة التالية :

١ ـ تحديد مجالات الفن العسكري . العوامل الثابتة .

٢ ـ تأثير التطورات التقنية والسياسية . ميكانيكية التطور .

٣ ـ المراحل التاريخية الكبرى

(١) تسير الأركان العامة الألمانية اليوم في هذا المضمار الى مدى أبعد . فقد عادت الى دراسة الكلاسيكيات العسكرية لكل المسائل التكتيكية الأساسية . ومهما سبب هذا من دهشة لمن يدرسون الواقع على ضوء معطيات الغد وآفاقه ، فان كل فصل من كتاب قيادة القوات في الميدان لعام ١٩٦٠ يشتمل على مقطع لكبار المؤلفين العسكريين الألمان .

الجُزءُ الثانيٰ

عناصر الفن العسكري ومجالاته

العوامل الثابتة

لقد تساءلت : مِمَّ تتألف الحرب ؟ وقرأت كلاوزفيتز : إنه شخصية من الشخصيات الفذة ! لقد حارب وعرف الحرب . وكذلك بلوخر وشارنهورست أيضاً إنهم أقوياء ! فلكي يستطيع رجال من أمثالهم التغلب على ذلك العملاق نابليون ، كان عليهم أن يعملوا .

مارشال فوش



الفصل الرابع

العوامل الثابتة

يتكون التاريخ العسكري من عوامل ثابتة ومتغيرة تتحكم بها آلية متطورة . وعندما نرغب بدراسة التاريخ بصورة مجدية ، فان أول شرط من الشروط نحتاج اليه هو معرفة هذه العوامل ، والا فانه يغدو مستحيلاً علينا أن نميز الدرس الذي قد يعطيه الماضي للحاضر ، أو الدرس الذي يعلن عن شكل المستقبل .

ولكي نحدد العوامل الثابتة ينبغي أن نتأكد في بادىء الأمر من أننا نعرف الموضوع الذي نتحدث عنه . فعلينا ان نحدد **مجالات الفن العسكري** وأن نعطيها تعريفاً قادراً على تغطية كل العصور . وعندما نحصل على هذا الأساس ، يغدو من الممكن أن نحدد ما اذا كانت هناك عوامل ثابتة في العمل ، مستقلة عن التغيرات السياسية والتقنية . فاذا كانت هذه العوامل موجودة كان بوسعنا أن نحدد **مبادىء الحرب** .

وبعد وضع هذه المبادىء ، يغدو من السهل علينا أن نلاحظ أن تداخلها يرجع الى وجود **درجات عقلانية** دائمة ، ويغدو من السهل أيضاً أن نبرز آثارها .

واخيراً ، فإن في وسعنا ان نضع عوامل التطور البطيئة جداً ، **كالجغرافيا** ، **وبسيكولوجية الجندي** ، على مستوى المبادىء شبه الثابتة .

الفصل الخامس

مجالات الفن العسكري

يتأثر الفن العسكري بمجالين عامين . يحدد الأول منهما الامكانيات الاقتصادية والبشرية الموضوعة في خدمته : ان هذا المجال هو المجال **السياسي** . أما الآخر فيحدد العتاد : وهو المجال **التقني** . وضمن هذا الاطار تستخدم الوسائل تبعاً لعقيدة **تكتيكية وادارية واستراتيجية** . ومن هذه العقيدة تولد نظرية التنظيم الأكثر ملاءمة لتسهيل تطبيقها .

ان **السياسة** هي فن حكم الشعوب ، وهي من الناحية العسكرية فن الحكم بغرض الحرب وبالحرب . فالسياسة هي التي تعد للحرب ، وتحدد أهدافها وتزن مرات نجاحها تبعاً لفرضيات اندلاعها . وتدعم السياسة الحرب بكل الوسائل العسكرية أو الدبلوماسية أو الاقتصادية أو النفسية . وبهذا الشكل يترتب علينا أن نفهم تعريف كلاوزفيتز الشهير القائل : «ان الحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى» . ويترجم هذا التعريف على الصعيد العسكري «بسياسة الحرب» ووضع الوسائل المادية والبشرية الضرورية لهذه السياسة تحت تصرف القيادة .

وتلبي **التقنية** وترضي مطالب القتال والاعاشة والنقل والاشارة والمعلومات . وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتطور العلمي والصناعي للحضارات ، وبطاقة الموارد الطبيعية وقدرتها . وقد نأسف لأن التطور العلمي قد ساهم في توسيع القدرات البشرية المدمرة ، ولكن علينا أن لا ننسى بأن الجهد الحربي ساهم دائماً في دفع عجلة تطور الاختراعات

والمستحدثات :

ان تعاريف السياسة والتقنية لم تتبدل عبر التاريخ أبداً. ولا يمكن ان نطلق القول نفسه على التكتيك والاستراتيجية لأن تعاريفها لا تغطي في معظم الأحيان الا المفاهيم الخاطئة التي اعتيد عليها والخاصة بعصر معين.

وقد شرح علم أصول اللغة اليونانية التكتيك بالشكل التالي : «إنه فن قيادة القطعات وترتيبها على الأرض.» ويعتبر هذا التعريف أفضل بالتأكيد من التعاريف التي وضعها بولوف أو أردان دوبيك. اذ يقصر أولهما التكتيك على «فن الحركات المنفذة على مرأى من العدو وتحت ناره». أما الثاني فقد عرف التكتيك بأنه : «الفن الذي يجعل الرجال يقاتلون بأقصى ما يمكن من القدرة». وقد أطلق فقط تعبير «التكتيكات العظمى» على طرق «تمفصل» جيش من الجيوش الى فرق، وتعاون واتساق حركات الفرق بغرض المعركة، قبل الدخول الى ساحة المعركة. اما في أيامنا هذه، فلا يمكن القول متى نكون «على مرأى من العدو وتحت ناره»، كما ان قوة التنفيذ في كل الأزمان لم تستطع ان تلخص التكتيك. فقد كانت انقضاضات كورتري وكريسي وباقي العاصفة بمثابة انكار للتكتيك أكثر من أن تكون مؤسسة له. وكل ما نستطيع ان نحفظه من بولوف وأردان دوبيك هو ارادة تحديد التكتيك بساحة المعركة. وقد كان كلاوزفيتز أكثر حكمة عندما قدر «ان التكتيك ينسق ويدير العمل في المعارك». ومن الواجب الآن توسيع مفهوم القتال ليشمل هذا المفهوم الحركات التي تسبق المعركة وتمهد لها، وعلينا ان لا ننسى ان بعض الطرق التكتيكية تستهدف تجنب القتال ما أمكن ذلك. ويصبح التكتيك عندئذ فن استخدام الوسائل العسكرية بصورة اقتصادية، تبعاً لوسط معين، وبهدف القضاء على الخصم بالقتال او بالتهديد بالقتال. وهذا الشكل **شكل يتعلق بصورة خاصة بالتقنية**.

ويشتمل التكتيك جزءاً أولياً مطابقاً لاستخدام كل سلاح في القتال وهذا ما يدعى **بتكتيك السلاح**. وللتكتيك ايضاً جزء تركيبي يدرس مدى تعاون الاسلحة وتضافرها، وتنسيق الاعمال في المعركة: وهذا هو **التكتيك العام**.

والاستراتيجية اقل تحديداً من التكتيك. وتقدم لنا اللغة اليونانية التعريف التالي للاستراتيجية «قيادة الجيوش» بالمعنى العام. وهذا التعريف أفضل من قصر الاستراتيجية على «الحركات المنفذة خفية على العدو وفي ملجأ من ناره» كما فعل بولوف، الامر الذي يجعل هذا التعريف يتجاوز نطاق التكتيك إلى «التكتيكات العظمى». ولا نحس بالرضى

التام عندما يكتب كلاوزفيتز عن الاستراتيجية : « انها تربط المعارك ببعضها للوصول الى اغراض الحرب ...... إن على الاستراتيجية ان تستعين باستخدام القوات في وقت واحد، اما التكتيك فلا يستطيع ان يستخدمها الا بالتتابع » . اذ يبدو ان هذا الكلام يتعدى على التكتيك العام . وبالاضافة الى ذلك فان علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ان هدف بعض الاشكال الاستراتيجية هو تجنب المعركة ، وأن عدداً من الأعمال الاستراتيجية الهامة لا تشتمل على القتال بالضرورة . ومن ناحية اخرى ، لقد اعتدنا على التمييز ما بين الاستراتيجية العامة — وهي الاستراتيجية التي تستهدف تحقيق السلم بكامل الوسائل الملائمة — والاستراتيجية بالمعنى العسكري الصرف — وهي استراتيجية الانتصار بواسطة المعارك[1] . ومع ذلك، فمن الواجب أن نذكر بأن مثل هذا التمييز يتجه الى الزوال في العصر الذري، وعلى الاستراتيجية العسكرية ان تدخل اليوم بالضرورة ضمن اطار الاستراتيجية العامة وان تكون تابعة لها .

إذن ففي التصور الوحيد للاستراتيجية العسكرية الصرفة ، يمكننا ان نقدر ، كما قدر ويغان، ان الاستراتيجية العسكرية تتميز عن التكتيك « بالترتيب الحر **لكل القوات**، في مكان — وزمان واسعين بغية تحقيق هدفٍ بعيد ، هو بالضبط وضع تكتيكي معين . كل هذا يجعل تعريف كلاوزفيتز غير كامل ، ولا يتفق مع طبيعة العصر .

فالاستراتيجية تنسق منذ الآن كل الاعمال القادرة على المساهمة بصورة اقتصادية في اقامة سلم ملائم . انها مركبة ضغوط سياسية واقتصادية ونفسية وعسكرية قادرة على اجبار العدو على الخضوع . وفي الحرب الباردة ، ليس هناك تكتيك ، او ان هناك قليلاً منه ، مع ان الاستراتيجية تبذل كل امكانياتها ومواردها في مثل هذه الحرب . انها **خلفية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسياسة .**

---

(١) تتعلق الاستراتيجية العامة بتوجيه الحرب . وهي من اختصاص رؤساء الحكومات ، الذين يضعون أهداف الحرب ويوزعون المهمات طبقاً لوسائل الضغط المعتبرة .

أما الاستراتيجية العسكرية فتتعلق بإدارة الحرب . وهي من اختصاص القيادة العليا التي تترجم توجيهات الحكومة الى تعابير تتجاوب مع استخدام القوات المسلحة وتؤمن تنفيذها .

وبالإضافة الى ذلك ، فقد درجت العادة في الوقت الراهن على تمييز المظاهر المولدة والمظاهر العملياتية في الاستراتيجية العسكرية . وتهم المظاهر الأولى كل النشاطات القادرة على أن تضع في خدمة السياسة الأداة الأكثر فاعلية في اللحظة المطلوبة. وتهم المظاهر الثانية تصميم المناورة .الاستراتيجية وتنفيذها على مستوى المرؤوسين الكبار التابعين للقيادة العليا ، والمسؤولين عن مسارح العمليات. ومسارح الحرب القادرة على استيعاب وشمول عدة مسارح عمليات متعاونة . وعلى أن تلحق الاستراتيجية العسكرية على المستوى العملياتي بالتكتيك العام .

وبالنظر لاتساع المجال الاستراتيجي ، فإن من الواجب على الاقل أن نقود على مستوى مسرح العمليات ، حتى نكون قادرين على الادعاء بالقيادة الاستراتيجية : وفي المستوى الأدنى تحول التوجيهات الاستراتيجية الى أعمال تكتيكية . وقد قال ويغان في هذا الصدد ما يلي : «كان رئيسي فوش استراتيجياً لامعاً . ومع ذلك ! فاني اعتقد أنه كان يستخدم التكتيك دائماً : إن معركة ١٩١٨ ذاتها كانت تكتيكاً ... وفي يوليو (تموز) ١٩١٨ رأيت فوش يوقف هجوماً عاماً في أوج انتصاره ، لينقل جهده الى نقطة اتصال الجيوش الفرنسية ـ البريطانية ، التي كانت في رأيه **العقدة الاستراتيجية** للمعركة التي يخوضها حلف من الدول . وكانت هذه الفكرة فكرة استراتيجية » .

ومع ذلك ، فان كلاوزفيتز يتجه برغم تعريفه المحدود ، الى توسيع مجال عمل الاستراتيجية ، عندما يبرز أن العمل الحربي يلائم حسب الحالات جوهرين لفكر مختلف ، الأول منهما عسكري (تكتيك) أما الآخر فيضع في الحساب اهتمامات لا عسكرية (استراتيجية) : « هناك في الحرب كثير من الطرق التي تؤدي الى الهدف . **ولا تفترض كل حالة من الحالات تقويض الخصم** . فتدمير القوات العسكرية للعدو ، واحتلال مقاطعاته أو مجرد التهديد باحتلالها ، والمشروعات **الموجهة مباشرة لتحقيق آثار سياسية ، واخيراً الانتظار السلبي للصدمة** هي أيضاً وسائل يمكن استخدامها تبعاً لما تحكم به الظروف عن فاعلية احدى هذه الوسائل وجدواها أكثر من غيرها » .

ومع ذلك فقد ألح كلاوزفيتز على النقطة التالية : يبقى القتال الحجة العسكرية الرئيسية . وقد كتب ما يلي : « تبعاً لرأي بعض الفلاسفة ، هناك عدة طرق اصطناعية تسمح بنزع سلاح الخصم أو القضاء عليه دون اهراق الدم . وسيكون هذا العمل كما يقولون المثل الأعلى للحرب . ومهما كانت هذه الفكرة فكرة عظيمة ، وكيفما بدا تحقيقها أمراً مرغوباً فيه فهي لا تشكل في خلاصتها سوى حلم من الأحلام . ومن المهم أن نعي ذلك فوراً لأنه لا شيء أخطر في الحرب من أخطاء الشعور . وبما ان استخدام القوة بكل اتساعها لا يستبعد بأية حال من الأحوال تضافر الذكاء معها ، فان أحد الخصمين ، الذي يستخدم القوة استخداماً كاملاً ، دون أن يأخذ بعين الاعتبار الدم الذي سيراق ، هذا الخصم ينتصر فوراً على الآخر ، اذا لم يستخدم هذا الأخير القوة بالأسلوب ذاته ..... **إن التدمير المباشر لقوات العدو المسلحة هي الغرض الرئيسي** . وينبغي اذن مقاومة الفكرة التي يدعي أصحاب النظريات تبعاً لها ، أن من الممكن التوصل إلى **استنزاف تام وغير مباشر** للخصم بواسطة تركيبات عملياتية ماهرة اذا لم نستهدف بصورة مباشرة سوى تدمير جزئي لقوى العدو ،

أو بعبارات أخرى ، فاننا بواسطة ضربات صغيرة موجهة بشكل ماهر ، نمارس اثــراً كبيراً على ارادة العدو ، ونضطره بهذا الشكل الى الخضوع بصورة اسرع .

« ومما لا شك فيه أن للقتال قيمةً أكبر في نقطة من النقاط أكثر من نقطة أخرى ، ومن المؤكد أيضاً ان من الضروري ان تتضافر الأعمال القتالية بمهــارة فيما بينها ، وهنا يكمن فن الاستراتيجية . ولكننا نؤكد بأن التدمير المباشر لقوات الخصم المسلحة ينبغي ان يتصدر العمل القتالي في كل مكان وأن يؤخذ بعين التقدير قبل أي اعتبار .... فالموضوع ليس موضوعاً تكتيكياً ، وانما هو موضوع استراتيجي . وهكذا نعود الى القول بــأن **النتائج التكتيكية الكبرى وحدها قادرة على أن تقود الى نتائج استراتيجية كبرى ».**

إن هذا التأكيد مهم جداً ، لأنه يبرز امكانية وجود أنواع مباشرة وغير مباشرة من الحرب . وكيفما كان قول كلاوزفيتز فان الاستراتيجية والتكتيك يساهمان فيهما أيضاً . وليس من قبيل الصدفة أن يتفق موريس دوساكس مع لينين أو ماوتسي تونغ عندما أكد الفكرة القائلة : « إن أفضل استراتيجية للحرب هي الاستراتيجية التي تشتمل على تأخير العمليات الى ان يسمح التفكك المعنوي للخصم بتوجيه ضربة قاتلة وسهلة اليه » . وهكذا فان هناك – كما سنرى – تكتيكاً غير مباشر مستنداً الى الازعاج وقتال الكر والفر ، كما أن هناك استراتيجية غير مباشرة لا تهتم بالمعركة اهتماماً كبيراً . ولا يمكن عملياً ممارسة هذا النوع من الحروب بمحض ارادتنا . فهي تتطلب تحقيق بعض شروط حرية العمل بصورة أولية ومسبقة .

ولكل استراتيجية وتكتيك معينين ، شؤون ادارية خاصة بهما . فالشؤون الادارية هي فن تحريك ودعم القطعات بناء على المطالب التكتيكية والاستراتيجية وتهتم الشؤون الادارية بثلاثة فروع رئيسية :

– فرع الاعالة[1] والتنقلات (المحافظة على مستويات معينة من التجهيزات ومواد الإعاشة ، والحفاظ على القطعات والعتاد بحالة جيدة) . وهذه المهمــة هي مهمة سلاح النقل على مختلف المستويات .

---

(١) entretien – المعجم العسكري الصادر عن قيادة الجيش الأول – في الجمهورية العربية المتحدة – بتاريخ ١٩٦١/٢/١ .

– المعربان –

– **فرع الفرز**[1] والاخلاء (اراحة[2] ، ابعاد ، التعويض بالافراد ، وتعويض العتاد الذي لا يمكن استخدامه) . وترتبط هذه المهمة **بمفهوم خطوط المواصلات والعمليات .**

– فرع الاصلاح اي تجديد الحالة (الصحية والمادية) المطبقة في القواعد والمستودعات المفتوحة والمحصنة .

وتزاد اهمية الشؤون الادارية مع ازدياد مطالب الجيش واحتياجاته، وتزداد بالتالي بازدياد التعداد والتقنية . وتتفوق التقنية تفوقاً كبيراً على التعداد . وتتحكم بمجال العمليات وايقاعها وسرعتها . ويتجه مجال العمليات الى الاتساع مع تقدم التقنية ، على حين يضعف الايقاع والسرعة ضعفاً نسبياً بسبب الأعباء التي تشكلها تكاليف التقنية . وفي النتيجة فإن فيلقاً رومانياً يتمتع بنفس حركية فرقة مدرعة حديثة ، كما انه اكثر استقلالاً واكتفاء ذاتياً. وتتجه كل جهود الاداريين الى زيادة الاكتفاء الذاتي للوحدات المقاتلة ، وزيادة مردود الأجهزة الادارية .

وعندما نضع العقيدة بصورتها النهائية ونرسي دعائمها ، يصبح من الممكن تعيين الأداة التي ستطبقها. وتترجم العقيدة الى **مبادىء تنظيمية تحكم تشكيل مختلف الوحدات والقيادة .** ويقتصر عمل هذه المبادىء على تكوين **مفاهيم الأسلحة والجمهرات التكتيكية من جهة ،** وعلى تكوين مفاهيم النخبة والكتل المسلحة ، من جهة أخرى .

ويعتمد مفهوم السلاح على مطالب التدريب والادارة واحتياجاتها. وهو يظهر بوضوح في زمن السلم . ويجمع السلاح داخل القطعات افراداً يتميزون بوحدة الاساليب والعتاد والقيود و « بروح السلاح » .

ومهما ادعى البعض ، لا يتميز السلاح **بالمهمة** – وهذا صحيح لا لأن كل سلاح أحسّ منذ القدم بالحاجة الى التوسع الى أقسام تتلاءم مع مهمات مختلفة فحسب . بل لأن المهات بمجموعها قد تبدلت أيضاً عبر العصور .

وقد وجد تقريباً في كل سلاح قطعات تتميز بالطاقة والقدرة على احتلال الأرض ،

---

(١) Triage .

(٢) Venti lation. – اراحة – المعجم العسكري السوري المذكور سابقاً – والمعجم العسكري اللبناني الصادر عن وزارة الدفاع الوطني – الشعبة الثالثة بتاريخ ١٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٩ . – المعربان –

وقطعات أخرى تميزت بالحركية : وحدات « **خط** » مخصصة للمعركة ، ووحدات « **خفيفة** » مكرسة للأمن واستثمار النصر . ويصدق هذا القول على المشاة والخيالة والوحدات المشكلة من هذين السلاحين معاً ، فقد كان هناك في أغلب الاحيان رديف تأخذه الخيالة الثقيلة خلفها عند الضرورة . ولاتنجو المدفعية من هذه القاعدة عندما نميز ما بين وحدات « الميدان » ووحدات « الحصار والمواقع » .

وتعطي الحجة ــ المضادة لتعريف السلاح حسب المهمة ــ نتـــائج متغيرة طبقاً للعصر . فقد قيل ان المشاة هي « سلاح القتال سيراً على الاقدام ، تقوده حتى الالتحام » بينما نرى أن جندي المشاة البيزنطي المعتمد على أمن المواقع والمعسكرات ، وعلى أمن المؤخرات ، والذي يحتفظ بمهمات ثابتة ، إن جندي المشاة هذا لا ينتمي الى سلاح المشاة . وقد قيل إن الخيالة هي سلاح الامن واستثمار النصر على وسائط النقل (حيوانات أو آليات ميكانيكية) وهذا يعني عدم وجود خيالة اثناء عصر الجيوش الضخمة ، حيث كان الأمن البعيـــد والاستثمار غير موجود ، بالرغم من وجود قطعات راكبة . وتشكل قطعات الفرسان « مطرقة المعركة » ولها مهمات مدفعيتنا الحديثة . وليس لهذه المدفعية وجود خاص كسلاح حتى حكم لويس الخامس عشر ، واتخذ أول فوج من افواج المدفعية مكانه **في الترتيب الحربي لأفواج المشاة** . وقبل هذه الفترة لم يكن المدفع سوى سلاح لدعم المشاة . وفيما بعد ، أضحى هذا السلاح الأداة الرئيسية للجنرال ، والحجة الاخيرة للملك .

ويقوم مفهوم الجمهرة التكتيكية المختلطة (المشكلة من كل صنوف الاسلحة) **على المهمة** . ويتفوق ويكثر مثل هذا التشكيل في الحرب . وطبقاً للقدرات التي تتيحها التقنية ، يمكن ان يكون لهذا التشكيل وضعان اثنان :

ويتميز الوضع الاول **في القدرة على الاكتفاء الذاتي** . فالجمهرة التكتيكية قادرة بتشكيلها على تحمل مسؤوليات أي تحول وتبدل في المعركة . وعندما يكون اكتفاؤها الذاتي واستقلالها ضعيفاً ، لا تكون سوى اداة من ادوات توزيع القوات و « تمفصلها » في جهاز ضخم . وعندما تكون الجمهرة قوية ، تغدو عنصراً من عناصر المناورة لترتيب متسع تبقى فيه قادرة على مجابهة أوضاع خاصة بوسائلها الذاتية لفترة مؤقتة .

ويتميز الوضع الثاني **بالتخصص** فعندما يكون للأسلحة قدرات متغيرة ومتزايدة ، فان تقدير كمية صنوف الاسلحة الضرورية للجمهرة يتبدل تبعاً لما اذا كنا نريد من الجمهرة حركية وقوة نارية ، او صدمة وطاقة على احتلال الارض . وعندما تمحي الفروق بين الاسلحة ، تتجه الجمهرات التكتيكية الى وحدة التركيب والمهمة .

وهناك فترات يعمم فيها التقدم التقني مع مختلف وسائل القتال في كل الأسلحة ، أو يولد تفوقاً ساحقاً لوسيلة منها على الوسائل الأخرى . وتتناقص أهمية السلاح لحساب الجمهرة التكتيكية التي ينتشر استقلالها واكتفاؤها الذاتي وسهولـة تشكيلها عملياً الى مستويات أقل . ويتجه الجيش عندئذ الى حالة تشبه **حالة البحرية** ، بمعنى أن نميز اخصائيين لا أفراداً لأسلحة اختصاصية ، كما نجد على سطح المراكب الحربية . ونرى عندئذ انفراد مجموعتين من القوات تشكل الأسلحة الأخيرة برغم استمرار تأثيرات التعاريف العسكرية. وهاتان المجموعتان هما :

- مجموعة **القتال القريب** التي مهما كانت « النواة » التي تتكشل منها ، فان افرادها يستخدمون وسائل متشابهة ويتعاونون في تحقيق الأهداف نفسها قريباً من العدو .
- مجموعة **القتال البعيد** التي تدعم المجموعة الأولى بعملها ، مع بقائها بعيدة عن ساحة المعركة .

وقد اقتربت الجيوش من الحالة البحرية ثلاث مرات في التاريخ العسكري :

- لقد اقتربت من الحالة البحرية مع تمتعها بفاعلية تامة ، في بادىء الأمر في القـرن السادس الميلادي عندما كان الفارس المدرع البيزنطي يسوي مصير المعارك لوحده غير مدعوم الا بمشاة التربيع[1] من مسافة بعيدة .
- ثم اقتربت من الحالة البحرية مع عجزٍ عن العمل ، أثناء الحرب العالمية الأولى عندما ساوى السلاح الآلي بين قدرات المشاة وقدرات الفرسان ، التي كانت وحداتهـا مدعومة بمدفعية وطيران متحررين الى حدٍ كبير من اضطرابات ساحة المعركة .
- وفيما بعد عندما انفصل الثنائي دبابات – طائرات الانقضاض عن الجيش التقليدي الضخم لعام ١٩٤٠ .

وبوسع العصر الذري توليد تطور مماثل . وستتحكم بهذا التطور أيضاً قدرات الجمهرات التكتيكية على الاكتفاء الذاتي . ولا يمكن أن تكون هذه القدرات قدرات حقيقية الا ضمن الشرطين التاليين :

---

(١) quadriliage : هو ترتيب من التراتيب الدفاعية عن الدولة . تنتشر فيه القطعات الثابتة أو المتحركة في المناطق الرئيسية على حدود البلاد أو في داخلها وتكون قادرة على احتواء العدو منفردة أو التجمع في نقطة لإجراء معركة كبيرة .
– المعربان –

- أن لا يكون مسرح العمليات مشبعاً بالقوات (إذ أن الجيوش الضخمة في الحرب العالمية الأولى كانت تحقق هذا الاشباع مرفقاً الى مرفق).
- تشكيل سهل لقدرات مقاومة مفرزة صديقة تجاه القوى الرئيسية المعادية ، وزمن التقاء ضروري للقوى الرئيسية الصديقة لدعم المفرزة المشتبكة مع الخصم (وقبل عام ١٧٦٠ كان ذلك مستحيلاً بصورة عامة نظراً لانعدام السرعة والقوة النارية). ومن عام ١٧٦٠ الى ١٩١٠ ساعدت القوة النارية (الدفاعية) ذلك وهونت من أمره ، ثم حدث ازدياد في القوة النارية (الهجومية) فقضى عليه. وابتداء من عام ١٩٣٦ ساهمت السرعة والحماية على ميلاد هذا التشكيل من جديد.

ولمركبات **النخبة والكتل** في مجال التنظيم أثر أقل من المركبات السابقة. كما أن من الممكن أن يكون توزيع القطعات الى مجموعات ذات قيمة مختلفة توزيعاً **قياسياً**. وقد ينتج أيضاً عن **متطلبات قاهرة مادية** لا تسمح بتجهيز جيش من الجيوش بصورة موحدة.

إن التشكيل النظامي لمفرزة من المفارز المنتقاة ، سواء منه التشكيل المعنوي أو المادي يستهدف تحقيق غايتين هما : الاعمال الخاصة — احتياط للمعركة. وفي الحالة الاولى ، تهتم بهذا التكوين ، بصورة رئيسية ، الوحدات الصغيرة المستقلة او المرتبطة بقطعة من القطعات. أما في الحالة الثانية ، فالقطعات في هذه الحالة قطعات كاملة ، أو وحدات كبرى تستفيد الى حد كبير من المبدأ ذاته.

اذن فالقطعات والوحدات المنتقاة تنجم عن عملية انتقاء تأخذ نخبة العناصر الاخرى للجيش. وليس لهذا الانتقاء فاعلية الا اذا جرى على قاعدة واسعة (على الاقل $\frac{١}{٥٠}$). ويتضمن محذوره الرئيسي من خلق مركب للنقص والحسد لدى القطعة العادية. وقد كان يوليوس قيصر يقول : « اذا احتقرتم الجندي ، فانه يحتقر نفسه ». وكان للحرس الروماني (وهو قطعة منتخبة خاصة) تأثير سيء على القطعات الاخرى.

ولقد اتبع دوماً مبدأ ايجاد القطعة المنتقاة « النخبة » الى ان تم خلق الفرقة. وكانت القطعة المنتقاة تحتل مكاناً متميزاً في الترتيب الحربي. فقطعة الحرس الملكي ، وقطعة الحرس الامبراطوري المقدوني تتمركزان على جناح المناورة ، كما ان « القطعة الذهبية المنتقاة » لابامينونداس ، تأخذ مكانها في رأس رتل الهجوم ، ويحتل جنود الصف الثالث في « الليجيون » الروماني الخط الثالث كما كان موقع الالوية في ظل النظام القديم مرتبطاً بأقدميتها ، ويشكل « موئل الملك » الاحتياطي الاخير للقوات. وفي كل فوج سريتان من

أصل ١٦ سرية من خيالة الصدام الممتازين. وقد شكلت نخبة من الجنود فوج «رماة القنابل الفرنسيين». وكان رماة القنابل عبارة عن الاحتياطي الدفاعي ورأس حربة الهجوم، وكانوا يحتكرون لوحدهم العمليات التفصيلية وعمليات الأمن فيما بين المعارك. ويُعتبرون عنصراً ثميناً جداً، فقد قال عنهم الدوق داركور: «انه لأمر مؤسف جداً أن نخسر واحداً من الرماة لاننا نحتاج الى وقت طويل لاعداد مثل هؤلاء الرجال».

وقد فرض النظام الفرقي تعدد القطعات والمفارز من كل الانواع لكل المهمات. واستخلص سان جرمان بعد حرب السبع سنوات النتائج المنطقية لهذا المبدأ: فألغى الرماة، ودمج الأفواج القديمة بافواج مشهورة وقضى على «موئل الملك». وكان هذا العمل مقدمة لحروب الجماهير الثورية. ثم ولدت الوحدات المنتقاة من جديد في الفترة الواقعة بين الامبراطورية الاولى والثانية بشكل «حرس» و «سرايا من النخبة» كانت توضع على أجنحة الكتائب (سريتان من اصل ست سرايا). ثم ألغيت هذه السرايا في عام ١٨٦٥، كما ان تشكيل الحرس، كقطعة تكتيكية، لم يعمر طويلاً بعد مأساة عام ١٨٧٠. واقتصر عمل هذه الوحدات المنتقاة بعد هذا التاريخ على العمل المتخصص للمغاوير.

وعلى العكس، كان من الشائع في العصر الحديث ان يلجأ المسؤولون عن تنظيم القطعات في القوات المسلحة الى تشكيل قطعات من النخبة، وذلك بسبب الفقر في العتاد او الفقر في العناصر المدربة على نطاق واسع. فعندما يكون للضباط والعتاد قيمة غير متناسبة يغدو من المحتمل انشاء وحدات ضعيفة. وبذلك يعم الضعف وينتشر في كل القطعات، أو استخدام عدة مستويات في تجهيز هذه القطعات، ويكون هذا التجهيز مختلفاً تبعاً للقطعات. وقد قبل لودندورف الاسلوب الثاني المتضمن عدة مستويات للتجهيز بالعتاد في عام ١٩١٨ عندما وزع فرقه الى «فرق انقضاض» و «فرق دفاعية» ونجح حسابه هذا فترة معينة من الزمن. ثم اضعف اهتراء فرق الانقضاض الطاقة الألمانية بصورة أكبر، لدرجة اضحت فيها الفرق الدفاعية غير قادرة على تأدية الخدمات ذاتها. ولقد ابرز توزيع الوحدات الفرنسية الكبرى في عام ١٩٤٠ الى فرق من نموذج (آ) و (ب) بصورة واضحة، مساوىء هذا التقسيم، اذ أن النموذجين من الفرق تلقى دفعة واحدة مهمات مماثلة، وهو خطأ لم يرتكبه لودندورف.

فعندما يتحول مذهب من المذاهب الى مرحلة التنظيم الملائمة له، لا يكون كل شيء قد قيل فيه، لان الجدال والنقاش الذي يدور حوله يضع في الحوار اولئك الذين

يطالبون بوسائل المذهب المطلوب ، واولئك الذين يرضون بمذهب الوسائل الجاهزة . ويبدو أن الموقف الثاني يتمتع بالحكمة والتواضع . أما الموقف الأول فلا يمكن دعمه الا اذا مزجناه بالتعقل والتدرج . ولا توجد الموضوعية في مثل هذا المجال ، الا بالنسبة لبنيات قادرة على التلاؤم والتعود في حالة الفقر أو الغنى دون خيانة المذهب ذاته . ويتيح التنظيم شكلاً ثابتاً يحسنه مزيد من العتاد تدريجياً . وبهذا يستطيع التطور ، توسيع المناورة . وجعلها أكثر سرعة وفاعلية ، دون ان يغير من طرقها الاساسية .

وطبقاً للجدول الذي يبين مجالات الفن العسكري نجد **اساليب الحرب** التي تميز كل مذهب . ومن المفيد جداً التوقف عندها ، وخاصة لاننا نتيه في الوقت الحاضر في نعت هذه الاساليب ووصفها ، سواء لان العامل الذري قد ولد اساليب جديدة منها ، او لأننا اضفنا اليها أشكالاً من الأساليب كانت قديمة ، لكن صانعي هــذه الأساليب يخيل اليهم أنهم اكتشفوها .

وعندما يتحدث البعض في هذه الأيام عن حرب تقليدية ، فانهم يرتكبون الأخطاء الشائعة والتي تتكرر بصورة فورية : فالحرب بالنسبة الينا تعني أنها حرب مباشرة في جبهة متصلة. أما بالنسبة لعسكريي لويس الرابع عشر ، فهي تعني حرباً غير مباشرة تقليدية يقودها جيش ضخم ، فلكل الحروب التي يقال عنها إنها حروب تقليدية ، سمة مشتركة **هي التمييز الواضح بين القوات المسلحة والشعوب المدنية ، واستخدام عتاد غير ذري .**

وتتولد الحرب اللاتقليدية من ضرورات قاهرة تولدها التدخلات الذرية أو الثورية . فهناك **حرب ذرية** طالما كان هناك مجرد التهديد باستخدام وسائل ذرية ، حتى ولو كان هذا التهديد تهديداً ماكراً ومخادعاً . ويكفي هذا التهديد لتعديل التكتيك والاستراتيجية . وهناك **حرب ثورية** عندما تبدأ الأطراف المتنازعة صراعها لكسب تأييد ودعم الجماهير المدنية وتضامنها معها **الأمر الذي يزيد من صعوبة التمييز بين المدنيين والعسكريين .** وتجيش الحرب الثورية وتتحرك بعقيدة قادرة على دفع المواطنين المدنيين للانخراط في حرب العصابات والتنظيم السري .

وسواء اكانت الحرب تقليدية ام لا ، فمن الممكن ان تتأثر الى حد كبير بالعوامل السياسية والمعنوية الداخلية أو الخارجية التي تنجم عن عمليات التخريب والعمل النفسي . وعندما يتألف طرف من الأطراف المتنازعة من وطنيين ثائرين (متمردين) تحالفوا مع العدو ، تسمى هذه الحرب **حرباً تشتيتية**. ومن الممكن ان لا تكون الحرب التشتيتية حرباً ثورية عندما يقتصر الثوار في عملهم على طرق الحرب التقليدية . وبهذا الشكل ، فان

تمرد الكاميزار يبقى من أوله الى آخره تمرداً تشتيتياً وثورياً . فالتمرد الملكي لعام ١٧٩٣ هو تمرد تشتيتي ، الا انه كان تقليدياً في عصر «الجيش الملكي الكبير» ليغدو ثورياً بعد مأساة شوليه[١] . وعندما يتضاعف العمل العسكري بضغوط واغراءات تستهدف معنويات القطعة والسكان ، **فالحرب حرب نفسية أيضاً** . والحرب الثورية حرب نفسية دوماً تبعاً للعقيدة التي تحركها .

ويساهم مضمون هذه الطرق المختلفة في توليد **الحرب السطحية** وتتأكد مثل هذه النتيجة بكثير من الطرق . ومن الممكن توليدها خلف جبهة من الجبهات بعمل عصابات الحرب الثورية ، وحرب التشتيت ، او بعمل قوات نظامية تنزل بالمظلات او تنقل بالطائرات . وقد تنجم هذه النتيجة أيضاً من زوال الجبهات أو العجز عن انشائها . وقد كان هناك قبل عصر النظام الفرقي منطقة واسعة من «الحرب الصغيرة» حول الجيوش الضخمة تسلم الى القطعات الخفيفة . وتعمل القطعات التي تخوض الحرب السطحية ـ باستثناء الوحدات الكبرى المنقولة جواً ـ تعمل هذه القطعات غالباً طبقاً **لوسائل الحرب غير المباشرة**. وهذه الوسائل هي الوسائل الوحيدة التي تسمح باستمرار القتال رغم الفقر في الوسائل .

وأثناء الفترة المخصصة «للتكتيكات العظمى» الفرقية ، سمح «التمفصل» الواسع جداً للترتيب المشتمل على وحدات كبرى مستقلة ، بمتابعة « الحرب الصغيرة » في الفترات الفاصلة الكبرى بين المعارك . وعندما يتدخل العامل الذري الذي يتطلب « تمفصل » الترتيب الى جمهرات مستقلة ، تبرز الحرب السطحية من جديد بأشكال مختلفة تستخدم الاساليب المباشرة أو غير المباشرة .

والآن وبعد ان وضعنا هذه النقاط المتعلقة بالتعاريف العسكرية والسياسية فـإن بوسعنا ان ننتقل الى بحث المبادىء الدائمة للحرب .

---

(١) على نهر الموان في مقاطعة الماين واللوار ، دمرت هذه المدينة أثناء حرب الفاندي .
ـ المعربان ـ

الفصل السادس

المبادىء الثابتة

واصحاب نظريات الحرب

لقد وضع أصحاب نظريات الحرب ، عبر كل القرون التي انقضت ، مذاهب مختلفة للحرب ، وقد تعرضت هذه المذاهب لتطورات متسارعة على الدوام . ومع ذلك ، فانها تشتمل على عددٍ معين من المبادىء الأولية المشتركة . وتوضح مقارنة التركيبات التي وضعها هؤلاء المنظرون وجود هذه المبادىء المشتركة الثابتة ، كما توضح علاقاتها مع المذاهب المتتالية .

وقد اشار ماهان وجوميني الى أن مبادىء الحرب لا تخضع لآثار التقنية : فالتسليح ، ووسائل الانتقال ، او وسائل الاتصال تفرض مذهباً يميز استخدامها مع احترام المبادىء . وكان بطء التطور المذهبي ذاته في الماضي هو الذي يسبب اللبس والغموض بين المبادىء والطرق المذهبية ، كلما اتبعت نظرية الحرب التقدم التقني بكثير من الاحتراس . وقد كتب ليدل هارت حول هذا الموضوع ما يلي : « ليس الجيش مؤسسة محافظة فحسب ، بل انها مؤسسة رجعية بالطبيعة ... وتبرهن لنا تجربة يبلغ عمرها اكثر من الفي عام على أن ادخال فكرة جديدة في الفكر العسكري عملية صعبة لا يفوقها صعوبة سوى محاولة تخليص هذا الفكر من فكرة قديمة . » ان تطور التقدم التقني ذو ايقاع يدخل فيه عامل مجهول ، وهذا ما يزيد التوتر بين الغريزة المحافظة ، والحاجة الى الاصلاح . وينتج عن ذلك غالباً ان هيئات الأركان تعالج موضوع القوات المسلحة دون أن تجترىء على المساس ببنياتها الأساسية . فهي تجري بعض التعديلات دون أن تقوم باصلاح جذري . وتعطي

لنفسها غالباً حجة ثبات مبادىء الحرب . ولهذا فمن الامور الأساسية التفريق والتمييز بين المذهب والمبادىء .

وفي غالب الأحيان يتحدث البعض عن مبادىء الحرب دون ان يتفقوا على اصطفاء بعضها ، وعلى فائدتها .

ويرى المارشال دوساكس انه ليس هناك مبادىء للحرب . فقد كتب يقول : « ان الحرب علم مغطى بالظلمات ، لا يستطيع الانسان أن يسير في عتمتها خطـوة مؤكدة : فالروتين والمبررات هي أسسها . وكنتيجة طبيعية لهذا الجهل ... فان لكل العلوم مبادىء وقواعد ، ولكن ليس للحرب مثل هذه المبادىء والقواعد أبداً » . ويقبل مولتكه أن هناك مبادىء ، لكنه يراها مماثلة للحكم الرياضية الاساسية كالحكم التالية : ان كميتين مساويتين لكمية ثالثة هما كميتان متساويتان فيما بينهما . ويضيف بونابرت الى هذا الموضوع ان هناك مبادىء قليلة لا تحتاج معالجتها إلا الى بضع صفحات .

وعندما نبذل جهدنا لتحديد المبادىء التي يتفق عليها كل المنظرين نجد المبادىء الثلاثة التالية :

- الارادة والقوى المعنوية .
- حرية العمل (أو الامن) .
- حرية الاقتصاد بالقوى .

ولا يتضمن المبدأ الأول أي طابع عسكري بالتخصيص . فهو يهم كل مشروع من المشاريع . ويلخصه كلاوزفيتز بهذه العبارات : « لكي ننجح ، من الضروري أن نريد النجاح » .

ويضيف فوش ما يلي : « إن تحطيم ارادة العدو ، هي المبدأ الأول ، فتحطيمها بضربة غير متوقعة وبقوة هائلة ، هو النتيجة الاولى لهذا المبدأ .. اعرفوا ما تريدون ونفذوه » . ويتضمن هذا المبدأ مظهراً ديناميكياً مقيداً بشروط . وقد استخدم بعض أصحاب النظريات في القرن التاسع عشر هذا المبدأ استخداماً سيئاً فيه بعض المبالغة ، فوضعوا اهمية القوى المعنوية قبل كل شيء ، فولد ذلك لديهم ازدراءاً تاماً للنيران .

ويُذكر مبدأ القوى المعنوية أيضاً بالوجود الدائم في كل الأزمان لمعنويات المؤخرات . فلمعنويات المؤخرات نفس اهمية معنويات القطعات ، لأن هناك الحرب النفسية ،

واشكال العمل التي تسمح بمتابعة المعركة رغم تفوق الخصم الساحق (حرب غير مباشرة أو ثورية). واخيراً يُدخل هذا المبدأ وجود أهداف تكون أهميتها النفسية مستقلة عن طبيعتها التكتيكية : كالأماكن المقدسة. ويروي بلوتارك أن خيالة بارت التي لا يمكن ملاحقتها قد أعلمت سيروس أنها لن تقبل المعركة المصفوفة الا فوق المدافن القديمة. وقد قامت أوروبا بثماني حملات صليبية من أجل القدس. وألح كلاوزفيتز على تأثير العواصم في الحسابات الاستراتيجية. فعندما انتقى الألمان فردان في عام ١٩١٦ كساحة معركة رئيسية ، لم ينسوا أنهم احتلوا هذا الموقع في عام ١٨٦٩ و ١٨٧٠ ، وأن هذا الموقع ما زال المدينة القديمة لحلف عام (٨٤٣) الذي حسم تقسيم أوروبا.

أما المبدأ الثاني (حرية العمل) فهو مبدأ عسكري خاص. وقد أنكر كاستكس ودوبني امكانية التمييز بين **حرية العمل والأمن** كما كانت تفعل تعليماتنا في عام ١٩١٣[1] ويبدو أن بوسعنا أن نميز بين **حرية العمل الخارجية والداخلية**.

وقد أبرز فوش، عندما تحدث عن المعارك النابليونية ، صفات حرية العمل الخارجية ، وهي صفات تكتيكية صرفة ، إذ قال ما يلي : « هذه الحرب المتميزة قبل كل شيء بالأمن ، وبفن العمل بأمن ، وطالما كان هذا الفن قادراً على الضرب ، فإن هذه الحرب تتميز بفن العمل بأمان ... فلكي نناور بأمن طيلة الوقت الضروري للمناورة ، فإننا نحتاج الى تأمين حماية كل شيء ، حتى اللحظة التي يستطيع فيها الطرف المعرض للهجوم تنمية قوة حماية قادرة على ايقاف العدو اذا ما اصبح موقفه مهدداً ».

فالهدف من كل هذا هو مجموعة من التدابير القادرة على السماح باعداد وادارة العمليات مع بقائنا في منجاةٍ من المشاريع المعادية. **اذن فهذا هو الامن**.

وتنجم **حرية العمل الداخلية** بالنسبة للسياسة والشؤون الادارية وتعتبر هذه الحرية من طبيعة استراتيجية. ويعبر مارمون عنها بالعبارات التالية : « ان القائد الذي يتمسك بمجده ، يتخلص في العمليات من كل تبعية مطلقة ، وسواء بالنسبة اليه ان امتنع رؤساؤه عن معارضته ، او ان عزلوه من قيادته ». فمارمون يطالب بالحرية الداخلية السياسية ،

---

(١) ان نظام التدريب على قيادة الوحدات الكبرى لعام ١٩١٣ يذكر ما يلي : « من الممكن اعتبار حرية العمل محققة ، وهي فكرة مجردة بعض الشيء ، لم تعرفها انظمتنا حتى الآن ، عندما يجمع القائد قواته ، ويكون قادراً على تطوير مخططه وتنفيذه رغم أنف العدو ... فكلما كان القائد محتفظاً بحرية العمل ، كان من الطبيعي أن يصبح محمياً ضد المفاجأة (؟) هو وقطعته ». وبالاضافة الى ذلك ترجع العقيدة العسكرية حرية العمل الى الأمن الهجومي المخصص للتأثير على الخصم ، ولإحباط مشاريع هجومه.

وهي حرية غير كافية ، فمن المهم بنفس المقدار ان تتلاءم الخطة الاستراتيجية مع الامكانيات الادارية خوفاً من ان تتحطم هذه الخطة وهي في اوج اندفاعها . وينبغي أيضاً أن يكون بوسع قائد الجيش الاعتماد على امكانية تعويض خسائره ، كي يكون جريئاً في خوض المعركة . وهذا ما لم يكن مؤمناً دائماً .

وينبغي أن نشير ايضاً الى أن التركيبات العسكرية الحاسمة قد بعثت الحياة في الطرق القادرة على توليد حرية العمل تبعاً للوسائل والوقت . ويفترض هذا الأمر وعياً جديداً بقدرات التقنية ، وامكانات الاستقلال التكتيكي او الاداري للمفارز بالنسبة للمجموعات . ومن المبالغ به الى حدٍ ما أن نؤكد ان التاريخ العسكري كان مؤلفاً من الحشو الزائف فيما بين اللحظات الحاسمة من فترات الانتقال .

ويتجاوز **المبدأ الثالث** وهو (الاقتصاد بالقوى) الاقتصاد بالقوات العسكرية . اذ يتضمن هذا المبدأ الاقتصاد العام الذي يستهدف **فرض إرادتنا بأقل التكاليف** وعندئذ تدخل الدوافع التي تستحق شن الحرب وطريقة خوض هذه الحرب في حلبة التنافس . وكان من الممكن دوماً اعتبار الحرب كوسيلة صالحة لمنحنا مكاسب تفوق تكاليفها . وفي زمن الحروب الوطنية ، لم يكن من المستطاع توقع ارباح سوى الأرباح المعنوية . أما في العصر الذري ، فالمنتصر ، اذا كان هناك منتصر ، معرض للحصول على مجموعات من الرماد الملوث بالاشعاع الذري .

وفي مجال الطرق والوسائل المتبعة في الحرب ، يحتفظ مبدأ الاقتصاد بمعنى يتضمن مظهراً مزدوجاً للتقرب غير المباشر وتوزيع القوات . وقد وصف هذا المجموع دوماً **بمبدأ الاقتصاد بالقوات** .

وقد قال ليدل هارت : «لا يعطي التقرب المباشر ، في الاتجاه الذي ينتظرك العدو عليه الا نتائج سلبية ، الا في حالة التفوق الساحق . » . إن هذا القول يعبر عن ثلاث ضرورات دائمة :

- تجنب الضربات التي يكون بوسع العدو مجابهتها بأسهل الوسائل ، وتجنب تكرارها بعد الفشل بصورة خاصة .
- اختيار خط غير طبيعي وغير متوقع للتدخل ، مع ابقاء العدو الى النهاية امام شك مؤكد بين الاهداف التي نطمح اليها . وتتطلب مثل هذه الضرورة اتخاذ تدابير مرنة من الممكن ملاءمتها ومطابقتها بين آنٍ وآخر .

- التفكيك المعنوي والمادي للخصم ، هذا التفكيك الذي يُعِدُّ ويُمهّدُ للمعركة ، ومن ثم استثمار هذا التفكك على الخط الاضعف لمقاومة الخصم .

ويفترض التوزيع السليم للقوات التخلص من **القوى الميتة** ، أي القوى التي لا يمكن استخدامها في العمليات التي ننوي القيام بها ، وأن نختار **وحدة الجهد** مع تخصيص أقصى ما يمكن من وسائلنا للمحور الحاسم . ومن المؤكد أننا لن نستطيع القيام بذلك مرة واحدة ، لأن من الواجب قبل كل شيء أن نعرف كل هذه الامور حتى نكون قادرين على الانتقاء . وكذلك فليس من المخالفة لمبدأ الاقتصاد بالقوات أن نشتبك بصورة أولية في كل مكان « لنرى » أين يمكن حسم المعركة . وتكمن الصعوبة هنا في ضرورة الاشتباك دون التورط بشكل نهائي .

والخلاصة: لا تقدم مبادىء الحرب الا أهدافاً ينبغي بلوغها . وتتبدل الطرق وتتغير تبعاً للوسائل التي نملكها في اللحظة الراهنة .

ونحن نرى بين آن وآخر ظهور مبادىء خاطئة معروفة بأنها تدعو الى اتباع طرق عمل مستندة الى أخطاء عارضة او مبادىء جزئية . ومن بين هذه المبادىء مبدأ الأمن بواسطة الهجوم ، ومبدأ التفتيش عن المعركة ، والابتعاد عن الأهداف الجغرافية . لقد كانت هذه المبادىء تشتمل بصورة عامة على تعاريف جوميني التي تمس مظاهر جزئية لمبادىء الاقتصاد بالقوى وحرية العمل ، مع اعطائها شكل « وصفات » مذهبية تتجاوز حدود المبادىء .

وتعتبر الوصفات المذهبية عملاً خاصاً بالكتاب العسكريين ، وهم على أربعة اشكال : **الأساتذة** المرتبطون بالضرورة بالمذهب ومطابقته ، ولا يساهمون في تطوير الفكر العسكري الا مساهمة ثانوية . ولن يكون لهم أي تأثير في المستقبل . على حين يدفع التطوير كل من **القادة العمليين** في الحرب ، وهم الذين يصممون ويطبقون مذهباً من المذاهب . و**المؤرخون التحليليون** الذين يلاحظون آثار التطبيق ، و**المؤرخون التركيبيون** ، الذين يُقَيّمون ميزان هذه الآثار .

لقد كان للتسارع التاريخي صفتان مختلفتان قبل نهاية القرن السابع عشر وبعد نهايته . فقبل هذه النقطة الحرجة ظهرت المؤلفات الرئيسية بفواصل زمنية مؤلفة من قرنين الى ستة قرون ، وقد خلقت هذه الكتب تتابعاً نظامياً بين القائد العملي والمؤرخ التحليلي ، والمؤرخ التركيبي الذي يجمع نتائج المذهب وآثاره في الوقت الذي يذوي فيه ويموت .

واعتباراً من القرن السابع عشر تعاقبت المؤلفات بمعدل مؤلف كل نصف قرن ، وحدث نوع من الاندفاع التسلسلي ، رأينا فيه القائد العملي يقترح مذهباً من المذاهب ، ورأينا آخرين يطبقونه ، ووجدنا المؤرخين المحللين يلاحظون آثاره ونتائجه باتفاقٍ وتعاون ، في حين اتخذ قادة عمليون آخرون مكان المؤرخ التركيبي ، وساروا شوطاً أبعد في تطبيق هذا المذهب . إن ذكر المؤلفين الرئيسيين لا يؤدي إلى التقليل من أهمية الآخرين ، ولكنه يميز حقبة انتقالية هامة . وضمن هذه الروح وضعت أسس موجز المؤلفات المذهبية .

ويأتي فيجيس وماكيافيلي في مقدمة المؤلفين المذهبيين . وبين القرن الرابع الى القرن السابع عشر ، عرف العسكريون المغرمون بالقراءة ، والراغبون بالافادة من قراءاتهم « بحث في الفن العسكري » (٣٩٠) و « فن الحرب » (١٥٠٩) . ومن ثم وجد توربان دوكريسي بأن هناك فائدة لا جدال فيها من نشر أفكار فيجيس ، فكتب « تفاسيره عن أحكام فيجيس » ونشرها . وما كاد عام ١٨٠٩ يحل حتى وجدنا كلاوزفيتز يعترف لفيخته بما يلي : « لقد قرأت ماكيافيلي ، منذ عدة سنوات ، ولكنني لست في وضع يسمح لي بأن أصرح بالتعاليم التي يمكن استخلاصها منه » . ان كل هذه الشهادات تشير إلى أهمية هذه المؤلفات ، والى قيمتها ووزنها ، بالرغم من تطور التسليح .

ولم يكن فيجيس أول من حاول وضع تركيب عسكري . فهو يعترف بأنه استقى آراءه من سبعة مؤلفين لاتينيين ؛ كان كاتون أقدمهم . وهو لا يتمتع بالآراء العميقة ذاتها التي كان يتمتع بها بوليب في مقارنة العقائد الاغريقية والرومانية ، ولكنه يبقى المنظر التركيبي الوحيد القديم في مادة التكتيك والاستراتيجية والتنظيم الرومانية . وتعتبر آراء فيجيس عن المبادىء الثلاثة الأساسية آراءً سليمة . ويعبر عن مبدأ الاقتصاد بالقوى بالعبارات التالية : «حاولوا القضاء على العدو بالتخويف الذي تحدثه اسلحتكم ، وبالمفاجآت بدلاً من المعارك ، فان الحظ هو الذي يقرر مصيرهـا في غالب الأحيان اكثر من قيمتها » . وهو يدعو الى استراتيجية غير مباشرة ، مرتبطة بالتكتيك المباشر .

وبين العصر الذي ظهر فيه فيجيس ، الى أن جاء ماكيافيلي انقضى احد عشر قرناً . ولكنّ هذه القرون لم تكن خالية الوفاض ، لانه ظهر فيما بين القرن الرابع والخامس عشر اربعة مؤلفين عسكريين بيزنطيين مهمين ، سوى أن ستاراً من النسيان قد أسدل

عليهم . وكتاب « موجز في الحرب » لنيسيفور فوكاس (٩٦٠) يعلمنا -ن السبب . إن فيجيس هو صاحب نظرية تفوق المشاة الثقيلة الذي فسر بوليب قدراتها في كتابه عن التاريخ العام (القرن الثاني قبل الميلاد) . ولكن فيجيس يختم حقبة تاريخية لأن تطوراً تاريخياً بدأ في القرن السابع قبل الميلاد ، يأخذ أثره الكامل في القرن الثالث الميلادي وهو : تفوق خيالة الرمي . وفي القرن العاشر يعتبر فوكاس المؤرخ التركيبي لهذه الفترة ، كما كان بروكوب مؤرخه التحليلي في القرن الخامس ، في كتابه « تاريخ حروب جوستنيان ». والاستراتيجية والتكتيك عند فوكاس غير مباشرتين . وعندما بدأ العسكريون في أوروبا الغربية قراءة هذه المؤلفات ، كان التطور قد انقلب تماماً . اذ أن المشاة استعادت تفوقها على الخيالة ضمن اطار مذهب يعتمد على الاستراتيجية غير المباشرة والتكتيك المباشر . ولهذا حظي فيجيس بتأييدهم بدلاً من فوكاس .

وبين ظهور فيجيس وظهور فوكاس انقضى وقت مماثل للوقت الذي انقضى بين فوكاس وماكيافيلي (ستة قرون) . ولكننا نرى فيجيس يعود بصورة مفاجئة ممثلاً بآراء ماكيافيلي ، مع بعض التعديلات التي تمس التنظيم والتشكيلات ، والتي تأخذ بعين الاعتبار دمج الأسلحة البيضاء بالأسلحة النارية . وحرص ماكيافيلي على عدم نسيان مبدأ الاقتصاد بالقوات ، لأن الفترة كانت فترة الكوندوتييري التي تتفق على اطالة الحروب دون القيام بها . ونرى في مؤلفه خمسة فصول مخصصة لفن تجنب الحرب ، وخوضها بصورة غير مباشرة ، وفصولاً أخرى مخصصة للحيل والخدع ، وللأعمال النفسية والسياسية . وهو أول من أشار إلى أهمية المعلومات والى تفصيل مختلف الوسائل للحصول عليها ونقلها . وكتابع مثالي « للأمير » ، يعتبر ماكيافيلي من أكثر المؤلفين العسكريين نزوعاً الى السلم والى مقاومة العسكرية ، نظراً للأخطار السياسية التي تولدها القوة . وقد عَنْوَنَ أحد فصوله بما يلي : « كيف ينبغي على رجل صالح أن لا يتبع الخطى العسكرية كي لا تصبح مهنة السلاح مهنته » ، ويحل مشكلة حرية العمل الداخلي بصورة جذرية ، وقد كتب عن ذلك ما يلي : « ان القائد الذي أتاح عمله لملكه انتصارات ونجاحات يتمتع بالضرورة بهيبة ونفوذ رائعين لدى جنوده ، ولدى الشعب ولدى خصمه . وهذا ما يجعل انتصاراته تثير مشاعر أخرى غير صداقة الملك . فعلى الملك ان يتخذ احتياطاته ازاء قائده . وعليه ان يقضي عليه أو أن ينتزع منه نفوذه .

ثم جاء عسكري مشهور ليختم مرحلة التطور البطيء ، وهو مونتي كوكولي منافس تورين . وقد ظهر كتابه عن مبادىء الفن العسكري بصورة عامة في عام ١٧٠٨ ، أي

بعد قرنين من ظهور كتاب ماكيافيلي . اذ أن آثار التطورات في التسليح التي وضعها غوستاف أدولف (١٦١١ — ١٦٣٢) قد بدأت تظهر . ومع ذلك فقد كان التنظيم هو الذي تأثر أكثر من أسلوب الحرب . ولا يلح مونتي كوكولي على حرية العمل فحسب (أي على القتال عندما نريد نحن ، لا عندما يريد الخصم) كما كتب فيما بعد ، بل على مبدأ الاقتصاد بالقوات الذي يتمثل في السر والسرعة وحشد القوى والتقرب غير المباشر ذاته . وبظهور تورين ، الذي كان في عصره أفضل فنان في المسيرات المعاكسة ، احتفظت الجيوش بالتفوق على الخصم واضطرته الى ارتكاب أخطاء تعرضه للأخطار.

وتعود خاصية مونتي كوكولي وتجديده الى الأولوية التي منحها للجمهرة التكتيتكة على الأسلحة المستقلة . فهو يدعو ويطالب بقطعة مؤلفة من كل الأسلحة بصورة عضوية ، للحصول بآن واحد على الاستقلال التكتيكي والاكتفاء الذاتي للمفارز ، وعلى أفضل ارتباط بين الأسلحة . ويعتبر الذين دعوا فيما بعد في عام ١٩٤٨ الى انشاء « لواء يضم كل صنوف الأسلحة » متأخرين عنه بقرنين ونصف .

وتندفع مرحلة التطور السريع بقائد مشاة صغير هو الشوفالييه دوفولارد . اذ يطبع هذا القائد ستة اجزاء لكتاب يفسر فيه آراء بوليب (١٧١٣ — ١٧٢٧) في خمس لغات بالرغم من معارضات متعددة متطرفة . وهناك شيء رائع هو أن دوفولارد وضع مذهباً ديناميكياً مستنداً الى وقائع تعود الى تسعة عشر قرناً خلت ، تسمح لـه « بمقارنة القديم والحديث » .

ويحكم معظم المؤرخين على دوفولارد بصورة اجمالية بأنه رجل ملهم ، أراد حل كل المشكلات العسكرية بالصدمة والترتيب العميق . حقاً ، انه اقترح كل هذا في وقت كان الجميع يتبادلون فيه اطلاق النار بصورة متواترة دون اقتحام ، وبرهنت المرحلة الثورية ايضاً بأن الصدمة ما زالت صالحة للاستخدام ، وقد نسي الجميع أنه دعى الى اتباع ترتيب للجيش « متمفصل » الى جمهرات تكتيكية ، من الممكن ان تستقل وتكتفي ذاتياً ، وان تتبادل الدعم فيما بينها ، وان يؤمن فيها ارتباط الأسلحة المختلفة في كل مراحل القتال ، وتفتش عن المعركة وانهائها بالمطاردة واستثمار النصر . أي انه كان يدعو الى كل الأشياء التي كان يرفضها خلال القرن الذي عاش فيه . وكان خطـأه الوحيد ، هو ايمانه بالصدمة المتحركة وبدعوته الى تطبيق الرتل الكثيف[1] .

---

(١) Colonne Surpressée

ولكنه يبقى على كل حال ، اول من اظهر ان من الممكن ان يتفق الامر الهجومي مع التقرب غير المباشر . وقد تأكد التكتيك الذي يدعو اليه ، وبدا [illegible] مباشراً اكثر من استراتيجيته . فمن الضروري أن نناور بمسيرات سرية مضادة وسريعة للاشتباك الى آخر مدى عندما تلوح فرصة لمعركة ملائمة . اما اذا احتفظ العدو بالتفوق فان علينا على العكس ان نزدري فكرة الاحتفاظ بالأرض لنناور بمرونة .

ثم جاءت مجموعة مؤلفة من سبعة كتاب اوروبيين ، ودار بينهم جدال حول مقترحات دوفولارد التي أيدها المارشال دوساكس . وفي عام ١٧٥٩ ، قبل المارشال دوبروغلي مغامرة الأنتشار بجمهرات تكتيكية . وولِدَتْ الفرقة ، ورأينا تفتح اسلوب أمن جديد يسمح بفرض المعركة بصورة أسهل من أسلوب فرضها في الماضي . واتصفت الاستراتيجية والتكتيك بالصفة المباشرة .

وبالاستناد الى هذه التجارب ، يقدم الكونت دوجيبير الرسم الاولي للمذهب النابليوني ، في كتابه « دراسة عامة في التكتيك »[1] .

ولقد فُسّر فكر دوجيبير تفسيراً خاطئاً كفكر دوفولارد من قبل أولئك الذين كانوا يرون فيه عكس مضمونه ، ويعتبرونه المدافع الوحيد عن الترتيب الرقيق وعن النار. وقد دافع ، كغيره عن افكاره بزيادة حدتها . أما دوفولارد ، فلكي يدعم نظريته ويدخلها في الاذهان بصورة أفضل كان يجترىء على القول : « إني أترك النار هنا ، ولا أعيرها أي اعتبار » . ورد جيبير على ذلك قائلاً : « لكي تدفع القطعات أذى هذ الأثر العجيب والمميت للمدفعية ، تخلت عن الانتشار بالعمق لكي تأخذ ، وهي على حق ، ترتيباً أرقّ يقلل آثار رمي المدفعية ... ومع ذلك ، ينبغي أن لا نرمي الا عندما لا يكون بوسعنا ان نتقدم » . ولهذا السبب ، لا يعتبر جيبير مدافعاً عن الترتيب الخطي فقط ، بل يرى أن علينا ان نرمي ونحن متوقفون على خط او في مجموعات من الرماة على ان نتحرك على رتل في كل مكان يكون ذلك ممكناً .

وتكمن فائدة مبادىء جيبير في الأسلوب الجديد الذي اقترحه للحرب المباشرة بترتيب « متمفصل » ، اكثر من الجدل الذي أثاره حول « التشكيلات » إذ يقول : « ينبغي ان نناور كلنا معاً في الوقت نفسه ، وان ننتشر دون ان نشتبك ، وان نتقارب

---

(١) essai général de tactique – يقع هذا الكتاب في خمسة مجلدات طبعت في باريس في عام ١٨٠٣

دون ان نفترق ، وان لا نشكل مفارز دائمة » ان ما يقوله جيبير هو تعريف جديد لشروط حرية العمل .

ولقد طالب جيبير بتشكيل فرق خفيفة ، وبشؤون ادارية متحررة من المخازن الثابتة ، وبجمهرات تكتيكية ذات حجم اقل من حجم الفرقة بصورة لا عضوية . وتبدو له فكرة دوفولارد ومونتي كوكولي المتعلقة بالقطعات المؤلفة من كل صنوف الاسلحة فكرة غير عملية ، اذ يقول ما يلي : « ان طاقات حركة مختلف الاسلحة وشروط مطابقتها للارض مختلفة جداً ، بشكل يجعل من المتعذر دمجها ببعضها بصورة وثيقة . وينبغي على الأسلحة ان تتبادل الدعم دون ان تزعج بعضها » . واقد كان على حق تماماً في عصره الذي كان يعيش فيه .

وامتد نفوذ جيبير وتعاظم حتى ان كتابه « دراسة عامة في التكتيك » الذي وجه اليه فردريك الثاني وواشنطن المديح والاطراء ، يُحَيّا من قبل بونابرت بالكلمة البليغة التالية : « إن هذا الكتاب يصلح لاعداد رجال عظماء » .

وبعد زوال الامبراطورية ، اصبح من الضروري استخلاص تعاليم خمسة وعشرين سنة من الحروب ، وبدون تعديل التسليح ، تلقى الفن العسكري دفعة جديدة تمت في اتجاه غدا فيه التقدم التقني مجرد دافع بسيط .

فعلى حين يحلل جوميني في كتابه « دراسة موجزة عن فن الحرب » (١٨٣٧) اسباب نجاح نابليون ، يظهر كلاوزفيتز كمجدد في دراسته عن اهتراء الوسائل النابوليونية . ويكون فيما بعد لكتابه « في الحرب »[1] (١٨٣١) الذي ظهر بعد وفاته آثار مختلفة جداً عن آثار كتاب جوميني وأبعاده .

هنا ويعطي كلاوزفيتز للقوى المعنوية أهمية تعادل الاهمية التي اعطاها دوفولارد للرتل الكثيف وهو يعتبرها عنصراً أساسياً ، وسيساهم هذا العنصر بقلب الاسلوب الامبراطوري من شكله الكثير التفاصيل والحالات الى أكثر اشكاله ايجازاً . وقد أكد كلاوزفيتز ما يلي : « لقد سار نابليون دوماً الى الهدف مباشرة دون ان يهتم بأي حال من الاحوال بخطة خصمه الاستراتيجية » . الا ان كلاوزفيتز رأى ان قرار الامبراطور

---

(١) طبع هذا الكتاب لاول مرة في اللغة العربية في عام ١٩٦٩ - منشورات دار الكاتب - القاهرة .
- المعربان -

بالسير نحو الهدف كان مسبوقاً دوماً بتحليل للاحتمالات ، وأن ترتيبه كان يتجاوب عندئذ مع كل الفرضيات المحتملة . وفي لحظة مسيره الى الهدف لم يكن هناك وجود بالنسبة اليه لأي اثر لكلمة « اذا » ، بل كان لديه فقط « لأن » ، واستخدام الطرق النابليونية الى حد الابتذال قد وَلّدَ لدى كلاوزفيتز ازدراء « الرقة الماكرة المخادعة » . فشراسة الهجوم وعنفه تفضل عنده مهارات المناورة التي تبدد الوقت دون جدوى . ويتلخص مذهب كلاوزفيتز في النقاط الثلاث التالية :

- **إن هدف كل خطة هو تدمير القوات المعادية**
- إن المواقع الدفاعية القوية لا تشكل شيئاً ، **فالاتجاهات هي التي يعتد بها** . والدفاع ليس الا وسيلة لانتظار فرصة افضل ، وهناك اتجاهات لها طابع معنوي .
- **لا** يمكن اجراء القتال بصورة فعالة الا بعمل عام تحشد فيه كل القوى **(عمل الكتلة)**

وبناءً على ذلك سادت فكرة الحرب الخاطفة بحشد يتم مسبقاً ، وبهجوم شرس ومباشر . واستبدل مسير تطويق وتغطية خطوط المواصلات بالتفاف تكتيكي قصير .

وقد كان بونابرت المنفذ العملي لأفكار جيبير ، على حين غدا مولتكه فيما بعد المنفذ العملي لأفكار كلاوزفيتز . ورأينا بعد ذلك جيشه يبني لنفسه انتصارات رائعة ، بفضل ديناميكية المذهب العسكري الذي اعتنقه وبسبب عطالة خصمه ، مع افتقاره إلى حس الامن . وفي اللحظة التي تبدت فيها نظريات كلاوزفيتز مؤكدة ومحققة بأعمال مولتكه ، أبرز الجنرالات الامريكيون في الحرب الاهلية الامريكية امثال لي وجاكسو وشيرمان على النقيض من ذلك ، التقاليد الامبراطورية الخالصة .

ولقد احس مؤرخونا وأساتذتنا العسكريون الذين كانوا في الفترة التي سبقت عام ١٨٧٦ (كاردو ، مايارد ، كامون ، فوش) الى أي مدى حرم نفوذ كلاوزفيتز العسكري الجيش البروسي من ورقات ثمينة ورابحة ، والى أي مدى وضعه في وضع خطر . ومع ذلك ، فقد أثر كلاوزفيتز على مذهب غراند ميزون الى ان ولد لديه فكرة البحث عن الهجوم غير المشروط ، في الاستراتيجية وفي التكتيك . ولنذكر ايضاً ان التقدم التقني الذي سمح باعداد جيوش ضخمة ، واتاح نيراناً قوية ، وتكتيكاً خطياً ، راح يدعم ادعاءات كلاوزفيتز لصالح الأعمال المنهجية والشرسة . ومن المؤكد ان هذا السبب هو الذي جعل تطور الفكر العسكري في هذه الفترة تطوراً ضعيفاً . غير ان كتباً

هامة ككتاب « مبادىء الحرب » لفوش اعادت اعتبار التركة النابوليونية دون ان تتعارض مع كلاوزفيتز .

وكان هناك اذن فكرة مسبقة ملائمة للحروب القصيرة لانها حروب شرسة حاسمة ثقيلة الوطأة . وفي الوقت نفسه أكد البعض قوة الجبهات ومناعتها ، وبراعة المعركة على الجناح (المعركة الالتفافية) . ولم يتنبأ بحرب المرابضة (حرب المواقع) الطويلة أحد سوى الرائد ماير .

في هذه الغضون وضع كولان دراسة تاريخية وعقائدية في كتابه **تحولات الحرب الكبرى** (١٩٠٥) وقد ربط في دراسته مراحل الفن العسكري منذ القدم بأيامنا هذه ليستخلص منها افتراضات المستقبل المباشر . ومن المؤكد ان كولان كان يتطلع الى المعركة الالتفافية على الجناح وتناسق الهجمات على الجبهة مع الهجمات على الجناح ، الا انه كان يرى جيداً ان الاتجاه السائد هو الاتجاه الى استخدام الجبهات المتصلة والمحصنة . وكان يواجه المناورة بتحريك قوات احتياطية مبعثرة بصورة عرضانية لتغذية المعارك الجبهوية . وكان الخرق يبدو في نظره اصعب منالاً في مثل هذه الحالات ، خاصة وان الوحدات المشتبكة ، ستستنزف خلال بضعة ايام . ومن المدهش أن نرى انه يزدري الاهداف الجغرافية ، بحجة ان المناورة ستدفع الثمن مباشرة ، ضمن اطار معركة شرسة لا يمكن تجنبها ، وعلى النقيض من ذلك نراه واضحاً كل الوضوح عندما يأمل تجديد المناورة باصلاح الخيالة والمدفعية التي أضحت غير كافية . وأخيراً ، فانه يجذب الانتباه الى حساسية خطوط المواصلات المتزايدة والى امكانيات اتساع المؤخرات في الحرب السطحية وتبقى الدراسة التي وضعها دراسة دقيقة حسنة التوجه .

ثم مات كلاوزفيتز . وكانت اول ضربة توجه اليه من قبل فون سيكت وماكينزن اللذين دعم لودندورف طرائقهما . واضمحلت أهمية شراسة الهجوم ، والمناورة العنيفة . المنقولة بصورة حرفية لتحل محلها « مناورة ماكرة » لا تقاوم . فالتقدم للحصول على مدى حر ملائم للمناورات لا يمكن الحصول عليه مع الحفاظ على الامانة والولاء لمبادىء كلاوزفيتز . إذ ينبغي ان نستسلم للنجاح اكثر من الادعاء بقيادته ، وان نندفع الى المكان الذي لا يوجد العدو فيه وأن نستخدم القوات الاحتياطية في المكان الذي تتراخى عزيمة العدو فيه دون **الاهتمام باتجاهات مفروضة** . ان مثل هذا العمل يشكل في الواقع ، في جو الحروب الضخمة على جبهة متصلة ، المصدر الاخير لممارسة التقرب غير المباشر . وبعد هزيمة الالمان في الحرب العالمية الاولى ، نجدهم يتمسكون بتعاليم فون

سيكت ، بل ينكبون على ملاءمة نظرياتهم ومطابقتها باستخدام الثنائي مدرعات - طيران الانقضاض .

وظهر ليدل هارت بعد ذلك على مسرح النظريات ، وغدا المنظر الكامل لهذا الاسلوب الجديد من الحرب . ويشبه ليدل هارت الشوفالييه دوفولارد ، ولكن من طراز حديث ، اذ طبع (٢٧) كتاباً من عام ١٩١٨ - ١٩٥٠ . واصبحت كتابات ليدل هارت مصدر ايحاء والهام لهيئات الاركان العامة الالمانية . فقد كتب المارشال رومل بصدده ما يلي : « كان بوسع الانكليز ان يتجنبوا الجزء الاكبر من هزائمهم ، لو أنهم درسوا بصورة افضل نظريات ليدل هارت الحديثة . »

ان الدراسة العميقة والواسعة للتاريخ اقنعت ليدل هارت بثلاثة امور عرضها في كتابه « افكار عن الحرب » ، الذي صدر في عام ١٩٤٤ ، وهذه الأمور الثلاثة هي ما يلي :

- في معظم الحروب الحاسمة تقريباً ، يسبق هزيمة العدو تفكيك توازنه المادي والنفسي . ويُعزى هذا التفكك دوماً الى **التقرب غير المباشر** المحسوب او العارض.
- ان **الحركة** هي العامل الفعال في المعركة . وليست الكتلة .
- ان كلاوزفيتز وتلاميذه قد شوهوا مذهب نابليون . ويتفوق المارشال دوساكس على الامبراطور من دون شك .

فاذا كان دوفولارد يعتمد في مراجعه ومصادره على بوليب ، فان ليدل هارت هو تلميذ جنكيزخان . وانه لأمر طبيعي جداً لان الاول يبشر ويدعو للمشاة ، في حين يدعو الآخر الى الثنائي دبابات - طيران الانقضاض ، الذي سيجدد وقائع الخيالة المغولية . وقبل ان يتطور استخدام الدبابات والطيران الى آخر مداه ، وصف الكاتب الانكليزي - دون أن يرتكب اي خطأ في اقتراحاته - تنظيم الوحدات المدرعة الكبرى الحديثة واستخدامها ، وآثار الحرب غير المباشرة السطحية والحرب النفسية . وتنبأ ليدل هارت مع ديغول وفولر بزوال الجيوش الوطنية الضخمة ، وطالب بان تحل محلها قطعات مختارة محترفة ومجهزة بافضل المعدات .

وبقي ليدل هارت المنظر الاول للحرب الثورية غير المباشرة . ويظهر في كتابه[1]

---

(١) يقصد المؤلف هنا كتابه « الاستراتيجية وتاريخها في العالم » الذي عربه المقدم الهيثم الايوبي ونشرته دار الطليعة في بيروت .

فعالية الثوار (الاسبان والعرب) العاملين الى جانب الجيوش النظامية ، وبارتباط معها ، هذه الفعالية التي يرد اليها الاعتبار من جديد. وقد سحر مذهب لورانس الذي طبقه في عام ١٩١٨ مع العرب ، ليدل هارت لانه يعتبر أن كل عمل عسكري مهما كان نوعه افضل من التقرب المباشر .

وبهذا الشكل ، بوسعنا القيام بجولة الفكر العسكري الموجود في تسعة مؤلفات (والتي يستحق معظمها تكثيفاً بسيطاً) لنكون على اطلاع بالعوامل الثابتة من خلال المذاهب العسكرية المختلفة[1] . وتعتبر هذه الممارسة ممارسة ضرورية لكل ضابط يتجاوز فضوله مستوى الانظمة وكتب استخدام الاسلحة. ومن وجهة النظر التربوية ، لا يمكن أن يكون هناك مادة بديلة. ففي أيامنا هذه يتم التطور التاريخي بسرعة كبيرة ، حتى انه برغم مزايا العلم ونفوذه ، من الممكن ان نعتبر ان كل شيء قد قيل ، وان الحقيقة موجودة منذ الآن وراءنا .

---

(١) في ملحق هذا الكتاب لائحة بـ ١٦ كتاباً يمكن اعتبارها أساساً لمكتبة كل ضابط .
(المؤلف)

الفصل السابع

الأنواع العقلانية

لا تبرز مقابلة المذاهب بعضها ببعض المبادىء الدائمة فحسب ، بل انها تبرز ايضاً مصادر ثابتة للخطأ . إذ يقع المنظرون والمنفذون العسكريون في هفوات المصائد السابقة ذاتها ، سواء بسبب الجهل الثقافي ، او بسبب ثلاثة انواع عقلانية من التفكير :

- **الفكر الهندسي** : (أو الفكر المنهجي) : اذ أن هذا النوع من الفكر يولد تطورات خداعة ، مع أنه ينطلق من قواعد سليمة .
- **الفكر التشبيهي** : ويثير مثل هذا الفكر مقارنات غير حقيقية بين مجالات متعددة من نوعية مختلفة .
- **الفكر التطابقي** : وتفسر عدم كفاية هذا الفكر وجود بعض نقاط الافتراق القائمة بين المذهب والوسائل .

الفكر الهندسي :

يستند الفكر الهندسي الى بساطة خلابة ، فيثبت الافكار في طرق خاصة وجزئية ليعطيها قيمة لا تأخذ بعين الاعتبار ظروف المرجع . ويستخدم هذا الفكر في الغالب القاعدة الثلاثية كسبب من اسباب التطور .

وتصنع الحجة القوية كثيراً من الاشياء في مثل هذه المادة . فقد قيل بعد عهد

يوليوس قيصر : « تلك هي طريقة ابن آمون » ، لكن ديمتريوس خسر معركة ابسوس[1] عندما قلد نموذجه الآلهي دون ذكاء . وقد كان الكثيرون يؤكدون بعد عهد غوستاف ادولف : « لو كـــان ملك السويد حياً لقاتل بهذا الشكل » ، على حين ان تورين وموتني كوكولي هما الوحيدان اللذان يفهمانه . وقد قاد مجد فريدريك الكبير ، — الذي غطى مجد المارشال دوبروغلي — البروسيين الى يينا . ويبقى نابليون « المعلم الذي لا يجادل في كفاءته احد » ، الا أن بوسعنا أن نتساءل : ألم تكن هزائمنا في عام ١٩١٤ ناجمة عن تقليد معركة اوستيرليتز .

فغالباً ما يتجرد الفكر المنهجي من الصفة التكميلية للظواهر العسكرية ، وينجذب بصورة أشبه بالتنويم المغناطيسي ليركز على مظهر واحد من مظاهرها . وفي القرن الثامن عشر ، كان الجدال محتدماً بين استخدام النظام الخطي او العميق ، الا انه كان يهمل حتى عهد جيبير الظروف التي تفرض الحل الاول او الثاني . وكان الوضع على هذه الشاكلة بالنسبة لقادتنا التكتيكيين في عام ١٨٧٠ و ١٩١٣ . اذ كان قادة عام ١٨٧٠ يعطون الاولوية في كل شيء للنار ، ولا يرون في الامور العسكرية سوى « المواقع الجيدة » . في حين كان قادة عام ١٩١٣ يلحون على الحركة ويمنحونها الاولوية ويأمرون « بانقضاض الفرسان » في كل مناسبة . وفي ظل كلاوزفيتز ، نجد ان الالمان يعطون اولوية كاملة للمناورة . اما مولتكه الشهير فلا شيء يسود لديه الا اتجاه مهم واحد . وكذلك شليفن ، نراه لا يجد الا صيغة واحدة للمعركة . ازاء كل هذا لم يتمالك فون برنهاردي نفسه ، فابدى الملاحظة التالية وهو يقرأ مؤلف شليفن : « من الممكن ان يقبل المرء بصورة ضمنية ، ان لا يكون بوسع الخصم الرد على هذه المناورة (التحويطية) .. ويبدو للمرء ان العدو لن يكون بوسعه الا ان يستسلم للتطويق ، وان يستسلم بالتالي للهزيمة » . وبالرغم من ان دوفولارد مصاب بمرض الفكر المنهجي ، الا ان ذلك لم يمنعه من التصريح بهذا الاستنتاج الملائم : « ما التكتيكيون سوى قطيع من الاغنام ، إنهم لا يعرفون الا نوعاً واحداً من القتال » .

وفي مجال التقنية تسمح هذه النظرة الضيقة أيضاً بالمطالبة بالاحتفاظ بعتاد قديم بال لم يعد يتلاءم مع العصر ، وبالتخلص من عتاد نافع يكون التخلص منه نتيجة احكام مسبقة وغير سليمة . ولقد وقف دوفولارد ودوساكس وموتني كوكولي ضد محاولات

---

(١) موقع في آسيا الصغرى ، جرت فيه معركة مشهورة بين القادة ورثة الاسكندر الاكبر (٣٠١ ق.م) . — المعربان —

احلال البندقية محل الحربة . ومن عام ١٨١٥ الى عام ١٩١٤ تخلت الخيالة عن السلاح الناري لتستخدم السلاح الابيض ، وكان غرضها الوحيد من ذلك هو « الحفاظ على روح الخيالة » . وعلى العكس ، في عام ١٨٧٠ ، تملكتنا الدهشة عندما لاحظنا ان دروع خيالتنا كانت تقاوم الرصاص ، وان الخسائر التي كانت تمنى بها هي خسائر الفرسان الذين ترجلوا عن ظهور خيولهم ، وهم يقاتلون من مسافة قصيرة ، او أنهم اصيبوا في الاجزاء المكشوفة من اجسامهم .

ويفترض التطور الهندسي للقوة علاقة بين الكتلة والقوة ، ويؤدي الى اختلال الحركة كما يؤدي الى عجز كثير التكاليف . فالتشكيلات الهائلة لني ودرويه ديرلون في واترلو لم تزعزع المربعات الانكليزية . ويدين رتل ماكدونالد بنجاحه في فاغرام الى تمهيد المدفعية . وفي القدم كانت اعادة مضاعفة الفالانكس المقدوني لا تتيح له أي تفوق . ويعرف العتاد الذبذبات نفسها ، وذلك لان ازدياد الكتلة ايضاً في هذه الحالة يترجم بتناوب مناطق مجدية ومناطق ميتة . ولكل منطقة مجدية غرض مختلف ، وفي كل منطقة ميتة عتاد مختلط غير قابل للاستخدام. فلا يمكن الاعتماد اذن في سبيل تحقيق غرض ، واحد على الازدياد المنتظم لقوة وكتلة العتاد . وقد ساد الفكر الهندسي لدى الفرنسيين بصورة خاصة بحجة الحفاظ على الفلسفة الديكارتية (المنهجية والعقلانية) . وفي الحقيقة فان هذا الفكر يخلط بين الاسلوب الايديولوجي والاسلوب الواقعي .

الفكر التشبيهي

إن استعارات التشبيه مجدية في المجال الكمي (كالرياضيات والفيزياء) . أما الميادين العسكرية (التكتيكية والاستراتيجية) فهي مجالات نوعية . وما يمكن استخدامه كتشبيهات استعارية في الميادين الاولى لا يصح استخدامه بالضرورة في الميادين الثانية . وهذا ما يبرز المضمون المتبدل للاسلوبين المباشر وغير المباشر في التكتيك والاستراتيجية .

فعندما وضع دوفولارد نظريته عن الحرب ، كان القرن الذي عاش فيه مغرماً بالاستراتيجية والتكتيك غير المباشرين (تجنب المعركة والصدمة) . وعندما وجد دوفولارد المدى المجدي الضعيف للبندقية (٢٥٠ متراً) وسرعة رميها الصغيرة ، وضعف آثار نيران الصف ، نصح باستخدام الصدمة . وقد برهنت المرحلة الثورية انه كان على حق . ولكنه كان يفهم ممارسة الصدمة بأرتال كثيفة ، مؤلفة من ٥٠٠ رجل ، وهي

طريقة سيئة . وفي هذا الوقت ، حول دوفولارد الفكر الهجومي التكتيكي الى هجوم استراتيجي يهدف الى الافناء والتدمير . بهذا الشكل تمكنت فكرة « الرتـــل الكثيف » من توليد الحرب الحديثة .

وكان المثل الذي ضربه العقيد غراند ميزون اقل نجاحاً من المثل الذي ضربه دوفولارد وتشير الانظمة الفرنسية بين عامي ۱۹۱۰ و ۱۹۱۳ الى ضرورة الوصول الى حسم سريع بواسطة الهجوم. اما الدفاع فهو بالنسبة للوحدات الكبرى وسيلة اقتصاد محلية بالقوى تسمح له بالضرب بصورة أقوى منها في مكان آخر . اذن فقد أنشأ المذهب الهجوم الاستراتيجي المصمم مع تناوبات محلية للهجوم والدفاع التكتيكيين. وقد أضاف العقيد غراند ميزون الى ذلك مفهوم الامن الهجومي ، المستند الى البداهة والروح المعنوية .

وقد جاء في هذه الأنظمة ما يلي : « إن سرعة الاشتباك هي التي تضمن لنا المفاجأة ، كما أن عنف الهجوم هو الذي يضمن سلامتنا ضد مناورة العدو . ان ما يريد العدو أن يفعله ضعيف الأهمية ، اذ ينبغي علينا ان نعرف موقعه وان نهاجمه لتأمين امننا الخاص ». وتستنتج الانظمة فيما بعد ما يلي : « ان عدم التعقل في الهجوم هو افضل امن .. وينبغي أن نعد انفسنا للطريقة التي نستطيع اقتحام النصر فيها ، وذلك بإعداده بشغف واصرار ، وفي أقل التفاصيل اهمية في التدرب ، وان نعد كل ما يشكل طابع الفكر الهجومي ، مهما كان ضئيلاً . فلنذهب الى حد التطرف ، فحتى لو وصلنا الى مثل هذا الحد ، فقد لا يكون هذا كافياً » .

كان هذا الطلب منطوياً على كثير من المبالغة ، وقد أدى تحول الفكر الهجومي الاستراتيجي الى عبادة للهجوم التكتيكي غير المشروط على كل المستويات ، مع التعرض الى خسائر جسيمة . ولوحظ في ذلك الوقت ان العدو لم يخسر حرية عمله امام اي هجوم تكتيكي أو استراتيجي . وكان من الواجب ان نضيف الى ذلك حشد الوسائل ، وبخاصة حشد الوسائل النارية للحصول على نتيجة مرموقة ، كما كان يدعو الى ذلك العقيد بيتان .

وينتج الخطأ التشبيهي أيضاً من تقدير خاطىء لصفات الابعاد التي تجري عليهـــا المناورة . فمن الناحية المادية ، تتمتع المناورة على الخطوط الداخلية ، والمعركة على موقع مركزي بالمميزات نفسها : اذ يحاول احد الاطراف احتواء مفرزة من المفارز المحيطية المعادية بصورة اقتصادية ، كي يسحق المفرزة الاخرى بصورة افضل ، ومن ثم يعود الى المفرزة الاخيرة بكل قواه مجتمعة . وينبغي ان نؤالف في هذه المناورة ما بين القدرة على الايقاف ، والوقت الضروري للمناورات الداخلية ، وسرعة نقل المعلومات عن

التفوق المعنوي ، اذن فالمساحة الامثل للمناورة مساحة متحولة .

فمساحة مناورة كاستيغليون[1] (١٧٩٦) هي مساحة ضيقة من الناحية المادية ، لا تتجاوز أبداً مساحة معركة لايبزيغ (١٨١٣) . ولكن في الحالة الاولى ، كان النمساويون سلبيين ، وغدت المساحة كافية من الناحية النفسية . أما في الحالة الثانية ، فلم يكن هناك تفوق معنوي كما لم يكن هناك أي تعويض ممكن . وفي ريفولي (١٧٩٦) كانت مساحة المعركة أقل ، الا أن الارض تسمح بفصل وتفكيك الهجمات المتلاقية في الهدف ، كي تقابل كل هجمة منها على انفراد . وغدت مساحة المعركة كبيرة جداً في مناورة غورليتز (١٨١٣) ولم يتوصل نابليون ابداً الى اتخاذ المواجهة . وفي ايامنا هذه تصبح هذه المساحة كافية تماماً بسبب سرعة التنقلات والمخابرات . ولا يمكن ان يتمَّ التمييز بين المناورة على الخطوط الداخلية والمعركة على موقع دفاعي وسط دون اتخاذ احتياطات ، والتشابه والتماثل الاجمالي لا يمكن ان يشكل فيها حجة حسنة .

الفكر التطابقي :

فشلت كثير من الخطط ، وطالت مدة كثير من الحروب لسببٍ بسيط هو عدم تلاؤم وتطابق الوسائل المستخدمة فيها مع الأهداف المطلوب تحقيقها . ففرضت الاساليب التي اتبعت فيها على الوسائل المستخدمة مهمات تجاوزت حدود امكانية هذه الوسائل الى حدٍ مبالغ فيه . ولا يعني هذا المثل الذي نضربه حالة شعوب فقيرة لا تملك من الوسائل المادية ما يسمح لها بدفع تكاليف جيش ملائم ، وإنما يعني هذا المثل عدم تطابق الاساليب وتلاؤمها مع الوسائل في الجيوش الغنية التي لا تتطابق أساليبها مع اهدافها . ويعتبر التطور العقائدي من عام ١٩١٤ الى عام ١٩١٨ في هذا الصدد كثير المعـاني والدلالات .

ففي عام ١٩١٤ كان الخصمان المتنازعان يرغبان بانهاء الحرب بسرعة بواسطة الهجوم . وكان الالمان قد ركزوا آمالهم على التطويق ، اما الفرنسيون فكانت آمالهم منصبة على الخرق المركزي . وطالبت الخطة الالمانية بوجود جناح ضخم لمناورة كبيرة وسريعة ، عـلى حين سحبت القيادة من قوات هـذا الجناح مسبقاً بعض الوحدات ،

---

(١) منطقة في لومباردیا في ايطاليا ، انتصرت فيها القوات الفرنسية على القوات النمساوية .
— المعربان —

وظهر أن الخيالة فيه ضعيفة قليلة التعداد ، ومحرومة من وسائل النيران الفعالة . أما الخطة الفرنسية فكانت تطالب بتفوق هائل في النيران في منطقة الخرق ، على حين كان الرشاش سلاحاً نادراً ، وكانت المدفعية غير كافية . وبهذا الشكل فشلت الخطتان .

ومن عام ١٩١٥ الى ١٩١٨ طرحت المشكلة المزدوجة للخرق واستثمار الفوز . وكانت المشكلة الاولى تتطلب تفوقاً في النيران يتحقق على جبهة واسعة ، في حين كانت المشكلة الثانية تتطلب سرعة استثمار مساوية لسرعة القوات الاحتياطية المعادية ، وامكانية تسوية حوادث المعركة بالعمق بسرعة ودون تمهل .

وحتى عام ١٩١٦ ، كانت كتل المدفعية في ازدياد مستمر ، الا ان هذه المدفعية كانت تلحق بالارتال بصعوبة . وهكذا تم الحصول على الخرق دون أن يتم الوصول الى الاستثمار ، وتذبذب النجاح بين الاستنزاف المنهجي البطيء والضربة الشرسة التي لاعمق لها . واعتباراً من عام ١٩١٧ زودت مشاة الخصمين بوسائل تحررها من وصاية المدفعيين ، وأضحى استثمار النصر ممكناً بهذا الشكل .

وهكذا راح الالمان يضمنون لانفسهم نجاحات تكتيكية هامة بتنسيق تمهيد المدفعية الهائل والقصير ، مع الاستثمار المتحرر من المحاور المفروضة عليه . وكانت السرعة التكتيكية للاستثمار لا تسمح بسبق امداد الوحدات الاحتياطية المعادية الراكبة على عجلات . فينتج عن ذلك جيوب عميقة ومعرضة للاخطار . كما أنهم كانوا قد بالغوا كثيراً في قدرات المشاة وطاقاتها .

وبدأ الحلفاء أيضاً بالمبالغة في تقدير طاقاتهم . وبما أن مرحلة الخرق قد ارتجلت كي ما تسير بسرعة فان هجوم ابريل (نيسان) ١٩١٧ تعرض للفشل . وفي عام ١٩١٨ ، حصل الحلفاء على المبادأة بالعمليات بصورة نهائية بسبب الهجمات المتصلة ، القليلة العمق ، والمتباعدة عرضاً والتي كانت تشن قبل وقتها المتوقع وبشكل دوري ، بغية عرقلة رد الوحدات الاحتياطية المعادية . وبهذا الشكل تأكد النصر .

وقد كانت النية لدى الطرفين هي ذاتها : وهو عدم بذل **جهود متصلة على المحاور المفروضة** ، بغية العمل بصورة دائمة من الأقوى الى الاضعف وبغرض احباط تدخل الوحدات الاحتياطية المعادية . ولم يكن الاسلوب الالماني يهتم الا بالوحدات الاحتياطية المحلية ، وذلك بالتبديل المستمر لمحاور الجهد المحلية . اما اسلوب الحلفاء فكان يهتم بالوحدات الاحتياطية العامة ، وذلك بالتغيير المستمر للجبهات الهجومية العامة . وتستند

الطريقة الاولى على تفوق فرض الانقضاض، في حين تستند الطريقة الثانية الى تفوق المدفعية الذي يسمح بتجهيز عدة جبهات هجومية في آن واحد دون حدوث أزمان ميتة بشكل يتحقق معه التلاؤم والتطابق .

إن تعلم التفكير بصورة سليمة يشتمل حقاً على كثير من العثرات . وبامكان المرء ان يتجنب هذه العثرات بمعرفتها معرفة جيدة . ولقد قال دوفولارد : « عندما يتعلق الموضوع بنبذ بعض المشاعر ، ينبغي على المرء أن يضع في ذهنه مسبقاً ان التمييز بين الحق والباطل عملية صعبة جداً ، وبما انها صعبة فان على المرء ان يكون دقيقاً وصارماً في تحليله وان يتوقع كل الاحتمالات قبل ان يتخذ قراره » .

الفصل الثامن

العوامل الجغرافية والبشرية

تتبدل العوامل الجغرافية والنفسية تبدلاً بطيئاً من وجهة النظر العسكرية ، وبوسعنا دون أي محذور ان نفترض ثبات هذه العوامل . ومن المؤكد ، ان العمل الذي تمارسه الحضارات يجلب لهذه العوامل كثيراً من التصحيحات ، فيعدل قابلية نفوذ المناطق ومواردها بسبب التقدم التقني ، ويبدل الافكار الاساسية التي تتبدل بتبديل السياسة ، سوى أنه يبقى هناك دوماً ارضية ثابتة لا تتبدل .

وتتدخل الجغرافيا في التصحيحات العسكرية على ثلاثة مستويات :

- طوبوغرافية المواقع .
- اختيار المحاور وحواجز المناورة .
- توازن مسارح العمليات .

وتبقى الطوبوغرافيا اكثر العناصر ثباتاً . ويتحرر نفوذها وأثرها تقريباً من الوسائل التقنية ، ويفترض موقع من المواقع ، بالاضافة الى استخدام وسائل النيران ، أن يكون متمتعاً بالرؤية وبقدرات للتدخل أو المنع . فكلما برزت وتأكدت اشكال الارض ، كلما اتجهت الالزامات الطوبوغرافية الى عدم التبدل . ومن الصعب ان نتخذ ، في الوقت الحالي على حدودنا الواقعة في جبال الالب ، ترتيباً « متمفصلاً » مختلفاً كثيراً عن الترتيب « المتمفصل » الذي طبقه برفيك من عام ١٧٠٩ الى عام ١٧١٢ ، ومن الصعب بصورة خاصة ان نحتل

المواقع التي لم يستخدمها هو ذاته . كما ان حدودنا الشمالية ، والدفاع عن خط المياه مازال يأخذ بعين الاعتبار موقع المنشآت القديمة لفوبان . وقد أقيمت منشآتنا الدفاعية في كثير من الاحيان في سوريا وفي شمال افريقيا مكان المنشآت الرومانية . فضلاً عن ذلك ، فان السد المضاد للدبابات في خط ماريت ، الذي اقيم في تونس ، لم يجد حدوداً أفضل له من اخط الحصون الذي اقامه أنسيوس فاوستوس .

وتحتفظ محاور المناروة ، وبخاصة مفترقات هذه المحاور بثبات كبير . ويكفي أن نفتح طلساً عسكرياً لنلاحظ ان ساحات المعارك تتجمع عبر القرون في مناطق معينة . وفي أوروبا تشتهر ثلاث من هذه المناطق هي : عتبة جمبلو ، هضبة كاسل وزاوية الليش والدانوب الاعلى . وفي الشرق الاوسط هناك اختناق « الهلال الخصيب السوري » نحو دير الزور الذي يقدم نفس الصفات . إن هذه الامكنة مفترقات محاور الزامية ، وتولد في غالب الاحيان مناورات متشابهة اذا تساوت الوسائط فيها . وهناك تماثل كبير بين معارك عام ١٦٤٦ (تورين) ومعارك ١٧٠٤ (مارلبورو) ومعارك ١٨٠٥ (نابليون) التي تؤدي كلها الى زاوية الليش والدانوب الاعلى . ولا يقل تماثل موقف الامير دوكونتي في عام ١٧٤٦ وموقف الجنرال بلانشار في عام ١٩٤٠ عن الامثلة التي ذكرناها . فبعض العقد الجغرافية المائية كالعقد التي تشبه السال والايغر والماين والناب تشكل محاور انتشـــار استراتيجية متكررة . فقد برزت قيمة العقدة التي ذكرناها من قبل (زاوية الليش والدانوب) في معارك ١٧٤٢ (دوساكس) و ١٨٠٦ و ١٨١٣ (نابليون) . إن قيمة الحواجز اقل ثباتاً من قيمة هذه العقد ، فنزع الاشجار وتطور المواصلات ووسائل النقل ووسائل عبور الانهار تجعلها تفقد بمرور الايام جزءاً من اهميتها : ففي عام ١٧٤٢ كانت سلسلة الارزغوبرج حاجزاً لا يمكن اجتيازه ، تناور خلفه القوات بأمن . وفي عام ١٩٤٥ لم تكن هذه السلسلة لتتيح سوى حماية مؤقتة للقطعات الالمانية المتمركزة في محرز الدفاع البوهيمي .

وقد سمحت الفائدة الدائمة لمحاور المناورة المتميزة بتفسير بعض الظواهر الغريبة . فقد كان جنرالات الثورة ، باستثناء كارنو لا يتمتعون بأية ثقافة استراتيجية . ولكن لانجرون أظهر العون القيم الذي قدمته لهم مجموعة « مذكرات الاركان » التي وضعت في ظل الملكية والتي درست بشكل واضح المحاور الاوروبية للمناورة . ويكشف لانجرون ايضاً اللثام عن مخالفة الجنرالات الاميين والمنتصرين ، اذ يقول : « من الممكن تفسير هـــذا اللغز بالعبقرية الطبيعية للفرنسيين ، التي تميزهم باندفاعهم في الهجوم . ومن الممكن تفسير هذا اللغز اكثر من أي شيء آخر بتشكيل لجنتهم القيادية من ضباط ينتمون الى سلاحي

المهندسين والمدفعية ، اللذين يجمعان الى جانب المعرفة الكاملة بمسرح الحرب معرفة **مجموعة المذكرات الممتازة للويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر**. وقيام الجنرالات باتباع خطط هذه اللجنة بصورة دائمة بمعركة أريبة ، اذا لم يسمح لهم تشكيل جيشهم بخوض معركة رائعة » . وبهذا الشكل فإن « المجلس الطوبوغرافي » المشهور لكارنو فحص خطة عمليات وضعت أيام حكم لويس الرابع عشر في عام ١٧٩٥ ، فطبقها مورو وبونابرت في عام ١٧٩٦ .

ويتعلق **توازن مسارح العمليات** بالشكل العالمي للجغرافيا العسكرية ، وهو الجيوبوليتيك وكان نفوذها دوماً بطيء التأثير . ولم يتم اكتشاف هذا التأثير الا بعد دراسة عميقة لانتصارات يوليوس قيصر أو جنكيزخان . وكلما كان التقدم التقني يضيق من اتساع العالم ، كانت القدرات الفعالة تأخذ طابع الجدة ، واتخذت من بعد ذلك اهمية يومية في الاستراتيجية . وتعود النظريات الشاملة للجيوبوليتيك الى القرن العشرين ، وتدين بكل شيء تقريباً الى ماكيندر وسبيكمان وكاستكس . وأبرز المؤلفون الانكلوساكسون التباين الاساسي « للعالم القاري أو البري » (كروسيا والصين) ، و « العالم الجزيري أو البحري » (أمريكا والباسيفيك) وبينهما « العالم الساحلي » (اوروبا الجزيرية وآسيا المشهورة بالرياح الموسمية) ، التي تشكل هدفاً للصراع وعامل توازن . وقد أظهر سبيكمان ان مصير « العالم الساحلي » يتحكم بمسائل الأمن . ولم يبرز كاستكس ، من جهته آثار التباين بين القوة القارية والقوة البحرية فحسب ، بل إنه أبرز أيضاً الاهمية الخاصة التي تتخذها أشباه الجزر الجغرافية او السياسية في النزاعات القائمة فيما بينها . وقد أشار أيضاً الى نظام النبضات الداخلية « للعالم البري » ، الذي يستطيع توجيه وتطوير مجموعة من الاندفاعات المتناوبة المتجهة شرقاً وغرباً .

وللعوامل النفسية ثلاثة اشكال موازية لاشكال العوامل الجغرافية وهي :

— غريزة المقاتل .

— الامزجة الوطنية .

— أسطورة المحرض .

وقد كتب أردان دوبيك ، هذا الاخصائي في القوى المعنوية ، ما يلي : « يخضع فن الحرب لكثير من التعديلات ، بالارتباط مع التقدم العلمي والصناعي الخ ... ولكن هناك شيئاً لا يتبدل أبداً هو **قلب الانسان**. وبما أن القتال هو في آخر المطاف مشكلة معنوية فإن كافة التعديلات التي يترتب ادخالها على جيش من الجيوش (تنظيم ، انضباط ، تكتيك)

في وقت معين من اوقات المعركة ، وتطابقها الصحيح مع قلب الانسان هي قضية اساسية . ونادراً ما نأخذ ذلك بعين الاعتبار ، فنرتكب لهذا السبب أخطاء غريبة » . ومن هذا المبدأ ولدت « الدراسات عن القتال » التي تتمتع بقيمة عالمية برغم بعض المبالغات .

ويضيف أردان دوبيك الى ذلك قائلاً : « ينبغي ان نتجنب القيام بدراسة خاصة للانسان بصورة عامة اكثر من اللازم ، مبتعدين بهذا الشكل عن دراسة الانسان من مختلف العروق التي ينتمي اليها .... ولا بد **أن يكون هناك طريقتان لقيادة الروس والفرنسيين تحت النيران** » . وقد كان هذا الكلام صحيحاً جداً حتى ان دولبروك وغروسيه وضعا أطروحة عن أثر الجغرافيا في السلوك العسكري : فالحرب المباشرة الطبيعية تولد من المناظر المتموجة والخصبة ، وتولد الحرب غير المباشرة من السهوب والصحارى . ويذهب كتاب « المخافر الامامية للخيالة الخفيفة » الذي ألفه الجنرال دوبراك إلى مدى أبعد . فهذا الكتاب الذي يعود تاريخه الى الامبراطورية الاولى يحتفظ بنضارة مدهشة ، لا فيما يتعلق بالمعنويات والانضباط في قطعة فرنسية فحسب ، بل في وصفه ايضاً للقطعات الأجنبية في القتال[1] .

واخيراً فان اسطورة المحرض السياسي تشكل في مادة علم النفس النظير المماثل الذي يوازي الاعتبارات الجيو– سياسية . وقد كتب كاستكس ما يلي : « انه لمن الغريب – لكنه امر واقع – ان اوروبا تتعرض للاضطراب ، اثناء كل قرن من القرون الحديثة ، وبفترة زمنية دورية شبه كونية ، ومصدر هذا الاضطراب الذي يمزق الهدوء السائد هو شعب او مجموعة سياسية تطمح الى السيطرة والهيمنة » . ويتوصل كاستكس مؤلف كتاب نظريات استراتيجية الى ان من السهل ايجاد امثلة اخرى على ذلك في مناطق خارج أوروبا . فالموضوع اذن يتعلق بشيء ثابت غير متحول .

ويميز كاستكس بين المحرك المنتظم الذي يستفيد من نظام داخلي ، وبين المحرك غير المنتظم الذي ينجم نظامه عن ثورة من الثورات . ويكون النظام الاخير هو الاقوى بعقيدته وهكذا استطاع كاستكس أن يضع لائحة مشابهة للائحة الاكلينيكية بفضل مقارنات أزمة المحرض والانفعالات التي تولدها .

ولا يكون امتلاك العوامل شبه – الثابتة بصورة واعية وكاملة ممكناً الا بواسطة دراسات تحليلية . ومع ذلك تشكل معرفة طبيعتها مزية كافية كي نعرف كيف نظهرها ثانية عبر كل حالة واقعية ، وهذا هو الشيء المهم .

---

(١) كتب دوبراك ما يلي عن هذا الموضوع : « كانت قطعاتنا المشكلة من جنود شمالي افريقيا جسورة في الهجوم ، وفي مواجهة الأخطار المعروفة ، ولكنها كانت اقل صلابة من القطعات الفرنسية في الدفاع ، نظراً لتأثرها تأثراً بالغاً بالقصف الكثيف وعامل المفاجأة » .

– المعربان –

الفَصلُ التَاسِع

الفكر العسكري

وروح القطعة

تتحكم « روح » معينة بأعضاء كل جماعة اجتماعية . ابتداء من اللحظة التي يفرض فيها عليهم وسطهم ومهمتهم خلفية **مشتركة** من القناعات والانفعالات . وبتأثير هذا الواقع ، نجد في الجيش **روح القطعة** ، **وهي روح** تتسم بها كل العناصر التابعة لمجموعة من المجموعات العسكرية . أياً كانت الشروط التي تعيش ضمن اطارها . ويرتبط الفكر العسكري بوضع المحترفين . اما روح القطعة فترتبط بشدة التقاليد وقوتها . وينشأ كلاهما من الاحساس بالشرف .

الشرف

ليس للشرف معناه الكامل والثابت الا اذا بقي مثلاً أعلى لتضامن جماعة اجتماعية . وليس له مدىً فردي الا تبعاً لوجود جماعة نشيطة او تبعاً لذكراها . إنه لا يعني **علامة أخلاقية** ، بل يعني **فاعلية جماعية** . وتنعكس أعمال اعضاء الجماعة عندئذ تبعاً للقاعدة التالية : « إن من يجرح شعورهم يمسني — ومن يمسني يجرح شعورهم » . ويتأتى الاحساس الشخصي بالشرف من الاعتزاز بالانتماء إلى الجماعة ، والارتباط بها تسلسلياً ، وعند الافتقار الى هذا الاحساس ، يتفرغ الشرف من كل الزام ، ومن كل مدى أو عقاب دقيق . ويُعَرِّفُ المعجم القديم لتروفو الشرف كما يلي :

« **انه اعتراف بالتقدير والخضوع** ، نقدمه لشخص معين بالاقوال وبالافعال ،

وهو علامة خارجية نعبر بواسطتها عن الاجلال والاحترام اللذين نكنهما الى وقار ومقدرة شخص معين. وينبغي أن يحترم كل فرد منّا الله ، والملك ، والقضاة وأبويه ».

إن ما نحتاج اليه اذن بصورة اساسية هو المكانة والكفاءة الضروريتان للانتساب الى جماعة اجتماعية . وفي أسلوب الشرف تغدو المسؤوليات مسؤوليات جماعية . وعندما يقول مونتسكيو : « إن الشرف هو أساس الملكيات » فانه يفكر بكل هذا . ولهذا السبب ايضاً غدا الشرف وآثاره ، في المجتمع الحديث امتياز المجتمعات التي تتمتع بحياة خاصة ، في كل شعب من الشعوب : كالجيش مثلاً ، أو في المجتمعات التي تحافظ على صفات مضادة للفردية ، أو تتمتع بآفاق دولية : كالشيوعية والكشافة .

ولكن كل هذا لا يعني أن الشرف لا يتضمن الا المزايا فقط . فمن وجهة النظر السياسية . ينبغي أن نحفظ أن تنمية احساس الضابط بقيمة الشرف تعني تربيته ليكون صعب المراس في مواجهة بعض المواقف والأوامر أياً كان مصدرها . ومن واجبنا ان نقرأ دعوة بسيشاري[1] **الى السلاح** ، الذي يسير خطها ضمن اطار هذه الروح ، يقول بسيشاري ما يلي :

« يقول الملازم الاول لاباستيير ان واجبنا يختلف أساساً عن واجب المواطن العادي . وهناك فكرة تقول إن الضابط ليس مواطناً . وانه درجة اعلى من المواطن . إنها فكرة متداولة . لكنها خاطئة . فليس الفرق بين الواجبين فرقاً في الكمية ، ولكنه فرق في النوعية ...

« فاما ان نصبح في نوعية لا يمكن ان تقارن ابداً ... او على العكس سيكون لنا في الدولة مكان مخصص لنا . وينبغي ان يتجه كل طموحنا الى الخدمة كموظفين صالحين ووجدانيين .

« وانك ستبشر دون جدوى بأن الجيش هو غير الشعب . وان القيم الخلقية التي يجوز تطبيقها على الشعب لا تطبق على الجيش ... إن لدينا نوعين من المجد مختلفان كل الاختلاف ، لا تستطيع ان تركبهما فوق بعضهما دون القيام بعملية غير نظامية .

« ان مبادىء الجيش ضرورية للشعب ، بالرغم من انها في الغالب مخالفة لمبادىء الامة . وسأقول لك أيضاً ان الفائدة الوحيدة من هذه الآلية التي هي الجيش ، انها تقوم

---

(1) Editions Louis Conard — Jaques Lambert, 27 Rue Bonaparte,Paris.

بدورها لوحدها ... وبواسطة سير حركتها المستقل تجلب للامة مبدأ مفيداً لحياتها .

« نحن لسنا إلا وسيلة من وسائل بلادنا ، الا أننا نشكل هدفاً لذواتنا وللآخرين . وهو هدف مهم بالنسبة للجميع .

« ويستلزم وضع الضابط وجود عقائد ... يستطيع الجميع استخدامها ، والتزامات معنوية خاصة ، بالاضافة الى الالتزامات المهنية ذاتها . إن دورنا هو الحفاظ على مثلٍ عسكري أعلى ، وأن لا يكون هذا المثل عسكرياً على المستوى القومي ، بل أن يكون عسكرياً صرفاً . ففي اليوم الذي نفقد فيه حركاتنا الجنونية الجميلة ، لن نساوي شيئاً ذا قيمة ، وسيعاني هذا الشعب كثيراً من الآلام بسبب انحطاطنا . »

وتذكرنا هذه « القطعة الحماسية عن الشجاعة » بأن احساس الجندي بالشرف يولد لديه القناعة بانه « نسيج وحده » . وتتشكل هذه القناعة على حساب المصلحة العامة ، ولها مزاياها ومخاطرها . فهي تسمح لنا بان نطالب اولئك الذين يعيشون من اجلها بكثير من التضحيات ، وتجعلهم هذه القناعة ايضاً معاندين وحذرين ومعرضين لاتباع سلوك متطرف عندما يقدرون ان القضية تتعلق بشرفهم . ولا يخفي بسيشاري أن نظريات لاباستيير قد تؤدي الى التعصب والى نوع « من الحق الالهي » . ففي عالم يحرم فيه الشرف من كل قاعدة اجتماعية ، لا يمكن ان تنجم حقيقته وواقعيته عن نداء بسيط موجه الى الضمائر . بل انه يتطلب جهازاً « من المسؤوليات الجماعية » « وحرمانات » لاولئك الذين « يخالفون » اوامر الجماعة .

ولم يكن العسكريون الذين عاصروا الجنرال دوبراك يشكون بهذا . واليكم هذا المقطع من كتاب « المخافر الامامية للخيالة الخفيفة » كدليل يشهد على مثل هذا التفكير .

« سؤال : **ما** هو المحرك للانضباط في الحرب ؟

« جواب : انه الشرف ... فاذا كان هناك رجل من بين الضباط لا يتجاوب مع قانون الضمير ، وكان لا يفهم اللغة الابوية النبيلة التي يحدثه فيها قائده ، كان علينا ان لانتردد ابداً عن **طرده من صفوف الحرب** . سواء بارساله ليقود مستودعاً صغيراً على المؤخرات ، او بتسليمه الى **عدالة اقرانه** من الضباط ليحكموا عليه . وتصدق السلطة العليا **احكامهم العادلة التي تؤخذ بالاجماع** ، دوماً ...

« واني أقر بأن من حق كل قطعة يكون محركها الشرف ، بان تحافظ على سلامتها وبان تطرد من صفوفها العضو الذي يسيء اليها » .

وقد يؤدي المثل الاعلى للشرف الى نتيجتين مشؤومتين ايضاً :

المبدأ دون محتوى ولا التزامات محددة، وبالتالي دون مقياس آخر ولا جزاء الا مقاييس وجزاءات كل وجدان فردي .

عندما يكون هذا الشعور في حالة اضطرام الا انه غير موجه ، عندئذ يجعل هذا المبدأ من الجندي خطراً على الانضباط وعلى الدولة .

ولا يمكن تجنب هذه العثرات الا بتحديد محتوى الفكر العسكري وروح القطعة .

الفكر العسكري

يقارن الجنرال ديغول في كتابه « حد السيف »[1] بين العناصر المتعارضة الثابتة القائمة بين الفكر العسكري والفكر السياسي . ويرى ديغول ان هذه العناصر تتكون في الاولى من اوامر جامدة ومطلقة تتسم بنوع من الالزام للعسكري ، في حين تتكون الاخرى من اوامر مرنة تتصف بسمات غير واضحة المعالم .

وقد قال ديغول في هذا الصدد ما يلي : « يستخدم العسكري قوة السلاح الا أنه ينبغي أن تُنظم قوة هذه الاسلحة وتُعَد . فمن اليوم الذي يستلم فيه الجندي السلاح نرى امامنا انساناً يخضع للنظام ، لذا فان النظام لن يتخلى عنه أبداً ، لان النظام أو القاعدة معلم كريم وغيور . يوجه العسكري مضاعفاً قدراته وقابلياته . وداعماً مواضع الضعف فيه . الا ان النظام ايضاً يفرض عليه كثيراً من الواجبات . ويلزمه بكثير من الاشياء محطماً شكوكه ومخفضاً من اندفاعاته . ان ما يطالب به النظام يجعله يتألم إلى اعماق طبيعته كانسان . فهو يطالبه : بالتنازل عن الحرية ، وعن المال ، ويطالبه أحياناً بالتنازل عن الحياة فهل هناك تضحية اشمل من هذه التضحية ؟ ولكن النظام ، مقابل هذا الثمن يفتح امامه مملكة القوة . ولهذا عندما يئن في الغالب من قسوة النظام ، يحافظ عليه بصورة افضل . فهو يحبه ويعتز بالثمن الذي يكلفه احترامه له . ويقول بينه وبين نفسه انه شرفي » .

« فكل ما يصدر عن الاحزاب : من اهواء ومشاعر معلنة ، ومزايدات في المذاهب ومن اختيار رجال معينين تبعاً لآرائهم ، او ابعاد آخرين بسبب افكار معينة يؤمنون بها ،

---

(١) حد السيف Le Fil De L'Epée كتاب للجنرال ديغول – نشر دار الطليعة – بيروت .
– المعربان –

ان كل هذا قد أفسد البنية العسكرية للجيش الذي يستمد قوته قبل كل شيء من **فضيلته** »[1] .

ولا يمكن لهذه السطور ان تكون كاملة المعنى الا في حالة وجود كيان وتقاليد يبنيان بصورة واضحة وصريحة محتوى **القاعدة**. وتكمن مأساة عصرنا في ان الاحساس **بالقاعدة** احساس ما زال باقياً. على حين يمحي محتواها ويزول . فقد اصبحنا مؤمنين بالمثل الكانتية الحالية من كل الزام محدد .

وينبغي أن نلاحظ ايضاً أن تعارض الفكر السياسي مع الفكر العسكري قد يسيء الى الفكر العسكري ذاته حتى انه قد يصل الى حد الطعن بشرعيته ايضاً . وعلينا ان نلاحظ ايضاً أن هناك مفهوماً ارستوقراطياً ديموقراطياً ومفهوماً للفكر العسكري .

وقد أراد اردان دوبيك تشخيص الفكر العسكري والفكر الارستوقراطي فوضع التعبير التالي عنهما في عام ١٧٨٩ . وعزا استمرار جاذبيتهما اللاحقة الى حوادث عارضة صرفة . فبالنسبة اليه : « الفكر العسكري فكر محافظ أساساً (بالمعنى السياسي) فلا وجود لفكر عسكري في مجتمع ديموقراطي ، أي في المجتمع الذي لا توجد فيه أرستوقراطية وطبقة عسكرية نبيلة » . وعلى هذا الأساس ينكر أردان دوبيك وجود فكر عسكري لدى ضباط الجيش الروماني ، ولا يقر بوجوده إلا في المجتمعات الملكية الحديثة : كبروسيا ، وروسيا ، والنمسا . ويرى في هذا الفكر مجرد مبدأ في التفوق قادر على تسهيل القيادة .

« ويحتاج القادة الى وقت طويل كي يعتادوا على القيادة ، وكي ما يكتسبوا الثقة بسلطتهم ، كما أن الجنود يحتاجون الى وقت طويل كي يتمتعوا بالثقة بقادتهم وزملائهم . فلا يكفي الانضباط لتأكيد هيبة القيادة ، اذ يحتاج القادة الى ارادة تنفيذ الانضباط بشكل يتيح فيه هذا التنفيذ انقياد الجنود ، كما يثير الشعور بالخضوع للانضباط ويجعلهم يخافون منه اكثر مما يخافون ضربات الخصم .... ونتساءل الآن : كيف كان الجنود يقاتلون تحت إمرة مونلوك في المجتمعات الارستوقراطية ؟ لقد أبرز لنا مونلوك ذلك ، اذ يقول ما يلي : كان يسير للانقضاض في المقدمة ، ولكنه عندما يتعثر المسير ، يدفع امامه جندياً لا يساوي جلده جلده . ولا يساوره أي شك في صحة هذا العمل ، كما لا

---

(١) المرجع السابق .

يعتريه أي إحساس بالاستحياء . ولا يحتج الجندي على ذلك لان الامر غير قابل للمناقشة او للنقض . أنتم ايها القادة ! افعلوا ذلك في جيش ديموقراطي ، افعلوا ذلك في مطلع تشكيله ، وفي تشكيله فيما بعد ... فهل هناك من لا يرى ان هذا الاهتمام الحقيقي بالمساواة امام الخطر يؤدي الى التردد ، ولا يؤدي أبداً الى التصميم والعزم ...

ولو عدنا الى الماضي ، لبدت لنا نظرية أردان دوبيك نظرية مضحكة . فتعدد اختصاصات الرومانيين في الوظائف السياسية والعسكرية سرعان ما اضحت اختصاصات نظرية خالصة . ونحن نعرف الى ماذا آل الفكر العسكري في الديموقراطيات الالمانية أو الروسية . واخيراً فمن الصعب ان نؤيد الرأي القائل إن ضباط الجيش الملكي كانوا ارستوقراطيين فقط في ظل النظام القديم . فحتى صدور قانون سيغور ، اي في عام ١٧٨١ كان بوسع كل عسكري قادر ، شراء سرية من سرايا المتطوعين وأن يصبح برتبة مقدم على الأقل عن طريق الاقدمية فقط . ولقد عرف التاريخ كثيراً من الهجاء ضد لويس الرابع عشر لأنه أتاح لامكانيات المرء مكانة اكبر من حسبه ونسبه . وفي عهد لويس الخامس عشر كان اكثر من ثلث الضباط في سلاح المشاة من عامة الشعب ، وينبغي أيضاً ان نأخذ بعين الاعتبار التدابير التي كانت تؤدي الى رفع الضباط الى مرتبة النبلاء ، والتي كان يستفيد منها حسب الاقدمية منذ عهد لويس الرابع عشر الضباط الحاصلون على صليب سان لويس، والضباط القادة الجنرالات بصورة آلية . حتى ان قانون سيغور الذي يطالب باربعة انواع من درجات النبلاء لم يطبق في الاسلحة التقنية والقطعات الخفيفة ، وارتكبت فيه مخالفات لدرجة دخل معها في المدارس العسكرية ٧٥٩ تلميذاً من عامة الشعب من اصل ١٧٧٨ تلميذاً .

ومن المؤكد ايضاً أن طبقة النبلاء هي التي كانت « تنظم الاسلوب والعادات » في الجيش الملكي . وكان النبلاء يدفعون ثمن هذا التنظيم نظراً لأن النقباء والعقداء كانوا يدفعون تكاليف إدامة السرايا وثمن المساعدات للمتقاعدين حتى عام ١٧٦٠ . وبالاضافة الى ذلك ، كان هناك من بين العقداء رؤساء عائلات قتلوا بالتتابع خلال ما يقارب قرناً كاملاً وهم على رأس أفواجهم (حالات عائلة رامبور التي كانت تملك فوج بيارن) . ومن الممكن اذن ان ندرك ان هذا المثال الذي يدل على تجرد كامل قد ساهم فيما بعد بنقل انضباط والتزامات الطبقة النبيلة وشرط عدم الشذوذ عنها الى الضباط ، وبخاصة في كل ما يمس الممنوعات الاقتصادية ، وتناقض الوظائف والاشراف على الزواج . وهذا لا يعني ان الفكر العسكري امتياز للانظمة الارستوقراطية ، ولكنه يعني

أن روحه الاصلية **وقاعدته** تدين بالكثير للشعور الارستوقراطي . وينبغي ان نعترف مع كل هذا بأن النظام الديموقراطي هو النظام الأقل ملاءمة له بالطبيعة .

وقد حاول ميشليه في كتابه **جنود الثورة** ان يفصل ما بين الفاعلية والفكر العسكري . اذ انه يقابلها بمفهوم « الجندي – المواطن الناخب ، الذي يمكن انتخابه « والذي يقابله بمفهوم « الجندي الرقيق الذي يتصرف كالآلة بعد أن أذلته القيود العسكرية » . ويدعمه المؤرخ بلوتان بقوة في هذا المعنى ، اذ انه صرح بأن أبطال الثورة لم يسمحوا لأي انحراف عسكري بالنفوذ اليهم .

ويعتقد الاثنان بوجود مثل هذا الجندي الديموقراطي الكامل المعصوم من نقائص الفكر العسكري في جيوش الجمهورية الاولى . وتبدو كل فضائله مرتبطة كل الارتباط بحماسه الجمهوري .

وباعتراف سولت اقتصرت الفضيلة الحربية في القطعات الجمهورية على جيوش ١٧٩٤ – ١٧٩٥ . أما فيما يتعلق بالقادة ، فان الدهشة تتملكنا عندما نلاحظ ان متاعبهم كانت متناسبة مع حبهم للوطن . وان هذا الحب بقي امتيازاً من امتيازات الاقلية . ويعود ذلك أولاً الى ان عدداً من الضباط النبلاء استمروا في الخدمة لغايات وطنية خالصة[1] . رغم هجرة افراد طبقتهم إلى خارج البلاد . ويشاطر هؤلاء رأي لاتورد وفرني القائل : « ان الجيش هو مكان الرجال المالكين. وعندما يهاجر كل الجيش ، سأبقى في فرنسا » . ولقد حصلوا على جدارة واستحقاق أكبر لان هؤلاء الضباط بحسب رأي غوفيون دوسان سير ، كانوا معرضين باستمرار للهجمات واضطهاد المندوبين الملكيين في الجيوش[2] .

ولا يتجرأ سوريل على ادعاء وجود الروح الوطنية لدى كل القادة ، فهي موجودة لدى بعض القادة النادرين ، مع كثير من اللبس والغموض : « ان جوبير وهو واحد

---

(١) في عام ١٧٨٩ كان هناك ٩٥٠٠ ضابطاً ، من بينهم ٦٥٠٠ من الاشراف . وحتى عام ١٧٩١ هاجر ١٣ ٪ من ضباط الجيش الملكي ، وانتسب ٦٠ من بينهم الى جيش كوندي . وفيما بعد اختفى ٤٥ ٪ من ضباط الجيش الملكي من وظائفهم بالاستقالة والاختفاء او الفرار . وفي الاول من مارس (آذار) ١٧٩٣ ، كان ٢٨ ٪ من العقداء العاملين اشرافاً . وفي عام ١٧٩٥ لم يكن قد بقي من الضباط سوى ١٠٠٠ ضابط نبيل في كل الجيش ، أي بمعدل ١٥ ٪ من مجموع الضباط النبلاء للجيش الملكي القديم .

(٢) ينبغي ان نضيف ان المندوبين الملكيين الذين كانوا يدفعون ثمن حماية الضباط النبلاء المهمين بصورة علنية ، كانوا من بين « المعادين للنظام » ، وقد صنع الجلادون مجد بونابرت وماكدونالد .

من أصفى القادة ، ومن بين المتحمسين ، قد قضي عليه وهو في اوج شبابه وفي قمة مجده . انه يحتفظ مع دوسيكس وهوش ومارسو باكليل اول وطنية جمهورية . ويعتبر اوجرو ايضاً رجلاً من العامة غير متسامح ، الا ان قناعاته لا تتمتع بصفاء قناعات مارسو وهوش ، التلاميذ الحقيقيين لروسو .

وانه لمن غرائب الامور ان القادة (الجنرالات) الذين قضت عليهم الجمهورية هم « أصفى » القادة ، ويتحدث روسينيول عن كليبر مادحاً ومنتقداً بآن واحد اذ يقول : « انه عسكري جيد يعرف مهنة الحرب . لكنه يخدم الجمهورية كأنه يخدم طاغية من الطواغيت » . ويتجه حذره كاملاً الى مارسو ، إذ يقول عنه ما يلي : « انه متآمر صغير اندس في صفوف المجموعة ، فاضاعه طموحه وعزة نفسه . إنه يثير قلق المواطنين الذين لا يتصل بهم » . وبالشعور نفسه يصف روبسبيير هوش « بأنه رجل في منتهى الخطورة » وقد أوقف دوسيكس مرتين ، وصودرت امواله ، في وقت كانت فيه أمه في حالة نزع . وأوقف هوش في السجن ، وتوسل الى كوتون بأن يرسله الى المعركة متعهداً بكنس العدو المنتصر خلال ستة اسابيع . وساءت الامور الى درجة كبيرة ، فأخلي سبيله . فقام بواجبه ونفذ منهاجه في عشرة اسابيع ، الا ان كارنو عاد ووقع أمراً بتوقيفه فوراً .

ويبقى القادة الذين تعرضوا الى أسوأ معاملة اكثر القادة تحمساً . ونحن نعرف كيف ان مارسو لم يتوان عن تسليم قيادة جيشه الفعلية الى كليبر ، اذ لم يكن يحتفظ لنفسه الا بالمسؤوليات . كما نعرف كيف طالب هوش حكومة المديرين (الديركتوار) بتطهير الجيش سياسياً مستهدفاً تصفية كليبر بصورة خاصة ، (وعدد من الضباط الذين لديهم آراء مخيفة) في الوقت الذي طالب كليبر فيه بطرد الضباط غير الاكفاء « الذين لم يخلقوا لقيادة الرجال ، وتسنم مراكز يحتاج من يستلمها الى الاخلاق وبعض المعارف » .

ويفسر ميشليه بوضوح كبير اصل الحذر السياسي ازاء الجنرالات بما يلي : « يتملك كل رجل نوع من الرهبة والسرور لدى رؤية الجنرال هوش ، كما يضطرب أشجع الرجال امام نظرات كليبر » . الا أن هذه القوة التي كانوا يتمتعون بها كانت تسبب لهم كثيراً من المتاعب . فأي حذر وترقب يتملك مندوبي الشعب ، عندما يأتون الى الجيوش فيرونها تعبد هؤلاء الابطال ، ولا تريد ان ترى الوطن الا ممثلاً بهم ، فهم يقودون جيوشهم بالحب وكأنما ألغوا السلطة من اجل السلطة المعنوية الاقوى والاكبر ، فقد كانوا هم السادة دون أن يحاولوا ذلك ، وكانوا هم الملوك دون ارادة منهم ... »

فاذا كان هناك من عامل مشترك بين قائدين مختلفين كفوش وكليبر ، فان هذا العامل ليس هو الايمان السياسي . اذ لا بد ان يكون هذا العامل هو عامل التكييف المهني ، وبالتالي هذا الفكر العسكري الذي يبقى ميشليه وأردان دوبيك عاجزين عن تقليصه الى فضيلة حب الوطن والفكر الارستوقراطي . ان هذا صحيح الى الحد الذي يجعل ميشليه يعترف بذلك بسذاجة عندما يقول :

« لماذا لم يكن جنرالات الجمهورية الاولى هؤلاء يفتشون عن السلطة الا قليــلا (كذا) ؟ انهم لم يكونوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا يتمتعون بها في ذواتهم . انهم كانوا يقودون **بموهبة من الطبيعة**، وكأن القيادة فيهم **هبة من السماء**.

وبالنسبة لعسكري من جنودهم ، من البديهي أنهم كانوا مشبعين ايضاً بالروح العسكرية . وسيعترف الكثيرون ويقرون أن نظرية ميشليه « عن القائد المتمتع بالحق السماوي » نظرية خاطئة ، وان من الحكمة عدم تأييدها ، وذلك في مصلحة الجمهورية ذاتها .

روح القطعة

تتغلغل الروح العسكرية في جيش محترف في كل الطبقات دون تمييز في الرتب . وينتج عنها تماسك كبير في انعكاسات التضامن بين افراد القطعة . وعندمــا طالب دوبوا كرانسيه في عام ١٧٨٩ بالتقسيم الاداري للبلاد ، اعتقد ان من المهارة اثارة مساوىء ومفاسد الجنود المحترفين كي يحصل على فصل شامل بين المليشيا التي تعبأ للدفاع ، والجيش المحترف الذي حكم عليه بانه ضعيف الفاعلية[١] .

وكان رد الفعل على اقتراحه فورياً : اذ احتج فوراً عدة ضباط ، كانوا نواباً في المجلس الوطني . اما ضباط فوج ارمانياك فقد تلقوا عريضة من الضباط والجنود نقلت الى وزير الحربية . وتقدم فوج اوفرني بعريضة مباشرة الى المجلس تخلص منها مدعياً « بأن سبب سوء التفاهم الذي وقع ناجم عن تفسير خاطىء » . وفي الوقت الحاضر ، تعتبر عرائض وشكاوى ارمانياك واوفرني أعمالاً لا انضباطية .

ففي جيش تكون فيه الخدمة قصيرة ، يكون هذا النوع من رد الفعل أكثر ندرة

(١) الا ان هذا لن يمنعه فيما بعد من الدعوة الى دمجها في عام ١٧٩٢ ، بناء على طلب القادة (الجنرالات) .

ولا تنتقل الروح العسكرية الا تحت شكل روح القطعة . وتستند هذه الروح ايضاً الى الاقتناع بالانتساب الى قطعة من القطعات ، او بالتبعية الى قائد مشهور .

وقد عرفت روح القطعة قوة استثنائية حتى عهد جيوش الجمهورية الثالثة . فقد كان للافواج ، في ظل النظام القديم اسم وبزة وعلم خاص وامتيازات خاصة . وكان لهم خلال وقت طويل عقيد يرث السلطة . وكان قدم القطعة يشكل نوعاً من حق تصدرها في المعركة وفي العرض . وقد عرفنا ايضاً في عام ١٧٧٦ أفواجاً جديدة ، تتشكل من الافواج « القديمة » بعملية تنصيف[1] ، وتقوم هذه الافواج بالمعجزات كي تستحق انتسابها الى نسبها القديم . وقد أدى ابطال الامتيازات الى الغاء هذه التقاليد والقضاء عليها ، ثم تولى الإبطال التدريجي للتجنيد في المناطق ، وابطال ترقية القطعات بكاملها الغاء التقاليد الباقية . وفي ظل الامبراطورية الثانية كان بوسع بيجو ان يقول في منصة مجلس النواب : « لا يكون الانسان عسكرياً الا عندما يحب علمه ... وعندما يكون مستعداً لحمل السيف بيده ، **في كل مرة يتعرض فيها شرف الرقم الذي يحمله للهجوم** » .

وليس في مثل هذا التأكيد أي شيء من الأفلاطونية . فقد غدّت روح القطعة وباءً حقيقياً من النزاعات ، ومعارك انتظمت صفوفها بين القطعات .

وفي عام ١٧٨٩ تقاتلت افواج « التاج » وافواج « المراكب البحرية الملكية » في شوارع مدينة ليل ضد افواج « الجنرال » و « قناصة النورماندي » وكان ذلك في الحقيقة قتالاً بين المشاة والخيالة . وفي عام ١٨١٧ حدثت في بيزانسون اعمال العنف نفسها بين « قطعات ايزير والسون إي لوار من جهة ، وبين « قطعات الراين الادنى » و « قطعة المدفعية الثالثة » من جهة اخرى وكانت عبارة عن صراع بين الرودانيين (سكان حوض الرون) والالزاسيين . وبعد ستة اعوام عادت النزاعات في طولوز بين القطعة « ٢٢ جبهة » (قطعة الايزير القديمة) و « القطعة ٣ مدفعية » . وفي فردان ، وفي ظل الامبراطورية الثانية ، قام الجنود العرب[2] التابعون للحرس الامبراطوري ، وحملة البنادق باعلان العصيان والقتال في الشوارع من اجل شرف قطعاتهم .

---

(١) Dédoublement أي بقسم القطعة الى قسمين ، وتكملتهما بجنود جدد .

(المعربان)

(٢) Les Zouaves أول جنود عرب جندوا من القبائل في المغرب العربي في عام ١٨٣١ .

— المعربان —

وفي ظل الامبراطورية الثالثة وفيما بعد، تحولت روح القطعة الى روح السلاح او الى جزء من السلاح، دون ان تتمتع بالعنف نفسه. ولقد ذكر بييرميل على لسان بارنافو (الجندي الغر) التعريف الجوهري التالي: «إن روح القطعة هي الروح التي تتضمن ازدراء القطعات الاخرى» واستطعنا في هذه الفترة رؤية مجندين يعلنون عن أنفسهم بأنهم «اولاد بيجار»، كما كان مجندون آخرون يقولون عن انفسهم «اننا نتبع للسيد رامبور» أو يقول احدهم عن نفسه «انا من لواء شامباني».

ومما لا شك فيه ان روح القطعة وسيلة قوية من وسائل تماسك القطعة، وان انبعاثها يبقى ممكناً عندما نقبل تمييزها وتمهيد السبيل أمامها. وان انحرافاتها هامة الى درجة تدفعنا الى المطالبة بتوجيهها بصورة مدروسة ومحسوبة.

ولا يمكن ان يكون هناك روح عسكرية فعالة وسليمة تخرج عن نطاق تعريف **القاعدة** واحترامها. فللقاعدة مظهران، أولهما قطعي تحدده النصوص الرسمية التي تتحكم بالوضع العسكري، وثانيهما تقليدي يتألف من ردود الفعل المعنوية الخاصة بالوسط ــ وبمظهر سلبي بصورة خاصة. فالامر الذي لا يجوز عمله لا يمكن التسامح فيه. وتقع مخالفات القاعدة الصريحة والبينة تحت وطأة الجزاءات الانضباطية، اما المخالفات التي تمس القواعد التقليدية المألوفة فانها تسبب استنكار البيئة.

إن محتوى **القاعدة القطعية** محتوى دقيق، وغالباً ما يكون هذا المحتوى غير متلائم مع الوقت الحاضر. ومنذ زمن سولت حتى هذا اليوم لم يقم أي انسان بعملية إحكام متماسكة. فالنصوص التي وضعت تتعلق بالقيود والامتيازات. وتهتم القيود بالزواج، وبالعجز السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وتهم الامتيازات ملكية الرتبة، وحقوق التصدر، والمنافع المادية والشرعية. وقد زالت معظم صفات القاعدة القطعية في الوقت الحاضر، أو انها زينت بتقاليد جديدة.

ويبقى محتوى **القاعدة التقليدية** سيالاً وخاضعاً لروح القرن ذاته. ومما لا شك فيه انه يرتبط بالفكر الارستوقراطي نتيجة ادعائه بانه مستخدم لصالح افضل الناس، وهو كلام لا قيمة له. ومع ذلك فهنا ايضاً تمحو الحداثة ملامح هذا المحتوى. فنحن نتعرف بصعوبة على أنفسنا عبر فيني ودوبراك او بسيشاري. وهنا يبقى ضرورياً ان نضع تعريفاً

جديداً للقاعدة التقليدية[1] .

ويبدو ان هذا التعريف ذو اهمية كبرى . فبدون بعث دقيق وواضح وموجه للفكر العسكري ، يغدو من الصعوبة بمكان كبير ان نفهم بصورة كاملة ماذا كان يعني هوش. عندما قال للنقيب موريسه : « تذكر دوماً أيها المواطن ، خلال مهمتك المشرفة ، انه ينبغي ان يكون سلوكك سلوك مواطن متفتح الذهن ، وسلوك رجل فاضل وضابط جمهوري وفرنسي . وستبقى مسؤولاً عن سلوك الرجال الذين القي زمام قيادتهم على عاتقك » . وهكذا نرى انه لم يقل للنقيب موريسه « إني انادي فيك قوى الروح العسكرية كي تعرف نفسك بأنك مسؤول تمام المسؤولية عن شرف الجيش » . ولكننا نجد بين الألفاظ التي استخدمها والخاصة بالعصر الذي عاش فيه المعنى الأبدي لنظامه . فالى مثل هذه النتيجة ينبغي ان يتوصل كل فكر عسكري ثابت وموجه بصورة صحيحة .

---

(١) ان هذا الأمر صحيح جداً حتى ان مجلة الدفاع الوطني ، عدد نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٦٠ نشرت نتائج التحقيق الاجتماعي الرسمي الذي قام به م.م غرو وغورون في عام ١٩٥٨ في الجيش ، عندما اشار الى ضرورتين حاليتين للضابط هما :

« ان يعيد التفكير بشروط حياته وطريقة تفكيره ، بتسلسل معين للقيم وذلك بأساليب جديدة » .

« ان يزيد من قدرته على التلاؤم مع التطور ، حتى ولو بدا هذا التطور أحياناً تطوراً عنيفاً جامعاً ، وأن يعيد التفكير في اعداد شخصيته بصورة مستمرة كما يتم في حياة كل انسان . »

(المؤلف)

الفصل العاشر

النزعة العسكرية والنزعة المضادة للعسكرية والحرب

لقد ثلّمت المظاهر المخيفة للحرب وآثارها المدمرة مجد الاسلحة المقاتلة . ولهذا السبب يتعرض الجندي لأشكال مختلفة من النزعة المضادة للحرب . ويتأمل هذا الجندي أحياناً بصمت وسكون هذا المصير الذي جعله خادماً للموت . وعندئذ يحكم على النزعة المضادة للعسكرية والحرب حكماً صحيحاً ، ويجد تبرير هذه النزعة بصورة شبه الهية وبأشكال صوفية أيضاً. ويحتاج الجندي، الذي ليس في الواقع مجرد مصارع عادي،[1] الى ان يعرف ذات يوم من الايام لماذا قُتل رفاقه ، ولماذا تقوم الحرب بعملية اصطفاء مضادة يبقى خلالها أفضل الجنود « جثثاً هامدة فوق الاسلاك الشائكة » .

ويبدو أن النزعة المضادة للحرب شعور قديم قدم الجيوش ذاتها . وتتولد هذه النزعة بصورة عفوية في حالات ثلاث :

١) عندما يعيش الجيش منعزلاً انعزالاً تاماً عن الشعب .

٢) عندما يرى شعب من الشعوب أن جيشه يقف عقبة امام تطوره السياسي أو يرى أن وطنية هذا الجيش وحبه لبلده قد أضحت موضع شك .

---

(١) Gladiateur المصارع الروماني الذي كان يقاتل في السيرك ضد رجل آخر او ضد حيوان مفترس . — المعربان —

٣) عندما يواجه العسكري في الجيش مثلاً عليا فكرية واخلاقية تقض مثله العليا الفكرية والاخلاقية .

وقد برز المظهر الاول لهذه النزعة المضادة للحرب بشكل واضح ، بسبب عدم فهم مجتمعنا في النظام الملكي القديم لجيشه ، اذ كان هذا المجتمع يغتابه باستمرار ويجد لذة في نقده والدسّ عليه . فقد كان بورجوازيو عهد لويس الخامس عشر يؤمنون بأن الجيش الملكي مؤلف من مجموعة من الفاسقين والقوادين فقط . وكانوا لا يخفون ايمانهم هذا ، بل كانوا يصرحون به جهاراً وعلانية . وفي هذا المناخ المضاد ، كان بوسع فولتير ، دون وقوع أي محذور ان يبدي سعادته لموت ٢٠,٠٠٠ لص من جنود هذا الجيش في كل معركة . ورأى الناس أيضاً في الفترة ذاتها رب عائلة يحصل على رسالة ممهورة بخاتم الدولة الرسمي يتهم ابنه فيها « بـأنه اراد الانتساب الى الحرس الفرنسي » . وكان الرأي العام في هذه الفترة معبأً بتقدير عن الجندي المحترف ، يماثل التقدير الذي شكله الرأي العام في أيامنا هذه عن جنود الفرقة الاجنبية عندما يميز بينهم وبين الجنود « المرحين »[1] .

فمؤسسة ضعيفة الانضباط كمؤسسة « المليشيا الملكية » ، كانت تلاقي معارضة من كل الناس ، بدءاً من الفلاسفة ووصولاً الى الاقتصاديين والمجندين لخدمة العلم . والى جزء لا بأس به من العسكريين . وكانت الخدمة العسكرية ، مهما بدت خدمة خفيفة إبّانَ ذلك، تبدو وكأنها لا تشرف أي إنسان. وكان فساد الجيش وانحلاله يبدوان كأمر مؤكـــد إلى حد استطاع فيه « دوبوا كرانسيه » ان يقول في المجلس الوطني في عام ١٧٨٩ : « كيفَ يمكن ضم هذه المليشيا الى الجيش ، اذا لم يطهر هذا الجيش من كل المفاسد الذي استشرت فيه حتى الآن ؟ فهل هناك وطنية تتمسك بشرف افساد الاخلاق ؟ وهل هناك رب عائلة لا ترتعد فرائصه ، وهو يترك ابنـــه وسط هؤلاء اللصوص المجهولين ، لا في خضم مخاطر الحرب ومفارقاتها ، بل لأن وجود ابنه وسط هؤلاء اللصوص أخطر من الحرب ومفاجآتها بمائة مرة ؟ » وقد عرفنا موجة العرائض التي أثارتها هذه الاقوال .

ولا يمكن لمثل هذا الظلم والتجني الاجماعي أن يبرّر ذاته بسبب سوء تصرف بعض

---

(١) joyeux – يطلق هذا اللقب على جنود افواج المشاة الخفيفة الافريقية .
– المعربان –

العسكريين ، سيّما وإن الاحداث قد اثبتت أن الرقباء المكلفين بالتجنيد كانوا يسهرون على نوعية رجالهم . وقد اعتني بعملية الانتقاء هذه بصورة افضل عندما وقع التجنيد مباشرة على عاتق الممثلين الملكيين . وكان قانون ١٧٦٠ يوصي ، برفض قبول «الفارين وعابري السبيل ، والمتشردين ، والذين يشتبه بارتكابهم بعض الجرائم ، او الذين أدانتهم العدالة » . وكان معظم الجنود من الفلاحين ، والصناع ، حتى أنهم كانوا من بين الطلاب الذين ينتمون الى عائلات حسنة . وقد دُعي بعضهم كمورا ولوكورب ومونتبرون لممارسة خدمات كانت مبهرةً جداً . وينبغي أن نلاحظ أن هذا الجيش الملكي وجد في ميشليه واحداً من أقوى المدافعين عنه ومن اشدهم ممارسة له . فلم يطب لميشليه ان يشير الى تجرد هذا الجيش في خدمة الملك فحسب ، بل أشار ايضاً الى صفته الأصيلة التي سمحت له فيما بعد بأن يشكل المنبع الأساسي لجيوش الثورة والامبراطورية . ومن الممكن بدون شك أن نجد لدى أولئك الذين عرفوا اكبر رفعة وسمو ميلاً محزناً الى الخلط بين أموالهم وأموال الدولة . ولكن هذا لا يضعف في شيء مزايا بعض الضباط الاعوان ، المزودين الى حد كبير بجنود ملكيين سابقين . وقد لخص لاريفلير — ليبو هذا الموضوع بملاحظة مسليةً اذ قال : « ليس هناك أشرف من الجندي الفرنسي ، حتى رتبة نقيب » . وينبغي أن نعترف ، كي ما نجد العذر للآخرين أن المرتب كان ظاهرة موقتة في هذه الأيام المضطربة .

والمظهر الثاني من النزعة المضادة للعسكرية مظهر براجماتي خالص . وهو يمثل حالة من الحذر يمارسها حزب من الأحزاب أو أمة من الامم ازاء جيش محافظ متهم بعدم حساسيته « لميل التاريخ » . وفي مثل هذه الحالة لا نجد بعداً كبيراً بين الشعارات التي تبدو في ظاهرها شعارات متناقضة : « يسقط الجيش » وشعار « الجيش معنا » فالشيوعية الفرنسية لا تنادي الا بنزعة تكتيكية مضادة للعسكرية ، فهي تتعرض للجيش ، كما تتعرض لحاجز من الحواجز ، بيد أنها تمجده أو تغطيه وتحميه عندما تقرر الاتفاق معه . وعندما تعتلي منصة الحكم ، يغدو جيشها طبقة متميزة كما هي الحالة في روسيا .[1]

---

(١) ان هذا الموقف لا يحمل في طياته أي تناقض . فالاحزاب الجماهيرية في الدول البورجوازية لا تقف ضد الجيش او معه لانه قوة مسلحة ، أوعائق أو حاجز كما يذكر المؤلف ، ولكنها تستقي مواقفها من اهداف هذا الجيش ومهماته وتكوينه . فان كان جيشاً شعبياً يعمل للدفاع عن مصالح الجماهير وأهدافها وحماية الوطن من كل اعتداء وقفت الى جانبه ودعمته بكل قوتها . اما اذا كان جيشاً يقف ضد الجماهير ويشكل جزءاً من ادوات القمع بيد الطبقات المستغلة سواء كان الاستغلال داخلياً أم خارجياً فإنها تقف ضده وتظهر نحوه كل عداء . — المعربان —

واكثر الاشكال تواتراً في النزعة المضادة للعسكرية هي النزعة الى السلام. فالمفكر وصاحب العقيدة يضعان قيمهما البناءة مقابل القيم العسكرية التي يعتبرونها قيماً مشؤومة. فهما يطرحان التأمل مكان العمل. والالتزام مكان المفوض السياسي. إن هذا الاتجاه قديم جداً حتى ان اقدم رسائل القدح المضادة للعسكرية فرعونية. وتنتهي احدى هذه الرسائل بهذه الأقوال الدالة: « لقد رأيت العنف، فالعنف في كل مكان! لهذا أعطِ قلبك لهذه الرسالة. اكتتب لهذا العمل! »

وقد أحدث تقدم المسيحية في أواخر عهد الامبراطورية الرومانية مرضاً عقلياً حقيقياً سببه يقظة الضمير ومعارضته للعسكرية، وكان لهذا المرض أعراضه التي نعرفها جيداً. فقد امتزجت هذه المعارضة ايضاً برفض التجند للخدمة الاجتماعية وعدم الاقبال عليها، حتى أن هذا الرفض انتشر الى حد كبير، مما حدا بالقديس اوغوستان الى مقاومة هذا السلوك الذي يستهدف، في رأيه، الى احداث الفوضى في الجنة الارضية. وبوسع المرء أن يتفهم جيداً تمرد « الليجيون » التيبيني[1] الذي رفض التضحية بنفسه للآلهة. وكان يعتبر انه مدفوع الى القتال ضد شعوب متهمة بالجريمة ذاتها. ومن الصعب تبرير حالة سان مارتان، ذلك الضابط الروماني الذي انذر رؤساءه عشية المعركة (التي لم تحدث) بأنه سينقض على رأس وحدته المؤلفة من مائة جندي بدون سلاح: فقد كان يطلب الموت الا انه كان يرفض ان يقتل أحداً من خصومه. وينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار أن سان مارتان لم يكن ضابطاً متطوعاً، وانما كان عسكرياً رغم أنفه بسبب وراثة الجندية أباً عن جد. وربما جعلت منه الوراثة هذه رجلاً يتمتع بموهبة استثنائية تخوله بأن يصبح الاسقف الاول للغاليين. وعلى كل حال، فان موقفه يبقى موقفاً مرفوضاً على المستوى المهني والسياسي.

وفي وجه كل هذه الادعاءات، نرى العسكري يقدم عقيدته الخاصة به، فهو يدعي ايضاً بأنه يقدم للامة قيماً خلاقة تبني وتصون، ويعتبر ان المفكر وصاحب العقيدة لا يعيشان ولا ينموان الا في ظل الحماية التي يبسطها درعه عليهما، حتى انه يؤمن بانه الشعاع التاريخي الموجه لاحلامهما. فلولا يوليوس قيصر لما كان هناك وجود لحضارة

---

(١) فرقة تيبين التي كان يقودها سان موريس، رفضت التضحية للآلهة وذُبحت تحت حكم ديوكليتيان (امبراطور روماني ٢٤٥ - ٣١٣) هو الامبراطور الذي حاول معالجة الفوضى العسكرية في امبراطوريته واعاد تنظيم هذه الامبراطورية.

— المعربان —

اغريقية ــ بوذية ، ولولا فرسان الله ، لما كان هناك وجود للاسلام . ولولا الحروب الصليبية لما كان التعايش بين الشرق والغرب . ولولا جيوش مارسيليا لما كان هناك وجود « لمبادىء ٨٩ ــ الخالدة » على مستوى اوروبا .

ولم يكن بيجي مخطئاً عندما قال متحدثاً عن المسيح ما يلي :

سارت خطوات الفيالق من اجله
وكان هو الذي يسير خلف الروماني
خلف المحافظ ، وخلف الكتيبة
وكان هو الذي يمر من هذا الباب الكبير
كان سيد الامس ، وسيد الغد[1]

ولا تنتج النزعة الحربية الصالحة لمحترفي السلاح عن وضع متميز في الدولة ، ولا عن قوّة دافعة قومية وعدوانية « كقوة المحرض » . انها ليست دعوة الى « الحرب المرحة » ولا مادة بديلة للقوانين الداروينية في الكفاح من اجل الحياة او المجال الحيوي ، ولا ايماناً بفضائل الاصطفاء الحربية . ان هذه الاسباب لوجود هذه النزعة أسباب خاطئة فهي أسباب لا تبرر . فعندما كتب مولتكه : « ان الحرب مقدسة ، ومن سنة الهية ، فهي تنمي لدى كل الرجال ، ولدى كل الكبار ، العواطف النبيلة كالشرف والشجاعة ، وتمنعهم من الوقوع في المادّية البشعة » كان مولتكه ، عندما كتب ذلك يخدع نفسه . فالحرب تحرك العواطف السيئة والحسنة في الوقت ذاته . انها تقود كل شيء الى أعلى درجات الشدة .[2]

---

(١) Editions Gallimard « EVE » Péguy

(٢) قام ج بوتول بدراسة عميقة لاسباب الحرب ، بهدف التأثير عليها والتقليل منها دون ان يدعي ادانتها او تبريرها .

وقد اعترف ان أي سبب من الاسباب التي يقدمها علماء الاجتماع بصورة اعتيادية لا يشكل سبباً حاسماً تماماً : تقديس الحرب او تقديس الوظيفة العسكرية ــ عقد حرمان الحق وعقد الذنب ــ المطالب الاقتصادية ــ التضخم السكاني المطلق . وتستطيع هذه الظواهر تشكيل ظواهر خالصة تنضم الى اخرى بصورة مبررات او مقويات .

وقد تقدم بالفرضية التالية دون ان يعتبرها نظرية في الطاقة النفسية والبشرية . ان الحرب ظاهرة من ظواهر =

ويقول لنا دوميستر إن « الحرب شيء الهي » الا انه لا يدعي أنها مقدسة . فهي بالنسبة اليه وسيلة من وسائل التضحية ، ونتيجة حتمية للذنب ، ووسيلة للتكفير عن الذنوب ، وطلب الغفران من أرواح القديسين لاستعادة المكانة . ويملك جوزيف دوميستر الجرأة لتأكيد الفكرة الميتافيزيقية التالية عن الحرب : ان الله هو مصدر القصاص المجدّد للحياة . فلنستمع الى قوله التالي :

« .... لم تصرخ الأرض بلا جدوى : فالحرب تشتعل ... ولا شي يقاومها . ولا شيء يستطيع ان يقف في وجه القوة التي تقود الانسان الى القتال . قاتل بريء وأداة سلبية لايمان مخيف . فهو يندفع الى الحرب وقد دفن رأسه في الحفرة التي حفرها بنفسه . إنه يعطي الموت ويتلقاه دون ان يشك بأنه هو الذي يصنع الموت .

« وسيبقى تراب الأرض معجوناً بالدماء ، ولسوف تبقى الارض مذبحاً كبيراً قرابينه من البشر . وستتابع القرابين بلا نهاية وبلا حساب وبدون توقف الى ان تستهلك الاشياء استهلاكاً تاماً ، والى ان ينطفىء الشر ، ويموت الموت ...

« فالحرب اذن الهية في حد ذاتها نظراً لأنها قانون العالم ....

= الكثرة والفزارة (تضخم وزيادة في عدد السكان والطاقة) . وهي تتطلب مزيداً من الرجال والمواد ولا يدين هذا الفائض بشيء الى وضع الشعوب المجاورة للمحرض ، بل انه يشكل ظاهرة داخلية صرفة يولدها « التركيب المتفجر » لسكانها ، الذين يشعرون بكثرتهم ووفرتهم وشبابهم . ولا تكون الاسباب الاخرى اذن سوى مظاهر سببها هذا التركيب .

هذا الفائض بشيء الى وضع الشعوب المجاورة للمحرض ، بل انه يشكل ظاهرة داخلية صرفة يولدها « التركيب المتفجر » لسكانها ، الذين يشعرون بكثرتهم ووفرتهم وشبابهم . ولا تكون الاسباب الاخرى اذن سوى مظاهر سببها هذا التركيب .

ويستنتج بوتول من ذلك أن الحرب عندئذ ليست الا وسيلة من وسائل تنظيم السكان . وهناك وسائل اخرى ، كالمجاعة ، والاوبئة ، والفاقة ، والعبودية ، والزهبنة ، والمالتوسيه ، (نسبة الى نظرية الاقتصادي مالتوس) ، من الممكن ان تكون لها فاعلية الحرب ذاتها : فهي اما ان تمنع تناسل الشباب او تعطيهم الفرصة للوفاة .

وفيما يمس الاسباب العقائدية الصرفة التي قدمها دوميستر ، يبدو ان ج . بوتول لم يفهم اساسها بصورة جيدة . فالامثلة التي نقدمها تجعلنا نفكر بان دوميستر متفق مع مولتكه ، وهو امر خاطىء – ولقد بدا انه من سداد الرأي ان نذكر بموقف دوميستر فيما يتعلق « بعقيدة ابراهيم » . فاذا كانت هذه التضحية تتضمن ارادة التضحية لدى الاب (وهو الزعيم – وهو الدولة) فهي تتضمن ايضاً قبول الابن (المواطنين) بالتضحية . وهذا بالفعل ما يعترف به بوتول بصورة بينة وواضحة ، عندما يستشهد « بموافقة الجماهير الراضية مسبقاً بنكبة عامة اعتبرتها نكبة لا يمكن تجنبها » .

« إن الحرب الهية في المجد الغريب الذي يحيط بها ، وفي الجاذبية التي تدفعنا اليها ، وهي جاذبية لا يمكن تفسيرها .

« والحرب الهية في الحماية التي تتيحها للقادة الكبار ، ولاكثرهم تعرضاً للمخاطر ، الذين نادراً ما يسقطون صرعى في المعارك ، وهم يسقطون فقط حينما لا يمكن ان ترتفع سمعتهم الى مكانة أعلى ، وتكون مهمتهم قد انتهت تماماً .

« والحرب الهية بالطريقة التي تُعلن فيها . وانا لا أريدُ أن أتهم اي انسان اتهاماً في غير موضعه ، ولكن كم من المرات اندفع اولئك الذين ننظر اليهم على انهم المسببون المباشرون للحروب ، كم اندفع هؤلاء الى الحرب بتاثير الظروف ....

« ان الحرب الهية بنتائجها التي لا تخضع للبحوث أو الدراسات البشرية : لأن هذه النتائج قد تكون مختلفة كل الاختلاف بين شعبين ، بالرغم من ظهور العمل الحربي متساوياً عند كلا الطرفين . وهناك حروب تمتهن كرامة الشعوب ، على حين هناك حروب تذكي هذه الكرامة ، وتسمو بها من كل النواحي .

« ان الحرب الهية بالقوة التي لا يمكن تحديدها ، والتي تحدد مرات النجاح فيها .. »

وها هو جوزيف دوميستر يفتح أبواب الخوف اذ يقول :

« هناك خوف مرعب ينزل في أكثر القلوب شدة وبأساً ، فيبرده ويقنعه بانه مغلوب[1] . هذا هو البلاء الرهيب الذي يبقى معلقاً فوق رأس الجيوش . وقد طرحت في يوم من الايام السؤال التالي على عسكري من الصف الاول[2] : قل لي يا سيدي الجنرال ، ما هي المعركة الخاسرة ؟ فأجابني بعد لحظة من السكوت : « لا أعرف عنها شيئاً » . وبعد لحظة صمت أخرى أضاف : « انها معركة نعتقد اننا خسرناها » .

« تذكر يا سيدي الكونت الرجل العسكري الشاب الذي تعرفه معرفة خاصة ، ذلك الشاب الذي كان يصور لك في يوم من الايام في احدى رسائله هذه اللحظة المجيدة التي يحس بها جيش من الجيوش بتحركه الى امام ، وكأنه ينزلق على مستوى مائل ، دون

---

(١) راجع الذكاء والقيم المعنوية في الحرب – تأليف الجنرال جان بيريه – منشورات دار الطليعة – بيروت .
(٢) « أمسيات سانت بطر سبورغ » لجوزيف دوميستر – راجع المرجع المذكور في (١) ص ١٤٩ – ١٥٠ والصفحات التالية .

(المعربان)

ان يعرف لماذا . واني لأتذكر انك تأثرت بهذه الجملة التي تعتبر في الواقع تعبيراً رائعاً عن اللحظة الحاسمة . سوى ان هذه اللحظة تفلت من التفكير والتأمل ، وانتبه بصورة خاصة الى ان الموضوع لا علاقة له بالعدد في هذه المشكلة على الاطلاق .

« ان الخيال هو الذي يخسر المعارك .

« واني أتمثل لنفسي بسهولة فصلاً من هذه الفصول المخيفة : على ارض واسعة مغطاة بكل أعاجيب المجازر ، والتي تبدو كأنها تتزلزل تحت أقدام الرجال والخيول ، وسط النيران وزوابع الدخان ، يطيش صواب الانسان ، وتنفعل مشاعره ، بدوي الاسلحة النارية وآلات القتال ، وبالاصوات التي تقود ، وهي تزمجر او تنطفيء ، محاطاً بالموت ، وبالذين ينازعون الموت وبالجثث المشوهة ، يتملكه الخوف حيناً ، والأمل حيناً آخر ، ويستولي عليه الغضب مرة ثالثة . فما هو وضع هذا الانسان الذي تنتابه المشاعر المختلفة ؟ وماذا يرى ؟ وماذا يحس خلال بضع ساعات ؟ وماذا يستطيع أن يفعل بنفسه وبالآخرين ؟ فمن بين هذه المجموعة من المحاربين الذين حاربوا غالباً طيلة النهـــار ، لا نجد من بينهم واحداً فقط يستطيع ان يعرف أين المنتصر . حتى القائد ذاته لا يستطيع ان يعرف .....

« ... علينا إذن يا سيدي الفارس ان لا نتكلم ابداً عن كتائب كبيرة لانه ليس هناك فكرة اكثر سخفاً وخطأً منها اذا ما اقتصرناها على المعنى الذي اعتقد أنني فسرته بوضوح كبير[1] .

« ... واخيراً ايها السادة ، إن وظائف العسكري رهيبة ، غير انه من الواجب ان ترتبط هذه الوظائف بقانون كبير للعالم الروحي ، وعلينا ان لا نندهش اذا علمنا ان كل شعوب العالم قد اتفقت على ان ترى ايضاً في هذه المصيبة شيئاً الهياً بصورة خاصة أكثر من المصائب الاخرى . فهل تعتقدون ان اسم « اله الجيوش » ، الذي يلمع في كـــل صفحات الكتب المقدسة يلمع دون سبب كبير وعميق ؟ » .

ولكل هذه الاسباب ، استطاع دوميستر ان يقيم خطه المتوازي المشهور بين الجندي

---

(١) كانت فكرة دوميستر في هذا الموضوع مركبة من المعنويات ، والكتلة ، والحركية وهي فكرة مألوفة لدى كل العسكريين .

(المؤلف)

والجلاد . كلاهما بريئان من الدم المسفوح ، خادمان لايحبان الموت . سوى أن الجندي لا ينفذ الموتَ بلا ثمن ، بل إنه يضع في الميزان حياته الخاصة ، انه يقاتل ، وهذا ما ينقذه من الخزي والعار ، ومن السمعة المشؤومة لمنافسة الجلاد .

ان صوفية « أمسيات سانت بطرسبورغ » ليست فكرة من الافكار التي يمكن اعتناقها بسهولة ، اذ لا يعتنقها بسهولة سوى المؤمن : فهي تتطلب الايمان الضمني بالخطيئة الاولية وعودة الامجاد . ومن السهل تحويل مجراها وتوجيهه نحو الحرب المقدسة ، طبقاً لدعوة مولتكه . ومع ذلك فلهذه الفكرة أشكال علمانية واعية الى حد ما ، ومرتبطة بمثل عليا في التطور الوطني او الانساني . فلكل شيء ثمنه . ولا تلد الانسانية المستقبل إلا وسط الألم والدنس . ودون ان تملك ارادة هذه الولادة بهذا الشكل ، لا تتوصل الى اشكال انسانية عليا الا عندما تكون التضحيات هي الثمن ، ضمن الحد الذي خدعتها فيه شروط التطور . وهذا الكلام لا يعني أن لكل الحروب نهاية تلبي هذه الشروط وتتوافق معها .

فاذا خرجنا عن هذا المفهوم ، انزلقنا الى « براجماتية » ماكيافيلي . وعندئذ من الممكن ان نفهم « كيف ينبغي على الرجل الصالح ان لا يتبع الخطى العسكرية كي لا تصبح مهنة السلام مهنته ..... ولم لا ينبغي على الدولة ان تسمح لرعاياها او مواطنيها بأن يمتهنوا مهنة السلاح نظراً للآثام التي سببتها .... وكيف يدعونا الواجب إلى ان نتلافى كل المحاذير التي قد يرتكبها اناس يمتهنون هذه المهنة » .[1]

والى هنا نستطيع ان نغلق لوحة المبادىء الثابتة في الحرب . ، وسنعالج الآن ما وراء هذه المبادىء الثابتة ، وسننتقل الى دراسة المتحولات السياسية والتقنية ، والآلية التطورية لأشكال الفن العسكري .

---

(١) هذه هي بعض افكار ماكيافيلي المطروحة في كتابه « الأمير » (المعربان)



الجزء الثالث

أشكال الحرب الناتجة عن :

المتحولات السياسية والتقنية ـــ الآلية التطورية

بودي لو أقضي على رأي مبتذل ، يتضمن الاعتقاد بأن الحرب منذ أن استخدمت الأسلحة النارية فيها تخاض بشكل مختلف عن الشكل الذي كان قائماً فيما مضى ، وبهذا الشكل فان كل ما يكون بوسعنا قراءته عن الحرب ، لدى القدماء ، لا يستخدم في الوقت الحاضر .

مارشال دوبويسغور

إن من الخطأ أن نتصور ان الإنسان يتعلم الحرب بالاعتياد الروتيني ، فالحرب علم يرتبط بالأمور النظرية أكثر من الأمور العملية .

الشوفالييه دوفولارد



الفصل الحادي عشر

المتحولات

من المؤكد ان التقنية كالسياسة في تطور مستمر ، اذ تطورت بشكل دائم ومتواصل . الا أن هذا التطور لا يتمتع بالايقاع ذاته في كلا المجالين .

ويتسم **التقدم التقني** بتطور ايقاعي يدخل فيه عامل مجهول . فلكل اكتشاف ثمراته ونتائجه ، كما ان الاكتشافات تتعدد وتتزايد ، وسرعان ما تزداد دائرة المعرفة بصورة أكبر . وللتقدم التقني ايقاع بطيء في مطلعه ، كما يخضع الى تسارع ثابت .

اما التقدم السياسي ، فيتميز بتطور حلزوني . ويتسم بالتأكيد بوعي أقوى من الوعي التقني بكرامة الانسان ومصيره . ونراه يتجه دوماً الى تعضيد وتفضيل التسامح والتحرر الانسانيين . ويعارض هذا التقدم الأهواء والخطأ والجهل ، التي تقف في وجه أي تقدم سياسي ، كما تقاومه ايضاً الصعوبات الخاصة بكل عهد من العهود التاريخية ، تبعاً لاتساع « المدى الهامشي » الجاهز . فتتسامح بعض هذه الصعوبات بالحرية والتنافس دون الإضرار بالمصلحة العامة ، في حين تطالب الصعوبات الاخرى باشراف والزام ضروريين بالحرية والمنافسة . ولهذا نرى ان الاشكال السياسية للتقدم قليلة العدد ، تعود بصورة دورية لتفرض ذاتها تحت اشكال غير متطابقة ، سوى أنها اشكال مشابهة للاشكال السابقة . ولهذا السبب تبقى « العناوين » التي تميز نظاماً عن غيره من الانظمة « عناوين » خادعة .

ولم يكن للتقدم السياسي أي تأثير على التقدم التقني الا مؤخراً ، حيث رأينا هذا

الأثر في المجتمعات الموجهة التي أحست الدولة فيها بحاجة ماسة الى توجيه هذا التطور لصالح المصلحة العامة . الا أن هذا التداخل يبقى قبل القرن الثامن عشر امراً استثنائياً . وبوسعنا ان نميز بالتالي عصرين وخمسة عهود ، من عهود التطور السياسية ــ التقنية .

آ ــ عصر التطور البطيء ويتألف من ثلاثة عهود :

١) امبراطوريات وممالك الحكم الديني الشرقية وشعوب الغرب التي كانت تستخدم المعادن (من ٣٠٠٠ الى ٥٠٠ قبل الميلاد) .

٢) المدن القديمة الديموقراطية والديكتاتورية والامبراطورية التابعة للغرب وشعوب الفرسان الشرقية (من ٥٠٠ قبل الميلاد الى ٥٠٠ ميلادية) .

٣) الممالك الانتخابية او ذات السلطات المراقبة في الغرب وشعوب الفرسان الشرقية (من ٥٠٠ الى ١٥٠٠ ميلادية) .

ب ــ عصر التطور السريع ويتألف من عهدين :

٤) الممالك ذات الحكم المطلق في الغرب والتوسع الاستعماري (من ١٥٠٠ الى ١٨٠٠ ميلادية) .

٥) الديموقراطيات والديكتاتوريات الغربية الحديثة (ابتداء من عام ١٨٠٠ ميلادية) وضمن هذا الاطار سندرس تأليف المتحولات وعلاقاتها مع الاجزاء المختلفة للفن العسكري . وتقودنا السياسة الى التثبت من علاقات رئيس الدولة مع القائد الحربي ، وعلاقات الجيش بالشعب ، وعلاقات نموذج الحضارة بنموذج الحرب ، التي تتبعها تلك الحضارة وعلاقات النظام ونوع الجيش ، كما تقودنا أيضاً الى التأكد والتحقق من علاقات الاقتصاد السياسي والتقنية .

وستتطلب التقنية دراسة اشكال العمل العسكرية وهي :

الرمي والصدمة والتشكيلات والتحصين والإدارة .

وعندئذ يغدو من الممكن التحقق من وجود أسلوب تطوري منتظم ، لا يستند الى القيمة المطلقة للمتحولات ، بل يستند الى تركيباتها بازواج تكميلية .

الفصل الثاني عشر

إطارات التطور السياسية والفنية

ان الغرض من هذا البحث هو التحقق من الناتج التقني والسياسي في كل عصر وعهد ، في العتاد والافراد ، ونماذج الجيوش التي عبر عنها هذا الناتج .

أ ـ عصر التطور البطيء

(من ٣٠٠٠ ق.م. الى ١٥٠٠ م)

اعتاد المؤرخ ليستر ان يقول ما يلي : « هناك نوعان من الظواهر السياسية، أولهما تلك الظواهر التي نجدها في تاريخ روما . وهناك الظواهر الاخرى ، أي الظواهر التي ليس لها **أي نوع من الأهمية** » . وستقدم لنا مرحلة التطور البطيء النماذج الاساسية للجيوش طبقاً لارتباطاتها بمختلف الانظمة ، التي لا يضيف عصرنا الحالي الى هـذه النماذج الثلاثة سوى بعض التعديلات الطفيفة :

الجيش الوطني الذي يضم كل المواطنين الصالحين للخدمة العسكرية ، وينهل اطاراته من افراد الشعب دون أي تمييز فيما بينهم . وهذه الصيغة هي صيغة الانظمة التي يعرف عن السلطة فيها بأنها سلطة نابعة من الشعب : **ديموقراطية او ديكتاتورية** . وتكون الخدمة متكافئة بين الأفراد ، كما تكون الاعباء خفيفة بقدر ما تسمح به الاحداث . **والمثل الاعلى** للديموقراطيات هو **المليشيا** المستندة الى **العدد** .

اما جيش الدولة فلا يمس الا جزءاً متخصصاً من الوطنيين ، ويتمم هذا الجزء عناصر اجنبية . ويلجأ جيش الدولة غالباً الى اصطفاء ضباطه طبقاً لمقاييس تمييزية . وهذه الصيغة هي صيغة الانظمة التي يشتهر مصدر السلطة فيها الى انه خارج عن الشعب ، حتى ولو كان الشعب يساهم في هذه السلطة : حكم الاقلية « الاوليفارشي » أو الحكم الملكي . وتبقى الخدمة فيهما خدمة غير متكافئة ولمدة طويلة . ان المثل الاعلى لحكم الاقلية ، هو الجيش المحترف المعتمد على النوعية .

ولا يتضمن الجيش المختلط[1] المرتبط بالدولة عن طريق الشرف أو المصلحة أو الالتزام الا نسبة ضعيفة من المشاركة الشعبية التي تنبثق الدولة عنها ، الا فيما يتعلق بالضباط ، وهذه الصيغة هي : الصيغة الامبراطورية ، او صيغة السلطنات . وتكون قطعات الشعوب المتحالفة في مثل هذا الجيش ، اكثر عدداً في الغالب واقل تقنية . ولا يمكن اعتبار الجيش الامبراطوري مليشيا خالصة اذ أنه يتضمن دوماً قطعات محترفة .

وعندما نجد حالات مخالفة لهذه القواعد ، نرى ان السبب في ذلك يعود الى الصعوبات الاقتصادية التي تعانيها الدولة ، وتستهدف كل التدابير عندئذ تخفيف الاعباء العسكرية عن كاهل الدولة .

وقد عرف العهد الاول (الممتد من ٣٠٠٠ ق.م الى ٥٠٠ ق.م) ، وهو عهد امبراطوريات وممالك الحكم الديني الشرقية. جيوشاً كانت تملك نواة من المحترفين الذين يشكلون طبقة ترث الخدمة العسكرية أباً عن جد في الغالب . وكانت هذه الطبقة مرتبطة بالحاكم بشعور الطاعة والولاء ، وبالاراضي الزراعية التي كان يوزعها على افرادها . وكان بالامكان تقوية هذه الطبقة وتعزيزها بتجنيد الفلاحين الذين يقومون بدور المليشيا . وكانت طبيعتها الدينية ، البعيدة عن تأمين الولاء للحاكم ، تساعد على انتشار الفتنة والشقاق ، وعندما حل العهد الامبراطوري كان المجندون الاجانب ما يزالون يزدادون عدداً . ومنذ عام ٤٠٠ ق.م كانت احسن القطعات الفرعونية قطعات « استعمارية » ، وفي نهاية التطور ، كان اساس القطعات المضمونة الولاء والفعالية من الاغريقيين المرتزقة .

وكانت الموارد آنئذٍ قد سمحت بقبول عدد يتراوح بين ٥٠,٠٠٠ جندي (في ايران) و ٢٠٠,٠٠٠ جندي (في مصر) . ونادراً ما كان تعداد الجيوش يتجاوز

---

(١) يقصد به الجيش المؤلف من عناصر مختلفة جداً .

(المعربان)

٥٠,٠٠٠ جندي في العمليات ، نظراً لانعدام الجهاز الاداري الملائم .

وفي خلال المرحلة الثانية (من ٥٠٠ ق.م الى ٥٠٠ م .) ، تعاقبت كل الانظمة الممكنة . **وعرفت اليونان وروما الاشكال الديموقراطية والديكتاتورية ، والملكية .** وبظهور حكم قرطاجنة ، نراهم يخضعون لحكم الاقليات العسكرية أو البلوتوقراطية (حكم الاغنياء) . وتبشر كل الملامح التاريخية بأن لروما واليونان مستقبلاً امبراطورياً .

هنا تتأكد ثلاثة أمور :

يسمح التقدم الاداري بتجنيد اعداد هائلة ، وتبرز ظاهرة الجيش المؤلف من مليون جندي ، بصورة مؤقتة ، مع حملة كسيركس (٤٨٠ ق.م)[١] .

فاذا أخذنا الموارد السكانية بعين الاعتبار ، وجدنا أن الديموقراطيات تقدم اهم جهد عسكري . وتصل نسبة المجندين فيها الى ٢٠٪ من تعداد السكان و ٦٥٪ من المواطنين العاملين . ومن خلال هذا المظهر ، فان الـ ٢٧,٠٠٠ جندي الصالحين للتجنيد في أثينا عام ٤٣٠ ق.م او الـ ١٦٠,٠٠٠ روماني في فتنة ٢٢٥ ق.م ، إن كل هؤلاء يسيطرون على ٥٠٠,٠٠٠ جندي من جنود « الليجيونات » الامبراطورية . وهناك واقع له معناه ودلالته ، هو أن أول حركة « ملكية » قام بها اوغوست كانت « تخفيض عدد « الليجيونات » من ٥٠ الى ٢٥ « ليجيوناً » » .

ولقد استخدمت الديموقراطيات القديمة خدمة المليشيا ، التي لا يُعفى منها سوى الكادحون (البروليتاريا) غير القادرين على الحصول على تجهيزات . ولكنها بالاضافة الى هذا ، تضيف قطعة محترفة الى قطعات المليشيا ، وذلك بدافع الحيطة ، وتميل الممالك الى الاقتصار على هذه القطعة المحترفة . أما حكم الاقليات (الاوليفارشية) فانها تمنح ثقتها إما الى الطبقة العسكرية « على غرار اسبارطة » او الى المرتزقة (أثينا ذات ٣٠ طاغية — قرطاجنة) . وتملك الامبراطوريات ، كما في السابق ، نواة محترفة وطنية (الفرس الخالدون — الحرس الامبراطوري الروماني) تحرك جماهير اجنبية . وفي ظل حكم هارديان (١١٧) كان لدى الامبراطورية الرومانية خمسة جيوش مؤلفة من جنود ايطاليين . ثم تطورت قوات هذا الامبراطور فيما بعد حتى غدت في النهاية مؤلفة من

---

(١) من المحتمل ان لا يكون عدد افراد حملة كسيركس قد تجاوز ٥٠٠,٠٠٠ جندي برغم ما قاله عنها هيرودوت .

(المؤلف)

البربر . وفي أواخر عهد الامبراطورية الرومانية نرى عودة حل من أكثر الحلول قدماً في تاريخ الممالك الدينية القديمة وهو : الجندي الوراثي المتشبث بالأرض الزراعية على الحدود .

وفي المرحلة الثالثة (٥٠٠ ق.م) نلاحظ نموذجين من الجيوش ، ذات طابع متطور ، تبعاً للنظام السياسي .

جيوش الممالك الغربية المراقبة أو المنتخبة والتي هي في الواقع **ديموقراطيات أو ديكتاتوريات** . وتكفي في هذا المجال مليشيا « خدمة الملك المسلحة[1] » فنادراً ما تؤدي دعوة الاتباع المباشرين ، وكل المواطنين الى رفع تعداد هذه الجيوش الى ٦٠,٠٠٠ ، خمسهم من الخيالة . وقد وضع التطور نحو الملكية المطلقة الجيش المحترف تدريجياً محل المليشيا ، بواسطة سرايا من المرتزقة يرأسها نقيب ملكي ، ثم حل محل نظام المرتزقة التطوع الوطني لمدة طويلة .

الجيوش البيزنطية ذات الطابع الملكي . وهنا يتصدر عامل النوعية كما يتصدر الجيش المحترف كل شيء . ويكفي عشرون ألف جندي في هذه الفترة لجوستنيان لاعادة المواقع الامبراطورية الرئيسية (القرن الرابع) ، وفي القرن التاسع تكتفي بيزنطية في قمة مجدها بـ ١٢٠,٠٠٠ جندي باضافة مليشيا الحدود الى فيلق القتال المحترف .

ويتلخص التطور التقني لهذه العهود بثلاثة جداول تتضمن التطورات والمخترعات في القطاعات الرئيسية الثلاثة التي تهم الفن العسكري وهي : ١ — التعدين والمنشآت . ٢ — وسائل النقل ٣ — التسليح والوقاية .

وفي هذه المرحلة تطورت الأساليب الشرقية والغربية دون ان تتصادم . وجاءت الحرب من الشمال وارتبطت بنزوح الشعوب المختصة باستخراج وصناعة المعادن ، هذه الشعوب التي جلبت معها الى حوض البحر الابيض المتوسط فنونها الخاصة بموجات متتابعة (الاخيين والايطاليين والحثيين والهيكسوس ، والدوريين ، وشعوب البحر) .

وتحكمت المناجم المعدنية بجزء كبير من التفوق العسكري كما أثرت على الاستراتيجية . ومن الأمثلة على ذلك : فارس ، سيناء ، اليونان ، اسبانيا ، بوهيميا ، يتحكم فيها

---

(١) Service D'ost وهي الخدمة المعروفة في القرون الوسطى ، والتي يتوجب اداؤها تجاه الحاكم او الملك ، يؤديها الاتباع للدفاع عن البلاد .

(المعربان)

المرحلة الأولى (من ٣٠٠٠ ق.م إلى ٥٠٠ ق.م)

تشكيل النماذج الشرقية والغربية

الصناعات التعدينية والمنشآت	وسائل النقل	التسليح والوقاية
آ ــ التعدين انتشار النحاس المسبوك (من ٥٠٠٠ ق.م الى ٢٠٠٠ ق.م) القلز (٣٠٠٠ ق.م) انتشار البرنز المطرق (من ٢٤٠٠ق.م الى ١٤٠٠ ق.م) انتشار الحديد ثم الفولاذ المسقي (من ١٢٠٠ ق.م الى ٩٠٠ ق.م)	الحصان (من ٢٠٠٠ الى ١٤٠٠ ق.م) عدة الركوب تقتصر على اللجام وعدة السرج . عدة الجر بلجام الرقبة (حمولة ٢٥٠ كغ للحصان الواحد) .	الاسلحة البيضاء للقطع والطعن منذ الايام الاولى . قوس اكاديه القصير (من ٢٨٠٠ ق.م الى ٥٠٠ ق.م) وهو قوس ذو قوة ضعيفة لم يلغ المقلاع. المدى ١٥٠ متراً.
	عربة حربية بعجلتين (٢٠٠٠ ق.م) خفيفة لدى اليونانيين والمصريين ، ويجرها حصانان . ثقيلة في منطقة الشرق الاوسط وتتطلب ثلاثة جنود على الاقل .	**الشرقيون** أسلحة الطعن القصيرة (رمح ــ سيف) او أسلحة القطع (البلطة ــ السيف العريض والمنحني (الشمشير) مع درع زردي أو درع من الجلد . ويستخدم القوس والحصان استخداماً كبيراً (١/٣ خيالة أو عربات .) مواد حارقة (خشب مصمغ ــ نفط) للحصار .
ب ــ المنشآت **الشرق** حجر مركوم بدون ملاط . ظهور الآجر (القرميد الحديث) (٢٠٠٠ ق.م) . الآجر النيء لغرب الفرات والمشوي في شرقه . دعامات من الخشب في قلب الجدران . **الغرب** حجر مركوم بدون ملاط أو مثبت . أبنية من الحجارة او الآجر النيء مع دعامات من الخشب في داخله	**الخيالة والنقل بالعربات** تدخل الخيالة في العمل حوالي عام ١١٠٠ ق.م وبما انها اقتصادية أكثر من العربات الحربية فانها تأخذ مكانها تقريباً في عام ٩٠٠ ق.م . وفي عام ٧٥٠ ق.م استخدمت قبائل الهون السيت نموذج الركاب الاول (السير ذو الابزيم) ثم وصل هذا الركاب الى حوض البحر الابيض المتوسط بعد ثلاثة عشر قرناً وفي عام ٦٠٠ م الى بيزنطية .	**الغربيون** الاسلحة القصيرة والطويلة للطعن (الحربة ــ الفأس) مع الدرع الشليل (القصير) . تجهيزات تزن ٣٦ كغ . ليس هناك قوس ، قليل من الخيالة أو العربات (١/١٥ الى ١/٥٠)

النحاس . ايقوسيا ، كورنواى ، بوهيميا ، الاورال ، القفقاس ، اسبانيا يتحكم فيها ، القصدير . شمال إيران ، القفقاس ، أوروبا الدانوبية ، اسبانيا ، جزيرة ألبا ، يتحكم فيها الحديد .

ومن عام ٢٤٠٠ ق.م الى ١٤٠٠ ق.م دخلت **شعوب البرُنز** في ايطاليا واليونان وآسيا الصغرى ومصر وكريت دون صعوبة . وفيما بين ١٢٠٠ ق.م و ٩٠٠ ق.م نزلت **شعوب الحديد** الى ايطاليا واليونان ومصر . وكانت أكثر شعوب البحر الابيض المتوسط تحضراً ومدنية عاجزة عن مقاومة تفوقها التقني .

ثم تطورت اساليب التجهيز الشرقية والغربية تبعاً للمطالب الالزامية الجغرافية المحلية ، وأعطت البلاد الحارة التي تكثر فيها البوادي والسهول المفتوحة (الشرق) الافضلية للتجهيز الخفيف وللخيالة . وسمح ضعف الحماية باستخدام قوس أكاديه والمبارزة بالسلاح القاطع . أما البلاد المعتدلة ذات الارض المتضرسة والمقطعة (كالغرب) فقد ولدت الحماية الثقيلة التي شلت قوس أكاديه وفرضت المبارزة بالطعن . وكانت المشاة فيها هي السلاح الأساسي . وابتداءً من هذه الفترة ، نلاحظ استمرار الازواج التكميلية التالية :

سلاح الطعن والدرع القصير السميك او انعدام الحماية .

سلاح القطع والدرع القصير الخفيف او التدريع الكامل .

وتعتبر المبارزة بالطعن أخطر انواع المبارزات . فهي تفرض ذاتها عندما تنعدم الوقاية ، او عندما تكون الوقاية قوية ، ولكنها جزئية ، عندئذ تسمح بالهجوم على الأجزاء المكشوفة . وتستهدف المبارزة بالقطع تحطيم الوقاية الضعيفة ، وهي الملاذ الوحيد ضد وقاية قوية وشاملة وتتعلق فاعليتها عندئذ بوزن السلاح .

وعلى حين يمكننا ان نعتبر أن اساليب التسليح عقلانية ، نرى أن التحصينات ليست اقتصادية تماماً . فهي تمنح الثقة في الشرق للكتلة المادية (احجار حجمها ٣٠ متراً مكعباً جدران من الآجر سمكها من ٢٠ الى ٣٠ متراً ، تمتد على عشرات الكيلومترات) . أما في الغرب فقد تم الاعتماد على الجدار المبني ، لانه يحقق اقتصاداً أكبر (جدار تيميستوكليس سمكه ٢,٤٠ م في عام ٤٩٣ ق.م). ثم جاء فيتروف وفيلون في بيزنطية فعدلا مبادىء البناء فيما بعد .

المرحلة الثانية

(من ٥٠٠ ق.م الى ٥٠٠م)

عصر مشاة الصدمة الثقيلة

الصناعات التعدينية والمنشآت	وسائل النقل	التسليح والحماية
أ — التعدين استخدم الفولاذ المرن في آلات الحصار (٣٥٠ ق.م) حل الفولاذ محل البرنز كمعدن عسكري .	احدث تحسن السرج (٣٥٠ ق.م) اختفاء عربة القتال (١٩٠ ق.م) الا لدى البربر . وفي القرن الثالث كان ثلث الجيش الروماني من الخيالة . ظهر الاستخدام العسكري للجمل (٥٥٠ق.م) والفيل (بين ٣٠٠ق.م و ١٠٠) وكان هذا الاستخدام مقتصراً على الشرقيين تقريباً	القوس البارتي ذو الحنية المزدوجة (١٠٠ ق.م) فعال حتى ٢٥٠ متراً . ويرمي من ١٠ — ١٢ سهماً في الدقيقة. القوس المغولي (٣٧٠ ق.م) فعال حتى ٣٠٠ متراً. يرمي من ٨ الى ١٠ سهماً في الدقيقة . القوس الزيَّار (٣٥٠ق.م) فعال حتى ٢٥٠ متراً. يرمي ٤ اسهم ثقيلة في الدقيقة .
ب — المنشآت تم تحسين واسع في وسائل الرفع. بكرات ، رافعات ، لولب ارخميدس (من ٤٥٠ الى ٢٥٠ ق.م) وتراجع الآجر النيء امام الآجر المشوي والحجر المبني . وظهر الاسمنت الروماني ، وتثبيت البناء بملاط يسال بين جدارين يشكلان وجهين للبناء .	استخدمت ابراج زحافة مقدونيـة للحصار (٢٦٠ ق.م)	قوة اختراقها متزايدة . ويخرق القوس الزيَّار الدرع الزردي ويشوه الدروع السابغة (الدرع الطويل الذي يصل الى نصف الساق ويغطي قسماً من الرأس) **آلات الحصار :** العرادة (المنجنيق ذو الرمي المستقيم) والقوس الكبير الذي يعمل بواسطة زيار (٣٥٠ ق.م) . وفي ٣٠ ق.م ازدادت الحماية الرومانية باستخدام اللوريكا الفولاذي ، ثم عادت الى الحماية الخفيفة . بقيت الحماية لدى الشرقيين والشعوب الخيالة ضعيفة او معدومة(١) .

(١) يستثنى من ذلك ادوات تدريع الخيالة الفارسية (٤٠٠ ق.م) ، والمشاة الميدية في القرن الاول ، إذ كانت حمايتها اثقل من حماية مثيلتها الغربية .

وتتميز هذه المرحلة **بتزايد الحركية وقوة النيران** . ولقد سادت المشاة الثقيلة الغربية حتى القرن الاول قبل الميلاد دون منازع ، ثم احتلت خيالة الرمي المزودة بالقوس القوي المكان الاول (البارتيين والهون) . وسببت الخيالة خسوف دور العربات ، بفضل تحسن السرج ، إلا أن الغربيين ، وقد استهوتهم مرات النجاح السابقة القديمة للمشاة الثقيلة ، لم يوافقوا على اتباع المثل الذي أعطته الشعوب الخيالة . فلاحظوا مع بلوتارك قوة الاسهم البارتية « التي تكسر كل الأدوات التي تجابهها » و « على مسافات عجيبة » كما يقول أميان . وبقيت هذه الأسهم مع ذلك سلاح خيالة الصدمة (المقدونية) أو المشاة المحمولة (الخيالة الرومانية في القرن الثالث) وكانت تعتبر القتال بالرمي على صهوات الجياد عملاً لا يليق بها . وكانت شجاعتها الخارقة تجعلها تزدري العبقرية الخلاقة . وسنرى كيف تجدّد مثل هذا الأمر فيما بعد .

فعلى حين كان من الملاحظ في المرحلة السابقة ، ان هناك رباطاً بين طبيعة الحماية وطبيعة السلاح الأبيض ، فاننا نجد ان الرمي يتحكم بهذه الحماية فيما بعد . فأمام الأقواس-الآسيوية ترد المشاة الثقيلة في بادىء الأمر بزيادة حمايتها (باستخدام اوريكا الفولاذ) . وبما أن هذا التدبير الاحتياطي غدا غير كاف ، وكان تثقيل الحماية والوقاية يضر بالمناورة ويسيء اليها ، فقد قبلت المشاة الحماية الخفيفة الشرقية (الدرع الحرشف أو الدرع الزردي) . وهكذا تسببت الرمايات الفعالة في إزالة التدريع (١)

ولنذكر هنا أنه كان لظهور الجمل والفيل بين عداد الأسلحة الشرقية نتيجة غير متوقعة : فقد كاد استخدامها يشل الخيالة بسبب الرعب الذي كان يعتري الخيول .

وساهمت التحصينات التي غدت اقتصادية وعقلانية في ابعاد الفرسان البربر بعد ان تطورت وغطت الحدود . وكثيراً ما كانوا يجدون في ذلك الوقت جدراناً يتراوح سمكها بين ٣ امتار الى ٣,٥٠ م . ويشكل سور الصين (الذي أقيم بين ٢١٦ و ٢٠٩ ق.م) والمصنوع من الآجر المشوي أفضل مثل على هذه التحصينات .

وفي نهاية هذه المرحلة غدت سيطرة خيالة الرمي واضحة جداً ، حتى أن حدثين أكدا مستقبل هذا السلاح ، هما :

---

(١) لم تسبب الرماية الفعالة ازالة التدريع بسبب ازدياد وزن الحماية العامة فحسب ، بل بسبب ازدياد سعر الصناعة المعدنية . وحتى عام ١٨٧٠ كان الدرع القصير خفيفاً وفعالا ضد طلقة الرصاص ، سوى أنه يكلف غالياً جداً لو أريد تعميمه

المرحلة الثالثة

(من ٥٠٠ م الى ١٥٠٠ م)

عصر خيالة الرمي

الصناعات التعدينية والمنشآت	وسائل النقل	التسليح والحماية
أ ــ التعدين ليس هناك تقدم في هذا المجال . **ب ــ المنشآت** تقدم علم تقطيع الاجسام الصلبة كالحجارة والخشب ، وأصبح في منتهى الدقة . كما تقدم أسلوب صف حجارة دواعم الابنية بدقة (١٢٠٠) وظهرت الكتل الترابية في التحصينات الدائمة (١٢٥٠) .	**عدة الركوب** الركاب (من ٦٠٠ الى ٩٠٠) السرج المحشو ، ثم السرج المركب (من ٦٠٠ الى ١٠٠٠) البيطرة والتنعيل (الحدوة) (من ١٠٠٠ الى ١١٠٠) . **عدة الجر** ــ طوق العنق ويسمح للحصان بحمل ٥٠٠ كغ (٦٥٠) . ــ طوق الكتفين ويسمح بحمل من ١٠٠٠ = ١٥٠٠ كغ فوق الحصان (١٠٥٠) . ــ العربات ذات الابراج ــ للحوسيين (١٤١٩ ــ ١٤٣١) .	**التسليح** ــ التنافس بين القوس الزيّار والقوس الطويل (٢ متر) في القرن الحادي عشر . ــ قاذف من الحديد بمقذوف حجري . المدى ٢٠٠ متراً (١٣٢٥) . ــ اسلحة تورى النار فيها يدوياً (١٣٦٤) . بندقية الارقبوز (١٤٢٥) . ــ مدفع برنزي على عربة . ذو قذيفة حديدية (١٤٤٤) . ــ منصب ذو ساق وجهاز مدفعي (١٤٩٠) . وترمي الأفعى على ٦٠٠ متراً طلقة كل خمس دقائق ــ النار اليونانية (الكريجية) ــ (٦٥٠) وغاز خانق (١١٥٠) ، شهب صاروخية (١٣٩٩) ، قنابل يدوية (١٣٨٢) . **حماية** جواشن مسلحة وترس جلدي ــ (القرن الثامن) . قميص زردي (القرن التاسع) درع الفرسان الزردي والدرع الفولاذي (القرن السادس في بيزنطة والقرن الحادي عشر في الغرب) . ــ الدرع السابغة (القرن ١٢) . ــ عدة الجر .

تقبل بيزنطة للدروس المستقاة من هذه المرحلة والتلاؤم معها .

أما روما ، التي اقتصر تلاؤمها على الخيالة المساعدة للشرق الادنى (الخيالة التدمرية) فقد نقلت للعرب بصورة لا إرادية آليـــة القوة التي سمحت لهـــم بالتوسع فيما بعد .

وفرضت خيالة الرمي قانونها الى أن استخدم المدفع . وتضاعفت غزواتها الظافرة طالما ان بيزنطة كانت وحيدة في مجابهتهم بخيالة مماثلة (الهون من ٤٤٥ الى ٤٥٩ ، والآفاريين في عام ٦٢٦ ، والهنغاريين في عام ٩٠٠ ، والاتراك ابتداء من عام١٠٥٥ والمغول اعتباراً من ١٢١٨) . وتخلت الخيالة الغربية عن القوس لتعتمد على الصدمة اعتباراً من القرن التاسع ، ولم يعد السلام الى اوروبا بفضل الانقسامات السياسية ، وبفضل التعب الذي حـــل بالغزاة المنتصرين . ان الانتصارات الغربية في ساحات كاتالونيك (سهول شامباني) في (٤٥١) أوبواتييه (٧٣٢) هي وهم وخرافة. ففي الحالة الاولى ، انسحب أتيلا بارادته ولم يعرف العرب في بواتييه سوى مناوشة لا أهمية لها ولم يكن شارل مارتل بالطبع موجوداً .

وقد اغرى تحسن عدة الركوب التي اتاحت للفارس نوعاً من الراحة، الفرسان الغربيين باللجوء إلى قتال الصدمة ، على حين ساعدت عدة الجر الشؤون الإدارية وسمحت بولادة العربات الاولى المزودة بالمدفعية . ولقد سمح هذا العتاد فيما بعد للحوسيين بسحق خمس حملات المانية .

ولم تنقطع قوة النار عن الازدياد . وادت الى تحسن موازٍ لها في طرق الحماية التي بلغت من جراء وزنها الكبير أقصى طاقة للبشرية . وفي القرن الخامس عشر كانت عدة الجر (عدة الخيول) تتضمن ١٠٠ قطعة من الفولاذ ، وكانت هذه العدة تزن ٤٢ كيلو غراماً في المبارزة ، و ٨٨ كيلو غراماً في الحرب ، بما فيها درع الحصان . ورغم كل هذا كان بوسع القوس الزيار ان يحطمها ويشوهها ، كما كان بوسع بندقية الارقبوز خرقها .

وفي الوقت الذي ولد فيه السلاح الناري ، لوحظ انتشار ولع كبير بهذا العتاد ، بالرغم من ضعف تأثيره في ذلك الحين . وكانوا يزجون في كل معركة من ٣٠٠ الى ٤٠٠ مدفع اذا كان المدفع مصنوعاً من الحديد . وفيما بعد ضعف انتشار المدفع البرنزي نظراً لارتفاع تكاليف صنعه ، ولان وزنه أثقل من المدفع الحديدي (من ٢٢٠٠ الى ٣٢٠٠ كغ) . وكان السلاح اليدوي المؤلف من سبطانة وحيدة او سبطانات متعددة ثقيلاً وغير عملي (كالافعى

اليدوية ووزنها ٥ كغ)[1] ، الا ان مداه وسرعة رميه اقل من مدى وسرعة رمي القوس الزيار (١٠٠ ــ ١٥٠ م ، بمعدل طلقة كل خمس الى ثماني دقائق) . وهكذا نرى ان **قدرة الاختراق هي التي فرضت استخدام السلاح الناري .**

ويتأكد بهذا الشكل القانون التقني **للمدى المجدي** فبالرغم من ظهور اقواس قوية تتمتع برمي سريع ، بقي القوس الزيار مستخدماً حتى عام ١٥٢٠ . وفي هذا التاريخ حلت بندقية الارقبوز ، التي ترمي بسرعة اقل ولمدى اقصر من القوس الزيار ، محله . فقد كان أهم شيء في ذلك الحين هو **تركيب سرعة** الرمي والمدى بحيث تبقى الطلقة **دقيقة ومؤثرة .** وعند ولادة الدبابات المدرعة نجد ان الاعتبارات ذاتها تستعيد اهميتها .

وفي الوقت ذاته ، طور نمو الحماية السلاح الابيض ، وعمل ايضاً على تفضيل سلاح القطع باليدين (السيف ، الفأس ، العمود ، الطبّر) . وفي معركة الثلاثين[2] (١٣٥٢) لوحظ ان هناك اربعة قتلى من أصل اثني عشر قتيلاً ماتوا بتأثير الضرب على رؤوسهم دون قطع الدرع . وبقيت المبارزة بالطعن مبارزة السلاح الطويل [قاذف الحربة ــ الحدأة ــ (الرمح ــ الفأس)] ، وتستهدف هذه المبارزة الرديف من جنود المشاة المدرعين تدريعاً سيئاً .

وأعطى تكرار الحصار اهمية كبرى للاسلحة الخاصة . واستخدمت بيزنطة الشهب النارية والنـــار اليونانية (الكريجية Grégeois)[3] التي تحترق على سطح الماء ، وآنيـــة الكلس الحار ، والحيوانات السامة . ثم اخترع الغرب القنبرة اليدوية . واستخدم الآسيويون الغازات الخانقة الاولى ، على شكل دخان من التبن المشبع بالنفط والكبريت . وغدت هذه الوسائل عظيمة الفائدة فيما بعد نظراً لاستخدام آلات الحصار والمدفع ، لان سمك الجدران الحجرية كان يصل احياناً الى سبعة امتار . وقد كان اسفل هذه الجدران محمياً بنتوء مـــن

---

(١) الافعى Couleuvrine نوع من المدافع الصغيرة الرفيعة والطويلة ، يشبه البازوكا الحالية ، كان يستخدم في الحصار او كدافع للدفاع عن المواقع .

(المعربان)

(٢) Combat des Trente ــ قتال دار بين الفرنسيين والانكليز اثناء حرب الوراثة البريطانية ، عين فيها ثلاثون مقاتلا من كلا الجيشين للمبارزة ، فانتصر الفرنسيون .

(٣) مجموعة مواد حارقة يعزى اختراعها الى كالينكوس Callinocos تحترق حتى بالتماس مع الماء ، وقد استعملت في القرن السابع من قبل البيزنطيين .

(المعربان)

التّراب (كما كانت عليه حال قلعة الحصن السورية) .

وعندما سقطت بيزنطة عام ١٤٥٣ ، لم يقاوم كونستانتين دراغاسيس السلطان محمد الثاني الا بسبعة آلاف رجل . وعندما سحقت المدافع التّركية من عيار ١٠٠٠ مم آخر سور روماني ، كان عملها اعلاناً عن انتهاء دور خيالة الرمي .

ب – عصر التطور السريع

من (١٥٠٠ حتى ايامنا هذه)

ثم انمحى أثر الانظمة اثناء الانتقال التدريجي الى مبادىء الامة المسلحة . وبدأ الجهد المبذول في هذا المجال كثير التكاليف ، ومصحوباً ايضاً بتقنية اعمق ، حتى أتى وقت لم تفقد فيه القوات الموجودة فائدتها فحسب ، بل تجاوز تعدادها امكانات تجهيزها . ولقد تمت التحولات خلال سلسلة من المعارك تتميز « بالحنين الى الامبراطورية » . وقد ادى العجز في تحقيق هذا الحنين في اوروبا الى اكتشاف العالم ، ومن ثم أدى الى الاستعمار التوسعي .

وغدت الملكيات ملكيات مطلقة ، ونظراً لذلك ، فانها سرعان ما أعطت الافضلية في القوات للقطعات المحترفة ، ولم تجند احتياجاتها من المليشيا الا عندما كانت ترغم على ذلك ، وضمن اطار الحد الادنى الذي يتناسب مع متطلباتها . ويشذ عن ذلك ممالك عسكرية (كالسويد او بروسيا) . وتصل قمة تعداد الجيش الفرنسي التابع للنظام الملكي القديم الى ٣٨٠,٠٠٠ جندي ، تحت حكم لويس الرابع عشر من بينهم ٨٠,٠٠٠ جندي أخذوا من جنود المليشيا ، بالنسبة لسكان يعدون عشرين مليون نسمة . وفي الوقت ذاته ، كانت بروسيا تملك جيشاً مؤلفاً من ٨٣,٠٠٠ جندي لسكان لا يتجاوز تعدادهم ٢,٥ مليون نسمة. اما فريدريك الثاني فكان لديه فيما بعد ٢٠٠,٠٠٠ . فالفرق الاساسي بين النموذجين من الانظمة هو ان خدمة المليشيا في جيوش الملكيات المطلقة العادية قليلة القيمة ومحتقرة ، على حين تتساوى تقريباً في الملكيات العسكرية والخدمة فيها مشرفة . وكان للملكيات التي تلت الامبراطورية الفرنسية الاولى ردود الفعل ذاتها . اذ اكتفى جيش مرحلة الاصلاح بـ ٢٤٠,٠٠٠ جندي محترف يمكن تعزيزهم بقدماء المحاربين .

وظهر الجيش الديمقراطي والوطني في ظل الجمهورية الاولى ، وكانت ولادته حافلة بالمتاعب . وبعد تجربة التطوع ، ثم تجربة المصادرة المتباينة ، اعتمدت الجمهورية على

الخدمة الالزامية في اغسطس (آب) ١٧٩٣ . وفي نهاية عام ١٧٩٤ تم تجنيد ١,٢٥٠,٠٠٠ جندي . وقد تدنى هذا الرقم الى ٥٠٠,٠٠٠ في عام ١٨٠٠ . وحاولت الديموقراطيات الصرفة فيما بعد ان تخفف من ثقل الاعباء العسكرية بتخفيض مدة الخدمة (من ٥ سنوات الى سنة واحدة في فرنسا) . اما النظم الديكتاتورية فقد كانت اقل ترددا ، وحاولت جهدها فأعادت نواة من القطعات المحترفة ، على حين كانت قوات المليشيا التابعة لها تتخذ مظهراً اساسياً (كالحرس الوطني في عام ١٨٣٠ ، والمليشيا الهتلرية والفاشستية) . وبدت ديكتاتورية الامبراطورية الفرنسية الثانية اقل انسجاماً وتماسكاً ، خلافاً لبقية الديكتاتوريات، اذ انها افسحت المجال لتخريب قانون نيل الذي كان ينظم الحرس الوطني . الا أن الاعداد بقيت تزداد وتتضاعف . وقد وصلت عمليات التجنيد التي قام بها نابليون الاول الى ٢,٨٠٠,٠٠٠ جندي من اصل ٢٦ مليون نسمة . واثناء الحرب الاهلية الامريكية جند الشماليون ٢,٥٠٠,٠٠٠ جندي من اصل ٢١ مليون من السكان ، كما جند الجنوبيون ١,٧٠٠,٠٠٠ من اصل ٦ ملايين فقط . ولم تستطع الدول الاخرى ان تفعل احسن من هذا اثناء النزاعات العالمية لان فرنسا لم تجند من عام ١٩١٤ الى عام ١٩١٨ سوى ٧,٨٠٠,٠٠٠ جندي من أصل ٣٩ مليون نسمة .

وأما الامبراطوريات ، فانها استمرت في زيادة اعداد المجندين الاجانب ، طبقاً لعاداتها وتقاليدها . وفي عام ١٨١٢ ، كان اكثر من نصف الجيش الكبير اجنبياً . وفي ظل الجمهورية الثالثة ، زادت نسبة العناصر الاجنبية ورجال المستعمرات في الجيش الفرنسي من ٣٪ الى ٣٠٪ بين عامي ١٨٧١ و ١٩١٤ .

وقد رأى العصر الحديث ولادة عقائد وطنية توسعية ، ثم رأى ايضاً عقائد دولية لا تقل عنها في مجال التوسع ، وكانت هذه العلامة علامة خاصة « بالسير نحو الامبراطورية » . وقد ولد كل هذا تبشيراً وحملات ، حتى اننا رأينا في الجيوش قطعات من المتطوعين الاجانب تتمتع باندفاع وحماس العناصر الوطنية نفسها ، ومستعدة للقتال ضد أبناء وطنها ذاته .

وتتجه اخيراً التقنية المتزايدة والعجز عن تجهيز كل الاعداد الجاهزة الى تقسيم الجيوش الحديثة دون تمييز في النظام الاصلي تبعاً لثلاثة نماذج من القطعات :

— قطعات محترفة متخصصة وعلى درجة عالية من التقنية تعمل في الانساق القتالية الاساسية .

المرحلة الرابعة

(١٥٠٠ الى ١٨٠٠)

المدفعية تفرض قانونها

الصناعات التعدينية والمنشآت	وسائل النقل	التسليح والحمايــة
أ ــ التعدين الزهر المعدني الصناعي (القرن ١٥) معالجة بالسيمان . معدن الصب (القرن الثامن عشر) . **ب ــ المنشآت** حلول البناء بالحجر تدريجياً محـــل التراب ، كطبقة للمقاومة . جدران للاشكال والتعضيد والتدعيم .	**الدبابة** ــ دراسات فانسي النظرية (١٤٨٣) ــ مشروعات دبابات مزودة باسلحة نارية وتحركها الخيول : سنفتبزغ (١٥٠٠)، فاليريوس (١٥٣٢) ، مشروع فلوريان (١٧٥٦) . ولكن دون الوصول الى الانتاج . الآلة البخارية (١٧٧٠) . المنطاد (١٨٧٣) التلغراف ، شاب (١٧٩٤)	**التسليح** بندقية الارقبوز ذات الفتيل (١٥٢٠) المدى ١٥٠ متر . طلقة واحدة كل ٥ دقائق . البندقية (موسكيه) مع آلية القدح ، ثم البندقية مع ملفة من الفولاذ المسنن(١) (١٥٢٥ – ١٥٧٠) . الخرطوشة–مدى ٢٠٠ متر ، طلقة كل دقيقتين . بندقية مزودة بحجر القدح(٢) . (١٦٣٠ – ١٧٠١) مدى ٢٥٠ متر . طلقة في كل دقيقة . الحربة (١٧٠٣) . البندقية ذات الحجر (١٧٥٤–١٧٧٧) مدى ٦٠٠ متر ، رمي دقيق عـــلى ٢٥٠ م . ٣ طلقات في الدقيقة . **اسلوب** المدفعية ، هنري الثاني(١٥٥٠) التخفيف . **المدفع الخفيف** السويدي (١٦٢٠) . كيس الحشوة . قنبلة واحدة في الدقيقة اسلوب فالير (١٧٣٢) ، ٣ قنابل في الدقيقة على ٦٠٠ متر . اسلوب **غريبوفال** (١٧٦٥) ، ٤ قنابل في الدقيقة على مدى ٣٥٠٠ متر . رمي دقيق على ١١٠٠ متر . الصهامة (١٧٩٩) . اسلوب كونغريف **الحماية** درع للجذع مع دروع صغيرة للساق (١٦٥٠) . ــ درع للجذع ، او درع جذع نصفي في الخيالة الثقيلة فقط (١٧٠٠) .

(١) لاحداث الشرارة التي تدفع بالطلقة .

(٢) Fusil a silex

(المعربان)

– قطعات من المجندين ذوي التدريب والاستعداد العسكري العاليين ، والمعدة لتكون سنداً للانساق القتالية او لوحدات الدفاع عن البلاد والتي تكون عادة ذات مستوى تقني اضعف .

– قطعات من المجندين ذوي التدريب والاستعداد العسكري الضعيفين ، والمعدة للعمل في الاعمال الاضافية والمهمات شبه العسكرية (اشغال – نقل – اسعاف) .

وهناك فترتان تميزان التقدم التقني لهذه المرحلة التاريخية (العصر الحديث) هما المرحلة الرابعة والمرحلة الخامسة المشروحتان في الجدولين المذكورين في الصفحة ١٠٤ والصفحة ١٠٧ من هذا الكتاب .

وقد تأثر التقدم التقني بالنهضة العلمية والصناعية الى حد كبير . اذ تعددت الاختراعات والمستحدثات في هذه الفترة ، وتوصل فن التعدين الى خلط كتل هائلة من المعادن ومعالجتها ومزجها . وغدا بالامكان ، من جراء ذلك ، تسليح اعداد كبيرة .

واختفت الرماح والدروع تدريجياً بسبب تطور مميزات السلاح الناري الذي يتم القدح فيه يدوياً وبسبب تزويدالبندقية بالحربة ، وفرضت المدفعية نفسها بصورة تلفت النظر ، وحطمت خيالة الرمي الآسيوية ، ثم تحكمت بعد ذلك في كل عمل من أعمال القوة . وصد الغرب الآسيويين الغزاة وتحرك لغزو العالم .

ومن الغريب في هذا المجال ، ان كثيراً من العسكريين عارضوا تجاوزات السلاح الناري وتعديه على الاسلحة القديمة. اذ نرى بايارد ، ومونلوك، وسرفانت يلعنون البندقية. اما مونتين فلم يكن يحمل للبندقية القديمة ذات الفتيل سوى الازدراء ، وكان يتنبأ بالتخلي عنها . ونجـد ايضاً في هذه الفترة العسكريين الانكليز يستمرون في الدفاع عـن القوس حتى عام ١٦٢٥ لانه يرمي بسرعة اكبر ولمدى ابعد . كما ان المارشال دوساكس ومونتي كوكولي كانا يأسفان على الرماح . الا ان هذه الحركة بقيت اتجاهاً لا يقاوم . ففي عام ١٥٢٠ نجد لدىفرانسوا الاول بضع مئات من بنادق الارقبوز ، و ٢٠٠ جندي يستخدمون القوس الزيار . وفي عام ١٥٤٠ ، نراه يملك ١٢,٠٠٠ بندقية ارقبوز . وكانت النسبة الاولية لحملة البنادق الى حملة الحراب هي نسبة (١) الى (٥) في عام ١٥٥٠ . وفي عام ١٧٠٥ لا نرى أثراً لحملة الحراب . وكان كل فرد من الافراد يحتال بشتى الوسائل ليجعل السلاح اليدوي أخف ، واكثر اماناً وقوة وليجعل رميه اسرع . واذا كان وزنالبندقية الارقبوز ذات الفتيل يزن ٦,٨٠٠ كغ. وتتطلب ثلاث دقائق للتلقيم ، ودقيقتين للاشعال ، فان البندقية الحجرية لم تكن تزن سوى ٤,٨٠٠ كغ. وتطلق ثلاث طلقات في الدقيقة الواحدة ، حتى

ان البندقية البروسية تصل في سرعة رميها الى ست طلقات في الدقيقة ، بفضل تحسينات شتى كانت تتميز بها ، كالقضيب الحديدي وشفرة المغلاق لتمزيق الخرطوشة ، والرصاصة المعيرة عياراً اقل . والواقع فان السلاح كان يتسخ بسرعة ، كما ان سرعة الرمي تتضاءل الى النصف .

وفي هذه الفترة كان تطور المدفعية تطوراً اكبر واكثر بريقاً . فقد اتجهت كل الاساليب الى تنسيق خمسة او ستة عيارات مع تخفيف الاعتدة . وفي عصر النهضة كانت المدافع تحتاج من ١١ الى ١٧ حصاناً من احصنة الجر ، اما مدفعية غريبوفال فقد اكتفت بما يعادل من ٤ الى ٦ حيوانات جر . ودخل عتاد الرمي المنحني في الخدمة في ظـــل لويس الرابع عشر مع القذائف المنثار [١] والقنابل اليدوية المخصصة للحصار .

وازدادت ضخامة الدعم الناري من الناحية النوعية اكثر من الناحية العددية . وفي ظل فرانسوا الاول ، كانوا يضعون ١،٨ مدفع لكل ألف جندي . وفي ظل لويس الخامس عشر توصلوا الى وضع مدفعين . وقد حدث الشيء ذاته حتى عام ١٨٠٩ . ومع ذلك فان عدد المدفعيين المتخصصين كان يزداد تباعاً . ففي ظل لويس الرابع عشر كانت نسبتهم ١،٦٪ من التعداد العام . ثم بلغت فيما بعد ٧٪ في ظل لويس السادس عشر في عام ١٧٨٦. وعلى العكس ، فان المدفع قد قلب تماماً ميزان الاسلحة لصالح المشاة والاسلحة التقنية (مدفعية وهندسة) كما يبين الجدول التالي ذلك :

الاسلحة	من القرن ١١ الى ١٥	القرنين ١٦ و ١٧	القرن ١٨
مشاة	٦٥٪	٧٥٪	٧٠٪
خيالة	٣٥٪	٢٥٪	٢٠٪
اسلحة تقنية (مدفعية وهندسة)	(٦ الى ١٠ مدافع لكل ١٠٠٠ رجل في القرن الخامس عشر)	(من مدفع الى مدفعين لكل ١٠٠٠ رجل)	(من مدفعين الى ٣ مدافع لكل ١٠٠٠ رجل)

وكان من الملاحظ في هذه الفترة ان القطعة كلما كانت ضعيفة التدريب كلمـــا كان احتياجها الى الدعم الناري اكبر . وفي عام ١٧٥٧ عندما استنزف الجيش البروسي وأنهك كان فريدريك الكبير يذهب الى حد وضع ثلاثة مدافع لكل الف رجل ، وأخيراً بدأوا يفكرون بالصاروخ كسلاح للمستقبل ، وأصبح الحديث عن الصاروخ أمراً مألوفاً . فقد

---

(١) Obus 'A Balles

المرحلة الخامسة

(من ١٨٠٠م الى أيامنا هذه)

الصناعات التعدينية والمنشآت

أ ـ التعدين

طرق بسمير ومارتان (١٨٥٣)
السبائك المعدنية الخاصة
المعالجات المختلفة (طرق المعادن ، تحمية المعادن ، اعادة السقاية ، التقوية . الخ) .

المنشآت

– الاسمنت المذاب والمسلح (١٨٦٠)
– الابنية **المعدنية** المعدنية (١٨٨٠)
– دخول الاسمنت المسلح والتدريع في التحصينات (١٨٧٦)
– آلات نقل التراب والقيام بأعمال الحفر (١٩٣٠)
– الاسمنت المسلح المسبق الجهد (ذو التسليح المشدود مسبقاً) (١٩٥٠)

وسائل النقل والاشارة

المحركات

– الآلة البخارية (١٨٠٤–١٨٢٩)
– المحرك الانفجاري (١٨٦٠)
– المحرك الكهربائي (١٨٦٩)
– العنفة « التوربين » (١٨٩٠)
– الديزل (١٨٩٣)
– المحرك النفاث (١٩٤٣)
– المحرك الذري (١٩٥٠)

وسائل التنقل

– السكة الحديدية (١٨٣٠)
– المروحة الدافعة (١٨٥٢)
– الجناح الثابت (١٨٧٣)
– السلاسل (١٩٠٥)

الاشارة

– البرق السلكي (١٨٣٢)
– الهاتف (١٨٧٦)
– البرق اللاسلكي (١٨٩٩)
– الهاتف اللاسلكي (١٩٢٥)
– التلفاز (١٩٣٠)
– الرادار (١٩٣٦)
– الآلة الكاتبة (١٨٩٠)

الادوات العسكرية

– المنطاد القابل للتوجيه (١٨٧١)
– العربة المدرعة والدبابة (١٩٠٥)
– الطائرة (١٩١٠)
– الطائرة العمودية (١٩٥٠)

التسليح والحماية

الأسلحة الخفيفة

– بندقية محلزنة ذات مغلاق متحرك (١٨٢٤)
– رشاش متعدد السبطانات (١٨٦٠)
– رشاش وحيد السبطانة (١٨٨٢)
– بندقية ذات مخزن (١٨٨٣)
– الرشيش ، القنابل اليدوية ، وقنابل البندقية ، والالغام (١٩١٦)
– المسدس الرشاش (١٩٣٦)
– قاذفة صواريخ « روكيت »(١٩٤٣)
– سلاح متعدد الاستعمال (١٩٥٥)

المدفعية

– تسليح القطارات (١٨٠٠)
– المدفع المحلزن ذو المغلاق المتحرك (١٨٥٠)
– المدفعية الثقيلة (١٨٦٢)
– المقذوفات والصواريخ الخاصة (١٨٨٠)
– حاضن قابل للطي (١٨٩٠)
– مدفعية متخصصة (١٩١٥)
– مدفع عديم الارتداد وحشوات جوفاء (١٩٤٣)
– القذائف الصاروخية (١٩٤٥)

الأسلحة الخاصة

– الغازات الكيمائية (١٩١٥)
– مواد حارقة سائلة وجامدة (١٩١٦)
– القنبلة الذرية (١٩٤٥)

الحماية الفردية

– عودة الحماية الفردية والصدار الفردي للحماية (١٩٤٣)

استخدمه تيمورلنك في عام ١٣٩٩ في حصار دلهي . ولاحظ العقيد كونغزيف آثار الشهب الصاروخية في حصار سرانكاباتام (١٧٩٩) الذي قاده طبوصاحب . وتمكن كونغريف من استخلاص اسلوب جديد من الدعم الناري بسبب هذا الحصار . وتحكمت المدفعية ايضاً بالمنشآت العسكرية التي بدأت تزول وتختفي وتغطي ذاتها بالتراب .

وكانت غريزة المخترعين ، الذين بحثوا عن العربات التي تجرها الرواحل تبشر بظهور الآلة البخارية والمنطاد والبرق معلنة عن ابتداء تطور حاسم بصورة اكبر .

وسمحت وسائل الانتاج اعتباراً من هذا التاريخ بتحقيق كثير من الاختراعات تتنازع فيها الكمية مع القدرة والاقتصاد . واختفى البرنز كمعدن عسكري ليحل مكانه الفولاذ الخاص . واعاد الاسمنت كل قدرات المواد البلاستيكية التي اختفت منذ ظهور الآجر النيء . وضاعفت ثورة الطاقات وسائل التنقل وادوات الاشارة .

واستعاد الاشراف على مصادر القدرة وعلى المواد الاولية اهميته التي فقدها منذ المرحلة الاولى . لقد كان هناك فيما مضى شعوب البرنز والحديد ، وظهر منذ ذلك الحين شعوب البترول والفحم والاورانيوم .

وارتدت ثورة **الأسلحة الخفيفة** ثلاث خصائص :

- يتبع التوسع الاولي في مجموعات العتاد جهد ضخم لخلق السلاح متعدد الاستعمال القادر على اعطاء مميزات البندقية والأسلحة الآلية المختلفة .
- تناقص وزن السلاح وعياره مع الانجاه الى الاقتصار على عيارين فقط .
- زيادة السرعة الاولية للعتاد والمدى وسرعة الرمي . حتى ان هذه الخصائص تجاوزت المطالب التكتيكية .

ويتشابه **تطور المدفعية** مع تطور الاسلحة الخفيفة اذ يتسم بالخواص التالية :

- توسع مجموعة المدافع تبعاً لمطالب المشاة (هاونات ومدافع المرافقة) ، وتبعاً لضرورة مجابهة الآلات الحديثة (المدفعية م /ط ، والمدفعية م /د) وتبعاً للعمل الذي يتزايد استهدافه للاعماق (مدفعية ثقيلة طويلة المدى وصواريخ) .
- البحث بآن واحد عن المدفع الاخف (مدفع عديم الارتداد) والمدفع الاقوى (مدافع ٩٠٠ مم — مدافع ذرية) .
- ازدياد سهولة خدمة السلاح ، وازدياد سرعة الرمي والمدى والسرعة الاولية ،

وقوة القذيفة . وهذه المزايـا تتجاوز المطالب التكتيكيـة والاستراتيجية في كل المستويات .

ولقد تزايد حجم الدعم الناري الضروري نوعاً وكماً في آن واحد . فبعد عام ١٨٠٩ ، كان نابليون يزج في المعركة من ٣ الى ٤,٥ مدفعاً لكل ١٠٠٠ جندي ليعوض ضعف مشاته ثم ارتفع هذا الرقم فيما بعد الى ١٠ او ١٥ مدفعاً للسيطرة على قطعة متخندقة في الارض بصورة اعتيادية . ويتميز التلاؤم النوعي بصورة خاصة بتنوع القذائف (قذائف متفجرة أو ثاقبة أو ذات حشوة جوفاء أو غازية ، وصمامات حساسيتها متبدلة يمكن احكامها ، والصواريخ ذات المدى القصير) . ولنشر اخيراً الى ان التطور المتأخر للصواريخ ذات المدى البعيد يثير الدهشة بصورة اكبر من صواريخ كونغريف التي احدثت ضجة كبيرة في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٠٥ و ١٨٥٨ (في بولوني ، وفالشرن ، وكوبنهاغن ، وسيباستبول) . وكان مداها ضعف مدى المدفعية ، وكانت وقتها كافية لدرجة دفعت مارمون لان يرى فيها السلاح الرئيسي للمستقبل .

وتتسم نهاية هذه المرحلة بامكانيات جديدة في مجال **المكننة والاسلحة الخاصة** .

وتستند المكننة اعتباراً من هذا التاريخ على الدبابة ومشتقاتها ، وعلى الطائرة ، والتطبيقات الكهر - طيسية . ومن الغريب اننا نجد نوعاً من التشاؤم عند ولادة هذا الاتجاه يشابه التشاؤم الذي رافق الصور الاولى للسلاح الناري . فقد قيل في الماضي عن هاتف بيل : « لِمَ سيستخدم هذا الهاتف ؟ » . حتى ان مشروع دبابة المهندس الانكليزي دومـول (١٩١٢) حسم بالجملة الانشائية التالية : « ان هذا الرجل مجنون ! » كما دفن مشروع النقيب لوفافاسور (١٩٠٥) مذيلاً بالرأي التالي للقسم الفني في سلاح المدفعية : « ان فائدة هذا المشروع تبدو قابلة للنقض . فالجر الحيواني (للمدفعية) يضمن حركة كافية ، ويتيح مزية مجابهة كل حادث عارض تتسبب به نيران العدو ، وذلك باجراء كل ما يلزم من تبديلات وتنقلات . » . ولم يكن حظ الطائرة افضل من حظ الدبابة في كسب الرأي العام . فبالرغم من عبور المانش الذي حققة بليريو في عام ١٩٠٩ فان فوش لم يتردد في أن يقول في عام ١٩١٩ : « كل هذا عبارة عن رياضة ! ان الطيران بالنسبة للجيش صفر ! » . وكان من الضروري تكريس كل عناد واصرار العقيد ايتين ليفرض الدبابة والطيران على الجيوش الفرنسية في الحرب العالمية الاولى . ونحن نعرف الآن الاهمية التي حصل عليها هذا العتاد فيما بعد . ويبدو في الوقت الحاضر ان هناك ظاهرتين تتحكمان بمستقبل هذين السلاحين :

- بعد أن تطورت قوة الدبابة وزاد وزنها بدأ هذا السلاح يتقهقر نظراً لما حصل عليه

المدفع المضاد من قوة الاختراق . وبما ان الدرع يفقد فعاليته ، فان الاهتمام ينصب الآن على تقليل الوزن مع زيادة السرعة وقوة النيران .

ـ ان التنافس القائم الآن بين الصواريخ التي يتجاوز مداها وسرعتها مدى وسرعة القاذفات يتجه الى التقليل من الاهمية الاستراتيجية للطيران وقد يستطيع في المستقبل القضاء على هذا السلاح .

ان التطبيقات الكهر ـ طيسية لم تطور اساليب الاتصال فحسب ، بل انها طورت ايضاً اساليب الكشف وقياس البعد (الرادارات) . وهناك امكانات اخرى من الممكن ان تتفتح بالتأثير على الحقول المغناطيسية او حتى بالتأثير على الثقالة . وربما رأينا في المستقبل « جدراناً حقيقية من الموجات » .

وتجمع **الاسلحة الخاصة** في الوقت الحاضر بين اعتدة متنوعة يلتقي فيها السلاح الذري والتحضيرات الكيماوية والبيولوجية والميتيرولوجية .

وتولد الفيزياء الذرية قدرات تدميرية ، وتنقلات غير محدودة في الوقت نفسه بواسطة القنبلة والمحرك . فقد زادت من اهمية المدرعات والتحصينات ، كما اتجهت الى التقليل من قيمة المدفعية التقليدية ، وانقاص سرعة تطور الاسلحة ذات القدرة الضعيفة [1] .

اما التحضيرات الكيميائية والبيولوجية ، فبالرغم من انها مستنكرة ومرفوضة ، الا أنها تتزايد باستمرار وتصعد امكانات ابطال كتل بشرية كبيرة ومناطق واسعة بتلويثها بصورة مستمرة . ويزيد « الغبار الذري » الناتج عن الانفجار مخاطر هذا التلوث . ويحاول علم الارصاد الجوية التأثير على الوقت بتغيير الحرارة او التعجيل بها . ويبدو ان الافادة من هذه المجالات يزداد خطورة مع ازدياد تطور الهجمات القادرة على تحقيق نتائج غير متوقعة .

وخلافاً لكل توقع ، فان الازدياد العجيب في الترسانة الحربية يتيح فوز الوقاية الفردية نظراً لاستخدام انواع خاصة من الصلب . غير أن هناك حلولاً افضل رأت النور عند استخدام النيلون والبوليستر . وهي تعيد الى الاذهان صورة درع «المشاة اليونانية الخفيفة» ،

---

(١) وعلى العكس ، فمن غير المحتمل ان يستطيع تقدم علم الفضاء التأثير على القدرات العسكرية لشعب من الشعوب والتأثير على التوازن الاستراتيجي العالمي . فقد توصلت الصواريخ الآن الى دقة كافية على مدى بعيد جداً لدرجة تجعل الهجوم انطلاقاً من كوكب من الكواكب عاجزاً عن ان يضيف الى الامكانيات شيئاً جديداً . ويبدو ان الكواكب مخصصة لمهمة رائعة في الكشف ، والاعلام والاتصال ، وربما يكون لها دور كبير في علم الارصاد الجوية بصورة فعالة .

هذا الدرع الذي عرفناه قبل خمسة عشر قرناً والذي كـــان يصنع بقطع من الكتان يلصق بعضها بالبعض الآخـــر بواسطة الصمغ. وبعـــد استخدام الصدار المجهز بصفائح معدنية يتجهون الآن الى تحقيق الدرع القصير (الشليل) المفصل من قطعتين .

ان كثرة العتاد . وفاعليته ، وانتشاره في مختلف صنوف الاسلحة بأشكال متعددة يساهم في عملية المعادلة بين الاسلحة . ومن ناحية اخرى ، فقد وجد التوازن بين صنوف الاسلحة المختلفة نفسه وقد انقلب على حساب المشاة كما يوضح ذلك الجدول التالي :

الاسلحة	القرن ١٠ و ٢٠ حتى عام ١٩١٥	من ١٩١٥ الى ١٩٢٨	١٩٦٠
المشاة	٪ ٦٠	٪ ٤٨	٪ ٣٥
الخيالة	٪ ٢٠	٪ ١٧	٪ ١
المدرعات	–	٪ ٩	٪ ٨
مدفعية وهندسة .... (اسلحة تقنية)	٪ ٢٠ (٤ مدافع الى ٥ لكل ١٠٠٠ جندي)	٪ ٢٦ (١٠ مدافع الى ١٥ لكل ١٠٠٠ جندي)	٪ ٢٣
اركان وخدمات واشارة	–	–	٪ ٢٣

وهكذا اختفت الخيالة الراكبة على الحصان ، وأخذت المدرعات والاسلحة التقنية جزءاً من مكان المشاة ، كما ان الخدمات والمصالح تتزايد باستمرار على حساب الوحدات .

هذا هو الثمن الذي ينبغي ان ندفعه للتقدم التقني . ومثل هذا السير لا يمكن قلبه الا بآثار مدمرة لحرب ذرية ، تعيد حضاراتنا الى المرحلة التي سبقت النهضة الصناعية .

الفصل الثالث عشر

الجيش والدولـــة

تبرز العلاقات بين الجيش والدولة في ظاهرتين مرتبطتين بطبيعة النظام السياسي هما:

– تبدلات حرية العمل الداخلية المتاحة للقائد الحربي .

– الصفات المتعلقة بجندي المليشيا والجندي المحترف .

مشكلة حرية العمل الداخلية للقائد الحربي

كتب كلاوزفيتز يقول : «ان الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل اخرى ... وبهذا الشكل نرى ان الحرب لا تغدو عملاً فحسب ، بل انها تغدو اداة السياسة ذاتها ، وان هذه السياسة بإستعانتها بهذه الاداة على الدوام لا تفعل شيئاً سوى متابعة اهدافها بوسائل اخرى . وبما انه في هذه الشروط ، لا تحتفظ الحرب ابداً الا بالوسائل الخاصة بها من طابعهـــا الغريب . فالفن العسكري والقيادة العامة في كل حالة خاصة يملكان الحق في مطالبة السياسة بأن لا يتناقض الاتجاه الذي تتبعه ، والنتائج التي تستهدف الحصول عليها مع وسائل الاداة التي تستخدمها . ومهما كان هذا المطلب كبيراً ، ومهما كان الطغيان الذي يمارسه هـــذا المطلب احياناً على كل الاتجاه السياسي المتبع ، فانه لا يستطيع ان يدخل تعديلات عـــلى الحرب ، وذلك لان السبب السياسي هو الذي تصدر في بادىء الامر تحديد الهدف الذي ينبغي متابعته بالعمل العسكري » .

ومهما بدت هذه المبادىء بسيطة ، فانها تثير عدة مجموعات من المعضلات : عسكرية ،

ودستورية ، ومعضلات خاصة بالظروف .

وتستند المعضلة العسكرية على تقسيم التكتيك والاستراتيجية . ويحل نابليون هذه المعضلة كما يلي :

« لا يمكن تغطية القائد العام بأمر من وزير او امير بعيد عن ساحة العمليات ، ويعرف بصورة سيئة او لا يعرف آخر وضع لقوات قائده .

« ١ — فكل قائد عام أخذ على عاتقه تنفيذ خطة يرى انها خطة سيئة ، او تؤدي الى نكبة من النكبات ، تنفيذاً لأوامر عليا تلقاها ، عبارة عن مجرم من المجرمين. فعليه ان يسعى بكل الوسائل ، وبمزيد من الالحاح والاصرار لتبديلها ، فان تعذر ذلك كان عليه في نهاية الامر ان يقدم استقالته بدلاً من ان يكون اداة لتدمير رجاله .

٢ — ان القائد العام هو الضابط الاول في سلم التسلسل العسكري . فالوزير والامير يعطيان تعليمات يترتب عليه التقيد بها روحاً وضميراً ، الا ان هذه التعليمات لا تشكل أبداً اوامر عسكرية ، ولا تتطلب طاعة سلبية الا عندما تعطى من ضابط أعلى اطلع على الوضع الراهن ، ثم أعطاها وهو يعيش لحظات هذا الامر . ويستطيع بالتالي ان يسمع الاعتراضات عليه وان يعطي التفسيرات الضرورية لمن اوكلت اليهم مهمة تنفيذ هذا الامر » .

فالمسألة اذن هي معرفة الفرق ما بين التعليمات المخصصة لادارة الحرب والاوامر العسكرية ، وفي حالة هذه التعليمات معرفة ما يجعل « المعرفة بالوضع بالراهن » مطلوبة من السياسة . ويجب في النهاية ان نفهم معنى سخرية كليمانصو : « ان الحرب أمر كثير الجدية بشكل لا يسمح لنا بأن نتركه للعسكريين وحدهم »[1] .

والاستراتيجية هي المجال الوحيد الذي يشتمل بصورة طبيعية على طابع سياسي . فالتعليمات التي تحدثنا عنها هي في الأصل تعليمات استراتيجية . وقد رأينا ان الاستراتيجية تنقسم الى استراتيجية عملياتية والى سياسة حرب فـإذا كانت سياسة الحرب حقاً هي الميدان الذي يمارس فيه الامير صوته الاول ، فإن تدخلاته في الاستراتيجية العملياتية شيء مرفوض ... وتأخذ تدخلاته صفة شرعية أكبر ، كلما كان للعمل العسكري نتائج سياسية.

---

(١) علق الجنرال ديغول على هذه الكلمة قائلا « ان الحرب شيء كثير الجدية بشكل لا يسمح لنا بأن نتركه للسياسيين وحدهم » .

(المعربان)

إن انتقاء مسارح العمليات ، وفتح هذه المسارح ، والسلوك الذي ينبغي اتباعه ازاء العدو والحلفاء والمحايدين ، وتحديد اهداف جغرافية ذات اهمية معنوية او اقتصادية ، ان كل هذا ينبع من التعليمات . وهناك حالات يسقط فيها التكتيك تحت ضربات التعليمات ، بالرغم من المبدأ العام وذلك : عندما يتعلق الامر باستخدام الوسائل المشهود بأنها وسائل لا اخلاقية ... او أنها من القوة بحيث يؤدي استخدامها الى انعكاسات تتجاوز حدود التكتيك . ومهما بدا هذا الامر غريباً وعجيباً ، فقد اعطي المثل الاول على ذلك عند استخدام القوس الزيّار الذي كان استخدامه ممنوعاً في اوروبا من قبل مجمع اللاتران (١١٣٩) كما كان ممنوعاً في انكلترا من قبل الميثاق الكبير (١٢١٥) . ومؤخراً ، اضحت حرب القرصنة وحرب الغواصات دون حصر ولا تقييد ، وغازات القتال ، والغارات الجوية وحرب الانصار ، اضحت كل هذه الحروب تتطلب قراراً سياسياً مبدئياً . كما ان استخدام القنبلة الذرية ، حتى ولو كان استخداماً تكتيكياً ضمن اضيق الحدود يحتاج الى قرار سياسي أكثر جدية .

ونادراً ما تنجم معرفة « الوضع الراهن » عن وسائل الاتصال ، مهما كانت هذه الوسائل محسنة ، فالاتصالات المباشرة او الارتباط على مستويات حسنة امور تفرض نفسها دوماً . الا أننا كثيراً ما نرى رجل السياسة يحاول التأثير على العمليات من مسافة بعيدة . فقد ادعى وزراء القرن الثامن عشر انهم يقودون جيوشهم من مدى ١٠٠٠ كيلو متر . وقد أعطى قصر فرساي توجيهات حقيقية في الاستراتيجية العملياتية قابلة للتطبيق في البيمونت والهيس وبوهيميا . وقد كاد شوازول ان يوقع الجيش الفرنسي في الاسر في نهاية حرب السبعة اعوام عندما فرض عليه الاحتفاظ بكاسل في وضع تكتيكي لا يمكن دعمه . ونستطيع ان نفهم جيداً بيليسييه عندما حفظ برقية مزعجة امام سباستبول ، كما نفهم مونتي كوكولي ايضاً وهو يعيد للامبراطور – الذي كان يلومه على عدم احترام الرسائل المرسلة من المجلس الملكي الاعلى – حزمة لم تمس من الرسائل الممهورة بخاتم القصر ، قائلاً ما يلي : « يا صاحب الجلالة ! لقد احترمتها ، فهي في محفظتي ، وهاأنذا اعيدها اليك » . أما لوفوا الذي كان يضطر جنرالاته الى احترامه دوماً ، ويسهر على معرفة كل النتائج السياسية لمناوراتهم فقد تصرف بطريقة مختلفة إذ طلب الى جنرالاته اعلامه بكل شيء في المؤتمرات التي يعقدها ، فلم يكن هؤلاء يبخلون عليه بأية ملاحظة او اي نقد . ان السهولة التي يتم فيها الارتباط في العصر الحاضر تجعل المبادرات الخاطئة للسياسيين الذين يعرفون الوضع معرفة سيئة مبادرات غير محتملة وغير قابلة للتبرير .

اما المعضلة الدستورية فهي مسألة الوضع الشرعي للقائد الحربي . فمسألة كبير ضباط القصر[1] مسألة لا يمكن قبولها في الوقت الحاضر . ففي عصور الملكية كان كبير ضباط القصر السيد المطلق في هذا المجال، كما كان الضباط الكبار الآخرون كذلك . وكان الجيش هو جيش كبير ضباط القصر، قبل ان يكون جيش الملك . وقد اضطر الملوك الكابيسيون[2] الى محاربة كبير ضباط القصر الذين ورثوا كارلاند . ثم ترك الملوك فيما بعد هذا المنصب خالياً طالما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وقلّموا هذه الامتيازات وألغوها تماماً في عام ١٦٢٧ . وقد احتاج الملك الى ستة قرون كي يفصل ادارة الافراد والعتاد عن القيادة .

ومنذ ذلك التاريخ كانت مسألة معرفة ما اذا كان الجيش سيتمتع بقائد دائم خلافاً لرئيس الدولة مسألة مطروحة .

وتطالب الدساتير الديموقراطية الحديثة، فيما عدا بعض الاستثناءات، بأن يكون رئيس الدولة القائد الاعلى للجيش . الا ان الدستور الفرنسي لعام ١٩٤٦ – خلافاً للدساتير الاخرى – لم يتعرض لهذه النقطة ، لكن حقيقة الوقائع والنوايا تبقى امراً قابلاً للتبدل .

وكان الذين صاغوا الدستور الفرنسي لعام ١٨٧٥ والذي كان يستهدف اصلاح الملكية وتجديدها ، ينوون بالتأكيد ان يجعلوا من رئيس الدولة شخصية عسكرية . ولم يكن بديله الجمهوري جمهورياً الا اسماً ، لان اعماله كانت خاضعة لتوقيع الوزراء كما ان علاقاته مع الجيش كانت علاقات معدومة .

ويذكر دستور عام ١٩٥٨ (مادة ١٥) ما يلي :

« أن رئيس الجمهورية هو قائد الجيوش . ويترأس المجالس واللجان العليا للدفاع الوطني » .

ومع ذلك فان احكام قانون ٧ يناير (كانون ثاني) **١٩٥٩** التي تتضمن التنظيم العام للدفاع تقول : « تُرسم سياسة الدفاع في مجلس الوزراء (مادة ٧) ويمارس رئيس الوزراء

---

(١) **Connétable** ، كبير ضباط القصر الملكي . وقد كان هذا الاسم يطلق على القائد العام للجيوش الملكية الفرنسية من القرن الثاني عشر الى القرن السابع عشر وكان يتمتع بسلطات هائلة . وفيما بعد ألغى ريشليو في عام ١٦٢٧ هذا المنصب . (المعربان)

(٢) احدى السلالات الملكية التي حكمت فرنسا من ٩٨٧ الى ١٣٢٨ .
(المعربان)

المسؤول عن الدفاع الوطني الادارة العامة والادارة العسكرية للدفاع (مادة ٩) . » فهناك اذن ابهام فيما يتعلق « بترتيب القوات المسلحة» وهل هي من صلاحية القائد ام رئيس الوزراء.

ان مثل هذا الوضع غير موجود في **الانظمة الرئاسية** . فالمارشال ستالين والفوهرر او الدوتشي كانوا قواداً عامين للجيوش اسماً وسلطة . وعندما اعلن المارشال بيتان نفسه ، في عام ١٩٤٢ ، « قائداً عاماً » ، او عندما غدا الجنرال ديغول في عام ١٩٤٤ قائداً للجيوش (بوصفه رئيساً للجنة تحرير فرنسا) كان ذلك يعني حصولهما على السلطات الحقيقية . إن معنى ذلك واضح جداً ، حتى ان المجلس الفاشستي الاعلى انذر الدوتشي في عام ١٩٤٣ « باعادة السلطة الكاملة فيما يتعلق بالامور العسكرية الى مجلس سافوا الملكي » . وبما ان رؤساء الدولة المتمتعين بسلطات عسكرية كاملة لا يقودون الجيوش مباشرة ، فهم يعملون عن طريق هيئات اركان عامة رئاسية . وقد استخدم روزفلت وهتلر هذه الطريقة بصورة متعددة . فقد كانت الآراء العسكرية للفوهرر تفرض على القيادة العامة للقوات المسلحة بواسطة المارشال كيتل ، وتتضمن توجيهات استراتيجية وعملياتية . اما آراء روزفلت العسكرية فقد بقيت ضمن خط سياسة الحرب ، وكانت هيئة اركانه جاهزة لترجمة الآراء الاستراتيجية – السياسة الى لغة عسكرية . وكان اول مثل عن هيئة الاركان التي تضم مجموعة سياسية وعسكرية هو بلا شك لجنة الانقاذ العامة في الجمهورية الفرنسية الاولى ، التي اصبح فيها كارنو ، بغرفته العسكرية المعبر عن توجيهات روبسبيير . وكان روبسبيير يحتقر كارنو لدرجة دفعته لان يصفه « بالرجل الذي لا يطاق » ، ولذا لم يخف عنه ان الهزيمة ستكلفه رأسه . وقد يكون من المستحيل اقامة مثل هذا الوضع في وضع ديمقراطي طبيعي ، تتجه السياسة فيه الى تعضيد ومساندة « الرجال الذين يسهل قيادهم ، لا أفضل الرجال » وتفضلهم على غيرهم ، كما اشار الجنرال ديغول الى ذلك[1] .

وفي النظام الملكي يكون رئيس الدولة دائماً القائد الحقيقي للجيوش ، فإما ان يقودها في الحرب بصورة فعلية كما فعل ذلك يوليوس قيصر وفريدريك الثاني ونابليون الاول ، او يشرف رئيس الدولة عليها بنفسه ويدير خدمة الضباط ، وكان هذا هو حال الاباطرة الالمان في المرحلة الحديثة ، اذ كان الامبراطور يثبت وجوده كفيلد مارشال ويترأس مؤتمرات الاركان ويشرف على الترفيع ويبقى اخيراً الحكم الاعلى بين رئيس الوزراء

---

(١) لقد أشار ديغول الى هذا الأمر في كتابه « حد السيف » المذكور آنفاً

(المعربان)

والقائد العام . وقد اظهر غليوم الاول انه مثل يحتذى في مواقفه بين مولكته وبسمارك ، وكان غليوم الثاني اقل نجاحاً بين هندنبورغ وبتهمان – هولفج .... ولقد كان لهذا الحل ، على الاقل فاعلية الدمج ذاتها بين قائد الحرب الحقيقي ورئيس الدولة . وفي مثل هذه الحالة يعاني القائد من الضرورات السياسية التي تفرض عليه كثيراً من القيود ، فلا يطبق دوماً افضل الحلول العسكرية . وبهذا الشكل ، ضحى نابليون في عام ١٨١٣ بالموقع المركزي الملائم في لوكاو من اجل موقع غورليتز الذي كان يشتت قواه ، الا انه كان يسمح بحماية درسد ، وهي عاصمة الحليف السكسوني . واعتقد هتلر في عام ١٩٤٣ أن في وسعه ازدراء اعتراضات هيئة الاركان العامة للقوات المسلحة الالمانية ، فقاد فخ البترول القفقاسي الجيوش الالمانية ... الى ستالينغراد . واخيراً ، فان دمج الوظائف السياسية والعسكرية يربط الهزيمة بأزمات النظام : وهذا ما حدث في بواتييه وبافي وواترلو وسيدان .

اما **المسائل الظرفية** (المتعلقة بالظروف) ، فتتعلق بالاشخاص كما تتعلق بالاحداث وتؤدي الى مخالفات للقواعد السليمة في تقسيم السلطات عندما يحكم طرف من الاطراف بأن الطرف الآخر عاجز او غير كفء .

ومن النادر ان يخرج رجل السياسة عن دوره تحت تأثير الخطر وحده . وهو لا يخرج عن دوره الا اذا فقد الثقة تماماً . ففيلار وهوشي وجوفر لم يستول عليهم القلق في الساعات الحرجة ، وكان الناس ينتظرون منهم كل شيء ، كما انهم كانوا يحتفظون بحرية عملهم . وعندما يحل الجمود والسكون ، يعيل صبر رجل السياسة الذي يغدو عاجزاً عن التقاط مغزى طبيعة الاشياء ونشاط القادة . فيدفع القائد الحربي الى المغامرة والسير الى المعركة . ولقد كان لريشليو وللويس الرابع عشر ولكليمانصو ردود فعل متماثلة حول هذه النقطة . وهناك آخرون يذهبون الى وضع انفسهم موضع القيادة . فقد اعطى لينكولن في عام ١٨٦٢ مباشرة الى الجيوش الشمالية اوامر للهجوم، محدداً الاهداف دون علم **هيئة الاركان العليا الفيدرالية** . وقد تبدت هذه الاوامر فيما بعد غير قابلة للتطبيق . وفي عام ١٨٧١ ، أمر فريسينيت بالقيام بسلسلة من العمليات المتباعدة في شمال اوليان ، لانه ثار بسبب خمول وتردد دوريل دوبالادين فتفتت من جراء ذلك جيش اللوار . اما شكل الحذر المطلق الذي تبديه السياسة ازاء العسكرية فقد تجلى في وظيفة المفوض لدى الجيوش . فعندما يقتصر عمل المفوضين على مراقبة المعنويات والروح الوطنية ويشرفون عليها لا تتعرض الجيوش الا لنصف الشر . ولكن الفوضى تصيب الجيش عندما يتدخلون في العمليات ، ففي ظل الجمهورية الاولى خرّب المفوضون المفرزون الى جيوش الغرب الثلاثة أفضل جهود

الجنرالات الذين كانوا في صراع دائم معهم . وفي سبتمبر (ايلول) ١٧٩٣ ، كانوا يقودون من مقاعدهم ، وهم مجتمعون في سومور الارتال الاربعة المندفعة ضد الڤانديين ، الأمر الذي ادي الى تفتيتها وتحطيم الارتباط القائم فيما بينها وانزال الكوارث والنكبات بها . وقد انتصر كليبر في شوليه بعد ان تخلص من المفوضين في اوكتبر (تشرين الاول) . كما حقق بريور دولامارن الاشراف على القادة العسكريين فكانت هزيمة دول . وقد صرح روسينيول الذي كان القائد العام في ظل بريور بما يلي : « لقد أقسمت على حماية الجمهورية أو الموت ! وسأحافظ على قسمي ، الا انني أصرح لكم بأنني لم أخلق لاقود جيشاً من الجيوش ، فليعطوني اذن قيادة كتيبة ! » ، ورد بريور على ذلك قائلاً : « اني اصرح للضباط الجنرالات الذين يحيطون بي ان روسينيول ، حتى ولو خسر عشرين معركة ، فإن ذلك لن يقلل من مكانته كابن تحبه الثورة . فتعساً لهم اذا ضللوه ! اننا سننظر اليهم بأنهم المسببون لهزائمنا ، في كل مرة نتعرض فيها للهزيمة » . وبناء على هذا ، عزل رئيس الاركان العامة . ولم يتذوق كارنو هذه الفكاهة جيداً . فطرد روسينيول وبريور ، واعطى القيادة لمارسو ، الذي نقلها بصورة عملية الى كليبر . وعندئذ امكن تقويم الوضع واعادته .

والامثلة المعاكسة ، التي يتمتع فيها القائد العسكري بسلطات سياسية امثلة اكثر ندرة ، وتتطلب انتصارات عسكرية رائعة . ولقد رأينا بونابرت يقود حملة عام ١٧٩٦ على هواه ، ويأخذ المبادرة في عقد اتفاقيات السلام رغم أنف مجلس المديرين (الديركتوار) . وعلى العكس ، من الممكن ان نرى ولادة اوضاع « قريبة من النظام القنصلي »[1] لصالح القائد الحربي ، وبخاصة عندما تكون الحملات حملات استعمارية بعيدة . وقد قبلت الجمهورية الثالثة هذا الوضع بقدر ما قبلته الدولة الرومانية من قبل . واخيراً ، هناك اوضاع غير طبيعية واوضاع تصل الى الحد الاقصى من التطرف ، تظهر فيها السلطة في قمة نفوذها ، فتضطر القائد الحربي الى ان يحتال عليها ويتآمر . كما ان سيادة السياسة على العسكري لا ينبغي ان تعمي هذا الاخير الى الحد الذي يجعله يخدم الامير ضد الامة وضد قوانين الانسانية . هذه هي المشكلة المؤلمة التي كان على القادة الالمان ان يفكروا بحلها . فايقاف حركة الآلة الهتلرية ابان الحرب ، كان يعني بالطبع تسليم الامة الالمانية للخصم ، وعدم ايقافها كان يعني ايضاً السير نحو الهزيمة مع خيانة المصالح العليا للشعب الالماني وللانسانية جمعاء . وقد اختار البعض الخيانة الواعية التي تستهدف القضاء على الامير لصالح المصلحة الوطنية . وقد وجّه

---

(١) Proconsulaire

اليهم أرنست جنجر التحية في القول التالي :

« هناك اوضاع لا ينبغي ان ننظر الى النجاح او الفشل فيها ، فالمرء فيها خارج السياسة حقاً . وكذلك فان هناك رجالاً يحصلون على الانتصار المعنوي ، على حين يخسرون تاريخياً. إن شجاعتهم وتضحيتهم من طبيعة أكثر سمواً من التضحية والشجاعة في ساحات المعارك . لذا فإن الشعر يمجدهم مع أنهم لم يحققوا اي انتصار » .

وينبغي اخيراً أن نلاحظ ان القرن العشرين رأى تدهور مبدأ وحدة القيادة على مستوى المؤسسات ، وعلى مستوى الظروف ، لان هذه الوحدة لم تعد ممكنة ابداً على مستوى شخص واحد . فنحن ابعد ما نكون عن الشروط التي سمحت لنابليون بأن يقول : « ليس هناك شيء اهم من وحدة القيادة في الحرب . فعندما لا نحارب الا بدولة واحدة ، ينبغي ان لا يكون عندنا الا جيش واحد يعمل على خط واحد » . وكان نابليون يتكلم آنئذ عن عصر كان بوسع الامير فيه ان يكون قائد قواته المسلحة الخاصة ، وفي زمن كانت فيه مسارح العمليات الخارجة عن نطاق اوروبا تشكل جزءاً من « الاسطبلات » طبقاً للكلمة التي اطلقها فرجين .

ومنذ الحرب العالمية الأولى ، اعتقد الجميع بأن فصلاً جذرياً بين سلطات الحكومة وسلطات (الجنرالات) القواد العامين قد أقيم فوق مسارح العمليات المختلفة . والواقع ان هناك احتكاكات مستمرة بين السلطتين ، لان الفصل بين الادارة العامة للحرب وادارة العمليات لا يتمتع بالوضوح الذي تتطلبه النظرية إلا عندما يكون مسرح العمليات مجالاً لتعاون عدة جيوش وعدد من الحلفاء . ومع ذلك ، ففي المجال العملياتي ، تتلقى نظرية وحدة القيادة اقصى تجسيد لها في سلطات فوش ، القائد الوحيد « من مصب الايزر الى مصب البياف » ، وهو الاستراتيجي الوحيد وسط التكتيكيين .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، فعدلت طريقة القيادة في اعلى المستويات ، لان الاستراتيجية في هذا المجال عامة وشاملة :

ـ عامة لاننا كنا ملزمين على وعي مفهوم « مسرح الحرب » المشتمل على عدة مسارح متشابهة للعمليات بناء على اسلوب الاتصالات البحرية ، والجغرافيا العامة ، ونفسية الشعوب . علماً بأن مسارح الحرب هذه كانت تتنافس في الاهمية منذ ذلك الوقت .

ـ شاملة لانه كان علينا ان نجند اقل الفنون قرباً من العسكرية بصورة صريحة لنوجه

الاستراتيجية بصورة فعالة . وهكذا رأينا في مؤتمر كازابلانكا (فبراير (شباط) ١٩٤٣) الخبراء الاقتصاديين يوجهون ضربات القصف الجوي .

ففي مثل هذه الحالة ، لم تكن الاستراتيجية العملياتية ذاتها على المستوى الانساني . وقد توصلوا الى القيادة الجماعية، بخلق هيئات اركان مشتركة (بين الجيوش أو بين الحلفاء) مكلفة بالادارة الاستراتيجية العملياتية نظراً لان الضرورات الخاصة بالتحالفات تساعد على ذلك . وبوسع « هيئات الاركان الرئاسية » ان تنضم اليها لتمثل رؤساء الحكومات .

وليس بوسعنا ان نخفي ان على هذه الاتجاهات ان تقوى وتتوسع في اية حرب ذرية مقبلة . وبما ان كل تدخل استراتيجي قادر على تسبب نكبات لا يمكن تلافيها ، فمن الطبيعي ان نرى العنصر الحكومي يطالب بالاشراف الحقيقي على العمليات. ومن الواضح ايضاً ان القيادة الجماعية تجمع مراراً ممثلي القيادتين المدنية والعسكرية في مستو يات اقل في كل ما يتعلق بالدفاع عن البلاد[1] . وسنرى اعتباراً من الآن « ان القناصل سيسيرون معاً » كما كانت الحال في الازمنة الرومانية ، الامر الذي يفترض بعض القواعد الفكرية المشتركة.

الجنود المحترفون وجنود المليشيا

لقد رأينا ان للانظمة السياسية تفضيلات معينة فيما يتعلق بأشكال الخدمة العسكرية . ولا نتخلص من هذه التفضيلات الا تحت تأثير وضغط الضرورات . فاستخدام الاحتراف المتميز بالتطوع لمدة طويلة لا يقدم للدولة سوى جيوش صغيرة ، نادراً ما يتجاوز تعدادها ١,٥٪ من تعداد السكان . اما استخدام المليشيا المتميزة بالخدمة الالزامية المتكافئة او التطوع لمدة قصيرة ، فانها تستطيع ان تقدم للدولة جيوشاً يصل تعدادها من ١٥ الى ٢٠٪ من تعداد السكان .

وتتبدل الصفات المهنية ، والاجتماعية والسياسية لكلا النموذجين من الجنود بتبدل مدة الخدمة . فجنود المليشيا الذين يضمون فيما يضمون الجيوش الوطنية الحديثة ، عرفوا اعباء عسكرية مختلفة جداً . وقد اكتفى بعض هذه الجيوش بنشاطات عسكرية منتظمة من

---

(١) انظر في هذا الموضوع مراسيم ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٦٢ حول تنظيم المسؤوليات الاقليمية في الدفاع . ان تعبير « القناصل يسيرون معاً » لا يعني ابداً انهم على المستوى ذاته ، ولكنه يعني ان الصدارة والاولوية هي للسلطة المدنية او السلطة العسكرية حسب الظروف . (المؤلف)

٨ أيام الى ٣٠ يوماً في السنة ، وذهب بعضها الى القيام بخدمة عاملة مستمرة لمدة خمس سنوات . وقد رأينا في الحرب « مجندين مدعوين للخدمة » يشبهون بعض « الجنود المصادرين الذين صودروا في عام ١٧٩٣ ، وامضوا في الخدمة ثمانية عشر عاماً قبل ان يتحرروا منها في عام ١٨١٣ . ومن الطبيعي ، في مثل هذه الحالة ، اننا امام جنود محترفين رغم انهم غير متطوعين . فهؤلاء يخدمون ست سنوات على الاقل . وقد رأينا في ظل النظام القديم – الذي كان الجندي يبقى فيه في القطعة بموافقة القادة – جنوداً امضوا خمسين سنة في اللواء ذاته كمحاربين قدماء . ولا يمكن ان يتمتع الجندي المحترف ابداً بصفات جندي المليشيا ، ولكن بوسع جندي المليشيا ان يكتسب بصورة كاملة مزايا ومساوىء الجندي المحترف ، اذا سمحت له الظروف بذلك .

ويعوض الجندي المحترف مزاياه المهنية بمساوىء سياسية واجتماعية . وأولى هذه المزايا المهنية هي الصلابة تحت النار والتجربة العسكرية . ففي معركة مندن (١٧٥٩) كان بوسع الماركيز دوسان بيرن ان يغامر بحركة « رماة القنابل » الملكيين امام الجبهة ، حيث كانت القذائف تقتلع الارتال دون ان تفكك صفوفها ، وكان سان بيرن يقول : « يا اصدقائي ، ان المدفع لا قيمة له ، انه يقتل ، وهذا هو كل شيء » .

وقد تطور الحس التكتيكي فيما بعد بالاضافة الى هذه الشجاعة . وفي يوم من الايام أنب المارشال دوساكس أحد رماة القنابل لأنه كان يعمل بلا مبالاة في احد الحصون المتقدمة الخطرة فأجابه الرامي قائلاً : « إني اعمل بهذا الشكل لاني اعرفك ، فنحن لن نبقى هنا وقتاً طويلاً » . وقد اظهرت الاحداث فيما بعد ان الرامي كان على حق . وليس من قبيل المصادفة ، ان نرى ان من بين الاربع والعشرين مارشالاً في الامبراطورية ثمانية منهم كانوا ضباطاً اعواناً ، وعشرة منهم كانوا ضباط صف قبل عام ١٧٨٩ . حتى ان ما سينا يشكل في هذا المجال مثلاً نموذجياً . وبحسب اقوال نابليون ، كان حديث ماسينا عادة حديثاً تافهاً لا جدوى منه ، وكثيراً ما كان المرء يتساءل ما اذا كان يتمتع بذهن وفكر جيدين ، الا انه كان يظهر في القتال مواهب عسكرية تجبر المرء على ان ينحني احتراماً لها .

وللجندي المحترف سيئتان ، وبخاصة عندما يكون هذا الجندي مرتزقاً اجنبياً : فهو يفر في السلم . اما في الحرب فانه يحتال وينهب . وكان الجندي المرتزق في النظام الملكي القديم ، يبدل المعسكر الذي يحارب معه تبعاً للظروف التي تلائمه ، وغالباً ما يعود للظهور في اول جيش كان ينتمي اليه . وكان المارشال دوساكس ينوي ان يضع علامة على أكف

المتطوعين ليتجنب هذه العملية . وكان غش المرتزقة واقبالهم على النهب والسلب ناجماً عن نقص ما يوزع عليهم بصورة نظامية . فالاعاشة والتموين من المخازن لا تتم الا عندما يكون الجنود متمركزين في ارض الوطن ، وفي مرحلة الاقامة . أما في مرحلة العمليات المتحركة ، فلم يكونوا يزودون بشيء اكثر من « الخبز العسكري »[1]. وفي المسير كان الجنود يتخلصون من لباسهم العسكري كي يجدوا الطعام ولا يعودون الى ارتدائه كجنود نظاميين إلا عندما يقتربون من المعركة . فبين الاحتيال والنهب خطوة واحدة كثيراً ما خطوها . وكانت هذه الاعمال تحطم الانضباط كما تحطم ولاء القطعة . وكان أردان دوبيك يقدر وجود ٢٥,٠٠٠ محتال من بين ١٠٠,٠٠٠ جندي في الجيش الامبراطوري اثناء الحملة الايطالية في عام ١٨٥٩ لم يساهموا في القتال، بالاضافة الى ما ارتكبوه من اعمال الغش والاحتيال . وكانت القطعات في ذلك الوقت تعي وعياً كاملاً الضرر الذي تحدثه هذه الانحرافات . وقد رأينا في عام ١٧٩٦ محاكم تشكلت داخل السرايا ، وكان اعضاؤها من قدماء المحاربين ، وذلك لفرض العقوبات على المتخلفين والمحتالين فما ان يصدر الحكم بواحد من هؤلاء الجنود حتى يشبعوه ضرباً « بالنعال او بعقب القدم » ، تبعاً لاهمية الخطيئة المرتكبة . وكان هذا الاجراء التأديبي ، كما اعترف فيما بعد الجنرال بلبورت، يدفع الجنود الى التمسك بالنظام!

وعلى المستوى السياسي ، ارتبط ولاء القطعة في معظم الاحيان بالمزايا المادية الممنوحة . فعندما حرم المرتزقة القرطاجنيون من الرواتب تمردوا ضد اسيادهم ، وثاروا عليهم. فكان من الضروري القضاء عليهم في « الحرب التي لا يمكن التكفير عنها » . وكانت قطعة المرتزقة القرطاجنيين ، هي القطعة نفسها التي تميزت بروعة صمودها تحت قيادة هانيبال . وفي هذا المجال ذاته تعتبر المبالغة في اغداق المنح والمزايا عملاً محفوفاً بالمساوىء يعادل عدم التقيد بالعقود مع المرتزقة ومراعاتها . وقد قال سبتيم سيفير ما يلي : « اجعلوا الجنود اغنياء واهزأوا ببقية الامور » . وقد نتج عن تطبيق هذا القول تسلط « الليجيونات » بشكل سادت فيه الفوضى التامة خلال خمسين عاماً (٢٣٥ — ٢٨٥). فقد اعاد جنود هذه «الليجيونات» الى الامبراطورية ستة وعشرين جنرالاً لم تعترف بهم قطعاتهم ، هذا دون ان نحسب اولئك الذين لم يتعرف المجلس عليهم ، ومن بينهم جنرال واحد فقط مات موتاً طبيعياً .

ويتحلى رجل المليشيا بفضائل ومساوىء رجل مرتبط بالوسط الذي يعيش فيه . فهو

---

(١) Pain De Munition

(المعربان)

لايفتقر الى الارادة الطيبة والروح الحماسية قبل المعركة. ويميل في الميدان الى احترام الممتلكات وترتبط قيمته العسكرية ومعنوياته في القتال بطراز حياته ، وبخاصة اذا كان في طليعة المحاربين . وتقدم الشعوب المعتادة على الحياة الفعالة والقاسية افضل رجال المليشيا . ويساهم النظام الاخلاقي للمجتمعات الموحدة والدينية في نوعية المليشيا ، الا انه لا يضمنها ويؤكدها تماماً . ويتأثر الوسط ايضاً بأطاراته . ولهذا فان الجيوش الوطنية التي تتمتع بضباط محترفين ، هي بصورة عامة اصلب من الجيوش المؤلفة من المليشيا الصرفة ، حيث تنتقى العناصر القيادية بصورة عامة تبعاً للوضع السياسي او الاجتماعي .

وتتعرض المليشيا الى الرعب والفزع ، اذا لم تكن قد تضرست في الحرب . «فمتطوعو ٩١ » او « متطوعو شوان » يتساوون في هذا المجال[١] . وفي عام ١٧٩٢ ، اغتال المتطوعون الاولون بقيادة كيبفران قائدهم « جنرالهم » وفروا الى مدينة ليل . وفي ليلة معركة جماب[٢] ظهرت نقاط الضعف ذاتها في القطعات التي جندت بصورة عاجلة . فقد بدأ الڤانديون بالفرار في طورفو غيران نساءهم اجبرنهم على الانتصار . وفي لوسون وشوليه هزمتهم العناصر الجمهورية التي تقل عنهم عدداً بثلاث الى ست مرات وشتتتهم . ولم تتصرف المليشيا الحديثة بصورة افضل ، فقد كتب الامير دوجوانفيل عن جنود المليشيا الاتحاديين في الحرب الاهلية الامريكية ما يلي : « انهم استشهدوا وجرحوا بأعداد كبيرة[٣] . ثم باتفاق ضمني ، وجدوا ان ما قاموا به من اعمال كاف لانقاذ الشرف العسكري ، فقرروا ان يتركوا المعركة معاً» . وقد شتم رجال الحرس الوطني المتحرك التابعون لمعسكر شالون المارشال كانروبير ورجموه بالحجارة وهم يصيحون بأصوات عالية : « الى باريس ! الى باريس ! » فوصل البروسيون اليها قبلهم . اما الحرس الوطني فقد كان وضعه اسوأ . فالحرس الوطني في باريس كان يعد ٢٨٣ كتيبة ، وكان من بين عدادها اطفال وشيوخ ، وافراد صدرت بحقهم احكام سابقة . وقد تمكنت مفرزة منتقاة مؤلفة من ٩٠,٠٠٠ جندي في بوزنهال من تحقيق النصر بـ ٤ ٪ من الخسائر .

---

(١) متطوعو عام ١٧٩١ ، هم افراد التشكيلات العسكرية التي نبعت من التجنيد الحر ، وتجمعت بعد فرار الملك في كتائب من المتطوعين . اما متطوعو شوان فهو اسم اطلق على فلاحي الماين وبريتاني والنورماندي الذين تمردوا اثناء الثورة . (المعربان)

(٢) معركة جماب Jemmapes وهي القتال الذي دار في ٦ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٧٩٢ بين جيش ديموريز والجيش النمساوي ، وانتصر فيها جيش ديموريز (المعربان)

(٣) سنرى أن الاحصائيات تثبت العكس عندما تكون المليشيا غير مدربة او متعودة على الحرب .

وقد تم تزوير كل المعارك التي اعتبرت معارك ظافرة لحساب قوات المليشيا الصرفة . ففي فالمي لم يكن التماس مفقوداً فحسب بل ان معظم جنود الحرس الوطني كانوا جنوداً ملكيين قدماء جمعوا للقتال[1] . وفي الفيرشامبونواز[2] كان افراد الحرس الوطني يرتدون القباقيب والقمصان ويصمدون بنسبة واحد ضد ٦ ويتحملون خسائر تعادل ٨٧٪ دون ان يخضعوا او يذعنوا . ولكن هؤلاء الحرس كانوا من الذين صودروا في عام ١٧٩٣ وحرروا في عام ١٨١١ بعد ممارسة الاعمال الحربية مدة ثمانية عشر عاماً .

ولاطارات المليشيا المنتقاة تبعاً لانتمائها الاجتماعي مساوىء مماثلة . فالكثيرون منهم يستهلكون ويفنون قبل ان يلمع بينهم ضباط اكفاء . كما ان عدم كفاءتهم تسيء الى مصير المعارك ونتائجها او انها تترجم بخسائر تتجاوز الحدود .

وكانت ازمات الاستقرار والجمود العسكريين في روما ، من صنع هؤلاء الهواة : ازمة ١٤٩ الى ١٤٧ ق . م . ، والتي حلها سيبيون ، وازمة ١٩٨ الى ١٩٧ ق . م التي حلها فلامينيوس ، وازمة ١٧٨ الى ١٦٨ ق . م التي حلها بول اميل ، ولما انتزع هارون الشاب القيادة من الحكيم فابيوس ، كان هذا الانتزاع سبباً في هزيمته في معركة كان التي فر على اثرها . وهؤلاء الجنرالات الذين ذكرناهم سابقاً هم على العكس محترفون حقيقيون لمهنة السلاح ، بالرغم من تطفلهم على الحياة السياسية للبلاد .

لقد كان معظم القادة المتفوقين في جيوش الجمهورية الاولى والامبراطورية عسكريين قدماء . وبالنسبة لبقية العهود فاننا نجد عدداً ضخماً من الضباط . فقد عينت الجمهورية الاولى وعزلت ٥٠٠ جنرالاً ، كما ان مجلس المديرين (الديركتوار) سرح ٣٠,٠٠٠ ضابط واحال ١٠,٠٠٠ منهم الى الاستيداع . ومن عام ١٨٦١ الى عام ١٨٦٥ ، قبل الجيش الاتحادي الامريكي استقالة ٥٢٢ ضابطاً نظامياً او شطبهم من عداد الضباط ، كما قام بالعمل نفسه بالنسبة لـ٣٣١٢٠ ضابطاً متطوعاً، ويمثل هذا الرقم ٣٣٪ من مجموع الضباط و١٨٨٪

---

(١) كان(نصف – اللواء) Demi-Brigade من الحرس البروسي مؤلفاً بكامله من حراس فرنسيين . ولم يكن من الممكن اقامة نصب « للمتطوعين » في فالمي ، لأنهم لم يجدوا في سجلات الافواج عدداً يليق بهذا النصب .

(٢) La Fère Champe Noise – ٢٠ كم شرق سيزان – على المان – هزم الحلفاء الفرنسيين في هذه المنطقة في ٢٥ مارس (آذار) ١٨١٤ في حملة فرنسا . وهنا قاتلت فرقة غزو سيتي الفرنسية قتالا ظافراً ضد الحرس البروسي . (المعربان)

من الملاكات المتوسطة في الضباط المحترفين والمتطوعين .

ويكشف لنا مورفان ان الضباط الامبراطوريين المتخرجين بالانتقاء ، او بالترفيع بالاقدمية المطلقة قد زحموا صفوف الضباط الاعوان بضباط جهلة ، وعاجزين و « جنود مستهلكين » . ويتفق مورفان مع كولانكور في التأكيد على ان اشجع هؤلاء الضباط لم يكونوا من الذين يتنبأون بعواقب الامور ، او من المناورين الماهرين ، وانهم تسببوا في كثير من الخسائر البشرية والمادية . وتظهر دراسات البرت مينيه ان نسبة القتلى والمفقودين من المجندين قد بلغت بين عام ١٧٩٢ و ١٨١٥ ــ ٦٠٪ ، ووصلت الى ٨٧,٥٠٠ جندي سنوياً من عام ١٧٩٢ الى ١٧٩٩ و ٦٦,٠٠٠ جندي سنوياً من عام ١٨٠٠ الى ١٨١٥ . ومن الممكن ان نلاحظ بالتوازي ان عدد العقداء والقادة (الجنرالات) الذين سقطوا في المعارك في ظل الامبراطورية ، يعادل ثلاثة امثال العقداء والجنرالات الذين سقطوا في معارك الجمهورية الاولى ، كما ان عدد المتقاعدين من بينهم ، او الذين صنفوا كغير اهل للقيادة ، يقل عن مثيلهم في الجمهورية الاولى بمرتين (٣٣٪) (٩٪ سقطوا في المعارك ــ ٦٩٪ شطبوا من كشوف الضباط) . ولقد قلل تحسن الضباط وارتفاع مستواهم العسكري من الخسائر العامة التي كانت تتعرض لها القطعات .

وليس هناك شيء قادر على ابراز سلوك الطوائف المختلفة من المهنيين والمليشيا افضل من احصاءات الحرب الاهلية الامريكية وحرب ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ . فسنرى فيها معدل الفرار الذي يدل على حالة الانضباط ، ومعدل الخسائر (النسبة المئوية للقتلى والجرحى بالنسبة للقوات المشتبكة) الذي يميز صمود القطعة تحت النار ، ومعدل الفاعلية (النسبة المئوية للخسائر المعادية بالنسبة لعدد القوات الصديقة) الذي يميز نوعية التدريب والمناورة .

ففي الحالة الاولى ، يتعلق الامر بالمليشيا الاتحادية المعتمدة على التطوع لمدة عام واحد ، حتى عام ١٨٦٣ حيث دخلت الخدمة الالزامية ، كما يتعلق بالقطعة المحترفة الاتحادية اذ ان قطعات المليشيا والقطعات المحترفة لم تدمج معاً ابداً .

أما الحالة الثانية فتتعلق بالجيش الفرنسي المحترف ، ومليشيا الحرس المتحرك والجيش الوطني الألماني :

١ – الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ – ١٨٦٥)

الجيش الشمالي الاتحادي

الصفات المميزة	ضباط		جنود	
	نظاميين	متطوعين	نظاميين	متطوعين
التعداد في عام ١٨٦٢	١,٦٤٨	١٩,٥١٥	٣٦,١٥٣	٥٣٦,٧٨٠
معدل الفرار من الخدمة	٠,٢ ٪	٠,٨ ٪	٤,٥ ٪	٣,١ ٪
الخسائر العامة	١١ ٪	٢٦ ٪	٨ ٪	١٨ ٪

متوسط الخسائر في كل معركة

الهزائم من عام ١٨٦١ الى ١٨٦٣ بنسبة ٢ ضد ١ : ٨ ٪	انتصارات من عام ١٨٦٣ بنسبة ٤ ضد ١ : ٢٢ ٪ (الخسائر الجنوبية ٣٦ ٪)

٢ – حرب ١٨٧٠ – ١٨٧١

الجيش المحترف الفرنسي ضد الجيش الوطني الالماني

المعارك (١ فرنسي ضد ٢ ألمان)	النسبة المئوية للخسائر		النسبة المئوية للفاعلية	
	فرنسيين	المان	فرنسيين	المان
معركة روزونفيل التي لم يبت بأمرها بنتيجة حاسمة	١٣ ٪	٢٤ ٪	١٣ ٪	٢٥ ٪
هزائم : فيسمبورغ ، وورث فورباخ ، سانتبريفات ، سيدان .	١٤,٥ ٪ وحد اقصى ٣٠ ٪	٦,٨ ٪	١٤,٥ ٪	٦,٧ ٪
المعدلات الوسطية	١٤ ٪	٨,٥ ٪	١٤ ٪	٨,٥ ٪

٣ ـ حرب ١٨٧٠ ـ ١٨٧١

المليشيا الفرنسية ضد الجيش الوطني الالماني

معارك (٥ فرنسيين ضد ٣ ألمان)	النسبة المئوية للخسائر		النسبة المئوية للفاعلية	
	فرنسيين	المان	فرنسيين	المان
انتصارات : كولميه . معارك غير حاسمة النتائج في بونْدونويل ، وفي الليزين .	٥,٥ ٪	٤,٧ ٪ وحد اقصى ٦ ٪	٢ ٪	١٣,٣ ٪
هزائم : اميان، ومان، وسانت كانتانوباتايوبون-لارولاند	٦ ٪ وحد اقصى ١٣ ٪	٥,٨ ٪	٤,٦ ٪	٧,٧ ٪
المعدلات الوسطية	٥,٨ ٪	٥ ٪	٣,٣ ٪	٩,٦ ٪

وتوضح احصاءات الحرب الأهلية الامريكية عدة نقاط :

ـ الانضباط ضعيف جداً، فهناك ١٢٠,٠٠٠ فار. و ٧,٠٠٠ اعدموا رمياً بالرصاص لارتكابهم جرائم ضد الحق العام .

ـ بذل الضباط جهوداً اكبر من الجهود التي بذلتها قطعاتهم ، وهذا شيء طبيعي .

ـ ان القطعة التي تقل خسائرها في الهزيمة عن خسائرها في النصر قطعة لا تريد ان تقاتل ، او انها لا تعرف القتال عندما تقبله .

ـ ان خسائر النظاميين اقل من خسائر المليشيا ، وهذا دليل على حسن تدريبهم وتجربتهم وتقودنا احصاءات حرب ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ الى ملاحظات لا تقل عن هذه الملاحظات وهي :

١ ـ تتميز القيمة الفنية للقطعة بنسبة مئوية عالية من الفاعلية وبنسبة مئوية ضعيفة من الخسائر في النصر او في معركة غير حاسمة النتائج . وينتظم تصنيف النماذج الثلاثة للجيوش على الشكل التالي :

الصفات المميزة	الجيش الفرنسي المحترف	الجيش الالمـانى الوطني	جيش المليشيا الفرنسي
متوسط النسبة المئوية في الفاعلية	١٤ ٪	٩ ٪	٣,٣ ٪
النسبة المئوية النسبية المتعلقة بالخسائر في حالة النصر او في حالة معركة غير حاسمة النتائج .	١٣ ٪ / ٢٤ ٪ = ٠,٥	٦,٨ ٪ / ١٤,٥ ٪ = ٠,٥ ضد الجيش المحترف ؛ ٥,٨ ٪ / ٦ ٪ = ١ ضد المليشيا	٥,٥ ٪ / ٤,٧ ٪ – ١,٢

ونحن لم نتعرض هنا للحالات المتطرفة كالحالات التالية :

– القتال في بوزنهال الذي حقق فيه الحرس الوطني ٠,٦٪ من الفاعلية مقابل ٤٪ من الخسائر .

– القتال في بورجيه[1] حيث قامت كتيبة المسير رقم ٢٨ المؤلفة من جنود محترفين ، لم تتأثر معنوياتهم بهزيمة سيدان ، بالقتال ست ساعات بنسبة (١) ضد (٤) وبدون مدفعية ، على حين كانت خمس بطاريات من المدفعية تقوم بقصفها وإزعاجها ، وفي نهاية القتال ، كانت خسائر الالمان المنتصرين ٦٪ ، وكانت نسبة فاعليتهم ٩٪ ، اما الفرنسيون فكانت خسائرهم ٣٦٪ ، وفاعليتهم ٢٤٪ (والنسبة المئوية المتعلقة بخسائر الالمان المنتصرين هي ٦ ٪ / ٣٦ ٪ = ٠,٢) .

٢ – **تتجسم القيمة المعنوية** لقطعة من القطعات بنسبة الخسائر التي تتحملها في معركة خاسرة قبل ان تخضع وتذعن . اما التصنيف فهو مشابه للتصنيف السابق :

الصفات المميزة	الجيش الفرنسي المحترف	الجيش الالمـاني الوطني	جيش المليشيـا الفرنسي
النسبة المئوية القصوى للخسائر في الهزيمة قبل الإذعان	٣٦٪ في بورجيه	٢٤٪ في روزونفيل	١٣٪ في اميان
متوسط النسبة المئوية للخسائر في الهزيمة قبل الاذعان	١٤,٥٪	١٢,٤٪	٦٪

(١) Le Bourget – شمال شرق باريس – القتال ضد البروسيين في ٢٨ – ٢٩ اوكتوبر (تشرين الاول) و ٢١ ديسمبر (كانون الاول) ١٨٧٠ .
(المعربان)

٣ ــ وتتسم المرحلة الاولى بالتفوق العددي الالماني (٢ ضد ١) ، اما المرحلة الثانية فتتميز بالتدني العددي (٣ ضد ٥) . وتتميز المرحلتان بالتفوق الدائم لهيئات الاركان العامة الالمانية . وهكذا نجد ان التصنيف الذي يعطي المميزة التقنية والمعنوية للجيش الامبراطوري الفرنسي في كل الحالات ، لا يتناقض مع النتائج . فعندما رأى فريدريك شارل عرض القطعات التي استسلمت بقيادة بازين قال ببساطة : « بوسع المرء ان يفعل كل شيء مع امثال هؤلاء الجنود » .

٤ ــ تكون النسبة المئوية للفاعلية في الهزيمة اكبر من مثيلتها في حالة النصر . وينطبق هذا القول على كل نموذج من نماذج الجيوش . وكلما كانت القطعة افضل تضاءل هذا الفرق في النسبة المئوية . والقطعة المنضبطة مضطرة للقتال رغماً عنها . فإذا كانت قطعة ممتازة عرفت كيف تجابه هذا الالزام وان تتصرف بالشكل نفسه في كل الظروف .

٥ ــ تبقى نسب الخسائر في النصر وفي الهزيمة لكل نموذج من نماذج الجيوش متقاربة . ولا يلاحظ المرء الفرق الهائل في المزايا بين جنود المليشيا الاتحاديين (اذا تعرضوا في النصر لثلاث امثال خسائر الهزيمة) . وهذا يعني ان المعنويات قد تبدلت تبدلاً طفيفاً في الحرب القصيرة لعام ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ ، على حين صنعت الاعوام الخمسة من الحرب الاهلية الامريكية معنويات الاتحاديين دون ان تزيد في مهارتهم الفنية .

ان مكان الامتياز الثاني الذي يتمتع به الجيش الوطني الالماني يشير الى فضائل المزيج بدمج المحترفين مع جنود المليشيا المدربين تدريباً جيداً ، وهذا الدرس درس ثابت ودائم . ان المزيج هو الذي سمح بالنهوض في عام ١٧٩٣ (كتيبة محترفة مع كتيبتين من المليشيا) .. فالمزيج ،الذي ازدراه الشماليون هو الذي اعطى مباشرة حركة للجنوبيين ($\frac{١}{١٠}$ مــن العسكريين المحترفين) .

وفي ايامنا هذه ، ليست المشكلة مطروحة ابداً بهذا الشكل . لأن اعداد بعض الاختصاصيين العسكريين يكلف فرنسا من ٤ الى ٧ ملايين من الفرنكات . وتجنيدهم من بين افراد المليشيا الذين يخدمون مدة قصيرة ثم يستبدلون بسرعة حل كثير التكاليف . وهذا ما يدفعنا الى اتباع اسلوب المزيج .

ومهما كان نوع النظام السياسي ، وكيفما كانت الحلول المطبقة ، فمن المؤكد انه لا يمكن ان يكون هناك مليشيا حسنة دون تدريب مدعم ومستمر ودون تماسك والتحام بنفير

محلي ، وبقيادات اختصاصية . واذا افتقرنا الى هذا ، اصبح لدينا عندئذ جماعات قادرة على القيام بحرب الانصار ، لا قطعة موثوقة في قتال نظامي . واكثر الاختبارات دلالة على نوعية القطعة — وكان بوسعنا ملاحظته في فرنسا قبل مزج قوات الداخل ، بقوات الغزو في عام ١٩٤٤ — هو سلوكها تحت القصف . اننا نحتاج الى قطعة ضرستها الحرب كي تحتمل هذا القصف دون ان تتفكك ، على حين يستطيع جنود المليشيا المشبعون بروح معنوية في أوج تفتحها القيام بانقضاض جيد .

الفصل الرابع عشر

اقتصاد الحرب والحرب الشاملة

تكمن روح الحرب الشاملة في تعبئة تقنية واقتصادية كاملة ، وفي هجوم يتصاعد عمقاً ضد موارد الخصم في الوقت ذاته . وتشتمل هذه الحرب على تعبئة مدنية كاملة ، وعلى شن الحرب ضد المدنيين في المعسكر الآخر . ويميل هذان الاتجاهان الى إزالة المفاهيم الدولية الخاصة « بحق الأفراد » و « حياد » المدنيين .

وفي العهود السحيقة في القدم ، كانت أشد الحروب ضراوة تعتمد على فنون بدائية ، وتتطلب قوات ضئيلة التعداد ، الا أن القادة كانوا يعرفون ايضاً ضرب الخصم بتوجيه الجهد الى موارده الاقتصادية . وقد ظهرت أول علامات الحرب الشاملة ، في العصر الحديث في ظل لويس الخامس عشر عندما أعد دارجنسون وشوازول تحضيرات الحرب التي أطلق عليها في ذلك الوقت تعبير تحضيرات (السلم المسلح) . وقد اجترأ ميرابو في حديثه عن خصائص المستقبل عندما قال « ان عصرنا سيكون عصر أكثر الحروب طموحاً واتساعاً وهمجية » .

وقد جاء مرسوم ٢٣ اغسطس (آب) ١٧٩٣ ليؤكد هذه النبوءة بقوله : « ومنذ هذه اللحظة الى اللحظة التي يطرد فيها الأعداء من فوق ثرى الجمهورية يكون كل الفرنسيين مصادرين لخدمة الجيوش » وقد وزع هذا المرسوم مهام الحرب دون أن يستثني المسنين

والنساء والاطفال . وقد حولت الاتفاقية هذا المرسوم الى أعمال ، وقال سوريل في هذا الصدد ما يلي : « لتعبئة ٨٠٠,٠٠٠ جندي من النفير العام للقتال ، كان من الواجب جمع كميات ضخمة من الاسلحة والذخائر والألبسة والمؤن ... وقد تداركوا هذا الامـــر بمضاعفة ورشات البناء ، مع الاستعانة بالعلماء للتفتيش عن وسائل انتاج أسرع ، كما استخدموا طريق المصادرة . وبفضل كل ذلك صنعوا ٢٠,٠٠٠ مدفع في سنة واحدة . وانتجت ورشات باريس لوحدها ١٠٠٠ بندقية يومياً (٧ ورشات تسليح ، وأنشئت ٦ مصانع مسابك في خلال اربع سنوات) . ووفرت المصادرات الخيول والعربات والألبسة والاحذية أحياناً . وفي ديسمبر ١٧٩٤ صادر ممثلو جيش البيرينه المكلفون كل الاحذية ذات النعل المضاعف » .

وقد لامست الأزمة المواد الأولية ومنابع الطاقة : ففتحت مناجم فحم جديدة في نانت داميان ، وعززت العناصر المصادرة المكلفة بخدمة المناجم بعناصر عسكرية خاصة عينت لهذا الغرض . واتخذت التدابير العسكرية لحماية كل هذه المنشآت . ونفذت مصادرة الأدوات البرنزية لدى الجماعات والافراد .

واستكملت هذه التدابير في المجال المالي بضريبة استثنائية على الاغنياء ، وبقانون الحد الاقصى الذي يحدد الأسعار وبمحاربة السوق السوداء . فقد كانت ضرورة الاشراف الشامل على الدورة الاقتصادية قد فرضت نفسها من قبل . وفي ظل الامبراطورية الاولى كان الحصار والحصار المعاكس قد طوّر أخيراً الصناعات التعويضية . وهكذا كانت الظاهرة كاملة ، وبوسعها في المستقبل ان تزداد حدة ولكنها لن تتبدل نوعاً .

وقد حاول وفد تور أن يفعل من جديد في عام ١٨٧٠ برغم الغزو ، ما نجح كارنو في عمله في عام ١٧٩٣. وفي خلال أربعة اشهر ، انشأ العقيد توماس ٢٣٨ بطارية مدفعية ، كما قامت ٣ مصانع بصنع ١٠٠٠ بندقية يومياً . ولم يكن هناك الا نسخة واحدة من خارطة الاركان ، فطبع منها آلاف النسخ بالتصوير أو بالطبع . ولم يتم تجاوز مردود تلك المرحلة إلا في الحرب العالمية الاولى ، إذ أنتجت الصناعة المعبأة عندئذ في أربع سنوات مايلي : ٢٩٠ مليون قنبلة ، ٦ مليارات ونصف من الطلقات ، ٢,٥ مليون بندقيـــة ، ٢٢٥,٠٠٠ رشيش ، ١٨,٠٠٠ مدفع عيار ٧٥ مم ، ٧٠٠٠ قطعة سلاح ثقيل ، ٥٣٠٠ دبابة ، ٩٠,٠٠٠ محرك طائرة ، ٤٩,٠٠٠ طن من غازات القتال . وكانت هذه الارقام

محصلة عمل ١٧,٠٠٠ مصنعاً تستخدم ١,٧٠٠,٠٠٠ عامل ، منهم مليون عامل من المعينين خصيصاً وبصورة مباشرة .

وكان هذا الاختبار قاسياً لدرجة أن الاقتصاديين امثال ليتز وكوفيس وبروكارد وضعوا مبادىء اقتصاد موجه لأغراض قومية صرفة في السلم وفي الحرب . وقد حددت الاحداث التاريخية التالية تطبيق هذه المبادىء .

وكان الاسلوب مستنداً الى الاكتفاء المالي ، والى التوجيه الصناعي ، وباقتصار رأس المال على دور الادارة اصبح من الممكن توجيهه الى القطاعات المفيدة التي يستوحي فيها برنامج العمل من الفاعلية ، لا من العائد الذي يعطيه . اما الربح فقد انخفض أو أضيفت اليه ضريبة مبدئياً مع احترام هذا الربح الى حد ما ، كما وضعت الضريبة على الأجور لتخفيض الاستهلاك ، وأضيف اليها ضريبة الاسعار لملاءمتها مع الأجور . وأخذ مصرف الدولة يراقب تبديل العملات والادخار والاستثمار . وانتظمت الصناعة الموجهة ضمن إطار خطة موضوعة في مجموعات منسقة ومراقبة تتطلب عند الحاجة عملية نقل واسعة في اليد العاملة .

ومما لا شك فيه ، ان مثل هذه التدابير ولدت بيروقراطية ادارية ضخمة في التخطيط والاشراف وصعوبات في الاحكام بين المجموعات المنتجة وتبذيراً لا شك فيه . ولكن هذه العيوب لم تستطع ان تصيب بالاجداب نظاماً وصلت به ألمانيا الهتلرية وروسيا الى أكثر النتائج تطرفاً . وفيما يتعلق بروسيا استطاع بتلهايم أن يقول عن حق : « لقد سمح التخطيط بتحويل بلد زراعي خلال عشرة أعوام الى أمة صناعية ، على حين يتطلب مثل هذا التحويل نصف قرن في البلاد الاخرى . ولقد تطلب هذا الأمر تضحيات قاسية ، وأقام شيوعية الأراضي ، وعزل روسيا ، ومنع بهذا الشكل وقوع الازمات الاقتصادية والمالية ، وسمح التخطيط أيضاً للاتحاد السوفيتي بأن يحارب وأن ينتصر ضد الدولة الالمانية » وهكذا قادت الحرب العالمية الثانية كل المتنازعين الى اتباع هذا المثل شاؤوا ام أبوا . ففي عام ١٩٤٤ وُلِدَ التخطيط بعد أن حقق نتائجه العسكرية الكاملة بمعدلات انتاج لا يمكن ان توازيها معدلات أي انتاج آخر . ويحدد الجدول التالي معدلات انتاج اهم المواد وأكثرها تكلفة .

معدلات الانتاج الرئيسية في عام ١٩٤٤

المواد	الولايات المتحدة	انكلترا	الاتحاد السوفيتي	المانيا
الطائرات	٧٦,٠٠٠	٢٩,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	٤٠,٠٠٠
الدبابات	١٧,٠٠٠	٨,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	١٩,٠٠٠
البحرية الحربية	٣,٣٠٠,٠٠٠ طن	٣٠٠,٠٠٠ طن	—	—
البحرية التجارية	١١,٦٠٠,٠٠٠ طن	١,٧٠٠,٠٠٠ طن	—	—

ولقد انتجت بريطانيا اثناء الحرب العالمية الثانية كلها ١٠٠,٠٠٠ طائرة و ٢٥,٠٠٠ دبابة ، و ٧٥,٠٠٠ عربة مدرعة مختلفة . بعد أن كرست ٤٥٪ من طاقاتها للصناعات المتعلقة بفن الملاحة الجوية .

وقد ابرزت هذه الالتزامات نتيجتين :

– إن انجاز وتحسين عتاد ما لا علاقة له مع مدة استخدامه ، ومردوده المجدي في القتال . فمن الواجب اذن اقتصار تحسين العتاد ضمن مدة استخدامه التكتيكية ، بدلاً من البحث عن مدته الفنية .

– لا يرافق التقنية تخفيض في عدد القوات التي يمكن تجهيزها فحسب ، بل يرافق التقنية ايضاً زيادة في قوات الدعم . فالاعتدة التي يستخدمها من ٢ الى ٦ اشخاص في القتال تتطلب من ٦ الى ١٥ على المؤخرات للادامة والتصليح . وخلال الحربين العالميتين الاخيرتين ، وبأخذ المعينين تعييناً خاصاً بعين الاعتبار لم يتصرف الجيش الفرنسي في القتال الا بثلث المجندين .

وقد ولدت الحروب ذات الابعاد الثلاثة[1] بالاضافة الى هذا تدابير واسعة مخصصة لتغطية المرافق الاقتصادية بطريقة ابعاد بعض المنشآت وتوزيعها وحمايتها بصورة مباشرة . وكانت الطريقة الاولى موافقة لعصر الامبراطوريات . اذ استطاعت انكلترا وروسيا استخدامها . اما الطريقة الثانية فكانت عامة ، اذ ولّدت تقسيم المراكز الصناعية الضخمة الى مراكز صغيرة تنتج مجموعات جزئية من نسق واحد . وكانت هذه المراكز الصغيرة تغذي مستودعات التخزين ومراكز التركيب . إن فعالية الاسلوبين السابقين مرتبطة بسلامة تيارات النقل وانتاج الطاقة . اما الاسلوب السابق فيستند الى تراكم وسائل الدفاع السلبي

(١) يقصد بالابعاد الثلاثة – عرض الجبهة وعمق الترتيب الدفاعي مع المؤخرات والبعد الثالث (الارتفاع) الناجم عن استخدام الطائرات والقوات المحمولة جواً والصواريخ بعيدة المدى . (المعربان)

والايجابي . ويحتل استخدام المحاجر ، والمناجم ، والانفاق المحولة ، كما تحتل الموارد الجوفية (في باطن الارض) مكاناً كبيراً في هذا الاسلوب .

ان مهاجمة الاقتصاد المعادي ، الذي كان يقتصر في السابق على الحصار وعلى حرب القرصنة قد تعزز الآن بعمليات التخريب والحرب الجوية . ولا يفعل استخدام القذائف الصاروخية شيئاً جديداً سوى زيادة حدة هذه الهجمات .

ولم يُهدَّد التفاهم فيما بين الدول في أي يوم من الايام كما هُدِّد في شهر ابريل (نيسان) ١٩١٧ حيث بلغت الحمولة التجارية التي أغرقتها الغواصات الالمانية ما يعادل ٨١٥,٠٠٠ طن . وقد مست الحرب العالمية الثانية بصورة أقسى ايضاً المعسكر الانكلوسكسوني الذي خسر ٢٦,٦٠٠,٠٠٠ طن من البضائع التجارية خلال خمسة اعوام وكان رده على ذلك رداً جوياً وتم هذا الرد على ثلاث مراحل :

المراحل	اولوية الاهداف	جهد القصف	النتائج
من ١٩٤٠ الى فبراير (شباط) ١٩٤٣	١ — السكان ٢ — ورشات التسليح	١٦٠٠ طن في عام ١٩٤٠ من ٥٠ الى ١٠٠,٠٠٠ طن في السنوات الاخرى .	يأتي القصف الجوي في الصف الثالث من أسباب الخسائر بالسكان (قتيل لكل ٨ جرحي) . ولقد تضاعف الانتاج رغم القصف حتى غدا ثلاثة أضعاف حجمه الاول
من فبراير (شباط)١٩٤٣ إلى فبراير (شباط)١٩٤٤	١ — السكان ٢ — مصانع الطيران ٣ — المحروقات ٤ — الصناعة الثقيلة	٨٦٠,٠٠٠ طن	يأتي القصف الجوي في المرتبة الاولى من اسباب الخسائر بالسكان (١ قتيل لكل ٣ جرحى) . و احتفظت المصانع بـ (٣٥ الى ٩٠ ٪) من طاقتها رغم القصف .
من فبراير (شباط)١٩٤٤ حتى نهاية الحرب	١ — المحروقات ٢ — وسائل نقل ٣ — السكان ٤ — الصناعة الثقيلة ٥ — مصانع الاسلحة	١,٦٧٤,٠٠٠ طن منها ٤٨١,٠٠٠ على الصناعة الثقيلة .	تخفيض النقل بالسكك الحديدية يومياً : ٩٠٠,٠٠٠ عربة في فبراير (شباط) ١٩٤٤، و ٢١٤,٠٠٠ في مارس (آذار) و ٣٠,٠٠٠ في سبتمبر (ايلول) و ٢٢,٥٠٠ في فبراير (شباط) ١٩٤٥ . وتقلص الانتاج الى ١٠ ٪ للمحروقات و ٢٠ ٪ للصناعة الثقيلة ومن ٢٠ ٪ الى ٣٥ ٪ لمصانع التسليح .

وكان بوسع سبير أن يكتب ما يلي ابتداء من نوفمبر (تشرين الاول) سنة ١٩٤٤ :

« إن الاقتصاد الالماني يسير الى انهيار موكد في خلال اربعة اسابيع » ولكي يحصل الطيران الانكلوسكسوني على هذه النتيجة نفذ ١,٤٤٠,٠٠٠ طلعة من طلعات القاذفات و ٢,٦٨٠,٠٠٠ طلعة مطاردات المواكبة وقذف ٢,٧٠٠,٠٠٠ طن من القنابل.

وقد نجمت عن هذه الحرب أربعة تعاليم رئيسية :

كانت الاغارات على السكان ذات فائدة قليلة. فقد دُمّر ٢٠٪ من المباني وارتفع معدل التدمير الى ٤٠٪ في ٥٠ مدينة، وقُتل ٣٠٠,٠٠٠ مدني، كما جُرح ٧٨٠,٠٠٠، وبقي ٧,٥٠٠,٠٠٠ دون مأوى. ولم تولد هذه المذبحة سوى الحقد الجارف. وحيثما كانت الشجاعة تفقد صلابتها كان الجهاز البوليسي يحل محلها.

وكان لبعض الغارات الجوية نتائج شبه ذرية تقريباً. ففي بفورزهايم وقع ٤٠,٠٠٠ قتيل في ١٧ دقيقة كما سقط في فيرتزبورغ ٢٤,٠٠٠ قتيل في ٢٢ دقيقة. **أما الربح العملياتي فقد بقي قليل التأثر.**

كانت طاقة مقاومة المجموعات الصناعية والمدن مثبطة للعزائم، سواء بسبب مساحتها (كانت مساحة برلين ٥٠٠ كيلومتر مربع) او بسبب ضخامة الآلات. وكانت أهم الخسائر هي الخسائر المتعلقة بشبكات التوزيع (مياه، غاز، كهرباء). فقد عاد مصنع محروقات لونا للعمل بعد أن هوجم في مايو (مايس) ١٩٤٤ في خلال عشرة ايام واحتاج تدميره فيما بعد الى ٢٢ غارة جوية، و ٦,٥٥٢ طلعة جوية و ١٨,٣٢٨ طن من القنابل.

كانت الأهداف الثمينة هي وسائل النقل ومنابع الطاقة. وقد ندم الامريكيون متأخرين بعد مهاجمتهم المراكز الكهربائية.

وكان تضافر الهجوم الجوي على الاهداف الحيوية وتخريبها في الوقت ذاته بواسطة الأنصار، يبدو عندئذ ذا فاعلية نادرة، ومع ذلك فإن علينا ان نلاحظ بأن سرعة اصلاح المواصلات وترميمها قد ازدادت اثناء الحرب الاخيرة. فقد بلغت ١٠ أمتار في اليوم بالنسبة للجسور النهرية الكبرى. وظهر استثمار أجزاء من خطوط المواصلات الحديدية ذا مردود ايضاً برغم المقاطع المتعددة المخربة، والتي بلغ مجموعها في فرنسا مثلاً ٣٥ كم من الجسور الحديدية و ٤٠ كم من جسور الطرق و ٥,٠٠٠ كم من الخطوط الحديدية ذاتها.

وينبغي أخيراً الاشارة الى **أن المردود الافضل خلال عمليات الاصلاح لم يتحقق الا بالعمل المشترك بين الفنيين المدنيين والعسكريين خلال التصميم،والعمل بصورة منفردة خلال التنفيذ**،سواء في مجال الانتاج أم في مجال التدمير . ومن المؤكد ان « عَسْكَرة » المصالح الوطنية الكبرى ليس امراً مرغوباً فيه في زمن الحرب . ومن المؤكد ايضاً انه كان بوسع الحلفاء ان يقضوا على الاقتصاد الالماني بسرعة اكبر وبأقل التكاليف لو أن خبراء الحلفاء الاقتصاديين اشتركوا مع هيئات الاركان المتحالفة منذ البدء في انتقاء الاهداف التي ينبغي ضربها . ولم تتحقق هذه المشاركة الا بعد مؤتمر كازابلانكا (فبراير — شباط ١٩٤٣) وكانت نتيجة هذه المشاركة حاسمة الى حد كبير .

إن لهذه التعاليم وزناً أكبر في الحروب الذرية التي قد تقع في المستقبل ، علماً بأننا ما زلنا نتخيل بشكل غير كامل ما قد ينجم عنها من اضطراب في الاقتصاد . ويقدم العقيد لافروري التقدير التالي : « فضد الاختناق الذي تؤكده بعض الدراسات ، وبقاء ٧٠٪ من السكان على قيد الحياة ، الذي تؤكده دراسات اخرى ، هناك مكان لحل وسط ، وبخاصة اذا كانت قيمة آليات الطرق تسمح باستثمار شبكة واسعة للطرق كالشبكة الفرنسية استثماراً يصل الى الحد الاقصى ... وسوف لا يترجم الوضع الذري بالاختناق الشامل بل باستخدام الوسائل المتيسرة في الواجهات البحرية ، وبتقطيع طرق المواصلات ، أي يتميز الوضع عندئذ **بمردود اقل بصورة هائلة** ،وبزيادة محسوسة في مدة تسليم الانتاج . وبالاضافة الى هذا ، فإنه يبدو ان اسلوب شبكات المواصلات لا بد وان ينفجر ، فيكون من واجبنا ان نتجه بدون شك **الى الاستخدام الاقصى لمختلف وسائل المواصلات البرية** » .

وتضاف وسائل النقل الجوي ، التي غدت مرنة بسبب تعميم الطيران الحديث الذي يحتاج اقلاعه الى مهبط قصير ، أو بالطيران الذي يقلع عمودياً ، تضاف كل هذه الوسائل الى وسائل المواصلات البرية ، نظراً لانها اقل تعرضاً للاخطار من الطيران العادي ، وليس في وسع هذا الرصيد الجديد ان يكون حاسماً في الحرب ، لانه لن يكون من الممكن الاعتماد على المردود التجاري للجسور الجوية كالتي قامت بتغذية برلين او كوريا[1] .

وعلينا اخيراً أن نفهم أن توزيع المهام هو الذي يتطور في الحرب الشاملة وسنرى بزوغ ثلاث ضرورات حتمية :

---

(١) بلغت قدرة الجسر الجوي في اليوم الواحد ٧٤٢,٠٠٠ طن — ميل في جسر الباسيفيكي و ١,٧٠٠,٠٠٠ طن — ميل للجسر الجوي في برلين .

- التدابير الاستثنائية المتعلقة بمناطق الانتاج الحساسة سواء بالنسبة للتعبئة او بالنسبة للامن.
- انشاء مناطق مستودعات مطمورة تحت الارض قادرة على تعويض تفكك الانتاج .
- خلق « جيش العمل » المخصص لتغطية المهام التي تستهدف الحفاظ على الطاقة الاقتصادية (دفاع سلبي ، انقاذ ، ترميم المراكز المدمرة ، ووسائل النقل المساعدة) وسيتبدل اسلوب تودت [1] ولا شك ليأخذ مكانه اسلوب آخر .

والواقع ان مرسوم ٢٣ اغسطس (آب) ١٧٩٣ يبقى ساري المفعول وينبغي ان نعتمد على تطبيقه تطبيقاً حازماً .

---

(١) Todt جنرال ومهندس المانى ارتبط اسمه بخط سيغفريد . كان وزيراً للتسليح عام ١٩٤٠ ، وهو الذي أنشأ الاوتوستر ادلت .

(المعربان)

الفصل الخامس عشر

علاقة الجيوش بالشعوب

الحرب والانسانية

تتجه الحرب ، بطبيعتها الى تفضيل مبادىء الفاعلية غير المشروطة على حساب المبادىء الأخلاقية والانسانية . ولهذا اجتهد الكثيرون منذ وقت طويل لاقامة بعض الحواجز الاعتيادية او الشرعية للتخفيف من حدة هذا الاتجاه ، ولتنظيم العلاقات بين المتحاربين العسكريين والمدنيين . وقد دخلت مجموعة هذه الحواجز ضمن اطار القانون الدولي ، وأطلق عليها تعبير « حق الافراد » .

وقد تحقق تقدم اخلاقي لا يمكن إنكاره في ممارسة الحرب منذ الايام الموغلة في القدم الى عهد الثورة الفرنسية . واتجه هذا التقدم نحو اقامة نوع من العلاقات تتسم بالمجاملة بين الجنود المتحاربين ، وولّد نوعاً من الاحترام ازاء السكان المدنيين ، مع التفريق الواضح والدقيق بين المواطن المقاتل وغير المقاتل . وقد ساعدت الأساليب التكتيكية والادارية الملائمة على هذا التطور .

وانقلب هذا الاتجاه الى اتجاه مضاد منذ عهد الثورة الفرنسية الى ايامنا هذه . وبالرغم من ان الانسانية تعي وعياً كاملاً ومتزايداً المبالغات والتطرف الحربيين ، انتصرت خرافة الفاعلية ، وزال التمييز بين المقاتل وغير المقاتل ، وزادت الأساليب التكتيكية والادارية

من عملية التفكك . وازداد التوتر وتأكد بين اصحـــاب المطالب الانسانية وبين ممارسة الحرب التي ازدادت وحشيةً وبربرية . ومن الممكن أن نتساءل فيما إذا كنا لم نبلغ قمة المكر ، عندما غطينا ارادة الاقوى بقنـــاع العدالة ، لأن تراسيماك في كتابه عن **الجمهورية** قال ما يلي : « إن الاقوياء لا يتحولون لاي سبب من الاسباب عن تنفيــذ ما يعجبهم » .

منذ القدم حتى الثورة

لم تنقطع خرافة « الفاعلية » عن التحكم بالحروب القديمة فالمغلوب سواء أكان مدنياً أم عسكرياً محكوم عليه بالعبودية وبالهلاك وبتزيين الانتصار . وقد ترتب في الماضي على المنتصر الآشوري واجب ديني ، هو تعليق جلد خصمه التعيس على أبواب مدينته المحتلة . أما الروماني المنتصر فقد كان يمزقه بطعنات الخناجر ، في الوقت الذي تتوج اكاليل الذهب رأسه . وكانت الغاية من ذلك هي ان يغدو قدوة للشعب ، ولتمجيد الآلهة . ولم يكونوا يعرفون في ذلك الوقت ما يخبىء المستقبل ويخفي .

وكانت شواهد الرحمة والرأفة بالمغلوبين نادرة جداً ، حتى أن الاسكندر ويوليوس قيصر ظهرا بالنسبة لمعاصريهم في ذلك الوقت شخصين محيّرين والهين بحلمهما ووداعتهما في هذا المجال . ويتحدث سيشرون عن هذا الموقف فيقول :

« قيصر ! ستمجد فتوحاتك بالتأكيد ، لا من قبل كتابنا فحسب ، بل من قبل كل الشعوب وفي كل القرون . لكن الانتصارات من هذا النوع تبدو لنا ، عندما نقرؤها ، مخنوقة بصرخات المقاتلين ، وضجيج الدروع الجلدية . إلا أن عملاً من اعمـــال الرأفة والانسانية والمساواة والاعتدال والحكمة ثم بالرغم من الحقد الذي يلقى ظلالاً من الظلام على العقل ، وبالرغم من الانتصار الذي تمثل روحه عدم التسامح والكبرياء . إن مثل هذا العمل سواء رووه عنك مرة ثانية او أننا قرأنا قصته ، فإنه لعمري يملؤنا بالحماسة ، إنه يملؤنا بالحماسة في عالم الحقيقة وعالم التخيلات ، أما أنت ، فانك هنا حاضر امام اعيننا نعرف فكرك ونفسك ووجهك » .

وكان من الضروري فيما بعد ان نصل الى قلب القرون الوسطى لنجد مواقف مشابهة لهذا الموقف ، عندما طبع المثل الاعلى المسيحي الأخلاق بطابعه ، حيث أقامت البابوية من

نفسها مراقباً على[1] اخلاق الشعوب والملوك . ولم تكن آثار هذا الضغط المزدوج اقل ارتباطاً بالعلاقات فيما بين العسكريين اذ نرى فيما بعد ، وبصورة متأخرة ، ان مركب الفائدة والاخلاقية ولدت احترام السكان المدنيين والتمييز بين المقاتل وغير المقاتل .

ومما لا شك فيه ان المعارك بقيت دموية وكثيرة التكاليف ، طالما بقي القتال جسماً الى جسم قتالاً حاسماً فيها . وكثيراً ما بلغت خسائر المغلوب في الحروب القديمة ٨٠٪، وفي بداية القرن الثامن عشر كانت هذه الخسائر تبلغ ٣٠٪ ، وفي كثير من الحالات كان الأسرى نادرين : ففي كريفيلس (١٧٥٨) لم يأسر البروسيون أسيراً واحداً . وفي وفي كوسترين (١٧٥٩) قتلوا ١٥,٠٠٠ روسي مقابل ٢,٠٠٠ أسير . وكانت المجاملة بين المتحاربين تتم فيما بين المعارك فقط ، الا انها كانت فعالة . فقد كتب سوريل ما يلي : « لقد انعقد بين من يحملون السيف نوع من أخوة السلاح تجعلهم يقدرون بعضهم بعضاً ، على حين كانوا يحاربون بأقصى ما يمكن من العناد ... ونتج عن ذلك علاقات تتسم بدرجة عالية من المجاملة بين هيئات الاركان قبل القتال وبعده ، تلطف الى حد كبير من ضراوة الحرب وشراستها . »

وكان من الصعب جداً تعميم مثل هذه الاخلاق . فقد فقأ ريشارد قلب الاسد ، ــ الذي كان في ذلك الوقت نموذجاً لعصره في الفروسية ــ عيون ١٥ فارس فرنسي بعد إحدى الهزائم . وسارع فيليب اوغوست الى تنفيذ العقوبة ذاتها على ١٥ انكليزي « حتى لا يعتقد أي امرىء بأنه أقل من ريشارد قوة وبأساً ». وبعد ١٥٠ عاماً ، نلاحظ أنه كان للمرتزقة في كلا المعسكرين « بعض العادات الصغيرة المشتركة فيما بينهم ، وأنهم كانوا يعرفون كيف يجلسون ويتسامرون معاً » . وفي وسط اسوأ حالات التطرف ، كان دوغسكلان يفرض على رجاله احترام النساء والاطفال ورجال الدين . ولا يجد دوغسكلان أية صعوبة للحصول على عفو من الامير لانكاستر عندما أسر اخوه بخدعة وخيانة اثناء هدنة من الهدنات ، ونحن نعرف قصة فديته المشهورة .

ولم تقض الحروب الدينية على هذه الروح التي غذتها طبقة نبيلة موهوبة في القتال بصورة طبيعية . وفي مطلع القرن الثامن عشر كان لهذه الروح نتائجها المدهشة ، فقبل المعركة كان الجنرالات المتخاصمون يتراسلون بصورة تتسم بالمجاملة فيما بينهم بطريقة

---

(١) Censeur وهي الوظيفة التي ادعت بها البابوية لمراقبة اخلاق الرومانيين القدماء .
(المعربان)

شبه يومية ، ويحاولون جهدهم للحصول على التقدير المتبادل ، وبعد المعركة كانوا ينتقلون الى الخصم الجريح الأسير لمساعدته والاعتناء به ومعانقته واعطائه صرة نقوده ودعوته للطعام . **وهذه الامور وقائع حقيقية تزخر بها الأمثلة** . فقد كتب الشوفالييه دوراي ما يلي : « هل هناك ضابط أو رامٍ من الرماة لا يريد ان يصفق له خصمه وهو يقاتل ، وان يحترمه بعد ان ينتصر عليه ؟ لقد رأيت فرساني يزورون أعداءهم الجرحى ، ويدفئونهم بمعاطفهم ، وقد باركت القدر الذي خصصني لقيادة مثل هؤلاء الرجال » .

وكثيراً ما نرى الخصمين يتبادلان الاسرى بين الاشتباكات ، وكان هذا العمل يجري بصورة نظامية في نهاية كل معركة سنوية . وتوضع القطاعات المستسلمة « خارج المعركة » لمدة محددة . وتُجَيش هذه القطعات احياناً اذا كانت مؤلفة من مرتزقة من الاجانب . وبعد انقضاض ميندون الرائع ، قال الامير دوبرانسويغ عن الفرسان الفرنسيين الذين وقعوا بين يديه : « لقد اثاروا اعجابي ، واني اعترف لكم بأنني أميل الى الاحتفاظ بهم اسرى ، لولا ان احتفاظي بهم سيؤخر ترفيعهم » وعندما جُرح ابن هذا الامير في فريدبيرغ ، سارع الفرنسيون المنتصرون الى المخافر الامامية المعادية ليستعلموا عن اخباره ، وكانوا يطالبون كلهم بما يلي : « لن يكون هناك ابتهاج إذا كان الامير جريحاً » وفضلاً عن ذلك ، فاننا نجد في تقرير للمارشال دونواي الى الوزير دارجنسون في عام ١٧٤٣ هذه الملاحظات النموذجية : « يقال ان اللورد ستير تلقى رصاصة اخترقت قبعته ، الامر الذي لا استطيع الموافقة عليه لاني أجد أنه من المشين الرمي على جنرال » فهل سيندهش القارىء بعد كل هذا من كياسة فونتونوي ولطفه .

وجاء التطور لصالح السكان المدنيين متأخراً جداً ومحدداً بصورة اكبر . ففي ظل لويس الرابع عشر طالب العسكريون بحرب كفيلة باعطاء مردود كبير « له وللدولة . فالسلب ، والحريق ، وانتهاك الحرمات كلها كانت ممارسات عادية لتسهيل الحياة في البلاد وجمع الضرائب » . وقد كتب المارشال دولوكسمبورغ في عام ١٦٧٢ ما يلي : « كان السلب والنهب قد حمي وطيسه خلال يومين ، نُظّمَ في أحدهما حرق بيوت السكان الحمقى الذين وقفوا في وجه عمليات السلب والنهب ، فاضطرونا الى ممارسة هذا النوع من العمل . »

ولم يكن لمارلبورو ، وفوكيير ، وشارل الثاني عشر موقف مختلف ، كما ان وزراء الحرب كانوا يدفعون جنرالاتهم الى اتخاذه . وقد برز لوفوا في الشكل نفسه عندما أمر

باجتياح وتخريب منطقة بالاتينا الالمانية . وعندما حكم بالاشغال الشاقة على قوات حاميات امير اللورين التي تملكتها الوقاحة فلم تسلم فوراً الى كريكي الأماكن التي كانت تحرسها .

وكان الجنرالات هم أوائل من لاحظوا ان هذه الاساليب كانت متوحشة وغير مجدية في الوقت ذاته . فقد كتب كوندي الى لوفوا في عام ١٦٧٣ ما يلي : « لا استطيع ان امنع نفسي من أن اقول لك إني أجد فكر هذه الشعوب مختلفاً كل الاختلاف عن فكر السنوات السابقة . إن افرادها في حالة يأس مطبق » . ويشرح فيلار وضعه هذا لقطعاته بسذاجة قائلاً : « اننا لا نستطيع ان نعتمد على مخازننا . فاذا حرقتم البيوت والمحاصيل واضطرزتم الناس الى الفرار ستموتون جوعاً . إني آمركم بأن تكونوا عاقلين ، وذلك لمصلحتكم ولمصلحة الملك » . وعندما وجد نفسه مضطراً لاعدام ٣٠ جندياً ليفرض احترام اوامره برر موقفه ازاء شاميلار بقوله : « بعكس رأي الملك ذاته أصبح الجيش الذي أقوده عاقلاً . فالفلاح الذي كان يفر مسافة عشرة كيلومترات من كل جهة يجلب الآن الدجاج والزبدة لمعسكري ... وقد اتبعت المنطق السليم القائل **بأن الجيش الذي يحارب وسط بلاد معادية والذي يتفكك من اجل النهب والسلب يضيع خلال شهرين** ... وقد تحدثت الى جنودي شارحاً لهم هذا الوضع فصرخوا كلهم بأنني على حق » ولم يكن حكمه ووداعته لِتجعلانه يتجاهل الاستثمار العقلاني للبلاد اذ يقول : « اني أقسم المبالغ الضخمة التي أستخلصها من المدن الى ثلاثة اجزاء . جزء أدفع منه للجيش الذي لن يكلف الملك شيئاً وبالجزء الثاني اسحب اوراق الاعاشة المعطاة للضباط لعدم وجود المال ، وقد أرسلت منها حزمة مالية كبيرة للوزير ، وأخصص الجزء الثالث لتغذية نفسي » . ويحس المرء هنا بكل نقاط ضعف الجهاز الاداري منذ أن يخرج الجيش من شبكة المواقع ويجد نفسه خارج مدى المخازن وموظفي المحاسبة الملكيين .

وفي ظل لويس الخامس عشر ، وبفضل باريس – دوفرني تحسن الاسلوب الاداري ، وولدت الفرقة في عام ١٧٥٩ . ويلاحظ الشوفالييه دوراي ان تمفصل الفرق الواسع في البلاد يسهل الاستثمار العقلاني للموارد المحلية . فالمصادرات العادلة ، والتوزيع في الجزية المقررة تحل محل غارات الأنصار والمطالبة بالتخويف . ويضيف المؤلف قائلاً : « لقد رأيت جنودي الفقراء يحرمون انفسهم من خبزهم ليساعدوا اناساً آخرين اكثر فقراً منهم قد تضرروا » . وبرغم كل هذا فقد دُمرت بلاد كالهيس بعد أن رأت مرور وعودة قطعات اربعة شعوب تمر فيها عشر مرات خلال سبع سنوات . وفي عام ١٧٥٧ كتب سان جرمان ما يلي : « لقد نُهبت البلاد على ثلاثين كيلومتراً من كل جهة ، وخُرّبت

كما لو أنها أحرقت بالنار حرقاً تاماً .... ونحن محاطون بالمشنوقين ، كما جاءت ، إن هؤلاء الجنود لا يتعففون عن ايذاء النساء والاطفال الذين يعارضون تفتيش منازلهم » . ومع ذلك فقد ولدت الشفقة في هذا الوقت . وبالرغم من اعمال التطرف كان لا بد من ان تثبت حركة الشفقة هذه وجودها .

وفي عام ١٧٥٨ ، وقبيل انشاء الفرق الاولى ، طبع فاتيل كتاباً عنوانه : «**حق الافراد** ، أو مبدأ القانون الطبيعي المطبق على قيادة الشعوب والحكام ومشاكلها » . ويبرز هذا الكتاب اكثر الانحرافات الادارية ضد الانسانية ، والتي كان بوسعنا توقع ارتكابها من قبل جيوش ضخمة تعيش على مخازنها فقط . وكان الكاتب يدعو الى تضافر ديبلوماسية معتدلة مع مذهب عسكري عاقل يجعل الحروب محدودة وعاقلة في أهدافها وطرق عملها للقضاء على الاحقاد . وكان يهاجم خرافة الفاعلية دون جدوى . إذ قاد النظام الفرقي المتحالف مع الجماعات العسكرية الى جيوش مناورة من الصعب دعمها من الناحية الادارية ، وأدى الى النجاحات الرائعة والى اتفاقات سلم طموحة لدرجة جعلتها عاجزة عن أن تكون قابلة للاستمرار ، ودفعت الشعوب في النهاية ثمن ذلك .

وبالرغم من التصريحات الانسانية ، فاننا نرى الجيوش تجرد الحرب من انسانيتها ، واختفت المجاملة بين الجيوش واضطُهدت الشعوب واستُثمرت دون وازع . فردت هذه الشعوب على ذلك بالحرب الثورية التي تولد الانتقام . وتحركت هذه الدورة الجهنمية . وبعد أن فهم الجميع بصورة واضحة ان الوسيلة الوحيدة لجعل الحرب انسانية هي احترام التمييز بين المقاتل وغير المقاتل ، وباقامة علاقات بينهما خالية من القسوة والارغام قاموا بكل شيء في كلا المعسكرين للقضاء على هذا التمييز . ولم تغير قرارات لاهاي الفخمة ، وانشاء الحق الدولي ، وتأسيس الصليب الاحمر شيئاً من الموضوع . فقد كان النظام فاسداً من قاعدته لأنه كان مشدوداً إلى عبادة الفاعلية البراجماتية

من الثورة الى أيامنا

أدى تحول الجيوش من جيوش محترفة الى جيوش وطنية ، وتحول الحروب من حروب بين السلالات الملكية الى حروب ايديولوجية الى تبديل طبيعة العلاقات بين الجنود . وهكذا تقاتل اولئك الذين كانوا يتجابهون في الماضي بروح تسودها المنافسة

الرياضية ، بروح المؤمن ضد روح الهرطقة ، وبروح الصليبي ضد الوثني . وعندما كان الايمان ينعدم كان المتحاربون يقاتلون بروح البائع الذي انتزع من المنضدة التي يقبض عليها أثمان بضاعته وانتزع من عائلته ، ولا يستطيع مثل هؤلاء المقاتلين الا أن يكره بعضهم بعضاً بشراسة .

ولا يمكن للمجاملة فيما بينهم ان تكون تعبيراً عن التقدير . فهي تتذبذب من التسلط المعنوي الى التآخي . وتتطلب المجاملة خيانة أحد الطرفين لقضيته ومبدئه . ويعطي ميشليه هذا المثل على ذلك . ويندهش مبهوراً من الاعتناءات الممنوحة للبروسيين الاسرى بعد معركة فالمي ومن غزوهم نفسياً اذ يقول ما يلي : « كان الجنود والبورجوازيون في ستراسبورغ يعاملون الاسرى كإخوة ، وكانوا يتقاسمون معهم الخبز والمؤن . وكانوا يملأون جيوبهم بجرائد وطنية ، وقد طلبوا ورقاً وحبراً وكتبوا الى المانيا إن الراين لا وجود له ابداً... » وتثور ثائرة ميشليه الذي وجد تفهم البروسي عملاً جديراً بالاعجاب من ثبات الاسباني وعدم نفاذ الآراء الجديدة اليه فيقول ما يلي : « لماذا كل هذه الجهود اليائسة ، والهائلة لاعادة فرديناند . واصلاح محاكم التفتيش » . وقد غاب عنه ان تبرير شكل من القومية يعني تبرير الاشكال الاخرى . ومنذ ذلك الوقت لا يتآخى العسكريون بين المعارك الا بدافع السأم والجبن أو الاغراء . اما القاعدة فهي تتمثل بالضرب مع الامل بأن يعفو الاله عن جنوده الخلّص .

ونقرأ وصف الآلام التي تحملتها الشعوب المدنية اعتباراً من عام ١٧٩٣ ، اذ كتب سوريل عن ذلك : « ان هذه الآلام هي اللازمة الحزينة والرتيبة للجنرالات غـير المحترفين » وازداد التوتر بين الجنرالات والمفوضين : فالسيا سيون قساة تجاه مرؤوسيهم كقسوتهم تجاه العصاة ، ويفهمهم العسكريون ويجابهون جورهم . ويضيف سوريل قائلاً : « كان من الواجب لمقاومة هذا التحريض وتسلط البعض وعدوى انتقام الآخرين وجود قوة نفسية فريدة من نوعها ، فهذه القوة النفسية هي المجد الذي يكلل ابطالنا في حروبنا الوطنية »[1] . واعتباراً من عام ١٧٩٦ ، ولافتقار الجيوش الى الشؤون الادارية

---

(١) ان اشنع مثل لذلك هو حادثة كيبرون (١٧٩٥) . في أوج المعركة التي تلت انزال المهاجرين الفرنسيين حصل الجنرال هامبير على استسلامهم مقابل الحفاظ على حياتهم . وتجاهل هوش هذه الوعود في الوقت الذي كان يجنح فيه هامبير الى الرأفة بهم . فأعطت لجنة السلامة العامة الامر بتطبيق القانون الذي يرى تنفيذ حكم الاعدام بكل مهاجر يلقى عليه القبض فوق الارض الوطنية وسلاحه بيده ، وقد اعدم ٧١١ اسيراً على مقربة من دورى . (المؤلف)

وُلِدَتْ اعمال التطرف من جديد ، ولكن روح العصر آنئذ قد ساهمت في ذلك ايضاً . فقد وعد بونابرت جنوده « بسهول لومبارديا الغنية » . وأملى دون جدوى في شيراسكو توجيهاً جديراً بأن يكتبه فيلار يمنع فيه اعمال النهب . فالى جانب الضرائب التي فرضها القائد العام ، هناك ما تطالب القطعة بدفعه لدرجة أن جماهير فيرون ذبحت جرحانا في عام ١٨٩٧ في المستشفيات . وفي عام ١٧٩٩ وصلت القطعات الى حد الاملاق : «كانوا يهربون بالآلاف ويتصرفون في بلادهم الاصلية وكأنهم في بلاد محتلة » حسب ما جاء في تقرير وجه الى حكومة المديرين (الديركتوار) . ونرى فيما بعد أسلوب الحرب الذي يكرر النهب : ويعترف كولانكور بما يلي : « كان الامبراطور يقر بأنه ليس في وسع نظامه الحربي قبول انضباط قاسٍ ، ونظراً لأن جنوده لا يعيشون على الاعاشة المنظمة ... وكان محظوراً أن يتحدث احد اليه عن ذلك » . ومن الواجب ان نضيف ايضاً أن تحقيقاً تم في عام ١٨١٥ في سجلات المحاكم والهيئات الدينية في النمسا لجمع « جرائم الحرب » التي ارتكبها الفرنسيون في عام ١٧٩٦ الى ١٨٠٩ . وقد كانت نتيجة التحقيق لصالح قطعاتنا ، ولصالح القطعات المتحالفة معها ، وكانت جريمة الحرب الواحدة التي كشفها مفوضو الحلفاء هي مصادرة دافو لرؤوس الاموال المصرفية في هامبورغ اثناء حصار عام ١٨١٤ كي يدفع مرتبات فيلقه .

وتوضح الحروب الايديولوجية حيل المدني واتجاهه الى رفض مزايا وضعه كثير مقاتل . وتظهر الحرب الثورية التي ولدت من جراء مطالب جنود الاحتلال الجائرة ، ومن الغضب التي أحدثته الهزيمة ، ومن القناعات الدينية أو السياسية ، تظهر هذه الحرب الاستسلام كانتحار معنوي . ولقد فقد الجنود النظاميون هدوءهم نظراً لاشتباكهم بأنصار لا يمكن تمييزهم عن المواطنين العاديين وبنادقهم قريبة منهم ، كما لا يمكن معرفة أماكنهم . وغالباً ما يكونون قساة وشرسين . وأرادوا ان يلفظوا قلقهم ليوجهوه الى قلب الخصم بأعمال انتقامية مرعبة . فرد الانصار عليهم بمضاعفة الحقد ، وأثارت جثث الجنود النظاميين الذين شوههم الانصار القطعات ودفعتها لى ارتكاب أعمال فظيعة .

وعرفت منطقة الفاندي قساوة « الأرتال الجهنمية » . ولم يتردد الجنرال كرينيون عن اعطاء امر للقيام بمذبحة شاملة دون التمييز بين الاعمار والاجناس — الأمر الذي يرتبط بمزاج سرداوي — وبين القناعات السياسية ، ويشير التقرير الرسمي الموجه الى مجلس الثورة

بتاريخ ٨ فنديمير [١] من العام الثالث ، الى الوقائع التالية : «لم يحتفظوا في الفاندي إلا بالجنرالات الذين ارتكبوا فيها أكبر الآثام وأكثرها شراً ، أولئك الذين هتكوا أستار النساء بعد أن أهانوهن ، أولئك الذين كانوا ينفذون حكم الاعدام بكل من كان يقابلهم طالباً العدالة منهم . وكان الناس يقاسون من ان الجنود كانوا يضعون على رؤوس حرابهم اطفالاً لم تتجاوز اعمارهم الشهر او الشهرين » ... وفي الوقت الحاضر ، لا نجد في « الفاندي البيضاء » بيتاً واحداً يزيد عمره عن ١٥٠ عاماً .

وتجاوزت أهوال الحرب الاسبانية اهوال حرب الفاندي في فظاعتها ، حتى انها سميت بحق « حرب السكين » . وقد كتب أحد رقباء الجيش الكبير قائلاً : « كنا نجد على طول الطريق جنوداً اغتالهم الانصار . وكان نصف بعضهم محروقاً ، على حين قطعت أعضاء البعض الاخر الاربعة . وكان هناك جنود علقوا على الاشجار أو شنقوا من أقدامهم ... وكانت الأوامر المعطاة الينا تقضي بأن نحرق وبأن نغرق في الدماء كل قرية تطلق رصاصة واحدة ، دون أن نستثني الاطفال والرضع . وطيلة ستة اسابيع لم نكن نفعل شيئاً سوى النهب والحرق » . وهذا النص ناطق في حد ذاته ولا يحتاج الى تزيين باللوحات المعبرة التي رسمها غويا [٢] .

وفيما بعد نقل الينا اندريه جوليان كل اهوال احتلال الجزائر إذ قال ما يلي : « لم يكن للحرب الافريقية أبداً مظهر التمثيلية الابوية . فقد كان لحجاج بيت الله من الجزائريين طريقة خاصة في قطع الرؤوس دون الترجل عن الحصان . وكانوا يحكون قصصاً فظيعة عن التعذيب الذي كان يتعرض له الاسرى . فوضع الجنرالات رداً على ذلك مفاده الاجتياح التخريبي كعقيدة للقتال في تلك المناطق . فلم يحرقوا البلاد سراً ، ولم يذبحوا الاعداء ، وهم ينظمون الشعر الانساني ، بل كانوا يحصلون على المجد من جراء ذلك .

« فلقد كان الجنود مشتبكين مع خصم لا يتمركز في أي مكان ، تحركهم قصص التعذيب التي تعرض لها رفاقهم في السلاح . يسيطر عليهم التفكير بأن عليهم ان لا

---

(١) Vendémiaire الشهر الاول من السنة . وفي التقويم الجمهوري من « ٢٢ سبتمبر (ايلول) الى ٢١ اكتوبر (تشرين الاول) » (المعربان)

(٢) غويا GOYA : - رسام اسباني ولد في منطقة آراغون ، وهو الرسام الرسمي للقصر الاسباني . كان أثناء الحرب الاسبانية ضد نابليون . وكان شاهد عيان لكل مآسي الحرب ، فسجلها في لوحات من ١٨١٠ - ١٨١٤ (المعربان)

يتراجعوا ، وان يستخدموا كل الوسائل ليثبتوا للعرب قوة الفاتحين ويضطروهم الى طلب الأمان بسرعة .... »

وتصف رسائل سانت آرنو تخريباً واجتياحاً منهجياً تم بين عام ١٨٤٢ و ١٨٤٩ ، إذ يقول : « كنا نطلق قليلاً من العيارات النارية ، ونحرق كل القرى وجميع الأكواخ الصغيرة . » . وفي عام ١٨٤٣ دوَّخَ بليسيه وسانت آرنو بالدخان المواطنين الجزائريين الذين التجأوا الى مغائر الداهارا (الظهرة) مرتين . وغطّى بيجو عمل مروُوسيه ، وقد اثار ابن ني هذه المشكلة في المجلس الاعلى الفرنسي ووصفها بأنها « جريمة قتل كاملة مع سبق الاصرار والتصميم ضد عدو مجرد من أي دفاع » . وفي النهاية اتفقت الملكية والامبراطورية والجمهورية على العفو والنسيان .

وكان لكل هذه الحروب التي تتسم بالطبيعة نفسها نتائج قاسية جداً حاول الجنرالات ايجاد تبرير لها . فعلى فاصلة زمنية تعادل ١٥٠ عاماً كان بيجو صدى لبرفيك . فقد قال برفيك عن الكاميزار [١] ما يلي : « إني اعرف أن هناك من أرادوا تسويد اعمالنا ضد هؤلاء الناس ، في كثير من البلدان ، ولكن بوسعي أن احتج كرجل يحترم شرفه ، إنه لم يكن هناك جريمة لم يقترفها الكاميزاريون » . ويتحدث بيجو بنفس النغمة اذ يقول : « لقد دمرنا كثيراً ، وربما أتهم بانني بربري متوحش ، ولكني اقف فوق ملامات الحرب عندما املك القناعة الكاملة بأني أتممت مهمة جليلة لبلادي » .

ولم تبدل المرحلة شيئاً من هذه الممارسات . ففي عام ١٨٧١ أحرق الالمان فونتيني – سور – موزيل وشاتودان كجزاءٍ على هجمات الانصار ، وفيما بعد كان لدينا آت واورادور ويوغوسلافيا التي اجتيحت وخربت لأسباب مماثلة .

إننا نستهجن اعمال القمع التخريبية والتدميرية ، ولكن من الواجب أن نفهم ان الحرب المطابقة «لحق الافراد » حرب مستحيلة في مناخ ثوري . فالمدني ذاته لا يتمتع بأي حق من الحقوق عندما يتسلح . وفجأة يخفي بندقيته ويصبح شيئاً محرماً ، لو مُس ينزل على الآثم عقاب السماء . إنّ علينا ان نعرف بأن **احترام الشعوب مرتبط بحيادها** .

فاذا كان من قبيل المراءاة والنفاق ان نستنكر بشكل صريح اعمال العنف والشراسة

---

(١) الكاميزار هم اتباع كالفان الذين قاتلوا ضد جيوش لويس الرابع عشر

(المعربان)

التي يرتكبها الجنود النظاميون المشتبكون مع الانصار ، فلا يقل الوضع عن ذلك نفاقاً ومداهنة عندما نتهم هؤلاء الانصار بالخيانة وعدم الولاء. فالحرب تخاض على قدر استطاعتنا . ويعرف الكل ما اذا كانت الحرب تساوي جهد خوضها حتى الآن .

ان ممارسة الحروب الحديثة قد أثرت على مصير السكان بصورة شاملة ، حتى عندما يتجنبون الحرب الثورية . وفي الماضي ، كانوا يتعرضون لأزمة وجدانية عند قصف مدينة مفتوحة او اغراق مركب تجاري دون البحث عن مصير بحارته وركابه . اما اليوم فإنهم يمسحون بأعصاب باردة بلداً تحت القنابل ، ويغرقون كل المراكب دون ان يهتموا بالنتائج . لذا فان من الملاحظ أن عدد المدنيين الذين يموتون في هذه اللعبة اكبر من عدد العسكريين : فقد سقط ١٨ مليون مدني قتيلاً مقابل ١٢ مليون من العسكريين من عام ١٩٣٩ الى عام ١٩٤٥ . وتشير توقعات استخدام القنبلة الذرية الى احتمال سقوط قتيل واحد مقابل جريح واحد في الجيوش و ٢,٥ قتيلاً مقابل جريح واحد في السكان المدنيين على حين لم تكن المقاييس العسكرية تتجاوز في السابق قتيلاً واحداً مقابل ٣ أو ٤ جرحى . ومن الواضح أن الأيام المقبلة ستجعل الرجال البعيدين عن خط النار يتعرضون للخطر اكثر من الجنود المرابطين في الجبهة .

ولو أننا عبرنا عن عدم رضانا من الاستخدام الكامل للسكان في الاقتصاد الحربي وفي المهمات الثانوية بأن جندنا محلياً الجزء غير القابل للعسكرة لتهيئة الارض ، لكان علينا أن نعترف بأن التمييز بين مقاتل وغير مقاتل يغدو فرقاً دقيقاً جداً لا يكاد يدرك . ونعود عندئذ الى اساليب المدن المحاصرة في القرون الوسطى وفي عهد النهضة . و قد بين لنا مونلوك في حصار سيين ان النساء في مثل هذه الحالات كن يمارسن الحراسة على سور المدينة ، وكن يساهمن في اعمال التحصينات . ويمكن ان نتساءل ما اذا كان من الممكن اعتبار مثل هذا العمل خطوة الى أمام .

ونحن نشك بفاعلية لجوء البشرية الى القضاء الدولي بغية منع اعمال التطرف في الحرب ، كما نشك بقدرة هذا العمل على تأمين اية ضمانات للمستقبل . فما يُعتدّ به هو القانون لا القضاء . فاذا كان تراسيماك المنتصر هو الذي يترأس تصفية الحرب قضائياً ، فاننا نعود الى اسلوب الملك الآشوري الذي كان يعلق في احتفال رسمي ، تحوطه مظاهر الأبهة والعظمة ، جلد منافسه المنهزم على أبواب المدينة المكتسحة احتراماً لآلهته التي يؤمن بها ، وكإنذار يحمل طابع الخلاص للشعوب التي هزمها .

الفصل السادس عشر

تأثير الحضارات على اشكال الحروب

الحرب غير المباشرة

منذ الازمان السحيقة في القدم ونحن نرى نموذجين للحروب يتصارعان هما النموذج المباشر وغير المباشر . ويتسم الأول منها بإرادة القضاء على الخصم بسرعة بواسطة المعركة ، وقيادة هذه المعركة بقدر الامكان باعمال هجومية تندفع بعمق الى أن ينهار الترتيب المعادي . أما النموذج الثاني فهو أكثر طموحاً وصبراً . ويعتبر المعركة كحلٍ من أسوأ لحلول غير المرغوب فيها . وهو يرى أن من الواجب ان يُفتت الخصم أويفكك أو يستنزف من الناحية النفسية والمادية . وفي خلال المعركة ذاتها نتابع تحقيق الهدف ذاته مع تجنب التورط . ويشكل الاشتباك الهجومي مجرد تدبير بسيط من تدابير الاجهاز على العدو.

ولأسباب جغرافية ونفسية كانت الحرب غير المباشرة امتيازاً للشرقيين . ولم يلجأ الغربيون اليها الا اضطرارياً . وغالباً ما كانوا أيضاً يستنكرون اساليبها ويعتبرونها أساليب ماكرة لا أخلاقية . وفيما قبل هذا التاريخ كان اليونانيون القدماء يعتبرون ان قتال الازعاج الموجه للمشاة الخفيفة قتال « غير لائق وقبيح » . وفيما بعد أيد الجميع نظرية كلاوزفيتز التي تنكر كل امكانية للحرب غير المباشرة الصرفة .

فقد رأينا فعلاً ان مؤلف « في الحرب » **ينكر امكانية التوصل لانهاك الخصم انهاكاً**

تاماً وغير مباشر . ومما لا شك فيه انه أيد وجود اعمال استراتيجية خالية من القتال . كما اعترف ايضاً بالفاعلية المؤكدة لما يسميه « بالحرب الشعبية » (وهي حربنا الثورية اليوم)، ولكنه لم يؤمن بمردودها الا عندما تدور على هامش مسرح عمليات القوات النظامية وضمن اطار غزو معاد . وليست حرب الانصار غير المباشرة بالنسبة اليه الا امتداداً ثانوياً للحرب التقليدية . ومن الواضح انه قد تأثر الى حد كبير بحالات واقعية عاشها وعاصرها ، وبالتكوين العقائدي المتعقل الذي فرض نفسه عليه ، فلو لاحظنا الانحرافات العسكرية الغربية الموغلة في القدم ، لوجدنا أن هذا التعقل يتحول الى الشك . فإذا أضاف الشرق شهاداته في هذا الموضوع يصبح هذا الشك يقيناً : فقد انخدع كلاوزفيتز بسبب اسلوبه نفسه .

ان كلاوزفيتز ركز اساساً كل أدلته وبراهينه على اسلوب اهتراء الطرق التي استخدمها نابليون في قتاله ، ولهذا وضع كل ما يبتعد عنها ، في الظل . فحملة عام ١٨٠٥ التي استسلم فيها الجيش النمساوي نتيجة لأعمال تكتيكية محدودة غدت بالنسبة لكلاوزفيتز حملة تم فيها الاستسلام بشكل غير طبيعي . وينطبق القول ذاته على حملة ١٨١٠ – ١٨١١ التي قادها ويلنغتون في اسبانيا ، فهي في رأي كلاوزفيتز اكثر شذوذاً من الأولى . ففي بدء هذه الحملة ردّ ماسينا الانكليز بسهولة كبيرة الى خطوطهم في توريس – فيدراس ، ولكنه لم يعرف كيف يمنعهم من خلق فراغ اداري أثناء تراجعهم إذ كان الفراغ الذي خلقوه من الشمول والاتساع بحيث لم يستطع الفرنسيون المحافظة على استمرار الحصار وديمومته . وعندما انسحب ماسّينا الى سانتارم كان مضايقاً باستمرار ، ومضطراً الى ضغط أرتاله ضمن منطقة محرومة من كل الموارد . وعندما قطع ماسّينا التماس دون أن يتمكن من خوض المعركة ، كان قد فقد ٢٥,٠٠٠ جندي خسر منهم ٢,٠٠٠ رجل فقط في قتال تقليدي . فعاد من حملته ومعه بقايا فيلق مدمر قوامه المرضى والجائعون . وقد كان هذا المثل مقدمة لحملة عام ١٨١٢ في روسيا ، حيث انهزم الجيش الكبير بعد ان تفكك وتمزق وانحلت وحداته دون معركة . إن اسطورة « الجنرال شتاء » زورّت استنتاجات ودروس هذه الحرب وحرّفتها . فقد قضى المؤرخون وقتاً طويلاً قبل أن يعرفوا ان سبب هزيمة الجيش الكبير في روسيا هو عجزه الإداري وآثار الحرب غير المباشرة التي شنها الروس ضده . وقد تم التراجع حتى البيريزينا في جو مقبول ، ولم تتعرض القطعات للبرودة القارسة التي بلغت –٢٥ [1] الا في بولونيافقط .

---

(١) لم يتعرض الجيش الكبير في الحقيقة للبرد الا في عام ١٨٠٧ (حملة بروسيا وبولونيا) وفي عام ١٨٠٨ (حملة كاستيل).

فاذا كانت هذه الامثلة المعاصرة لكلاوزفيتز غير كافية لاقناعه ، فمن الطبيعي أن يجد صعوبة في أن يعود الى سير التاريخ ليستقي منه الدروس والعبر . ولو انه فعل ذلك ، للاحظ أن يوليوس قيصر حصل في ايليردا ، في عام ٤٧ ق.م على استسلام جيش افرانيوس بمناورات خالية من أي اشتباك تكتيكي . ولكان في وسعه أن يأخذ بعين الاعتبار الجملة التالية التي قالها المارشال دوساكس حول هذا الموضوع : « ينبغي ان تستنزف كل وسائل الانتصار كي نتوصل الى عمل ما . ان محاولات القادة المهرة لشن المعارك عندما يخشى الطرفان من المغامرة اقل من محاولات تدمير الخصم وتخريبه بطرق أخرى غير القتال » وكان المارشال بعيداً عن الطوباوية في هذا المجال لدرجة أنه قام بالبرهان الرائع على مبدئه في عام ١٧٤٦ خلال مناورته في اوهي التي أخرجت الامبراطوريين من الساحة وكانت سبباً في سقوط نامور .

وعلى العكس لا يمكننا ان نأخذ على كلاوزفيتز تجاهله للنصوص العسكرية الصينية التي يبلغ عمرها خمسة وعشرين قرناً ، والتي اكتشفناها على ضوء تفسيرات ماوتسي تونغ . فسن في وسن تسي يردان على كلاوزفيتز بنظريات مخالفة لنظرياته ومستندة الى الصبر والاستنزاف والحيلة وتجنب المعركة العامة . وليس الموضوع بالنسبة الى هذه النظريات موضوع هذا الصبر الالزامي الذي يقول عنه كلاوزفيتز : « إن الدفاع الذي يحافظ على المواقع أسهل من الهجوم الذي يريد احتلال المواقع » . بل إن الأمر يتعلق بموقف منهجي لا نتحول عنه ولا نخرج منه إلا عندما نملك تفوقاً ساحقاً .

فآراء الأجداد الذين يستشهد بهم ماوتسي تونغ آراء قاطعة وهي تقول : « يستند فن الحرب كله على الخداع والمراوغة . فعلينا أن نظهر عجزنا عندما نكون مستعدين للهجوم واذا استخدمنا قواتنا علينا ان نظهر بمظهر السلبيين ، واذا كنا قريبين من العدو علينا ان نجعله يعتقد بأننا بعيدون عنه ، واذا كنا بعيدين عنه ، ينبغي ان نجعله يعتقد بأننا قريبون منه . انصبوا الكمائن والافخاخ لجذب العدو وتظاهروا بالفوضى واسحقوه ... علينا ان ننسحب عندما يتقدم العدو ، وعندما يتوارى وينسحب نزعجه ونضايقه . وعندما ينسحب نتابعه ، وعندما يكون متعباً نقوم بالهجوم عليه ... فاذا كنا نملك من القطعات ما يعادل عشرة امثال قطعات العدو طوقناه . واذا كنا نملك ما يعادل خمسة امثالها هاجمناه . **والا فاننا نتجنب القتال دوماً** » وهذا ما يعبر عنه ماوتسي تونغ في عصرنا الحديث ويترجمه بما يلي : « ... قضم العدو ..... وجذبه الى ارضنا ومهاجمته من القوي الى الضعيف والتمون من الخصم ... إن استراتيجيتنا هي استراتيجية واحد ضد عشرة وتكتيكنا تكتيك

عشرة ضد واحد .... » ولكي نختم هذا البحث فاننا نستشهد بالجملة التالية لنعيد كلاوزفيتز الى موقعه الصحيح : « كان هناك رجال قليلون يعرفون أفكارنا وطرائقنا . ولو كان هناك عدد كبير منهم ، لما امكننا ان ننتصر في مرات كثيرة وبسهولة كبيرة [١] » .

ومن المفيد وصف طرق الحرب غير المباشرة من خلال الشروط الثلاثة التالية :

– آلية الحرب غير المباشرة وجذورها .

– شروط الاستراتيجية والتكتيك غير المباشرين .

– طرق مجابهة الحرب غير المباشرة .

آلية الحرب غير المباشرة وجذورها

ليست الاستراتيجية غير المباشرة خالية من القتال . فهي تمزج في القتال بين مجموعة من التظاهرات ، والزوغانات ، والعمليات ضد مواصلات العدو وشوؤنه الادارية فالهدف منها هو تفكيك العدو وتفتيته قبل الاجهاز عليه ، واعطاوه احساس الفريسة المطاردة أو الفريسة التي سحرتها رقصة الثعبان . فينبغي دون أن نشتبك معه ان نقضي على أمنه وموارده ، وأن ندمر معنوياته وان لا نضرب الا ونحن واثقون من ان ضربتنا ستحقق هدفها . إن علينا ان نبقي حقيقة قائمة وموجودة أمام عينيه ، ومشكلة من المشاكل المعقدة الناجمة عن تضافر أعمال التقرب المبهمة والمحيرة واعمال التملص التي لا تكشف غرضها الا في اللحظة الاخيرة . ثم تفرض عليه احساس الفخ أو الشرك المنصوب . وتساعد المواقف الماكرة والخارقة للعادة ، والمواقف اللاعقلانية مثل هذه الاعمال . ولهذا يبرز الشرقيون بصورة عامة في مثل هذه الحرب . وينبغي ان تقود حملة مقادة بمهارة الى انهيار الخصم دون خوض معركة عامة .

وفي التكتيك لا يميل المشرفون على الحرب غير المباشرة الى البدء في القتال فوراً ، كما انهم لا يميلون الى انتزاع النجاح باعمال كبيرة شرسة وايجابية . وينتج عن ذلك ان التكتيك غير المباشر ، يغدو في بعض اللحظات اسلوباً يهدد بالقتال دون خوضه ، وفي

---

(١) Mao Tsé - Toung. La Guerre Révolutionnaire. (Editions - Sociales)

التملص منه لتجديد ضغط منهك ضد العدو وابقائه في حالة عمل مستمر ومضاعفة حركاته . **وهذه الطريقة هي طريقة الازعاج المتواصل .**

وفي الدرجة الثانية ، يدعم ازعاج العدو ويعزز دون ان يؤدي الى اشتباك تام ، ونصل الى الطريقة القديمة في « الكر والفر » التي استخدمتها كل خيالة الرمي القديمة ، والى ما أسماه الرومانيون « السهم البارتي » [1] . واخيراً عندما لا يمكن مقاومة المعركة ودفعها ، فانها تستهدف هضم العدو أكثر من استهدافها تحطيمه فتتخلى له عن ارض المعركة وتذعن مستخدمة قوة الهجمات المعادية ، لكي تُشدّدَ الخناق عليه بصورة أفضل . وتكون المعركة **معركة امتصاص** قبل كل شيء . لقد انتصر هانيبال في معركة كان (٢١٦ ق.م) لانه أغرى خصمه بخرق مركز قواته الخاصة فاندفع خصمه الروماني الى فكي كماشة . ولم تكن معركة ترازيمان (٢١٧ ق.م) سوى كمين لجيش العدو . ومع الاحتفاظ بكل النسب ، هناك بين معركة الخرق الغربية ومعركة الامتصاص الشرقية الفرق القائم بين الملاكمة والمصارعة اليابانية (جيدو) .

ان مفاهيم « الفن والوسط » تجعلنا نلتقط الجذور الطبيعية لنموذجي الحرب . وهناك تلاؤم غريزي للحضريين مع الحرب المباشرة وللرحل مع الحرب غير المباشرة أبرزه هانز دولبروك وغروسيه .

إن الحرب غير المباشرة هي الحرب فوق المساحات غير المحدودة التي تتساوى فيها كل الامكنة . ففي البوادي المترامية والصحراء بتشابهها وبامتداداتها المجدبة تعيش القبائل الرحل الراكبة التي يكون رجالها عادة رعاة وصيادين . وقد كتب غروسيه عن المنغوليين الرحل ما يلي : « لقد نشأوا منذ طفولتهم على اقتحام البوادي المترامية بحثاً عن صيد ثمين ، كانوا يقتنصبونه وهم يمتطون جيادهم وينطلقون بها الهيدبى ، والمنغولي معتاد على الترصد والصبر وهو مختف ، وعلى نصب كل المصائد التي يرتبط بها غذاؤه ، وهو على هذه الارض خصم لا يمكن التغلب عليه » . انه يمارس بالغريزة عمليات الازعاج في الحرب وحيل نصب الشراك . وهو لا مبالٍ بالارض (فهو لا يعطي أية اهمية إلا لنقاط المياه والاماكن الدينية) ، ويجهل قيد المحافظة عليها مهما كان الثمن ، ويقول المثل المنغولي :

---

(١) كان من عادة الخيالة البارتيين عندما ينسحبون او يفرون من المعركة ان يوجهوا سهامهم السريعة الى العدو الذي يطاردهم . ويقصد بهذا التعبير « السهم البارتي » الضربة غير المتوقعة التي تحقق هدفها . (المعربان)

ان الارض ملك الله ان المنغولي الرحّال معتاد على المساحات التي يمخر عبابها ، وهو يتنقل من جهة الى أخرى بصورة أبدية . وللزمن بالنسبة اليه نفس النسبة التي تملكها المساحات المترامية . وحرية عمله تامة ايضاً بقدر ما يسمح تنظيمه الاداري العسكري بذلك ، وفي نظام يتجنب المعركة تكون حرية عمله ضعيفة . ويحصنه وسطه من التركيبات العقلانية والمنهجية ، ومن الفكر القومي كما اشار الى ذلك غوتييه في كتاب **اخلاق وعادات المسلمين** . وفي الخلوات الكبرى ، نرى المنغولي الرحال يتحدث عن الله ، منقلباً الى رجل اشبه بالمتصوفين . وتولد الحياة القبلية لديه أوصافاً خاصة به وبطبيعة حياته لا شيئاً عاماً شبيهاً بما نراه لدى الحضريين يكون ما نسميه « تاريخ الارض ، وتاريخ الذين ماتوا من أجلها » . فالبدوي الرحال لم يلتصق بما تمثله المدينة من مبان وممتلكات ، حتى انه عازف عن اقامتها او اقتنائها . وهو يؤمن بان تدمير المظاهر المدنية يحقق عملاً مطهراً . ويعبر عن هذا الايمان باشعاره ومعلقاته .

وفي الغرب ، تولد **الحرب المباشرة** في البلدان الخصبة المتضرسة . وقد اظهر دولبروك الأهمية التي كان يتمتع بها منظر الارض الملائمة لعمل المشاة بصورة نموذجية ، بالنسبة لإعداد العسكريين الغربيين ، وذلك في تاريخه للفن العسكري على ضوء التاريخ السياسي . فقد ولد منظر الارض وشكلها الرجل المتحضر المرتبط بالارض التي تغذيه ، والتي غدت مقدسة بالغلات التي توفرها وبشواهد القبور التي بقيت فيها . فكل بوصة من هذه الارض تغدو سبباً كافياً للقتال ، وتتيح بالطبيعة لجندي المشاة نقاط تعلق متعددة . وقد ولد فيها الحضريون عقلانيين وقوميين بحركة مصالحهم ومشاغلهم اليومية ، وبتفهمهم للأشياء الثابتة والمتواصلة .

والحضري محروم تماماً من حرية العمل الخاصة بالبدوي المتنقل الراكب . ولهذا فهو لا يقبل الحرب غير المباشرة الا تحت ضغط الظروف . ويعتبر كلاوزفيتز المعبر عن فكرته مع دعمه وتأكيده بأن من يستخدم القوة استخداماً شاملاً ، دون أن يأخذ بعين الاعتبار الدم الذي سيراق ستكون له الكلمة الاخيرة . ولكن البدوي المتنقل لا يدافع الا عن خيمته وجلده ، فهو يتمسك بهما بالرغم من كلاوزفيتز ، ويضع كل قدراته في استخدام متباين للقوة .

وبهذا الشكل يظهر لنا ان الاسس الطبيعية للحرب غير المباشرة هي **حرية العمل والحركية** .

شروط الاستراتيجية والتكتيك غير المباشرين

تنجم حرية العمل الاستراتيجية الاصطناعية عن عاملين :

— **الملاجىء** : الخاصة التي تحمي المقاتلين والموارد من المشروعات المعادية .

— **البنيات العسكرية العاجزة** عن فرض المعركة ، والمرتبطة بالاقتناع بأن هذه المعركة كثيرة التكاليف الى درجة تتجاوز الحدود .

وقد سمحت هذه العوامل في كثير من الاحيان للغربيين بممارسة الحرب غير المباشرة بقطعاتهم الدفاعية ، واستغلها الشرقيون بصورة دائمة .

إن عدد **الملاجىء** التي يمكن استخدامها بصورة منهجية ، أو بدافع الضرورة ثلاثة هي : الملاجىء الجغرافية ، والمجموعات المحصنة ذات القدرة الادارية واختفاء العناصر غير النظامية الذين يتستر المواطنون عليهم . وتسمح كل هذه الملاجىء بتجنب المعركة او استخدامها بصورة متباينة . ولا تحاول الاستراتيجية التي تنجم عن هذه العوامل منازعة الخصم على الارض إلا في بعض النقاط المتميزة .

وينجم الملجأ الجغرافي من الحماية البحرية أو الصحراوية ومن المعاقل الجبلية والمستنقعية او الغابات الكثيفة التي يصعب اختراقها ، كما أن الامتداد الاقليمي وسعته هو المبرر الاساسي لوجود هذا الملجأ . ويسمح الملجأ الجغرافي باللجوء الى وضع الترقب والانتظار ، والى الوضع الدفاعي الهجومي . وفي هذا المجال تنافس أثينا في عصر بيريكليس انكلترا الحديثة في رفض المعارك الحاسمة المباشرة . ويتضافر هذا الرد مع اغارات ذات اهداف تكتيكية وادارية . وهذا هو الامتياز **التي تتمتع به بلاد كالصين وروسيا** ، والذي يسمح لها بالتخلي عن ارضها بلا حدود للغزاة العاجزين عن اشباع هذه الارض بالقوات . فتصدهم وتغلف الضربات الموجهة اليها كالبحر الذي يبتلع كل ضربة توجه اليه ، وقد قيل في الماضي لقيصر روسيا : « إن جلالتكم قوي في بتروغراد ، ومخيف في موسكو ، ولا يمكن ان يقهر في ايركوتسك » . غير أن القذائف الصاروخية بدّلت قيمة هذا الحكم دون ان تقضي عليه . فاتساع الاراضي وامتدادها يبقى عاملاً حاسماً في أية حرب مقبلة غير مباشرة .

والمجموعات المحصنة ذات القدرة الادارية هي أبنية مغلقة (مؤلفة من منشآت متصلة او متقطعة) وقادرة على توفير الملاجىء للقطعات والارزاق . ولا تكون قوات هـــذه

المنشآت فعالة في مدى عمل نيرانها فحسب ، بل عند الخروج من مواقعهـا أيضاً . « وتمفصلها » في شبكة طبيعية أو شبكة متعمدة مقصودة من المواقع يسيء الى أمن خصم قد ينزلق اليها دون حجب هذه المواقع أو القضاء عليها . ومن الممكن قبول خسارة اي موقع منها دون ان يكون لذلك نتائج لا يمكن تلافيها بالنسبة للمجموع . ولا تملك المجموعات الخطية ذات القدرة التكتيكية فقط مميزات هذه المجموعات . فلا تقتصر فاعليتها على مدى النيران فحسب ، بل ان خرق الخط يضطر الجيش الى الاشتباك لسد الثغرة المفتوحة .

وتسمح مجموعة التحصينات ذات القدرة الادارية بتأمين حرية العمل ، وقد سمحت حتى القرن الثامن عشر ، في معظم الاحيان باتباع استراتيجية غير مباشرة . فمن أصل المعارك الرئيسية الثلاث التي خاضها دوغسكلان خسر معركتين ، الا انه أعاد فتح المملكة باغاراته ، مُدعَّماً في المواقع والقلاع التي كان يحتلها ، أو كان يسقطها بعملية اغراء أكثر من عملية خداع أو بالقوة . وقد انهارت الجيوش الانكليزية التي كانت تسير بمنتهى الحرية بين كاليه وبوردو دون ان تشتبك بمعركة أو تجد موناً لاعاشتها ، وكان دمارها مؤكداً كدمار الجيش الكبير في عام ١٨١٢ .

إن آخر ملجأ للجيوش المهزومة هو المواطنون انفسهم ، اذ تتحول القطعات الى جنود سريين وغير نظاميين ، مدعومين ، تأتيهم المعلومات من السكان ، متوارين وممونين من قبل المدنيين . وندخل هنا في الدائرة الجهنمية للحروب الثورية التي سنعود اليها فيما بعد .

وعندما تنتج الحرب غير المباشرة من بنيات متخلفة ، بسبب تخلف في التقنية والتجنيد . فإن حرية العمل تنتج بصورة غريبة عن العجز المادي فلا يمكن فرض المعركة نظراً لانعدام التمفصل ، ولا نكون راغبين عندئذ بالمغامرة بالمعركة لأن القطعات نادرة ، وكثيرة التكاليف . وقد كان الوضع على هذه الشاكلة في زمن الجيوش الضخمة المحترفة .

وقبل ميلاد الفرقة ، لم يكن في وسع الجيوش تكنيس كل مسرح العمليات ، ولم يكن التسليح يسمح بتجزئة القوات . ونظراً لانعدام الديموقراطية ، كان التجنيد غير موجود . وكانت الجيوش تعتمد على المتطوعين الذين يكلفون كثيراً من الأموال . ونجم عن ذلك كله وجود جيوش صغيرة وضخمة كان في وسعها أن تختفي لتتجنب المعركة . وبقيت هذه المعركة معركة مغامرة ، لانه كان من الواجب اجراء المناورة المولدة للنجاح تحت سمع الخصم وبصره مع المخاطرة بكشف العدو للمناورة اثناء تنفيذها . وهذا ما حدث

بالفعل للفرنسيين والالمان في روسيا وللبروسيين في كولان .

وبناءً على هـــذا ، كان جنرالات العصر « قبل الفرقي » يفضلون بالضرورة الاستراتيجية غير المباشرة ، وهي الاستراتيجية التي تستهدف موارد الخصم أو خطوط مواصلاته ، ولا تستهدف جيشه . فخسارة جيش من الجيوش لمخازنه تضعه في وضع يضطره الى التراجع كي يجد قواعد ادارية اخرى . وخسارة موقع من المواقع تعني أن نتيح للعدو امكانية اقامة مستودع متقدم . وكان أسلوبهم الحربي بتظاهراته ومسيراته المعاكسة التي تهدد المخازن والمواقع ونقاط المرور الاجبارية ، يميل الى ابعاد العدو عن الهدف المنشود . وللرد على هذه الحرب لا بد لنا من شرح دوافعها ونواياها .

لقد قال فولارد : « ونرى ايضاً جنرالات يتجنبون مصائد رجل ماهر لانهم حمقى وجهلة في مادة الحرب . وهم يشبهون الفتيات القرويات التي ذكرهن الكاتب بلزاك في قصته ، ووصفهن بأنهن بليدات لدرجة تجعل من المعتذر معها ان يخدعهن رجل من رجال الفكر . »

ومما لا شك فيه اننا نحتاج الى وقت طويل للحصول على الانتصارات ، لكن فولارد يجد طبيعياً أن « يخوض قائدان ماهران حملة كاملة في حركات مختلفة دون ان تعطي هذه الحملة اية ثمرة من الثمرات ، ودون ان يفعلا شيئاً الا استقطاب المديح واعجاب الخبراء ، ولوم الحمقى ، كل لصالح فريقه » ومع ذلك سنرى ان فولارد يصبح فيما بعد الداعية الاول للهجوم بالحراب في مجال التكتيك .

ومنذ أن سمح انفتاح الترتيب بفرق التجنيد وقواته بتكنيس مسارح العمليات ، أضحت المعركة أمراً لا يمكن تجنبه . فقد انحدرت الاستراتيجية غير المباشرة ثم اختفت وبقيت بصورة جزئية في العصر الامبراطوري على شكل تقرب غير مباشر يستهدف خطوط المواصلات . وكانت اولم (١٨٠٥) آخر تظاهرة لامكانات النجاح دون معركة عامة . ولم يبق فيما بعد سوى حرب الانهاك : وهي الحرب التي تدوس الفيلة فيها بعضها حتى الموت داخل النفق .

وقد سمح دخول الطيران والدبابات الى ساحة الوغى بعودة جزئية الى الحرب غير المباشرة بشكل هجوم جوي على الموارد الادارية ، وبمناورة الدبابات على المؤخرات . ولم تسمح ضخامة القوات المشتبكة في المعركة ، والشروط المقيدة لحرية العمل الا باتباع حلول بديلة . وغدت الحروب فيما بعد حروباً طويلة كثيرة التكاليف ، ومباشرة بصورة أساسية .

وبعودة الاشياء بصورة غريبة الى ما كانت عليه في الماضي نجد ان في وسع السلاح الذري فرض مبادىء مشابهة لمبادىء الحرب غير المباشرة وذلك عن طريق :

- تراتيب متقطعة ملائمة للمناورة .
- رفض محاور الجهد المستمرة التي تولد تحشدات معرضة للسلاح الذري .
- أهمية الضربات الموجهة للبنية الادارية التي تدعم جيوشاً على درجة عالية من التقنية .
- استحالة الاحتفاظ بالارض دون فكرة التراجع ، وحركية ضرورية لمجابهة ذلك .
- التفتيش عن حلول استراتيجية خاصة بالمعركة الذرية الشاملة .

ويتيح هذا العامل الاخير افضل الاحتمالات في التجديد . وقد أكد الروس في هذا الموضوع دون تردد ما يلي : « **إن الاستراتيجية السوفيتية لا تقوم على المبادىء التي دعا اليها كلاوزفيتز وليز وفوش** والاستراتيجيون الآخرون فهي لا تهتم إلا بدراسة الشروط الحالية ... » وتؤكد هذه الدراسة وتلح على الروابط الاكيدة بين الطاقة الاقتصادية والطاقة العسكرية ، وعلى قيمة الحماية التي يتيحها الملجأ الواسع ، وعلى هذا البيان الواضح الأخير المتضمن ان بوسع نجاح تكتيكي كامل القضاء على الثمار الاستراتيجية للنصر . ونحن لا نحتاج الى اكثر من هذا لنعيد قيمة كل اغراءات الاستراتيجية غير المباشرة .

وعلى المستوى التكتيكي تبقى كل الشواهد المتتابعة من أيام بلوتارك حتى ونستون تشرشل متفقة ومتطابقة ، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالكر والفر أو بالازعاج ونلاحظ **أن** حرية العمل التكتيكية للوحدات تنجم عن **اكتفائها الذاتي وحركيتها وتفوقها الناري . ولا** تتدخل الحماية الا ضمن الحد الذي تساعد فيه على تفوق النيران دون ازعاج حركية القطاعات . ولهذا كان التكتيك غير المباشر امتيازاً للقطعات الخفيفة والخيالة النبالة ووحدات المشاة المفتقرة الى عتاد الدعم الثقيل . ومن الممكن أن يصبح هذا التكتيك ملائماً للمدرعات الخفيفة ، والمسلحة تسليحاً قوياً والمتمتعة باكتفاء ذاتي واسع ، ولآليات القتال الخفيفة .

ولقد ذكر ابن خلدون ، في القرون الوسطى أن للشعوب طريقتين في القتال [1] :

---

(١) يتكلم ابن خلدون عن كيفية جريان الحرب وتقسيمها من هذه الوجهة الى نوعين أساسيين :
أ – نوع بالزحف صفوفاً .
ب – ونوع بالكر والفر .
« اما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم ، واما الذي بالكر والفر ، فهو قتال العرب والبربر من اهل المغرب » (ص ٢٧١) – دراسات عن مقدمة ابن خلدون للاستاذ ساطع الحصري ، مطبعة الخانجي بمصر . (المعربان)

فالغربيون يقاتلون بانقضاض عميق ، أما الشرقيون فيقاتلون بالكرّ والفر . ويشير بعض المُفسّرين الى مضمون تكتيك « خيالة الرمي » الآسيوية بما يلي : « اذا رأوا (يقصد قبائل الهون) أنهم لا يستطيعون خرق صفوف العدو ، انسحبوا الى اراضيهم ، ولكنهم لا ينسحبون الا لكي يجعلوا خصمهم يطاردهم ليجذبوه إلى مصائد أعدوها مسبقاً .. ولكنهم لا يصلون بهذا الانسحاب الى الاختلاط والاشتباك بخصمهم الا أقــل وقت ممكن . ويحاولون فقط إصابة جنود عدوهم وخيوله بضربات من سهامهم . وقد فسر غروسيه كيف سيطرت هذه الخيالة على العالم طيلة ثلاثة عشر قرناً فوق كل ساحات المعارك إلى اليوم الذي حطمت فيه المدفعية عملية الكر والفر . واعتباراً من القرن السادس عشر استعاد الروس والصينيون تفوقهم على المنغوليين (في معارك قازان عام ١٥٥٢ وتشاوُو – مودو في عام ١٦٩٦) .

ويحتفظ تكتيك الازعاج المستند الى الحركية بفاعليته عبر كل العصور ، بالرغم من من التقدم التقني من القرن الثاني عشر الى القرن العشرين . وتتسم كل الروايات عن هذه الفترة بتشابه غريب نذكر منه المقتطفات التالية :

« اذا آمنوا أن جيش خصمهم أقوى من جيشهم ، ابتعدوا عنه مسيرة يوم او يومين واتجهوا الى الفتك بالاقضية المجاورة ، وعندما يبدأ العدو باستعراض قواته يظهرون فجأة » (بلان كاربان ، القرن الثاني عشر) . « فاذا كان العدو قوياً انتشرت السرايا لتعود بعد ذلك اذا ما تساهل واسترخى » (غروسيه) « وكانوا يرونهم كل يوم ممتدين على خط واسع في الافق ، على حين كانت كشافتهم النشيطة تتحرك أمامهم ، حتى أنها كانت تقتحم صفوفنا ذاتها » (موراند ١٨١٢) « خطوط الكشافين الصامتين وغير المرئيين . إنها المناورة الصامتة التي تغلق خط الافق وتسده » (غروسيه) . « وكانوا يشكلون صفوفهم ، ويسيرون الى الخط الذي يتمركز فيه عدوهم . وفي اللحظة التي يبلغون فيها هذا الخط ، كانوا يختفون ولا يظهر في الافق سوى أشجار السدر والصنوبر . ولكن بعد ساعة ، وفي الوقت الذي كانت فيه خيولنا تأكل كان الهجوم يتجدد ، ويتشكل خط أسود من جديد . وكانوا يجدّدون المناورات ذاتها ، ليحصلوا على النتيجة نفسها » (موراند ١٨١٢) « في كل يوم تقريباً وعندما يشرق الفجر ، وتبدأ مجموعة رجالنا الضخمة وخيولنا بعملية المطاردة تتيح لنا طلقات البنادق على الجبهة أو الأجنحة أو خلف المؤخرة الانفعالات والهيجانات التي يتحدث عنها نظام الخدمة في الميدان . وأحياناً كان هناك اشتباكات حقيقية وكان من المستطاع أن نرى فيها قطعات كبرى

(انكليزية) تتحرك نحو الأكواخ الصغيرة المنتشرة هنا وهناك ، والى الذرى المسوكة بالبوير النشيطين والسريعين والذين يظهرون ويختفون في كل مكان . وفي كل يوم كنا نجد ما يقارب من عشرين رجلاً من جنودنا ، وقد قطعت اجسامهم بعد أن وقعوا في كمين من الكمائن ، أو طوقوا . وكان كل هذا يجعلنا نفهم المميزات الحربية الكبرى **لهؤلاء الرماة الخيالة** الذين كانوا يرقبون القطعات الانكليزية **بنشاط كلب الحراسة البوليسي** » (ونستون تشرشل سنة ١٩٠٢ .)

ان الاستنتاج متماثل ومتطابق في كل مكان : فالهدف الرئيسي للتكتيك غير المباشر هو انهاك الخصم واستنزافه وتثبيط عزيمته دون التورط : « ان القوزاق يهاجمونك **ليلاً بهدف منعك من النوم** ، **واعيائك من الأرق أكثر من هدف** مهاجمتك » (دوبراك ١٨١٢).. « وعندما يطارد المنغوليون يجذبون الارتال الصينية في صحراء جوبي أو الى البوادي . ليزعجوها وليضايقوها تحت ضربات سهامهم الطائرة دون ان يشتبكوا معها . وهم لا يوجهون الضربة النهائية الا عندما **ينهك الجوع والعطش** خصمهم ويستنزفه » (غروسيه) . « وقد سبب القوزاق بطء مسيرة الجيش الفرنسي الكبير **وعزلوه عن كل الموارد عزلاً تاماً** ، وهم يستميتون في ضرب أجنحته .... وبهذا الشكل استنزف أعظم جيش وأقواه . واستهلك ... أمام رجال كان يحكم عليهم بأنهم غير اهل لمقارعته » (موراند ١٨١٢) وكانت النتيجة التي أشار اليها موراند أهم بكثير اذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن خيالة الحرس وحدها هي التي كانت تملك الاسلحة النارية . من بين السبعين الفاً من القوزاقيين ، الذين قاموا بمهاجمته .

ولقد كان استخدام مثل هذه الطرق أمراً نادراً لدى الغربيين . فلم يتقيد بذلك سوى البيزنطيون الذين أعاد جنودهم من النبالة المدرعين احتلال المواقع الرومانية في حوض البحر الابيض المتوسط . وبوسعنا أن نستشهد ، بالاضافة الى ذلك . باستخدام الرماة الذين استمروا منذ معركة بافي (١٥٧٥) في المناوشة أمام التشكيلات المنضمة ، وأن نستشهد بغارات فرسان القرون الوسطى .

وعلى العكس استطعنا في أيامنا هذه أن نرى ماوتسي تونغ يستوحي الكثير من هذه الممارسات العملية ، مع الغاء كل دعم ثقيل للمشاة تقريباً ، وباقتصار أسلوبه الإداري على عملية النقل البشرية من قرية إلى قرية . وكانت النتيجة غريبة جداً : ففي عشرين عاماً انتصر الجيش الاحمر في « حملات الابادة » الخمس التي شنها شان كاي تشيك واحتل الصين ، واستولى على أسلحة امريكية ثمنها ٨٠٠ مليون دولار ، ثم وقف في كوريا في

وجه القوات العاملة باسم الامم المتحدة ، وظهر أنه أكثر عدداً مما كان عليه بثلاث مرات . فقد وجد تلاؤم المشاة الخفيفة وتطابقها مع التكتيك غير المباشر تعبيره وترجمته في الجو الخاص بالحرب الثورية .

طرق مجابهة الحرب غير المباشرة

لم يقدم المدافعون عن الحرب المباشرة الا أربعة طرق في المجابهة وهي :

- التشكيلات المغلقة .
- استخدام الأراضي الصعبة والحواجز للقضاء على قابلية الخصم للحركة .
- تجنيد قوات مساعدة اعتادت على الحرب غير المباشرة .
- ملاءمة القطعات النظامية للحرب غير المباشرة بصورة جزئية او كلية .

وتشكل **التشكيلات المغلقة** الرد الغريزي على الحرب غير المباشرة وهي فعالة اذا استطاعت ان ترد بالنار وبالتملص من القتال بسرعة . ففي كار (٥٤ ق.م) ذبح الفرسان البارتيون كردوس المشاة الروماني دون ان يلاقوا أي قصاص على عملهم ، نظراً لافتقار الرومانيين الى الرمي والحركة . وعلى العكس فان رتل المشاة الثقيلة الاغريقي الذي انسحب من كوناكسا الى البحر الاسود (٤٠١ ق.م) على مسافة ٥٠٠ فرسخاً ، وضع الفرسان الايرانيين عند حدهم بفضل انقضاضات خيالته الصغيرة ، ورماة المقلاع التي كانت تحميهم وتحمي القوافل في صفوفهم . ونجد تشكيلة أبطال الاناباز[1] تنتصر من جديد على نهر الايسلي (١٨٤٤) عندما قهر بيجو المراكشيين باستخدامه نيران التشكيلة المغلقة للمشاة (رأس الخنزير) مع انقضاضات الخيالة المضادة التي كانت تخرج معها بتناسق تام وسارت الأرتال المتحركة في سوريا ، وفي المغرب على هذا التقليد . وعندما ظهرت المدرعات الالمانية أمام البوادي الروسية وصحراء برقة (١٩٤٢) ، تقيدت بمظهر « موتبولك » **Motpulk**

---

(١) الانابازيس وتعني الغزو في الداخل ، ل : (كزينوفون Xénéophone) ، وهي قصة حملة سيروس الشاب ضد ارتاخسركس ، وانسحاب فيلق العشرة آلاف الذي قاده كزينوفون ، وهو نفسه مؤلف السيرة التاريخية (٤٠١ - ٤٠٠ ق.م)

(المعربان)

إن استخدام الاراضي الصعبة عملية أدق ، ونتائجها سلبية صرفة ، لان الطريقة تبقى طريقة دفاعية . وقد استخدمها رتل الاناباز بمهارة . ولكنّ حملة انطوان (٥٢ ق.م) التي أرادت الانتقام من هزيمة كار فكانت أقل نجاحاً وفوزاً ، فقد تهربت من عمليات ازعاج البارتيينَ عندما تقدمت في الجبل ، الا ان العدو قطع مسيرة قوافل التموين ، فما كان عليها الا ان تنسحب .

وتستخدم الارض بصورة افضل في الحرب غير المباشرة لاقامة مربع من مخافر المراقبة وسدود وحواجز تقلل من حركة سير الخصم هو ان الليميس الروماني[١] مشابه لسدودنا على حدود الجزائر ، مروراً بالشبكات الشائكة التي قصها اللورد روبرتس ووضعها في الترانسفال . ولا يدعونَ من وراء اقامة هذه السدود ايقاف العدو ومنعه منعاً تاماً ، بل إنهم يبغون من ورائها تسهيل الاستعلام عن العدو وملاقاته .

ويتيح تجنيد قوات مساعدة معتادة على الحرب غير المباشرة عاملاً ثابتاً آخر . فمن بين النظاميين من أبناء سكان المستعمرات هناك كثيرون ممن كانوا في الاصل جنوداً مساعدين « حاركي »[٢] . وقد حصل الرومانيون على التفوق الشامل في أفريقيا الشمالية ، بفضل الخيالة النوميدية[٣] . وقد توغل تراجان في أراضي البارتيين متحالفاً مع مفرزة منشقة عنهم . كما وطد سبتيم سيفير وضعه في الشرق الاوسط بانشاء الخيالة النبّالة التدمرية المشهورة . وبعد هزيمة الرومانيين في اديس (٢٦٠) كانت هذه الخيالة تضم البارتيين ، ولقد سيطرت وتحكمت موقتاً بالشرق الادنى الروماني .

وفي أيامنا هذه ، يقيد استخدام القوات المساعدة المحلية التوسع الامبريالي . وكما أشار تشرشل الى ذلك ، نرى ان عادة الحرب غير المباشرة عادة لا يمكن تعويضها : « إن علينا أن نواجه الامور بكل صراحة . فاحد الفرسان البوير يساوي في منطقة تلائمه ثلاثة أو أربعة جنود عاديين ... والطريقة الوحيدة لمعالجة هذه المشكلة هي إما توفير جنـود

---

(١) تعني كلمة Limés في اللاتينية الحد، والطريق ، ويقصد بها بصورة عامة منطقة تحصينات ممتدة الى حدما وعريضة تحازي الحدود الخارجية لاحدى مقاطعات الامبراطورية الرومانية – وقد وضعت خطوط التحصينات هذه بعد استقرار الدولة كي تحمي حدودها الخارجية من البربر ومن غزوات بدو الصحراء .

(٢) الحاركي اسم يطلق على المليشيا التي جندت في الجزائر لمساعدة الوحدات الفرنسية النظامية . كان عددهم ٣٠,٠٠٠ في عام ١٩٥٩ ، وقد ذبح معظمهم بعد استقلال الجزائر وفر بضعة الاف منهم الى فرنسا .

(٣) البربر الرحل لشرق افريقيا الشمالية (منطقة قسطنطينة الحالية) .

(المعربان)

يتمتعون بمزاج وذكاء مساويين لرماة البوير ، أو توفير **كتل ضخمة من القطعات .** »

ولم يكن **تلاؤم القوات النظامية** مع الحرب غير المباشرة تلاؤماً عميقاً في الغرب ، إذا ما استثنينا مغاوير الصدمة ، والمغاوير المضادين للعصابات والمثل الذي ضربه البيزنطيون . ومع ذلك فقد قبلوا بعض التطابق في « الحجم » ، كما قبلوا بعض التطابق في «التجهيزات» التي كانت تسمح بازدياد الاكتفاء والاستقلال الذاتي والحركة . ولماريوس في عام ١٠٧ ق.م ردود فعل بيجو نفسها في عام ١٨٤٠ . وقد تبنى كلاهما وحدة العمل المؤلفة من ٦٠٠ الى ٨٠٠ جندي كحد اقصى ، والتي كانت متوازنة بشكل كافٍ في تشكيلها ، كما انها تخفف التجهيزات وتقلل وزنها .

ويظهر هذا الوصف لميكانيكية الحرب غير المباشرة أن ممارستها تتطلب من الشروط المعنوية بقدر ما تتطلب من التسهيلات النابعة عن الوسط وعن التقنية . فنحن لا نخوض الحرب غير المباشرة في المكان والزمان الذي نريده . ومع ذلك ينبغي ان نزن امكانات تفجرها في كل الاوضاع . وتزداد أهمية المخاطر الحالية نظراً لان الشرق يستيقظ من سباتٍ طويل . وربما نشاهده في يوم من الايام غازياً على ابواب فينا .

في عام ١٢٤١ ، كان الزعيم المنغولي المتمتع بالنفوذ قد هزم الجيوش البولونية والالمانية والبوهيمية والمجرية هزيمة ساحقة بمناورات نموذجية غير مباشرة ، وغدا سيد أوربا الوسطى . وبعد عام نراه يتخلى عن فتوحاته بصورة عفوية ، فتقبلت اوروبا هذا التخلي بارتياح كبير لانها لم تكن تملك وسائل طرده من ارضها . فلنتذكر دائماً ذلك ! !

الفصل السابع عشر

التأثير الشعبي على نماذج الحرب

الحرب الثوريــــة

تبقى كل حرب سواء كانت حرباً مباشرة أم غير مباشرة حرباً تقليدية اذا لم يشترك العنصر المدني في العمليات . ومما لا شك فيه ان الشعب يتدخل الى حد ما « بحربه » . فهو يعاني منها ، ويقدم الدعم الاداري والاقتصادي والمعنوي لها . وهو مرغم على تحمل كل اهوالها ومشاقها اكثر من العمل فيها أو المشاركة . وعندما يحارب ببزة عسكرية او ببزته الخاصة ، ولكن بدون ان يتمتع بكيان عسكري معين ، تغدو الحرب عندئذ حرباً ثورية ، ويصبح المدني فيها نصيراً من الانصار وجندياً غير نظامي ، ورجلاً من رجال العصابات ، ومقاوماً شعبياً . واذا ما كانت حربه موجهة ومقادة ضد قوى السلطة الشرعية ، فان الحرب الثورية هي بالاضافة الى ذلك حرب تشتيتية .

ولا تعتبر الحرب الثورية حرباً غير مباشرة بصورة حتمية . فحروب الغرب التي قادها الانصار ابتداء من مارس (آذار) ١٧٩٣ بالارتباط مع الشعب هي حروب ثورية . ومع ذلك ، فان الجزء الاول من هذه الحروب كـــان مباشراً مارس (آذار) — ديسمبر (كانون اول) ١٧٩٣ . وكانت وسيلتها الرئيسية المعركة النظامية واحتلال المدن . وبعد

هزيمة سافني[1] غدت الحرب حرباً غير مباشرة وتحولت الى عصابات شاريت . وفي عام ١٧٩٩ ، عادت الى الشكل المباشر عندما وجه المركيز دوفروتيه ١٠,٠٠٠ رجــل الى فيروتينشوبري . فكل شيء يرتبط اذن بالموقف وبميزان القوى الراهن . وتفوق الشكل غير المباشر للحرب غالباً عندما يكون العنصر الشعبي في وضع متخلف عن خصمه في الجنود النظاميين ، وتلائمه جغرافية الارض ، لأن الشرط الاساسي للحرب غير المباشرة هي قدرة الأرض على توفير الملاجىء التي تسمح بتجنب القتال . وفي حرب ثورية تجـد العصابات الثورية هذا الملجأ بين صفوف الكتل الشعبية على أقل تقدير . وتخفي هذه الكتل الشعبية عناصر الحرب الثورية بمعونتها . ولا يمكن ابداً تعريف المدني وما اذا كان حيادياً ، أو متعاطفاً مع الحرب الثورية او خصماً لها . فليس هناك أمام العدو في مثل هذه الحرب سوى المشبوهين .

ان الحرب ذات الاسلوب الثوري قديمة قدم العالم . وهي ما انفكت منذ القدم تشكل الوسيلة الاخيرة للشعوب او الاحزاب المؤمنة بان عليها ان تدافع عن مصالحها الماديــة والمعنوية « حتى النفس الاخير » لآخر رجل ولآخر حصان . بيد ان وضع الماركسيين لمخطط سير الحروب الثورية واعطائها تعاريف دقيقة يحولها الى ظاهرة ماركسية لا ينفي نفياً قاطعاً وجود حرب ثورية تحركها مثل عليا غير ماركسية . ولكننا نحس فقط في ايامنا هذه ان الماركسيين بذلوا جهدهم لتحريك الحروب الثورية لصالحهم وجعلها تابعة لهم . ومن الخطأ أيضاً ان نعتقد بأن الحروب الثورية تحمل في ذاتها بذرة النصر المضمون الذي يتطور مع الزمن اذا تقيدت هذه الحرب بالطريقة الماركسية . ويظهر التاريخ على العكس أن القوى الثورية المحرومة من المعونة الخارجية وغير المدعومة بقوات نظامية في اللحظة الحرجة معرضة في بعض الاحيان للفشل بمجرد الاستنزاف المعنوي . وهذا ما يؤدي الى شبه ثبات في مدة هذه الحروب : فهي تحتاج من سبعة الى ثمانية اعوام لتصل الى هدفها مهما كان العصر الذي اندلعت فيه ، ومهما كانت الوسائل والتقنية المستخدمة . ومدة السبعة او الثمانية اعوام تطابق وتوافق مدة الاستنزاف المعنوي للشعب الذي تتنازع احزابه وقواه السياسية على التعاون والدعم[2] . وعندما تتجاوز مدة حرب من الحروب الثورية

---

(١) سافني تقع في ضواحي سان نازير في منطقة اللوار الاطلسية . في ديسمبر (كانون اول) انتصر فيها كليبر وويسترمان على الڤانديين

(المعربان)

(٢) قد تتلاءم هذه المدة مع مدة الحروب الثورية عندما تكون القوات الثائرة تصطدم مع قوات استعمارية او =

هذه المدة ، فان ذلك يعني انه كان يتخللها هدنات هامة ، وان مسرح العمليات فيها قد انتقل بعد ان زج في حلبة الصراع كتلاً شعبية ما زالت سليمة [1] او أن حدثاً خارجياً قد بدّل وجه الاحداث في اللحظة التي كادت قوى المقاومة فيها أن تنهار . وعندما تكون هذه الحرب حرباً قصيرة ، فذلك يعني ان الخصم استطاع اقناع الشعب او عزله عن عصاباته .

وبوسع الحرب الثورية أن تجد منبعها من نفس الاندفاع الذي يدعم « النفير العام » . لكن النفير الصاخب يؤدي في الغالب الى حرب المليشيا بشكل لا يتلاءم معها . وقد أشار أردان دوبيك الى ذلك بصورة صحيحة اذ قال : « سيحين الوقت الذي ينبغي أن نجعل فيه الجميع يتفهمون ضعف قوة الجيوش التي تستنفر في الفوضى ، وأن نجعلهم يتخلصون من وهم الجيوش الاولى للثورة التي لم تتعرض للانهيار فوراً بفضل بعض القوة التي تمتعت بها ، وتردد الحكومات ازاءها . أفلا يشكل الفلاحون في كل العصور ، هؤلاء الذين يترتب عليهم تحقيق كل شيء ، على أن لا يأملوا في الوقت ذاته بأي موقع من المواقع لأنفسهم ، أفلا يشكل مثل هؤلاء امثلة تحتذى ؟ » .

ومما لا شك فيه ان الجمهورية الاولى قد انتصرت دون ان تميز ما تدين به لتقدمنا التقني والتكتيكي ، ولضعف المتحالفين ، وللاندفاع الوطني لكتل المليشيا . وقد فهم غامبيتا ولويس بلان هذا الموضوع فهماً غامضاً في عام ١٨٧١ حينما لاحظا بذهول الهزائم الدائمة « للقوات المتحركة » المشتبكة مع ذلك بمعدل ٢ الى ٣ ضد بروسي واحد . ولكن هذه الهزائم لم تزعزع ايمانهما ابداً . فقد قال غامبيتا : « لو كان كل فرد يملك هذا الاقتناع العميق الذي أؤمن به لتساءل ماذا يستطيع ان يفعله ٨٠٠,٠٠٠ جندي ضد ملايين من الفرنسيين أقسموا على النصر أو الموت ؟ » وقد اشار لويس بلان « الى اجدادنا القدماء » في العام ٩٣ ، في الشكل ذاته عندما قال : « كان آباؤنا يؤمنون بالوطن ، فانتصروا بقوة

= قوات قمع محلية او في كل حالة يكون هدف الصراع لاحد الطرفين اكبر من هدف صراع الطرف الآخر . اما اذا كان هدف الصراع كبيراً حيوياً ومصيرياً لكلا الطرفين . كما هي الحالة في الحروب الثورية ضد الاستعمار الاستيطاني (الصراع العربي الاسرائيلي) . فان مدة الاستنزاف ستكون ولا شك اكبر نظراً لقناعة الطرفين بخطورة المصير عند اية هزيمة ، الامر الذي يزيد من مدة صمودهما زيادة لا حدود لها .

(المعربان)

(١) ونقدم كمثال لذلك « المسيرة الطويلة » المشهورة لماوتسي تونغ .

ايمانهم بأن فرنسا دولة لا تقهر » وقد استخلص الاخوة مارغريت الاستنتاج التالي من هذا الايمان : « ان فرنسا عام ١٨٧١ لم تكن تملك الارادة . وهنا لا يكمن سر هزائمها الاولى ، بل سر هزائمها الاخيرة . »

إن الجميع على حق في هذا الجدال ، وكذلك كان أردان دوبيك وغامبيتا . ففي حرب مباشرة ، ينسحق الفلاحون دوماً خلال عدة معارك تصادمية حتى ان افضلهم لا ينجو منها. فلو ان غامبيتا ولويس بلان لم تعمهما قناعاتهما السياسية ، لكان من الممكن ان تضطرهما حروب الغرب الى التفكير والتأمل اذ لم تستمر هذه الحروب بفعل الجيش الملكي الكبير ، ولكن بفعل عصابات شاريت . ثم انطفأت لانها لم تجتز مرحلة العصابات . وهناك مبدآن ثابتان ينظمان الحروب الثورية وهما :

— نادراً ما يسمح نقص التجربة العسكرية . والافتقار الى التسليح للشعوب المدنية بالشروع في حروب نظامية ودعمها . وعندما تخوض هذه الشعوب الحرب دفعة واحدة فان ذلك يتضمن بالضرورة بقاء ضباط وقطعات نظامية كافية لتنظيم كتل الجماهير ، او انشقاق العناصر العسكرية النظامية وتأييدها للاحزاب المختلفة في جو تشتيتي شامل (كالحروب الدينية وحروب الفاندى في فرنسا والحرب الاهلية في امريكا ، والحرب الاسبانية من ١٩٣٦ حتى ١٩٣٩) .

— لا تستطيع عصابات الحرب الثورية الانتصار على القوات النظامية (الا اذا كان هناك نقاط ضعف سياسية لانقاط ضعف عسكرية) الا بدعم نهائي من جيش نظامي (وهذا لا يعني بصورة حتمية جيشاً يمارس الحرب المباشرة) .

ويولد هذا الجيش النظامي ، إما مع الزمن وبسبب الدعم الخارجي من العصابات التي تمرست على الحروب (حالة الحروب الاخيرة في الصين والهند الصينية ، ويوغوسلافيا) ، أو أن الجيش الوطني لم يكن قد تعرض الا لنكسات عارضة فيعود للهجوم (الوضع في الحرب الاخيرة بالنسبة للروس) ، أو أن هناك جيشاً اجنبياً او حليفاً يقوم بالدعم (وضع الحروب في اسبانيا اعتباراً من عام ١٨٠٩) فليس هناك مثل تاريخي يؤكد ان الحرب الثورية المقتصرة على الارهاب وعلى عمل العصابات قد حصلت في الحالة الصرفة على نتائج خاسمة ، وان الذين يؤكدون امكانية حصولها على نتائج حاسمة يجردون عوامل السياسة العامة التي دفعت الحكومات المرتبطة بقوات نظامية الى الاذعان بسبب الاستنزاف المعنوي او الاقتصادي ، أو أنهم يستخدمون عن قصد حقيقة مضادة لغايات نفسية ، او أنهم لم

يفرقوا ابداً بين حرب غير مباشرة وحرب ثورية .

ان تضافر اعمال الجيوش النظامية مع الانصار هو الذي يحقق اقصى ما يمكن من الفاعلية ، وسبب ذلك بسيط جداً ، فالحرب التقليدية تتألف من حشد للقوات على حين تتألف حرب العصابات من انتشارها . فاخضاع جيش من الجيوش الى أحكام وأوامر تلزمه ببذل جهود متباعدة أمر يزعجه الى درجة هائلة . ولقد كانت هذه المعضلة التي تشكل سلاحاً ذا حدين معضلة دائمة للقوات الفرنسية في حروب اسبانيا (في عهد نابليون). فتحشدها ضد الانكليز كان يعني أن تتخلى عن البلاد للعصابات، وبقاؤها منتشرة بشكل يؤمن السيطرة على أقسومات الارض يعني تبعثرها واستسلامها للقوات الانكليزية . وقد قال ليدل هارت بهذا الصدد : « ويمكن ان نتساءل مع كل هذا – والمشكلة هذه تتيح مادة لدراسات هامة – ما اذا كانت الانتصارات الانكليزية لعام ١٨١٢ عندما دفع الانكليز الفرنسيين الى التخلي عن جزء من أرضهم حتى لا يخسروها كلها ، والى تضييق منطقة عملياتهم ، يمكن ان نتساءل ما اذا كان ذلك قد حسّن موقف الفرنسيين وزاد صعوبات تقدم الانكليز في عام ١٨١٣ ، لأن بقاء الفرنسيين منتشرين عبر اسبانيا طولاً وعرضاً كان يعني تأكيد انهيارهم النهائي الكامل » .

وهناك واقعان آخران يميزان تقريباً كل الحروب الثورية يتعلق كلاهما بعلاقات المقاومة الداخلية مع الخارج .

إن الحركات الثورية تتلقى (سواء كانت حركات تشتيتية ام لا) دعماً معنوياً ومالياً ومادياً من الدول الاجنبية المهتمة بانهيار الدولة التي تحاول السيطرة على هذه الحركات والقضاء عليها . وتقدم هذه الدول دعمها للعصابات تحت تأثير الضرورات السياسية أو الايديولوجية . وقد دعمت فرنسا كروموبل كما عارضت انكلترا الثورة الفرنسية أول الامر . ثم ساندت وفضّلت كل من كان يقاتل ويكافح ضدها من فانديين او اسبانيين . وغذت الصين وروسيا حركة (الفييت – منه) وعاضدت جنيف وهولاندا وانكلترا حركة الكاميزار . كما أن القاهرة وموسكو كانتا تدعمان حركة جبهة التحرير الوطنية الجزائرية . **إن هذه الواقعة الثابتة تصنع في المرتبة الاولى تدابير مكافحة العصابات** وكل التدابير التي تستهدف عزل المناطق الثائرة عن الخارج . [1]

---

(١) وذلك باتخاذ تدابير سياسية وتكتيكية ومادية تجمع بين المفاوضات والضغوط على البلاد التي تدعم الحرب الثورية واستخدام الحواجز المتصلة من كل نوع . (المؤلف)

ومن الواجب الاشارة ايضاً الى ان العون يتخذ في بعض الاحيان شكلاً غامضاً ، فيستهدف الى زيادة صعوبات الدولة المشتبكة مـــع العصابات دون أن يرغب بنجاح العصابات نهائياً . ومن هنا تنجم سياسة تبادلية تتضمن الدعم والخنق تبعاً لما اذا كانت الحرب الثورية ستخضع ام لا للاهداف التي تحددها الدولة الاجنبية . « فالانحراف — أو التحريف » ليس إثماً من الآثام الحديثة ، انما يتخذ اهميته من مادة الايمان سواء كان ايمانا ماركسياً ام دينياً .

إن صورة المقاومين في الداخل ليست دائماً صورة المهاجرين نفسها (١) الذين يدّعون مع ذلك تمثيل العنصر الموجه الاعلى للحرب . والسبب في ذلك ان « المهاجرين » يميلون الى تفضيل العوامل السياسية التي يعملون على اساسها مباشرة ، على حين يستبعد زعمـــاء العصابات الاوامر الالزامية العسكرية . وبالاضافة الى ذلك، فان ظروف الاقطاع التي قد تكون سائدة في الحرب الثورية تثير بين القادة العسكريين منافسات تنبع من صفات الافراد ، ومن تنوع شروع العمل المحلي . ولا تُكتسب وحدة القيادة الا من الوحدة العقائدية ، ومن نشاط المفوضين المتنقلين ، ومن قسوة الانضباط . فقد انتشرت « عمليات التطهير » بين القادة في صفوف الفانديين ، كما انتشرت في صفوف جبهة التحرير الوطنية الجزائرية دون أن يسبب ذلك تحسناً في اوضاع الثورة .

فضمن هذا الاطار العام من الممكن أن نسمح لانفسنا ، دون هوى بأن نجري حكماً صحيحاً على مظاهر الحرب الثورية .

وينبغي قبل كل شيء أن نفهم ان هدف المعركة ومضمونها هو **المعنويات الشعبية** . فكلما كان الشعب متعاوناً مع العصابات أو مع الجيوش الثورية ومتضامناً معها (وذلك بأن يجلب لها المعلومات ، ويكشف امامها الارض ، ويمونها ، ويعززها ويخفي تحركاتها او اقاماتها عند الضرورة) كلما انتشر المناخ الثوري واستمر ، وطالت مدة الحرب الثورية واذا ما زال هذا الدعم رأينا أن « المقاومين » ينقلبون إلى مجموعات من « العصاة » ، ويتفتت الجيش الثوري اذا لم يستفد من دعامات قوية داخلية تسنده . ولا يمكن للعصاة ان

---

(١) يقصد المؤلف هنا بكلمة (المهاجرين) العناصر السياسية التي تقود الحرب الثورية في الخارج ، والتي اضطرتها ظروف معينة الى الهجرة خارج ارض الوطن .

(المعربان)

يستمروا على قيد الحياة بعدئذ الا بعمليات السلب والنهب . ولهذا فان لكل الحروب الثورية الفاشلة آثاراً ومخلفات جنائية .

وتظهر الشواهد الدائمة على اشتراك المواطنين ومساهمتهم في الكفاح السري بشكل بنية سرية تتمتع بسلطات سياسية وادارية وقضائية ، تنفذ تدريجياً الى كل الطبقات الشعبية ، سواء بشكل « شبكات » استعلامات وعمل ، أو بشكل بنية مختلفة عن المجتمع يطلق عليها اسم « القيادات التسلسلية المتوازية »[1] . وقد تمكنت هذه الوسيلة الاخيرة من الحصول على قوة خاصة في الازمنة الحديثة ، كما اننا نعرف سوابقها في داخل المجتمعات السرية والتشتينية القديمة جداً أو الطوائف التي يعرف بعض الافراد أسرارها على درجات . ومن خلال هذا المظهر ، فان ايجاد بنية داخلية للمجتمع الالبيجي[2] الذي نظمته الكاتارية يصلح لدراسات هامة . إن الهدف الرئيسي للمعركة هو التسلط والسيطرة على المعنويات الشعبية . بيد أن هذا لا يعني ان العمل العسكري ضد العصابات يصبح عملاً ثانوياً . فهناك دوماً تداخل في العمل من الجهاز العسكري الثوري والجهاز السياسي الاداري . ويغدو هذا التداخل اكثر ضرورة كلما تهاوت وترنحت الارادة الشعبية للمقاومة . فبدون الشبكات الشعبية تخسر العصابات كثيراً من قدرتها على القهر ، وبالعكس . ولهذا فان الحرب المضادة للثورة تجري بالضرورة وتقاد على الجبهتين دون أن تفضل واحدة على الأخرى .

وقد يكون للعمل الثوري أشكال لا تتقيد بكل « قوانين الحرب » تبعاً لما اذا كان دافع العمل الثوري هو اليأس أو التعصب . فعندما استمات الالمان اثناء الحرب العالمية الاخيرة ضد انصار مختلف الشعوب ووضعوها من الناحية القانونية على مستوى عصابات المجرمين ، كان في وسعهم ان يتذكروا توجيهات شتاين وفريدريك ــ غليوم من عام ١٨١٠ الى عام ١٨١٣ . فقد قال الاول : « ينبغي ان نواجه احتمال الهزيمة ويجب ان لا ننسى قوة العدو وعظمته في الهجوم ، وعلينا أن نعرف باننا سنخوض الكفاح دون تأمين النجاح . ولكن اذا آمنا بأننا اذا لم نكافح كان القضاء علينا وابادتنا امراً لا يمكن تجنبه ، وأنه من الاشرف، لنا ازاء معاصرينا وابنائنا من بعدنا ان نفنى وسلاحنا بأيدينا من اجل الملك ، ومن اجل الوطن ، اذا آمنا بهذا كان ذلك أجدى لنا من ان نحمل اصفاد

---

(١) Hiérarchies Paralèlles

(٢) الالبيجية أو الكاتارية ، طائفة دينية انتشرت منذ القرن الثاني عشر في وسط فرنسا في ضواحي آلبي ــ وقد امر البابا في ذلك الوقت بشن حملة صليبية ضد انصارها في عام ١٢٠٩ (المعربان)

العبودية بصبر واذا سلكنا هذا الطريق الجديد ، ينبغي علينا ان نتحمل المشاق والآلام من كل نوع ، أو نموت دون ذلك ، وهذه فكرة ينبغي ان نعتاد عليها » . وقد تحدث الثاني بالتحديد قائلاً ما يلي : « إن على وحدات الحرس الوطني المتحرك ان تقود كل المواطنين مع قطعان مواشيهم وحاجياتهم ، وينبغي ان يُعطى الامر بأخذ الدقيق والحبوب ، أو تدميرها ، وتفريغ البراميل من محتوياتها ، وحرق الطواحين والمراكب ، وسد الآبار ، وقطع الجسور وحرق الحصاد، ولا فائدة من ارتداء البزة العسكرية للانقضاض على العدو. **فالقتال الذي دعيت الامة لخوض غماره يبرر كل الوسائل . وأخطر الوسائل وأرهبها هي الافضل .** » .

ومما لا شك فيه ان البروسيين لم ينفذوا هذه الاوامر تنفيذاً حرفياً ليكافحوا ضد نابليون ، ولكن الاسبانيين جعلوا ذلك حقيقة واقعة فكانت النتيجة رهيبة الى حد كبير .

وفي عام ١٨١٠ وفي اراغون وكاتالون لم يستطع فيلقان فرنسيان مجموع تعداد قوتهما ٦٠,٠٠٠ جندي نجدة ماسينا الذي كان يضغط عليه ويلنغتون . فقد كانت بضعة آلاف من رجال العصابات كافية لتجميدهما ومنعهما من الحركة . وقد كتب ليدل هارت ما يلي : « وخلال خمس سنوات من المعارك ، انزل ويلنغتون بالفرنسيين خسائر بلغت حوالي ٤٥,٠٠٠ جندياً فقط بين قتيل وجريح واسير الى ان تم اجلاؤهم عن اسبانيا ، على حين يقدر ماريو متوسط عدد الفرنسيين الذين كانوا يقتلون يومياً بمائة جندي خلال هذه الفترة [1] . وعلينا ان نستنتج اذن أن النسبة المئوية الساحقة للخسائر التي استنزفت القوات ، واستهدفت معنويات جيوش نابليون بصورة اكثر كانت ناجمة عن عمليات الثوار وعمليات ويلنغتون ذاته وبصورة ثانوية الى طريقة ازعاجهم للعدو وتحويلهم **البلاد الى صحراء حقيقية** ليس على الفرنسيين فيها الا أن يموتوا جوعاً » .

وعندما لا تنحني عصابات الثوار بسهولة للتكتيك غير المباشر ، على حين يتلاءم معه الجنود النظاميون تغدو خسائر الجنود غير النظاميين كبيرة جداً ، وبخاصة عندما نضيف اليها خسائر الشبكات المدنية . وقد كلفتنا الاعوام الثمانية من حروب الغرب من عام ١٧٩٣ الى ١٨٠١ ٢٥٠,٠٠٠ رجل من المدنيين والعسكريين . وقد كلفت الحرب الثورية

---

(١) اي ان مجموع الخسائر ١٨٠,٠٠٠ من بينهم ٤٥,٠٠٠ فقط في الحرب النظامية .

(٢) ارتفع مجموع الخسائر في الجيوش من عام ١٧٩٢ الى ١٧٩٩ مع ذلك الى ٧٠٠,٠٠٠ جندي (ماتوا في المستشفيات أو في القتال) سواء في الحروب الداخلية او عمليات الحدود.

يوغوسلافيا من عام ١٩٤١ الى عام ١٩٤٥ ١,٤٠٠,٠٠٠ قتيلاً مدنياً مقابل ٣٠٠,٠٠٠ عسكري فقط سقط معظمهم قتلى اثناء الحرب التقليدية لعام ١٩٤١ .

إن الحروب الثورية تؤدي دوماً الى خسائر هائلة في الارواح البشرية والممتلكات ، وبخاصة لدى المقاتلين غير النظاميين . وكان شتاين واعياً لهذا الوضع . ويتطلب الرد المضاد للثورة مع تطبيق الاقتصاد بالقوى عدداً هائلاً من القوات لا يتناسب مطلقاً مع اعداد الثوار وهذا امر مفهوم بالنظر لمطالب الحرب السطحية . وقد كان البعض مصاباً بالدهشة من أن ٤٠,٠٠٠ نصير من أنصار جبهة التحرير الجزائرية (والحقيقة انهم كانوا يتجددون باستمرار) تمكنوا من ايقاف نشاط ٤٠٠,٠٠٠ جندي من قوات الامن في الجزائر ، بما في ذلك قوات الجيوش الجوية والبحرية والخدمات . ولم يكن لدى بيجو في أي يوم من الايام نصف هذا التعداد كما يقال ، وهذا صحيح ، ومن الممكن ايضاً أن نندهش من ان الانكليز اضطروا الى زج ما يقارب من ٣٠٠,٠٠٠ جندي في الترانسفال التي لم تبلغ فيها قوات البوير خمس هذا التعداد .

وهناك في الواقع فرق هائل بين الاعباء العسكرية في الحرب السطحية بين المهاجم ومن يحمي بعض الاهداف . ويتعاظم هذا الفرق كلما تعددت الاهداف الحساسة ، وكلما كان اتساع مسرح العمليات كبيراً .

والواقع ان الحروب الثورية تغدو حروباً سطحية **بالضرورة مهما كان تكتيك الاحزاب**، لان الهدف هو الشعب . وفي كلا المعسكرين نتجه في مسيرتنا اذن الى حلول مماثلة تتسم بثلاثة اساليب :

- توزيع المسؤوليات الاقليمية بين مجموعات القوى (وهذه الظاهرة هي ظاهرة اقطاع الارض) .
- المناورات المتعاقبة في الاحتراس الدفاعي الممتدة فوق كل قطاع ، وحشود هجومية موقتة (وهذه الظاهرة هي ظاهرة التربيع) .
- تنظيم مستند الى تخفيض مستوى التعاون بين صنوف الاسلحة الى ادنى حد ممكن بشكل يحترم فيه « الحد الادنى » لوحدة العمل ، وتقديم مجموعات قادرة على الاكتفاء الذاتي في كل مكان (وهذا هو التقرب من الحالة البحرية التي تستبدل فيها صنوف الاسلحة بمجموعة من الإخصائيين) .

الا أن حرية عمل النظاميين في مثل هذه الحالة اقل بكثير من حرية عمل غير النظاميين وبخاصة اذا كانت الحرب السطحية حرباً غير مباشرة . ويكون النظاميون مكبلين بأغلال التربيع بواسطة أحكام الزامية سياسية وادارية ويحاولون الافادة الى اقصى حد من قدرات الانتاج والنقل المحليين ، ولا يستطيعون كسب ثقة المواطنين الا بحماية المواطنين الذين يعلنون ولاءهم لهم بصورة فعالة ، وبمعاملة المواطنين المشبوهين معاملة ليبرالية . وهم غير قادرين على اخفاء اسلوب تمركزهم وتوزيع قواتهم وأسلوب امدادهم الاداري امام غير النظاميين الذين لا يتحملون أي عبء مماثل لهذه الاعباء ويستفيدون الى حد كبير من جهاز اداري منتشر يتمتع بالسيولة ، لا يمكن تمييزه في غالب الاحيان عن الموارد المحلية الخاصة. وهم يستفيدون الى حد كبير من غموض مبدأ « حق الافراد » كي لا يتحملوا عبء الحماية الدائمة ، ولكنهم يسمحون لأنفسهم بتطبيق مبدأ عقاب « المتعاونين » . ويتعلق اسلوب تمركزهم بالملاجىء التي تتيحها الطبيعة فقط ، او تتيحها مساهمة السكان وتضامنهم معهم . ويكفي عندئذ عدد قليل من غير النظاميين الفعالين لاشاعة الخوف واجبار النظاميين على التمسك بالتربيع بفضل عمليات باهرة .

وقد استطاع البعض زرع بذور الشك في فضائل التربيع ، وصرحوا أن تجربة بيجو أثبتت ان الحركية الكبيرة تلغي ضرورة الحماية نصف الثابتة كثيرة التكاليف والتي تمتص اعداداً كبيرة من الجنود . إن هذا الادعاء هو خلط بين طرق الفتوحات التي نقدر فيها **بصورة اولية** ان من الضروري معاملة كل المواطنين على انهم اعداء ، مع طرق التهدئة واخماد الفتن . وتكمن المشكلة الحقيقية في تقدير سليم وصائب لكمية القطعات اللازمة للتربيع والقطعات التي نحتفظ بها كاحتياط للعمليات العامة .

فعندما استعاد بيجو سيطرته على الجزائر كانت منطقة احتلالنا ضيقة جداً [1] ، وليس هناك من سكان محليين مشهورين بأنهم فرنسيون كما كان الحال اثناء الحرب الجزائرية الاخيرة ، واخيراً فان الاستعمار الاوربي لم ينشىء سوى عدد قليل من النقاط الحساسة . ولهذا استطاع بيجو تكريس حد ادنى من القطعات لقواعده ، كما كان قادراً على ان يزج تقريباً بكل قواته في أرتال متحركة كان تكتيكها الاولي كما رأينا في الفصل السابق

---

(١) كانت قطعاتنا تشرف على المناطق التالية : في منطقة وسط الجزائر (الاجروا) على المضلع (رباعي الاضلاع) الجزائر ، المدية ، ميليانا ، شرشال ، وفي منطقة الجزائر ووهران على القسيمة الساحلية التي تربط وهران بمستغانم . وفي قسطنطينة على مثلث سكيكدة ، سطيف القالة مع ضواحي بجاية وجيجل . (المؤلف)

تكتيك الحروب السيفينية[1] التي حدثت في ظل حكم لويس الرابع عشر قبل ظهور فيلار واثناء حروب الغرب قبل ظهور هوش . ومنذ افتتاح مرحلة التهدئة واخماد الفتن كان لا بد من استخدام التربيع ، وهذا ما فهمه فيلار وهوش . فلا سبيل اذن لاية مقارنات بين طرق بيجو وطرق جنرالاتنا الحاليين لان الوضع السياسي والاقتصادي مختلف كل الاختلاف .

ولا يقل عن ذلك صحة ان الهدف الثابت للقيادة يبقى تخفيف اعباء التربيع . وينتج هذا التخفيف في بادىء الامر عن تخفيض حجم الحاميات تبعاً لأن الخصم تضاءلت قوته وضعفت ، ونتج ايضاً عن مساهمة السكان واشتراكهم في المهمات . وفي آخر المطاف يمكن ان نسمح لانفسنا بتوسيع شبكات التربيع .

إن تطور الحروب الثورية (وبخاصة الحروب التشتيتية منها) متماثل في اوربا تماثلا رائعاً عبر التاريخ . ونلاحظ فيها دوماً خمسة مراحل : الحضانة المفاجأة ، الردع ، إخماد الفتنة ، التهدئة . وسنتخذ كمثل من الامثلة الحرب السيفينية .

استمرت مرحلة الحضانة (التفريخ) من عام ١٦٨٥ (الغاء مرسوم نانت) الى عام ١٧٠٢ . وغذت هولاندا وانكلترا التوتر الديني كما زودتا الناقمين بوسائل الثورة الاولى. وخدمت هذه المرحلة القادة الرئيسين لتطوير وتنمية الذكاء المحلي ، واقامة ما يوازي شبكات مقاوماتنا التي تلت هزيمة ١٩٤٠ . وكان هؤلاء القادة جان كافاليه ورولانــد ورافنل كاتينات . وكانت هذه الحركة ثورة مهيأة لا تتسم بالعفوية ، كما كانت ثورة الغرب في عام ١٧٩٣ . وكانت الدوافع الايديولوجية متشابهة بعضها مع بعض ، لأن السبب في الحالتين هو حرية الضمير .

فعلى حين كانت حجة الشوانيين مقاومة مصادرة الرجال للخدمة في الجيش ، كان ادعاء الكاميزار أن الدافع لثورتهم هو الدفاع عن اتباع طائفتهم الذين اعدموا ، والذين عذبهم كما قيل في ذلك الوقت احد الكهنة المتعصبين . وفي ٢٤ يوليو (تموز) عام ١٧٠٢ ، اغتيل كاهن كايلا في بون دومونتفر ، وابتدأ التمرد .

كانت مرحلة المفاجأة المرتبطة بنجاح العصاة متسمة باستلام المارشال دوبروغلي الذي

---

(١) Cévennes حرب دينية نجمت عن الغاء مرسوم نانت
(المعربان)

تولى مهمة القضاء عليهم ، فأراد قيادة الحرب تبعاً للاساليب التقليدية . وعند وجـد المسؤولون أن الحرب غير المباشرة التي شنها المتمردون اغرقته وطغت عليه ، خلعوه من منصبه وعينوا بدلاً منه المارشال دومونتروفيل .

وكانت حملة مونتروفيل حملة **تأديبية فقط** ، وقد قادها بأسلوب الارتال الجهنمية التي استخدمت في الفاندي حتى حصل فيها مونتروفيل على لقب « مونتروفيل الجزار » وكانت شراسة الردع والتأديب سبباً في ازدياد عناد العصاة .

وفي نهاية عام ١٧٠٣ خلع فيلار مونتروفيل من منصبه ، وحاول تهدئة المنطقة بعمل سياسي – عسكري . وساعده في مهمته الى حد كبير نيقولا لاموانيون دوبازفيل المعتمد العام[١] للانفدوك . وقد بذل الزعيمان جهدهما في تشتيت العصيان وتمزيقه نفسياً **وعدم التفاوض مع العصاة أبداً بدون تطبيق المبدأ الأساسي الذي لا يجوز المساس به : وهو الاستسلام** . فلا يمكن اجراء التفاوض ندا الى ند مع العصاة ، إذ ينبغي التغلب عليهم بالقوة ، ومن ثم معاملتهم معاملة كريمة وسخية[٢] . فعلى حين اقام فيلار أسس عملياته على انتشار تربيع كثيف امتص ٢٠,٠٠٠ جندي في مقاطعة مؤلفة من ثلاث مناطق ، كان معتمد الانفدوك يستخدم كل جهوده لتخريب العصيان بكل الوسائل السياسة : فقد اشترى كافاليه احد زعماء العصاة مقابل اعطائه رتبة عقيد **(دون قيادة)** مع مرتب يعادل ١٢٠٠ جنيه ثم قتل رولاند في عام ١٧٠٤ ، والقي القبض على رافنل وكاتينات وأعدما في عام ١٧٠٥ .

وفي نهاية عام ١٧٠٥ خلف برفيك فيلار في منصبه، فاستغل المميزات المكتسبة، لأن الهدوء الذي ساد في ذلك الوقت كان هدوءاً ظاهرياً وغير ثابت . والتجأ العصاة الى الجبال ومنها أخذوا يقومون باغاراتهم . وقد قال برفيك ما يلي : « بقي الشر متأصلاً في القلوب » . وعندئذ قام برفيك بتخفيض حجم قوات مواقع التربيع ومركز هذه القوات الى الامام ، لانه كان معقداً بتجربته في حرب الجبال وقوياً باضعافه للعصاة .

وقد كتب يقول : « ومن وقت الى آخر كنا نرى بعض العصابات تظهر ، فتبددها

---

(١) **Intendant** المعتمد العام او مدير المعتمدية – المعجم العسكري السوري . (المعربان)

(٢) من الواضح أن الاتفاقات التي اعتبرت اتفاقيات الند للند في حرب تشتيتية قد كان لها قيمة اتفاقية هدنة على الاكثر ، ولقد كان هذا مبدأ ثابتاً في الحروب الدينية ، وفي الحروب الشوانية ثم أكدته مغامرتنا في الهند الصينية ، في أيامها الاولى .

القطعات التي وزعتها على فصائل في أخطر الاماكن المشهورة » . وبما ان هذا الاسلوب كان يخفف تربيع المناطق من البلاد ، وضع برفيك القرى والضيع في حالة دفاع ــ ذاتي يتولاه جنود المليشيا البورجوازيون ، وتمم هذا الدفاع بأسوار مرتجلة وأبواب لتسهيل حمايتها والاشراف عليها داخلياً ، كما قال في ذلك الوقت . واقام اسلوباً للاستعلام كانت مهمته الرئيسية كشف الشبكات السياسية والادارية المعادية وتدميرها ، وقد كانت ضرورة هذا العمل تزداد كلما كان العجز العسكري للعصاةِ يدفعهم الى الارهاب . وكاد برفيك وبازفيل أن يتعرضا لِلاغتيال ، فسمح ذلك بنصب كمين لقيادة منظمتهم السياسية الادارية . « قد وجدنا بين الاوراق التي استولينا عليها من الكاميزار ، ومن المعلومات التي حصلنا عليها من اعترافاتهم ان هنـــاك في منطقة برن ٢٠٠ من المتعصبين الجاهزين للمجيء الى اللانفدوك واكتشفنا ايضاً التجار الذين كان يتم ارسال الاموال بواسطتهم ، وقد أعدموا كلهم . »

وهناك امر له دلالته أيضاً في هذا النوع من الحرب هو أن برفيك الذي كان لا يتردد عن اعدام العصاة ، لم ينس ابداً ان يبرر عمله هذا! تماماً كما برر بيجو عمله إذ قال : «إني أعرف ان البعض في كثير من البـــلاد أرادوا تسويد سمعة كل ما فعلناه ضد هؤلاء الاشخاص ولكن بوسعي أن أحتج ، وأن أقول كرجل شرف انه ليس هناك من جريمة لم يرتكبها رجال الكاميزار : انهم بالاضافة الى تمردهم ، والى تدنيسهم للمقدسات ، والى جرائم القتل التي ارتكبوها ، والسرقة والاعتداء على الاخرين نراهم وقد ارتكبوا أعمالاً شنيعة لم يسبق لها مثيل ، وصلت الى حد شيّ الرهبان ، وفتح بطون الزوجات الشابات ، وشيّ الاطفال . وقد كان هذا السلوك الشنيع سبباً في عدم انضمام أحد اليهم سوى حثالة الشعب . فلو أنهم عاشوا كمسيحيين وطالبوا بتخفيض الضرائب ، لكان بوسعهم ان يضموا اليهم في تمردهم كل اتباع المذهب الكالفيني في لانفدوك الذين يدعي البعض أن عددهم يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ ولكان من المحتمل ان تنتشر العدوى الى المقاطعات المجاورة ايضاً ، وربما كان من الممكن أن ينضم اليهم كثير من الكاثوليكيين الناقمين من دفع الضرائب » .

ودون ان نأخذ تأكيدات برفيك حرفياً ، من المؤكد انه كان لتمرد الكاميزار نقطتا ضعف :

ــ النقطة الاولى عرضية : وهي ان اطارات المجتمع المحلي لم تكن قد اصبحت بعد اطارات للتمرد ، على حين كان الامر على العكس في الفاندي . وربما كان من الواجب

ان نعزو ذلك الى أن الاطارات الكالفينية من بينها كانت تشكل اقلية . وقد انبثق كل زعماء الكاميزار من الشعب ، وبعضهم ككامينات وفيلار كانوا عسكريين اتخذوا اسمهم الحربي من أسماء جنرالاتهم القدماء . ولكنهم لا يشكلون مع ذلك سوى (اوباش الشعب) وكان فيلار ابن طبيب في سان هيبوليت ، وضابطاً سابقاً في الخيالة الثقيلة .

— ونقطة الضعف الأخرى نقطة حتمية ناجمة من انحدار العصاة وانحطاطهم . فقد تحول عمل العصابات تدريجياً الى مجرد النهب والسلب ، سواء بدافع تأمين متطلبات الحياة ، أو بسبب الاعتياد على العنف . وقد تميز « المتطرفون » و « الصفوة » بصورة خاصة في كلا الجهتين ، سواء في ظل الصليب الابيض للكاميراز الكاثوليك او في ظل اللون الاسود للكاميزار الكالفنيين (هوغونو) .

وفي عام ١٧٠٦ خلف المارشال روكولور برفيك ، وكانت حصته العظيمة هي التهدئة النهائية . وكان برفيك قد القى القبض في العام السابق على فيلار آخر زعيم من زعماء العصاة ، وراحت عملية اخماد الفتنة تسير بسرعة . عندئذ شن العصاة المعركة المباشرة بعد أن جمعوا آخر مواردهم ، كما يفعل العصاة المحصورون في غالب الأحيان . وهذا ما فعله فروتيه في عام ١٧٩٩ . وفي عام ١٧٠٩ ، سحق روكولور منهم ٣,٠٠٠ في الفيفاريه وفي عام ١٧١٠ أنهت آخر العمليات العسكرية عملية التطهير والتصحيح ، ورفع التربيع . وبقيت مع ذلك بعض مجموعات صغيرة من عصابات السلب والنهب حتى عام ١٧١٣

وقد دامت الحرب ثمانية اعوام (١٧٠٢ — ١٧١٠) ، واستنزفت ٥ مارشالات ، وجمدت ٢٠,٠٠٠ جندي . ولم تؤدِ الى استسلام لويس الرابع عشر وخضوعه ، بل انطفأت مع الهرء المادي والمعنوي للسيفينيين الذين حرموا من كل شيء الا من وسائلهم الخاصة . وقد حصلت طريقة فيلار بازفيل على هذا الهرء بالطرق ذاتها التي سنرى ونستون تشرشل يقترحها بعد قرنين للقضاء على البوير بقوله : « اذا استمرت العمليات العسكرية بصورة قوية ودون أي تساهل ، فليس هناك من ضرورة او عذر لاعطاء درس للعصاة الذين يستسلمون . إن من الحكمة والعدل سحق كل العصاة الذين يقاومون حتى آخر رجل من بينهم ، ولكن دون أن يؤدي ذلك الى رفض العفو أو الصداقة ايضاً لأولئك الذين يريدون ان يستسلموا . وليس المزارعون الهولانديون الذين انضموا للعدو خونة إلا بالمعنى الشرعي . لقد خضعوا لغريزة الدم الطبيعية بانضمامهم الى رجال من بني عرقهم ، وهذا خضوع ليس له ما يبرره ولكنه يعطيهم مع ذلك عذراً مخففاً . فسلوكهم من الناحية المعنوية يستوجب الذم بصورة اقل من سلوك هؤلاء الانكليز ، بورجوازيي الجمهوريات والذين

يقاتلون بمثل عناد خصوم مواطنيهم :

« فمن الناحية العملية من المهم أن نفرق بين العصاة الذين يريدون ان يستسلموا والعصاة الذين قبض عليهم وسلاحهم بأيديهم . وينبغي ان نستخدم كل مجالات التأثير الممكنة لاضعاف العدو واخضاعه . فمن جهة هناك الجيوش القوية التي ستتقدم بصورة لا يمكن مقاومتها لتضرب وتقتل بآلات حربية مخيفة ومن جهة اخرى هناك المزارع الهادئة ، وفيها نساء واطفال يعيشون بأمن تحت حماية حكومة كريمة وقوية . إن السياسة التي ستقيم الى الابد هاتين اللوحتين أمام عيون الجنود الجمهوريين (البوير) هي سياسة كاملة حقاً ، واليها يستند أقصر طريق نحو سلم مشرف ... » ثم يلخص ونستون تشرشل رأيه فيقول ما يلي : « ترفقوا بالمغلوبين واسحقوا المتشامخين »[1] .

وكانت حملة الترانسفال قد بدأت في عام ١٨٩٥ بالاغارة التعيسة التي قام بها جيمسون ، لكن الحرب الحقيقية لم تنشب الا في عام ١٨٩٩ . وفي عام ١٩٠٠ انتهت المرحلة التي ساد فيها العمل المباشر باحتلال بريتوريا ، واستمرت حرب العصابات الى عام ١٩٠٢ ، وهو التاريخ الذي وصل فيه الترانسفال الى مرحلة الاستنزاف ، لكنه لم يكن قد غلب بعد . فقبل الوصاية الانكليزية . وتعتبر هذه الحرب الثورية استثنائية بقصر مدة مرحلتها النشيطة . وربما كان من الواجب ان نرى فيها نتيجة ممارسة ظالمة في **اعادة تجميع السكان المدنيين** وهو امر لم يعرفه العالم حتى ذلك اليوم . فلم يكن الموضوع . كما رأينا في الجزائر موضوع نقل القرى من مكان الى آخر تحت حماية المخافر العسكرية مع ترك السكان يمتنعون لبعض الوقت عن الاهتمام بمشاكلهم الاعتيادية ، بل بنظام أشبه بنظام التوقيف . وقد فسره تشرشل بالشكل التالي :

« كان العدو الهائم على وجهه لا يلبس بزة خاصة (بعد ١٩٠٠) ، وكان يختلط بالمواطنين ، ويقطن في المزارع التي أقسم ملاكها على الحياد ، فكان يختفي فيها ويظهر هنا وهناك ليشن هجوماً رائعاً ودموياً على رتل لم يكن ليرتاب في شيء ، او ضد مجموعة منعزلة . وللحيلولة دون وقوع مثل هذه الحوادث ، اضطرت السلطات العسكرية البريطانية (لورد روبرتس) الى تنظيف مناطق كاملة مع حصر المواطنين في معسكرات اعتقال . وبما أن الخطوط الحديدية كانت تقطع باستمرار كان من الصعب توفير الاشياء

---

(١) يتكلم هنا عن العناصر الانكليزية المتسمة بالنزعة الى السلام والتي حاربت لصالح البوير .. وهنا نجد سوابق للمشكلة الجزائرية . (المؤلف)

الضرورية لهذه المعسكرات فانتشرت الامراض فيها ، ومات عدة آلاف من النساء والاطفال فيها ...[1] » ولم تدم حرب العصابات الشيوعية في اليونان ، هذه الحرب التي لجأ الثوار فيها الى نقل السكان الجبليين ، إلا خمسة اعوام (١٩٤٥ – ١٩٤٩) ، الا أن سلسلة جبال البند اخليت من سكانها ومن كل مواردها . أما في الجزائر فلم تتناول عملية اعادة التجميع سوى ١٢ ٪ من السكان .

وفي معظم الحالات الاخرى ، كانت مدة الهرء المعنوي والبدني لشعب سار في الطريق الثورية ، كما قلنا آنفاً من سبعة الى ثمانية اعوام . فقد حارب الرومانيون ضد اللوزيتانيين[2] من (١٤٩) الى (١٤١) ق.م وقد انتصر زعيمهم فيريات بصورة نظامية على القضاة الرومانيين الى ان اغتيل ، ووضع اغتياله حداً للحرب لصالح روما . وفي ظل حكم تيبير[3] قاوم تاسفاريناس من العام ١٦ الى العام ٢٤ وهزم ايضاً من قبل فوريوس كاميليوس في ١٨ ولوسيوس اوبرونيوس في ٢٠ . وقد اجهزت عليه دولابيلا في عام ٢٤. ورأينا الكاميزار يقاومون من عام ١٦٨٥ الى ١٧٠٢ ، وتمرد الفانديون في عام ١٧٩٣ وسقط الماركيز « دوفروتيه » في عام ١٨٠٠ على رأس آخر تجمع هام للشوانيين . واعدم كادودال في عام ١٨٠٤ ، كإرهابي لا كثائر متمرد .

وبوسعنا في ايامنا هذه ان نعطي كمثال تمرد ساندينو في نيكاراجواي (١٩٢٦ – ١٩٣٣) ، والتمرد الشيوعي في ماليزيا ، وثورة الهند الصينية (١٩٤٥ – ١٩٥٤) ومع ذلك فان هذه الثورات انتهت لصالح الثوار ، الامر الذي يجعلنا نفترض أن الثمانية اعوام تساوي ايضاً المدة اللازمة لاستنزاف القوى المضادة معنوياً .

ومع ذلك لم يكن لهذا النجاح الذي حصلوا عليه بصورة عزيزة مخرج آخر سوى زوال العصابات وظهور الجيوش بدلاً عنها . ففي نهاية عام ١٩٤٤ كانت يوغوسلافيا تملك ٥١ فرقة و ١٠٧ مفرزة ضخمة بالاضافة الى عدد لا يحصى من المفارز الصغيرة التي يبلغ تعدادها ٨٠٠,٠٠٠ مسلح ، من بينهم ٣٠٠,٠٠٠ سلحوا من الغنائم المعادية . وقد جمدت هذه القوات ٤٠ فرقة معادية على حين كانت ٢٨ فرقة من فرق المحور تجابه في الوقت

---

(١) Mémoires. Winston Churchill, Plon, Èditeurs. (المؤلف)

(٢) اللوزيتاني هي إحدى مقاطعات اسبانيا الرومانية ، وهي البرتغال حالياً .

(٣) الامبراطور الروماني الثاني ، ابن ليفي والابن المتبنى لاوغوست . ولد في روما (٤٢–ق.م. الى ٣٧م) كان رجلا ذكياً الا انه قاس وكثير الشكوك (المعربان)

نفسه ٢٤ فرقة حليفة على الجبهة الايطالية .

وكان بوسع دوشان كفيدر معاون رئيس أركان الجيش اليوغوسلافي ان يستنتج من هذه الوقائع أن : « على كل بلد من البلدان في المقام الاول ان يعد خطة للمناورة التراجعية الى الخطوط او المناطق المنظمة بصورة مسبقة ، والتي تمكن استمرار المقاومة الجبهية فيها.. وينبغي على بلد يعجز عن سحب قواته الى ارض حليفة ان يجابه الاختيار بين حلين : اما الاستسلام أو القتال بشكل جديد متلائم مع الوضع العسكري الجديد ومع العلاقات بشكل جديد متلائم للقوة .... لقد أظهرت حرب التحرير اليوغسلافية بوضوح لا لبس فيه ولا غموض انالطاقة البشرية أمر أساسي في النصر ، وينبغي ان تعتبر اكثر اهمية من الارض. »

ويمكننا أن نقول بأن دوشان كفيدر على حق ضمن اطار حرب عالمية او معونة خارجية مستمرة ، وضمن الاطار الذي يجعل الكاميزار والشوانيين يقتصرون على استخدام مواردهم فقط ، يعتبر هذا العمل مشروعاً قادراً على صيانة الشرف والحصول على قناعة ورضى على المستوى المعنوي . (فقد غُلب الشوانيون ايضاً بواسطة الاتفاق الذي تم بين الحكومة والبابا) ، ولكن هذا العمل مشروع عسكري شبه يائس .

واخيراً فان المثل الذي ضربه التمرد اللوزيتاني (١٤٩ الى ١٤١ ق.م) يظهر لنا ان النصر العسكري لا نتيجة له الا ضمن الحدود التي يتحول فيها الى نصر معنوي وسياسي . فقد سحق فيريات « ليجيونات » ستة قضاة متتابعين وانهزم الرومانيون عسكرياً ، ولكن الكلمة الاخيرة كانت لهم من الناحية السياسية . إن لربع الساعة الأخير في كل الحروب اهميته الخاصة . اما في الحرب الثورية فان العام السابع هو الذي يحدد نتيجتها .

الفصل الثامن عشر

الصدمة والنـار

يتم القضاء على العدو مادياً بالصدمة او النار . ويغطي تعبير النار في واقع الامر كل القتال عن بعد ، حتى ولو كان هذا البعد ضعيفاً . اما تعبير الصدمة فيتعلق بقتال التّماس في مختلف اشكاله . وتعتبر الآثار المادية للنار والصدمة آثاراً لا يمكن فصلها عن آثارهـا النفسية ، ولهذا الأمر نتيجتان اثنتان :

– يرتبط مردود وسيلة من وسائل القتال باستحالة الافلات منها أكثر من ارتباطه بقوتّها . ولهذا فإن الالتحام (القتال جسماً الى جسم) يولد خسائر أكبر من القتال عن بعد ، طالما كان هذا القتال لا يلجأ الى استخدام نار ساحقة .

– ويخضع هذا المردود لشروط الحماية والحركية . فالتشكيلات المنضمة التي تلبي اعتبارات ميكانيكية خاطئة على حساب أحكام الزامية نفسية ، تقلل من هذا المردود وتقلصه.

وقد كتب أردان دوبيك ما يلي : « إن الانسان قادر على امتصاص كمية معينة من الهلع ، فان زادت فر من القتال » . وتفسر هذه الملاحظة لماذا كانت النسبة المئوية للخسائر ونسبة القتلى الى الجرحى تتناقص باطراد الى ان استخدم تمهيد المدفعية بشكل كثيف . ويدلنا الجدول التالي على ذلك .

العصر	الخسائر المتوسطة	الخسائر القصوى	نسبة القتلى في الخسائر	ملاحظات
في العصور القديمة	٣٠ ٪	٨٠ ٪	٤٠ ٪	لم تؤخذ المليشيا بعين الاعتبار.
القرن الثامن عشر .... والامبراطورية الاولى ...	من ١٥٪ حتى ٢٠٪	٣٥ ٪	من ٤٪ حتى ٨٪ (القرن ١٨) ٢ ٪ (الامبراطوريــة الاولى)	
١٨٧٠ – ١٨٧١	من ١٠٪ حتى ١٤٪	٣٥ ٪	٢ ٪	١) في حرب الحركة تستخدم المدفعية بصورة أقل من الحرب الثابتة . ان النسبة المئوية اليومية للخسائر لعام ١٩١٤ و ١٩٤٠ هي ٥,٠٪
منشوريا	١٠ ٪	١٥ ٪	١ ٪	
الحرب العالمية الاولى	من ١٥٪ حتى ٢٥٪	٣٥ ٪	١٢٪ في عام ١٩١٦ ٧ ٪ في عــام ١٩١٨(١)	
الحرب العالمية الثانية			١٧ ٪	
كوريا			١٥ ٪	

ويعتبر التناقص التدريجي للخسائر عن ندرة الالتحام ، وعن انتهائه ، واستخدام تمهيد المدفعية الضخم . ومن الصعوبة بمكان أن ينجو الانسان من الالتحام ومن قصف المدفعية . وفيما بين قتال الالتحام الذي كان متبعاً ، وبين استخدام المدفعية الجبارة كتمهيد للهجوم تناقصت الخسائر نظراً لسهولة الحرق تحت حماية تراشق بالنيران بعيد وغير دقيق . ولنضف الى ذلك استهلاك الذخائر الذي ظل يتزايد باستمرار بالنسبة للخسائر التي يولدها التراشق بالنيران . وكان جيبير يقدر أنهم كانوا يحتاجون الى اطلاق ٥٠٠ طلقة حتى تصيب طلقة واحدة الهدف . وجاء بعده غاساندي وبيوبرت اللذان قدرا أنه ينبغي اطلاق من ٣,٠٠٠ الى ١٠,٠٠٠ طلقة لاصابة رجل واحد . ولم يكن تحسن العتاد هو السبب ، بل على العكس . ولكنهم لاحظوا دوماً انخفاض المردود بمعدل ٦٠٪ بين مدرسة النار والقتال . فالمعنويات وسهولة العمل لم تكن متشابهة فيها ، وكلما كانوا يرمون بسرعة ،

كانوا يخطئون الهدف . وهنـــاك تحول آخر تنبأ به كولان ثم تأكد فيما بعـــد . فقد ازداد عدد الاسرى بالنسبة للخسائر مع ازدياد التفكك المعنوي الذي احدثته حركات الالتفاف .

وتعضُد الحركية الصدمة وتساندها ، وتسمح بالتواري عن نيران العدو . ونجد ان عدد الطلقات المؤثرة المتوقعة ضمن حدود المدى الفعال (والتي تجمع بين الدقة والقدرة على التأثير) تشكل رقماً حاسماً يحكم التكتيك ويسيطر عليه : فاذا كان عدد هذه الطلقات كبيراً يتعرض الهجوم للمخاطر ، واذا كان ضعيفاً فان الدفاع يضعف . وتقلل الحماية من مدى الرمي الفعال ، الا أنها قادرة على عرقلة الحركية وزرع العقبات امامها . وقد استطاعت هذه الحماية التفوق على النار عندما تمكنت من الجمع ما بين المقاومة القوية ، ووجود نسبة صغيرة بين الوزن والقوة المحركة المكلفة بنقله .

الصدمة

عرف قتال الصدمة ثلاث درجات : القتال الطائر[1] الى أقرب ما يمكن — الالتحام — الصدمة الحركية .

وينكر أردان دوبيك وكولان حقيقة الصدمة . فبالنسبة اليهما ، يتأتى الدفع في القتال من الصف الاول ، الأمر الذي يستبعد اندفاع الآخرين . وبالغريزة لا ينقض الرجال ، ولا تنقل الخيول الى آخر مدى ابداً ، ولا ينتظر احد انقضاضاً يتسم بالتصميم والوعي ، كما ان تصميمين على الانقضاض يتساويان في العزم لا يتجابهان أبداً . ومع ذلك فإن أردان دوبيك يقر بأنه من الممكن ان يكون هناك قتال بالصدمة من خيالة ضد مشاة ، وبخاصة اذا كانت الخيالة خيالة مدرعة وكانت المشاة قد تزعزعت صفوفها قبل ذلك . وفي كل مكان نجد ان « ريح الانقضاض » هي التي تنتصر على الخصم .

ان دراسة دقيقة للوقائع تبرز أن أردان دوبيك اندفع بفكرته عن أولوية المعنويات الى مدى بعيد جداً . فقتال الصدمة موجود في أشكاله الثلاثة ، ومع ذلك فان الصدمة الحركية نادرة جداً .

---

(١) Combat volant

ويقول مؤلف دراسات عن القتال : « بما ان لقتال الخيالة ضد الخيالة خسائر قليلة ، فإن ذلك يعني أن هناك قتالاً ضعيفاً » . وقد انكب الجنرال توماس على دراسة ١٥ معركة من معارك الخيالة التي حدثت بين عامي ١٧٥٧ و ١٨٧٠ ، فوجد سبعة منها كانت الخسائر المتبادلة بين الطرفين فيها تدل على ان خسائر قتال الالتحام لا تقل عن الخسائر التي سببتها الظروف الاخرى .

وتتبدل هذه الخسائر من ١٠ الى ٥١ ٪ . وكانت اهم معركة واكثرها خسارة هي معركة ليبر فلكفيتر (١٨١٣) التي وجه فيها مورا ٢٥ كوكبة (سرية) فرسان على بطاريات المدفعية[1] . وقد تعرض هذا الانقضاض لمقاومة ١٦ كوكبة فرسان بروسية وروسية من المواجهة الجبهوية ، ول ١٢ كوكبة فرسان نمساوية من الجناح . وعندما خضع الفرنسيون ، كانت خسائرهم تعادل ٥١ ٪ مقابل ٢٢ ٪ لدى البروسيين ، و ٣٣ ٪ لدى النمساويين . ولا يقل عن ذلك صحة ان الصدمة الجبهوية للفرسان نادرة . ففي واترلو ، كان كافياً ان يخفض حملة الرماح رماحهم استعداداً للانقضاض ليبعدوا الانكليز ، ويشهد ماريو على الظاهرة ذاتها في روسيا عندما كانت الخيالة الفرنسية تنقض على القوزاق ولا يستبعد ماريو مع ذلك امكانية الصدمة الحركية عندما صرح ان الـ ٣٧٠ كغ التي يشكلها وزن الفارس الراكب : « اذا ما زيدت بتأثير السرعة ستقلب كل شيء » . فقد مورست الصدمة واستخدمت دوماً ، وعلى الاقل استخدمتها خيالة القرون الوسطى في المباريات التي كانت تجري أثناء الاعياد ، والاحتفالات وفي الحرب .

وليس قتال الالتحام بين مشاة نادراً ، حتى في أيامنا هذه . فقد تمكن الكولونيل فيدوزيف في عام ١٩٤٨ من كتابة ما يلي : «لا يمكن للجندي ان يكون جندي مشاة جيداً إذا لم يكن يعرف القتال بالحربة ، وقد نجم هذا التأكيد من الاحصاء الرائع التالي :

سئل ٢,٠١٨ مقاتلا فظهر أن :

١,٩٩٠ منهم ساهموا واشتركوا في اربع معارك التحامية ، وحضروا ثماني معارك اخرى .

— ١,٠٥٤ منهم قد اشتبكوا فعلاً في القتال بالسلاح الابيض ، من بينهم :

— ٧٨٩ اشتبكوا بقتال الحربة

---

(١) المرحلة الاولى من معركة لايبزيغ . (المؤلف)

— ١١٦ بالخنجر

— ١٤٩ بالرفش اليدوي

— ومن اصل ١,٢٨٢ انقضاضاً بالحراب ، قبل العدو القتال ٣٧٢ مرة (٢٩٪) وفر قبل الاقتحام ٩١٠ مرات (٧١٪) .

وينتج عن ذلك أن العدو كُنّس « بريح الانقضاض » مرتين من اصل ثلاثة انقضاضات . ومن هنا كانت الشهادات المتوافقة التي قدمها أردان دوبيك بالنسبة لمعركة اوستيرليتز ، التي تراشقت فيها المشاة بالنيران على بعد ٣٠ خطوة دون ان تجرؤ على الاقتحام ، وبالنسبة لألما وماجنتا حيث فر الروس والنمساويون قبل التماس . كل هذا لا يمنع امكانية الصدمة . ونحن نعرف على الاقل حالة صدمة حركية حدثت في لايباخ في عام ١٨٠٩ . فقد حدثنا ماكدونالد بما يلي : « التقت كتيبة من الطليعة بكتيبة نمساوية عند منعطف الطريق ، ولم تكن الكتيبتان تقومان بمهمتهما ، وليس هناك من كشافة أمامهما . وكانت رؤيتهما لبعضهما البعض واندفاع كل منهما نحو الاخرى بالحراب محصلة لحظة من اللحظات فقط . وكان جنودنا يتميزون بانحدار الارض أمامهم فسُحِقَ الخصم ولم يبق من جنوده سوى بضعة رجال » .

وتعتبر الصدمة اسهل عندما يكون القتال قتال خيالة ضد مشاة كما اعترف بذلك أردان دوبيك . وقد وصف دوبراك كل احتمالات مثل هذه العملية اذ قال ما يلي : « انقضوا بسرعة والى أبعد مدى ، فاذا ما اضطرب الخصم ، وتزعزعت خطوطه وانفتحت صفوفه ادخلوا ! لقموا الاسلحة ، والتفوا حول المربع الذي تهددونه من كل الجهات واصرخوا بأعلى اصواتكم : أسير ! ويمكن فهم هذه الكلمة في كل اللغات ، فاذا تزلزل وضعه واهتز إدخلوا ! فإذا ما استسلم اوقفوا ضربات السيوف » ولا نحس هنا بإرادة منهجية لصدمة حركية ولقتال التحام ايضاً . ونفهم ايضاً كيف احتوت مورا في كراسنويه نار ١٠,٠٠٠ روسي دون ان يتمكن من اقتحام المواقع الروسية ، وكيف احتوت فرق دافو الثلاث الخيالة البروسية في اورشتادت حتى أن ماكدونالد تمكن من تحطيم الخيالة النمساوية في فاغرام ، وكان المبدأ التالي هو الذي ساد : يكفي إطلاق النار . وفي درسد بللت الامطار أحجار البنادق البروسية ، وكنست خيالتنا المدرعة مربعاتهم . ومع ذلك . فإن أمثلة الصدمة هنا واضحة وبينة . وفي زنايم (١٨٠٩) جددت خيالة غيتون المدرعة عملية لايباخ . فقد انقضت بشكل مفاجىء ضد ٣ كتائب نمساوية كانت

تصعد طريقاً بخطوة الانقضاض . وقد كتب ماربو عنهم ما يلي : « لقد تمرغوا في الارض تحت أقدام الخيول ، ولم يبق منهم رجل واقف على قدميه ، وقتل منهم جندي واحد . والقي القبض على الاخرين » . وفي فونتس دواونورو قام فورنيه سارلوفيز بعمل اقوى عندما هجم على ثلاثة مربعات انجليزية مدعومة بالمدفعية . فانقض على مربعي اليسار بثلاثة ألوية من القناصة وحطمهم . واجتاز بحصانه رؤوس حراب المربع الاوسط وسقط فوق الصفوف التي انهارت على طول عرضها .

وقد تضاءلت امكانيات انقضاض الخيالة بعض الشيء ، منذ ان ظهرت اسلحة الرمي السريع . فمنذ عام ١٨٧٠ ، تحملت الخيالة المندفعة ضد المشاة خسائر ضخمة : من ٣٨ الى ٦٨٪ في كل طرفٍ من الاطراف ، في روزونفيل ٢٤٪ وفي فروشويلو ٦٢٪ منها ٤٠٪ في انقضاض واحدٍ في سيدان . واثناء حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ احتاجت الخيالة الى ظروف استثنائية جداً تسمح بالمفاجأة والسرعة للحصول على انقضاضات سعيدة ، مثل انقضاض كوكبة جيروند في عام ١٩١٤ أو لواء السباهي[1] الذي احتل نابلس بالسيف في عام ١٩١٨ .

وفي أيامنا هذه أدى اختفاء التشكيلات المنضمة الى استبعاد كل امكانية للصدمة الحركية بين القطعات ، بيد أن الالتحام باقٍ ، ومن الخطر كل الخطر التقليل من مداه .

النـار

تبرز اعتبارات النار الاولية قيمة مفهوم المدى المجدي وسرعة الرمي . فكلما أمكن رمي طلقات مؤثرة ودقيقة على عمق الرمي المجدي ، كلما كان السلاح سلاحاً رهيباً . وعندما نفتقر الى سرعة الرمي ، نجد أنفسنا ملزمين فوراً باستخدام السلاح من وراء مسترٍ من المساتر ، لنعطي سدنة السلاح الثقة به . وعندما تتعرض القدرة المؤثرة للسلاح الى الخطر ، تصبح سرعة الرمي ودقة السلاح أيضاً أموراً لا جدوى منها . ولهذا فإن القوس الذي يرمي بسرعة أكبر من سرعة القوس الزيّار لم يخلع هذا الاخير عن منصة السيادة في القتال . ولهذا السبب ايضاً ، حلت البندقية الارقبوز محل كلا القوسين ، مع أن سرعة رميها كانت أقل ، ومداها ايضاً اقل من مدى القوس الزيار ، سوى أن قوتها المؤثرة كانت متفوقة .

---

(١) لواء السباهي Spahis – الجنود المراكشيين ، أو جنود شمال افريقيا (المعربان)

ولا تتحكم سهولة الاستخدام وحرية الرامي بفاعلية النار فحسب بل تتحكم ايضاً بتقدير المسافة وتجهيز التصويب على الاهداف ولم يكن لهذا العمل اية فائدة الا اعتباراً من اللحظة التي قرر فيها استخدام المِحْرَك[1] الى مسافة تتجاوز مداه وذلك في نهاية القرن الثامن عشر. وكان للبندقية نموذج ١٧٧٧ مدى ٦٠٠ متراً منها ١٢٠ م في النقطة التي يقطع فيها مِحْرَك القذيفة خط التسديد ، أي بدون تصحيح للمدى . وكانت تستخدم على ٢٥٠ متراً مع استخدام الابهام كموجّه للمدى (المسافة) . ولقد احتاج الامر الى موجّه للمدى ذي لوحة مرقمة كي يتم الرمي بصورة افضل برغم المحارك الاكثر توتراً ، الا ان هذا الموجّه لم يظهر الا في عام ١٨٥٠ .

إن خفة السلاح هي أيضاً عامل من العوامل المجدية والمفيدة عندما تبقى ملتصقة بالقوة فعلى حين تبدّل وزن الاسلحة اليدوية تبدلاً طفيفاً ، تبدل سمك وطول المواسير وزاد لدرجة مبالغ فيها،وكان غريبوفال يفرق جيداً بين المدافع تبعاً لمهمتها . وفعلت الاجتهادات أشياء كثيرة برغم كل التجارب المناسبة ، الا ان شعبية غريبوفال تضاءلت بعض الشيء في عام ١٧٧٢ ، فلم يستطع ان يحقق انتصاره الا اعتباراً من عام ١٧٧٦ . وزودنا الاصلاح بأفضل مدفعية اوروبية فرض المثل الذي ضربته نفسه وأصبح قانوناً .

إن التفريق والتمييز بين النيران الهجومية والدفاعية أمر اساسي ، لانها تؤثر على امكانات الاستقلال الذاتي التكتيكي للوحدات . فالدفاع ضد خصم ينبغي عليه أن يهاجم مكشوفاً يحظى بصورة خاصة بدعم الاسلحة الخفيفة ذات الرمي المستقيم والسريع . ويحتاج الهجوم ، عندما يصطدم بخصم مستور الى دعم أسلحة ثقيلة ذات رمي مستقيم او منحنٍ . ولهذا منذ ان تشكلت المدفعية كسلاح ، خلقت مشكلة اسلحة الدعم الخاصة بالمشاة . ولقد كانت المشاة تتأسف دوماً على المدافع الخفيفة لغوستاف – أدولف . واعتباراً من عام ١٧٩٣ ، كانت تصارع سلاح المدفعية بشراسة ، ودون نجاح ، من اجل الحصول على مدافع الكتيبة وقد خسرت هذه المدافع أهميتها عملياً في ظل الامبراطورية الاولى ، ولم تستعدها الا في عام ١٩١٦ .

ويسمح عنف النيران الدفاعية المستمرة والعميقة بوجود الفواصل في التراتيب ، طالما كانت النيران قادرة على ضربها بصورة فعالة وهذا ما حدث اعتباراً من القرن السابع عشر ، وبالرغم من ضعف المدى المجدي للاسلحة ، لانهم كانوا يقاتلون واقفين ومحرومين

---

(١) Trajectoire.

من الحماية تدريجياً . ثم أتى اختراع البندقية ذات المغلاق المتحرك الذي بعث القتال منبطحاً وعاضد بذلك التسلل في الفواصل ، فبدأ الخط المتصل يعود للظهور .

وساعدت فاعلية النيران الدفاعية أيضاً استقلال مفارز قطعات المعركة واكتفاءها الذاتي . وسمحت لها بمقاومة اكباد القوات المعادية منفردة وقتاً كافياً يسمح لاكباد القوات الصديقة بالتدخـــل . ولكن قوة الايقاف هذه تناسبت ايضاً مع النيران الهجوميـــة . فاذا تحكمت قوتها بقوة النيران الدفاعية تقلص الاكتفاء الذاتي التكتيكي وضاق ، وكان من الممكن ان يختفي . إن القدرة على الاكتفاء الذاتي موجودة وقائمة منذ استخدام البندقية (١٧٠٠) حتى ظهور كتل المدفعية ذات الرمي السريع (١٨٩٠) ، وهي التي سمحت بالتكتيك الفرقي الكبير . وتبرهن فرقة آبل دوي في فيسمبورغ ان هذا الاكتفاء الذاتي بقي سليماً في عام ١٨٧٠ : اذ أن ٦,٦٠٠ فرنسي صمدوا بشرف ضد ٥٠,٠٠٠ الماني . وفيما بعد كان بوسع السلاح الاوتوماتيكي (الآلي) تعزيز قدرة الاكتفاء الذاتي ،الا انه لم يفعل ذلك . فقد كانت نيران المدفعية، ونيران الدبابة والطائرة كافية لشله . ولم تولد القدرة على الاكتفاء الذاتي فيما بعد الا بالافادة من التدريع ، واستفادت الوحدات الميكانيكية من ذلك فائدة كاملة .

وتطورت النيران الهجومية والدفاعية نحو قدرات متميزة بصورة مطلقة، مع التوجيه الآلي والسلاح الذري . إذ خلّص التوجيه الآلي النار الدفاعية من العجز المعنوي ، واعطى السلاح الذري للنار الهجومية قدرة على الفتك الفوري الشامل الذي قلب التكتيك رأساً على عقب .

ان التوجيه الآلي مقترن دوماً بمكننة الارض (تحكيم الارض .. زرع المصائد .. الخ) الذي كان التعبير الاول عن التوجيه الآلي . وكانت هذه الطريقة مستخدمة قبل ذلك في الايام القديمة في أعمال الحصار. ومنذ القرن الثامن عشر اكتسبت مميزات عامة هامة ،اذا ما قورنت بما حققناه وجدنا ان هناك فرقاً في المقياس وفي التقنية لا في اثر هذه الاعمال وفي طبيعتها .

وفي عام ١٧٤٣ حكّم المارشال دونواي بواسطة الآلات خطوط الكويخ بين لاندو وهردت ، ونصب فيها المصائد والافخاخ بصورة جيدة لدرجة حصل فيها على أثر كامل للردع : اذ امتنع الخصم عن مهاجمته . وكانت تحصيناته تجمع ما بين المستنقعات ، وحفر المياه ، والمحطومات ، والالغام الدافعة للحجارة ، والمعاقل . وبالاضافة الى ذلك اخليت

المناطق الامامية من البلاد من كل مورد قابل للاستخدام . ان المثل الاعلى لاعداد الارض وتحصينها هو في الواقع تمويت الجهد المعادي في وضع القتال في اللحظة التي يصل فيها الى « مرحلة الفقر الاداري » الذي يسببه طول خطوط مواصلاته ، والى تفكك التنظيم الذي يحدثه ويولده تحكيم الارض وتغيير معالمها .

ويضيفون حالياً الى الحواجز التقليدية كل مجموعات الالغام ، ويحدثون المناطق الملوثة بالمواد الكيماوية ، أو الاشعاعية ، واخيراً هناك خطط النار الميكانيكية المجربة منذ عام ١٩٤٤ . وتكون هذه الخطط مجهزة بأسلحة توجه ذاتياً أو بأسلحة – ميكانيكية بتوجيه كهر – طيسي .

إن للأسلحة ذات التوجيه الذاتي تسديداً متبدلاً محدداً، بدءاً من مركز بعيد للقيادة والتوجيه . ويدير هذا المركز عدة اسلحة ، ويطلق النار تبعاً للمعلومات التي يزوده بها الرصاد ، او أجهزة الرادار . وتتطلب خطط النار الموجهة ذاتياً عدداً قليلاً من السدنة .

وترمي الأسلحة الميكانيكية ذات التوجيه الكهر – طيسي على محور ثابت ، او بحصد آلي ودون تدخل بشري. وهي تفتح النار اما عندما يثير الهدف موجه الرمي (الآلي أو الكهربائي أو الفوتوكهربائي)، او بحركة تشبه جهاز التوقيت للرمايات الدورية التي تستهدف الازعاج . ولا تتطلب خطط النار الميكانيكية أي سدنة .

ومن الممكن ادخال كل مجموعات الاسلحة ضمن خطط النار الميكانيكية، شريطة ان يتاح لها تموين ضخم بالذخيرة . وتدخل فيها حقول الالغام التي تنفجر مباشرة أو بواسطة التوجيه الذاتي . وتلائم خطط النار الميكانيكية تجهيز واعداد المناطق التي لا ننوي المناورة فيها أما خطط النار الموجهة ذاتياً فتلائم المواقع المجاورة لمناطق المناورة كما تلائم المواقع المؤقتة .

وتظهر التجربة ان تحكيم الارض آلياً بالتوافق مع ردود فعل قوات صغيرة سريعة الحركة ، او متحصنة في الارض ، يبطيء حركة تقدم قوات ضخمة ، حتى ولو كانت هذه القوات مجهزة بتجهيزات جيدة . فعلى حين يستطيع المهاجم التقدم بسرعة تبلغ من ٨ إلى ١٠ كم في اليوم،وتصل الى ٢٠–٣٠ كم يومياً عند خرق موقع ميداني محتل بكثافة تقليدية ، نرى أن هذه السرعات تهبط الى ٢– ٨ كم يومياً في مناطق محكمة ومحصنة بهذا الشكل ، مع ان قوات الدفاع عنها ضعيفة . والألغام في هذه المناطق فعالة الى درجة كبيرة فهي تسبب ثلث الخسائر ، وكلمة « شيطاني » تطبع كل علاقات القتال عند وجودها . فتحصين الأرض والتوجيه الآلي وسيلة اقتصادية اثناء المعركة، الا انها وسائل كثيرة التكاليف

في الاعداد والتحضير : فهي تحتاج الى يد عاملة والى تخزين كميات هائلة من العتاد والمواد .

ويضاف الى النيران التقليدية اعتباراً من وقتنا هذا النيران الذرية. وتشتمل فاعليتها على ثلاث مناطق تأثير متتابعة: اشعاعية وحرارية وآلية . فعلى حين لايمكن التقليل من آثار الاشعاع المباشر الا باستخدام حماية سميكة جداً، يمكن تأمين الحماية في المنطقتين التاليتين باستخدام وسائط الحماية الشائعة حالياً . فاذا قارناقطر المناطق الخطرة الشامل للقطعات المكشوفة وهو ٧,٣٠٠ متر أو القطعات المحصنة وهو ٢٩٠٠ متراً في حالة قنبلة من عيار ٢٠ كيلو طن أخذنا فكرة واضحة عن هذه التبدلات . فاذا استبعدنا منطقة الخسائر الخفيفة (وهي ٥٪) غدا طول هذه الاقطار ٤,٩٠٠ و ١,٦٠٠ متراً .

وقد اتجهت أبحاث المهندسين العسكريين، بدءاً من ابحاثهم على القذيفة ٢٠ كيلوطن الى صنع أسلحة ذات قوة أكبر واقل من ٢٠ كيلو طن فقد توصلوا بهذا الشكل الى القذائف الذرية للمدافع او الصواريخ التي لا تعادل قوتها اكثر من ١ كيلو طن ، وتوصلوا بهذا الشكل ايضاً الى القنبلة الهيدروجينية التي تصل قوتها الى بضعة عشرات الميغا طن . وتسمح القذائف الاولى بمعالجة مشكلات تكتيكية ضيقة ، على حين تسمح القذائف الاخرى المستخدمة بالانفجار العلوي (على ارتفاعات معينة) بتدمير بلد كفرنسا بـ (٥) الى (١٠) قذائف .

إن السلاح الذري يجدِّد مظاهر الشجاعة . فلو أن أردان دوبيك بُعث بيننا من جديد، للاحظ ان الهلع لا يجعل الانسان يفر من القتال ، بل إن الهلع على العكس ، يدفع الطرفين المتنازعين ليواجه كل منهما الآخر ليتجنب الضربة الذرية المحتملة . واعتباراً من هذا الوقت سيكون فرار المقاتلين الى الأمام. اما الدفاع عن الموقع دون فكرة التراجع فيعني الانتحار دون ان يسبب خسارة رجل واحد للعدو . فمرونة المناورات تحل محل العناد والتصميم . وهكذا نتزلق ، بطرق غير متوقعة ، الى أخطاءٍ تكتيكية ارتكبت قبل القرن الثامن عشر؛ ولا يؤدي التقدم التقني الى محو الماضي والقضاء عليه وهو لا يفعل في حقيقة الامر الا تجديده بمقاييس اخرى .

الفصل التاسع عشر

الترتيب والتنظيم

ان هدف الترتيب[1] هو استغلال قدرات النار والصدمة على افضل وجه واتقاؤها والحماية منهما . ومنذ الازمان القديمة ، كان هناك نموذجان للترتيب تجابها في **الاشكال المتصلة والمتقطعة** ، وقدولّدا مما يسمى النظم الاربعة :

– الانظمة **العميقة والمرنة** والمولودة من القتال بالصدمة .

– الانظمة **الرقيقة والسيالة** والمولودة من القتال بالنار .

إن محاسن ومساوىء هذين النموذجين من التراتيب معروفة جيداً . ومن الممكن تلخيصها على الشكل التالي :

فالترتيب الرقيق المتصل يجابه التسللات بسهولة وينتج التماسك . وعندما يكون هناك اسلحة دعم (مدفعية – دبابات) فانه يسمح بانتشارها الحر خلف الخط .

ومع ذلك ، فمن السهل خرقه ، ويولد هذا الخرق خسارة حرية المناورة المباشرة . وينبغي عندئذ الاسراع الى الثغرة لسدها خشية انهيار بقية الترتيب بالالتفاف . إن فاعلية هذا الترتيب محدودة بالاتجاه العمودي على خط الانتشار ومن الصعب تحريك القوات فيه

---

(۱) **Les Dispositifs.**

أو تحريكه ، كما ان احتياجاته من القوات كبيرة جداً وكثيرة التكاليف ، كما أن تسلسله الضعيف بالعمق قليل التلاؤم مع المناورات .

اما الترتيب العميق المتقطع ، فانه يتيح عدداً من العقد والمراكز التي تقاوم بصورة جيدة الوسائل التقليدية كما يستطيع القيام بردود فعل ضخمة ، ويتميز هذا الترتيب بالفاعلية في كل الاتجاهـات ،ولا يؤثر ضياع أي عنصر من عناصره الجانبية على حرية المناورة بصورة مباشرة . وبالاضافة الى ذلك فمن السهل تحريك القوات فيه ، كما ان احتياجاته من القوات احتياجات اقتصادية معقولة . ويلائم تسلسله وتناسقه عمقاً اجراء المناورات .

الا أن هذا الترتيب قابل للنفوذ والخرق . ويزيد فيه حدة **الانعزال المادي** والمعنوي للعناصر . ونظراً لأنه لا يتيح لاسلحة الدعم الأمن الكافي ، فانه يضطرها الى تدارك أمنها الخاص ومعالجته ، او الى الانغلاق داخل العقد والمراكز التي تدافع عنها قطعات الخطوط .

ومن الناحية العملية ، من النادر ان نرى استخدام تراتيب متصلة بصورة صرفة أو تراتيب متقطعة ، فأحد هذين الشكلين يتفوق ويرجح على الآخر .

ومن الممكن زيادة عمق التراتيب المتصلة بمضاعفة الخطوط المنسقة المتدرجة وزيادة صلابتها وقوتها بادخال عقد قوية في هذه الخطوط . أما التراتيب المتقطعة فمن الممكن تحاشي وتلافي قابليتها للنفوذ والاختراق ، اما باقامة ستار من التغطية يسد الاتجاهات الخطرة ويناور في الفواصل القائمة ،أو بمراقبة هذه الفواصل بمجموعة من العناصر الثابتة او المتحركة تستطيع اعادة تشكيل الخط الدفاعي من جديد .

وقد تأثرت القوات المؤلفة لهذين الترتيبين ، عبر التاريخ بنفسية الصف المنضم وولدت صراع « النظامين » المذكورين ضد بعضهما البعض عندما كانت تتفوق وسيلة من الوسائل التعبوية وتسود على غيرها . وقد اتسمت اكثر هذه المراحل شهرة وأقلها في الحقيقة اهمية **بصراع النظامين الرقيق والعميق** الذي جرى في القرن الثامن عشر على المستوى النظري . وكانوا عندئذ في لحظة من هذه اللحظات التي تمر بسرعة والتي يسود فيها توازن نسبي قلق بين النار والصدمة . وعلى العكس ، في المراحل التي تأكدت فيها سيادة واولوية وسيلة من الوسائل ، كان هناك تعارض قابل للاستمرار بين نظامين يدعي كل منهما استثمار الوسيلة ذاتها :

- **الانظمة العميقة والمرنة للصدمة .**
- **الانظمة الرقيقة والسيالة للنار .**
- **الانظمة الرقيقة والمرنة للمناورة .**

نفسية الصف المنضم

لقد احتفظ بالصف المنضم في القتال حتى المرحلة الحديثة . وقد رأينافي عام ١٩١٤ بعض تشكيلات الاحتياطيين الالمان تستخدمه في الانقضاض . وفي النصف الاول من الحرب العالمية الاولى كانوا يتقاتلون ايضاً بخطوط متعاقبة تشتمل على فواصل ضعيفة بين الجنود .

والى ان ظهرت البندقية ذات المغلاق المتحرك ، مارس الصف المنضم سلطة حقيقية على التراتيب وتخلوا عنه وهم نادمون وآسفون عليه . وتعزى اليه الفضائل الميكانيكية والمعنوية . وكانت الفضائل الاولى خاطئة . أما الثانية فكانت مؤقتة وتتطابق مع سهولة العمل اكثر من تطابقها مع ضرورات العمل .

واقتصرت عبادة الصف المنضم واحترامه على غريزة «الاحساس بالمرفق الى جانب المرفق » وبعمل الجنود « معاً » مع البقاء تحت اشراف الضباط . وامتد احترام هذه الغريزة الذي كان احساساً عميقاً في التشكيلات الاولية الى التراتيب العامة . فاستخدام الصف المنضم ينبغي أن يقي الجندي ويحصنه ضد الخوف ،وأن يؤكد تماسك القطعة وسيطرة الانضباط . ومن الناحية التقنية ، يستهدف الصف المنضم إحداث آثار ضخمة للنار او الصدمة . ومن الناحية التكتيكية يواجه هذا الصف استمرار الجهود الحربية واتصالها عمقاً .

أما من الناحية العملية ، فكلما كان الصف منضماً كلما كان سيئاً ومشؤوماً : فضخامة التشكيلات تتعارض مع ممارسة القيادة ، وتسمح بحدوث ضعف وخور كامن فيها ، ولا يتيح أبداً مناورة الصفوف التالية لصالح الصف الاول **فلكي نقاتل ونناور بصورة فعالة ، ينبغي ان نترك في الترتيب بعض الفجوات .**

وينتظم عقد الصف في خط أو رتل . ويتيح الخط للنار والتماس والالتفاف قوة جيدة. اما الرتل فيساعد على تطوير الحركة اكثر من الصدمة ، ويشترط الخرق . وعندما كان التسليح لايسمح بالرمي فوق القطعات أو في الفواصل ، لم يكن هناك أبداً قتال إلا من الصف الاول ،حتى ولو كان هذا القتال قتالاً بالصدمة.وقد فرضت هذه الحقائق نفسها ببطء.ففي كل لحظة يظهر انصار التشكيلات المنضمة وانصار التشكيلات العالية الضغط ايضاً بصورة مفاجئة وهم يحاكمون الامور العسكرية عادة كمهندسين لا كتكتيكيين .

ولقد كان ممنوعاً على الجندي الروماني القديم أن يترك الصف ، الا لالتقاط حزام

حيوان من حيوانات الجر أو مساعدة زميل من الزمــلاء . وفي الليلة التي سبقت معركة يينا فسر البروسيون جيداً أسباب هذا التدبير الاحتياطي فقالوا : « لم يطبق استخدام الرماة[1] في فرنسا الاكحل من اسوأ الحلول (كذا) : وقد نجحت معهم هذه الطريقة حتى الآن . ولكنهم سينهزمون عندما يجابهون قطعات منضبطة مدربة في اراضٍ ملائمة لتشكيلاتنا النظامية . ومع ذلك فان قتال الرماة قد يتجاوب ويتلاءم مع الفكر الفرنسي ومع جيش تحركه روح وطنية هائلة ، الا انه لايمكن تطبيقه على قطعات كقطعاتنا يحتاج الجندي فيها الى الاحساس بعصا ناظر الرتل(٢)على مقربة من كتفيه» . ومع ذلك وفي هذه اللحظة تكثر الامثلة الدالة على انه لا نار فعالة الا إذا كانت حرة ، وإن نار الرماة هي اكثر النيران قتلا .

وفي معركة فاغرام لم يكن منطق ماكدونالد ومحاكمته مختلفة عن محاكمة البروسيين عندما شكل رتله بشكل حدوة فرس مؤلفة من ٨,٠٠٠ جندي . فقد كانت قطعته مجندة حديثاً، وكان حذراً جداً ، وقد قال : «كنت احس أن هؤلاء الرجال غير متماسكين معاً » .

وبقيت جاذبية الصف المنضم جاذبية حادة الى حدٍ ما وقوية بعد عام ١٨٧٠ ، حتى أن الضباط الفرنسيين الاحداث لم يحفظوا من وسائل قتال الامبراطورية سوى هذا المظهر الذي عفى عليه الزمن . وهناك أنظمة كانت معرقلاً لنظرياتهم حتى عام ١٨٩٩ ، وهي تطالب بالهجمات الضخمة باللواء وبالفرقة.وفيما بعض فرض الرشيش استخدام التشكيلات المنفتحة الى حد كبير والخالية من الجمود.واحتاجوا فيما بعد الى قرون ليعترفوا بأن التماسك المعنوي والتماسك المادي لا يرتبطان بعضهما بالبعض الآخر بارتباطات الزامية . ومع ذلك كان المركيز دوبسكير قد ربح معركة بافي في عام ١٥٢٥ باستخدام حملة البنادق القديمة (الارقبوز) المنتشرين كرماة .

---

(١) Tirailleurs وتعني الرماة . ويقصد بهم كل الجنود الذين كانت فرنسا تجندهم من المستعمرات او شبه المستعمرات . (المعربان)

(٢) Serre — File .

النظام العميق

والنظام المرن

والصدمة

كان القتال القديم محدوداً بالصدمة تقريباً . فقد بقي القوس عاجزاً أمام المشاة الثقيلة . ولقد قدمت الانظمة الاولى التي تستغل الصدمة وتستثمرها المظهر المتصل « للفلانكس » الاغريقي . والمظهر المتقطع « لليجيون » الروماني .

وكان «الفالانكس» يستخدم فقط جندي المشاة الثقيل المسلح لصدمة الاقتحام (برمح طوله ستة امتار) . وكان « الليجيون » يمزج بين جندي المشاة الثقيل المسلح للالتحام (السيف القاطع القصير) ، وجندي المشاة الخفيف المسلح للقتال الطائر (السريع) (السيف الطويل والرمح الطويل) . والرمح الطويل الروماني والثقيل التابع « للجيون » لم يكن سوى الاداة التي تستخدم كتمهيد للمعركة . وكانوا يطلقونه بصليات قبل الانقضاض .

ويبرز الجدول الموجود في الصفحة القادمة التطور الدال لنموذجي هذه الوحدات .

وحتى عندما نهمل الخيالة المخصصة للامن اكثر من القتال نلاحظ انه منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وبرغم وجود قوات متقاربة ، يغطي « الليجيون » من الارض خمسة اضعاف ما يغطيه « الفلانكس » فترتيبه من المشاة الثقيلة ترتيب متقطع ، الا ان جنود المشاة الخفيفة يقاتلون في الفواصل للحفاظ على الخط . ويتمفصل « الفلانكس » بدون شك الى قطعات صغيرة (سرايا) عند الضرورة ، ولكنه في القتال يشكل كتلة لا ثغرات فيها .

وقد فسر بوليب بوضوح كل مزايا النظام « الليجيوني » المرن على النظام العميق « للفلانكس » . فالفلانكس غير قابل للاستخدام في ارض صعبة . لأن ضخامته وتوجيهه الوحيد يدفعان به الى براثن مناورات الكتائب الماهرة ذات الضربات السريعة . وعندما يتصادم « الفلانكس » بجبهة « الليجيون » ، يتفكك تمفصله موزعاً على النقاط القوية والضعيفة من الشطرنج الروماني . فاذا ما اخترق جبهة « الليجيون » . تجمعت الكتائب المتراجعة الى الوراء الى محيط الدائرة وطوقتها . وفي قتال الالتحام لا يستطيع جندي المشاة الثقيل الاغريقي أن يتلاءم مع القتال الفردي ، على حين نجد أن جندي

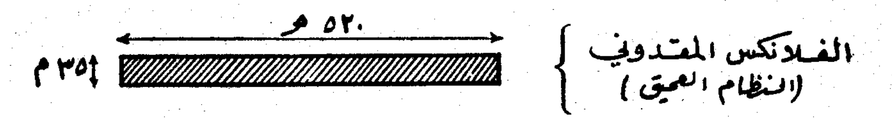
« الليجيون » متلائم كل التلاؤم مع هذا النوع من القتال . وهذا هو اكثر مما نتطلب لتأمين السيادة والتفوق الروماني .

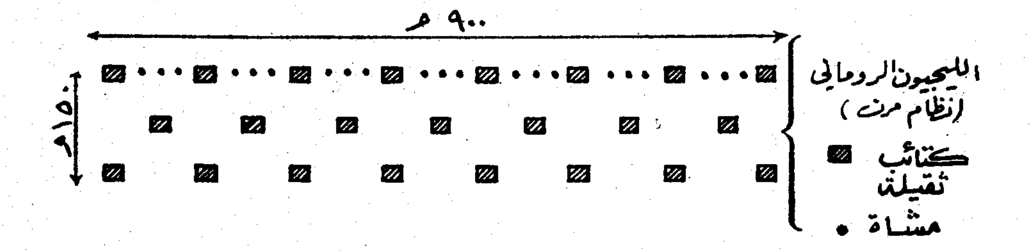
جدول يبرز التطور الدال لنموذجي الوحدات: (الفلانكس والليجيون) .

الوحدة	الملاك	التشكيل	الجبهة	العمق
الفالانكس المقدونى . القرن الخامس قبل الميلاد .	٢,٠٤٨ جندي مشاة ثقيل	٨ صفوف × ٢٥٦ رتلا	٥٢٠ م	١٦ م
الفالانكس المقدونى القرن الرابع قبل الميلاد .	٤,٠٩٦ جندي مشاة ثقيل	١٦ صفاً × ٢٥٦ رتلا	٥٢٠ م	٣٥ م
« ليجيون » القرن الرابع قبل الميلاد .	٣,٠٠٠ جندي مشاة ثقيل ٦٠٠ جندي مشاة خفيف ٣٠٠ خيالة	٢٥ كتيبة مؤلفة من ١٠ صفوف × ١٢ رتلا ، و ٣ خطوط بشكل شطرنجي من الكتائب	٨٥٠ م الى ٩٠٠ م	١٠٠ الى ١٥٠ م
« ليجون » القرن الثالث قبل الميلاد	٤,٢٠٠ جندي مشاة ثقيل ٦٠٠ جندي مشاة خفيف ١٢٠ خياله	٣٥ كتيبة على ١٠ صفوف × ١٢ رتلا . و ٣ خطوط من الكتائب بشكل شطرنجي .	١,١٠٠ الى ١,٥٠٠ م	١٠٠ الى ١٥٠ م
« ليجيون » ماريوس القرن الاول .	٦,٠٠٠ جندي مشاة ثقيل ٦,٠٠٠ جندي مشاة خفيف . ١٢٠ خيال	١٠ الوية ثقيلة مؤلفة من ١٠ صفوف × ٦٠ رتلا ، و ٢ الى ٣ — خطوط من اللواءات ثم لواء مشاة خفيف	١٦٠٠ الى ٢٣٠٠ م	١٠٠ الى ٣٠٠ م

ولقد سار تطور « الفلانكس » بصورة خاطئة اذ كان يتضمن الايمان بالصدمة الحركية ويريد تأمينها بمضاعفة الكتلة . ولقد ترسخت هذه الفكرة وتأصلت بصورة خاصة لدى ايبامينونداس الذي كان يشكل جنوده من المشاة الثقيلة من ٢٥ رتلاً على ١٠٠ صف دون أن ينتبه الى أن نجاح هذه الكتلة ناجم عن وجود الصفوة في الرأس . أما التطور « الليجيوني » فكان عملياً وملائماً لحجم الخصم ومقاسه اذ زاد الرومانيون عدد الكتائب الثقيلة تحت ضغط جيوش كسانتيب وبيروس . ثم احتوى « الليجيون » الروماني كتلة جرمانية ضخمة . هضمت بسهولة الكتيبة وقدمت عناصر مكتفية ذاتياً

نظام المعركة للقرن الرابع ق.م





للتربيع في الكفاح ضد العصابات في اسبانيا وافريقيا الشمالية . وعالج ماريوس هذا الوضع بانشاء الفوج المؤلف من ٦٠٠ جندي مكان السرية المؤلفة من ١٢٠ جندي : وبهذا الشكل فرض الترتيب المرن قانونه وتابعت روما توسعها .

وتبع الانهيار الروماني انهيار التكتيك . فلكي يتلاءم الرومان مع المطالب المتزايدة للحرب السطحية ، انزلقوا تدريجياً الى جيش من الالوية المعززة . وبدل الاصلاح الذي قام به ديوكليتيان « الليجيونات » المؤلفة من ١١ فوجاً بوحدات مؤلفة من ١٠٠٠ جندي مشاة ، أو ٥٠٠ خيال كانوا يقاتلون منفردين «كفلانكسات » على ان يعاد النظام المرن عندما يكون بالامكان جمع عدة وحدات . ولكن انتشار القطعات قلل من احتمال تحقيق هذه الفرصة الملائمة[1] . وفقدت الليجيونات تدريبها ولم تستطع ان تتحصن في الميدان . وفي ظل حكم هونوريوس (٣٩٥ — ٤٢٣) لم يكن هناك شيء يميز النظاميين عن الجنود المساعدين . واصبح الانهيار امراً محتماً . **فقد كان التلاؤم مع الحرب السطحية قد قضى على التدريب التكتيكي للقتال التقليدي .**

---

(١) ومن الممكن ايضاً ان الخمسين عاماً من الفوضى السياسة الناجمة عن تدخل « الليجيونات » قد دفعت ديوكليتيان الى تجزئتها (المؤلف)

وحتى القرن السادس عشر نرى ان « الفلانكس » الموروث من أواخر عهد الامبراطورية الرومانية يبقي تشكيلة القتال بأسوأ مظاهرها. وكانت وحدات العمل في القرون الوسطى المسماة جمهرات ، تتضخم بصورة مفرطة عندما كانوا يملكون قوات هامة. وبوسعها ان تجمع دون تمفصـــل من ٥,٠٠٠ الى ١٠,٠٠٠ رجـــل وقد يصل هذا الرقم الى ٣٠,٠٠٠ اذا اردنا تصديق المؤرخين. وتبقى مبالغات المراسلين الحربيين في تلك الفترة حتى ولو تجاوزت الحدود في بعض الاحيان حافلة بمعاني هذه الاتجاهات التكتيكية. وهم لا يحملون سوى الاعجاب للضغط العالي لهذه « الفلانكسات » التي تقدم للعدو « جداراً من الجليد » ، وهي من الكثافة « بحيث لا يستطيع مقذوف أن يسقط إلاّ على رأس سيف من السيوف » . وكانت النتيجة ثابتة فقد كان أكثر الجنود عدداً هم الذين يشكلون أضخم كتلة وهم الذين ينهزمون باستمرار (كورتري—بواتييه — آزنكورت) . وعندما تقدمت طبقة آزنكورت النبيلة على ٣٢ صفاً في العمق، لم يكن مصيرها سوى الذبح. فالنظام المرن لم يبعث من جديد إلاّ بصورة عارضة وكأنما كانوا نادمين على إحيائه من جديد . ونظراً لعدم وجود قوات كافية للوقوف على قدم المساواة أمام جبهة العدو بكثافة ، ربح الاخ غيران معركة بوفين . وقد اضطره التدني العددي الى فرض النظام المرن على الفرنسيين بغناصر صغيرة متباعدة .

وفي القرن السادس عشر ، غدت المشاة الاسبانية « ترسيو »[1] المشاة الاولى في العالم وبتكاليف قليلة عندما فرض عليها غونزالف دوكوردو بنية وترتيباً مشتقين من « ليجيونات » ماريوس ، مع ١٢ كتيبة ، تتألف كل كتيبة من ٥٠٠ جندي ، منسقين ومتباعدين على خطين أو ثلاثة خطوط . ولا نجد فيها ما يعادل جنود المشاة الخفيفة في الفواصل الا بصورة عارضة (حملة الدروع الدائرية) ، لأن نار بندقية الارقبوز كانت كافية في هذا الوقت لمنع التقدم عبر الفواصل الفارغة من القوات . وهناك ظاهرة مشهورة ومعروفة جداً وهي اتسام تطور « الترسيو » بانخفاض عددي ثابت اذ أنهم بدؤوا بعدد يوازي ٦,٠٠٠ ، ثم تناقص هذا العدد تدريجياً الى ٤٠٠٠ ، ثم الى ٢,٥٠٠ ثم الى ١,٠٠٠

ولم يتبع المثل الاسباني دوماً نظراً لان غريزة التكاثف والخوف من الخيالة ساهمتا حتى منتصف القرن الثامن عشر بالابقاء على وحدات عمل ضخمة . ونلاحظ دون شك التنسيق والتدرج على خطين أو ثلاثة خطوط ، الا ان مربعات المشاة كانت مشكلة في الغالب من ألوية كاملة مؤلفة من ٢٥٠٠ الى ٤٠٠٠ جندي . وكان حملة الرماح في الوسط ، وحملة الارقبوز او رماة البنادق اما على محيط المربع ، او موزعين على زواياه او على الاجنحة ، « بأكمام »[2] . ويمكن أن نرى مربعات ضخمة مؤلفة من ٥٠ رتلا على ٥٠ صفاً ، متناسقة « مع اكمام » مؤلفة من ١٨ رتلا على ١٨ صفاً . وتدريجياً تحولت المربعات الى مستطيلات طويلة ، على ١٥ صفاً ثم على ١٠ صفوف مع التعديل السويدي . وكانت كل القدرة النارية موجهة الى أمام . وكانت المدفعية تحدث في ذلك الوقت ثغرات دامية في هذه الكتل البشرية ، الامر الذي دفع الى ايجاد النظام الرقيق .

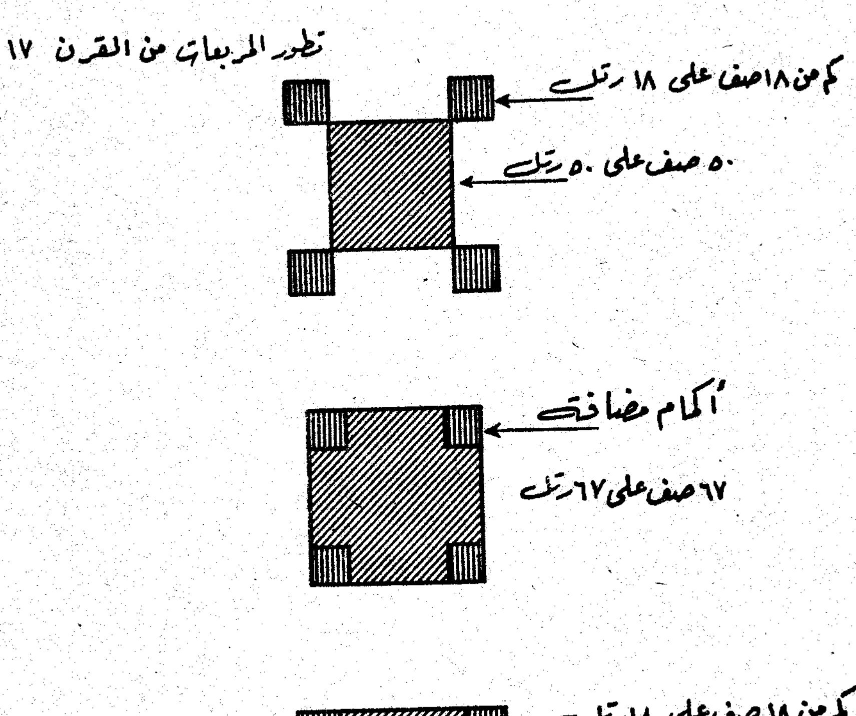
ومع ذلك لم يكن النظام العميق قد قال كلمته الاخيرة بعد ، فقد جاء الشوفالييه دوفولارد ليجدده ويدافع عنه اعتباراً من عام ١٧٢٧ . وقد انطلق فولارد من أن النار ليس لها فاعلية كافية لمنع الانقضاض، وان الالتحام يطفئها ويقضي عليها ويقرر كل شيء. وأوجد بناء على ذلك الرتل العالي الضغط المؤلف من ٥٠٠ جندي ، والمناورة بقطعات مؤلفة من كل الاسلحة ، تتألف كل قطعة منها من ٥,٠٠٠ جندي يتمفصلون بشكل

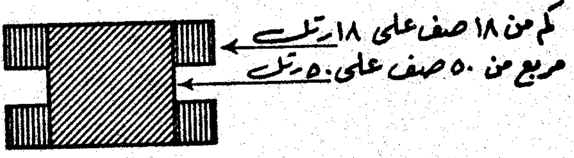
---

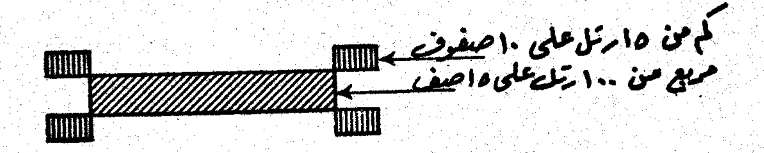
(١) Tercio او Tercios وتعني في اللغة اللاتينية الثلث . وهي القطعة المنتقاة التي تشكل صفوة المحاربين الاسبان بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر – وقد استخدم هذا التعبير فيما بعد ، في عام ١٩٢٠ للاشارة الى الفيلق الاجنبي الاسباني الذي انشىء في هذا التاريخ. (المعربان)

(٢) Manches

شطرنجي . وحازت اقتراحاته على نجاح نظري هائل . وفي التطبيق العملي نجد على العكس ميلاً الى التقليل من استخدام الارتال الضخمة . ولا نجد اكثر من أرتال مؤلفة من أنساق







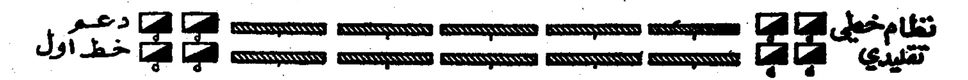
حملة الرماح

حملة الارقبوز ثم البنادق

متتابعة تزداد خفةً يوماً بعد يوم . وقد أطلق فيلار والامير اوجين ايضاً أرتالاً مدهشة : ١١٢ كتيبة امبراطورية مؤلفة ١١ رتلاً في مالا بلاكيه (١٧٠٩) ، و ٤٠ كتيبة فرنسية مؤلفة من ١٤ رتلاً الفاصلة بينها ٢٥ خطوة في ديْنيان (١٧١٢) .

نظام المعركة في القرن الثامن عشر

احتياط



نظام فولارد العميق

قطعات من مختلف صنوف الاسلحة

قطعات خفيفة للدرع والقواصل

رماة قنابل

وفي ظل الثورة حال ضعف اعداد القطعات دون وجود جمود فكري . فكان جنود الثورة ينقضون في المعركة دون المحافظة على الصف ، كما ان التراتيب انتشرت بشكل تجاوزت فيه القدرات التي يتيحها التسليح ، لدرجة كانت فيها الكتائب تتبادل الدعم بصورة سيئة : فلوروسي (١٧٩٤) ، فايتنيز (١٧٩٥) . وفي ظل الامبراطورية الاولى ، استعاد الصف أهميته ، الا أن الارتال الضخمة لم تعد تستخدم الا من قبل الوحدات الاحتياطية : كتائب مسافة انتشارها ٣٠ خطوة × ٥٠ ، وفرق وفيالق متجانبة. وفي القتال ، كانت المشاة تسير في رتل الكتيبة او السرية ، وعندما تصل الى المدى القصير للبندقية تنتشر على خطٍ لترمي او لتنقض بارتال اللواء المنسقة داخلياً والمغطاة بالرماة .

وكانت الاستثناءات عن هذه القاعدة مشهورة جداً ، ومنيت كلها تقريباً بانهزامات دموية :

— ففي فونتونوي (١٧٤٥) زج الانجليز قواتهم بتشكيلة حدوة الفرس مؤلفة من

ثماني كتائب مزدوجة تجمع ١٠,٠٠٠ رجل رجل أبيدوا وسحقوا .

— وفي فاغرام (١٨٠٩) ، هاجم ماكدونالد في تشكيلة مماثلة مؤلفة من ٨,٠٠٠ جندي، وصل منهم ٣,٠٠٠ الى الهدف . وهنا أيضاً كان النجاح ناجماً عن تمهيد المدفعية.

— وفي واترلو (١٨١٥) هاجم درويه ديرلون بأربع فرق متلاحقة « ٢٠٠ رتلاً على ٢٤ صفاً » ، ثم قام ني بالانقضاض على رأس ١٠ ألوية من الخيالة برتل واحد مؤلف من ٤٠ كوكبة متعاقبة . وفشل الاول والثاني وتعرضا لخسائر جسيمة .

وفي الحملات اللاحقة ، لم تحافظ تشكيلات الانقضاض في صف منضم على تماسكها . ففي ماجنتا (١٨٥٩) أمر الجنرال ايسبيناس بانقضاض كتيبتين « بارتال الفصائل على مسافة فصيلة » وهو ترتيب منتشر . وقد تفكك كل شيء على مسافة ٢٠٠ متراً من العدو في الهجمة النهائية . ويضيف الشاهد على ذلك ما يلي : « فيما عدا هذه المسيرة ، كان القتال دوماً قتال رماة وقتال عصابات كبرى » . ولم يكن هناك أي نظام عميق .

وانتهى الصراع بين النظامين العميق والمرن بالقضاء على الاول . واستمر النظام الآخر ، ولكن استمراره لم يكن كوسيلة من وسائل الصدمة ، بل كوسيلة من وسائل المناورة فقط .

النظام الخطي
والنظام السيّال
(الرمي)

لم يكن للنبّالة أو لرماة الاحجار بالمقاليع في العصور القديمة اية اهمية الا في الجيوش الشرقية . وكانت هذه الجيوش تقاتل بصورة خاصة « بفلنكسات » مفككة الترتيب . وقد كانت الجيوش الغربية تسيطر على هذه الجيوش بصورة دائمة ، لذا لم تترك الا تعاليم قليلة فيما يتعلق بالتراتيب التي تستثمر الرمي وتستغله .

ثم غدا القتال بالرمي رهيباً مخيفاً اعتباراً من اللحظة التي ظهر فيها في بادىء الامر ، القوس الاسيوي لخيالة البوادي ، ثم القوس الزيار الذي بقي وسيلة من وسائل المشاة بصورة خاصة . وأتاح القوس الآسيوي ميلاد النظام السيال ، على حين أتاح القوس

الزيار ظهور النظام الرقيق .

ويستهدف النظام السيّال دقة الرمي ، اما النظام الرقيق فيستهدف استمرار الرمايات وتواصلها وكثافتها . فالحصول على رمايات كثيفة ودقيقة ومقادة بشكل ثابت بقي قبل ظهور السلاح الآلي مشروعاً ذا عوامل متضادة . ولا يرمي الجندي جيداً إلاّ بصورة حرة ودون ان تعوقه وتضايقه رمايات المجاورين . ويتلاءم النظام السيّال مع هذا . أما النظام الرقيق فإنه يخضع لوهم رمايات الصف الضخمة . وقد برهنت التجربة ان مثل هذه الرمايات رمايات غير هجومية تتم بشكل صليات . وان رماية الصليات تتحول بسرعة الى رماية زاحفة قليلة الفاعلية .

وتتقارب الشواهد وتتفق اعتباراً من المارشال دوساكس الى المارشال ماكونالد مروراً بالمارشال دوهسم . فهناك كتائب تستقبل العدو بصلية من مسافة ٢٠ خطوة وتنهزم وهيئات اركان تمر راكبة خيولها على مسافة ٥٠ خطوة من الكتائب التي تبدد ناراً زاحفة مستمرة ، دون ان تفقد هذه الهيئات ريشة واحدة من ريش قبعاتها . وكانت النتيجة مختلفة كل الاختلاف عندما اختلط الرماة بالمعركة . فالكتيبة المنضمة التي كانت تخسر ٤ جنود تحت النار الزاحفة لكتيبة اخرى متمركزة على مسافة ١٠٠م منها ، ترى ٣٠ منها يقتلون بنيران الرماة المتمركزين على مسافة ٢٠٠ م بصورة جانبية . وعندما يؤخذ بعين الاعتبار ما يصرف من الذخائر نرى ان مردود حفنة من الرماة أعلى بخمسين مرة من مردود كتيبة مصفوفة .

ثم غدا النظام السيال أمراً اعتيادياً لخيالة الاقواس الآسيوية والبيزنطية . فكانت تنقض بشكل مائل لترمي اثناء التملص . وسيطرت هذه الخيالة على مشاة وخيالة الصدمة دون صعوبات ، ثم وضع المدفع وحده فيما بعد حداً لانتصاراتها ..

وعند الوصول الى مطلع القرن السادس عشر أخذت المشاة تطبق النظام السيال . فقد ربح حملة الارقبوز التابعون للمركيز دوبسكير بهذا الشكل معارك بافي (١٥٢٥) والسيسيا (١٥٢٦) . وبقي هذا التكتيك في ظل الحروب الدينية ، الى عصر الاصلاح السويدي الذي فرض النظام الرقيق .

وقد مارس البيزنطيون النظام الرقيق ، تبعاً للطرق السويدية تقريباً . وتنجم قواعد هذا النظام من سرعة رمي السلاح ، وتستهدف الحصول على استمرار النيران وتواصلها مع جعل كل صف يرمي بالتتابع ، على حين تلقم الصفوف الاخرى أسلحتها . وكانت

المشاة البيزنطية ، وهي سلاح ثابت اساساً ، ترمي وهي متحصنة في مواقعها مع ترك الساحة حرة وخالية للخيالة . وكانت الوحدات ، التي تبلغ قوة كل منها من ٣٠٠ الى ٤٠٠ جندي تصطف كلواء روماني مع أخذ عمق اقل ومع تباعد الارتال عن بعضها . وكان الصف الاول يرمي ويختفي عبر التشكيلة ليعيد تلقيم سلاحه في الصف الاخير ، على حين كانت الصفوف التالية تتقدم الى خط النار . وبالرغم من ان سرعة الرمي اقل بثلاث او اربع مرات من سرعة القوس ، فقد كانوا يحصلون بهذا الشكل على نار مستمرة ومؤثرة بصورة اكبر ، بالنسبة لقوة القوس ودقته .

وعندما تبنت جيوش القرون الوسطى القوس الزيار ، برغم أوامر المنع التي صدرت عن مُجمع أساقفة وعلماء لاهوت لاتران (١١٣٩) ، لم يكن القوس الغالي قد تفوق عليه بعد . وبقي الوضع على ما هو عليه كما كان في بيزنطية . ولكن الجيوش الفرنسية تجاهلت زحف الصفوف واتخذت خيالتها العادة السيئة في الانقضاض ، وهي تمر من صفوف رماة الاقواس الزيارة الصديقة ، وهذا ما رأيناه في كورتري (١٤٠٢) وكريسي (١٣٤٦) .

وفي مطلع القرن السابع عشر ، اتبع رماة الارقبوز ورماة البنادق من جنود المشاة الذين كانوا يحيطون بمربعات حملة الرماح « بأكمام » مؤلفة من ١٨ صفاً على ١٨ رتلاً ، اتبع هؤلاء واولئك المثل البيزنطي في الرمي المتصل مع تراجع داخل الصف. وكان ذلك ضرورياً لان البندقية ترمى بصورة اولية بسرعة اقل بست مرات من القوس . وقد حصل سويديو غوستاف ادولف على النتيجة ذاتها دون تنقل الصفوف التي غدت ترمي منذ ذلك الوقت من الصف الاخير الى الصف الاول فوق رأس الصفوف التي قبلها والتي يتمركز جنودها في وضعية الرامي جاثياً . وبذلك كانوا يربحون الوقت . وتتطلب نسبة مدة الانقضاض الى مدة الرمي ثمانية صفوف لتغذية نار متواصلة . ومن الناحية العملية ، نراهم يقبلون بعشرة صفوف للتشكيلات النارية . وكانت سماكة التشكيلات تخف مع ازدياد سرعة الرامي : وأخذوا يرمون بفصائل متتابعة ، كل فصيلة منها مؤلفة من ٣ الى ٤ صفوف . وفي القرن الثامن عشر ، ضمر الخط الى ٣ او ٤ صفوف وتم الرمي دون نقل الصفوف او تبديل موقع الرمي ، اذ كان الصف الاول يرمي جاثياً بصورة مبدئية[1]

---

(١) لما كانت وضعية الرمي جاثياً وضعية غير مريحة لالقام السلاح من الماسورة (السبطانة) نرى ان الصفوف كلها اتجهت الى الرمي واقفاً. ونجم عن ذلك، وصول نهايات بنادق الصف الخلفي الى مستوى الصف =

ولما كانت الخطوط طويلة ورقيقة ، ومن الصعب تحريكها ، ولما كان الانتـ... ـن الخط الى الرتل بحركات مزبعة يجري بشكل بطيء ، فان القتال غدا ثابتاً و... ـمراً . وقد قال فولارد تعقيباً على ذلك ما يلي : « من الممكن ان نشبه معاركنا بمعارك جيشين بحريين يغرقان بعضهما بعضاً بالتبادل دون ان يلتحما » .

ثم تدخل جيبير ، فأعاد للقتال ديناميكيته وحيويته مهدئاً وملطفاً من مبالغات فولارد وتطرفه . وجعل الانظمة تساهم في المعركة تبعاً للحالات ، وأوصى بتعديلات في التشكيلة خالية من الجمود . وأخذوا فيما بعد يمزجون بين الخط والرماة لاطلاق النار ، والرتل المنضم او المتدرج للحركة او الانقضاض . ومع ذلك ما انفك النظام السيال متميزاً على الانظمة الاخرى .

وفي عام ١٨٧١ اقترح الامير دوفير تنبرغ عدم قبول اي نظام سوى نظام الرماة والتقدم بوثبات . وفي عشية عام ١٩١٤ ، تساهلوا ايضاً وسمحوا بسلسلة الرماة على خط مع وضع الفصيلة على صف تفصل الجنود فيه عن بعضهم مسافة خطوة واحدة .وفي عام ١٩١٦ اصبحت الفاصلة خطوتين ثم ٤ او ٥ خطوات ، ولكنهم بقوا في تشكيلة الخطوط . وظهر لهم في عام ١٩١٨ ان عدد الرجال الموجودين على خط لا معنى له الا في اللحظة النهائية للانقضاض نظراً لانتشار الأسلحة الآلية . فتألفت الارتال الصغيرة مع الخطوط ، وفيما بعد حققت الفواصل ١٠ خطوات ، وفرض النظام السيال العام نفسه ، كما فرضت تشكيلة الخلية نظراً لسهولة قيادتها باللاسلكي . ولكن حينما كان يكفي ضابطان يتمتعان بالتصميم . لقيادة كتيبة منضمة ، أضحى من الواجب بعد الآن وجود مجموعة من القادة لا يقلون عنهما حماساً واندفاعاً .

التركيبات الحديثة

النظام الخطي والنظام المرن

المناورة

ومع ذلك استمر الجدل حول الخط المتصل والمتقطع في المستويات العليا ، فعندما

= الاول في وضعية التخدد . وعندما لا يتمتع الجنود بأية تجربة ، كما رأينا في عام ١٨١٣ ، يتعرض كثير من جنود الصف الاول الى اصابات من رمايات جنود الصف الثاني ، وكانت جروحهم في المرفق الايمن في الغالب ، وامتنعوا فيما بعد عن الرمي جاثياً ، في البنادق التي تلقم من سبطانه السلاح (الماسورة).

كانت الوحدات الصغرى تتجه تدريجياً الى استخدام النظام السيال ، كانت الوحدات المتوسطة والكبرى تتجه الى اعادة تشكيل النظام الخطي .

وحتى عام ١٧٥٩ ، وهو العام الذي أنشئت فيه الفرق ، كانت الجيوش تتنقل في خط الارتال بقطعات مستعدة لتغيير اتجاهها لتقيم جبهة . ومن عام ١٧٥٩ الى عام ١٨٦٠ كانت هذه الجيوش تسير الى المعركة بشكل شبكة من الفرق والفيالق المتمفصلة التي تنضم الى بعضها تدريجيـاً كلما اقتربت من الخصم . وبدءاً من عام ١٨٦٠ اخذت هذه الجيوش تتجه الى استخدام خط ارتال الفيلق ، ثم اتجهت الى الجبهات المتصلة ضعيفة العمق . وادت نظريات كلاوزفيتز ، واشباع مسارح العمليات بقوات هائلة ، والخوف من التسللات التي يسهلها القتال منبطحاً ادى كل هذا الى تعميم استخدام الخط . ومع ذلك ، فقد كان أمن الترتيب والاقتصاد بالقوات يعملان ايضاً لصالح النظام المرن ، بشكل ما كاد فيه الجدال حول النظام الخطي والنظام السيال يخبو ويتوقف ، حتى رأينا اندفاع الجدال حول النظام الخطي والنظام المرن .

وكانت الانظمة الفرنسية لعام ١٩١٤ تتوقع ثلاثة خطوط قتال :

— الموقع المتقدم للتأخير[١] .

— الموقع الرئيسي للمقاومة .

— موقع الدعم .

ولم تكن هذه المواقع مواقع خطية ، وكانت المشاة التي تتمركز فيها مكونة مراكز مقاومة ونقاط استناد تبعد عن بعضها حوالي ١٢٠٠ متراً كحد اقصى . وكانت تتبادل النيران الجانبية . كما أن حواف نقاط الاستناد والفواصل القائمة فيما بينها كانت مضروبة بالمدفعية . وكان هذا النظام اذن تطبيقاً للنظام المرن . ويسمح توزيع القوات بهذا الشكل بتقليل عدد قوات الموقع الثابتة الى ادنى حد ممكن لزيادة قوات احتياط المناورة في الخلف .

وفي عام ١٩١٤ طبقت هذه المبادىء دون لبس او غموض . وكنا نرى نقاط استناد منتقاة بصورة جيدة على الارض ، ولكنها خالية من التحكيم والتمويه ، الامر الذي يعرضها لضربات المدفعية المعادية . وكان دفاعنا ، يضرب الفواصل القائمة بين نقاط

---

(١) كانت انظمة القتال لما قبل الحرب العالمية الثانية أيضاً تقسم هذه المواقع على الشكل التالي : ١ — خط المخافر الامامية . ٢ — الخط الرئيسي للمقاومة . ٣ — نسق الدعم . (المعربان)

الاستناد بصورة ضعيفة وذلك تنفيذاً لمبدإ الاقتصاد بالقوى . وكانت القوات الاحتياطية تجابه التسللات بصورة سيئة . وبهذا الشكل ولد التنظيم الخطي من جديد الذي انتقد كثيراً في زمن السلم ، ونما الخندق المتواصل على طول الجبهة وغدا فرض نوع من المرونة على الترتيب الدفاعي شيئاً من اصعب الامور لان المقاتلين يرفضون التنازل عن أي شبر من الارض . وحتى عام ١٩١٥ ، كانوا يريدون القتال على الخندق الاول ، اما الخندق الثاني وهو الذي يقع على ٢٠٠ متراً فكان معداً لحماية عناصر الهجوم المعاكس المباشر . واصبحت العودة الى التمركز على شكل مراكز للمقاومة مطلباً ملحاً ، غير ان المطالبة به كانت بلا جدوى ، اذ تمسك المنفذون بتشكيلة الخط . ثم قبل الفرنسيون والالمان بآن واحد مبدأ الموقع الدفاعي المزدوج الذي يشتمل على ثلاثة خطوط من الخنادق على عمق يتراوح من ٨٠٠ الى ١٥٠٠ متراً ، وكانت الفواصل بين المواقع تتراوح بين ٣ و ٦ كيلومترات . وبدأوا ايضاً في تصور الموقع الدفاعي الاول بأنه موقع المخافر الامامية التي تدافع النار عنه فقط . وتحميه من الخلف منطقة قتال عميقة تتدرج فيها الحواجز والقوات الاحتياطية . وكان هذا التصور ، ناجماً عن قوة المدفعية المتزايدة .

ومن الناحية العملية كانت المشاة تستميت في التعلق بالخط الاول ، وفيما عدا القطاعات السلبية كانت المشاة تشمئز من التجمع في مراكز للمقاومة . وأبرزت معركة فردان الأولى (التي كانت اساساً موقعاً مؤلفاً من مراكز للمقاومة محددة بدقة ، ومتباعدة بعضها عن بعض من ٥٠٠ م الى ١٠٠٠ متراً ومدعومة عمقاً بتحكيمات دفاعية ضعيفة) أبرزت هذه المعركة كم كان هذا الاسلوب معرضاً لطلقات المدفعية. وقد امرت القيادة الفرنسية في ذلك الوقت باغراق المراكز في شبكة الخنادق المتصلة ، دون ان تحافظ على فكرتها في اقامة المخافر الامامية على الخطوط الاولى .

وفي نهاية معركة السوم حدثت ثورة حاسمة عندما اجترأ لودندورف وأكد المبدأ التالي : **« اننا نقاتل لاستنزاف العدو ، ولا نقاتل للمحافظة على أية قسيمة من الارض »**. وينبغي اذن تنظيم مجموع عميق مؤلف من ١٥ الى ٢٠ كيلو متراً تتدرج فيه مراكز المقاومة والمواقع الخطية ، ويجب المحافظة على القوات الاحتياطية خارج مدى المدفعية المعادية (من ٥ الى ٨ كيلو مترات) ، وتنسيق المقاومة الحازمة مع مناورة الازعاج . وقد نتج عن ذلك ثلاث مناطق عميقة للقتال مؤلفة من بضعة كيلو مترات ، تفصلها منطقة ضعيفة التحصين يبلغ عرضها ثلاثة كيلو مترات . وهذه المناطق هي :

— منطقة التغطية التي تكلف المخافر الامامية فيها بجمع المعلومات ونقلها وابطاء تقدم العدو .

– منطقة القتال الاساسي التي تتم فيها المقاومة الرئيسية .
– منطقة القتال الخلفي التي تتوارى فيها الفرق الاحتياطية ، وتخصص هذه المنطقة لسد الثغرات .

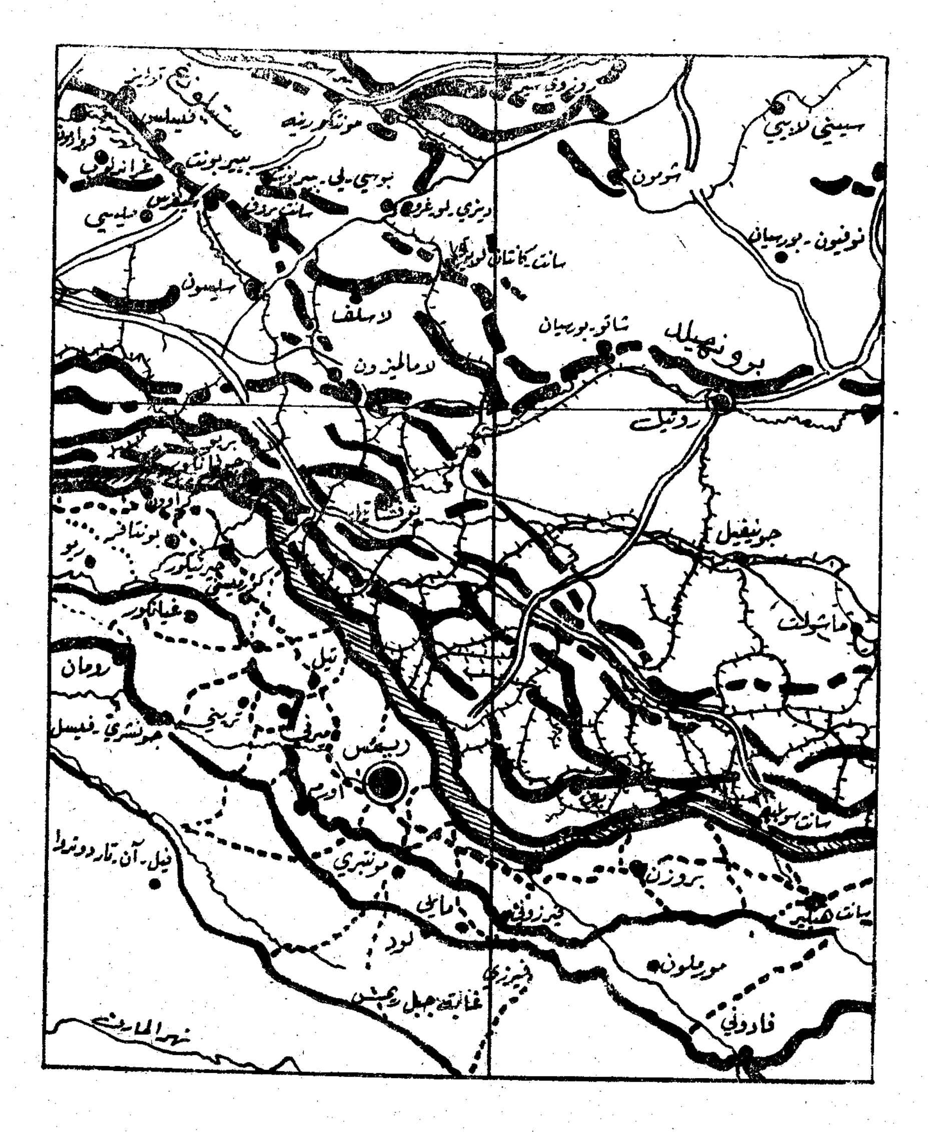
وفي الوقت ذاته اتجه الفرنسيون الى اتباع حلول مماثلة ، واختاروا الحل المتضمن اقامة ثلاثة مواقع دفاعية متدرجة على مسافة تتراوح من ٥ الى ٨ كيلو مترات عمقاً ، واحتفظت القيادة في هذه المواقع بامكانية تحديد الموقع الرئيسي للمقاومة والخط الرئيسي للقتال فوق كل موقع ، تبعاً لمطالبها . ووجدنا في هذا الحل ولادة مراكز للمقاومة متجاورة تقريباً وغارقة في شبكة متصلة من التحكيمات . وكان من الصعوبة الى حد كبير اقناع الرأي العام العسكري في ذلك الوقت بقبول ضرورة وجود المخافر الامامية ، وكان اختراق شومان دي دام[1] ، في مايو (مايس) ١٩١٨ محصلة هذا الشك . ومع ذلك ، من الممكن ان نلاحظ ان المبادىء التي فشلت في عام ١٩١٤ تتجدد بصورة معقولة . وفيما بعد نرى لودندودف يلاحظ ان المنطقة الامامية للدفاع تتيح كثيراً من المميزات . اذ أنها توسع انتشار المشاة ، وتجعل استخدام المدفعية امراً من من الصعوبة بمكان كبير .

وفي الحرب العالمية الثانية ، عرف الالمان حلولاً مماثلة سوى انها كانت حلولاً كسلاح ذي حدين اعتباراً من عام ١٩٤٢ . فاختاروا في بادىء الأمر سلسلة مراكز المقاومة المؤلفة من قرى محصنة ضد البرد والعدو ، الا انها قابلة للتحديد . وكان من الواجب الدفاع عن الفواصل بواسطة المدفعية والطيران والوحدات الميكانيكية. وقد اثار تحديد موقع مراكز المقاومة بصورة سهلة شلها بنيران ضخمة شنتها مدفعية العدو ، فاضطروا الى العودة الى المواقع العميقة التي تمزج ما بين الخطوط ومراكز المقاومة . وقد تدرجت مثل هذه المواقع الدفاعية في بعض الاحيان على عمق يتراوح من ٣٠ الى ٤٠ كيلو متراً .
واضيف الى هذه الاحتياطات عناصر متقطعة مميزة . فقد نظمت بعض المناطق التي

---

(١) Ghemin des Dames هو محور من اشهر محاور الاختراق المهمة التي جرت عليه احداث معارك الحرب العالمية الأولى ، وتتركز عليه حتى الآن معظم المناورات والتدريبات في كليات الاركان الفرنسية .
(المعربان)

تتمتع بأهمية ادارية واستراتيجية خاصة على المؤخرات الكبرى للجيوش في مواقع محصنة موقتة . فأوقفت الهجوم الروسي الذي تم في ١٩٤١ – ١٩٤٢ . وأسقطت هجمات ١٩٤٤ – ١٩٤٥ هذه المواقع ، الا انها اضطرت المهاجمين لتثبيتها وحجبها وحصارها بشكل نظامي كي تستمر مناورة الجيوش في خططها المرسوم .



ان اهمية هذه المواقع أهمية لاتنكر ، اذ أكدت كل مزايا وفضائل الترتيب المرن المتدرج والمتقطع على أوسع مقياس .

وفي أيامنا هذه طرح موضوع الترتيب الذري ، وازدادت حدة التنافس بين النظام الخطي والنظام المرن للسببين التاليين :

– بدا ان من الممكن القبول بترتيب متقطع لاحتلال جبهات واسعة بصورة اقتصادية مع قبول « ملء » الفواصل بضربات ذرية . وهذا مظهر من مظاهر الاقتصاد بالقوى الذي كان يُرَجَّح في التصاميم الغربية .

– بعد فحص آثار هذا الاختيار ونتائجه ، قدروا انهم عندما يخفضون قوة عناصر الترتيب الى اقل مستوى يسمح به تعاون صنوف الاسلحة والقدرة على المقاومة بالوسائل التقليدية لمدة معقولة ، فان الترتيب المتقطع يقلل من الخسائر الناجمة عن الضربات الذرية لأن فاصل الأمن الموجود بين مختلف المراكز لن يسمح الا بالقضاء على عنصر واحد بقذيفة ذرية تكتيكية واحدة وهذا المظهر هو مظهر **الامن الذري**.

ويستند الامن التقليدي لهذا الترتيب الشطرنجي الى ستار من القطعات الخفيفة كما يعتمد على انتشارها المتحرك في الفواصل وامام هذا الشطرنج .

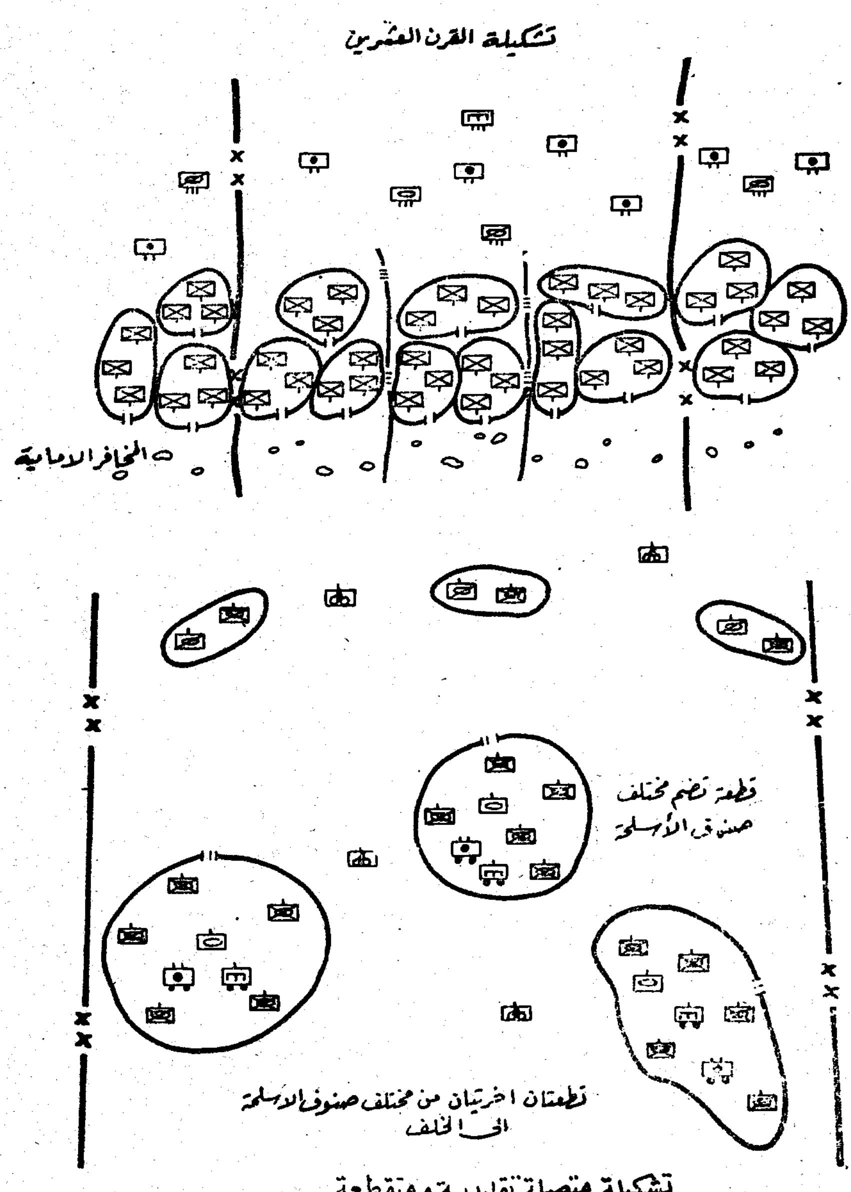
ويبدو ان الروس والناقد العسكري ميكشه قد فضلوا الخطوط المتدرجة التي تفصل بينها فاصلة الأمن الذري . فلو كان هناك اعتبارات هندسية صرفة في الصراع ، لكانوا على حق : اذ اننا نحصل على اقل تعرض للخطر الذري عندما نتمركز في خطوط رقيقة جداً . ولكن لا يمكن للخطوط الرقيقة في التكتيك أن تحتوي الهجمات التقليدية الا بصورة سيئة . فلكي تكون قادرة على احتواء الهجمات التقليدية بصورة جيدة ينبغي ان تتمتع القوات التي تحتلها بكثافة معينة . وان يكون لديها حد أدنى من العمق . وعندما تتمركز كتيبة من الكتائب على خطين . لا تتجاوز المسافة بين هذين الخطين المقاييس التقليدية ، لانها لو تجاوزت هذه المقاييس غدت قيادة الكتيبة صعبة ، واصبح ترتيبها ضعيفاً في مناورته .

وبناء على هذه القواعد يبين الحساب العملياتي مناطق الخطر المقارنة للترتيبين المتصل والمتقطع بالنسبة لمجموعتين تكتيكيتين مؤلفتين من :

– القوات ذاتها (٥ كتائب) والجبهة ذاتها التي ينبغي الدفاع عنها .

– خصائص الانتشار ذاتها (قطعات آلية مسلحة بصورة تقليدية مثلاً) .

– المقاييس التقليدية لانتشار الكتيبة (جبهة من ١٠٠٠ – ١٢٠٠ متراً في الدفاع ، ومنطقة من ٨٠٠ – ١٥٠٠ متراً في الهجوم . العمق يتراوح بين العرض وضعفه) .



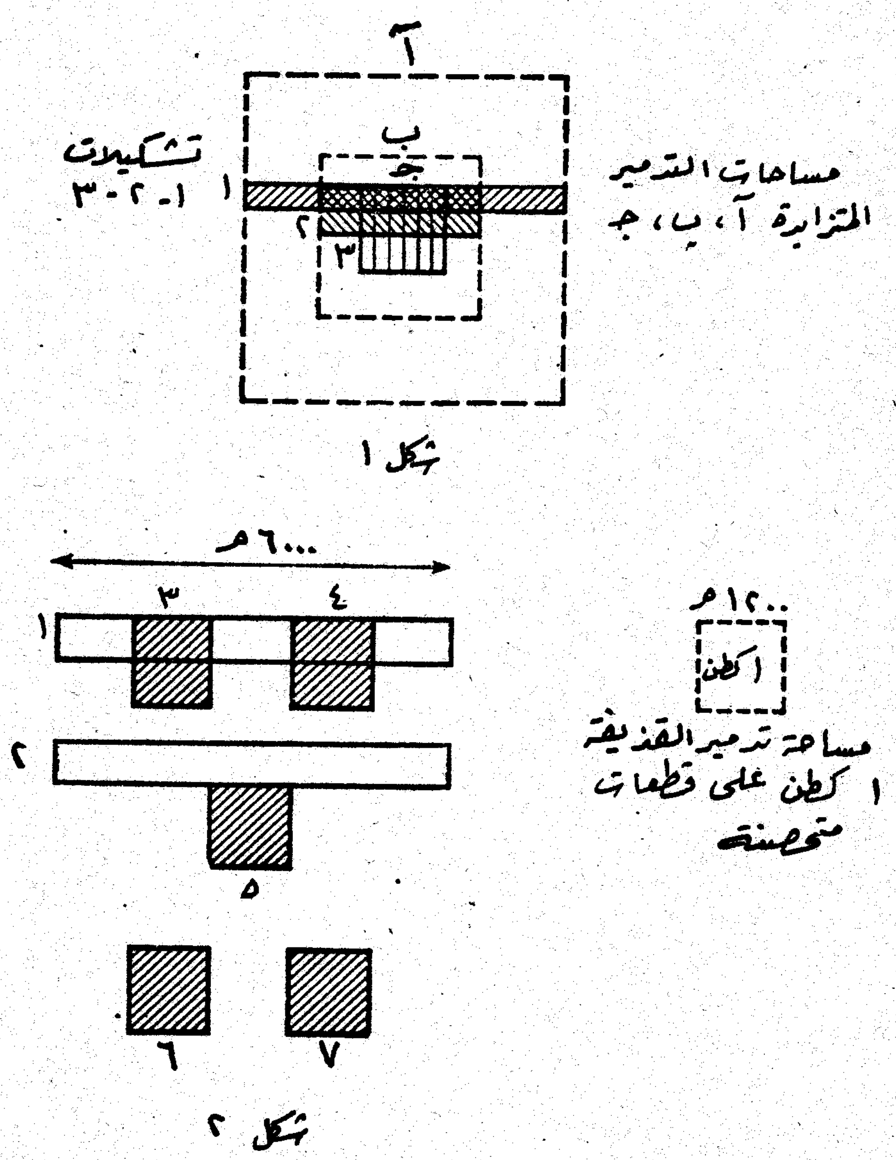
تشكيلة متصلة تقليدية ومتقطعة

لاحظ التماثل في الانتقال من النظام الخطي في القرن السابع عشر ونظام فولارد العميق

– المقاييس الذرية اللامن في الفواصل بين الخطوط او المراكز (يساوي الحد الأدنى اذا امكن قطر المنطقة الخطرة للقذيفة التي نود الحماية من تأثيراتها . ولا يتجاوز المسافة

التي يمكن اجتيازها خلال ساعة واحدة كي ينتقل عنصر تكتيكي لمساعدة عنصر آخر أي ٢٥٠٠ متراً سيراً على الاقدام و ١٥٠٠٠ على سيارات) .

– إن المقاييس التقليدية للانتشار تتفوق على مقاييس الامن الذري ، لانه ينبغي ان يكون كل ترتيب قادراً على القيام بقتال تقليدي على الاقل .



ويبين الشكل (١) الذي وضعت فيه مساحات التدمير المتزايدة ج ، ب ، آ في المربع لتسهيل الحساب ، أن الخط الرقيق هو الترتيب الاقل تعرضاً للخطر في رمي دقيق .

ويطابق الشكل (٢) الذي تحترم فيه الخطوط الدفاعية أو مراكز المقاومة الدفاعية بآن واحد المقاييس التقليدية والذرية مع الكتائب الخمس الموزعة ، سواء على خطين لكل كتيبة (١ ، ٢) او على خمسة مراكز مقاومة (٣ الى ٧) ، يطابق الدفاع ضد القذيفة الذرية عيار ١ كيلو طن بالنسبة لقطعات متخندقة (قطر المنطقة الخطرة ١٢٠٠ متراً) .

ويبدو الترتيب المتصل اقل تعرضاً للاخطار من الترتيب المتقطع في حالة الرمي الدقيق أما في الرمي غير الدقيق (أي الرمي الذي يحدث فيه خطأ في المدى أو الاتجاه اقل او مساوٍ لما يعادل جبهتي لكتيبة) فان الترتيب المتقطع يتفوق مهما كانت قيمة الخطأ في الرمي .

الا انه ينبغي ان يتجاوب الترتيب قدر الامكان مع آثار القذيفة الذرية عيار ٢٠ كيلو طن . اي انه من الواجب اذن زيادة الفواصل والمسافات . وهو أمر مستحيل بالنسبة **للترتيب المتصل** لاننا حققنا دفعة واحدة الحد الاقصى من التدرج التقليدي في العمق للكتائب على خطين اما بالنسبة **للترتيب المتقطع** ، فهو أمر ممكن نظراً لاننا لم نبلغ الحد **الاقصى** للفواصل وهو (٢٥٠٠ الى ١٥٠٠٠ متراً) .

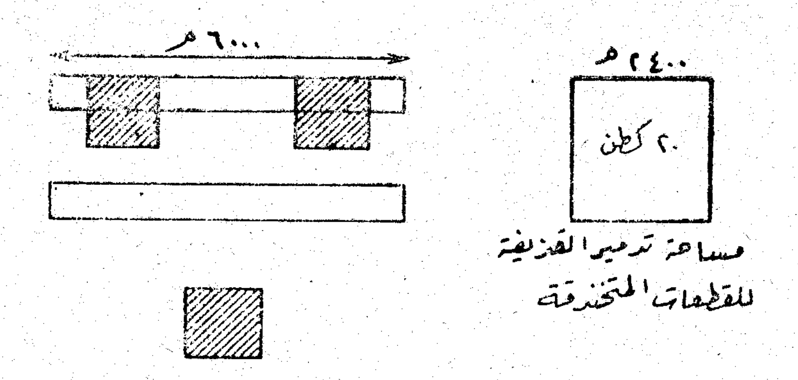
ويظهر الشكلان ٣ و ٤ في (ص٢١٥) « التمفصل » المتوافق مع القذيفة الذرية عيار ٢٠ كيلو طن عند رميها على قطعة دفاعية متخندقة (منطقة قطرها ٢٤٠٠ متراً) وعلى قطعة هجومية مكشوفة (منطقة قطرها ٤٨٠٠ متراً) .

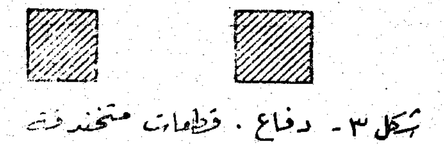
ان دراسة التعرض للخطر الذري ملخصه في الجدول الوارد في ص ٢١٦ :

وفي كل الحالات ، نجد ان الترتيب المفضل هو الترتيب المتقطع ، الا ان وجود قطعات ميكانيكية يغدو في الهجوم أمراً اجبارياً ، كي نؤمن مهلة الدعم بين الكتائب .

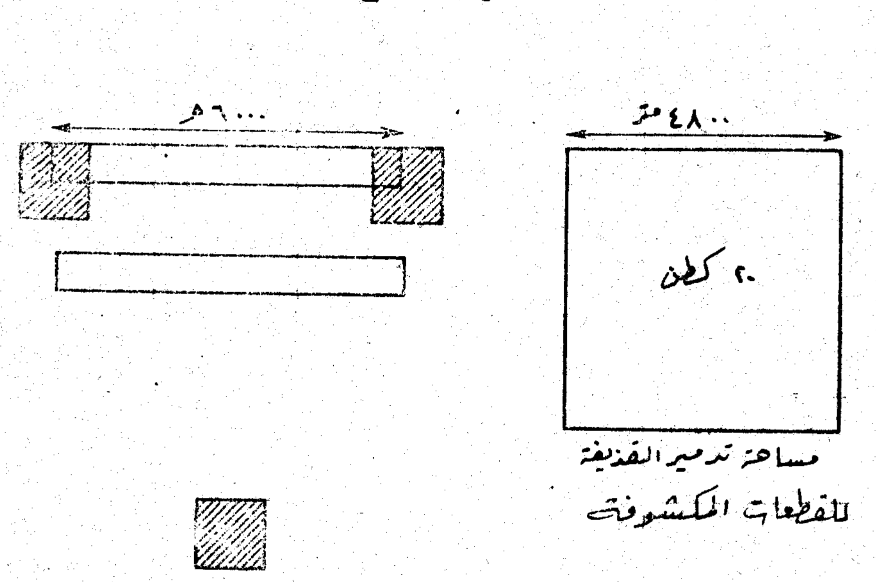
وعلى العكس ، بالنسبة للترتيب على خطين ، اذا امتنعنا عن الدعم المتبادل للخطين ، ولم نقسم الكتائب في العمق ، واذا زدنا عندئذ الفاصلة تبعاً لقطر المنطقة الخطرة ، نجد أنفسنا في شروط الشكل (٢) .

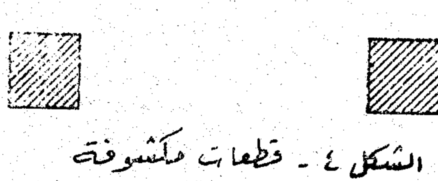
ولا يقل عن ذلك صحة أنه في حالة الهجمات الذرية « الجارفة » المنفذة على كل عمق الترتيب المحدد بصورة سريعة ، يتطلب الترتيب المتقطع قذائف ذرية من عيار ٢٠ كيلو طن تعادل اكثر من ثلاثة امثال ما يتطلبه الترتيب المتصل . ولا نصل الى حالة التكافؤ





شكل ٣ - دفاع . قطعات متخندقة





الشكل ٤ - قطعات مكشوفة

الا بقذائف قادرة على رمي الترتيبين(٢٠ ميغا طن في الدفاع المتخندق و ٥ ميغا طن في الهجوم المكشوف) .

وبوسعنا اذن ان نأمل في تأكيد مرات نجاح النظام المرن ، شريطة ان لا نقع من جديد في أخطاء عام ١٩١٤ ، الامر الذي يتطلب وجود مراكز من الصعب تحديد مواقعها ،

التأثير الناجم عن القذيفة الذرية عيار ٢٠ كيلو طن

نوع الرمي		الترتيب المتصل	الترتيب المتصل
التدمير في رمي صحيح (عدد الكتائب المدمرة)		الدفاع : ٥/٢ في الطلقة الهجوم : ٥/٤ في الطلقة	هجوم او دفاع ٥/١ في الطلقة
أثر الاخطاء المرتكبة والتي تكون اقل او مساوية لعرض جبهتي كتيبة(٢٤٠٠ متراً)	في الاتجاه	الدفاع ٥/٢ في الطلقة لكل خطأ داخلي في الانتشار ، واقل من ٥/٢ للأخطاء التي تقع على الهامش . الهجوم : من ٥/٤ الى ٥/٣ بالنسبة للأخطاء التي تزيد عن عرض جبهة كتيبة .	الدفاع : اقل من ٥/١ لكل خطأ يزيد عن ٢/١ جبهته الهجوم : اقل من ٥/١ لكل خطأ اكبر من ١٫٥ عرض الجبهة .
	في المدى	الدفاع : ٥/١ لكل خطأ يقع بين ٢/١ ، و ١٫٥ عرض الجبهة. اقل من ٥/١ بالنسبة للاخطاء الاكبر . الهجوم : من ٤/٢ الى ٥/٢ لكل خطأ يساوي ١ و ١٫٥ عرض الجبهة ، ٥/٢ للاخطاء الاكبر .	كما في اعلاه

وفواصل مراقبة ومضروبة ، ومناورات تدخل سريعة بواسطة تحرك القوات الاحتياطية. وان لم نحقق ذلك فاننا نتوصل الى اغراق الشطرنج بالتسلل وبتدمير قواته القوية دون ان نسبب للعدو أية خسائر .

وتعود بنا الحلول المطروحة بصورة طبيعية الى مخطط « الليجيون » الروماني ، في حركة كتائبه الثقيلة ومشاته الخفيفة التي تراقب الفواصل . وقد بدل الفكر هذه الحركة لان النار اعتباراً من الآن تتفوق على الصدمة، ومع ذلك وبفارق ٢٤ قرناً من عمر الانسانية نجد المظاهر الاساسية نفسها تعود من جديد ، الامر الذي يثبت أن دراسة التاريخ العسكري دراسة مفيدة على عكس ما يؤكد البعض .

الفَصلُ العِشرُون

التحصينات

ان جميع المزايا التي تحصل عليها المناورة من المواقع التكتيكية والاستراتيجية هي عبارة عن مزايا مرتبطة بالتحصينات ارتباطاً وثيقاً . ويأخذ معنى نظام المعركة فيها مظاهر جديدة هي : مقاومة النفوذ والمنعة والمنع والرمي الجانبي .

وتعتبر **مقاومة النفوذ** (صعوبة الدخول) **والمنعة** (صعوبة التدمير) صفتين متلازمتين، فارتفاع التحصين مثلاً يقاوم دخول المهاجم ، ولكن هذه الصفة لا تأخذ معناها الحقيقي الا بناء على قدرة مواد بناء التحصينات على المقاومة امام وسائل التدمير التي يستخدمها هذا المهاجم . ولقد استخدمت التحصينات الظاهرة حتى عام ١٥٦٧ ثم جاءت التحصينات المنخفضة وبقيت حتى عام ١٦٢٨ حيث حلت محلها التحصينات الموازية لسطح الأرض التي عادت للتنافس مع التحصينات المنخفضة مرة اخرى في عام ١٩٢٥ . ويعود كل هـذا التطور الى محاولة المدافع للحد من تأثير وسائط المهاجم سواء كانت متمثلة بأدوات الحصار ومعدات نقب الجدران القرميدية او الحجرية كما كان في الماضي ، او بالمدفعية والالغام التي استخدمت فيما بعد لتدمير الجدران الترابية اوالمصنوعة من الاسمنت المسلح .

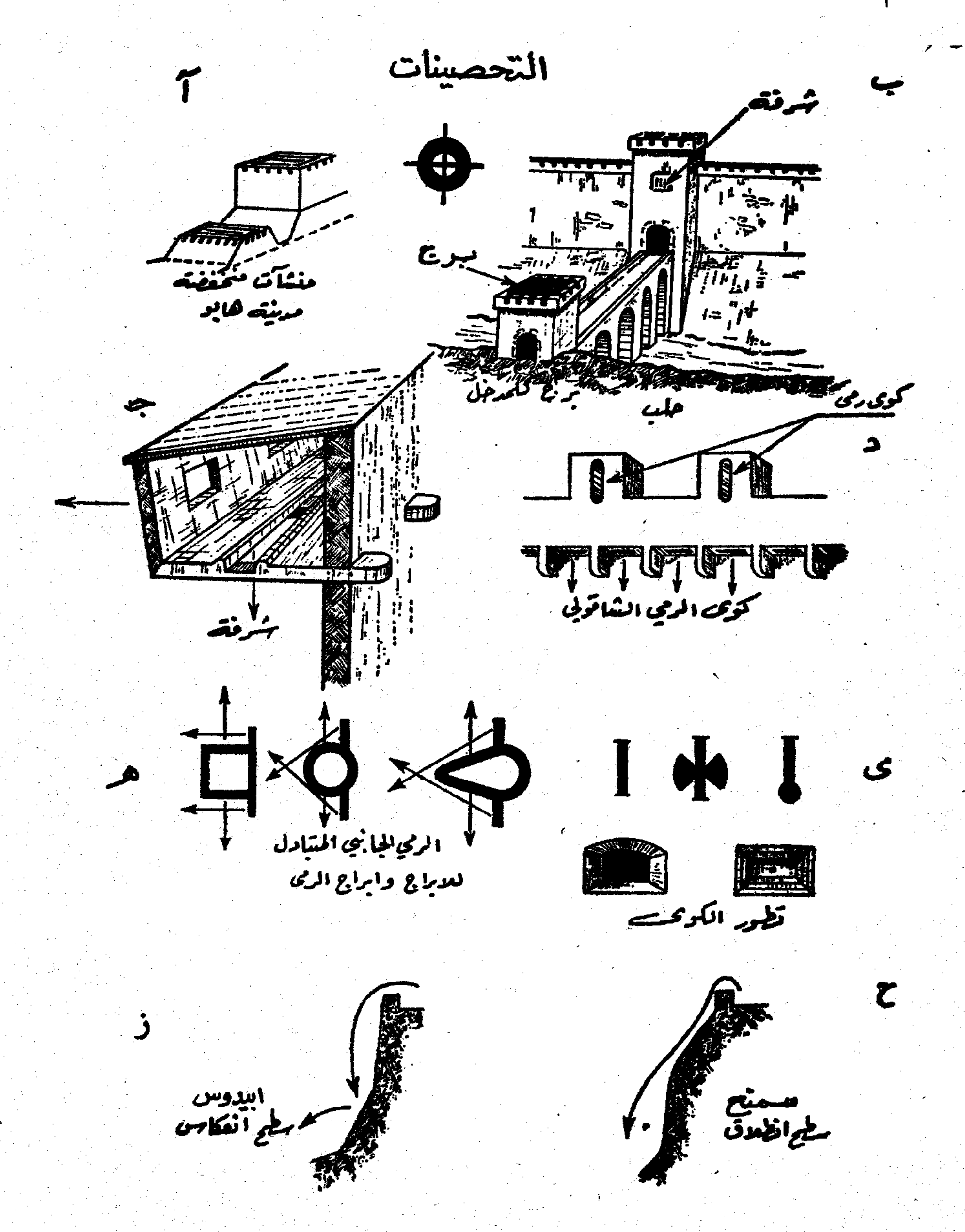
بيد ان **المنع** (حاجز سلبي يعيق التقدم) **والرمي الجانبي** (حاجز ايجابي امام التقدم) لم يتبدلا بشكل واضح . لقد كانت الشعوب الهمجية تجهل اساليب الرمي الجانبي ولكنها تستخدم اساليب المنع . وفي القرن الثامن كانت حلقات دفاع الجرمانيين والافاريين محاطة بأربعة أسوار دائرية متحدة المركز .

ولقد اهتمت عناصر **التحصينات الظاهرة** حتى عام ١٥٠٧ اهتماماً كبيراً بصفتي مقاومة النفوذ والمنع . بيد ان لهذين العاملين اهمية بالغة في مختلف العصور ، اذ ترتفع الاسوار ضمن الحدود التي يسمح بها شكل العمل وطبيعة المواد المتوفرة للبناء (من ٣٠ الى ٩٠ متراً كحــد أقصى). كما ان دراسة اعــداد مواضع القتال تتوخى دائماً تأمين مقاومة النفوذ ، ونحن نعرف ان الكوى وفتحات الرمي عناصر معروفة منذ اقدم العصور.

ولقد ظهر المنع في بادىء الامر على شكل اسوار متحدة المركز (ففي ايكباتان كان عدد الاسوار سبعة اما سوز فلم يكن يحيط بها سوى ثلاثة) ثم بدأ هذا التبذير الكثير التكاليف يتقلص ، واصبح المنع يكتفي بسورين أو بسور واحد يصاحبه حصن منعزل او تدعمه بعض الحواجز الداخلية (كالنموذج الذي اوجده الحثيون وحصون القرون الوسطى) وتزايد فيما بعد عدد الحواجز التي تسبق السور ، ويشاهد في بعض التحصينات (مدينة هابو) بناء منخفض يحمي جسم القلعة ولكن هذا البناء نموذج نادر لم ينتشر استخدامه . ولم يستخدم الشرقيون الخندق المحفور امام السور ذاته الا على نطاق ضيق ، وكان الخندق الذي يحفرونه في الحالات الاستثنائية جافاً وذا مقطع مثلث . ولكن الرومان والاغريقيين استخدموا مثل هذا الخندق على نطاق واسع ، وكان مقطع خندقهم على شكل شبه منحرف . ولقد نصح فيلون البيزنطي بحفر خنادق عريضة امام الاسوار ولكنه لم يجعل من ذلك قاعدة اجبارية في كل الحالات « لأن السور المصنوع من الحجارة لا من التراب المحفور لا يفترض وجود الحفر وبالتالي وجود الخندق بالضرورة » وكان الخندق دائماً وسيلة من وسائل حماية معسكرات « الليجيونات » المؤقتة ، بالاضافة الى جدار ترابي وسياج من الموانع . اما البيزنطيون الذين عرفوا في التاريخ القديم بأنهم سادة التحصينات فقد كانوا يجمعون عدداً متتابعاً من المنشآت التدرجة كما هي الحالة في تيبسه حيث نرى سوراً من طابقين ، وحاجزاً يسبق السور ، وخندقاً ، وجداراً مصنوعاً من التراب الناجم عن الخندق المحفور . ثم تطورت هذه المنشآت المتتابعة العميقة في القرون الوسطى وذلك باستخدام منشأ منخفض يغطي اتجاهات التقدم الرئيسية (حصن للرمي مثلاً) ، وخنادق عريضة ذات جدارات داخلية مبنية ، وحصون دفاعية حقيقية من التراب (قلعة الحصن) قبل ان تظهر المدفعية .

ولقد تم تأمين الرمي الجانبي بصورة متدرجة ومتطورة في عصر التحصينات الظاهرة وكان يهتم بقدرة ابراج الرمي على تحقيق الرمي الشاقولي والرمي الجانبي وعندما كانت وسائط الرمي ضعيفة كان الرمي الشاقولي يتمثل بالقاء مواد محرقة ومقذوفات يدوية .

وفي بادىء الامر كانت أبراج الرمي معدة لضرب ممر الدوريات ومداخل الحصون اكثر من ان تؤمن الرمي الجانبي لحماية الحصن . لهذا نلاحظ ان ابراج الرمي عند الآشوريين قليلة البروز . وكان الرمي الشاقولي يتم بدحرجة المقذوفات من ذروة السور وفي هذه الحالة تكون شرفات الرمي نادرة ، ولقد عدل المصريون الرمي الشاقولي بأن اعطوا القسم الاعلى من السور ميلاً معيناً ليكون سطح انطلاق (شكل ح في أسفل الصفحة) ،



أو بأن جعلوا قاعدة السور مائلة مسطحة لتكون سطح انعكاس للمقذوفات (شكل ز في الصفحة السابقة) ولم تشاهد مثل هذه المنشآت الا في سور اورليان وكان علينا ان نصل الى قصور الفرنج احصنة للملوك الكارولنجيين حتى نرى النتوءات التي تبرز منها شرفات رمي خشبية (القرن العاشر) ومسالك الدوريات والشرفات الكائنة في منتصف الابراج (القرن الثاني عشر) .

وظهر الرمي الجانبي في بلاد الفرس في دفاعات سوز (٦٥٠ ــ ٥٦٠ ق. م .) على شكل ابراج رمي تبرز بشكل غير متساو من جدار الحصن مشكلة اسناناً بارزة (شكل آ في الصفحة٢٢٣) ، ولقد ترك لنا هيرودوت وصفاً جيداً لهذه الابراج . وفي بلاد الاغريق شوهد سور مونيشي (٤٠٣ ق . م .) الذي استغنى عن أبراج الرمي وذلك بتخطيط جدار الحصن نفسه بشكل مسنن . ثم تعمم البرج المربع وبقى فعالاً وسائداً حتى نهاية الامبراطورية البيزنطية . ثم جاءت الابراج الدائرية التي تسهل حمايتها بالرمي ، وتستطيع التحمل والصمود بشكل افضل امام ضربات أعمدة المهاجمين ، وأخذت في الظهور منذ القرن الميلادي الثاني الا في الجنوب حيث الابراج المسننة (سالبارت ــ ليس ــ نيورت) في القرن الثالث عشر حلاً افضل (شكل ج في الصفحة ٢٢٣) ، وكان تباعد ابراج الرمي (٣٠ ــ ٥٠ متراً) يتلاءم مع المدى المجدي لأضعف الاقواس الرامية لخرق الدروع الزردية . وفي حالة تعدد الاسوار كان يلاحظ تفاوت في ترتيب ابراج الرمي (شكل د في الصفحة ٢٢٣) ، بشكل يجعل كافة الابراج قادرة على الرمي في آن واحد ، وبحيث تسيطر ابراج رمي السور الداخلي على الفرج الواقعة بين ابراج رمي السور الخارجي . ولقد كان الحصن المنعزل عبارة عن برج قوي يأخذ احد الاشكال التالية : مستدير ذو دعامات سفلية (كوس) ، متعدد الاضلاع (جيور) ، مربع (لوش) ، ذو اربع بروزات (إيتامب) ، او بجمع الشكل المربع او متعدد الاضلاع مع ابراج الزاوية (نيورت) .

ومن الملاحظ ان معظم التحصينات الظاهرة القديمة غير موجهة (اي انها تستطيع الدفاع في جميع الاتجاهات) كما انها ذات قدرة ادارية جيدة (وهذا يعني انها قادرة على تأمين الرجال والارزاق) . اما التحصينات النادرة الموجهة المتمتعة بصفة تكتيكية بحتة فكان لها اسوار متصلة معدة لقطع طريق اجباري او السيطرة على موضوع هام ، كما هي حالة سور نبوخذ نصّر عبر بلاد ما بين النهرين ، وسور بيلوس الذي بناه

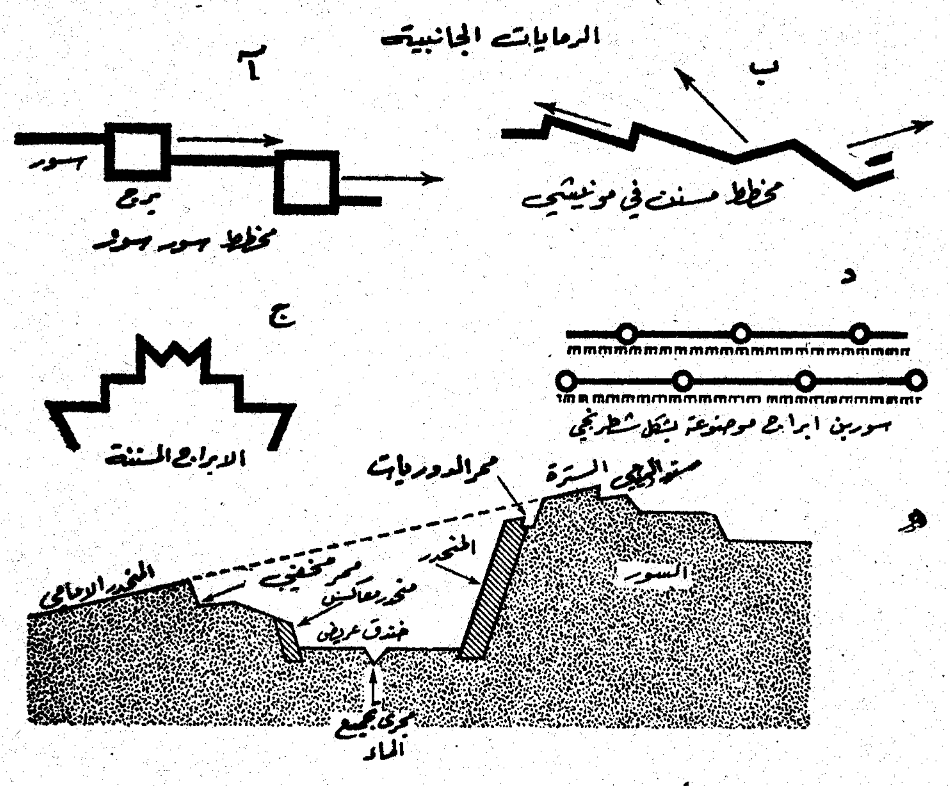
المصريون عند مدخل صحراء سيناء . وسور تراجان في جنوب ايكوسيا ، و... هادريان على الدانوب ، وسور دوميتيان في شان ديكومات ، واخيراً سور الصين الشهير .

وعندما ظهرت التحصينات المنخفضة في بوكيوتو (عام ١٥٦٧) كانت هذه التحصينات عبارة عن قصر من قصور القرون الوسطى ذي جدران اكثر سماكة ولكنها أقل ارتفاعاً بشكل لا يتأثر معه ثبات البناء، بالاضافة الى دعامات ترابية ضخمة تسند الجدران وتدعمها . وتنزل هذه الجدران بصورة مائلة كيما تساعد عملية انعكاس المقذوفات . ثم ظهرت صفات اكثر خصوصية عندما جاء سبيشر وايفرارد دوبار لودوك في حوالي عام ١٥٩٤ ويمكن تلخيص هذه الصفات بما يلي :

(١) كانت مواقع القتال تختلف باختلاف المهمة المنوطة بشاغليها، وهل هي معدة للقتال القريب (حملة البنادق) ام للقتال البعيد (مدفعية) ولقد تعدل تخطيط كوى الرمي مع تطور الاسلحة واخذت هذه الكوى ثقباً مستديراً من الاسفل لسهام النبالة ، كما اخذت فيما بعد نوافذ تهوية في بطاريات المدفعية المغطاة (شكل ى في الصفحة ٢٢٠) .

(٢) اخذت مواقع الرمي شكلاً يؤمن تجمع وتقاطع الرمايات بشكل كثيف علماً بأنها كانت حتى ذلك الحين توزع المقاتلين على نسق واحد . وتزايدت المخططات المسننة والتحصينات ذات القرون ، لان المخططات المسننة تتلاءم مع متطلبات المنع ومقاومة النفوذ بفضل خطوطها المتراكبة والمتدرجة والتي تكون على شكل ثلاث طبقات متتالية وتحمى بعضها البعض ويكون الطابق الاول منها معداً للرمي المسف : (الموازي لسطح الأرض وعلى ارتفاع صغير منها) .

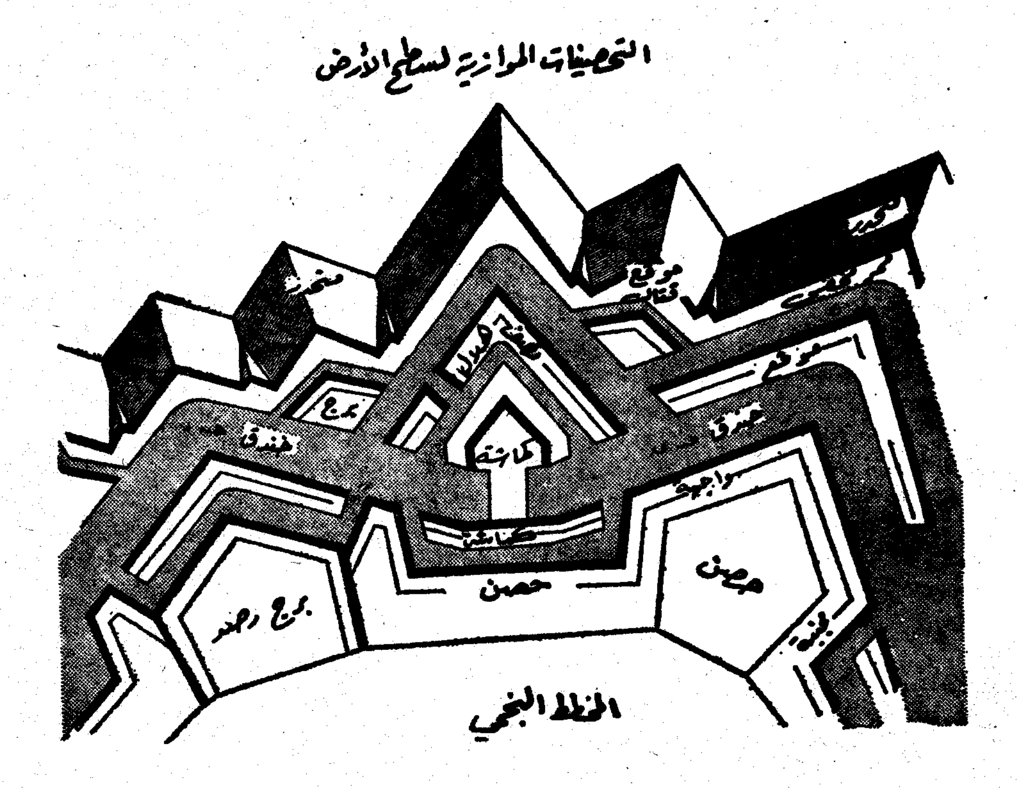
(٣) اعطى تخفيف الجدار الخارجي اهمية متزايدة للحفر التي غدت منذ ذلك الوقت مضروبة بنيران جانبية مُسفّة ، ولقد طالب دورر منذ عام ١٥٢٧ بعمل منعة تبرز من البرج لضرب الخنادق المحيطة بالبرج بنيران جانبية .



وفي هذا الوقت أسس الفنانون والمهندسون وعلماء الرياضيات من امثال دورر وميكل انجل وليوناردو دافينشي فناً متكاملاً للتحصينات ، وظهرت الاشكال والنماذج المتعددة وفكر البعض منذ ذلك الوقت بالحصون المنعزلة ، ووضع باغان في القرن السابع عشر قاعدة تقول بضرورة انشاء المجنبات بشكل عمودي على خط الدفاع . ومن هنا ظهرت الاشكال النجمية والمحصنة واختفت المنشآت التكتيكية الخطية الموجهة ، ولم يعد هناك الا منشآت غير موجهة ذات قدرة ادارية جيدة ، باستثناء الخطوط المؤقتة التي كانت الجيوش تستخدمها لتغطية نفسها خلال الحملات .

اما **التحصينات الموازية لسطح الأرض** والتي يسير فيها ميل سطح السترة في السور مع ميل سطح المنحدر الامامي (شكل هـ في المخطط أعلاه) . فلم تكن تقدم لطلقات العدو سوى كتل ترابية . على حين تكون كافة الابنية والمنشآت خفية . ويشاهد في النموذج الذي اوجده الشوفالييه دوفيلي في عام ١٦٢٨ من هذه التحصينات العناصر التالية المتسلسلة من الخارج الى الداخل : المنحدر الامامي مع ممر خفي ، جدار المنحدر المعاكس، الخندق ومجرى تجميع الماء ، جدار المنحدر الذي يدعم السور مع ممر الدوريات : السترة ومسند الرمي .

ثم وضع فوبان المخطط النجمي المتلائم مع الارض اكثر من تلاؤمه مع الضرورات الهندسية الجامدة (ويؤمن هذا المخطط مزيجاً من الخطوط الخارجية المسننة والخطوط الداخلية المحصنة التي تتدرج فيما بينها منشآت ذات طوابق متتالية . ونلاحظ فيها ان الممر الخفي القديم قد انقلب الى مواقع رمي ذات ابراج داخلية ، وأنصاف أهلّة ، وكمّاشات منسقة ومتتالية بين مواقع الرمي وابراج الرمي . على حين تقف مواضع الحراسة المتقدمة امام الحصون . كما ان بعض الحصون مدعومة بأبراج رصد .



ولقد وضع فوبان بصورة متتابعة ثلاثة اشكال للمخطط النجمي بقيت مستخدمة حتى عام ١٨٦٠ . ولم تكن التحسينات التي ادخلت عليها سوى تفصيلات لا علاقة لها بتطور المدفعية .

وكان لمبدأ المخطط النجمي معارضوه نظراً لانه كان يتطلب القيام بأعمال وتحصينات كبيرة على جبهة ضيقة بالاضافة الى ان بروزاته الواضحة حساسة جداً لضربات العدو ، والرمايات الجانبية فيه خاضعة لاستقامة الخطوط الهندسية. وكان مونتا لامبيرو كارنو والمهندسون الالمان من دعاة المخطط متعدد الاضلاع الذي كان برج الرمي فيه متميزاً

وكبيراً ، كما كانت الحالة قبل فوبان . كما ان الرمايات الجانبية تم فيه من منشآت اقل بروزاً وبصورة خاصة على اكثر الجبهات تعرضاً . وفي عام ١٨١٥ عاد الالمان الى المخطط متعدد الاضلاع . وما أن جاء عام ١٨٧٥ حتى قلدتهم جميع الجيوش ولقد انشئت مع هذا بعض المواقع على النظام النجمي ولكن بشكل اكثر بساطة وبعداً عن جمود متطلبات الخطوط الهندسية .

ومع تزايد قدرة نيران المدفعية ظهرت صفتان هامتان هما :

- **اختفاء** الابنية القتالية الظاهرة فوق سطح الارض ، مع اخفاء القوى الحية تحت سقوف من البناء او الاسمنت والاتربة . وتظهر منها ابراج صغيرة مدرعة للمراقبة والرمى ، وتكون هذه الابراج ثابتة او قابلة للاختفاء ، وهذه هي مرحلة التحصينات الملساء .

- **توجيه** المنشآت التي اصبح لها منذ ذلك الوقت جبهة خلفية حساسة ، بالاضافة الى اختفاء القدرة الادارية التي تتمتع بها المنشآت .

ولقد نجم التوجيه بلا شك عن زيادة مدى رمايات المدفعية . فللحفاظ على قلب التحصينات بعيداً عن رمايات مدفعية الحصار المركزة كان من الضروري تكبير نصف قطر الدفاع ، لهذا كان يوزع امام سور التحصينات المستمر نطاق من الحصون المستقلة المتمركزة على مواقع ملائمة ، وكان من الضروري تقوية هذه الحصون المستقلة من ناحية العدو ، اما من ناحية التحصينات نفسها فكان الحصن المستقل مبنياً بشكل يسهل على الصديق استعادته ويصعب على العدو الخروج منه اذا ما احتله . وبالاضافة الى ذلك فان الحصون المستقلة كانت جاهزة للرمى على الفرج الواقعة فيما بينها . ولقد كانت جبهة الحصن المستقل المقابلة للعدو عبارة عن منعة ملساء تسير مع مستوى سطح الارض ، على حين كانت واجهته الخلفية عزلاء تقريباً . وكانت معظم النيران القوية موجهة الى امام وبين الفرج ، اما الرمايات الخلفية فكانت مقتصرة على النيران الجانبية القصيرة المباشرة . وبهذا الشكل بني في حوالي عام ١٨٤٠ النطاق الباريزي الاول المؤلف من ثلاثة عشر حصناً ، ثم بني نطاق آخر من الحصون في عام ١٨٧٥ على مسافة ابعد .

وعندما تم الانتقال من نطاق الحصون الى الحواجز التكتيكية من النوع الذي اوجده سيريّه دو ريفيير بقي المبدأ نفسه . ولكن لم يعد ينتظر من المنشآت القيام بمقاومة منعزلة بل القيام بمقاومة متوافقة مع مناورة القطعات الميدانية التي تحميها من الالتفاف والتطويق.

وكان الجميع يعتمدون اعتماداً كلياً على نيران الفرجات التي تتحكم بالممرات الاجبارية على ٤ او ٥ كيلومترات من الحصن . ولقد كان الجزء المكلف بهذه المهمة هو منعة بورج القائمة بصورة جانبية على مجنبتي المنشأ .

واظهرت تجربة الحرب العالمية الاولى صفات وسيئات هذه الفكرة . فقد صمدت المنشآت امام عمليات طويلة من القصف المدفعي ، وتجلى الصمود في احسن معانيه بالنسبة للقوى الحية المختفية تحت الارض . ولكن الحذر المفرط كان يدفع الجيوش الى تجريدها من سلاحها بصورة منهجية . واثبتت معركة فردان قوة الحصون وقدرتها على تحمل القصف ، ولكنها اثبتت ضعف مقاومتها امام عمليات الانقضاض ، الا اذا كانت ضمن نطاق حماية القوات الميدانية . ولقد اعطت حصون موبوج وفردان وحاجز تول – فردان نتائج مرضية طالما كانت القوات المدافعة عنها تتمتع بمعنويات جيدة ، على حين تم احتلال حصن لييج في عام ١٩١٤ بهجوم ليلي تجاوز الحصون واندفع بين الفرج ليأخذها من الخلف .

وبعد هذه التجربة قامت لجنة تنظيم المناطق المحصنة (C. O. R. F.) [1] بتطوير التحصينات الملساء المطمورة . وحافظت على مبدأ التوجيه ، وابتعدت عن كل عنصر هندسي جامد ، والغت استخدام مواقع القتال المكشوفة نهائياً ، واختفى الخندق العريض المضاد الحساس تاركاً مكانه للاسلاك الشائكة وحواجز الاعمدة والسكك الحديدية . اما الرمي الجانبي والدفاع عن الاقسام الظاهرة من المنشآت فكانا مؤمنين بواسطة المدفعية او رمايات المنشآت المحيطة . واختفت القوى الحية داخل الارض اكثر فاكثر . واخذت خدمة الاجزاء القتالية من المنشآت بنية متشعبة وترك المنشأ المجمع مكانه الى مجموعة مركزية متصلة بخنادق تحت الارض مع مجموعات ثانوية موزعة .

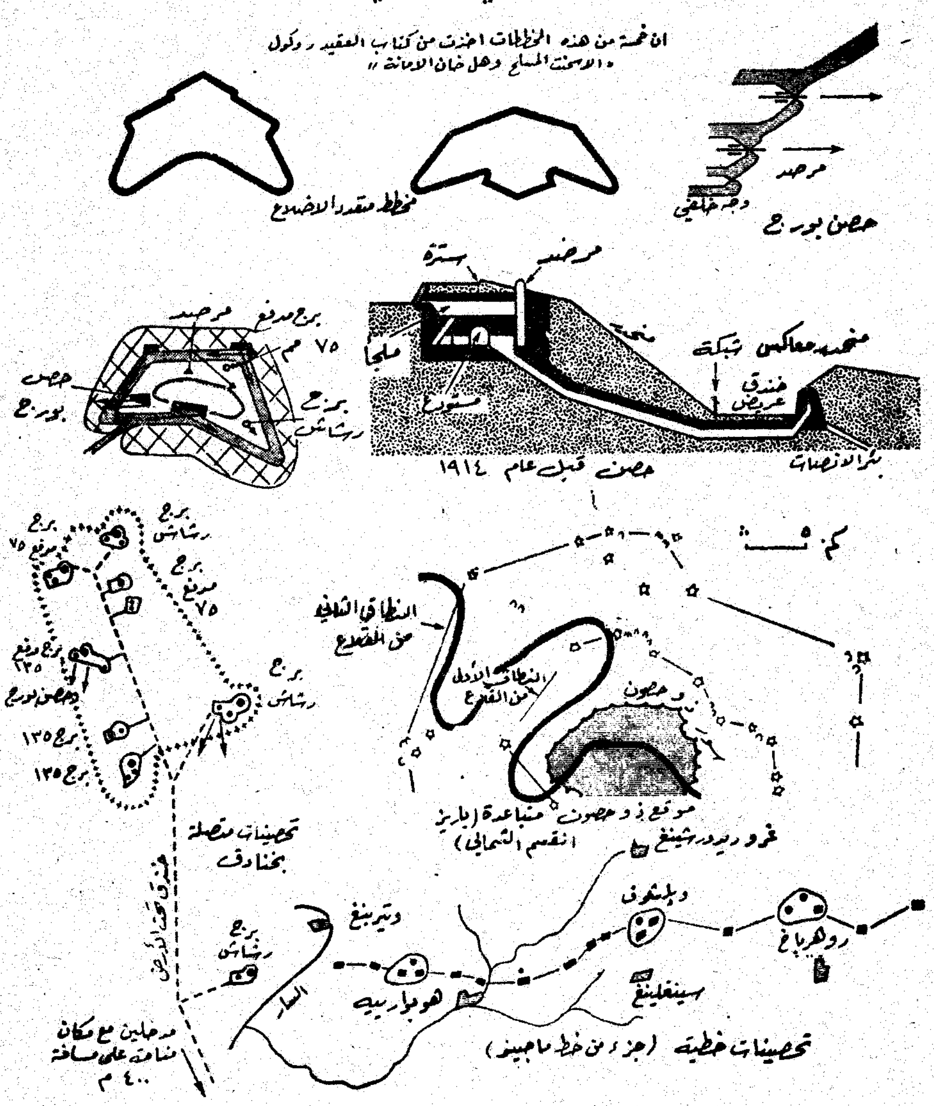
ولقد اكد خط ما جينو المبني على هذه المبادىء ان التوجيه وضعف الدفاع المباشر عن الاجزاء الظاهرة من المنشآت هما نقطة الضعف في هذا النوع من التحصينات .

وشارك مبدأ التوجيه في انقاص قوة رمايات المدفعية ذلك لان المدفعية في حصون غير موجهة هي مدفعية ضخمة تحوي عدداً كبيراً من القطع الثقيلة طويلة المدى وقادرة على منع اكبر قطاع ممكن . ولكن الخوف من تطويق حصون النطاق قلل حجم المدفعية

---

(١) C. O. R. F. الرمز المختصر لـ : Commission d'organisation des regions fortifieés

التحصينات الحديثة



الثقيلة في مشروعات الـ(.C. O. R. F)الخاصة بهذه الحصون ، والرامية الى تقوية موقع ميداني . وهنا تقوت وتأكدت اهمية نيران المشاة الخفيفة والمدفعية القادرة على الرمي بغزارة كبيرة . وبنيت منشآت تتجاوز انظارها مدى المدفع ٧٥ مم والقذاف ١٣٥ مم . وكانت هذه المنشآت معرضة لان تقع تحت تأثير رمايات المدفعية الثقيلة الطويلة المعادية دون ان تكون قادرة على الرد . واصبح معاكس البطاريات العام من مهمات القطعات الميدانية .

وتبدلت صفة المنع الداخلي ايضاً . فحتى عام ١٨٧٥ كانت المنشآت المتدرجة على شكل طوابق تحمي بعضها البعض وتحكم كل واحدة منها الاخرى . اما في التحصينات المطمورة تحت الأرض ، فقد غدت المنشآت مستقلة ، ولم يعد من الممكن التدخل ضد اية قوة تهاجمها آلا عبر ممرات الاتصال .

وادت مقاومة الاسمنت الكبيرة الى اتجاه التحصينات من جديد الى نموذج التحصينات المنخفضة مع جدران عمودية بدون ترس ترابي . ومنذ عام ١٩١٦ غطيت الخطوط الالمانية بمنعات بارزة ثم عمم هذا الاستخدام اعتباراً من عام ١٩٣٩ (تمديد خط ماجينو- جدار الاطلسي – خط سيغفريد) ويمكن ان نلاحظ في جدار الاطلسي على الاقل رد فعل جيد ضد المبالغة في استخدام مبدأ التحصينات المنخفضة المطمورة . ويتمثل رد الفعل هذا بأن القسم الظاهر من المنشأ كان مكشوفاً ومؤلفاً من حفر الرجال المتصلة مع مكان اقامتهم عن طريق مصعد خارجي ، بالاضافة الى زيادة استخدام المدفعية الثقيلة نظراً لان طبيعة الاهداف البحرية كانت تتطلب ذلك .

ولا يدل نجاح الانزال في النورماندي في أي حال من الاحوال على عدم صلاحية منشآت الجدار الاطلسي . فلقد تعرضت هذه المنشآت الى رمايات كثيفة لم تعرف سابقاً من مدفعية بحرية عيارها ٣٠٥ – ٤٠٦ مم . ونحن نعرف أن الالمان استخدموا في معركة سيباستبول مدافع وزنها ١١٨ طناً وعيارها ٦١٥ مم ومدافع وزنها ١٢٠٠ طناً وعيارها ٨٠٠ مم ولكن هذه المعدات كانت استثنائية ومحدودة .

ويمكن ان نوجز منشآت مختلف العصور بنوعين هما :

(١) المنشآت غير الموجهة الظاهرة او الواقعة على مستوى سطح الارض وتتصف هذه المنشآت بما يلي :

– الاستقلالية الدفاعية التي يتم الحصول عليها بفضل قوة متساوية في جميع الاتجاهات ، والرمي الجانبي المباشر ، واستخدام المنشآت الظاهرة المكشوفة وقوة المدفعية وبعد مداها ، والامكانيات الادارية الجيدة .

– قوة المدافع السلبية : خنادق مضادة وجدران .

– المنع بواسطة منشآت تحكم بعضها البعض كلما تقربنا من البرج الداخلي المركزي.

(٢) المنشآت الموجهة الظاهرة او الملساء : وتتصف هذه المنشآت بما يلي :

– تعلق المنشآت بعضها بالبعض الآخر او بالقوات الميدانية . وينجم هذا التعلق

عن واجهة خلفية حساسة ، ورمى جانبي مباشر قليل الفاعلية ، ومنشآت ظاهرة خالية ومدفعية محدودة المدى ، وامكانيات ادارية متواضعة .

ـ امكانية النفوذ عبر الموانع السلبية كحواجز الاوتاد او الشبكات .

ـ المنع بواسطة اقسام مستقلة .

ومما لا شك فيه ان النوع الثاني اقل تأثراً برمايات المدفعية المعادية من النوع الاول . ولكن بوسعنا ايجاد حل مشترك يجمع في حالات متعددة مميزات وحسنات النوعين ، وخاصة اذا استطعنا تخليص المنشآت الحديثة من التوجيه وضعف القدرة الادارية .

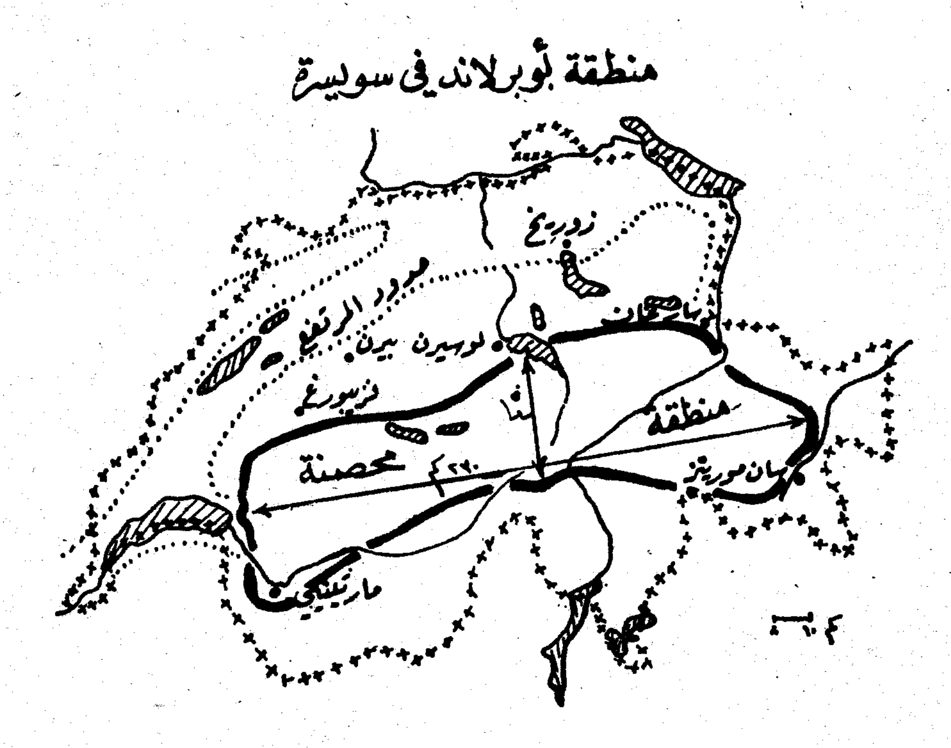
بيد ان التأثير الذري يجعلنا نرى ان من الضروري استفادة المراكز الهامة في الجيوش (مقرات القيادة ـ المستودعات الرئيسية) من التحصينات المطمورة كيما تحافظ على بقائها . ولكن علينا ان نعرف هل تسمح الشروط التقنية بقبول التحصينات حلاً عملياً اذا عرفنا ان عمق الحفرة الناجمة عن قنبلة ذرية من عيار ٢٠ كيلو طن يعادل ٣٠ م وقطرها ٣٠٠ م . وأن عمق الحفرة الناجمة عن قنبلة من عيار ٢٠ ميغا طن يعادل ٧٠ م وقطرها ٣٠٠٠ م . إن الضغط الناجم عن الانفجار قادر على تدمير المنشآت الواقعة في منطقة الانفجار الا اذا كانت على عمق ٢٠٠ م تحت الارض ، ومن المستحيل وضع جميع المنشآت على هذا العمق ، لهذا فان علينا ان نفكر باستخدام احد الحلين التاليين :

١ ـ استخدام الحفر الضخمة الموجودة مسبقاً طبيعية كانت ام اصطناعية (وديان ـ كهوف ـ مناجم ـ أنفاق ـ مقالع لاستخراج الرمال .)

٢ ـ تحويل الاراضي المتضرسة الى تحصينات كجحور الخلد ، وملاجىء تحت الصخور .

ولقد استخدم الالمان الحل الاول في الماضي لحماية صناعتهم الهامة من القصف الجوي . ويقدم لنا هذا الاستخدام دروساً جيدة هامة ، علماً بان بعض منشآت حماية الصناعة الالمانية كان منذ ذلك الحين ملائماً للحماية الذرية .

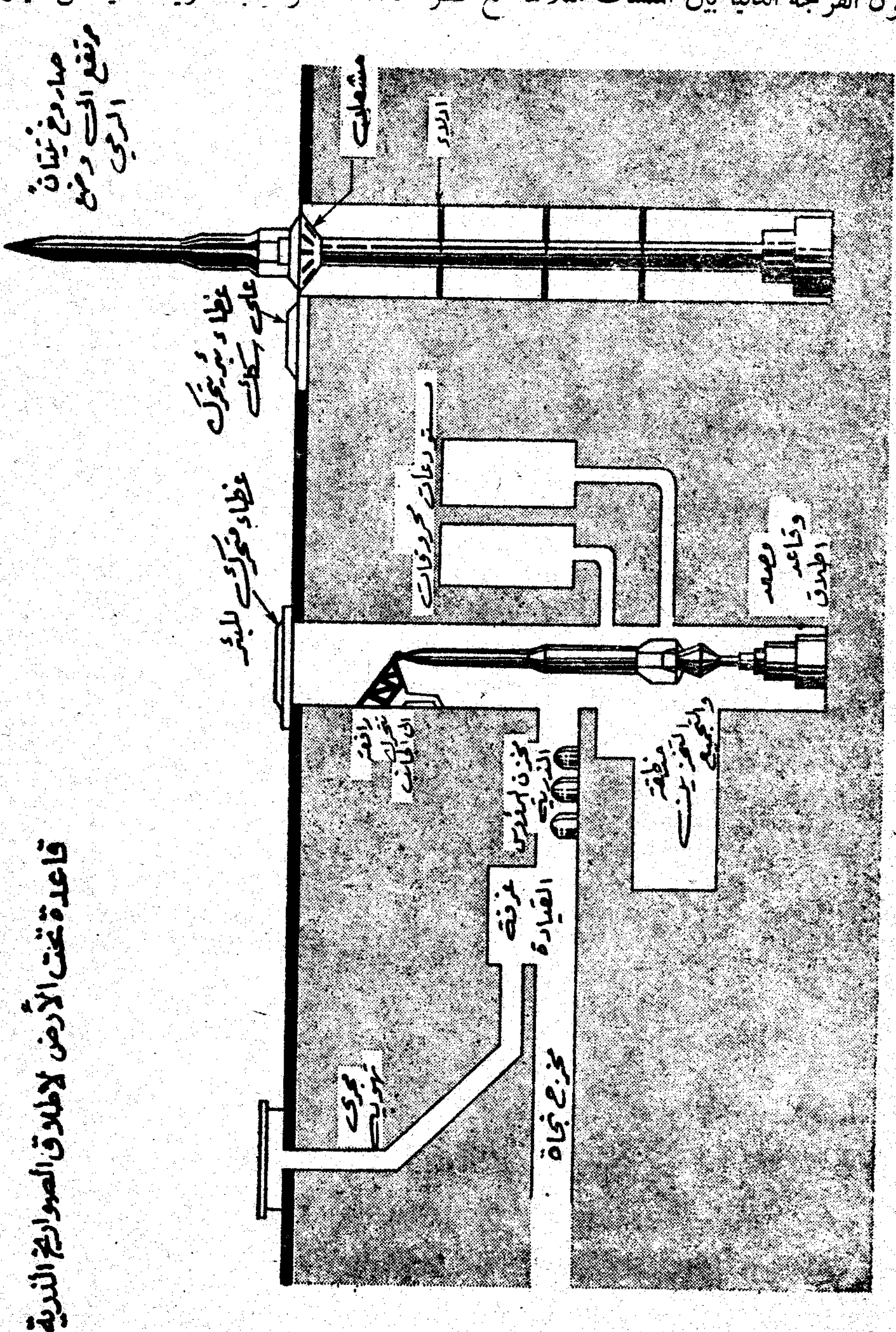
ودرس الحل الثاني من قبل العقيدين بودورسلك وروكولي . وأدت الدراستان الى نتائج متماثلة تقول إن الجبال تسمح بانشاء مناطق تتم فيها المناورات تحت الارض لاغراض تكتيكية وادارية . ولقد أنشأ نموذج لهذه المناطق في اوبيرلاند بسويسرة .



ويعطي بودورسك لهذه المناطق قطراً يعادل ٢٠٠ ــ ٣٠٠ كم في منـــاطق تؤمن الدفاع مع الاقتصاد بالقوات . ولنذكر في هذا الصدد ان خط ماجينو الواقع على مواقع غير ملائمة تماماً كان يتطلب ١٠,٠٠٠ الى ١٥,٠٠٠ رجل لكل ١٠٠ كم ، وأن هناك حالات كثيرة كان من الممكن فيها اختيار مكان ملائم قطره ٥٠ ــ ٧٥ كم فقط ويؤدي الغرض نفسه .

ان التحصينات في العصر الذري ستجعلنا نرى في سفح اكثر الجروف انحداراً واشدها ارتفاعاً مجموعـــة من الدهاليز المحمية بستارات مضادة للصدمـــة الذرية . وتتجه هذه الدهاليز الى اماكن القطعات او مستودعات التموين او مهابط الطائرات العمودية او الطائرات القاذفة . وفي منتصف المرتفع سنشاهد فوهات اجهزة قذف الصواريخ ، على حين نشاهد على ذروة المرتفع ابراجاً قابلة للاختفاء ومغلقة بشكل قوي محكـــم ، وموضوعة في فوهة بئر اصطناعي . وبالاضافة الى سدنة المنشآت وافراد الخدمات الادارية ، ستكون حامية هذه المناطق مؤلفـــة من قطعات مدرعة قادرة على القيام بدوريات واغارات خارج المناطق المحصنة . وهكذا سيكون للجيش البري قاعدة مشابهة للقاعدة البحرية في مرسى الكبير .

ويمكننا ان نتصور ايضاً وجود الملاجىء والمستودعات المطمورة تحت طبقة ترابية كثيفة مع طوق من المنشآت السطحية الخفيفة نسبياً والموزعة داخل الدفاع شريطة ان تكون الفرجة الدنيا بين المنشآت متلائمة مع قطر منطقة الخطر لقنبلة ذرية عادية من عيار



قاعدة تحت الأرض لإطلاق الصواريخ الذرية

٢٠ كيلو طن (١٦٠٠) م الامر الذي يجعل القذيفة قادرة على تدمير منشأ واحد فقط .

ومن الملاحظ ان القواعد الامريكية المطمورة لاطلاق الصواريخ تستخدم حفراً قليلة العمق ولا تؤمن الحماية الكامنة . فعمق آبار الصواريخ مثلاً لا يزيد عن ٥٠ متراً، كما ان مراكز القيادة موجودة على عمق ٢٥ متراً . ولآبار هذه القواعد غطاء متحرك فولاذي ذو فتحة جانبية ، كما ان لها مراكز مراقبة تلاحق سير الصاروخ بالرادار والتلفزيون والاشعة تحت الحمراء وهي تقدم لنا صورة موجزة عن تحصينات المستقبل .

الا ان قيمة جهاز التحصينات لا يتعلق بتنظيم المنشآت فحسب ، ولكنها تتعلق بتوزيعها على الارض والمهمات المعطاة لها .

ويقول نابليون : « ان استخدام الحصون يفيد في حالة الدفاع والهجوم ، انها عاجزة ولا شك عن ان تحل وحدها محل الجيوش ولكنها الوسيلة الوحيدة القادرة على تأخير العدو الظافر واعاقة تقدمه وازعاجه وتحميله متاعب اضافية . »

ويرد تورين على هذا بقوله : « لو صرف ملك اسبانيا على تجهيز قطعاته المقاتلة ما كلفته عمليات الحصار وتحسين القلاع من رجال واموال لكان اليوم اعظم ملوك الأرض طرا . »

ويعني هذا ان على جهاز التحصينات ان يكون اقتصادياً ومعقولاً . وتتمثل صفته الاقتصادية في **تلاؤمه مع الجغرافيا الاستراتيجية لا مع مخطط العمليات** . ذلك لان مصادفات الحرب ومفاجآتها ، وتطور المخططات المرتبط بتنوع الوسائط المستخدمة والقادة القائمين بالعمل ومناورات العدو المضادة التي تقلب المشاريع رأساً على عقب ، عبارة عن امور تعرض اي جهاز محصن متلائم مع مخطط العمليات للبطلان قبل ان يستخدم ، فيصبح بذلك عبئاً لا عاملاً مساعداً . وهذا ما وقع بالنسبة لخط ماجينو الذي هوجم من الخلف ، واجبر القيادة على وضع اعداد كبيرة من المقاتلين لحمايته ... علماً بأن هناك من يرون انه قام بجزء من واجبه عندما سمح باجراء التعبئة العامة بشكل محمي من الهجمات القوية المفاجئة .

ان زيادة حرية العمل هدف من اهداف التحصينات ، ويتم اختيار أماكن إنشائها لتحقيق هذه الحرية . ويستطيع جهاز التحصينات ذي القيمة الادارية والمنسجم مع الجغرافيا والطبوغرافيا الوصول الى ذلك بسهولة ضمن الحدود التي يسمح بها بمراقبة الحركة والقدرة الانتاجية . إن بوسعه ان يفعل ذلك بحماية ومراقبة اكثر النقاط حساسية ، ولو بصورة غير مباشرة ، او عن طريق التأثير على السبل المؤدية اليها ومنعها .

وهكذا تأخذ عناصر الجهاز المحصن شكل « مخفر حراسة »[1] او شكلاً يشابه « الحصن — الملجأ — المستودع » ولا يتمتع « مخفر الحراسة » الا بقدرة ادارية محدودة او معدومة . كما ان نصف قطر تأثيره محدود بامكانيات نيرانه وقوة حاميته المحدودة . اما « الحصن الملجأ المستودع » فمهما كان شكله ونوعية استمرار سوره فانه يتصف بقدرة ادارية كبيرة ، ويمكنه تمديد نصف قطر تأثيره بتنسيق تأثيرات نيرانه مع تأثيرات طلعات القوات من داخله وهجماتها المفاجئة .

ولقد رأينا عبر عصور التاريخ ثلاثة انواع استراتيجية من الاجهزة المحصنة وهي : الجهاز الطبيعي والجهاز المكشوف والجهاز المغلق .

جهاز التحصينات الطبيعي (القرون الوسطى) : ويتألف من الحصون الملائمة لالتجاء الرجال والعتاد والارزاق والممثلة بالمدن والقلاع . ويرتبط هذا الجهاز بالممتلكات المحلية ويحميها مباشرة . ولكن عناصره غير متلاحمة مع بعضها ، ولا تعمل ضمن تنسيق دفاعي واحد . ولقد كان جهاز التحصينات الطبيعي يراقب بصورة آلية المسالك الكبرى وتبنى اجزاؤه على مواقع ذات قيمة عسكرية الامر الذي يجعل فاعليته جيدة نسبياً . وكانت مساوئه ناجمة عن احتوائه لعناصر مدنية وعسكرية في آن واحد، اذ كانت العناصر المدنية تشكل عبئاً ثقيلاً على الدفاع ، وهذا ما دفع موريس دوساكس لان يطالب بانشاء حصون ذات صفة عسكرية بحتة ، كما دفع قادة عسكريين آخرين الى ان يطردوا خارج الاسوار كل الافواه العاطلة غير المجدية التي لا يزعج العدو نفسه بمطاردتها او التعرض لها . وللسبب ذاته اضطر آلان بلانشار حامي روان والمدافع عنها الى الحكم على عدد من سكان مدينته بالموت جوعاً في الخنادق المحيطة بالحصون ... بيد ان السكان المدنيين يقدمون في ظل ادارة جيدة مليشيا مقاتلة ويداً عاملة لا يمكن تجاهلها . ولقد اظهر موفلوك ذلك جيداً في سيين عندما جعل كافة المواطنين يساعدون في الدفاع عن المدينة ، حتى ان النساء اخذن مكانهن في خطوط القتال ، ووقفن للحراسة على الاسوار.

جهاز التحصينات المكشوفة : ينشر هذا الجهاز على البلاد المنبسطة شبكة من الحصون ومواقع الحراسة متباعدة بمقدار المدى الادارى الاقصى[2] . ويعمل على توزيعها على

---

(١) كان نابليون يصف هذه المواقع بأنها « مخفر عسكري » اذا كانت قادرة على المقاومة مدة كافية للسماح بتدخل الجيوش الميدانية .

(٢) المدى الاداري الاقصى هو المسافة التي يمكن ان تدعم عليها قطعة عسكرية اعتباراً من آخر مستودع أو مركز توزيع مع استخدام القوافل العادية (سيارات او عربات تجرها الخيول) .

الطرق الرئيسية المؤدية الى قلب البلاد مع محاولة انشائها على مواقع جيدة عسكرياً . ولقد نشر فوبان شبكة تتباعد فيها القلاع والحصون على الحدود بمقدار ٢٠ كم تقريباً ، اى بما يعادل مسافة مرحلة واحدة . وعندما دفعت الاساليب الادارية الجديدة المدى الادارى الاقصى الى ١٢٠ كم فقدت اربع او خمس قلاع من كل ست قلاع قيمتها او غدت مخفراً عسكرياً بحتاً . ولقد ذكر مارمون انه لم يكن في مجابهة الشمال الشرقي سوى ثلاثة « حصون ــ مستودعات » هي ليل وميتز وستراسبورغ المتباعدة عن بعضها بمقدار ١٤٠ ــ ٢٧٠ كم ، اي بما يعادل مدى ادارياً اقصى واحداً او اثنين ، الامر الذي يسمح بتقديم الدعم الاداري لكل قطعة تتحرك داخل مجال عمل هذه « الحصون ــ المستودعات » اما اذا خرجت القطعات عن هذا المجال فان دعمها الاداري يغدو بحاجة لنقاط وصل اضافية .

ويبلغ المدى الاداري الاقصى في هذه الايام ٣٦٠ كم عندما يكون ميزان القوى الجوية جيداً

ولكنه ينخفض الى ١٦٠ كم في الحالة المعاكسة . وهذا يعني ان عرض الفرجة المتوقعة بين المواقع المحصنة الذرية هو ٣٢٠ ــ ٣٥٠ كم (اي ما يعادل ٢ مدى اقصى قديماً بطول ١٦٠ كم) مع الاخذ بعين الاعتبار اسوأ حالات ميزان القوى الجوية .

ويؤمن جهاز التحصينات المكشوف حرية عمل جيدة لثلاثة أسباب :

(١) انه يزيد استقلالية وسهولة مناورة القوى الميدانية بفضل الدعم الادارى والتكتيكي المقدمين ضمن حدود مدى فاعلية الحصون .

(٢) ان سقوط حلقة من هذه الشبكة لا يشكل خسارة فادحة لا تعوض ولا يتطلب بالتالي تدخل القوات الميدانية بصورة اجبارية .

(٣) بالرغم من عدم استمراريته فانه لا يسمح للعدو باختراق الشبكة دون ان يحتل الحصون او يطوقها ويبطل نيرانها ، والا تعرضت مؤخراته وخطوط مواصلاته لازعاج دائم .

جهاز التحصينات المغلق : يهدف هذا الجهاز الى تغطية مجموع الممرات المؤدية الى منطقة ، أو أن يزيد قيمة موقع من المواقع بناء على مخطط عمليات معين . وهو عبارة عن مجموعة منشآت مستمرة او سلسلة متقاربة من المنشآت قادرة على حماية مجنبات بعضها البعض بالنيران المتبادلة ومستعدة لان ترمى في الفرج بصورة فعالة . وليس

للمنشآت عادة قيمة ادارية كبيرة ولكن بوسع السلسلة ان تضم « حصناً ـ مستودعاً » كما ان من الممكن دعم السلسلة « بحصون ـ مستودعات » خلفية .

ويمكن ان نقول ان اسوار الحصون الرومانية وسور الصين الكبير وخطي ماجينو وسيغفريد عبارة عن اجهزة تحصينات مغلقة واقعة على الحدود لتغطية منطقة من المناطق ، كما ان السد المشكل من قلاع من نموذج سيريه دوريفيير ، والممتدة بين حصون تول وفردان وايبنيال وبيلفورت هو عبارة عن جهاز تحصينات مغلق ذي قيمة عملياتية مجردة. وتنتشر هذه الاجهزة عادة على خط يرتبط مع خط الحدود ، وهذا ما يجعلها تختار في معظم الحالات مواقع لا تتمتع بقيمة عسكرية كبيرة ، كما ان خرقها يشكل حدثاً خطراً يجعل القوات الميدانية مضطرة الى الانقضاض على الثغرة قبل ان تتسع وتؤدي الى تطويق كامل . وتكون مثل هذه الاجهزة موجهة بالضرورة ، لذا فان المناورات الهادفة الى تطويقها واخذها من الخلف مناورات كبيرة الخطورة .

ان سلامة جهاز التحصينات وحدها قادرة على تأمين حرية العمل .

وهكذا فاننا نحكم على الجهاز بناء على قدرته على مقاومة الخرق ، وما يعطيه من استقلالية للقوات الميدانية .

لقد كانت طبيعة العدو المبرر الذي دفع الى انشاء الحصون الرومانية وسد الصين الكبير . وكانت هذه المنشآت تهدف منع غزوات الشعوب البدائية لاراضي البلاد المتحضرة او تسهيل عمل المدافعين ضد قوات الغزو وخلال عودتها ، اذا ما حققت هذه القوات انتصاراً محلياً محدوداً ، لهذا كانت اجهزة التحصينات المغلقة تقدم قبل كل شيء طريقاً عرضانياً استراتيجياً محصناً . ويمكن اعتبار سور الصين الكبير طريقاً حقيقياً يسمح بسير الخيالة . وتدخل التحصينات الفرنسية في الجزائر في الزمرة نفسها ، الا انها لم تكن سيئة نظراً لارتباطها مع المؤخرات بعدة اجهزة تحصينات مكشوفة (شبكة كاسترّوم وحصون رومانية ومخافر الحدود) ولانها كانت تقابل خصماً ذا قدرة حربية ضعيفة ومحروماً من ادوات الحصار . ولكن ما ان اختفت هذه الظروف بفضل عمليات الهجوم الكبيرة حتى فقد خط التحصينات الفرنسية فاعليته لانه لم يكن معداً لايقاف الجيوش .

اما اجهزة التحصينات المستمرة الحديثة ، فهي على العكس اجهزة غير ملائمة ولا تقدر على ايقاف الجيوش النظامية او دعم المواقع الميدانية نظراً لقلة تنسيقها في العمق ، ولضعف نقاطها من الناحية الطبوغرافية ، ولعدم قدرتها على المشاركة في زيادة حرية

العمل الا ضمن شروط عملياتية محدودة جداً وعلى حساب سلامتها . ولهذا فان اي جهاز من هذه الاجهزة لم يقم بالدور المخصص له بشكل جيد .

ومهما كان نوع جهاز التحصينات المستخدم فاننا لانستطيع تحقيق حرية العمل الا اذا كان دور التحصينات توفير القطعات اللازمة للدفاع بدلاً من تكديس عدد كبير من القطعات لحمايتها . علماً بأن التوازن بين القوات الميدانية والقوات التي تحتل التحصينات كان في جميع الاوقات عملية هامة حساسة .

ففي القرون الوسطى كانت الحاميات تشغل قوات اكبر من قطعات العمليات ، كما كانت بورجوازية المدن تقدم للحاميات دعماً لا ينكر . ومن المعروف أن موريس دوساكس استخدم خُمس قواته لحراسة حصون الشمال خلال حملة بلجيكا . وهناك حالات متعددة لم تتجاوز بها حاميات التحصينات القوات الميدانية الصديقة فحسب ولكنها تجاوزت قوات العدو المهاجمة ايضاً كما كانت الحالة في اليزا عندما حاصرها يوليوس قيصر ، وحالة ميتز وباريز عندما حاصرهما الالمان في عام ١٨٧٠ . لقد جمدت ميتز للدفاع عنها جيشاً مؤلفاً من ١٧٩,٠٠٠ رجل كما استخدمت باريز ٥٣٩,٠٠٠ رجل كان منهم ١٤,٠٠٠ رجل فقط يعملون في خدمة **الحصون** ، على حين كانت القوات الالمانية المهاجمة لميتز مؤلفة من ١٦٠,٠٠٠ رجل والمهاجمة لباريز ٢٣٤,٠٠٠ . وفي الوقت نفسه كانت قوات الفرنسيين الميدانية داخل كافة جيوش الدفاع الوطني الفرنسي عبارة عن ١٢٠,٠٠٠ رجل قبل معركة سيدان و ٣٥٠,٠٠٠ رجل بعدها . وفي الحرب العالمية الثانية وضع الفرنسيون على خط ماجينو قوات ميدانية بكثافة تعادل على الاقل كثافة القوات المنتشرة في المناطق غير المحصنة .

ان الحصون عاجزة عن الصمود اذا لم يقدم لها الجيش دعماً كبيراً دائماً . فاذا لم يتحقق ذلك كان ضررها اكبر من فائدتها . لذا فان المصلحة تقتضي كما قال فوبان بأن لا نمسك الا « الحصون النادرة » وفي خلال حملة عام ١٧٥٧ اخلى فريدريك كل حصونه الواقعة على الضفة الغربية للرين لانها لم تكن متلائمة جيداً مع انتشار جيشه ، ولأنه لم يكن قد قرر دعمها بقوات كافية .

بيد ان مقاومة الحصون تشكل مع ذلك عاملاً هاماً من عوامل تأمين حرية العمل وتتفاوت هذه الاهمية حسب نوع وسائط الحصار المستخدمة . ولقد كان الآشوريون اول من استخدم قطعات النقابين في التاريخ القديم ، واوجد الاسكندر المقدوني آلات الحصار على نطاق واسع ؛ ثم ظهر المدفع واللغم كوسيلتين جادتين فعالتين لاخضاع

الحصون بسرعة . بيد ان هناك امراً يسترعي الانتباه وهو ان مدة الحصار لم تختلف كثيراً باختلاف العصور لان **قيمة المدافعين المعنوية اكثر اهميةٍ من نوع الوسائط المستخدمة .**

لقد رأى الانسان منذ اقدم العصور حتى الآن عمليات حصار هامة دامت من ستة اشهر الى سنة كحصار صور الذي دام ستة اشهر في عام ٣٣٢ ق. م . وحصار سيباستبول الذي استمر احد عشر شهراً في عام ١٨٥٤ ، ولكن هذين المثلين عبارة عن حالة نادرة لا يمكن تعميمها ، وخاصة عندما يملك المهاجم وسائط حصار ملائمة او عندما لا يتمتع قائد الحصن بصفات قيادية جيدة ، اذ تنخفض مدة اخضاع الحصون والقلاع في هذه الحالة وتصبح من يومين الى شهر . ففي عام ١٣٥٦ احتل دوق دولانكاستر ست مدن وقلاع خلال شهر واحد ، كما اسقط دوغسكلان ثمانياً منها في نوفمبر وديسمبر (تشرين ثاني وكانون اول) ١٣٦١ وفي عام ١٣٧٢ احتل كافة الحصون والقلاع في مقاطعات بوتو واونيس وسينتونغ وانغوموا خلال ستة اشهر فقط . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر كان الوضع مشابهاً ، ولم تقاوم حصون الفلاندر امام موريس دوساكس سوى يومين او ثلاثة ايام ، وغدا حصار بيرج اوبزوم شهيراً لأنه دام شهرين كاملين . اما عمليات الدفاع البطولية في ذلك العصر (مايانس ١٧٩٣ ، وجنوة ١٨٠٠ وساراكوس ١٨٠٨ — ١٨٠٩) فقد دامت فترة تتراوح بين شهر واربعة شهور .

ولقد دفعت هذه السهولة النسبية في اخضاع الحصون المارشال دوساكس لان يقول « ان الشهرة الكبيرة التي يتمتع بها فوبان وكوهورن لم تؤثر بي ابداً . لقد حصن هذان القائدان القلاع بتكاليف باهظة ، ولكن ذلك لم يجعلها اكثر قوة ، او ان قوتها لم تُجْدِ في الحقيقة شيئاً ، وسهولة احتلالها دليل اكيد على ذلك » .

ويدخل تعدد الحصون كعامل مساعد في ضعفها وعدم قدرتها على الصمود طويلاً ، ذلك لان التعدد يؤدي الى ضعف الحاميات . إن حامية نامور لم تستطع الصمود ٢٠ يوماً في عام ١٧٥٦ الا بعد ان دُعمت بـ ١٠,٠٠٠ رجل ، كما ان براغ صمدت في العصر نفسه مدة سبعة اشهر بفضل مقاومة ٢٠,٠٠٠ رجل . اما حاميات حصون شبكة فوبان والشبكات الدفاعية المشابهة الاخرى فتتألف من ٦٠٠ — ١٥٠٠ رجل وهذا ما يفسر سقوطها السريع بيد ان الحاميات الكبيرة لا تضمن نجاح الدفاع بصورة مؤكدة اذا لم تكن معنويات القطعات وتصرفات الاهالي ملائمة . ان حصار ميتز وباريز في ١٨٧٠ — ١٨٧١ لم يدم اكثر من ٢ — ٤ اشهر بالرغم من عدد الجيوش الضخمة المدافعة عن هذين الموقعين الهامين ، على حين قاومت بيلفورت في الفترة نفسها مدة اربعة شهور ، مع ان حاميتها

كانت اضعف من حاميتي ميتز او باريز بشكل واضح .

وفي احدث العصور لم يتبدل مردود الحصون ولم تزده قدرتها على الصمود . ففي ١٩٤٤ — ١٩٤٥ سقطت سيباستبول خلال عشرين يوماً ، واستسلمت برست بعد ثلاثة وثلاثين يوماً اما مقاومة شيربورغ امام الحلفاء فلم تدم سوى اربعة ايام .

وبالرغم من بعض التأكيدات السريعة ، فان تأثير التحصينات المادي والمعنوي يبقى مهماً حتى ولو كان الامر متعلقاً بمواقع غير ملائمة او غير مجدية ظاهرياً .

ولقد وجهت التحصينات الفرنسية في عامي ١٩١٤ و ١٩٤٠ مخططات الغزو الالمانية واثرت عليها بشكل واضح . كما ان المقاومات الجزئية للحصون الفرنسية في الشمال عام ١٩١٤ حجزت قوات المانية هامة كان الخصم بحاجة لها في معركة المارن . ومع ان حصون الفلاندر لم تقاوم المارشال دوساكس طويلاً فانها جعلت مدة حملة احتلال بلجيكا ٣٦ شهراً لان تحرك قطعات الحصار ووسائطه امر لا يتسم بالسهولة . ومنذ عام ١٩٤٢ حتى عام ١٩٤٣ وجد السوفييت صعوبة كبيرة في اخضاع « الحصون — المستودعات » الميدانية التي اوجدها الالمان في روسيا على مؤخراتهم ، مع انها كانت تتمركز في مواقع ذات قيمة عسكرية محدودة ، وتدافع عنها منشآت خفيفة مؤقتة ... لقد اوقفت الهجمات الروسية في عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ . وعندما تدفقت القوات السوفيتية في عام ١٩٤٤ طاردة امامها الجيوش الالمانية ، استطاعت حاميات هذه الحصون المؤلفة عادة من ٢٠,٠٠٠ رجل ان تقاوم في بعض الاحيان شهراً كاملاً ضد قوات النسق الثاني المكلفة بتطهيرها . حتى ان بعضها كان يحصل على تفوق مؤقت . ولم تسقط في النهاية الا بعد ان خضعت القوات الميدانية الالمانية نفسها .

والحقيقة ان التاريخ لم يعرف حصناً لا يمكن احتلاله . لذا فقد كان تورين محقاً عندما نصح كوندي بأن يبذل معظم اهتمامه وعنايته للجيش الميداني ، مؤكداً له بـأن السيطرة على قوات العدو المسلحة في المعركة بدلاً من الحصار تجرد الخصم من قوته وتجعل ابسط القرى معادلة لاحسن القلاع .

الفصل الحادي والعشرون

الشؤون الإدارية (اللوجيستية)

يذكر التاريخ كثيراً من التكتيكيين ، ولكن عدداً قليلاً من الكتاب يهتم بذكر القادة بناء على اعمالهم الادارية ، لان هذا الفن لا يجتذب المجد والاضواء او انتباه المؤرخين ، كما ان القوى المعنوية التي تعتبر عاملاً من اهم العوامل عند التكتيكيين لا تكاد تذكر عند دراسة الشؤون الادارية ، مع أن افضل مخططات العمليات يمكن ان تنهار اذا لم تعتمد على شؤون ادارية جيدة . ولقد ذهب الجنرال ايزنهاور الى ابعد من ذلك حين قال « لا تكتيك بلا شؤون ادارية ، فان قالت هذه الشؤون الادارية لا ، كانت دائماً على حق ، وكان علينا في هذه الحالة تبديل خطة العمليات لانها خطة سيئة حتماً » .

وتهتم الشؤون الادارية بالتأمين المادي والصحي للقطعات بالاضافة الى تأمين اقامتها وحركتها . وتزداد قيمتها مع تزايد عدد المقاتلين وارتفاع مستوى تقنية العتاد المستخدم . وعندما كان العدو والتقنية محدودين كانت الشؤون الادارية تكرس جل اهتمامها للتحرك والاقامة . ولكن هذا لا يعني بأن كلمة الشؤون الادارية مشتقة كما ادعى جوميني من كلمة « مسؤول الاقامة » Maréchal des logis وهو ضابط من ضباط الاركان كان يهتم في ظل النظام الملكي القديم بتحديد المخيمات والمعسكرات ، وتأمين تحرك الارتال . ان اصل الكلمة في الحقيقة يوناني ، فكلمة « Logisteuo » تعني ادار .... ولقد اصاب جوميني كبد الحقيقة عندما اكد بأن الشؤون الادارية جزء اساسي من فن الحرب ، كما أكد ذلك المارشال دوبويسيغور الذي عمل في عهد لويس الرابع عشر .

واننا لنذكر (الفصل الخامس) بأن الشؤون الادارية تهتم بثلاث وظائف ([illegible]ة والتنقلات ، الفرز والاخلاء ، الاصلاح) وانها تعمل بفضل ثلاثة عناصر (المخازن مواقع ، خطوط المواصلات والعمليات وتوزيع وسائط النقل)، وان امكانيات كل هذه العناصر تفرض شكل الحرب بصورة مستقلة تمام الاستقلال عن عبقرية القادة . ولكن هذه الامكانيات لا تستخدم دائماً بالشكل نفسه ، فهناك من يحسن استخدامها وهناك من يسيء . وهنا تلعب الاساليب والتوقعات الادارية دورها بأن تحصل من الادوات ذاتها على مردود متباين . ويتعلق الامر هنا بالتطبيقات العملية الخاصة اقل من تعلقه بالفكرة العامة التي توجه نشاط مختلف الخدمات . ان الشؤون الادارية هي قبل كل شيء عمل من اعمال الاركان كما ان مصالح النقل والادارة والعتاد هي عناصر ادارية ، ولكن اطاراتها لا تتألف بالضرورة من ضباط الشؤون الادارية .

وتحدد الامكانيات الادارية عادة شروط ايقاع العمليات وسرعة تقدم القطعات ومدى عملها ، وكل ما يمكن جمعه تحت عنوان **الاستقلال الاداري**. وهناك ظاهرة غريبة تتمثل في ان الاستقلال الاداري لم يتبدل تبدلاً كبيراً رغم التقدم التقني لوسائط النقل . ذلك لان المميزات التي حملتها تعدات فيما بعد بسبب تزايد متطلبات الجيوش الى درجة مرهقة .

ويمكن قياس الاستقلال الاداري بثلاث صفات هي :
- وزن المواد اللازمة لكل رجل يومياً ، وحجم النقل العام الناجم عن ذلك .
- مدى التقدم الاقصى الذي يمكن تنفيذه بعد آخر مخزن او آخر مركز توزيع .
- سرعة العمليات .

ومن الملاحظ ان وزن المواد اللازمة لحاجات الرجل اليومية تتزايد باستمرار . ففي عصر الجيوش الضخمة التي لا تقبل التجزئة ، وحتى منتصف القرن الثامن عشر كان انتشار استخدام السلاح الابيض الذي لا يُستهلك ، وندرة المعارك ، وقلة استهلاك اسلحة الرمي ، عبارة عن صفات تجعل المهمات الادارية الرئيسية تتجه نحو التموين بمواد الاعاشة لا نحو الامداد بالعتاد . ومع ان الجراية الكاملة للجندي (خبز — طعام — شراب) كانت تزن ٢,٥ كغ وجراية الحصان (علف — شوفان) تزن ١٢ كغ ، فان هناك كثيراً من الحالات التي اضطرت فيها جيوش العصور القديمة الى اكل خبز الميدان أو الاكتفاء باستخدام القمح (الذي كان جنود «الليجيون» الروماني يطحنونه ويخبزونه) بالاضافة الى الشوفان (اللازم للخيول) . وفي هذه الحالات كان وزن جراية الجندي

ينخفض حتى ٠,٥ كغ على حين تنخفض جراية الحصان الى ٦ كغ لهذه كان « الليجيون » الروماني يمتاز بأنه قطعة عسكرية تحتاج الى الحد الادنى من الشؤون الادارية . وكان جندي « الليجيون » يحمل على ظهره قمحاً يكفيه ١٧ يوماً وتحمل قافلة « الليجيون » بالاضافة الى ذلك ما يكفي القطعة خلال ٣٠ يوماً . وبما انه لم يكن في الليجيون نبّالة يستهلكون السهام بالاضافة الى قلة عدد الخيالة فان التموين بمواد الاعاشة كان يشكل معظم مهماته الادارية ، وكان ما يحمله من مؤونة يؤمن له استقلالاً ادارياً مدته ٤٧ يوماً . وليس هناك قطعة استطاعت مجاراته في هذا الصدد .

ثم تزايدت مهمات الشؤون الادارية والاوزان اللازمة لها بعد ذلك بصورة منتظمة تحت تأثير ثلاثة عوامل هي :

الخيالــة : التي كانت تشكل حتى القرن السابع عشر ثلث تعداد الجيوش ، **واسلحة الرمي** : التي اخذت تتزايد بالعدد والعيار وسرعة الرمي منذ القرن السادس عشر ، **والآلية** : التي ظهرت في بداية القرن العشرين . ونلاحظ هنا نقطة تحول ادارية واضحة عندما انتقلت الجيوش من الاستخدام الكثيف المتكتل لقطعات لا تقبل التجزئة الى الاستخدام « المتمفصل » في عام ١٧٦٠ . فقبل هذا التاريخ كانت ندرة المعارك والاشتباك العام القصير لمجموع الوسائل القتالية يؤمنان ثباتاً كبيراً للتوقعات الادارية التي كانت متشابهة دائماً وعلى جميع المستويات . لقد كان قائد القطعة والقائد العام يقومان بالحسابات الادارية نفسها ، وكان وزن حاجات الرجل في اليوم في حساباتهما واحداً . ولكن الامر لم يعد كذلك بعد هذا التاريخ . وبدا التباين واضحاً بشكل خاص في القرن العشرين . ذلك لان عدد المعارك تزايد بشكل ملحوظ ، كما أن حدة ومدة مراحل العمليات الفعالة تضاعفتا تماماً . ولا شك ان القطعات الكبرى تستخدم كلها عادة بالشكل نفسه ، اذا اخذنا بعين الاعتبار استخدامها على المدى الطويل ولكن نشاطها في الحقيقة غير منتظم ، ويختلف حسب اختلاف مكانها في التشكيلة العامة ، ومهمتها ، ومرحلة المناورة التي تخوضها . ويحسب القائد العام الوزن اللازم لحاجات جيشه بناء على معطيات متوسط الاستهلاك . اما قائد الفرقة فيقوم بحساباته بناء على نوع فاعلية فرقته (راحة ، معركة محتدمة هجومية ام دفاعية ، تقرب ، مطاردة ... الخ) . وبالاضافة الى ذلك فليس هناك اية مقارنة بين مستوى مخازن الجيوش قبل عام ١٧٦٠ وبعده فقبل هذا التاريخ كان الامر محصوراً ببعض المواد التي يستغرق استهلاكها عدة اشهر ، بالاضافة الى ان استهلاك المؤونة ومختلف المواد الاخرى كان يتم بشكل متماثل وعلى وتيرة واحدة لا تزايد فيها .

ولكي نقوم ببعض المقارنات يمكننا ان نذكر في الجدول التالي وزن المواد اللازمة لحاجات المقاتلين في مختلف العصور .

التاريخ	الوزن اللازم لادامة رجل في اليوم: حسابات القائد العام او قائد الجيش	الوزن اللازم لادامة رجل في اليوم: حسابات قادة القطعات الكبرى	ملاحظات
في القرن الاول ق . م (اليجيون الروماني)	٠،٥ — ١ كغ	٠،٥ — ١ كغ	استهلاك دائم من القمح والشوفان ولقد كانت القافلة القصوى لليجيون مؤلفة من ٣،٩٠٠ رجل تضم ١١٥ طناً من المؤونة والعتاد تكفي اليجيون لمدة ٣٠ يوماً .
عام ١٧٥٠	٤ كغ	٤ كغ	الاستهلاك الرئيسي من القمح والشوفان بمعدل ٤ كغ لكل رجل في اليوم . ولقد كان مخزن جيش مؤلف من ١٢٠،٠٠٠ رجل يمثل ١،٦٠٠ طن .
عام ١٨٧٠ + ١٢٠ سنة	٨ كغ	٨ كغ	٣٠ ٪ منها عتاد و ٧٠ ٪ مؤونة وعلف . وكان استهلاك فرقة مشاة تعدادها ٢٠،٠٠٠ رجل يصل الى ١٦٠ طناً في اليوم .
عام ١٩١٨ + ٤٠ سنة	١٣ كغ	٣٠ كغ في فترة النشاط الاقصى لفرقة المشاة	كان استهلاك جيش يضم ١٠٠،٠٠٠ رجل و ٢٥،٠٠٠ حصان يصل الى ١،٣٠٠ طن في اليوم ٣٩ ٪ منها مؤونة وعلف ١٩ ٪ ذخيرة ٤٢ ٪ مواد هندسية ومحروقات .
عام ١٩٤٣ + ٢٥ سنة	٣٠ كغ	في فترة النشاط الاقصى : — ٦٥ كغ في فرقة المشاة . — ١٠٠ كغ في الفرقة المدرعة(١) وبصورة متوسطة ٣٠ كغ في فرقة المشاة .	يوزع الاستهلاك في فرقة المشاة المؤلفة من (٢٠،٠٠٠) رجل وفي فترة النشاط الاقصى كما يلي : ٤٧ ٪ ذخيرة واسلحة ٢٥ ٪ محروقات وعلف ١٥ ٪ قطع غيار ٧ ٪ تجهيزات والبسة ٥ ٪ مؤونة ١ ٪ ادوات طبية وبريد ويمثل ١،٣٠٥ طن في اليوم .

(١) ان جمهرة تكتيكية معاصرة مؤلفة من مختلف صنوف الاسلحة وتضم حوالى ٤،٠٠٠ رجل تستهلك في اليوم الاول للخرق ٢٨٠ طناً ، شريطة ان لاندخل في الحساب سوى المؤونة والمحروقات والذخيرة . وهذا يعني ان متوسط الاستهلاك يعادل ٧٠ كغ لكل رجل في اليوم .

ومن المفيد ان نلاحظ ما يلي :

– ان الوزن المتوسط اللازم لكل رجل في اليوم تضاعف في كل مرحلة من المراحل التي ذكرناها اعتباراً من عام ١٧٥٠ .

– ان وزن مستودعات الجيش التي كانت تكفيه عدة اشهر في عام ١٧٥٠ أصبح عبارة عن وزن الاستهلاك اليومي للجيش نفسه في عام ١٩١٨ كما اصبح في عام ١٩٤٣ وزن ما تستهلكه فرقة واحدة تقوم بخرق دفاعات العدو .

ولقد اصاب قوافل وسائط النقل تضخم مماثل . بيد ان اهمية هذا التضخم تعود ايضاً الى الاساليب الادارية المستخدمة .

فمنذ العصور القديمة حتى القرن الثامن كانت ارتال الشؤون الادارية مؤلفة من خيول نقل مجهزة ببردعة . ولقد نظم الاسكندر استخدام هذه الخيول فخصص « حصان نقل » لكل فارس من خيالته «وحصان نقل» لكل ستة من جنود المشاة ويمكن تفسير هذا الاهتمام بالتحميل بأن مردود التحميل لم يكن في عصر الاسكندر ليزيد عن ٢٠٠ كغ لكل حصان . ثم رفع البيزنطيون الحمولة الى ٥٠٠ كغ . وفي القرن العاشر وصلت هذه الحمولة الى ١,٠٠٠ كغ بفضل استخدام زناق خاص لاكتاف الخيول . وهنا لا بد لنا من أن نلاحظ بأن اضطرار القوافل للسير خارج الطرقات حتى في القرن ١٨ كان يقلل مردود النقل الى النصف .

وخلال حقبة طويلة من الزمن استطاعت الجيوش الصغيرة ذات التطور التقني المحدود ان تقلل ارتال النقل بالعيش على حساب البلاد . سواء كان ذلك بشراء المؤونة او بمصادرتها . ثم اضطر القادة الى دعم هذه الوسيلة باسلوب المستودعات الثابتة المحمية داخل القلاع والتي تضم منذ زمن السلم مواداً حربية كافية على ان يتم التموين بالمؤونة محلياً عن طريق الشراء او المصادرة . وكان الجيش يتخلص من جميع صعوباته الادارية بأن يبقى على اتصال دائم مع مستودع اقرب قلعة او حصن بواسطة قافلة تموين محروسة جيداً تسير على خط عمليات أحسن اختياره .

وفي عصر لويس الرابع عشر كانت شبكة القلاع والحصون متباعدة بمقدار ١٥ – ٢٠ كم بحيث كان من النادر ان يجد الجيش نفسه بعيداً عن قاعدته التموينية بمسافة تزيد عن مرحلة واحدة . وكان بوسعه تبديل هذه القاعدة باستمرار حسب موقعه . وهكذا بقيت قوافل تموين الجيش خفيفة .

لقد كان « الليجيون » الروماني المؤلف من ٣,٩٠٠ رجل و ٣٠٠ حصان يتطلب ٦٠ — ١٠٠ عربة تجرها الثيران لحمل مؤونة تكفيه ٣٠ يوماً بالاضافة الى العتاد والامتعة. ولكن كثيراً من الجيوش اكتفت حتى القرن ١٨ بقوافل تموين اقل من ذلك بالنسبة لعددها . ولم تكن تسحب خلفها سوى ما يكفيها لمدة ٤ أيام من المؤونة والذخائر (بعد ظهور الذخائر) . وكان التموين يقتصر على الخبز فقط بالنسبة للرجال ويستغنى عن علف الرواحل عندما تكون ظروف البلاد صالحة لجمعه محلياً وكان الجيش المؤلف من ٤٠,٠٠٠ رجل و ١٠,٠٠٠ خيال يتطلب ٨٠ طناً من المؤونة و ٢٠ طناً من الذخائر وهذا ما يعادل حمولة ١٠٠ — ١٥٠ عربة تجرها الخيول وبهذا كانت العمليات الادارية الكبيرة مقتصرة على عمليتين اساسيتين هما : الحصار وتحركات قاعدة الجيش .

وكان الحصار يتطلب اعتدة ومواد كبيرة الوزن . ولقد قدر فوبان ان حصاراً يدوم ٣٠ يوماً بحاجة الى ٦٠,٠٠٠ كرة ثقيلة ، و ٢٠,٠٠٠ كرة زنة ٨ — ١٢ ليبرة ، و ١٥,٠٠٠ قذيفة ، و ٤,٠٠٠ قنبلة يدوية ، و ٥٠,٠٠٠ كيس رمل ، و ٤٥,٠٠٠ اداة لتحكيم الارض ، وهذا ما يمثل ٦٥٠ طناً من الذخيرة و ٢٥٠ طناً من المواد الهندسية يحتاج استخدامها لـ ١٥,٠٠٠ — ١٨,٠٠٠ رجل و ٢,٠٠٠ — ٣,٠٠٠ عربة ، وهذه متطلبات كبيرة . بيد ان ثبات هذه العمليات جعل جلب الامدادات الى مكان العمل واستخدامها ممكناً ولا يمثل صعوبات جمة .

اما تحركات قاعدة الجيش فقد كانت تحمل على العكس اخطاراً تكتيكية كبيرة وتتطلب اتخاذ احتياطات خاصة . بيد ان الوزن الاجمالي فيها كان صغيراً . ففي عام ١٧٤٨ حرك المارشال دوساكس مخازنه التي تمون ١٢٠,٠٠٠ رجل من انفرس الى بيرج اوبزوم ، ولم تتطلب هذه العملية سوى ٢٠٠٠ عربة (اذ كان مجموع وزن المخازن ١٦٠٠ — ٢٠٠٠ طن) .

ومنذ عام ١٧٤٠ تدخلت ٣ عوامل لتبدل شكل عمل الشؤون الادارية وهي :

— حملات اوروبا الوسطى (بوهيميا — هيس — بافاريا — ويستفاليا) والتي تمت في مناطق تندر فيها الحصون والقلاع وتتباعد بمسافة ٥٠ — ١٠٠ كم ، الامر الامر الذي اجبر فريدريك على ان ينشيء المخازن والمستودعات في كل مكان ، وان يجهزها بمستودعات مؤونة جاهزة محمولة على عربات .

— خلق مصالح نظامية للتموين في فرنسا ، اذ ظهرت الادارة في عهد لويس الثالث

عشر ، ولكن باري دوفيرني هو الذي طورها في عهد لويس الخامس عشر .

ــ انشاء الفرقة في عام ١٧٥٩ .

وقبل عام ١٧٦٠ ، اي قبل بدء العصر الفرقي ، لم يكن اجرأ القادة ليبتعد عن قواعد تموينه ابداً . حتى ان فريدريك كان ينشيء مستودعاته في المدن المفتوحة ويغطيها في بعض الاحيان بمعسكر متخندق ويجهزها بمستودعات مؤقتة جاهزة محمولة على عربات . وكان يحصر نشاطه داخل حقل عمل لا يزيد طوله عن ٦٠ كم ، مستخدماً ارتالاً متتالية تحمل مؤونة ٤ أيام وطواحين يدوية وافراناً ميدانية و ١٨٠ طلقة لكل رجل . وكانت هـذه الارتال تضم ٥٠٠ عربة لكل جيش اي ثلاثة اضعاف ما تحتويه الارتال العاملة داخل شبكة القلاع والحصون ، أي داخل شبكة المستودعات المتباعدة بمقدار مرحلة واحدة .

وبالرغم من هذا التدبير الاداري فان فريدريك لم يكن يتوغل بالعمق الا اذا كان بوسعه استثمار البلاد او الاستيلاء على مستودعات العدو . وفي عام ١٧٥٧ مثلاً استولت قوات شفيرين على مستودعات النمساويين في جونغ ــ بونتزلاو فوجدت مؤونة تكفي ٥٠,٠٠٠ رجل لمدة ١٥ يوماً ، وهذا ما ساعدها على ان تتابع تقدمها .. وبعد فترة من الزمن كان فريدريك معسكراً في ليتميريتز وولي العهد في جونغ ــ بونتزلاو بيد أن مخازنه كانت فارغة . لذا اضطر ولي العهد لان يتراجع الى بوهفيش ــ ليبا ، فأصبح على مسافة ١٠ ساعات مسير من الملك وسبع ساعات مسير من مستودعات زيتاو . عندها علم بأن النمساويين احتلوا زيتاو فاضطر لأن يقاتل تراجعياً حتى بوتزن ليتمون من درسد . وهكذا نرى **ان التموين يقود العمليات**. ولقد كان فريدريك يعرف ذلك من خلال خبرتـه الشخصية التي دفع ثمنها غالياً .. ففي عام ١٧٥٤ كان مستودعه في ليتميريتز مموناً بشكل جيد بواسطة القوارب ، فتقدم نحو براغ دون ان يتمكن من الوصول اليهـا ، لأن عجلات العربات القاسية كانت تعرقل التقدم على الطرقات السيئة ولا تؤمن له حاجاته الادارية ، الامر الذي سبب نقص المؤونة اللازمة لجيشه . ولقد عبر فريدريك عن رأي عصره في هذا الصدد عندما قال : « هناك قاعدة تقول بعدم دفع الهجوم بشكل عميق ، وبأن الحروب التي نشنها قرب الحدود تنجح اكثر من الحروب التي تندفع الجيوش فيها بعيداً . »

ومنذ ظهور الفرقة في عام ١٧٥٩ بدأت الاساليب الادارية تتبدل ، وظهر ما يسمى **خط العمليات** الذي يجمع مروحة الفرق التي تغطيه في **قاعدة العمليات** (القاعدة محمية

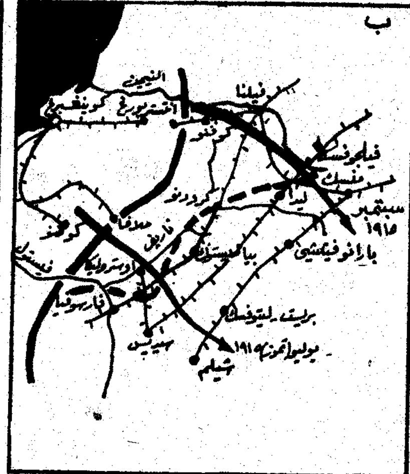
ولكن خط العمليات غير محمي) كما ظهر خط مواصلات تحميه الحصون والمفارز الخاصة العاملة بين قاعدة العمليات ومنطقة العمل (التي تكون غالباً حصناً يضم مستودعاً)

ويمكن ان نقول بأن قاعدة العمليات هي الشكل الذي تطور اليه مستودع فريدريك المفتوح . فان كانت القاعدة خارج الحصون خصصت فرقة على الاقل لحراستها . وقد ترتفع قوة الحراسة لتبلغ ثلاث فرق . ولا تهتم هذه القاعدة كثيراً بموضوع المؤونة لان الفرق « المتمفصلة » على مسرح العمليات بشكل واسع كانت تأخذ من هذا المسرح مباشرة كل ما تحتاج اليه من مؤونة دون ان تستخدم اسلوب المستودعات التقليدية ، الامر الذي ادى الى تزايد عدد مواكز التوزيع .

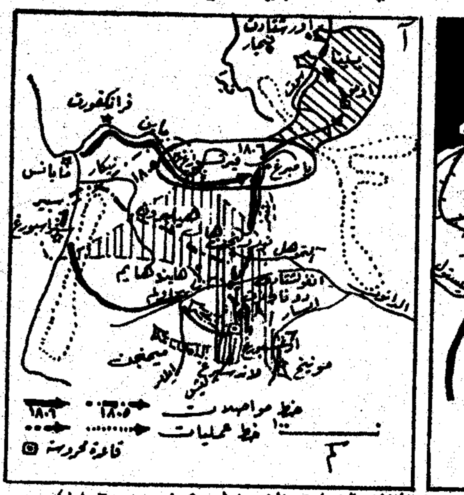
ولقد انشأ نابليون في بعض الحالات قواعد تضم تموينا كافياً لاربعة عشر يوماً ، ولكنه لم يكن يؤمن بهذه العوامل ولقد كانت قاعدة درسد مثلاً تضم ٣٦٠,٠٠٠ قذيفة مدفعية و ١٨ مليون طلقة بندقية دون ان يكون فيها أية مؤونة ، مع انها كانت معدة لدعم جيش مؤلف من ٣٠٠,٠٠٠ رجل و ٩٠٠ مدفع . ولقد كان بيرتييه متأثراً بالاساليب الادارية الامبراطورية (النابليونية) لدرجة دفعته في عام ١٨٠٥ لان يكتب للقادة العاملين تحت امرته : « ان من المستحيل إعالتكم عن طريق المستودعات ، ان هذا امر لم يقع من قبل ، ولعل الجيش الفرنسي مدين ببعض نجاحه الى انه لا يتمون من المستودعات » .

وكان طول خط العمليات يتعلق بانتشار تشكيلة الفرق التي تغطيه ، وهو يعادل ٤ — ٥ مراحل (اي ٨٠ — ١٠٠ كم) بالنسبة لجيش منتشر على مسافة يومين او خمسة ايام من نقطة التجمع . ولكن طول هذا الخط لم يكن يتجاوز ابداً مقدار ١٢٠ كم ، لان هذه المسافة هي الحدود التقنية القصوى التي تسمح بها امكانيات سير قوافل العربات التي تجرها الخيول ... ولقد كان الاهتمام بالامن الدائم على هذا الخط قليلاً نظراً لان هذا الامن يبقى بلا جدوى سواء كان الجيش منتصراً ام مهزوماً . اما اذا ناور هذا الجيش بتبديل جبهته فان من الممكن تبديل خط العمليات .

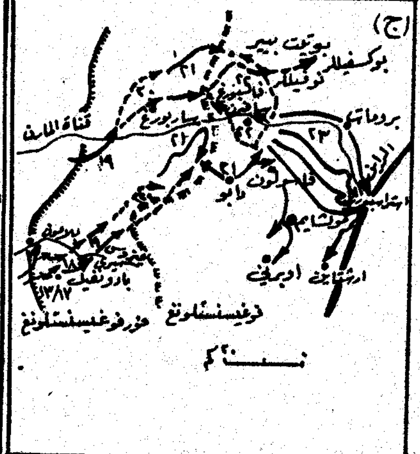
ويمتد خط المواصلات على مئات الكيلومترات . ويكفي ان لا تكون نقاط الوصل (الحصون ومعسكرات الحماية) على مسافة تزيد عن ١٢٠ كم حتى يغدو سير عملها ملائماً من الناحية التقنية . اما من الناحية التكتيكية فان من الواجب الغاؤها او اخفاؤها عن العدو او حمايتها بجدية . ولم تكن الحراسة تكلف نابليون كثيراً عندما كان يحس بسيطرته على العدو بفضل جيشه الميداني . وكان يستخدم في نقاط الوصل (الحصون ومعسكرات



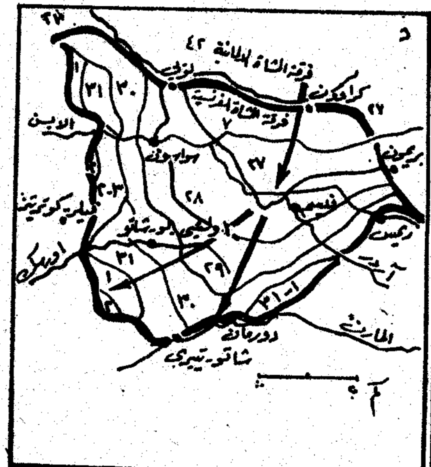
تأثير السكك الحديدية على العمليات (١٩١٥)



النظام الاداري الامبراطوري (١٨٠٥ - ١٨٠٦)



وتيرة العمليات لفرقة مدرعة ستراسبورغ (نوفمبر ١٩٤٤)



وتيرة العمليات لمشاة جيدة شومان دي دام (٢٧ مايو - ايونيو ١٩١٨)

الحماية) قوة حماية دائمة مؤلفة من مشوهي الحرب والناقهين والحرس الوطني ورجال المستودعات . وعندما كان عدد حراس مستودع ما يصل الى ١٠٠ رجل كان هذا المستودع يدفع رجاله لحراسة القوافل السائرة باتجاه الجيش . ولقد عرض نابليون خط مواصلاته للخطر كما فعل في عام ١٨٠٦ حيث كان هذا الخط يمتد على طول نهر المين ، من مايانس حتى بامبرغ . ولكن تأثير هذا الخطر تناقص بسبب وجود خط آخر يتجه الى ستراسبورغ عن طريق ريدنيتز والدانوب ويكنزيغ . والحقيقة ان سهولة العمل الاداري

تتضاءل عندما يختفي الدفع المادي او المعنوي ، ففي عام ١٧٩٧ كان خط المواصلات الفرنسي من كاسل الى فرانكفورت ومايانس يسير مع المسار الطبيعي للشواب الذي يحميه وكان هناك ٤ فرق فقط منتشرة عليه ، كما كان هذا الجيش يستخدم أيضاً خط الفولدا. اما في عام ١٨١٣ فقد ترك نابليون الموقع الوسط في لوكاو كيما يأخذ موقع غورليتز الذي يتجاوز حدود وسائله . ولقد فعل ذلك لانه لم يكن يملك ١٠,٠٠٠ خيال وهو العدد اللازم لحماية امن المواصلات بين برلين ودرسد وتورغو . ولقد استخدم خط مواصلات مغطى بنهر إلب وحصونه (تورغو ، ويتنبرغ ، ماغدبورغ) حتى درسد وحمى هذا الخط بفيلقين كاملين .

وبالرغم من أن نابليون زاد من مردود القوافل بخلق رتل التموين في عام ١٨٠٧ ، فان اسلوبه لم يخفف الارتال القتالية بشكل كبير بالنسبة لعصر فريدريك ، ذلك لان وسائل المدفعية وسلاح المهندسين اخذت حجماً كبيراً لم يعرف من قبل .

وعندما قرر الامبراطور ان يدفع نحو روسيا ثلاثة جيوش تضم ٤٠٠,٠٠٠ رجل و ١٣٠,٠٠٠ حصان وحدد هدف هذه الجيوش احتلال موسكو التي تبعد عن حصون بولونيا ومستودعاتها حوالي ١,٠٠٠ كم في بلاد تتصف طرقاتها بأنها نادرة وسيئة وتكفي عاصفة ماطرة واحدة لقلبها الى بركة موحلة ، فان قراره هذا كان عبارة عن منعطف فيه ابتعاد كبير عن اسلوبه السابق . ولم يكن في وسعه ان يأمل بانهاء الحملة خلال ١٥ يوماً أو أن يعيش على مصادر البلاد المحلية كما فعل في حملتي ١٨٠٥ و ١٨٠٩ ، لهذا نراه وقد عاد مضطراً الى نظام القوافل .

لذا زاد قبيل الحملة حجم وسائط المواصلات ، وأعطى كل فيلق ١٢٠ عربة بالاضافة الى ست سرايا تضم كل واحدة منها ٤٠ عربة ، اي ان مجموع ما تلقاه الفيلق كان ٣٦٠ عربة . ولقد حدد الامبراطور ان على الجيش ان يملك عند عبور النيمن عربات تحمل الدقيق والبسكويت والارز والخضار المجففة والمشروبات الكحولية بكميات تكفي لعشرين يوماً ، بالاضافة الى قطيع من الابقار الحية . ولقد تم حمل هذه المؤونة على ٦,٠٠٠ عربة مع ٢٠,٠٠٠ حصان وثور . وابتدأت الحملة في فصل جمع العلف ، ولكن قوافل التموين لم تكن وحدها على الطرقات بل كان هناك عربات المدفعية والمهندسين ومصلحة الصحة ومعدات الجسور المؤلفة من ١٠٠ مركب . وهكذا كان رتل الجيش يضم ١٥,٠٠٠ عربة .

واعتمد الامبراطور في بداية العمليات على ما تقدمه له المواصلات النهرية من مساعدة. وكان النيمن يحمل الحبوب والذخيرة من تيلسيت الى كوفنو ، وقد قال نابليون في ذلك

الوقت : « يمكننا بمثل هذه الوسائط ان نفترس كـــل المساحات الشاسعة » والحقيقة ان المساحات الشاسعة هي التي افترست جيشه ، خاصة وانه كان يفتقر لمن يملكون خبرة ادارية واسعة . ولقد كتب كولانكور في هذا الصدد : « ان القوافل لم تسر من قبـــل بصورة أسوأ مما سارت عليه في هذا الوقت . ولم تكن الحسابات والتوقعات الاداريـــة لتتدخل عند اخذ التشكيلات. ويمكننا ان نعيد جزءاً من كوارثنا لهذه الرعونة » ويمكن تفسير هذه الفوضى بأن نابليون كان قد عوّد أركانه على اجراء التجمع الاستراتيجي دونما مؤونة ، ومع الحد الادنى من العتاد ، اذ كانت سرعة عملياته تعوض الضعف الاداري الامر الذي لم تكن المغامرة في روسيا لتقبله .

وعلى نهر الفستول تلقت الفيالق الفرنسية مؤونة ٢٥ يوماً على ان لا تبدأ باستهلاكها الا بعد اجتياز النييمن ، ولكن سوء حفظ الغلال ادى الى فسادها . وفي مرحلة الانسحاب أعطيت الاوامر بانشاء مخازن متسلسلة متعاقبة ، وتشكيل قافلة تحمل تموينا يكفي لمدة ٢٠ يوماً بغية تغطية مراحل السير حتى سمولينسك ولكن الاوامر لم تنفذ بشكل ملائم ونهبت القطعات المخازن التي تحرسها .

وكانت القطعات تتشتت لتقوم بالسلب السائد آنذاك . واضطر الجيش الى تشكيل دوريات شرطة تجوب البلاد بحثاً عمن يقومون بأعمال السلب والنهب . وبالاضافة الى ذلك فان نقص التنظيم ادى الى تعثر المواصلات وانقطاعها بين آن وآخر ، فمنذ عبور نهـــر النييمن بدا الازدحام والاختناق واضحاً عند مداخل الجسور

ويمكن ان نقول بأن الاساليب الادارية التي ابتدعها نابليون وكانت سبباً من أسباب انتصاراته عادت لتكون سبباً من اسباب هزيمته في روسيا .

وهناك امر يسترعي الانتباه هو ان الامبراطور رجع عملياً اثناء معركة فرنسا الى الاساليب السابقة لعام ١٧٤٠ ، وذلك بأن عاد الى استخدام حصون فوبان المتروكة . ولقد استفاد نابليون من المدن الصغيرة الموجودة على الانهار والمعدة للعبور ، كما أمنت له هذه المدن نقاط عبور ثابتة ومستودعات مؤونة وذخيرة ومستشفيات لمرضاه وجرحاه ، وسمحت له بأن يتخلص من حمل أعتدة جسور ثقيلة ومعيقة ، وان يسير بلا قوافل تموين طويلة ، وهذا ما اعطاه في النهاية قدرة كبيرة على الحركة امام عدو مُثقل بعدد ضخم من العربات يعمل في منطقة مستنقعات كانت في عام ١٨١٤ فقيرة فقراً فاضحاً بالطرقات

والحقيقة اننا عاجزون عن تقدير الواقعية النابليونية حق قدرها ، ولقد استخدمت

هذه الواقعية بشكل سيء (في حملة روسيا على الاقل) ولكنها لم تخطىء ابداً في مطابقة الوسائل مع الاهداف .

ثم جاء التطور بعد ذلك ليجمع تأثيرات تحسين شبكة الطرقات مع الميل المتزايد الى الجبهة المتصلة . واتجه التطور منذ عام ١٨٦٠ الى احلال المحركات محل الخيول .

ففي عهد نابليون الاول كان بوسع الجيوش ان تلاقي في أوروبا الغربية طريقاً جيداً كل ١٥ ـ ٢٠ كم ، وفي عهد نابليون الثالث اصبح هناك طريق كل ٨ كم ، اما اليوم فهناك طريق كل ٢ ـ ٣ كم . ولقد ادى هذا التطور بالاضافة الى ظهور الجبهة المتصلة المنيعة التي لاتقبل النفوذ الى **الغاء العقيدة القائلة بوحدة الخطوط الادارية ، لتحل محلها عقيدة المناطق الادارية الموجهة بواسطة حزمة من محاور التموين الرئيسة** بمعدل محور لكل قطعة كبرى . وقبل عام ١٩١٤ قدّر كولان بأن كل ٤ ـ ٥ فيالق بحاجة لخط عمليات ، كما لاحظ بأن خط المواصلات سيتمتع بأهمية متزايدة نظراً لتزايد حجم النقل المطلوب ، ولكنه لم يلاحظ بشكل كاف ما ستستهلكه فيما بعد معارك الاستنزاف الطويلة التي كانت الجيوش تتجه الى استخدامها . ولم يعد هناك مجال للعيش على حساب البلاد التي تتم فيها العمليات . واصبح من الواجب تأمين العيش على حساب مجموع المؤخرات ، وان تؤخذ المؤن الضرورية للجيوش من العالم اجمع .

وظهرت المعضلة على الخطوط الادارية بأشكال تختلف حسب بعد الجبهة . فمنذ ذلك الحين ظهر **حقل معركة** عميق يتم النقل فيه تحت نيران العدو بشكـــل صعب بطيء ، وظهرت **مؤخرات مناطق الجيوش** حيث « تتمفصل » الخدمات المتحركة (التي كانت تتجمع في الماضي داخل قاعدة العمليات) والمتمتعة بسهولة نسبية في تأمين التوازن بين الحجوم المطلوبة والقدرة الموجودة وسرعة النقل بفضل التنسيق بين استخدام الطرق الحديدية . كما ظهرت **منطقة الداخل** حيث تتوفر اعداد كبيرة من وسائل المواصلات بالسكك الحديدية ، وحيث تتمفصل اجزاء الشؤون الادارية الثابتة التي كانت توجد في الماضي مجمعة داخل المستودعات . كما استخدمت **المؤخرات البحرية** التي لا تملك أية صعوبة تقنية كبيرة ، ولكنها تخضع لمشاكل معضلة الامن الاستراتيجي . ومنذ ذلك الحين بقيت خطوط العمليات متعلقة بالطرق ، على حين غدت خطوط المواصلات حديدية وبحرية ، وصار جهد خرق الجبهة يتعلق بأمن وطبيعة الطرقات البحرية ، واستغلال إمكانيات التموين عبر حقل المعركة . وبالاضافة الى ذلك فان التغطية الكاملة للبلاد بواسطة الجبهة المتصلة أبطلت مفعول الحصون الادارية الدائمة او المؤقتة .

ولكن هذه السهولة النسبية لم تستطع ايقاف تضخم حجم النقل ، كما ان التزويد بالعربات (التي اعطيت الى الفيالق بشكل استثنائي في عام ١٨١٢) اصبح امراً عادياً في الفرقة ، وبارقام تجاوزت الارقام السابقة بشكل ملحوظ . ففي عام ١٨٧٠ كان الفيلق الالماني المؤلف من ٤٠,٠٠٠ رجل يستخدم ٥ ارتال فقط لامداد المدفعية وفي عام ١٨١٤ صار يستخدم ٩ أرتال لامداد المشاة و ١٢ رتلاً للمدفعية و ٥ للتموين والامداد العام . وفي عام ١٩١٤ كان من الممكن نقل فرقة مشاة بالسكك الحديدية مع استخدام ٣٠ قطاراً ثم صار الامر بحاجة الى ٤٢ قطاراً في عام ١٩١٥ . ومن البديهي ان القطعات الآلية الحديثة تزيد من سرعة وحجم هذا التطور ، اذ تحتوي الفرقة المدرعة المؤلفة من ١٦,٧٠٠ رجل على ٣٨٣٤ عربة منها ١٢٩٢ عربة مدرعة قتالية او عربة قيادة .

ولقد غدا حجم القطعات وتموينها كبيراً لدرجة جعلت نهاية الخط الحديدي يتمتع بنفس الاهمية التي كانت تملكها قاعدة العمليات في النظام القديم . واصبحت السكك الحديدية تتدخل في جميع الافكار الاستراتيجية . ومن المعروف ان الامريكيين استخدموا السكك منذ عام ١٨٦٠ ثم جربها الالمان والفرنسيون في عامي ١٨٦٦ و ١٨٧٠ حتى كان استخدامها الواسع في الحرب العالمية الاولى .

وفي عام ١٨٦٦ استطاعت السكك الحديدية الالمانية ان تجمع ١٩٧,٠٠٠ رجل و ٥٥,٠٠٠ حصان و ٥,٣٠٠ عربة خلال ٢١ يوماً . ولقد كانت قدرتها في عام ١٨٧٠ هي ٥٤٨,٠٠٠ رجل و ١,٥٠٠ مدفع و ١٥٧,٠٠٠ حصان تم نقلها بواسطة ١,٣٠٠ قطار . وفي عام ١٩١٤ ارتفعت قدرتها بشكل استطاعت معه ان تنقل الى الغرب بواسطة ١١,١٠٠ قطار ٣,٢١٠,٠٠٠ رجل و ٨٦٠,٠٠٠ حصان و ٥٠٠٠ مدفع ... ولنلاحظ هنا ان الفرنسيين استطاعوا في عام ١٨٧٠ ان ينقلوا بدون اي اعداد مسبق وخلال ٢٢ يوماً ٣٠٠٠٠٠ رجل و ٦٥,٠٠٠ حصان و ٦,٦٠٠ عربة و ٤,٤٠٠ شاحنة خاصة بنقل متطلبات الشؤون الادارية .

وجاء المحرك الانفجاري ولكنه بدلاً من ان يقلل الحمولة نراه وقد زادها بسبب نقل الخدمات آلياً ومكننة الوحدات المقاتلة .

ففي عام ١٩١٤ كان لدى الجيش الفرنسي ١٣٨ طائرة و ٣ سيارات مدرعة وفي عام ١٩١٨ كانت جيوش الحلفاء على الجبهة الغربية تعد ٢١٠ فرق و ٢٠,٠٠٠ مدفع وكان فيها أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ محرك موزعة كما يلي : ٥,٤٠٠ طائرة و ٦,٢٠٠ دبابة وحوالي ١٩٠,٠٠٠ عربة وعربة نقل . الامر الذي دفع كليمانصو لان يقول : « لقد

حققنا النصر على نهر من البترول » علماً بأن هذه الـ ٢٠٠,٠٠٠ محرك لم تكن تستهلك سوى ٦٠,٠٠٠ طن من المحروقات شهرياً أي ٧٢٠,٠٠٠ طن سنوياً .

وظن البعض خلال فترة من الزمن ان الدبابة ستغدو سلاحاً اقتصادياً : ذلك لان كل مدفعية الانقضاض الفرنسية[1] التي صنعت لها المصانع ٣,٨٧٠ دبابة واستلمت الجيوش ٣,٤٧٣ منها ، كلفت ٥٥٠ مليون فرنك و ٣٥,٠٠٠ طن من الفولاذ ، واكتفت بحوالي ٣٠٠ طن من الذخيرة خلال ١٨ شهراً على حين ان هجمات المشاة من نوع هجوم فردان في اغسطس (آب) ١٩١٧ استهلكت خلال ١٤ يوماً ١٢٠,٠٠٠ طن من الذخيرة يبلغ ثمنها ٧٠٠ مليوناً من الفرنكات ويمكننا اجراء المقارنات نفسها بالنسبة لمردود ومصروفات الطيران .

ولقد شاء سوء حظ الشعوب ان المحرك المقاتل الذي كـــان أداة تكتيكية اقتصادية انقلب في الحرب العالمية الثانية الى أداة استراتيجية باهظة التكاليف . فالطيران الحليف الذي قام بـ ١,٤٤٠,٠٠٠ طلعة قصف و ٢,٦٨٠,٠٠٠ طلعة مطاردة خسر خلال الحرب العالمية الثانية ٤٠,٠٠٠ طائرة ، وشغل ٣٥ ــ ٤٥٪ من الصناعة . اما الانتاج الالماني من الدبابات والذي كان ٦٠ دبابة شهرياً في عام ١٩٣٩ فقد ارتفع في عــــام ١٩٤٤ الى ١,٣٠٠ دبابة في الشهر . ولقد قدمت الصناعة الالمانية دبابات تستهلك الواحدة منها ١ــ١,٥ طناً من المحروقات في اليوم، وتُستخدم على شكل كتل كثيفة تضم ٤,٠٠٠ــ١٠,٠٠٠ دبابة . وارتفعت مصروفات الحرب من المحروقات الى ٤ ــ ٥ ملايين طن مـــن المحروقات سنوياً . وتضخم نهر كليمانصو حتى غدا بحراً .

اما النقل بالسكك الحديدية فقد تزايد ايضاً ، وكانت فرقة المشاة الالمانية في عــــام ١٩٤٣ تتطلب خلال مرحلة الهجوم قطاراً كل يوم مؤلفاً من ٨٧ شاحنة[2] .

وهكذا فرضت الثورة الادارية نفسها تحت الحاح الضرورة الماسة .

والحقيقة ان بذرة هذه الثورة كانت موجودة منذ عام ١٩١٨ ، فلقد عرفت جيوش

---

(١) **Artillerie d'assaut** مدفعية الانقضاض . سميت الدبابات بهذا الاسم في بادىء الامر لان هذه هي اول مهمة اعطيت للسلاح المدرع من بداية انشائه .

(٢) منها ٤١ شاحنة للسلاح والذخيرة ، و ٢٢ للمحروقات والعلف ، و ١٣ لقطع الغيار ، و ٥ للتجهيزات ، و ٤ للمؤونة ، وشاحنة واحدة للالبسة ، واخرى للأدوية والبريد (٥٠٠٠ طرد بريدي ورسالة يومياً) .

الحلفاء أسوأ المصاعب الادارية عندما اتجهت نحو الرين بعد ١١ نوفمبر (تشرين ثاني) وقامت بقفزة طولها ٢٠٠ كم ، ذلك لان السكك الحديدية كانت مقطوعة من عدة اماكن ، كما ان مصالح وخدمات الجيش كانت ثقيلة بشكل لا يسمح لها بالتنقل على الطرقات بسرعة تعادل سرعة حركة القطعات المقاتلة . واستنتج البعض من ذلك في بادىء الامر ان الجيوش الحديثة عاجزة عن القيام بوثبة تزيد عن ٥٠ ـ ٦٠ كم دون ان تتوقف لتلحق بها مؤخراتها الادارية . وان هذا الامر يعود بالجيوش الى ايام فريدريك، وهذا مالا يمكن اعتباره تقدماً !... وبعد محاولات فاشلة متعددة للوصول الى حل ملائم عن طريق انقاص حجم الوحدات الكبرى (الفرق الثنائية) جاءت الحرب العالمية الثانية لتقلب بناء الشؤون الادارية واساليبها وتجعلها متلائمة مع متطلبات الجيوش الحديثة .

ولقد بدأ المسؤولون الاداريون بملاحظة أشياء عدة هي :

ـ ان استقلال الفرق لا يتعلق بحجم وسائلها الادارية العضوية ولكنه يتعلق بقدرة التدخل التي تتمتع بها الوسائط الادارية لمختلف الانساق .

ـ يتعلق المردود الاداري بالاساليب والعتاد قدر تعلقه بالبناء الاداري .

ـ ان البناء المركزي يخفف الفرق ويحسّن المردود الاداري العام .

ويعتمد الاسلوب المركزي الذي استخدمه الروس والانكليز على اربعة مبادىء :

١ ـ تنظيم مختلف الوسائل الادارية داخل مجموعات قادرة على ان تتمتع ببناء عضوي (وحدات ادارية كبرى) ، على ان تخضع كافة المجموعات لقيادة تنسيق تتمتع بكافة الصلاحيات الادارية . ويكون اتصال وسائل الخدمات والمصالح مع تسلسل أنساق المجموعات الخاص عن طريق هذه القيادة .

٢ ـ لا يتبع قائد التنسيق الاداري لأية مصلحة من المصالح ، ولكنه يتبع للقائد العملياتي الذي يعمل قائد التنسيق الاداري لصالحه ، كما يتبع لقائد التنسيق الاداري في النسق الاعلى .

٣ ـ تكون مهمة قائد التنسيق الاداري تحديد الدعم الاداري اللازم للقطعات المقاتلة وتنفيذ هذا الدعم داخل اطار أوامر العمليات . على ان يتم تنفيذ الدعم الى الحد الاقصى من الخلف الى امام حتى يصل الى خط النار حسب بداهة القائد الاداري وضمن حدود الامكانيات الموضوعة تحت تصرفه من قبل النسق الاداري الاعلى . وعلى القائد الاداري ان يتبع تطور الحاجات ويؤمن التموين بكل ما يلزم

دون طلب من المقاتلين ، وهو يرسل الامداد او يُخلي الخسائر بصورة ؟ مصالح الانساق الادنى .

٤ ـ يكون النقل مركزياً . ويتم تأمين ذلك بأن تبقى الوسائط العضوية للوحدات المقاتلة ضعيفة أو تزاد هذه الوسائل شريطة أن يكون للإداريين الحق باستخدامها مجمعة .

ويتم النقل بشكل تُقلل معه فترات الانقطاع وذلك بتبديل عربات النقل الفارغة بعربات نقل مماثلة محملة بالمواد . وتقلل مدد التعويض بدفع مراكز التبديل الى امام واجراء التعويض بحركة دائرية (ناعورة) تتم فيها الدورة بكميات قليلة ولكنها مستمرة .

كل هذا يعني ان هناك ميلاً الى زيادة وسائط ومسؤوليات الانساق الاعلى لتخفيف القطعات المقاتلة وانقاص ارتالها الادارية .

ويأخذ الاسلوب المركزي احد الشكلين التاليين :

(١) الشكل العمودي :

وتكون فيه وسائط المصالح القديمة[1] « متمفصلة » حسب الفروع الادارية الثلاثة (الاعالة والتنقلات ، الفرز والاخـلاء ، الاصلاح) ومنظمة داخل مجموعة متبدلة خاصة بالجيوش تعمل داخل « خدمة المؤخرات » .

(٢) الشكل الافقي :

الذي يستخدم وحدات ادارية كبرى ثقيلة وخفيفة تضم مختلف الخدمات والمصالح .

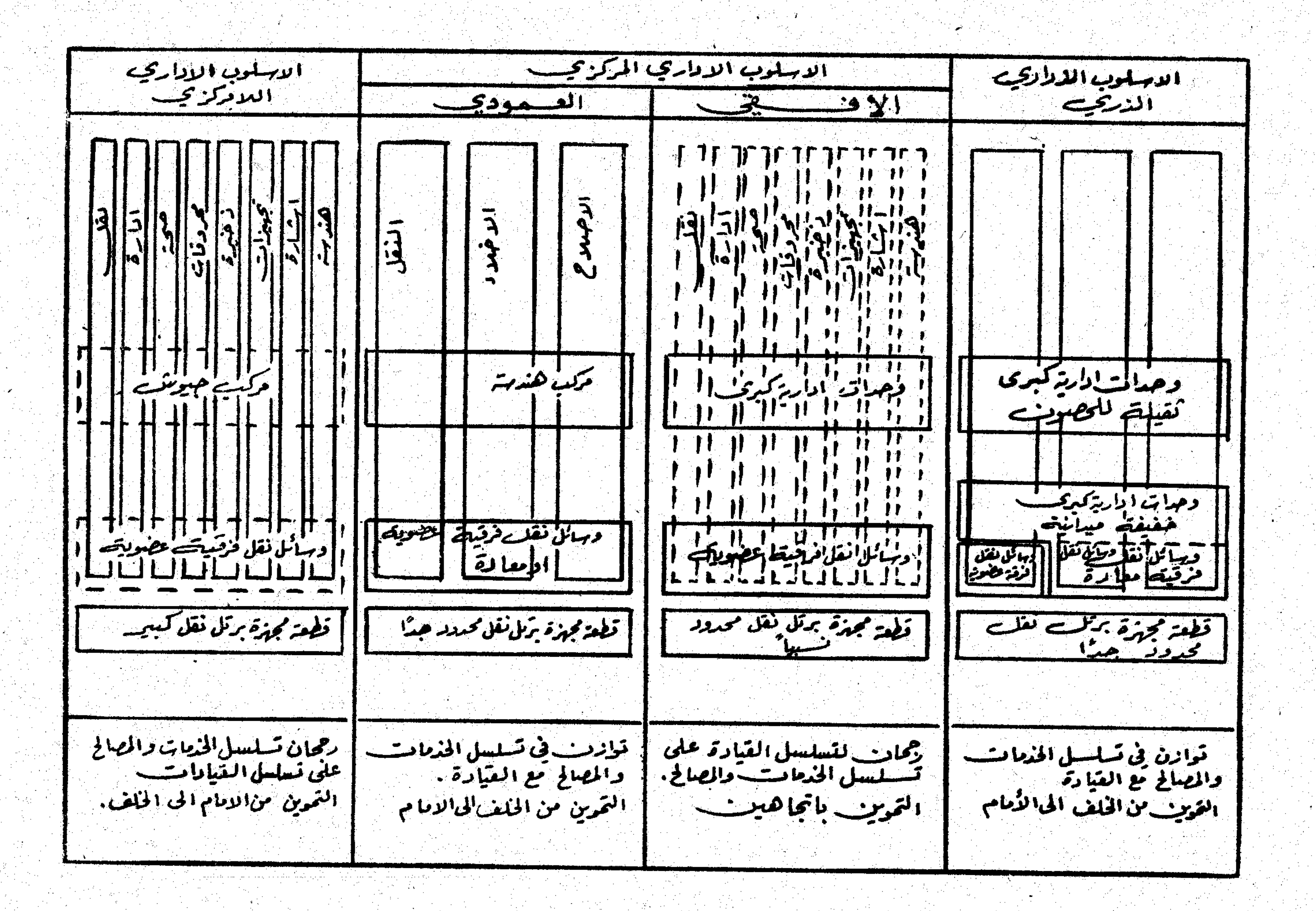
وتكون القطعات في الشكل الاول مزودة برتل نقل قليل جداً ، وتقوم « خدمة المؤخرات » بالدعم الفرقي نفسه حسب الحاجة . وتكون ارتال النقل في الشكل الثاني اكبر قليلاً ويبقى الدعم الفرقي عضوياً .

ومن الواضح ان التطور الاخير الذي اصاب الاشكال الادارية تحت تأثير متطلبات الحرب الذرية يميل الى دمج الشكلين العمودي والافقي داخل اطار الاسلوب المركزي .

والحقيقة اننا نتوقع في حقل المعركة الذرية ان يتم دفع القواعد الفرقية الى خلف مع القيام بحرب تتمتع بحركية فائقة . وفي هذه الحالة تكون القواعد الفرقية واقفة على مستوى ارتفاع وسائط الدعم الاداري المتقدمة للجيش ، ولا يمكن ان تقدم فائدة اكثر مما تقدمه

---

(١) المقصود بالمصالح القديمة : النقل و الادارة و الصحة و المحروقات و الذخيرة و التجهيزات و الاشارة و الهندسة .



الاسلوب الاداري الذري
وحدات ادارية كبرى ثقيلة للحصون
وحدات ادارية كبرى خفيفة ميدانية
وسائل نقل فرقية عضوية
وسائل نقل وسائل نقل فرقية مطارة
قطعة مجهزة برتل نقل محدود جدًا
توازن في تسلسل الخدمات والمصالح مع القيادة
التموين من الخلف الى الأمام
الاسلوب الاداري المركزي
الافقي
وحدات ادارية كبرى
وسائل انقل افرخيط عضوية
قطعة مجهزة برتل نقل محدود نسبيًا
رجحان لتسلسل القيادة على تسلسل الخدمات والمصالح.
التموين باتجاهين
العمودي
النقل
الاصلاح
مركب هندسة
وسائل نقل فرقية عضوية
الاعمارة
قطعة مجهزة برتل نقل محدود جدًا
توازن في تسلسل الخدمات والمصالح مع القيادة.
التموين من الخلف الى الامام
الاسلوب الاداري اللامركزي
نقل
اشارة
صحية
محروقات
ذخيرة
تجهيزات
اشارة
هندسة
مركب حيوش
وسائل نقل فرقية عضوية
قطعة مجهزة برتل نقل كبير
رجحان تسلسل الخدمات والمصالح على تسلسل القيادات
التموين من الامام الى الخلف.

هذه الوسائط . فاذا ما أدت طبيعة العمليات الى اجراء حركات كبيرة فان وسائط فرع الاعاشة والتنقلات تضطر للقيام بنشاط يتناسب مع نشاط العمليات ، اما وسائط فرع الفرز والاخلاء فانها تتطلب عندئذ قسطاً اكبر من الثبات ، على حين تكون وسائط فرع الاصلاح بحاجة الى ثبات لا يتلاءم ابداً مع سرعة الحركة والتنقل .

وينجم عن ذلك ان الوسائط الادارية الوحيدة التي يمكن ان تكون عضوية على المستوى الفرقي هي وسائط فرع الاعالة والتنقلات اما بقية الوسائط فلا يمكن ان تكون الا معارة من النسق الاعلى والا فانها قد لا تجد الوقت اللازم لعملها .

ويمكن اذن ان نتصور جهازاً افقياً « متمفصلاً » حسب الفروع الثلاثة الممثلة داخل « القطعات الادارية الكبرى الثقيلة للحصون الذرية » و « الوحدات الادارية الكبرى الخفيفة الميدانية » ، على ان تكون هذه الفروع قادرة عند الطلب على ان تفرز الى الفرق مفارز مؤهلة لتأمين الوظائف الادارية ، وخاصة الوظائف الادارية الثابتة ، شريطة ان تضم الفرق الى هذه المفارز وسائطها العضوية الخاصة بفرع الاعالة والتنقلات خلال فترة نشاطها المحلي . وفي حالة الحركة تجد الفرق في مكان آخر مفارز دعم مشابهة اخرى .

وفي هذه الحالة ، يبقى داخل القطعات وسائط حمل العتاد الاساسي ووسائط نقل صحية وادوات ذات قيمة تقنية عالية جداً ، ولكن حجمها ومدة استخدامها محددان بعملية التدخل التي لا تزيد مدتها عن ست ساعات على ابعد تقدير .

والحقيقة ان في هذا عودة عملية الى اسلوب يشابه الاسلوب الذي كان مستخدماً قبل عام ١٧٤٠ ، والذي كان يضم الحصون ومستودعاتها (القطعات الادارية الكبرى الثقيلة) وحصون المناورة (مفارز القطعات الادارية الكبرى الخفيفة) التي تبدل الفرق نحوها خط عملياتها حسب تحركها .

ويبقى علينا ان ندرس **تطور الايقاع وسرعة العمليات**. وهنا نلاحظ انه بالرغم من تزايد المدى الاداري الاقصى باستمرار ، فان الايقاع متبدل ، والسرعة شبه ثابتة .

ويتعلق المدى الاداري الاقصى بوسائط النقل وقدرة العدو على التدخل . ونحن نعرف حتى الآن ثلاث درجات من درجات المدى الاداري الاقصى ، وهي تختص بالنقل على ظهور الرواحل او بالسيارات او بالطائرات . ولا يزيد المدى الاداري الاقصى للقوافل التي تجرها الرواحل عن ١٢٠ كم اعتباراً من آخر مركز توزيع (مخازن ، مستودعات آخر محطات السكك الحديدية) . فاذا ما زادت المسافة عن ذلك ، أدى

تعب الرجال والرواحل وتزايد مدة التبديل الى انقاص المردود وجعله غير مجد . وهذه قاعدة معروفة منذ اقدم العصور ، ولقد اكدتها جميع المعارك ، وسلط شليفن عليهـا الاضواء من جديد عندما كان يدرس امكانية دعم القطعات الالمانية اعتباراً من آخر محطة للسكك الحديدية . ولقد اهتم لودندورف بهذا الامر عندما وضع خطته لحملة روسيا في ١٩١٤ ولاحظ ندرة السكك الحديدية في مسرح العمليات فوضع في الجناح الايمن لجيش الشرق ثلثي ما لديه من وسائط النقل التي تجرها الخيول . ومع هذا أثبتت التجربة فيما بعد بأن ذلك التدبير لم يكن كافياً .

ومنذ عام ١٨٧٠ اخذت السكك الحديدية تؤثر على سير العمليات بشكل واضح . وبقي الامر كذلك حتى استطاعت سيارات النقل ان تحل محل الحصان . ومن المعروف ان مولتكه درس في عام ١٨٦٩ معركة فرنسا المقبلة ، وتوقع مقاومة حصن ميتز ، فخطط بناء على ذلك لانشاء سكة حديدية تلتف من نوميني حتى بونآموسون ، ثم أنشئت هذه السكة وطولها ٣٠ كيلومتراً في الفترة الواقعة بين ١٤ اغسطس (آب) و ٢٣ سبتمبر (ايلول) ١٨٧٠ .... وكان للنقل اهمية بالغة خلال اتجاه الجيوش الالمانية نحو باريـــز .

ولم تفقد السكك الحديدية شيئاً من اهميتها مع ظهور قوافل سيارات النقل . ولكن المدى الاداري الاقصى تضاعف ثلاث مرات ، ووصل الى ٣٦٠ كم في حالة وجود تفوق جوي ملائم ، والى ١٠٠ – ١٦٠ كم في الحالة المعاكسة .

ثم قدم النقل الجوي قدرة رائعة على العمل ، ولكنها قدرة ذات طبيعة تجارية بحتة . ولم يصل مردود هذا النقل في احسن حالاته الى حجم قادر على ان يفرض وزنه وأهميته في العمليات الادارية لجيش كامل . ويرجع السبب في ذلك الى طبيعة الوسائط المستخدمة فيه ، وحدود قدراتها . ولقد كان المدى الاداري الاقصى لجسر برلين الجوي يتراوح بين ٢٥٠ – ٤٠٠ كم (متوسط ٣٥٠ كم) . وفي ربيع ١٩٤٩ وصل مردوده اليومي الاقصى الى ٢,٨٠٠,٠٠٠ طن كيلومتر[1] ، ثم رفع جسر المحيط الباسيفيكي المدى الاداري

---

(١) كان المردود اليومي المتوسط لكل طائرة ٧,٦٠٠ طن كيلومتر كما كان المردود اليومي الاقصى العام ٨,٠٠٠ كيلومتر .

ومما لا شك فيه ان امكانيات الجسور الجوية تميل الى التحسن مع تحسن امكانيات الوسائط المستخدمة . في عام ١٩٦٣ كانت عملية « Big Lift » تستهدف نقل فرقة من الاحتياطي العام تعدادها ١٤,٥٠٠ =

الاقصى الى ١٠,٠٠٠ كم مع مردود يومي يعادل ١,١٩٤,٠٠٠ طن كيلومتر ، وهذا رقم ضخم ، ولكنه يبدو صغيراً اذا ما عرفنا ان الفرقة الواحدة تتطلب خلال فترات الجهد في نهاية المدى الاقصى للطرق ما يعادل ٤٦٨,٠٠٠ طن كيلومتر يومياً . بيد أن التموين الجوي يحافظ مع ذلك على اهمية كبرى في حالات الاستهلاك المحدد (حالة المطاردة واستثمار النصر مثلاً) .

ومع تزايـــد الإداري الأقصى ، بقيت الوتيرة وسرعة العمليات بعيدتين عن متابعة هذا التقدم . ففي الجيوش التي لا تقبل التجزئة (قبل ١٧٦٠) كانت الوتيرة تتعلق بامكانيات المعركة التي كان بوسع كل جيش أن يتجنبها دائماً . وكانت السرعة تتعلق بقبول الخطر . وكانت الجيوش قادرة على التقدم باحتراس عبر مختلف الاراضي بأرتال قتالية اذا ما استدارت الى اليمين او اليسار شكلت خط المعركة ، ولكن تقدمها هذا كان منهكاً وبطيئاً . ولقد قامت الجيوش في حالات استثنائية بمسيرات مشابهة تعادل ٣٠ كم يومياً ، بيد ان مسيراتها الاعتيادية كانت بمعدل ١٢ كم يومياً ولمدة خمسة الى عشرة ايام كحد اقصى . ويذكر التاريخ العسكري ان خيالة كوندي اصيبت بانهاك كامل بعد مسير خمس مراحل صغيرة في جو ماطر .. فاذا لم يشأ الجيش التعرض لهذه المشقات كان عليه ان يخاطر بالسير على الطريق بارتال ، عندها تزداد سهولة السير وتصبح المرحلة ٢٥ — ٤٠ كم يوميـــاً وتستطيع القطعات السير ١٠ — ١٥ يوماً بصورة مستمرة .

ولقد آثر بعض القادة الحذر والامن على حين آثر « قادة المخاطرات » من امثـــال يوليوس قيصر وغاستون دوفوا السرعة . فلقد طارد يوليوس قيصر خصمه افرانيوس خلال ١٠ ايام وعلى مسافة ٣٦٠ كم قبل ان يحصره بين السيفر والإيبر . اما غاستون دوفوا فقد قطع ٢٠٠ كم وربح ثلاث معارك في ١٤ يوماً . ولقد استطاعت المشاة المقدونية من قبل ان تقطع مراحل طولها ٥٨ كم ، كما ان الخيالة المغولية المحررة من قيود شؤونهـــا الادارية كانت تتقدم عادة بمراحل تعادل ٧٠ كم يومياً .

= رجل من الولايات المتحدة الى برلين بدورة واحدة منسقة. وكان على الفرقة ان تجد في المانيا عتادها الثقيل جاهزاً وان تشترك به فوراً ضمن مناورة كبرى. ولقد تطلبت العملية ٢٤٠ طائرة من H. A. T. S. من اصل ٥٤٠ طائرة هي كل ما كان جاهزاً للاستخدام في الولايات المتحدة الامريكية . ثم قدر الخبراء آنذاك ان دخول الطائرة لوكهيد (حمولة ٣٥ طن او ١٥٤ رجل) في الخدمة اعتباراً من عام ١٩٦٥ سيجعل العملية بحاجة الى ١٠٠ طائرة فقط على حين ان استخدام الطائرة C × 4 القادرة على حمل ٨٠—٩٠ طن اعتباراً من عام ١٩٧٠ سينقص عدد الطائرات اللازمة للعملية بشكل ملحوظ .

وبعد أن أصبحت الجيوش قابلة للتجزئة وتحررت من معضلات التموين غدت السرعة قاعدة سائدة ، وغدا بوسع الجيوش اجراء المعركة في كل وقت . ولدينا في هذا الصدد امثلة متعددة .

— في ١٣ يناير (كانون ثاني) ١٧٩٧ قاتلت فرقة ماسينا في فيرون ثم قامت بمسيرة تعادل ٣٢ كم ليلاً تحت الثلج المنهمر لتقاتل في يوم ١٤ في ريفولي ، وفي يوم ١٥ قطعت ٧٠ كم خلال ٣٠ ساعة لتقاتل في يوم ١٦ في لافافوريت . وهكذا نراها تقطع ١٠٠ كم وتشتبك بثلاث معارك خلال اربعة ايام فقط .

— وفي فترة مقاربة لحركة ماسينا قطع اوجرو ١٠٠ كم في ٥٠ ساعة ، وقطع غودان ١١٢ كم في ٤٤ ساعة في محاولة للوصول الى الرقم القياسي الذي ضربه يوليوس قيصر . ثم قام اوجرو بعد ذلك بمسيرة طولها ٢٤٢ كم خلال سبعة ايام ، كما قطع ماسينا ٢٤٠ كم خلال ١٣ يوماً ، ثم اجتاز بعد استراحة قصيرة مسافة ٣٧٣ كم خلال ١٣ يوماً استراح خلالها يوماً واحداً . ويأتي برنادوت لينافس هؤلاء وذلك عندما قطع ٦٨٩ كم في ٢٣ يوماً (بمعدل ٣١ كم في اليوم) . ولكن دوبون دوليتانج سبق هؤلاء القادة جميعاً عندما قطع ٣٢٤ كم في تسعة ايام (٣٦ كم في اليوم كيوليوس قيصر) ثم قطع ١٣٠٠ كم في ٤٥ يوماً (٢٩ كم في اليوم) . حتى ان نابليون اطلق عليه لقب « افضل جنرالاتي » . ولكن حياته العسكرية انقطعت بشكل مبكر في ١٨٠٨ عندما حوصر في بايلين بعد اغارة عاصفة بقوات معادية تعادل اربعة اضعاف قواته فلم يستسلم الا بعد ان سقط مريضاً خائر القوى[1] . وفي هذا العصر كانت الحملات الصاعقة تستغرق ١٥ يوماً فقط (اولم — يينا) ولعل في سرعة مثل هؤلاء القادة تفسيراً لسر قصر مدة العمليات الصاعقة .

وعندما عادت القوافل الى وزنها القديم ، عادت الحرب الى سرعة عمليات كوندي في الفلاندر . ولقد تم السير باتجاه موسكو في عام ١٨١٢ بسرعة وسطية قدرها ١٢ كم يومياً ، لمسافة تعادل ١,٠٠٠ كم مع معركة واشتباكين هامين . وفي عام ١٨٧٠ سار الجيش الالماني من ١ الى ١٤ اغسطس (آب) مسافة قدرها ١٦٠ كم مع اجراء معركتين . ثم سار من ١٨ اغسطس (آب) الى ١ سبتمبر (ايلول) مسافة ١٢٠ كم بلا معارك . وفي عام ١٩١٤ قطع الجناح الايمن للجيش الالماني والذي كان يعادل لوحده ضعف جيش

---

(١) تمت كل هذه الحركات في حالة العمليات وداخل منطقتها، ولنذكر هنا ان دوبون دوليتانج انهى حياته العسكرية كوزير للحربية في عهد لويس الثامن عشر .

۱۸۷۰ – مسافة ۲٥۰ كم في الفترة الواقعة بين ۱۲ و ۲٥ اغسطس (آب) مع معركة دامت ۲ – ۳ ايام . ثم قطع ۲۰۰ كم واشتبك بمعارك لمدة يومين في الفترة الواقعة بين ۲٦ اغسطس (آب) و ۹ سبتمبر (ايلول) وهكذا لم يصل متوسط سرعة العمليات في اليوم الى ۱۸ كم بالرغم من الاستخدام الواسع لشبكة سكة حديدية متطورة جداً .

وعندما ظهرت الفرق المدرعة ، لم يتأثر الايقاع بشكل يتناسب مع الفرق بين سرعة جندي المشاة وسرعة الدبابة . ففي عام ۱۹٤۰ اجتازت فرق البانزر المسافة من الحدود الى السوم بمدة تقل عن مدة تقدم مشاة عام ۱۹۱٤ بثلاثة ايام فقط . وكان قطع مرحلة تزيد عن ٥۰ كم في اليوم امراً استثنائياً لا يتم الا عندما تتم الضربة في الفراغ وسط أرض خالية من الدفاع الجاد ، كالاستطلاع باتجاه مونتكورنيه في ۱٥ مايو (أيار) ووثبة ٥۰ كم باتجاه غيزه في ۱٦ مايو (ايار) . ولقد شاهد مسرح العمليات في شمال افريقيا حالات مطاردة واستثمار نصر وصلت السرعة المتوسطة فيها الى ٥۰ – ٦٥ كم في اليوم ، ذلك لان الصحراء لم تكن لتسمح الا بعمليات انسحاب واسعة النطاق ، ولان تقدم الالمان او الحلفاء كان ممونًا بامدادات تأتي من البحر ، بالاضافة الى ما يتم الاستيلاء عليه من مستودعات العدو .

ولكن الايقاع العام هو ما يميز الجيوش المدرعة والآلية عن جيوش المشاة الراجلة ، ذلك لان ايقاع تقدم المشاة يتناقص بسرعة وبشكل مستمر على حين يتزايد ايقاع تقدم المدرعات حتى يمر من النقطة القصوى . بيد أن كلا الايقاعين خاضعان لامكانيات التموين بالسكك الحديدية ، لذا فهما خاضعان بالتالي لخط محطات التوزيع النهائية .

ولقد نجح هجوم ماكينزن في عام ۱۹۱٥ بالتقدم مسافة ۲٤۰ كم خلال سبعة ايام مع اجراء ٤ عمليات خرق . ولكن الهجوم وصل الى نهاية اندفاعه عندما وجد نفسه على مسافة تزيد عن ۱۲۰ كم من محطات السكك الحديدية النهائية الصالحة للاستخدام . وكانت شبكة الطرق والمواصلات في منطقة التقدم سيئة لدرجة دفعت القيادة الى استبعاد فكرة دعم قوات ماكينزن في معركة فيلنا (اغسطس – سبتمبر ۱۹۱٥) .

ولقد اظهرت معركة فيلنا بكل وضوح تأثير السكك الحديدية على الاستراتيجية [انظر المخطط (ب) في الصفحة ۲٤۷] وكانت فكرة العمليات تقدم في ذلك الوقت صعوبات ادارية جمة بسبب طول المسافة الفاصلة بين نهايات الشبكات الحديدية الالمانية وبداية الشبكات الروسية . بالاضافة الى ان اتجاه الخطوط الحديدية لم يكن ملائماً في كافة الحالات لاتجاه العمليات المطلوب . ولقد كان الهدف الاساسي

للحملة تطويق الروس وتحقيق عمليات واسعة باتجاه الخطوط الحديدية الروسية الثلاث : دونابورغ — فارصوفيا وفيليسكا — سيدلس ومينسك — برست ليتوفسك ، بالاضافة الى السيطرة على خطوط المواصلات العرضانية للروس بغية تأمين كل تقدم متجه لضرب مجنبتهم . ولم يكن فالكنهاين يأمل الحصول على نتائج واسعة .

وبعد دراسة الحملة تم الاتفاق على محاولة الوصول الى خطين من الخطوط الحديدية الثلاث وذلك باختيار اتجاهين للخرق ينطلق اولهما من ناريف الواقعة الى الشمال الغربي من اوسترولينكا ويتجه باتجاه سيدلس مصادفاً في منطقة عمله ٣٠ فرقة روسية ، على حين يتجه الثاني من كوفنو الى مينسك ويشترك به ٥ فرق من الخيالة .

وكانت المسافة الفاصلة بين الشبكتين الحديديتين الالمانية والروسية في اوسترولينكا كبيرة وتشمل المثلث ملافا — كولنو — اوسترولينكا . اما في منطقة كوفنو فكانت المسافة الفاصلة بين اينستربورغ وكوفنو اقل اهمية ، بيد أن تدمير جسر ونفق كوفنو جاء ليزيد من تأثيرها وضررها .

وبدأ الهجوم نحو نهر ناريف في ١٣ يوليو (تموز) ، فقطع حتى ٥ اغسطس (آب) مسافة ٦٠ كم ، ثم قطع بعد ذلك ٤٥ كم في المدة الواقعة بين ٦ و ١١ أغسطس (آب) ومنذ ١٥ — ١٦ يوليو (تموز) اخذت صعوبات التموين بالذخيرة تبدو واضحة ، الامر الذي دفع القيادة الى بناء سكة حديدية ميدانية من ملافا حتى سيشانوف . ثم ضوعفت هذه السكة ومددت فيما بعد ، لذا امكن متابعة الهجوم في ١٨ يوليو (تموز) وتم عبور نهر ناريف في سبع نقاط .

وانطلق الهجوم باتجاه فيلنا في ٨ اغسطس (آب) وفي ١٨ سقطت كوفنو وتقدم الجناح الشمالي مسافة ٨٠ كم ، فوجد نفسه بذلك على بعد ٦٠ كم من آخر محطات السكك الحديدية البروسية بسبب التدمير الجزئي لنفق كوفنو والذي تم اصلاحه بسرعة ، وبسبب تدمير جسر كوفنو الذي لم يُعَد استخدامه الا في ٢٠ سبتمبر (ايلول) .

وتدفقت النجدات الى الطرفين ، ولكن نجدات الألمان كانت تجد صعوبات متزايدة يوماً بعد يوم . وحتى ٨ سبتمبر (ايلول) تقدمت خمس فرق مشاة على طرقات سيئة وتابعت فرق المشاة الاربع الخاصة بالجناح الشمالي هجومها حتى يوم ٢٥ . وقطع التقدم مسافة ١٤٠ كم ، ووصلت الخيالة الى فيليكا على الخط الحديدي الروسي الثاني ، ولكن المشاة والامدادات لم تستطع اللحاق بها الا في ٢٢ سبتمبر (أيلول) بعد ان تم

اصلاح السكة الحديدية الواصلة الى لاندفارفو الواقعة على مسافة ١٥ كم غرب فيلنا .

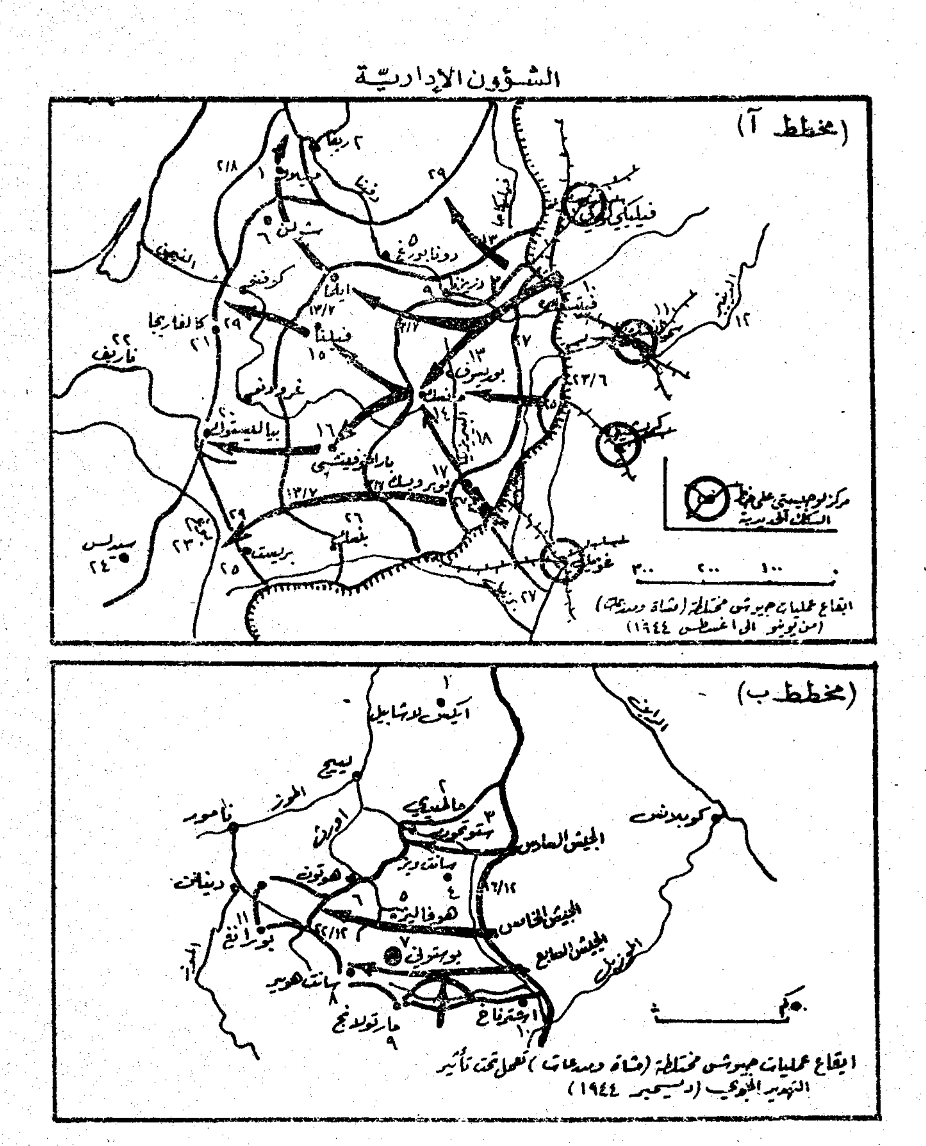
وعلى بعد ١٠٠ كم عن محطة السكك الحديدية النهائية توقفت الاعدادات لعمليات أخرى في العمق بسبب سوء النقل الحديدي وصعوبة النقل بالقوافل الّتي تجرها الخيول . وهنا بدأت القطعات تتمون من محصول البلاد الذي لم يلحقه الدمار ، وذلك كيما تكرس وسائط النقل كل جهودها للامداد بالعتاد . وتم الصمود بلا تقدم ، وتناقص عدد الجنود داخل السرايا حتّى اصبح تعداد كل سرية يتراوح بين ٥٠ و ٧٠ رجلاً ، وأنهكت الخيول بشكل واضح ، وأدى العجز عن زيادة ايقاع النقل وحجمه الى توقف الهجوم .

اما الهجمات في مسارح العمليات المجهزة جيداً بالطرق ــ كما هي الحالة في فرنسا ــ فقد توقفت ايضاً ، ولكن توقفها لم يكن ناجماً عن الضعف الا داري بل لان القوات المهاجمة كانت تتقدم سيراً على الاقدام حين كانت القوات الاحتياطية الدفاعية تنتقل الى مسرح العمليات بالسيارات . ولقد انطلق الهجوم على شومان دى دام بسرعة تعادل ٢٠ كم في اليوم ، ثم انخفضت السرعة بعد ثلاثة ايام الى ٧ ــ ٨ كم في اليوم الى ان توقف الهجوم كلياً بعد ٧ أيام .

ويدل جدول المقارنات التالي على ان سرعة انطلاق الجيوش الحديثة المدرعة في مرحلة الخرق قد تكون بطيئة نسبياً (٢ ــ ١٠ كم في اليوم) حسب درجة مقاومة العدو . ثم تأتي مرحلة المطاردة واستثمار النصر حتّى مسافة ٣٦٠ كم من مراكز التوزيع النهائية فتسمح بالوصول الى ايقاع اعلى من ايقاع تقدم المشاة في افضل حالاتها (أكثر من ٢٠ كم واقل من ٥٠ كم يومياً) . ثم تعود السرعة بعد ٣٦٠ كم الى ايقاع تقدم المشاة (أقل من ٢٠ كم يومياً) ولكن التقدم يتوقف تماماً بلا ريب بعد ٥٠٠ كم . ومما لا شك فيه أن مسارح العمليات المجهزة جيداً بالطرقات تقدم مردوداً افضل وايقاع هجوم اعلى .

المعركة	الخرق	استثمار النصر	التوقف	ملاحظات
الهجوم الالماني في شومان دي دام (مايو ويونيو) (ايار وحزيران) ١٩١٨ صفحة (٢٤٧ شكل د)	٢٧ مايو ٢٠ كم/ يوم	٢٨ – ٢٩ مايو ١٠ كم/ يوم	٣٠ مايو – ٢ يونيه ٧ كم/ يوم	كان مجموع التقدم خلال ٧ ايام وعلى محور الجهد الرئيسي ٦٠ كم. هناك اي تأثير اداري على ايقاع الهجوم ولكن الايقاع متناقص لاسباب تكتيكية.
الهجوم الالماني من نهر الموز الى المانش مايو (ايار) ١٩٤٠ مدرعات. (الشكل في الفصل التاسع والعشرين)	١٣ – ١٥ مايو ١٠ كم/ يوم	١٦ – ٢٠ مايو ٤٤ كم/ يوم	٢١ – ٢٧ مايو ١٤ كم/ يوم	كان مجموع التقدم بالنسبة للجناح الأيسر (فيلق البانزر ١٩) مسافة ٣٥٠ كم من محطات السكك الحديدية النهائية على الحدود الالمانية – البلجيكية وقواعد الانطلاق في سيدان. ولقد بدأ التوقف الادارى اعتباراً من آبفيل وهي على مسافة ٢٥٠ كم من قاعدة الانطلاق و ٣٦٠ كم من محطات السكك الحديدية النهائية.
الهجوم الروسي فيتبسك – اوغستوفو (يونيو – يوليو) (حزيران – تموز) ١٩٤٤. مدرعات (الشكل في الصفحة ٢٦٤)	٢٣ – ٢٧ يونيو ١٠ كم / يوم ٤ – ٩ يوليو ٢٠ كم/ يوم	٢٨ يونيه – ٣ يوليو ٣٩ كم / يوم	١٠ يوليو – ١ اغسطس ٧ كم/ يوم	كان مجموع التقدم ٥٠٠ كم، وكانت محطات السكك الحديدية النهائية على قاعدة الانطلاق ولقد بدأ التوقف الادارى على مسافة ٣٦٠ كم من المحطات النهائية المتجهة باتجاه فيلنا.
هجوم الفرقة المدرعة الاولى من آرل الى الفوج (اغسطس – سبتمبر) (آب – ايلول) ١٩٤٤ مدرعات	لا شيء	٧ اغسطس ١٨٠ كم/ يوم ١ – ٥ سبتمبر ٣٨ كم/ يوم	٦ – ١٣ سبتمبر ١٥ كم/ يوم	كان مجموع التقدم ٥٠٠ كم. وكان مركز التوزيع في افينيون. وبدأ التوقف الادارى قرب بون Beaun على مسافة ٣٦٠ كم من افينيون.
هجوم الفرقة المدرعة الثانية من الفوج حتى ستراسبورغ. نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٤٤ (الشكل في الصفحة ٢٤٧)	١٣ – ١٧ نوفمبر ٢ كم / يوم ١٨ – ١٩ نوفمبر ٦ كم / يوم	٢٠ – ٢٢ نوفمبر ١٥ – ٢٠ كم/يوم ٢٣ نوفمبر ٤٠ كم/ يوم	لا شيء	كان مجموع التقدم ١٢٠ كم. وهو تقدم غير كاف للوصول الى التوقف الادارى.

ملاحظة : لا يمكن أن تدوم أفضل الهجمات تموينا اكثر من ٣٠–٤٠ يوماً . وبعدها تتوقف الجيوش مدة ١٠–١٥ يوماً على الأقل حتى تقرب قواعدها الادارية



كل هذا يعني ان الابتعاد اكثر من ٣٦٠ كم عن قواعد التموين يجعل مردود قوافل السيارات غير كاف لتموين التقدم العادي للمدرعات ، لذا يضعف هذا التقدم ويتوقف حتى لو لم تجابهه مقاومة معادية جدية . ونحن نعرف ان مثل هذا التقدم يتطلب في الوقت نفسه تقديم القواعد الجوية لتستطيع الطائرات تقديم الدعم المباشر للقوات البرية .

وتصلح دراسة الامثلة المذكورة لاستخلاص نتائج خاصة بالهجمات التي يتمتع فيها المهاجم بتفوق جوي . اما في الحالة المعاكسة فان امكانيات التقدم تتضاءل بشكل واضح ، ويؤكد ذلك الهجوم المعاكس الالماني في الاردين عام ١٩٤٤ (انظر المخطط (ب) أعلاه).

كان خط انطلاق هذا الهجوم المعاكس يقع على الحدود الالمانية . ولقد تم حشد القطعات وتجميع أكداس التموين حتى نهر الرين بواسطة السكك الحديدية ، ثم استُخدمت الطرقات وراء الرين لهذا الغرض . وانطلق الهجوم يوم ١٦ ديسمبر (كانون أول) فقطع ٩٠ كم في الفترة الواقعة بين ١٦ – ٢٢ ديسمبر (كانون اول) ، وكان الجو الغائم يعيق حركة الطيران . ومنذ ٢٣ حتى ٢٧ يناير (كناون ثاني) تبدلت حالة الطقس ، وكان هناك فترات من الصحو وفترات من هطول الثلج الامر الذي سمح للطيران الامريكي بأن يلعب دوره ويستفيد من تفوقه . وفي ٢٢ ديسمبر (كانون أول) تقدم قلب الهجوم الالماني وجناحه الأيسر مسافة ٦٥ كم . ومن ٢٢ حتى ٢٥ ديسمبر (كانون أول) اندفع القلب مسافة ٢٥ كم على شكل سهم ، ثم توقف كل شيء ليبدأ التراجع الذي انتهى عند خطوط الانطلاق في ٢٧ يناير (كانون ثاني) .

وهكذا تم خنق الهجوم على مسافة ٩٠ كم من قاعدة الانطلاق و ١٩٠ كم من آخر محطات السكك الحديدية نظراً لتفوق الطيران الامريكي بشكل واضح . ولقد ادى تدخل الطيران الى تعثر التموين ونقص المحروقات والذخيرة نقصاً تاماً . وتدل سرعة انسحاب الالمان على ان تفوق الطيران المعادي يجعل الدعم الاداري مستحيلاً عندما يزيد بعد القطعات عن نهاية خطوط السكك الحديدية أكثر من ١٦٠ كم . وهكذا نجد انه بالرغم من استخدام السيارات فان هناك عودة الى المدى الاداري الأقصى لقوافل العربات التي تجرها الخيول . ويمكننا ان نفهم ذلك اذا تصورنا متاعب القوافل وخسائرها واضطرارها الى اجراء جميع التحركات ليلاً دون انارة عادية .

ولا تؤثر ظاهرة الانهاك الاداري على وتيرة التقدم فحسب و لكنها تؤثر ايضاً على خط المواصلات ، وكلما طال هذا الخط نقص عدد القوات المهاجمة . ولقد اضطر نابليون في عام ١٨١٢ ان ينقص جيشه كلما تقدم باتجاه موسكو ، اذ كان يفرز القطعات لحراسة خطوط المواصلات او لتأمين الشؤون الادارية . ويذكر يورك في دراسته « Napoleon als Feldherr » ان الامبراطور اجتاز النييمن في ٢٣ يونيو (حزيران) مع ٣٠٣,٠٠٠ رجل ، فوصل الى فيتبسك على مسافة ٤٠٠ كم في يوم ٢٥ يوليو (تموز) مع ٢٢٩,٠٠٠ رجل ، وفي ١٥ أغسطس (آب) وصل الى سمولنسك مع ١٨٥,٠٠٠ رجل بعد أن قطع ١٦٠ كم . ثم ترك سمولنسك في ١٩ اغسطس (آب) دون أن يأخذ معه سوى ١٣٤,٠٠٠ ، ووصل الى موسكو يوم ١٥ سبتمبر (أيلول) وليس معه الا ٩٣,٠٠٠ رجل . وهكذا ذاب ٦٩٪ من الجيش بعد ان قطع ٩٦٠ كم

دون معارك حاسمة تقريباً . ولقد تعرض مولتكه للامر نفسه عندما اتجه نحو باريز في عام ١٨٧٠ . لقد دخل الحملة ومعه ٥٠٠,٠٠٠ رجل ، ولكنه تابع مسيره بعد معركة سيدان مع ٢٠٠,٠٠٠ فقط . ويمكننا ان نفهم معركة ستالينغراد وتوقف الزحف الالماني في عام ١٩٤٣ اذا أخذنا بعين الاعتبار مسافة الالف كيلومتر التي كانت تفصل الجيش الالماني عن قواعده عبر بلاد معادية تتعرض مواصلاتها لهجمات الانصار المستمرة .

وهكذا نرى أن سرعة العمليات القصوى للجيوش لم تتبدل عبر العصور الا قليلا . ويمكننا أن نقول الامر نفسه ضمن بعض الحدود بالنسبة لحركتها الاستراتيجية . ولقد احتاج الجيش الكبير الذي يبلغ تعداده ١٠٠,٠٠٠ رجل لمائة يوم كيما ينتقل سيراً على الاقدام من بولوني الى أوسترليتز . كما أن نقل ١٦٥ فرقة ألمانية من فرنسا الى الجبهة الروسية في عام ١٩٤٢ استغرق ٤ شهور بالرغم من ان سرعة الانتقال الوسطية بالسكك الحديدية كان مشابهاً لسرعة انتقال الجيش الكبير . ولا يعود ذلك الى تأثير حجم القوافل ، ولكنه يرجع الى مدة دورات حركة قوافل السكك الحديدية بما في ذلك عمليات التحميل والانزال . وهذا هو السبب الحقيقي الذي يقلل من أهمية النقل الجوي للقوات المحاربة على مسافة تقل عن ٨٠٠ كم عندما نقارن مردوده مع مردود السكك الحديدية ضمن المدد المحددة .

وتتأثر توقعات المستقبل حول مصير الشؤون الادارية في الحرب الذرية المقبلة بفكرة تزايد القدرة التدميرية للاسلحة ، وارتباط ذلك بالاحتياطات المأخوذة لحماية تشكيل وانتشار الجيوش . كما تتأثر من جهة اخرى بالآفاق التي سيفتحها المردود الهائل للمحركات الذرية . وقد تؤدي الحرب الذرية الى انخفاض حجم الاستهلاك بالمحروقات والذخائر بشكل يجعل المدى الاداري الاقصى بلا حدود ، عندها تصبح المعركة باهظة التكاليف لدرجة تمنع شنها دون اخذ كافة الاحتياطات اللازمة .

وقد ينجم عن ذلك عودة الى نموذج الجيش الذي لا يقبل التجزئة وخاصة فيما يتعلق بندرة المعارك ، اما بالنسبة لأهمية الحصون فقد نعود الى نموذج الجيوش الفرقية ذات الا ستقلال الواسع والقدرة الكبيرة على التجمع من عدة نقاط واجراء المعارك السريعة الساحقة والتفرق بعد ذلك . وقد يكون التأثير اكبر لدرجة تعيد الجيوش — ان

لم تتلاءم بسرعة مع الوضع الجديد – الى النموذج الذي كان سائداً في عصر الاقطاع ، وعندها لا يبقى على قيد الحياة سوى الجيوش القديمة البدائية ، لان الاساليب الادارية التقليدية تغدو عاجزة عن اعالة الجيوش في ظروف الحرب الذرية .

بعد كل ما تقدم يمكننا ان نقول بأن صورة حديثة للاسلوب الاداري الذي استخدمه « الليجيون » الروماني منذ أمد بعيد تعود لترتسم من جديد ، رغم جميع مظاهر التقدم الواسع والتطور التقني الكبير .

الفصل الثاني والعشرون

تطورات الحرب عبر العصور

تسمح دراسة عناصر الحرب المتطورة باكتشاف نوعين من العوامل :

عوامل القدرة المطلقة المرتبطة بالتطور السياسي والتقني للحضارات ، ويتم تطورها عادة بصورة مستمرة .

العوامل العقائدية المرتبطة بمجموعة من القيم التكتيكية والاستراتيجية ، ويتم تطورها على مراحل نظراً لان تبدلات كل قيمة من القيم يبقى أقل اهمية من تبدلات علاقاتها داخل كل مجموعة .

وهنا لا بد من ان ندخل في الحساب التأثيرات السلبية الناجمة عن التمسك الجماعي بالتقاليد ، والتأثيرات الايجابية المنبثقة من العبقرية الفردية القادرة على استغلال اشكال وقدرات كانت كامنة خفية .

ولقد بحثنا اهم عوامل القدرة المطلقة في الفصل الثاني عشر (اطارات التطور السياسي — التقني) ورأينا كيف تحدد هذه العوامل سقف الجهود الحربية الممكنة ، وكيف يتعلق انطلاقها بشكل مرض مع الدفع المعنوي القادر على خلق الجهد ودعمه في حالة تضاؤله . ومن المعروف أن هذا الدفع المعنوي مستقل تمام الا ستقلال عن درجة الحضارة وسهولة العيش الناجمة عن المستوى الحضاري ، وهو ينبع من شعور كل فرد بعدالة النظام السياسي والاجتماعي الذي يعيش فيه . لان هذا الشعور يخلق التلاحم الداخلي ويدعمه .

- ويخضع تطور العوامل العقائدية المرحلي لشروط اربع مجموعات هي :

في استراتيجية العمليات : حرية العمل ومردود المعركة ـ استقلالية القطعات الكبرى ومجال الانتشار .

في التكتيك : التنظيم واستقلالية القطعات ـ التشكيل واستخدام الوسائط التقنية .

١ ـ مجموعة حرية العمل ومردود المعركة

تكون المعركة مجدية عندما يكون بوسعنا ابادة العدو بضربة واحدة وباقل ثمن ممكن . وكانت الجيوش التي لا تقبل التجزئة قادرة على تنفيذها بفضل الاشتباك جسماً لجسم ، نظراً لان المهزوم كان عاجزاً عن التملص بعد الهزيمة . اما الجيوش « المتمفصلة » فكانت تصل اليها بفضل المناورات الواسعة العميقة . وكانت نتائج معارك الجيوش الأولى مذبحة رهيبة ، اما نتائج معارك الجيوش الثانية فكانت استسلام العدو .

وتغدو المعركة غير مجدية عندما يستطيع الخصم ان ينسحب على هواه رغم هزيمته ، او عندما يتكبد المنتصر خسائر كبيرة لانتزاع النصر . وفي كلتا الحالتين يتم الوصول الى مميزات تكتيكية بحتة دون تحقيق الحسم النهائي ، لذا فان من المتعذر فيهما استثمار النصر .

وينجم العجز عن استثمار النصر من قدرة الخصم على التملص بفضل امكانياته الحركية العالية ، كما قد ينجم من سرعة تكتيكية هجومية أبطأ من سرعة تحرك القوات الاحتياطية المعادية ، او من عجز المهاجم عن تشكيل مفارز المطاردة نظراً لنقص التمفصل في وحداته ، او لضخامة الاخطار التي تتعرض لها مفارزه المنعزلة .

ولا يكفي ان تكون المعركة مجدية ، بل ينبغي ان تسمح طبيعة حرية العمل بفرضها ولا يغدو هذا ممكناً الا اذا كنا قادرين على مراقبة مجمل مسرح العمليات والسيطرة عليه . او اذا كان بوسعنا تأمين توافق التهديدات النفسية والادارية مع التدخل على خطوط المواصلات . وتستطيع الجيوش التي يسمح لها حجمها « وتمفصلها » تحقيق الشرط الاول بصورة اسهل من الجيوش الضخمة غير المتمفصلة . وهنا ينبغي أن ندخل في حسابنا التحصينات الموجودة وامكانيات الحماية والاختفاء التي تقدمها طبيعة الارض للعدو ، وقلة او انعدام الممتلكات التي ينبغي حمايتها .

ان تأثيرات هذه الأمور المتعددة تحافظ على شكلها دائماً مهما كانت طبيعة المؤثرات ونوع الوسائط والامكانيات المادية الموضوعة موضع العمل . ومن الملاحظ ان الاسباب تؤدي الى تبدل حجم الظاهرة دون ان تؤثر على طبيعتها .

آ – **عندما تسمح طبيعة حرية العمل بفرض المعركة على الخصم ،** او تجعلها على الاقل حتمية لا يمكن تحاشيها ، تظهر امامنا حالتان لا بد من دراستهما وهما : هل المعركة مجدية ام لا .

فعندما تكون المعركة حاسمة واستثمار النصر سهلا يظهر نوع من **الحروب الصاعقة** وهذه مزية من مزايا الجيوش المتمفصلة القابلة للتجزئة ، والقادرة على المناورة السريعة الواسعة . وقد تنجم هذه السهولة من العمل في مجال مناورة لا يكتظ بالجيوش ، كما قد تنجم من قدرة الجيوش على خلق مثل هذا المجال بعد خرق صفوف العدو والظهور على مؤخراته . وهذا هو في الحقيقة شكل الحملات الذي دفع الى ايجاد التمفصل الفرقي ، وظهور التشكيلات المختلطة (دبابات – طائرات انقضاض) . وفي مثل هذه الحملات نرى الاساليب المباشرة وغير المباشرة تتناسق بشكل جيد ، كما نرى خفة مصالح الشؤون الادارية وارتال النقل نظراً لقصر مدة الحملات .

وعندما تكون المعركة غير حاسمة ، ويبدو استثمار النصر صعباً او متعذراً ، فاننا نتوصل الى حروب الانهاك الطويلة التي تحتاج لتكاليف باهظة ، ومهمات ادارية كبيرة . ويسود الاسلوب المباشر في مثل هذه الحروب ، ولا يمكن التوصل فيها الى تقرب غير مباشر الا بفضل تركيبات استراتيجية على اعلى المستويات ، أو بفضل الابتعاد عن استخدام الاتجاهات التكتيكية الاجبارية . وهذا هو الشكل الذي تمت به الحرب العالمية الاولى .

ب – **عندما لا تسمح طبيعة حرية العمل بفرض المعركة كما نشاء فإن النتيجة** تصبح واحدة سواء كانت المعركة مجدية ام غير مجدية .

ولا يمكن ان تنجم مثل هذه المعركة الا بناء على اتفاق ضمني متبادل ، او بسبب المهارة في المناورة . ولا يغامر الطرفان المتجابهان بها الا بعد ان يضمن كل واحد منهما لنفسه الحد الأقصى من حظوظ النجاح . ويحاول كل منهما جاهداً التغلب على خصمه مع الحد الادنى من الاحتكاك . وهنا ندخل في نوع من **حروب التجوال** طويلة الاجل ، والتي تكثر فيها الحركة وتقل التكاليف الادارية وتسود فيها العمليات غير المباشرة .

وبهذا الشكل تمت الحملات قبل ظهور الفرقة . بيد ان هناك نوعاً من حروب التجوال كثير التكاليف مثل **الحروب الثورية غير المباشرة** .

جـ ــ **وتحمل هذه الانواع** الثلاثة من الحروب في داخلها عاملين قادرين على التأثير على حرية العمل ومردود المعركة بآن واحد وهما : **الخوف من الخسائر ، والقدرة الاستقلالية** .

ويتعلق الخوف من الخسائر بالاشخاص والعتاد ، وهو يرتبط قبل كل شيء بامكانيات التعويض . فمنذ موت شارلمان حتى احتلال الباستيل عرفت الجيوش أزمة في التعداد ، ولم تكن هذه الازمة معروفة قبل هذه الفترة او بعدها . ولقد كان وضع النظام الملكي القديم يتفق مع ضغط المصروفات والسلطة ، كما يتفق مع طبيعة المجتمع الذي يضم مجموعة من الحريات المحلية والاجتماعية والشخصية المعقدَة المتشابكة المتباينة بشكل يجعل استغلال المصادر البشرية لغايات حربية امراً بالغ الصعوبة . وكان تعداد الافراد في الجيوش محدداً بأجور العسكريين المحترفين ورغباتهم ، وكان من الصعب اقناع المواطن بأن واجبه يجبره على أن يقضي في الجيش عدة سنواتٍ من حياته بأجر زهيد لا يذكر . وبقي الأمر كذلك حتى جاءت الكوارث الحربية على مستوى أوروبي فبدلت هذا النوع من التفكير . لهذا كان جنرالات النظام الملكي القديم لا يكفون عن الشكوى من أصغر الخسارات وخاصة عندما يتعلق الامر بالقطعات المختارة . وعندما بلغ المارشال دوساكس نبأ خسارة ٦ رماة قنابل في معركة من معارك المخافر الامامية همهم قائلاً : « حبذا لو خسرنا بدلاً منهم ستة من الجنرالات المساعدين »[(١)] . ويقول دوكلوزن بهذا المعنى : « ان جنودنا ورماة القنابل في جيشنا كنوز ثمينة ، لذا ينبغي أن

---

(١) كان الاحتداد على المساعدين نتيجة من نتائج تنظيم الجيوش غير المتمفصلة التي لا تقبل التجزئة . ولم يكن الجنرال يتمتع بحق القيادة الا اذا كان قائداً اعلى ، وكان يستمد سلطته من براءة سنوية محددة بمهمة معينة : اى انها كانت تشبه العقد مع الدولة . وكان كل قائد لا يملك هذه البراءة محدداً بالقيادة التي يكلفه بها القائد العام . وبما ان الجيش كان يناور بكتلة واحدة متماسكة ، فان القائد العام لم يكن بحاجة الا لقادة القطعات . وكان الجنرالات المساعدون يعملون عادة كما يلي : يستلم الجنرال المساعد اليومي قيادة خط المعركة يساعده اثنان من زملائه على الاجنحة . اما بقية الجنرالات المساعدين فكانوا ياخذون قيادة الالوية بالتعاون مع قادة الالوية الاصليين . وكان وضع الجنرالات المساعدين الحساس يدفعهم في معظم الأحيان الى القيام بأعمال تنم عن شجاعة خارقة في غير محلها ، الامر الذي يزيد من تعقيد الموقف ، ويكون عبئاً على القائد العام .

نكون بخلاء بهم » . ولم تكن مثل هذه القناعات لتساعد على الاندفاع الى الـ... بلا خوف ، وبهذا كانت حرية العمل الداخلية محدودة جداً .

بيد ان المعضلة غيرت شكلها في وقتنا هذا ، لان لدينا غالباً عدداً من المقاتلين أكثر مما نستطيع تسليحه بشكل جيد . كما ان تجهيزات الجيوش وآلاتها الحربية تهم الدولة اكثر من دم المواطنين . وتدخل القدرة الصناعية لتلعب دورها في هذا الامر . ولقد احست البحرية الحربية بتأثير هذا التحديد القديم قبل أن تحس به الجيوش البرية ، ذلك لان البحرية تستخدم معدات قليلة قوية غالية يحتاج صنعها الى زمن طويل . فعندما ناور جيليكو في معركة جوتلاند (١٩١٦) ونشر اسطوله باتجاه يؤدي الى تخفيف الضغط الواقع على الاسطول الألماني ، ولكنه يؤمن في الوقت نفسه سلامة بوارجه برر الاميرال عمله قائلاً « لقد فكرت بأنني مسؤول عن الاسطول ومسؤول بالتالي عن الامبراطورية ». وما كان نيلسون او سوفرن ليتأثرا بمثل هذه الحجة في عصر المراكب الخشبية نظراً لانهما لم يستخدما مراكب ضخمة ذات ٢٠ ــ ٣٠ ألف طن ويتطلب صنعها مالاً كثيراً وعدداً كبيراً من السنوات . اما جنرالاتنا فكانوا لا يتوانون عن تأجيل المعركة اذا سمحت لهم الظروف بذلك . ولقد تصرفوا بهذا الشكل خلال « الحرب العجيبة » في ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ آملين أن يعطيهم الوقت تلاحماً أقوى داخل القطعات ، وتفوقاً مادياً ضرورياً .

وتتمتع القدرة الاستقلالية بأهمية كبرى في مجال حرية العمل . فهي التي تصنع شروط امكانية فرض المعركة ومردودها .

وترتبط سهولة المناورة بالتمفصل الذي يتعلق بالقدرة الاستقلالية التكتيكية والادارية للقطعات . وتتزايد الاستقلالية التكتيكية للقطعة اذا كانت تحتوي في داخلها وحدات من مختلف الصنوف ، وكانت تتمتع بقسط كبير من الحركية والقدرة على المقاومة . اما الاستقلالية الادارية فتتزايد مع تزايد الضعف التقني للقطعات ، ومردود المعركة ، ومرونة النقل ، ومركزية الدعم في الانساق العليا . وتحدد الاستقلالية شروط اتساع مجال الانتشار الاستراتيجي ، والتسلسل على أنساق ، « والتمفصل » التكتيكي حسب المهمات ، وسنرى تأثيراتها في دراسة المجموعة التالية .

٢ ــ مجموعة الاستقلالية ومجال الانتشار

عندما تكون استقلالية القطعات كبيرة فان التشكيلة تغدو قادرة على الانتشار دون التعرض للخطر ، كما تسيطر على مسرح العمليات بصورة اسهل ، وتتجاوب الى الحد الاقصى مع الحالات المفاجئة . ولكن الانتشار يبقى محدوداً بالفترات اللازمة لنقل معلومات الاستطلاع والاوامر التي تسمح بتحقيق تنسيق جيد للمناورات على الخطوط الداخلية والخارجية .

لذا فان لكل جيش من الجيوش مساحة مثلى للانتشار الاستراتيجي ، وهي مساحة ذات طبيعة جغرافية ونفسية . وعلى هذا الانتشار أن يتجنب القتال بمفارز دائمة ، اي غير معدة لان تكون مدعومة . ومن الضروري أن يؤمن الانتشار قدرة المفارز على الصمود وقتاً كافياً حتّى يأتي النسق الاعلى لدعمها ، او لتصفية جزء من تشكيلة العدو في وقت تعطل به المفرزة الصديقة قوات معادية أكبر منها .. فإذا كان العدو فعالاً مقداماً توجب على المفارز الصديقة ان تملك حقل قتال تراجعي عميق بشكل يسمح لها بان تكسب الوقت اللازم لمناورة الانساق الاكبر ، دون أن يؤدي هذا العمق الى عزلها نهائياً . اما اذا كان العدو بطيء الحركة متردداً فان بوسع التشكيلة ان تأخذ حجماً يزيد عن الحدود العادية المعروفة ، **ولكن هذا لا يعني الغاء الحدود العادية المعروفة .**

وتقدم معارك عام ١٧٩٦ (كاستيغليون) وعام ١٨١٣ (غورليتز وفورزن) وعام ١٨١٤ (فرنسا) وعام ١٨١٥ (بلجيكا) مثالاً حياً عن هذه المبادىء . ففي أيام نابليون كانت المساحة المثلى للانتشار الاستراتيجي تعادل ١٥٠ ــ ٢٠٠ كم ، فاذا ما نقصت عن ذلك أدى نقصانها الى زيادة قدرة المفارز على تنظيم عمليات التطويق والتجمع من اتجاهات مختلفة على هدف معين . أما اذا زادت عن الحد المعهود ، فان قلب الجيش يغدو عاجزاً عن الوصول في الوقت الملائم ، وتتعرض المفارز الصديقة للسحق من دون دعم . ولقد كان انتشار معركة غورليتز واسعاً جداً (٤٠٠ كم) أمام عدو كبير الفاعلية ، الأمر الذي أدى الى هزيمة مارشالات نابليون واحداً تلو الآخر في الأماكن التي لم يستطع الأمبراطور نجدتها . أما انتشار معركة فورزن وبلجيكا (أقل من ١٠٠ كم) فقد كان ضيقاً بشكل ملحوظ ، وكانت المفارز المتراصة وغير القادرة على المناورة وترك الأرض تطلب الدعم من كبد الجيش بصورة متناوبة دون أن تستطيع تنفيذ مهمتها في مشاغلة العدو . ويمكننا أن نقول بأن انتشار معركة فرنسا كان طبيعياً (٢٠٠

كم) . وكان كبد الجيش يأتي دائماً في الوقت المناسب ليساعد المفارز على الرد ، ولكن حجم هذا الكبد كان غير كاف ، واضطر الكبد الى اجراء مسيرات متعاكسة أنهكت قطعاته دون الوصول الى نتيجة حاسمة . ويمكن اعتبار انتشار معركة كاستيغليون ضيقاً جداً (٥٠ كم) ، ولكن أعداء بونابرت كانوا لا يتمتعون بأية فاعلية . وكانوا يقفون في مكانهم وكأنهم مسحورون بنشاط عدوهم ، لذا فقت تمت هزيمتهم بالتعاقب قبل أن يستطيعوا تنسيق جهودهم وتوجيهها نحو نقطة واحدة .

ولقد تزايدت امكانية الانتشار في أيامنا حتى بلغت ضعفي أو ثلاثة أضعاف إمكانية الانتشار الماضية . ويتعلق كل شيء هنا بحركية القطعات المستخدمة ، وشبكة المواصلات ، وميزان القوى الجوية المكلفة بمنع التحركات أو حمايتها . ولقد رأينا في الحروب المعاصرة جمهرات تكتيكية خفيفة جيدة التكوين تستطيع فرض الاشتباكات مع تفوق يعادل من ٥ الى ١٠ ضد واحد ، دون حساب التفوق الناجم عن الدعم الجوي . ويذكر ليدل هارت الجمهرات الألمانية المستخدمة في عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ على جبهتي روسيا والنورماندي، والتي سمحت لفرق البانزر بان تقاتل بفاعلية على جبهات عرضها ٣٥ كم أو أكثر . ولا شك أن المكننة ووسائط الاستطلاع والاشارة الحديثة ساعدت على القيام بمثل هذا العمل .

٣ ـ مجموعة التنظيم واستقلالية القطعات

قد تبقى القدرات الاستقلالية للقطعات كامنة ان لم يساعدها التنظيم أو لم يكن ملائماً . ولقد لاحظنا من قبل أن هذا التنظيم يتعلق بدرجتين من درجات الاستقلالية :

ـ **تحقيق التباعد داخل التشكيلة التكتيكية للوحدات الصغرى** مع قبول فراغات يمكن سدها بالنيران أوالمناورة. ولعل هذا الجهد الأول ناجم عن أصل نفسي ومعنوي ، فالخوف والأوهام الهندسية تضغط الرجال على حساب المردود . ويمكن أن يترجم جهد التحرر في التنظيم باختيار وحدة العمل بناء على قوة الخصم المحتمل .

ـ **تحقيق التباعد داخل التشكيلة التكتيكية العامة والانتشار الاستراتيجي** الذي يمكن التعبير عنه بخلق مجموعات تكتيكية من مختلف صنوف الأسلحة . ويمكن أن يجد أقصى مردود له في حالة شبيهة بالحالة البحرية ، حيث يحل مفهوم التخصص محل مفهوم السلاح ، وذلك باستخدام جمهرات تكتيكية عضوية (الويةمن مختلف صنوف الأسلحة) .

ولنذكر هنا أن الاختلاف بين القطعات الخفيفة والثقيلة للسلاح نفسه كان في التاريخ القديم يعادل الاختلاف الواقع حالياً بين قطعات صنوف الأسلحة المختلفة . ولقد كان في «الليجيون» الروماني خيالة قليلة ، ولكنه كان يعمل كجمهرة تكتيكية بفضل تنسيق عمل مشاته الخفيفة والثقيلة .

ويتولد اسلوب الانتشار بجمهرات تكتيكية من حاجات الأمن . ولقد خلقت روما « الليجيون » عندما أحست بأن عليها أن تحطم الطوق الذي أحاطها به أعداؤها من اللاتينيين والأيتروسك والغول القاطنين وراء الألب . لقد وجدت نفسها محصورة في موقع مركزي ومضطرة للمناورة في هذا الموقع ، وكان عليها أن تستخدم الجمهرة التكتيكية أو تفنى . ولا شك أن التشكيلات البيزنطية التي تلت « الليجيون » كانت تتلاءم مع ضرورة أمن الحدود ، وهنا ظهرت المناورات المتجهة نحو نقطة واحدة اعتباراً من شبكة التشكيلات . ولقد خلقت الفرقة الحديثة من ضرورات تأمين الحيطة بعد مدة طويلة من استخدام السلاح الذي يسمح بالاستقلالية المؤقتة للقطعات والمفارز . ولقد طالب مونتي كوكولي وفولارد بالجمهرة التكتيكية ،ولكنهما عجزا عن فرض أفكارهما نظراً لأن غريزة التجمع كانت تبدو وكأنها حل للصراع ضد الخوف ، ولأن الانسان كان بحاجة لخوف أكبر ليتخلص منها . ولقد ظهر ذلك في حملة بوهيميا — بافاريا (١٧٤١ — ١٧٤٩) اذ كانت القطعات الفرنسية محرومة من الدعم الاعتيادي الذي تقدمه الحصون ، وتشتبك مع جيش نمساوي — هنغاري يضم خيالة عنيفة كثيرة العدد ، فما كان منها الا أن بحثت عن الحيطة البسيطة العادية ، وبدون وعي أو تخطيط مسبق انتشر الجيش بمفارز صغيرة تضم مختلف الأسلحة ، وتغطي كبد القوات . وخلال السبع سنوات (١٧٤١ — ١٧٤٩) لجأ الجيش الى « التمفصل » بالفرق التي كانت تعمل كلها ضمن حدود المناورة العامة . ولقد حاول سان جرمان أن يضع على الحدود عدداً من فرق الحيطة ثم جاء كارنو فعمم هذا المبدأ . ولكن منذ ظهور فكرة مونتي كوكولي حتى مبادهة المارشال دوبروغلي في عام ١٧٥٩ مرت كما نرى ٦٠ عاماً ، كما مرت ٩٥ عاماً قبل ظهور نظام كارنو ، على حين ان السلاح الذي يسمح بالاستقلال دخل في الخدمة منذ عام ١٦٣٠ ، واكتشف مونتي كوكولي كل مزاياه وفضائله في عام ١٧٠٠ .

ومنذ ذلك الوقت بدأ تشكيل الجمهرات التكتيكية يدخل في جميع الأنساق حتى وصل في النهاية الى مستوى كتيبة المشاة المدعومة (جميهرة) وتميل الجيوش الى خلق

جميهرات عضوية بهذا الحجم نظراً لأن الكتيبة هي أصغر وحدة مقاتلة يمكن في داخلها تنظيم التعاون بسهولة بين مختلف صنوف الأسلحة . ولقد زادت التقنية سهولة الاستقلال زيادة واضحة ، كما أن التكتيك المبني على التشكيلات المتباعدة زاد من هذا الميل . ويعتبر تشكيل الجمهرات وتباعدها قبل المعركة ضرورة من ضرورات الأمن والحيطة خلال التعبئة والتجمع ، إذ أنه لم يعد بوسعنا أن نعرض للدمار قطعات عسكرية ضخمة مجمعة الا في حالات خاصة جداً . ومن المحتمل أن تجعل ظروف المعركة المقبلة عملية تشكيل الجمهرات التكتيكية المتوازنة عند الطلب متعذرة . لأن متطلبات الأمن في الحرب الذرية كبيرة لدرجة تجعل من الصعب اجراء كل ما لا يكون بسيطاً سريع التنفيذ . ومن غير المفيد البحث عن تشكيل جمهرات تكتيكية منوعة حسب الطلب ، ولكن من الممكن أن يدفعنا الخطر الذري الى أن نعود لرابع مرة في تاريخ الحروب الى لحظة من لحظات التنظيم المشابه للتنظيم البحري .

٤ ـ مجموعة التشكيلة واستخدام الوسائط التقنية

لقد أظهر لنا تطور التشكيلات أنها كانت على ارتباط وثيق مع استخدام وسائط الرمي والصدمة والحركة . ويبقى اختيار النظام الأفضل من أجل المردود مرتبطاً بعاملين آخرين هما :

ـ قدرة وسائط الاشارة في مختلف الأنساق .

ـ القدرة على الحركة تحت الرمي .

وتتطلب القيادة بالصوت أو بواسطة السعاة نوعاً من التقارب ، ولكن استخدام الراديو حتى في أصغر الأنساق يسمح بأكبر سيولة ممكنة للأوامر والتعليمات والمعلومات.

والانقضاض بالخيالة على خط من رماة البنادق الذين يطلقون النار من مسافة ٢٠٠ م وبمعدل نصف طلقة في الدقيقة لا يقدم سوى صعوبة معنوية قليلة خاصة اذا كان الفرسان المهاجمون يرتدون دروعاً خفيفة فعالة . ولكن تكرار هذه العملية تحت نار رشاشات ترمي من مسافة ٦٠٠ م بغزارة تعادل ١٠٠ طلقة في الدقيقة عبارة عن جنون مطبق . ويمكننا حتى الآن الانقضاض رغم وجود مدفعية ثقيلة مضادة قادرة على اطلاق النار من مسافة ٨٠٠ ـ ١٠٠٠ م وبغزارة تعادل ٢ ـ ٤ قذائف في الدقيقة . ان كل هذه العلاقات تؤثر بلا شك على تباعد التشكيلات واستخدام الأرض .

وبالاضافة الى المتطلبات المطلقة التي تؤثر على التشكيلات فان هذه التشكيلات تتأثر أحياناً بمهارة التكتيكيين الذين يكون تفكيرهم أعلى من المتوسط أو أقل منه بشكل معقول لا يكاد يذكر . ثم يأتي قائد متفوق ليستخدم قدرات كانت حتى ذلك الحين كامنة خفية (تنسيق التعاون بين القطعات الثقيلة والخفيفة في التاريخ القديم ـ النظام المائل ـ التشكيلات المغلقة) . وفي مثل هذه الحالات لا يجد التكتيك نفسه خاضعاً للتقنية بشكل مطلق .

وهكذا نرى أن التطور المستمر لعوامل القوة المطلقة لا يمكن أن يؤدي الى تطور مماثل داخل المجموعات المركبة ، ومن هنا يأتي التكرار والعودة والدورية في سير الأساليب . ويتعلق التطور بعلاقات تقنية لا تنكر كتعلقه بتعديلات التنظيم ، وتشكل عبقرية القادة فيه معطيات نفسية وتقنية مع الهام الخيال الخلاق ، لذا يمكن اعتبار الحرب من بعض النواحي علماً كما يمكن اعتبارها في النواحي الأخرى فناً من الفنون .

* * *

I

الجزء الرابع

المراحل الكبرى للتاريخ العسكري

« ما التكتيكيون سوى قطيع من الاغنام، انهم لا يعرفون الا نوعاً واحداً من القتال » .

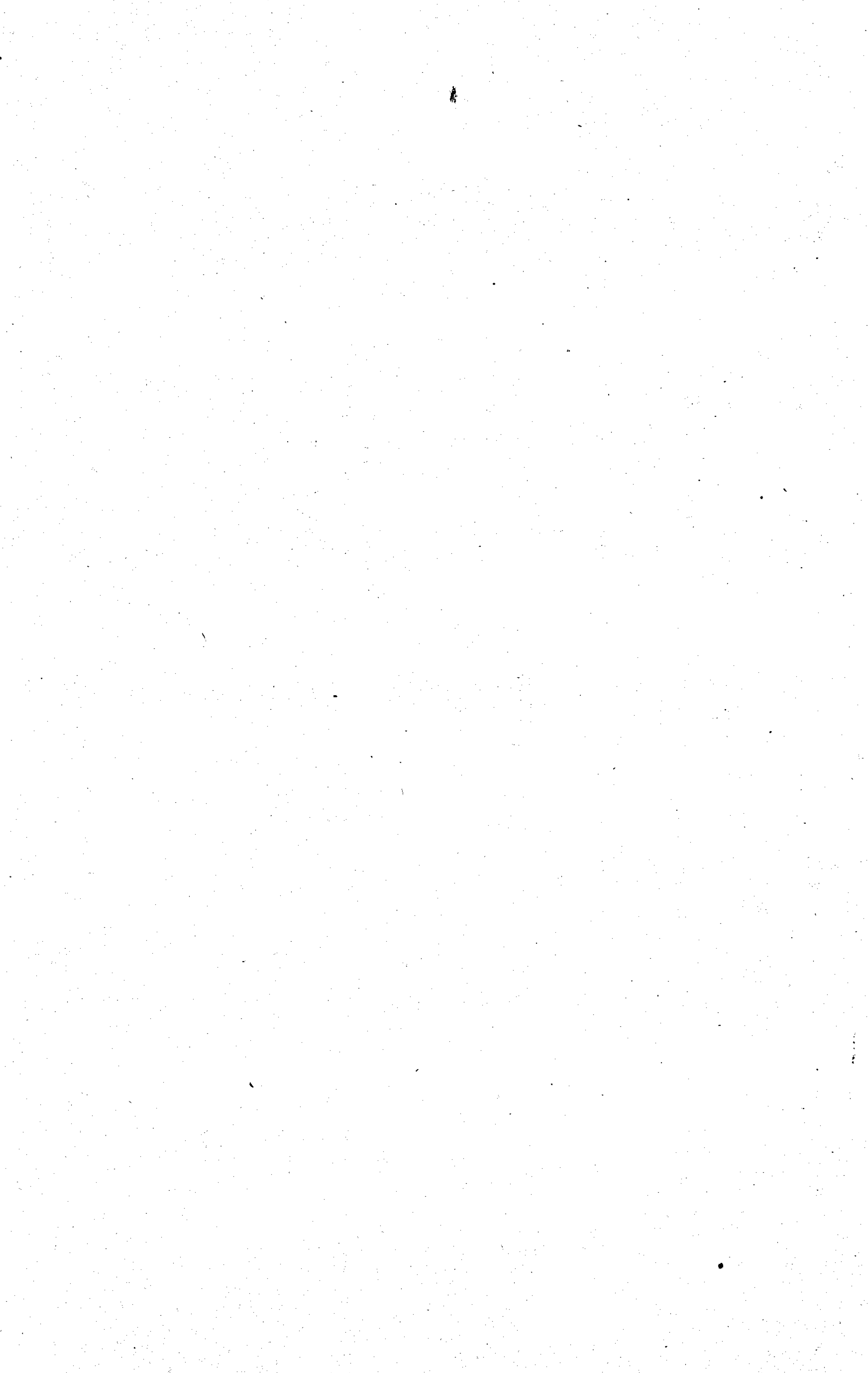
شارل دوفولارد .

« هل تحطم النابض ؟ ان علينا ان نتخيل شيئاً يعيده الى وضعه الاصلي... لقد توقفت الموسيقى عن العزف ، ذلك لاننا ألفناها كثيراً . وعلينا ان نبدأ بلحن جديد » .

المارشال فوش .

« على القائد الحقيقي ان يحترس من الوهم لا من الخيال ، شريطة ان يعرف كيف يمسك بزمام هذا الفرس الجامح . ان قائداً بلا خيال لا يجد ما يعمله في الحالات اليائسة ، وهذا ما يقدم الدليل على انه لا يتمتع بصفات القائد . ان الخيال الخلاق العملي عبارة عن عمل مثمر ينبغي ان نفرقه عن الوهم . واذا استخدم الخيال بعض الأنظمة والمبادىء أمكنه أن يخلق أفكاراً جيدة يبقى على الارادة أن تقلبها الى أفعال ».

الجنرال كليمان ــ غرانكور .



الفصل الثالث والعشرون

عصور وفترات التاريخ العسكري

لقد أثرت التطورات السياسية ــ التقنية المذكورة في الفصل ١٢ بلا شك تأثيراً كبيراً في تحديد مراحل التاريخ العسكري . ونحن نعرف ان هذه التطورات لا تمثل كل شيء . فقد يكون لدينا الوسائط والعدد والعدة نفسها ونستخدمها بأشكال متباينة تبايناً كلياً . كما ان تعدد التركيبات الممكنة داخل المجموعات الرئيسية الاربع للاستراتيجية والتكتيك تفرض شروطاً عديدة قوية تؤثر على ميول الحضارة والجغرافيا والمنظرين والقادة وتحددها .

وعلينا هنا ان نجد مراحل العقيدة ، وان نبحث عن التنظيم الذي يترجمها عبر التاريخ العسكري ، دون ان نعود الى المحصلة التحليلية المذكورة في الفصول السابقة . لذا فاننا نقبل التقسيم الذي تبنيناه في الفصل الثاني عشر وهو كما يلي:

١ ــ عهد امبراطوريات وممالك الحكم الديني الشرقية منذ البداية حتى التوسع الفارسي (من ٣٠٠٠ ق.م. حتى ٥٠٠ ق.م.) .

أ ــ النظام الشرقي .

ب ــ النظام الغربي .

٢ ــ عهد توسع المدن الغربية منذ ظهور الامبراطورية الفارسية حتى سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية (من ٥٠٠ ق.م. حتى ٥٠٠ م) .

أ ــ تجابه النظامين الشرقي والغربي (من ٥٠٠ ق.م. حتى ٤٥ ق.م.)

ب ــ النظام الغربي وخيالة الرمي (من ٤٥ ق.م. حتّى ٥٠٠ م) .

٣ ــ عهد الممالك الانتخابية او ذات السلطات المراقبة في الغرب . من سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية حتّى سقوط الامبراطورية البيزنطية (من ٥٠٠ حتّى ١٥٠٠)

أ ــ فترة الأسلحة البيضاء (من ٥٠٠ حتى ١٤٠٠) .

ب ــ ظهور الأسلحة النارية (من ١٤٠٠ حتّى ١٥٠٠) .

٤ ــ عهد الممالك ذات الحكم المطلق في الغرب من سقوط الامبراطورية البيزنطية حتّى الامبراطورية الفرنسية الاولى (من ١٥٠٠ حتّى ١٨٠٠) .

٥ ــ عهد الديموقراطيات والديكتاتوريات الحديثة .

أ ــ انهيار النظام المتمفصل والمفتوح . (من ١٨٠٠ حتّى ١٩٠٠) .

ب ــ الجيوش التقنية .

جـ ــ النظام الذري .

وسنهتّم خلال مراحل هذه الدراسة اهتماماً خاصاً بالمبدأين الرئيسيين الأساسيين للحرب وهما : الحيطة والاقتصاد بالقوى .

الفصل الرابع والعشرون

من الامبراطورية المصرية بداية الامبراطورية الفارسية (من ٣٠٠٠ ق.م حتى ٥٠٠ ق.م)

«وعندما التفت الملك وجد نفسه محاطاً بـ ٢,٥٠٠ عربة قتال ، كما وجد خط تراجعه مقطوعاً بعدد كبير من المقاتلين من البلاد المعادية ، ومن بلاد متحالفة معها وكانت جميع عربات القتال مجمعة وتحمل كل واحدة منها ثلاثة رجال »

معبد ابي سمبل

لقد تطورت الانظمة العسكرية الشرقية والغربية أساساً بشكل شبه مستقل عن بعضها البعض . وكانت متأثرة بشكل واضح بأوساط جغرافية تحدد شروط التجهيز والتحصين والعقيدة الحربية .

ومن المعروف ان آسيا الصغرى والشرق الادنى ومصر بلاد جافة يغلب عليها الجو الحار ، وتسود فيها الصحارى والسهول والجبال القاحلة التي فرضت على شعوب هذه المناطق حضارة الاقوام الرُحّل . اما حضارة المدن الثابتة فترتبط فيها بمحاور نادرة طويلة وضيقة ولكنها حيوية (وادي النيل ، الهلال الخصيب في الشرق الادنى وسوريا وفلسطين ، مجاري الانهار في جبال طوروس .. الخ)

اما الطبيعة التي تطورت فيها المدن الاغريقية والرومانية القديمة فكانت على العكس تتمتع بجو اكثر اعتدالاً ، ويلائم الحضارة الثابتة بشكل اكبر . وتتصف الارض في مناطق المدن الاغريقية والرومانية بأنها جبلية متنوعة ، تتمركز ثرواتها وبقاعها الغنية في السهول الصغيرة الساحلية واحواض الانهار التي تبدو صغيرة متناثرة داخل السلاسل الجبلية . انها بلاد متقطعة ومغطاة نسبياً . ولقد قال بوليب عنها : « لذا كان ايجاد مسافة تعادل ٢٠ ستاداً (٣,٢٥٠ م) على الاقل ، خالية من اي ارتفاع او هضبة عبارة عن امر نادر ان لم يكن شبه مستحيل . »

ولقد أدت هذه الاختلافات الطبيعية الى نتائج عسكرية متعددة هي :

ظهرت في بلاد الشرق الادنى جيوش لا يتمتع افرادها الا بحماية خفيفة (بسبب الطقس الحار) . ولقد اعطت هذه الجيوش اهمية لرمايات الاقواس الصغيرة (لان الحماية الخفيفة تجعل ذلك الرمي فعالاً) كما اهتمت بالحركة (نظراً لانتشار تربية المواشي وتفوقها على الزراعة) الامر الذي ادى الى ظهور قطعات يمتطي افرادها عربات القتال او الجياد او الجمال .

واعطى الشكل الجغرافي العام اهمية استراتيجية خاصة للنقاط المسيطرة على الممرات الاجبارية التي تصل محوراً حيوياً بمحور حيوي آخر .

ولقد كانت كركميش مثلاً على نقاط التقاء محاور آسيا الصغرى ونهر العاصي ونهري دجلة والفرات . اما رافيا وبيلوس فقد كانتا تحرسان ابواب مصر ، كما كانت سوز تحرس ابواب بلاد الفرس . وتدلنا دراسة التاريخ كيف كانت هذه النقاط وخاصة كركميش اماكن تقليدية للمعارك .

وبالرغم من الاهمية التي كان بوسع المواقع المحصنة الاستراتيجية تقديمها في بلاد ذات محاور اجبارية وعتبات حتمية فان الجهاز الطبيعي المؤلف من مدن محصنة متعاقبة على المحاور بدا خلال فترة طويلة من الزمن كافياً . بيد أن الامبراطوريات لم تكتف به في اوج عظمتها ، فها هي مصر تحمي محور النيل بسلسلة من الحصون ممتدة من بيلوس الى البحر الاحمر ، كما ان نبوخذنصر حمى سهل الفرات بجدار متصل من الحصون ، وجمع الفرس نظام الطرق الامبراطورية والقلاع المتعاقبة . وكان أشهر محاورهم « الطريق الملكي » الممتد من ساردس الى السويس . وسببت اهمية المواقع وازدياد استخدامها ظهور اول قطعات المهندسين التي بدأت منذ ذلك الحين تأخذ شكلاً قوياً فعالاً .

واعطت **اليونان وروما** على العكس اهمية اكبر للمشاة الثقيلة المحمية جيداً (بلاد متقطعة ، عدم انتشار تربية الخيول ، جو معتدل) وقادرة على الصدمة (الحماية تتغلب على تأثيرات القوس القصير) دون الاعتماد على الرمي . وبقي القوس اداة رمزية تحملها الالهة مثل ديانا او الابطال مثل هرقل دون ان يكون لهذه الاداة اي استخدام حربي تقريباً .

وكانت السياسة تتمتع بصفة محلية لدرجة لا تسمح بظهور جهاز حقيقي كبير من التحصينات وبقيت الامور محصورة ضمن نطاق التحصينات الطبيعية . ولكن الاستيلاء على مثل هذه التحصينات رغم بدائيتها كان عملية صعبة طويلة الامد نظراً لان المدن كانت تحكم السهول الصغيرة اذ تسيطر على مفاتيح ممراتها ، كما ان الجيوش الغربية كانت تفتقر الى وسائط الحصار اللازمة . ولقد احتاجت اسبارطة ثمانين سنة كيما تستطيع احتلال ماسينا في القرن الثامن قبل الميلاد .

واستناداً الى هذه الصفات الاساسية تشكل النظامان الحربيان الشرقي والغربي

١) النظام الشرقي :

منذ العصر الامبراطوري المصري القديم (٢٧٧٨ ق.م. حتى ٢١٦٠ ق.م) نلاحظ وجود ثلاثة اسلحة اساسية هي : المشاة ، وعربات القتال أو الخيالة ، وهندسة الحصار والجسور . ولقد تطور تقسيم الاسلحة في كل الجيوش الى قطعات خفيفة واخرى ثقيلة تتباين بنوع الحماية المؤمنة للافراد ، ونوع السلاح الذي يحملونه ، والمهمات التي يكلفون بتنفيذها . وتكون القطعات الخفيفة عادة قليلة الحماية او دون ادنى حماية على الاطلاق (الا في سلاح عربات القتال) وهي مجهزة للاشتراك في المعركة بواسطة الرمي او القتال الطائر ، اما القطعات الثقيلة فهي محمية بشكل افضل ومسلحة للقيام بالصدمة . ومن الملاحظ أن الخيالة وعربات القتال لم تأخذ في هذا العصر مهمة القيام بالصدمة ، كما أن الحماية تزايدت لدى سكان ما بين النهرين وبلاد الفرس حتى سببت تفوق جيوش هذه البلاد على المصريين .

ومنذ ذلك العصر ظهرت معضلة تنسيق عمل وسائط الرمي مع وسائط الصدمة . لقد كان التسليح المختلط نادراً في صفوف المشاة ، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى جنود الحرس الفارسي الذين كانوا يحملون بشكل غير مريح ترساً ورمحاً وقوساً وخنجراً وسيفاً . اما الخيالة وعربات القتال ، فقد كان بوسعها ان تحمل اسلحة متنوعة بكل

سهولة ، ولكنها آثرت تقليد المشاة ، وبقي الرمي وسيلتها القتالية الوحيدة .

وكانت تكاليف صناعة عربات القتال لا تسمح للجيوش بزيادة تعدادها الى أكثر من ثمن $\frac{١}{٨}$ التعداد الكلي . بيد ان تطور الخيالة جعلها تشغل في بعض الجيوش ثلث التعداد العام . وفي عام ٩٢٥ ق.م. كان جيش اشورنازيرابال يضم ٣٠,٠٠٠ رجل من المشاة و ١٢,٠٠٠ خيال و ٣,٢٠٠ عربة قتال . وفي عام ١٢٦٠ ق.م. زج فرعون مصر ضد الحثيين ٢٠,٠٠٠ رجل من المشاة و ٣,٠٠٠ عربة قتال « متمفصلة » داخل ٤ قطعات . ورغم كبر تعداد القوات فان جيوش بلاد الشرق كانت تجهل الاستخدام المنهجي للوحدة الكبيرة المختلطة العضوية . ولقد كان لدى المصريين والفرس « فرق » من سلاح واحد يصل تعدادها في بعض الاحايين الى ٣٠,٠٠٠ — ٦٠,٠٠٠ رجل .. وللقيام بالهجمات البعيدة ، شكلت الجيوش الاشورية جمهرات تكتيكية موقتة تتألف من الخيالة التي تحمل خلفها كرديف جنود المشاة الخفيفة .

بيد أن تطور الامبراطوريات المصريـــة والآشورية والفارسية وتنافسها على الشرق الادنى فرض على هذه الامبراطوريات سياسة حربية واستراتيجية ذات اشكال شبه معاصرة ، اذ نشاهد فيها ظهور الاهداف الاقتصادية والمواقع الجغرافية السياسية . وأخذت مصر المحرومة من المصادر الطبيعية تقريباً تنظر بشغف الى مناجم سيناء وذهب السودان وغابات البلاد الفينيقية . وتقاتلت جميع الجيوش على محور ماغيدو — كادش — كركميش ، وهو العمود الفقري الحقيقي لهذه المناطق ، وكان الحساب الاستراتيجي يهتم بتحديد وتصنيف الخصوم المتعاقبين داخل مخطط توسعي ، فبعد ان سيطر سيروس على بلاد ميديا اخذ يتصور التوسع الفارسي ويخطط له ، فاختار كريسوس وهو اقوى خصومه ليكون اول من يجابههم ، وما أن هزم هذا الخصم حتى اندفع إلى الشمال (باكتريان وسوغديان) ، ثم انطلق الى الغرب (فلسطين وبلاد الكلدانيين) ، ليعود بعد ذلك مرة اخرى الى الشمال (شعب السيت وجنوب روسيا) . ولا شك ان قمبيز قام بالحسابات نفسها للوصول الى حدود الهند وبلاد التراس ومصر . ولقد كانت وحدة مسرح العمليات في هذا العصر مبدأ لا يقبل النقض لان الجيش اداة رئيس البلاد وحده ولان انعدام الوحدات الكبرى المختلطة لا يساعد على توزيع القوى على عدة مسارح .

وكانت المفاجأة الاستراتيجية آنذاك وسيلة معروفة . الا انه كان من الصعب تحقيقها نظراً لان التضاريس والحواجز الجغرافية تجبر الجيوش على القيام بتقرب مباشر عبر المسالك المعهودة المحروسة بالقلاع . وكان على القادة الاستفادة من دراسة عادات

الخصم لاخذه وهو في حالة عدم الاحتراس . وبهذا الشكل رأينا سيروس يضطر بعد حملة صيفية فاشلة ضد كريسوس الى القيام بهجوم غير متوقع في قلب الشتاء مخالفاً بذلك العادات المتبعة آنذاك ، الامر الذي فاجأ الخصم وحصره داخل ساردس .

وبالرغم من ضخامة كتلة الجيوش وضعف « تمفصلها » فقد كان فرض المعركة آنذاك سهلاً نظراً لان كلا الجيشين يعملان على المحاور نفسها ولا يمكنهما الابتعاد عن بعضهما الا بالتراجع . ولهذا السبب لم تدم بعض الحملات اكثر من بضعة اشهر

ومع هذا فقد ظهرت منذ القرن السادس قبل الميلاد بدايات تأثيرات الاستراتيجية غير المباشرة . فلقد حاول سيروس وداريوس عبثاً اخضاع شعب السيت ، وهو شعب من البدو الرُحّل الذين لا تتجاوز مؤسساتهم السياسية والعسكرية مستوى القبيلة . وكان سبب فشل الحملات ضد هؤلاء الخيالة النبّالة الذين لا يتمتعون بأية حماية يرجع الى انهم كانوا يتملصون دائماً باتجاه نهر الدانوب او نهرَ الدون دون أن يتوقفوا عن ازعاج الجيش الفارسي . ولقد توفي سيروس خلال احدى مطارداته العقيمة ، وعادت قطعات داريوس منهكة مبعثرة بلا نظام بعد ان هُزمت دون ان تشتبك بأية معركة .

وتأخذ الحيطة على المستوى التكتيكي اهمية كبرى ، ولكننا نعرف ان الاحتياطات المأخوذة تبلغ عند الوقوف مستوى افضل من مستواها في حالة المسير . وكان الفرس آنذاك يستخدمون في حالة الوقوف جهازاً من المخافر الامامية يضم انساقاً لمراقبة واخرى للمقاومة . وعندما اقتحم الاسكندر سوسيان فيما بعد كان عليه ان يلتف حول جهاز من هذا النوع . اما في حالة المسير فكانوا يعتمدون في تأمين الحيطة على كثافة وكتلة الجيش بالرغم من الاخطار الناجمة عن عمل القطعات الخفيفة المعادية (خيالة وعربات قتال) وهذه هي الوسيلة التي نسجت الجيوش على منوالها في القرون الوسطى وفي بداية القرن الثامن عشر . وكانت الحيطة البعيدة معدومة تقريباً اثناء المسير نظراً لأن المقدمات تكون على رأس الجيش المنسق بارتال القطعات الكبرى . واشتركت اسباب عديدة في الحفاظ على هذا التشكيل الخاطىء ، ومنها ان الارض على محاور المناورة كانت عبارة عن سهوب واسعة جرداء يمكن ان يُرى فيها عن بعد قدوم العدو ، بالاضافة الى ان عربات القتال والخيالة الثقيلة المحيطة بالمشاة كانت قادرة على ان تقوم عند الضرورة بردود سريعة ضد هجمات العدو خاصة وان هذه الهجمات لم تكن تنفذ الا بقطعات خفيفة قليلة الخطر . ومع هذا بقي الجيش معرضاً في بعض الظروف لاخطار المفاجأة التي

تضعه في موقف حرج . ففي عام ١٢٩٤ ق.م. مثلاً فوجئت مقدمات جيش رمسيس الثاني في كادش واصيبت بخسائر فادحة عندما انقضت عليها عربات الحثيين القتالية من مسافة قريبة وضربتها من الجانب بعنف قبل ان تتمكن بقية قطعات رمسيس السائرة على مسافة ٢٠ كم من التدخل لنجدتها . ولم ينقذ رمسيس الثاني الا انغماس خصمه في نهب ارتال التموين والمؤخرة ، بالاضافة الى تدخل قطعة مشاة حليفة صغيرة بشكل غير متوقع ، الامر الذي سمح له بأن يتملص منسحباً نحو الجنوب .

وعندما كانت الجيوش تتقاتل في معركة منظمة كانت العمليات تدور وفق مخطط شبه نظامي معروف . اذ تقف المشاة النبالة في الصفوف الاولى من التشكيلة المؤلفة من « فلانكسات » متراصة منتظمة . ويغرس النبالة تروسهم في الارض ، ويبدؤون المعركة من خلف هذا الجدار برمي السهام . اما نبالة الخطوط التالية الماهرين بالرمي المنحنى فكانوا يطلقون سهامهم في الجو لتسقط على العدو محدثة فيه تأثيراً اكبر من تأثير الرمي المباشر . وبقي الامر كذلك حتى معركة هاستينغ في عام ١٠٦٦ .

وكانت القطعات الخفيفة (مشاة) والقطعات السريعة (خيالة وعربات قتال) تتناوش بين الجبهات المعادية وعلى اجنحة خطوط القتال . وكانت كل واحدة تتملص من الثانية دون ان تستخدم الخيالة او عربات القتال عامل الصدمة . وكان عملها يقتصر على الاقتراب من العدو حتى مدى رمي الرماح او السهام لترشق الخصم بسلاحها وتنسحب . وكان الفرسان وسدنة عربات القتال يترجلون عند كل احتكاك يتطلب الاشتباك بقتال جدي .

وعندما كان احد الطرفين يرى ان الفرصة ملائمة امامه ، كان حملة الرماح الطويلة في « فلانكسات» المشاة يتقدمون الى الأمام وعندها يتم الانقضاض بالتعاون مع القطعات الخفيفة، ويكون هذا الانقضاض دون نظام او تلاحم ، وينطلق بمجموعات او جمهرات لا تناور مطلقاً .

وفي القرن السادس قبل الميلاد حاول الفرس انشاء تكتيك حقيقي للصدمة ، وذلك بأن وضعوا في صفوف القتال عربات مسلحة بالمناجل الطويلة ، كما استخدموا الهجانة المسلحة . وكان من نتيجة ذلك ان استطاعت القوات الفارسية في بادىء الامر خرق صفوف العدو . وتقدم تيمبة (٥٤٠ ق . م .) مثالاً على ذلك عندما استطاع سيروس سحق جيش كريسوس بفضل ٣٠٠ عربة قتال فقط . ثم وجدت المشاة فيما بعد رداً

فعالاً بأن استخدمت قنافذ حديدية مربعة الرؤوس تلقى على الارض لتجرح حوافر الجياد ، كما بدأت تمارس الرماية ضد الخيول والقعقعة بالاسلحة بغية إرعابها ، بالاضافة إلى فتح الصفوف لتوجيه الهجمات داخل فتحات خالية . وهنا لا بد لنا من ان نذكر أن المشاة الالمانية استخدمت في عام ١٩١٦ وعند ظهور الدبابات وسائل مشابهة تتمثل في القنافذ المعدنية ضد السلاسل ، والرمي على فتحات الرؤية ، وابتعاد المشاة عن طريق الدبابات المهاجمة لجذبها داخل الصفوف واقتناصها بعد ذلك .

وكان لدخول الجمال في حقل المعركة نتائج غير متوقعة ، وبقيت فترة طويلة دون رد ممكن . ذلك لان رائحة الجمال واصواتها كانت تخيف الخيول وتسبب جموحها . وهكذا أمكن تفتيت خيالة كريسوس الليدية دون أية صدمة بفضل قطعات الهجانة الفارسية . ولقد عرفت الخيالة البيزنطية الصعوبة نفسها بعد عشرة قرون عندما كان عليها ان تقاتل القبائل الرُحّل في شمال افريقيا ، الامر الذي كان يجبرها على الترجل عند القتال .

وكانت المطاردة تلي الالتحام الدامي ؛ وكان بوسع المنتصر اجراؤها نظراً لان لديه قطعات خفيفة كثيرة قادرة على ضرب المهزوم المتراجع بفوضى تامة بعد ان تكبد خسائر فادحة . وفي هذه الحالة كانت عربات القتال لا تتردد في زيادة عدد سدنتها كما كان كل فارس يأخذ خلفه رديفاً من المشاة الخفيفة . ومن هنا نرى ان المعركة كانت كثيرة التكاليف وحاسمة . ولم يكن يوقف نتائجها سوى استخدام التحصينات . وهذا هو احد اسباب ضخامة واتساع الامبراطوريات الشرقية في العصور القديمة .

وكانت ضخامات دفاعات التحصينات والقلاع وتطور خطوطها تفرض على المهاجم القيام بعمليات حصار طويلة تزداد مدتها كلما ضعفت وسائط الحصار والاقتحام . وتجلت عبقرية العصر في نقب الاسوار المصنوعة من الآجر ، أو تدمير نقاطها الضعيفة تحت ضربات الاعمدة الضخمة . وكان النقابون يتمتعون بحماية قوية ، ويلبسون دروعاً من الزرد تشبه الدروع التي استخدمت بعد ذلك في القرن العاشر . وكانت هجماتهم مغطاة بأبراج متحركة تحمل عموداً ضخماً للاقتحام ، ويركب في داخلها نبّالة محميون مهمتهم مناوشة المدافعين المتمركزين على مسلك الدوريات في قمة الاسوار . بيد ان ضخامة بعض الاسوار وازدياد سماكتها وارتفاعها (كان سمك اسوار بابل ٢٥ متراً وارتفاعها ٩٥ متراً) جعلت اللجوء الى الحيلة عند اقتحامها اهم من استخدام القوة . ولم يكن اي حصار يدوم اقل من ١٥ يوماً حتى ان بعض عمليات الحصار كانت تضعف

معنويات واندفاع القوات القائمة بالحصار نفسها . ولقد تم استيلاء داريوس على بابل بعد تسلل قطعات الاقتحام عبر مجاري المياه المستخدمة لسقاية المدينة ، ولكن مثل هذه الظروف كانت قليلة الوقوع ان لم نقل نادرة[1] .

والخلاصة ان النظام الشرقي كان يجمع الاستراتيجية المباشرة الى تكتيك يعتمد على الرمي واساليب الكر والفر في قتال غير مباشر . ولم يطبق الاستراتيجية والتكتيك غير المباشرين سوى خيالة الشعوب الرُحّل الذين كانوا يلجأون اليهما بصورة غريزية . وكان تطبيق مبدأي الحيطة والاقتصاد بالقوى في حقل التكتيك تطبيقاً بدائياً جداً ، و لم تكن الاستراتيجية المبنيّة على وحدة حقل العمليات تسمح باستخدام هذين المبدأين الا في اختيار الاعداء المتتابعين .

ب ــ النظام الغربي :

لقد كانت المظاهر العسكرية الاساسية في المدن الاغريقية وروما الملكية واحدة تقريباً . وكانت الجيوش تؤمن الحماية الثقيلة لافرادها ، ولكنها احتقرت القوس ، ولم تعرف استخدام الخيالة وعربات القتال الاعلى نطاق محدود جداً . وكانت العربات القليلة المستخدمة مكرسة لتنقلات القادة ، ثم اختفت في القرن السادس قبل الميلاد . وكانت الجيوش الغربية آنذاك مؤلفة من مليشيا يتسلح كل فرد منها حسب امكانياته وثروته ، لذا ظهر فيها تباين واضح بين المشاة الثقيلة الممثلة « بالمواطنين المرموقين » والمشاة الخفيفة والممثلة ــ وخاصة عند الاغريقيين ــ بالعبيد والاجانب . وعندما أنشأ سيرفيونس توليوس (٥٧٨ ق.م. ــ ٥٩٤ ق.م.) « الليجيون » الروماني ألغى في الوقت نفسه مجموعات الكادحين المسلحة ، وأحل محلها مشاة خفيفة لا تتصف بضعف التسليح ولكنها تتصف بأنها مسلحة ومجهزة بشكل يؤهلها للقيام مهمات تكتيكية ضرورية ولنذكر هنا ان النبّالة كانوا نادرين حتى داخل القطعات الخفيفة . ففي معركة ماراتون (٤٩٠ ق.م) اشترك ٢٠٠٠٠ جندي اغريقي خفيف دون ان يكون من بينهم اي نبال . اما في « الليجيونات » النظامية فان النبّالة لم يجدوا لهم مكاناً ابداً .

---

(١) يمكن اعتبار قصة طروادة في هذا الصدد مثالا انموذجياً، اذ ترك الإغريقيون حصاناً ضخماً أمام طروادة فما كان من سكان المدينة سوى أن ادخلوه مدينتهم دون أن يعرفوا أن في داخله جنوداً ينتظرون الفرصة لينقضوا على حراس الاسوار ويحتلوا بذلك المدينة المحاصرة . (المعربان)

وكانت المشاة الثقيلة عند الغربيين تحتل مكانة مشابهة لمكانة الخيالة عند الشرقيين . وكانت تضم ثلث التعداد العام . إلا ان هذه النسبة تزايدت حتى وصلت الى ٥٠٪ من التعداد العام .

وكان التنظيم يعتمد على التنسيق العميق « للفلانكس » الذي يبلغ تعداده ٢,٥٠٠ رجل منتظمين على ٨ — ١٠ أنساق و ٢٥٦ رتلاً . وينقسم « الفلانكس » الى سرايا تضم كل واحدة منها ١٣٠ — ١٦٠ رجلاً . ولم يكن « الفلانكس » يشتمل الا على مشاة ثقيلة ، اما المشاة الخفيفة فكانت تنتظم داخل أفواج يصل تعداد كل واحد منها الى ١,٣٠٠ رجل .. ولم يكن هناك قطعات عضوية من مختلف صنوف الاسلحة .

وكانت حروب المدن الاغريقية والرومانية في بادىء الامر محلية لدرجة تجعل من الصعب التحدث عن الاستراتيجية . واحتفظت العمليات حقبة طويلة من الزمن بشكل يشبه شكل عمليات القرون الوسطى من ناحية مدتها وقلة تماسكها . ويمكننا ان نقول إن احتلال الجيوش الاسبارطية لماسينا ، وصراع روما لتحطيم الطوق المضروب حولها من قبل السامنيت والفولسك والايك واللاتينيين يشبهان الى حد كبير حرب المائة عام في اوروبا . ولقد أثرت مسارح العمليات الجبلية على سير الحروب وجعلتها تقتصر على العمليات المباشرة مع استخدام الاراضي الصعبة في الدفاع والسهول في الهجوم .

وكانت « الفلانكسات » تشكل في الحملات درع الجيش ، اذ كانت المشاة الثقيلة تتحرك بتشكيلات مغلقة ، على حين تسير ارتال وقوافل التموين في الوسط تحت حراسة القطعات المساعدة والخيالة القليلة . وبهذا الشكل كانت الجيوش الغربية قادرة على القيام بمسيرات تعادل ٣٠ كم في اليوم بكل سهولة .

وكان من النادر ان يبدأ القتال مباشرة فور ظهور العدو ، بل كانت الجيوش تعسكر في ارض صعبة بانتظار اللحظة الملائمة للهجوم . وعلاوة على ارتباط المناورة بالسهول الساحلية واحواض الانهار اللازمة لانتشار « الفلانكسات » فان وقوع المعركة كان مرتبطاً بموافقة الطرفين الضمنية طالما ان الامر بحاجة لترك الاراضي الصعبة والمجابهة في السهل .

وفي حالة الاستعداد للمعركة كانت « الفلانكسات » تنتظم في صفوف متراصة ، ويقتصر فن الجنرال (الاستراتيجية) عندئذ على اختيار محور الهجوم وتوازن التشكيلة الاساسية . وما ان ينطلق الهجوم حتى يغدو القائد بلا قوات احتياطية ، ويضع كل

اعتماده على السرعة وعنف الصدمة . اما المشاة الخفيفة فكانت تدفع عند المعركة الى المؤخرة او المجنبات ، ولا تقوم بدور فعال يؤثر على سير العمليات ونتائجها .

ولم يكن استثمار النصر يتجاوز حقل المعركة نظراً لانعدام القطعات السريعة المسلحة جيداً . ولكن المعركة كانت في حد ذاتها حاسمة لدرجة تجعل المنتصر يستغني عن المطاردة .

وبالاضافة الى ذلك فان تحصينات الغربيين رغم صغرها بالنسبة لتحصينات البلاد الشرقية فقد كانت أكثر متانة واقل تعرضاً للدمار ، خاصة وان وسائط الحصار كانت معدومة تقريباً ، لهذا بقيت الحملات بطيئة يتخللها كثير من المظاهرات ، وبقي احتلال الحصون بحاجة لقسط كبير من الحيلة والمفاجأة . ولقد تم احتلال تيبيس بالمفاجأة في عام ٣٨٣ ق.م. ثم استعيدت بالحيلة في عام ٣٧٩ ق.م.

وكان النظام الغربي المبني على استراتيجية وتكتيك مباشرين يستخدمان الصدمة على نطاق واسع يبدو في مجابهة النظام الشرقي وكأنه نظام غير مجد وبدائي في حين كانت اهميته تبدو جيدة . ولقد ظهر هذا الامر بوضوح منذ ان بدأ الشرقيون يقبلون في صفوفهم مقاتلين مرتزقة من الاغريق في حوالي ٦٥٠ ق.م. وللدلالة على اهمية هذا الامر نذكر ان الاشوريين احتلوا مصر ودمروا جيشها فجاء بساميتيك الاول لينهض بالبلاد من كبوتها ويحرر ارض الوطن . وكانت النهضة سريعة لدرجة جعلت القطعات المصرية تجابه قطعات نبوخذ نصر في عام ٦٠٤ ق.م قرب كركميش على نهر الفرات . ولا يمكن تفسير هذا الحدث اذا لم نأخذ بالحسبان القطعة الاغريقية الصغيرة المؤلفة من جنود مشاة ثقيلة كانوا يعملون في خدمة فرعون مصر . ولا شك في ان هذه القطعة سببت بتكتيكها الجديد عنصر المفاجأة اللازم للنهضة العسكرية . ومع هذا لم يسمح لها عددها القليل بتحقيق الانتصار الحاسم ، وكانت كركميش هزيمة للمصريين . الا ان قطعة الصدمة الاغريقية بقيت ورقة رابحة بيد الاسرة المصرية السادسة والعشرين (الاخيرة) وعندما اقتحم قمبيز ابواب مصر في بيلوس (٥٢٥ ق. م) وضع الاغريق لوحدهم مصير المعركة في الميزان خلال فترة حرجة من الزمن ، وسببت مقاومتهم اليائسة الشبيهة بمقاومتهم في كركميش استغراب الشرقيين واثارت اعجابهم .

ولقد كان قمبيز بحاجة الى كثير من البصيرة والحكمة ليكتشف أن انتصاره هذا يحمل في طياته بذرة كل نكسات الحروب الميدية[1] وانهيار الامبراطورية الفارسية .

---

(١) Les guerres Médiques الحروب الميدية بين الفرس والاغريقيين

الفصل الخامس والعشرون

من الامبراطورية الفارسية حتى سقوط الامبراطورية الرومانية الغربيـــة

من ٥٠٠ ق.م حتى ٥٠٠ م.

« كانت معظم الطرق طويلة ومعروفة من قبل العدو ، ولكن كان هنالك سبيل قصير يمر عبر المستنقعات ويسمح لهانيبال أن يهاجم فلامينوس بغتة . وكان سلوك هذا السبيل يلائم عبقرية هانيبال العسكرية التي تبحث عن تحقيق المفاجأة ، لذا فقد قرر سلوك هذا الطريق المختصر»

بوليب (٣ ـ ٩٧)

* * *

ثم اتسع مجموع مسارح العمليات مع اتساع الامبراطورية الرومانية ، وامتد بفضل الفرس والمقدونيين حتى تخوم الهند ، فحصل بذلك على حجم وتنوع يسمحان بزيادة التركيبات الاستراتيجية . وتزايدت اهمية البحر ، وكان ذلك في البداية على المستوى الاداري ، نظراً لان الاسطول كان رغم بدائية التقنية البحرية الوسيلة الوحيدة للنقل بمردود كبير ، والشرط اللازم لكل تجارة بعيدة او عملية تموين . وجاءت حاجات المدن ، وزيادة عدد الجيوش ، وطول خطوط المواصلات ، لتعطي اهمية خاصة لاساطيل النقل وللاساطيل الحربية المكلفة بحمايتها او قطع طريقها . ولا شك في ان القدرة على الملاحة

في اعالي البحار كانت معدومة ، كما كانت المراكب الحربية بحد ذاتها مجرد قوارب كبيرة لا تستطيع مراقبة البحر بشكل فعال الا اذا كانت البحار ضيقة مليئة بالجزر مثل بحر إيجة . ونحن نعرف ان الانتصارات البحرية الرومانية لم تمنع ماغون من ان ينزل على شاطيء الريفييرا قرب جنوة ، كما لم تمنع هانيبال من العودة بحراً الى افريقيا .. وادى استخدام الاساطيل الى زيادة الاهمية العسكرية للمحاور الساحلية التي تتبادل عليها الاساطيل والجيوش البرية الدعم التكتيكي والاداري .

ومن المفيد أن نلاحظ بأن معظم المعارك الحاسمة التي حددت مصير الحضارات في هذا العصر كانت معارك بحرية : سالامين (٤٨٠ ق.م) . أكتيوم (٣١ ق.م) .

ولقد بدأت تركيبات مسارح العمليات وتنوع مواقع العمل تفتح للتكتيك والاستراتيجية مجالات متعددة جديدة ، وتثير تجديد الأساليب القتالية حتى قبل دخول العوامل التقنية الرئيسية .

وفي هذا العصر تجابه النظامان الشرقي والغربي ، وادى الاحتكاك فيما بينهما الى تبادل الخبرات والحضارات . وفي بداية الامر ، تأكد تفوق مشاة الصدمة (الثقيلة) رغم ظهور خيالة الصدمة بشكل موقت . ولكن فهم سير حركة الصدمة ادى الى ولادة عقيدتين قابلتين للتطور تحاول احداهما الاستفادة من تأثير الكتلة ، على حين تعمل الثانية على الاستفادة من تأثير المرونة . وكان من نتائج العقيدة الاولى زيادة كثافة التشكيلات وتراصها ومضاعفة الحماية الفردية ، كما ادت الثانية الى تفضيل التشكيلات المتباعدة والحماية الخفيفة . ثم ظهر مع الزمن ان المشاة الثقيلة لا تصلح لكافة المهمات ، لذا بدأت القطعات الخفيفة تحتل مكانة جديدة .

وفي فترة لاحقة تفوقت خيالة الرمي على مشاة الصدمة بصورة ساحقة، موكدة امتيازها بشكل يتزايد بتزايد مقدرة القوس وقوته .

أ ـ مجابهة النظامين الشرقي والغربي

(من ٥٠٠ ق.م الى ٤٥ ق.م)

١) العصر الاغريقي :

لقد عرفت الجيوش الاغريقية خلال تطورها ثلاثة اصلاحات حافظت في جوهرها على اهمية المشاة الثقيلة ، ولكنها اضطرت لان تلحق بها بعض التنوع الذي تتصف به

الجيوش الشرقية وهذه الاصلاحات هي : اصلاحات ايفيقراط في عام ٣٩٠ ق.م. واصلاحات فيليب المقدوني في عام ٣٤٠ ق.م. واصلاحات القادة ورثة الاسكندر اعتباراً من عام ٣٠١ ق.م.

ومن اهم اصلاحات ايفيقراط هي أنه قلب جماعات المشاة المساعدة الى فرق حقيقية تشكل سلاحاً صالحاً للقتال في الاراضي المتضرسة الصعبة ، وقادراً على القيام بعمليات الاجنحة ومهمات الحيطة والامن .

واما فيليب المقدوني فقد اضاف الى المشاة الخفيفة المسلحة بسلاح الصدمة (تروس وسيوف) خيالة خفيفة مجهزة للقيام بالرمي (خيالة الاستطلاع) .

والحقيقة انه منذ عام ٤٧٦ ق.م. تشكلت مجموعة صغيرة من الخيالة الثقيلة تعادل $\frac{١}{١٠}$ الى $\frac{١}{٥٠}$ من تعداد الجيش . وفي حوالي عام ٤٤٦ ق.م أضيفت اليها اعداد محدودة من النبّالة الخيالة . وهذا يعني ان خيالة الاستطلاع الخفيفة والخيالة الثقيلة التي استخدمها فيليب لم تكن بدعة جديدة من عنده . ويمكننا ان نقول إن الاصلاح المقدوني يتمثل قبل كل شيء في زيادة عدد الخيالة الثقيلة وايصالها الى $\frac{١}{٧}$ تعداد القوات وترتيبها على ثلاثة صفوف حتى تكون «كالفلانكسات» قادرة على القيام بالهجوم بشكل جدي والى ابعد مدى . اما المشاة الثقيلة فقد خفت حمايتها على حين زاد عمق « الفلانكس » بلا مبرر عملي (١٦ صفاً بدلاً من ٨ – ١٠ صفوف) .

واخيراً ظهرت كل سلسلة آلات الحصار وادواته : (المنجنيق بمختلف أنواعه) . ولاول مرة تشكلت هيئات اركان الحرب وارتال النقل الميدانية المنظمة بشكل جيد .

ولم يلاحظ اي تطور او تعديل عند الشرقيين قبل انتهاء الحروب الميديه (٤٧٩ ق.م) . ثم تعلم الفرس بعد ذلك ، وفي حوالي عام ٤٠٠ ق.م – بعض أسس المدرسة الاغريقية ، فاستخدموا مرتزقة اغريقيين أو اسبارطيين مجمعين داخل قطعات مشاة ثقيلة . وطوعوا من شعب السيت خيالة مدرعة على غرار خيالة الاستطلاع . ثم جاءت الفيلة لتدعيم وسائط الصدمة في حوالي عام ٣٢٥ ق.م. ولكن جميع هذه التطورات لم تكن أكثر من اضافات لا تبدل الشكل التقليدي للجيوش التي احتفظت بتركيبها القديم . حتى انه شوهد فيها حتى فترة متأخرة بعض عربات القتال .

ثم جاء القادة ورثة الاسكندر فاستخدموا الوسائط المحلية الموجودة في المناطق التي يسيطرون عليها من الامبراطورية ، واستعاروا بعض الامور من الشرقيين . وكان لدى

جميع هؤلاء الورثة ميل الى مضاعفة الحماية وقوة الدروع وزيادة حجم « الفلانكس ». وبواسطتهم دخل الفيل الى اوروبا ، فاستفاد منه بيرهوس بعد ذلك في عام ٢٩٤ ق.م. أما الفرس فقد حافظوا على استخدام عربات القتال حتى عام ١٩٤ ق.م (تيمبه) .

وبالرغم من التقدم والتطور الكبيرين اللذين حققهما المقدونيون فان التنظيم لم يتبدل بشكل جذري ، وبقيت « الفلانسكات » والافواج المقسمة الى سرايا . وبقيت الخيالة « متمفصلة » الى جزر تضم كل واحدة منها سريتين . وكانت هذه التشكيلات تضم ٦٠٠ فارس أو ١٣٠٠ جندي مشاة خفيف او ٢٥٠٠ – ٤٠٩٦ جندي مشاة ثقيل . وكانت القطعات الكبرى مؤلفة من سلاح واحد . وكان « الفلانكس » الكبير مؤلفاً من ٤ « فلانكسات » كما كان فوج الخيالة مؤلفاً من ٤ جزر . وسار الفرس عل المنوال نفسه وبشكل اوسع عندما خلقوا « فرق » المشاة أو الخيالة التي تضم كل واحدة منها ٦٠,٠٠٠ رجل من نوع واحد .

بيد ان العبقرية الاغريقية اثبتت وجودها قبل كل شيء في حقل الاستراتيجية ، وذلك عندما هجرت الاساليب المباشرة الى الاساليب غير المباشرة ، واعطت الاهداف الاقتصادية اهمية اكبر ، فصارت الجيوش تهاجم مصادر التموين ومراكز التجارة لتتغلب على عدو تخشى مغبة لقائه في معركة نظامية ، أو لتقهر عدواً يتحاشى المعركة باستمرار . ويمكننا ان نجد الامثلة على كل ذلك فيما يلي :

– تصرف برازيداس عندما نقل الحرب الى كالسيدي مخزن حبوب اثينا .
– قيام السيبياد بالرد على خصمه بحملة موجهة الى صيقلية مصدر تموين البيلوبونيز .
– موقف ليزاندر عندما اجبر الاثينيين على خوض معركة بحرية لا تنتهي على طريق قوافل الحبوب ، ثم انتصر عليهم في ايغوس – بوتاموس عندما أحس بأنهم لا يحترسون بشكل كاف .
– تصرف الاسكندر الذي أمن السيطرة على مجموع شواطىء الامبراطورية الفارسية قبل ان يوجه اليها الضربة القاضية في قلب الاراضي الاسيوية .
– وارتفعت التركيبات الاستراتيجية الاغريقية الى مبدأ الاقتصاد بالقوى سواء كان ذلك باثارة الشك لدى العدو عن اتجاه الهجوم الرئيسي المقبل ، او بتأمين ميزان جيد للقوى على المحاور الاساسية . والامثلة على ذلك هي :
– قيام ايبامينونداس بفتح جيشه على ثلاثة محاور متلاقية باتجاه اسبارطة ، علماً بأن

عمله كان عبارة عن شجاعة خارقة لم تعرف حتى ظهور البندقية .

- قيام بعض ورثة الاسكندر وهم سيلوكوس وبطليموس وليزيماك بتجمع استراتيجي على مستوى الامبراطورية ضد انتيغون بغية تخليص حليفهم كاساندر الذي كان محصوراً في تيساليا من قبل ديمتريوس ابن انتيغون .
- دخول فيليب المقدوني الى اركانيا بفضل مناورة كانت تبدو وكأنها مبتعدة عن المدينة .
- وقوف ابنه الاسكندر المقدوني في غورديون على الطريق الملكي الذي يقود الى قلب بلاد الفرس وكأنه في موقف انتظار ، ثم ارتداده نحو ايسوس بشكل غير متوقع .
- تصرف الاسكندر نفسه عندما حيّر خصمه بوروس بمسيراته ومسيراته المعاكسة المتكررة ، ثم خدره وهاجمه بصورة مفاجئة ، وانتصر عليه بجزء من جيشه فقط .

وامام مثل هذه العبقرية كانت الاستراتيجية الفارسية التي تسيطر عليها فكرة الحصار والمناورات المباشرة تبدو باهتة دون خيال محرك . وبالاضافة الى ذلك يحس الدارس لاستراتيجية الفرس بتأثرها العميق باستخدام الخيالة الثقيلة التي تحتاج الى سهول واسعة لتسهيل مناورتها التكتيكية ، الامر الذي يسهل بالتالي استخدام « الفلانكسات » المعادية . كما يحس بتأثرها واهتمامها الكبيرين بفكرة الحفاظ على الممتلكات ، تلك الفكرة التي جعلتها تعارض ، رغم سعة الامبراطورية ، استخدام استراتيجية الفراغ التي اقترحها ممنون الروديسي على داريوس .

وازدهرت سياسة الحرب وتجلت في عقد الاحلاف ونقضها بفضل اساليب تستخدم توافق الضغط السياسي والمالي والعسكري ، تلك الاساليب التي كان الفرس والمقدونيون يتقنون استخدامها . وارتفعت اهمية التحصينات في بلاد الاغريق كما ارتفعت عند الفرس لتصبح في مستوى الحسابات العسكرية الدائمة . وهكذا غطت اثينا حدودها منذ عام ٤٤٣ ق.م. بسلسلة من المخافر وانشأت سلسلة من نقاط الاستناد البحرية ، اما فيليب فقد غطى مقدونيا بشبكة منتظمة من الحصون والقلاع .

ولقد عرف التكتيك الاغريقي في هذا العصر اربع فترات متعاقبة :

أ ـ قبل ايفيقراط وايبامينونداس : (من ٥٠٠ ق.م حتى ٣٨٠ ق.م.)

استخدم « فلانكس » المشاة الثقيلة في هذه الفترة كل امكانياته حتى معركة كورونيه

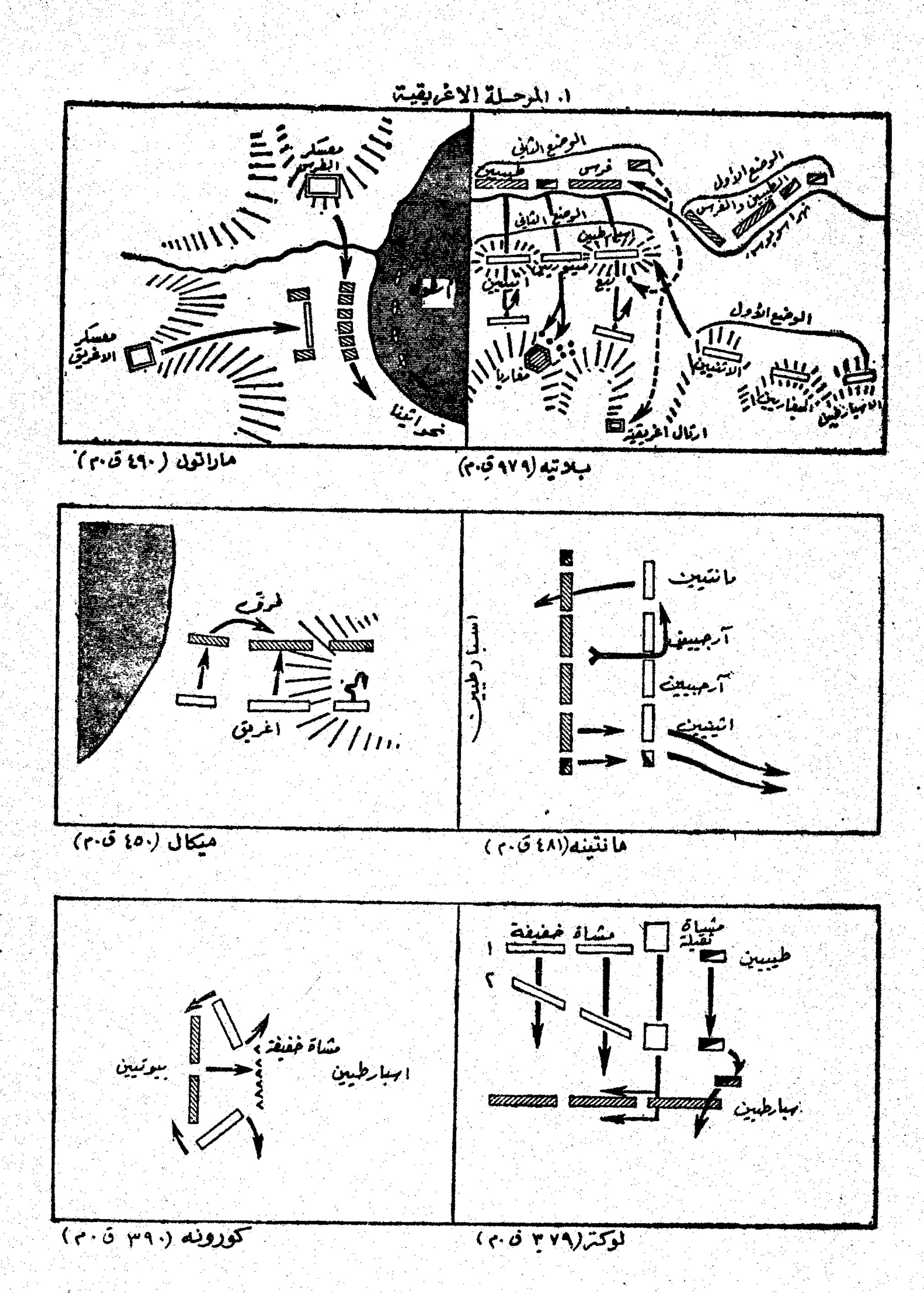
(٣٩٠ ق.م) . وكان يتفوق بسرعته ونظام تشكيلته وعنصر الصدمة القوية عنده . وكان يقاوم الخيالة بكل سهولة ، كما تعلم كيف يقاوم الفيلة فيما بعد ، وذلك بفضل مربعات (قنفذية) تحيط بها الرماح الطويلة من كل جانب ، ولان الفرج الواقعة بين « الفلانكسات » قادرة على توجيه الهجمات المعادية داخل الفراغات . بيد ان الفلانكس لم يحل جميع المعضلات نظراً لعدم قدرته الحركية في الاراضي الصعبة ولانعدام القوة الاحتياطية في المعركة .

وهكذا كانت المناورة تتمثل في التشكيل الاساسي فقط ، لذا كان نظام المعركة لا يقبل أي تبديل منذ بدء القتال . وهناك شيء له دلالته هو ان الاغريقيين كانوا خلال مجابهتهم للفرس يناورون بصورة خاصة على الاجنحة ، لان القطعات الفارسية الممتازة كانت تتجمع غالباً في القلب . على حين كان الاغريقيين يهتمون عند القتال فيما بينهم بعمليات الخرق المركزي ، لان ثقل « الفلانكس » يتلاءم مع الخرق اكثر من تلاؤمه مع تغيير الجبهة اللازم لعمليات التطويق او الالتفاف حول الاجنحة .

وفي معركة ماراتون (٤٩٠ ق.م) . كان التطويق مزدوجاً . وتم بأرتال الجناح المغطاة بواسطة ستارة مناورة . (نجد في الجانب الاغريقي ١١,٠٠٠ جندي من المشاة الثقيلة و ٢٠,٠٠٠ جندي مشاة مساعدة ليس فيهم اي نبّال . كما نجد في جانب الفرس ٢٠,٠٠٠ رجل) . وفي معركة ميكال (٤٥٠ ق.م) لم يقم بالتطويق سوى جناح الاغريقيين الايسر ، نظراً لان الارض كانت امام جناحهم الايمن صعبة لا تسمح بتقدم « الفلانكسات » . ولقد قلل الاغريقيون من تأثيرات رمايات المشاة الفارسية وذلك باستخدام الحماية والسرعة . ومنذ معركة ماراتون كان الفرس يتعجبون من انقضاض « الفلانكس » بالخطوة السريعة من مسافة ١,٥٠٠ متراً . ولقد شهد هذا اليوم الشهير سقوط ٦,٤٠٠ فارسي مقابل ١٩٢ اغريقي .

بيد ان سهولة خرق الاغريقيين للصفوف الفارسية في كل لقاء رغم التفوق العددي عند الفرس يجعل احتلال الفرس لايونيا امراً غريباً يصعب في الظاهر تفسيره . والحقيقة ان علينا ان نبحث وراء هذا الاحتلال عن عمل النقابين وآلات الحصار ، لان الاغريقيين في ايونيا كانوا قد استكانوا الى الدعة والكسل ، كما كانوا يرفضون القيام بالتدريب العسكري ، الامر الذي دفعهم الى الالتجاء داخل الحصون دون ان تكون لديهم الجرأة الكافية لملاقاة الفرس في معركة نظامية على أرض مكشوفة .

بيد ان المعارك بين الاغريقيين انفسهم لم تكن بهذا الشكل . ففي مانتينه (٤١٨



ماراثون (٤٩٠ ق.م)
بلاتيه (٤٧٩ ق.م)
ميكال (٤٥٠ ق.م)
مانتينه (٤٨١ ق.م)
كورونه (٣٩٠ ق.م)
لوكترا (٣٧٩ ق.م)

ق.م.) قابل الاسبارطيون بامرة آجيس اعداءهم من الارجيين والمانتينيين والآثينيين . وهاجم جناح المتحالفين الايمن (المانتينيون) جناح الاسبارطيين الايسر وهزمه . ولكن

كبد جيش آجيس هاجم قلب المتحالفين (الارجيين) وحطمه عندها تراجع الاثينيون العاملون على الجناح الايسر للمتحالفين تحت تغطية خيالتهم فاستطاع آجيس ان يهرع لنجدة جناحه الايسر المهزوم. وفي كورنيه (٣٩٠ ق.م). بقي الخرق في المركز بلا فاعلية : لقد فاجأ البيوتيون آجيسيلاس وهو سائر فأخذ تشكيلته بسرعة واشترك في القتال. ولكنه أحس بان قلب جيشه معرض للانهيار، فما كان منه الا ان سحب « الفلانكسات »، فتبدل الموقف واشتبك البيوتيون مع الجناحين ثم اخذوا ينسحبون وهم يصدون هجمات الاسبارطيين.

وتعتبر بلاتيه (٤٧٩ ق.م) بالنسبة لهذا العصر معركة، استخدمت فيها كافة الامكانيات والاحتمالات التكتيكية، وهذا ما يعطيها اهميتها الخاصة. لقد كانت القوات الفارسية قد انسحبت بقيادة ماردونيوس الى بيوتيا لتستفيد من دعم الطيبيين وتستغل وجود سهول صالحة لعمل خيالتها الثقيلة، عندما جاءت قوات اثينا واسبارطة وميغاريا لتحتك مع مفارز مقدمات الفرس. فبدأ ماردونيوس بالانتشار وراء نهر اسوبوس على حين عسكر المتحالفون على مرتفعات الجنوب (موقع ١ ثم موقع ٢ من المخطط في الصفحة ٢٩٩). عندها قامت الخيالة الفارسية باغارتين على موخرات المتحالفين، وكانت الاغارة الاولى قرب ميمنة المتحالفين الممسوكة من قبل الاسبارطيين وتوصلت الى احتلال نقطة التموين بالمياه، على حين كانت الثانية أكثر عمقاً على طريق ايلوتي واستولت على ارتال التموين. وتمزق خط معركة المتحالفين الى ثلاثة تراجعات غير متناسقة. وهنا هجم الفرس وحلفاؤهم الطيبيون فوقعت ثلاث معارك مستقلة (موقع ٣ من المخطط في ص ٢٩٩).

— ففي اليسار كان الآثينيون ينسحبون بانتظام تام فهاجمتهم « فلانكسات » البيوتيين بصورة مباشرة. ولكن الآثينيين تلقوا الهجوم بتشكيلات متراصة وحطموه ودفعوه بعيداً، وغدوا بذلك سادة المنطقة فتمركزوا في موقع انتظار وراء نهر صغير.

— وفي القلب كان الميغاريون ينسحبون نحو مدنهم بلا نظام، فطاردتهم خيالة البيوتيين وشتت شملهم.

— وفي الجناح الايمن اشتبكت المشاة الفارسية مع الاسبارطيين وثبتت تروسها في الارض وبدأت ترشقهم بالسهام. وهنا قام بوسانياس بانقضاض سريع وسحق الفرس.

وهكذا انتصر المتحالفون بالرغم مما اصابهم من فوضى في بداية المعركة. وبالرغم

من عدم تكافوء القوى (٩٦,٠٠٠ جندي مشاة و ٤,٠٠٠ خيال فارسي مقابل ٢٤,٠٠٠ جندي مشاة ثقيل و ١,٠٠٠ خيال مع المتحالفين) ويرجع الفضل في ذلك الى التكتيك العنيف المتسم بالتصميم والاندفاع . ويمكن ان نستنتج من هذه المعركة ان « الفلانكسات » المنتظمة داخل ترتيب متماسك بقيت عبارة عن قطعة قادرة على سحق المشاة الفارسية رغم رماياتها ، ومستعدة لصد هجمات الخيالة . كما نستنتج ان خيالة تلك الأيام لم تكن فعالة الا في الاغارات غير المباشرة على المؤخرات او على المشاة الثقيلة غير المنظمة . وهذا ما يسمح لنا بتفسير نجاح الحملات الاغريقية كحملة العشرة آلاف وحملة اجيسيلاس وحملات الاسكندر المقدوني .

ب) ايفيقراط وايبامينونداس (من ٣٨٠ ق.م حتى ٣٦٠ ق.م) .

وتدل دراسة حملة آناباس (من ٤٠١ ق.م حتى ٤٠٠ ق.م) الى اي مدى كان اغريقيو ذلك العصر يتمتعون بفكر مرن خلاق . ولقد اجبرتهم عمليات انسحاب ١٠,٠٠٠ رجل من كوناكسا حتى ترابيزونت ومن الخليج العربي حتى البحر الاسود على ان يستخدموا كل مصادر فنهم العسكري . ففي السهول وتحت ضغط الخيالة النبالة الفارسية نراهم يضطرون الى استخدام تشكيلات مغلقة ، وانشاء خيالة صغيرة للصدمة ، ومشاة خفيفة للرمي (رماة مقلاع لا نبالة) ، تضاف الى قطعات المشاة الخفيفة النظامية. اما في الارض المتضرسة وامام عدو يفوقهم عدداً ، فكانوا يستخدمون كل سرعة المشاة الخفيفة لتحقيق المناورة والوصول الى المواقع الحاكمة . ثم تعلموا كيف يقاتلون بعد تقسيم « الفلانكس » الى سرايا ، الامر الذي يسمح لهم بالسيطرة على جبهة اوسع . ولقد قلدهم ديون سيراكوس في هذا الصدد في عام ٣٦٠ ق.م. وهكذا ادت حملة آناباس الى ادخال اصلاح يتمثل في اعطاء المكانة اللائقة لاستخدام المشاة الخفيفة التي كانت حتى ذلك الحين مهملة .

لقد بدأ ايفيقراط قبل كل شيء بانشاء مشاة خفيفة مختارة بكل عناية كالمشاة الثقيلة ولكنها تتمتع بصفات خاصة بالحركية (درع من اللباد) وعتاد صالح للرمي (مقلاع) او للمعركة الطائرة (حراب قصيرة) . وبعد فترة من الزمن زاد كمية الخيالة الثقيلة وعلمها كيف تقوم بالهجوم لا في عمليات الاستطلاع المتفرقة فحسب ، بل داخل نظام قوي متلاحم . ولكنه لم يكن يطلب منها ان تستخدم الصدمة الى اقصى مداها .

ثم قام ايبامينونداس بتنسيق استخدام كل هذه الوسائل القتالية ، واوجد تكتيكاً

جديداً كان اول اشكال النظام المائل ، وطبق هذا التكتيك بنجاح في معركة لوكتر (٣٧٩ ق.م) ومانتينه (٣٦٢ ق.م) .

ففي معركة لوكتر جابه ايبامينونداس بجيش مؤلف من ٦,٠٠٠ جندي مشاة و ٤٠٠ خيال طيبي جيشاً اسبارطياً يضم ٢٤,٠٠٠ جندي مشاة و ١,٦٠٠ خيال . وهنا جمع ايبامينونداس مشاته الثقيلة على جناحه الايسر بتشكيلات عميقة (٢٥ رتلاً × ١٠٠ نسق) ثم حمى هذا الرتل من اقصى اليسار بالخيالة كما حماه من الطرف الايمن بالمشاة الخفيفة وكان اعداؤه يصطفون امامه « بفلانكسات » تقليدية ، وتقف خيالتهم امام جناحهم الايمن . وهاجم ايبامينونداس وجناحه الايسر متقدماً الى امام بعد ان ارجع مشاته الخفيفة قليلاً كيلا يعرضها للاصطدام العنيف مع المشاة الثقيلة الاسبارطية . واستطاعت خيالة الطيبيين تشتيت خيالة اسبارطة التي جاءت لتزرع الاضطراب في جناح جيشها الايمن ، في الوقت الذي كان فيه رتل الطيبيين الثقيل يقوم بخرق هذا الجناح . ثم رفعت المشاة الثقيلة رماحها الطويلة واستدارت الى الجهة اليمنى وشرعت الرماح من جديد واخذت تكنس الخط الاسبارطي من الجانب . ويعود النجاح في هذه المعركة الى الفوضى التي سببتها الخيالة الاسبارطية داخل صفوف جيشها بالاضافة الى وجود ٣٠٠ من المشاة الثقيلة المختارة « الكتيبة المقدسة » على رأس رتل الطيبيين .

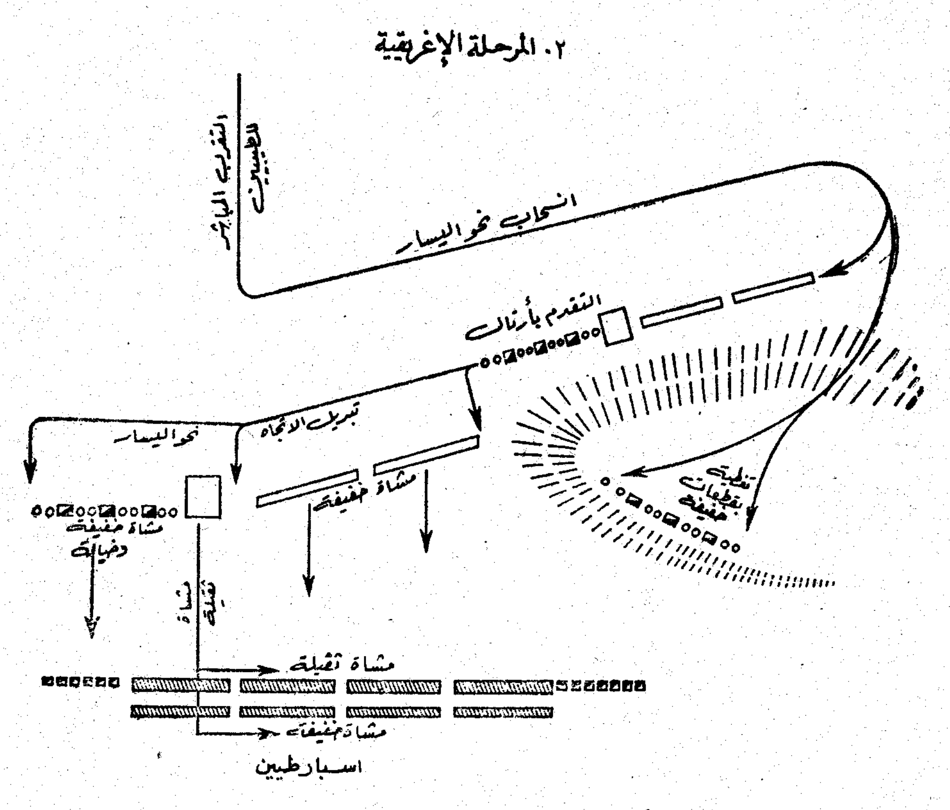
في مانتينه كان جيش ايبامينونداس مؤلفاً من ٣٠,٠٠٠ جندي مشاة و ٣,٠٠٠ خيال على حين كان جيش أجيسيلاس يضم ٢٠,٠٠٠ جندي مشاة و ٢,٠٠٠ خيال . وكـــان الاسبارطيون يمسكون ممراً جبلياً ضيقاً لا يزيد عرضه عن كيلومترين ،و لكن إيبامينونداس اضطرهم الى الانتشار بأن سار نحوهم بشكل مباشر ، ثم تراجع نحو اليسار للاختفاء خلف مستر ، متظاهراً بأنه يود انشاء معسكره هناك . عندها اضطرب الاسبارطيون من الخطر المائل على ميمنتهم ، فتركوا مواقعهم المنيعة وانتشروا للقتال ، فهاجمهم الطيبيون برتل مائل انطلق من خلف مستره ثم اتجه الى اليسار ليجابه العدو . وكانت قوات الطيبيين منتظمة داخل رتل مشاة ثقيلة (٥٠ نسقاً × ٥٠ رتلاً) تغطي ميمنة مجموعة مختلطة من الخيالـــة والقطعات الخفيفة ، ويغطي ميسرته نسق مائل معظمه من المشاة الخفيفة . وعلى ذروة المستر انتشر غطاء من الخيالة والقطعات الخفيفة لتستر مخرج القطعات . وهنـــا

تكررت معركة لوكتر ، إذ تم خرق الجناح الأيسر للاسبارطيين وأخذ خطهم الهجومي من الجانب . وهنـــا ايضاً قامت « الكتيبة المقدسة » على رأس الرتـــل الثقيل بأعمال باهرة .

بيد ان نجاح إيبامينونداس لم يدفع الآخرين الى تقليد اساليبه، ولم يكتشف المعجبون به أهمية النظام المائل وتأثيره على النصر ، كما لم يكتشفوا كم كان هذا النصر مديناً «للكتيبة المقدسة » ولكنهم أعطوا أهمية بالغة لزيادة عمق ارتال الهجوم . ومن هنا جاءت كـــل الحجج المؤيدة للنظرية الخاطئة التي تهتم قبل كل شيء بالقيمة الآلية للصدمة بأرتال كثيفة .

ج) المقدونيون (من ٣٦٠ ق.م حتى ٣٠٠ ق.م) .

اعطى الاصلاح المقدوني للخيالة أهمية جديدة ، فغدت عبارة عن « فلانكس »



معركة مانتينه (٣٦٢ ق.م) النظام المائل

لاحظ الاختلاف في استخدام المشاة الخفيفة لدى الخصمين المتحاربين

راكب يهاجم بعمق الى أقصى مدى . وبالرغم من أن عدة الركوب كانت بلا ٠٢ ، ولكنها كانت تقدم منذ ذلك الحين أول سرج ملائم للفروسية . وتكشف ! ماثيل ذلك العصر اسلوباً مرناً للركوب يمكنهأن يعوض عن عدم كمال عدة الركوب .

وللمرة الثانية ظهر عدم اهمية الكتل بمقارنة مردود « الفلانكس » المضاعف لجنود المشاة (٢٥٦ رتلاً × ١٦ نسقاً) والجزر الراكبة (٢٠٧ أرتال × ٣ أنساق) .

وفي كيرونه (٣٣٩ ق . م) تلاقى الاغريقيون والمقدونيون في معركة حاسمة ، ولم تتحمل « الفلانكسات » الاغريقية العادية صدمة « الفلانكسات » المضاعفة للمقدونيين بشكل جيد فحسب بل انها استطاعت تشتيتها . فعلى الجناح الايمن هاجم فيليب المقدوني ميسرة عدوه بجزء من خيالته الثقيلة . وكانت الهجمة منظمة ولكن بدون اندفاع الى الحد الاقصى ، وتوقفت امام خط أسنة رماح الخصم . وعلى الجناح الايسر هاجم الاسكندر بعمق واخترق خطوط الاغريقيين . ويكمن سر النجاح في تصميم الخيالة على إجـــراء الصدمة وهي راكبة ، وماكان هذا الامر ليحصل لولا وجود قائد فارس مقدام قادر على تصدر الصفوف وتقديم المثل .

وفي خلال تقدمه الرائع حتى تخوم الهند كان الاسكندر يعتبر خيالته الثقيلة سلاحه الفعال . ففي غرانيك (٣٣٤ ق . م .) أظهرت المعركة تفوق خيالته المنظمة المنضبطة العاملة تحت قيادة جيدة على خيالة الفرس التي كانت تفوقها عدداً ، ولكنها تقاتل بـــلا تنسيق . وفي ايسوس (٣٣٣ ق . م) كانت « فلانكسات » الاغريق العاملة في خدمـــة الفرس والمتمركزة بشكل جيد خلف مجرى مسيل ماء تحطم كل هجمات المشاة المقدونية الثقيلة ، بيد ان الخيالة المقدونية استطاعت التغلب على الجناح الفارسي الايسر ثم التفت نحو القلب والميمنة وحققت النصر . وفي اربليس (٣٣١ ق . م .) كانت الخيالة الثقيلة موزعة بشكل غير متساو على اجنحة المقدونيين . ولقد قامت خيالة السيت المدرعة الواقعة على ميسرة المقدونيين باحتواء الايتيريين العاملين على ميمنة الفرس فأدى هذا العمل رغم عدم أهميته الى سحب بعض القطعات من نقطة اتصال قلب الجيش الفارسي وجناحه الايسر ، فماكان من كبد الخيالة المقدونية المتجمع على الميمنة الا أن هاجم أضعف النقاط

وأقلها مقاومة (نقطة الاتصال) ، واخترق الصفوف ، ثم ارتد الى قلب الفرس وميمنتهم ويمكن ان نرى في أعمال هذه الخيالة تمهيداً وصورة لما حصل في معركة روكروا (١٦٤٩). او في احدث المعارك التي تتدخل فيها عناصر هجومية سريعة[1] .

وعلى نهر ايداسب (٣٢٥ ق . م .) استخدم بوروس الفيلة التي تغطي كل خط المشاة . بيد ان الاسكندر العارف بما تبثه هذه الفيلة من رعب في قلب الخيول لم يضع الوقت في ترتيب رجاله ووضعهم في نظام المعركة ، بل قلد ابامينونداس ، ودفع خيالته بشكل مائل على جناح بوروس الايسر ، ودعمها على المحور نفسه بهجمات « الفلانكسات » بالخطوة السريعة ، على حين كانت المشاة الخفيفة تثبت الجبهة المعادية بتظاهرة هجومية مخادعة . وقبل ان يستطيع بوروس تبديل جبهته ، كان المقدونيون قد التفوا من حوله وأخذوه من الجانب الخلفي ، فاختل نظام الفيلة واندفعت لتسبب الفوضى داخل صفوفه .

د) القادة ورثة الاسكندر (من ٣٠٠ ق.م الى ١٦٠ ق.م) .

عندما تقاسم القادة ورثة الاسكندر الامبراطورية ظهرت بينهم خلافات ومشاكل خطيرة لم تحل إلا في معركة إيبسوس (٣٠١ ق . م .) حيث وقف في احد الطرفين انتيغون وابنه ديمتريوس الذي ورث قيادة خيالة الاسكندرية الثقيلة ، على حين وقف في الطرف الآخر كاساندر وليزيماك وبطليموس وسيلوكوس وريث القيادة على مشاة الشرق. ولقد دار الامر بشكل مخالف لما وقع على نهر الايداسب بسبب خطيئة ديمتريوس قائد الخيالة الثقيلة . ففي كلا المعسكرين اصطفت « الفلانكسات » الثقيلة وجهاً لوجه . وكانت فيلة سيلوكوس ال ٥٠٠ تغطي مشاة المتحالفين . وكانت الخيالة الثقيلة بقيادة ديمتريوس تغطي ميسرة أنتيغون . وفي بداية الامر هاجمت الخيالة الثقيلة اقصى ميمنة

---

(١) يذكر العقيد روكول ان معركة خط ماريت (١٩٤٤) تقدم دليلا مزدوجاً على خلود الاسس العسكرية ، ذلك لان القوات المهاجمة في أربليس وفي ماريت استخدمت نقل الاحتياطات من جناح الى اخر ، كما ان القوات المدافعة في كلتا المعركتين تصرفت بشكل متشابه تماماً . ولقد جرى خرق الدفاعات في المكان الذي تم فيه خرق الدفاعات الرومانية . كما ان الاستطلاعات البرية لم تجد مكاناً افضل لوضع الحواجز م/د من المواقع التي اختارها القادة قبل ثمانية عشر قرناً . وهذا يعني ان انيسوس فوستوس كان يرى الامور تماماً كما يراها القادة المعاصرون .

المتحالفين والتفت حولها ودمرتها — وهذه حركة ما كان الاسكندر ليفعل شيئاً آخر غيرها — ولكنها اهتمت بعد ذلك بمطاردة عناصر الميمنة المفتتة الهاربة . ولم يهتم سيلوكوس نيكاتور بما وقع ، بل هاجم بكل عناصره التي لم تُمس بعد ، وسحق مشاة انتيغون المتراصة بشكل كبير لا يسمح بتوجيه هجمات الخيالة داخل فجوات خالية ، الامر الذي أجبر خيالة ديمتريوس على الانسحاب .

ولكن الخيالة المقدونية لم تستفد من درس هذه الهزيمة فيما بعد ، بل فقدت حماسها واندفاعها ، ولم تعد تقوم بالانقضاض بشكل جدي والى اقصى مدى . كما ان الفلانكسات ازدادت بعد هذه المعركة تراصاً ، واتجهت سماكة درع المشاة الثقيلة الى التزايد .

وانتهى تطور التكتيك الاغريقي بأن تكلس داخل قوالب جامدة ، الامر الذي أدى الى انهيار « الفلانكسات » في معركتي سينوسيفال (١٩٧ ق . م .) وبيدنا (١٦٨ ق . م) امام « الليجيونات » الرومانية نظراً لأن هذه « الفلانكسات » لم تكن مدعومة الا بخيالة حذرة لا تتجرأ على الهجوم الجاد . وهناك مكسب وحيد حافظت عليه الجيوش الاغريقية دون انحراف ، وهو استخدام القطعات الخفيفة في مهمات الامن والحيطة .

وفي هذه الفترة هجر الذكاء التكتيكي بلاد الاغريق لينتقل إلى قرطاجنة مع المرتزقة من الجنود الاغريقيين ، وكان على روما ان تحاربهم وتنتصر عليهم لتثبت امبراطوريتها . وكانت اواخر ايام هذه الفلانكسات في الشرق مؤلمة ايضاً . ولقد كانت معارك الرومان ضد ميتريدات (اورشومين وكيرونه في عام ٨٦ ق.م . وريندانا كوس في عام ٧٣ ق.م) عبارة عن هجمات « ليجيونات » مرنة ضد مشاة ثقيلة تسهل المناورة ضدها .

٢ — العصر الروماني :

دخلت الجيوش الرومانية التاريخ متأخرة قليلاً عن الجيوش الاغريقية ، ولكنها لم تلبث ان لحقت بها وسبقتها بفضل الاصلاحات التي دخلت عليها ، كاصلاحات كاميل في بداية القرن الرابع ق.م. مع ما تبعها من نتائج وتعديلات في القرن الثالث ق.م. واصلاحات ماريوس في حوالي ١٠٣ ق.م ولقد رأينا في الفصل التاسع عشر ان التكوين العام « لليجيون » لم يبتدل تبدلاً جذرياً ، اذ بقي « الليجيون » قطعة كبيرة مختلطة

اساسها المشاة الثقيلة ، بالاضافة الى بعض المشاة الخفيفة ، وقليل من الخيالة ، وسرية مختصة بالاعمال الهندسية وباستخدام وسائط الحرب ، ورتل نقل اداري عضوي . وكان تطوره يتعلق بحجم وحدات العمل داخل « الليجيون » وتعدادها ، مع ميل الى انقاص عدد هذه الوحدات وزيادة حجمها بغية زيادة الصلابة والقوة[1] . ولقد تراوح تعداد « الليجيون » العام بين ٣,٩٠٠ و ٧,٠٠٠ رجل بما في ذلك افراد رتل النقل الاداري . ويمكن اعتباره اول « فرقة » تستحق هذا الاسم ، فاذا لاحظنا ان سرية الاختصاصيين كانت صالحة منذ القرن الثاني ق.م لان تثقب الأسوار وتنصب الجسور وتستخدم الابراج المتحركة والمنجنيق والات الحصار والرمي الثقيلة ، امكننا ان نقول بأن هذه الفرقة كانت تملك آنذاك مهندسيها ومدفعيتها .

وبقي « الليجيون » متصفاً بقلة تعداد خيالته وابتعاده عن استخدام اسلحة الرمي . ولم يتطور تشكيله وتكوينه رغم لقاءاته الكثيرة مع الجيوش المقدونية والشرقية وجيوش قرطاجنة الغنية بالمشاة الخفيفة والخيالة والنبالة وحاملي المقاليع . ولكنه كان يستفيد من خيالة حلفائه الغول والتوميديين والتدمريين والسيت . بيد ان تعداد الخيالة في الجيش الروماني بقي رغم مساعدة الحلفاء قليلاً لا يتجاوز $\frac{1}{6}$ التعداد العام . وبقي عدد الخيالة الرومانية النظامية $\frac{1}{10}$ ـ $\frac{1}{15}$ من التعداد فقط . ومنذ الحروب الرومانية ضد قرطاجنة[2] (القرن الثالث ق.م.) ظهر بعض النبالة وحملة المقاليع في المشاة الخفيفة ، ولكنهم ما لبثوا ان اختفوا في القرن الاول ق.م. وفي معركة فارزال (٤٨ ق.م.) لم يكن مع يوليوس قيصر اي نبال ، على حين جمع بومبي ٤,٢٠٠ نبال داخل جيشه المؤلف من ٥٨,٠٠٠ رجل ، اي ان عدد النبالة بلغ عنده $\frac{1}{13}$ من التعداد العام .

وكان تجهيز الصدمة يميل الى زيادة الفاعلية ، اما حماية جندي « الليجيون » فكانت دائماً اقل من حماية رجل المشاة الاغريقية الثقيلة ، ولكنها تعادل على كل حال افضل الحمايات المستخدمة في الجيوش الشرقية . اما المشاة الرومانية الخفيفة فكانت محمية بشكل

---

(١) كان « الليجيون » كما رأينا في الفصل التاسع عشر يتألف من ٢٥ وحدة عمل داخلية (سرية) تضم كل واحدة منها ١٢٥ رجلا من المشاة الثقيلة ، ثم نقص عدد وحدات العمل فاصبحت ١٠ أفواج وزيد حجمها فصار ٦٠٠ رجلا من المشاة الثقيلة .

(٢) Les guerres Puniques

افضل من أية مشاة خفيفة في جميع الجيوش . وكان التسليح القصير (رمح قصير ، سيف قصير) ، يُعبّر عن ارادة التقرب والالتحام . ولهذا بقيت المشاة الرومانية اكثر مشاة العالم مرونة واشدها تشبعاً بالروح الهجومية .

وبمثل هذا التنظيم امنت روما امبراطوريتها . ولقد اعطت الاستراتيجية الرومانية اهمية خاصة لمبدأي الحيطة والاقتصاد بالقوى ، كما حطمت روما كقرطاجنة فكرة وحدة مسرح العمليات . وحققت المناورة على الخطوط الداخلية ، وساعدها على ذلك تقسيم قواتها الى وحدات كبيرة مختلطة .

واستخدم الرومان كالاغريقيين استراتيجية غير مباشرة . بيد ان الاهداف الاقتصادية كانت عندهم دائماً ثانوية . ولم يكن تعرضهم لها منهجياً كما كانت الحالة عند الاغريقيين . وقد يكون هذا عائداً الى ان التنظيم التجاري الروماني كان اقل تطوراً من التنظيم الاغريقي ، وكان الهجوم على الممتلكات عند وقوعه يستمر زمن المناورة فقط ، ولا يتم التوقف عنده او الاصرار عليه . ولقد هدد سيبيون منابع تموين قرطاجنة مرتين . وكانت المرة الاولى بعد ان هزم اسدروبال ، واعتبر ان احتلال قرطاجنة بالانقضاض يضع امامه صعوبات كبيرة **وهذا نوع من الانتظار** . وكانت الثانية عندما علم بنزول هانيبال على الشاطىء وكان ينتظر بآن واحد دعم ماسينيسا وجذب خصمه الى أرض تلائمه ، **وهذا حساب ذو تأثيرات تكتيكية مباشرة** . . وفي اوروبا احتل سيبيون بصورة مبدئية قاعدة قرطاجنة الاقتصادية ، وكان يهدف من وراء ذلك **عزل القوات المعادية قبل سحقها** . .

وكانت المناورة الاستراتيجية غير المباشرة على الخطوط الداخلية تقع بشكل مضطرد . وعندما انتصر هانيبال وتوقف في ايطاليا نقل سيبيون الحرب في اول الامر الى اسبانيا ثم الى افريقيا . واطاحت الضربة الاولى بقاعدة هانيبال الاستراتيجية ، واجبرته الثانية على ان يطير على جناح السرعة لنجدة قرطاجنة . وهكذا حرر سيبيون ايطاليا دون ان يشتبك مع خصمه. ثم نفذ القنصل كورنيلوس نيرو المناورات الاستراتيجية غير المباشرة بشكل رائع . لقد كانت قواته تثبت هانيبال في جنوب إيطاليا ، ولكن أسدروبال كان يعمل بحرية في شمال ايطاليا ، وفي منطقة تفتقر الى قوات رومانية كافية . فما كان من كورنيلوس نيرو الا ان ترك امام هانيبال ستارة خفيفة من القطعات ، واتصل مع قوات الشمال ، وهزم اسدروبال على نهر ميتيور ، ثم عاد الى مواجهة

هانيبال قبل ان ينتبه هذا الاخير الى غيابه[1] .

ودفعت اساليب الاقتصاد بالقوى الى المدى الاقصى من قبل فابيوس ويوليوس قيصر ، اذ ربح الاول وقتاً كافياً حتى استطاع المتحالفون استرجاع روما ، وذلك بان استخدم الارض الصعبة التي تعيق عمل خيالة هانيبال ليتحاشى كل صدام حاسم مع القرطاجنيين المندفعين في تيار انتصاراتهم . اما يوليوس قيصر فقد اعطى في حملة اسبانيا (٤٧ ق.م.) دليلاً رائعاً على خطأ نظرية كلاوزفيتز عندما **انتصر انتصاراً كلياً دون ان يشتبك باية معركة ضخمة .**

لقد قام بمسير استراتيجي مباشر ذي سرعة عجيبة نحو افرانيوس ، واخذ يزعج جيش بومبي بخيالته من الغول ، واجبره على القيام بمسيرات طويلة غير ملائمة كان يقطع عليه خلالها خط التراجع . واعطى جنوده تعليمات خاصة كيما يرتبطوا بروابط الاخوة والمودة مع جنود بومبي المتعبين الجائعين بغية تحطيم معنوياتهم وبث الفرقة بين صفوفهم . ثم حطم خصمه على نهر ايليردا بعد ان حصره في مكان خال من الماء ... وتم الاستسلام .

وتشكل تحصينات المواصلات منذ بداية التوسع الروماني نقطة اساسية من نقاط العمليات ، ويعود انشاء اول الطرق الاستراتيجية الرومانية الى عام ٣١٢ ق.م. وكانت حراسة الطرق الرومانية تتم بصورة مشابهة لحراسة الطرق الفارسية وتستخدم سلسلة من الحصون تمتد على طول الطريق ، وتراقب الممرات الضيقة وتلاقي الوديان والنقاط الحساسة الاخرى والمستعمرات العسكرية حيث تعيش عائلات « الجنود — المزارعين » حول المخافر والمعسكرات .

ونلاحظ في حقل التكتيك تحسناً واضحاً في تدابير الحيطة اثناء المسير رغم ضعف الخيالة والمشاة العضوية .

ولقد استخدم يوليوس قيصر مقدمة خفيفة تضم خيالة من سكان البلاد الاصليين يشرف عليها قادة من الرومان . وكانت هذه المقدمات تعرف كيف تساعد

---

(١) نلاحظ هنا ان مناورات سيبيون وفابيوس وكورنيلوس امام هانيبال تنبع من فكرة مشابهة للفكرة التي كانت تدفع اعداء نابليون في عام ١٨١٣ الى التملص ورفض المعركة في كل مكان يتقدم فيه الامبراطور نفسه ، ومحاولة اجراء المعارك ضد القطعات التي يقودها مساعدوه الذين لا يشكلون خطورة كخطورته في المواقع التي لا يستطيع نابليون نجدتها .

« الليجيونات » على الانتشار ، كما كانت في بعض الاحيان قادرة على تصفية وحدات العدو قبل وصول المشاة الثقيلة . ولم يكن استخدام المقدمات بهذا الشكل مألوفاً آنذاك ، ولكن نتائجه العملية ظهرت بوضوح عندما استطاع يوليوس قيصر ان يحتل بلاد الغول بثمانية « ليجيونات » فقط دون ان يتعرض للمصاعب والاخطار الا مرتين ، اولاهما عند مقابلة النيرفيين والثانية عند مدينة جيرغوفي . ويعود السبب في كلتا الحالتين الى المفاجأة الناجمة عن نقص الحيطة ، بحيث منع هجوم العدو المفاجىء من انتشار المشاة الثقيلة بتشكيلة القتال . ومع هذا فان اساليب يوليوس قيصر لم تعمم وتصبح مألوفة قبل العصر البيزنطي . ولقد كانت حيطة المسير للجيوش الضخمة التي لا تقبل التجزئة – بما في ذلك الجيوش الرومانية – عبارة عن حيطة بدائية تعتمد كل الاعتماد على تفوق المشاة الثقيلة ، والحركة بارتال متراصة .

ثم اصاب التكتيك الروماني تعديل طفيف مع الزمن ، واصبح يعتمد على التباعد داخل التشكيلة المرنة ، كما يسعى لتوجيه الضربات الى جوانب العدو ومؤخراته بفضل سحب جزء من جنود الخطوط الخلفية في السرايا .. ولم يكن هذا التكتيك يحترم بشكل مطلق الترتيب الشطرنجي التقليدي الذي بقي بالنسبة للرومان مجرد مخطط نظامي يمكن ملاءمته مع طبيعة مكان وظروف المعركة . وعندما كان العدو يستخدم الفيلة في هجومه كانت « الليجيونات » تباعد الفرج فيما بينها ، كما ان هناك حالات اصطفت فيها السرايا بارتال متباعدة عن بعضها كيما تسمح للخيول أو الفيلة بان تجد بين الارتال ممراً مستمراً يوجه هجماتها ويخفف من حدتها .

وفي جميع انواع تشكيلات القتال كانت المشاة الخفيفة تشغل عادة الفرج في الخط الاول ، او في الخطوط الاخرى اذا لزم الامر . ولم يكن الرمي ممثلاً إلا باستخدام رشقات الرماح القصيرة عندما يقرب خط العدو الى اقل من ٥٠ متراً . وكان جنود الصف الاول يرمون الرماح القصيرة برشقة واحدة ، ثم يبدأ « عمل السيف القصير الشاق » في قتال الالتحام جسماً الى جسم . وكان تنفيذ المطاردة بعد المعركة نادراً نظراً لنقص الخيالة وندرتها ، او لأن نتائج المعركة وحدها حاسمة (زاما ، ترازيمين) . ولقد كان للتقاليد تأثير كبير في هذا المجال ، نظراً لان المنتصر كان يستنكف عادة عن اجراء المطاردة حتى ولو كان يملك الوسائط اللازمة لها . فبعد معركة كان مثلاً لم يدفع هانيبال قواته حتى كانوسيوم التي لم تكن تبعد أكثر من ٤ كيلومترات عن حقل المعركة بالرغم من التجاء ٤,٠٠٠ روماني اليها (ومنهم سيبيون الذي هزمه فيما بعد) . كما ان سيبيون

توقف بعد انتصاره في بيكولى ولم يطارد أسدروبال في أرض صعبة . ويعلل بوليب ذلك « بخوف سيبيون من منازلة قادة قرطاجنيين آخرين » . بيد ان نهاية معركة ايليبا التي انتصر فيها سيبيون على أسد روبال شهدت مطاردة كاملة لم تقف قبل ان تحقق التدمير الكامل للعدو — ولكن هذا المثال حالة استثنائية .

وعندما كانت مشاة الصدمة الثقيلة تتقابل في هذا العصر ، كانت صعوبة الخرق تفرض دائماً اجراء عملية التفاف . وهنا نجد انفسنا امام ظاهرة تشبه الى حد بعيد ظاهرة « مناعة الجبهات امام الخرق » التي ظهرت مع تطور قدرة الاسلحة النارية في حوالي عام ١٩٠٠ . وكانت عمليات الاستنزاف الجبهية التي تقوم بها مشاة الصدمة الثقيلة في الجيشين المتقابلين غالية التكاليف ، وغير حاسمة غالباً . وكان الوصول الى اللحظة الحدث (التي يضطرب بها تشكيل العدو ويغدو في موقف حرج) يتم بالمشاغلة او بنصب فخ كبير . وهكذا خلق هانيبال نوعاً من المعركة يسترعي الانتباه ، على حين رد سيبيون بالتفاف مزدوج متناسق مع نظام مائل .

وليست معركة ترازيمين (٢١٧ ق.م.) في الحقيقةسوى كمين على مستوى الجيش . لقد ترك هانيبال جنود الرومان ينطلقون في مطاردته ويتوغلون داخل الضباب المحيط ببحيرة ترازيمين ، على حين كانت قطعاته تحيط بهم على المستوى الاعلى من الضباب . وما معركة كان (٢١٦ ق.م.) التي جذبت هجوم الرومان وأثارته الا صورة مشابهة لماراتون . لقد كانت قطعات قرطاجنة الجيدة منتشرة على الاجنحة بتشكيلة الارتال ، على حين كانت قطعات البربر منتشرة في القلب على شكل ستارة . وتلقت هذه الستارة صدمة « الليجيونات » الرومانية المنتظمة على شكل سهم (انظر المخطط آ في الصفحة ٣١٣) . وتوغل الرومان بين ارتال الجناحين فكان عملهم عبارة عن اندفاع للدخول في الطوق ، وكانت النتيجة ان سحقوا بشكل كامل . وفي هذا اليوم انتصر جيش هانيبال وتعداده ٤٠,٠٠٠ رجل على ٨٠,٠٠٠ روماني . ويمكن ان نقول بأن معركة بيكولى (٢٠٨ ق.م.) وايليبا (٢٠٦ ق.م.) اللتين انتصر فيهما سيبيون على اسد روبال عبارة عن معركتين تحاشى فيهما المنتصر الصدام الجبهي المباشر . ففي الاولى (انظر المخطط ب في الصفحة ٣١٣) ثبت سيبيون جبهة الخصم بواسطة جنود المشاة الخفيفة ، ودفع مشاته الثقيلة على الجناحين مستفيداً من المسالك الاجبارية . وفاجأ الهجوم المزدوج القرطاجنيين قبل ان ينشروا عناصرهم بتشكيلة القتال وهزمهم . وفي المعركة الثانية (انظر المخطط حـ في الصفحة ٣١٣) كان تفوق قوات قرطاجنة واضحاً ، اذ لم يكن

مع سيبيون سوى ٤٨,٠٠٠ رجل مقابل ٧٠,٠٠٠ رجل بقيادة اسد روبال بما في ذلك الحلفاء الاسبانيون في كـلا الجيشين . ولم يكن سيبيون يثق ثقة مطلقة بحلفائه ، لذا نراه وقد وضعهم في القلب واعطاهم مهمة تثبيت العدو فقط ، ثم هاجم بالرومانيين الموجودين على الاجنحة بحيث قامت الخيالة والمشاة الخفيفة بالتطويق في الوقت الذي اندفعت فيه المشاة الثقيلة بنظام مـائل باتجاه نهاية خط جناح العدو . وفي خلال المطاردة كانت المشاة الخفيفة تقوم بازعاج القرطاجنيين وتجبرهم على التوقف ريثما تصل المشاة الثقيلة وتحقق النصر المؤزر .

وكان تحقيق المفاجأة يتم في بعض الاحيان بفتح التشكيلة بصورة متتابعة . وتقدم معركتا ماكار (٢٣٠ ق.م) وزاما (٢٠٢ ق.م) تشابهاً في هذا الصدد .

ففي ماكار لم يكن مع هاميلكار باركا سوى ١١,٤٠٠ رجل . وكان عليه ان يقابل بهم ٣٠,٠٠٠ من المرتزقة البربر . لذا نظمهم عند مقابلة العدو بسرعة ، وهاجم برتل اصطفت فيه الفيلة والخيالة والمشاة الثقيلة والمشاة الخفيفة بصورة متعاقبة ، (انظر المخطط د في الصفحة ٣١٣) ، وانطلق الرتـل وهو ينفتح بالتـدريج خافيـاً بذلك الخطوط المتعاقبة الامر الذي جعل البربر يندفعون بلا نظام وهم يجهلون حقيقة العدو الذي يصادفهم فتحطموا على كتلة المشاة الثقيلة . ولم يسمح ميزان القوى للمنتصر بأن يستثمر انتصاره ، واضطر هاميلكار لان يهاجم بفيلته الـ ٧٢ ليتملص وينسحب بعد ذلك الى اوتيك .

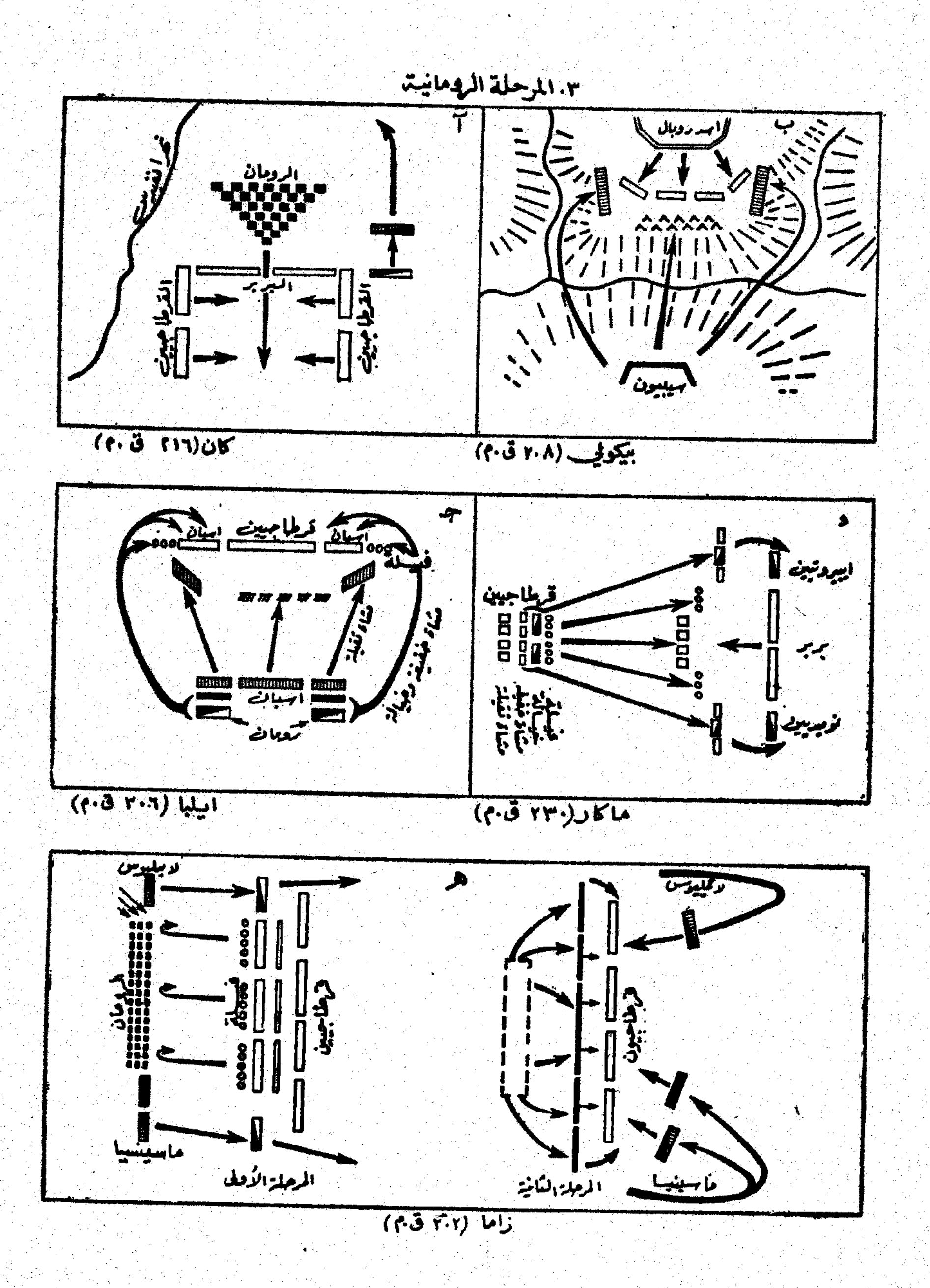
وتقدم معركة زاما بتنوعها كل التركيبات التي يستطيع « الليجيون » تحقيقها . لقد كان مع سيبيون ٣٥,٠٠٠ رجل وكان مع هانيبال ٥٥,٠٠٠ . واحترم الطرفان في بداية المعركة النظام التقليدي ، اذ كانت المشاة الثقيلة في الوسط مع سرايا بالارتال على ٣ أنساق والمشاة الخفيفة في الفرجات والخيالة على الجناحين .

وهجم هانيبال بثمانين فيلاً ، ولكن الفرجات الواقعة بين الكتائب وجهت هجمات الفيلة واحتوتها ، ثم طردتها المشاة نحو خط القرطاجنيين الاول . وتغلبت خيالة لائيلوس وماسينيسا على خيالة قرطاجنة ، والتحمت المشاة الثقيلة بعنف (انظر المخطط ه في الصفحة ٣١٣) .

ودفع الرومان الخط الاول لعدوهم نحو خطه الثاني ، واستطاع خط قرطاجنة الثاني ايقاف الهجوم فترة من الزمن ، ولكنه شعر بالتطويق فتفتت ، وفي نهاية المعركة اقترب

الرومان من حرس هانيبال الشهير والذي يعادلهم عدداً وتسليحاً ، عندها ضم سيبيون كل السرايا على نسق واحد بلا فرجات ، وكان حملة الرماح الطويلة في القلب والامراء وجنود النسق الثالث على الجناحين بغية تمديد الجبهة . وانتهت المعركة الدامية بين قطعات المشاة الثقيلة عندما عادت الخيالة الرومانية والنوميدية واخذت القرطاجنيين من الخلف ،

٣. المرحلة الرومانية



فحسمت المعركة وحققت النصر . وانتهى القتال بمطاردة قامت بها الخيالة فوق سهل اجرد حيث تم قتل الفارين . ولم يفقد الرومان في هذا اليوم سوى ٢,٠٠٠ رجل ، على حين خسر جيش قرطاجنة ٢٠,٠٠٠ قتيل وعدداً مماثلا من الاسرى .

وتقدم جميع معارك العصر الصفات نفسها ، ففي سينوسيفال (١٩٧ ق.م.) هاجم فيليب « الليجيونات » المقدونية بفلانكسات بعمق ٣٢ نسقاً ، ثم دفع ٢٠ سرية واخذهم من الخلف فكانت الكارثة ، وخسر الرومان ٧٠٠ قتيل على حين فقد المقدونيون ٨٠,٠٠٠ قتيل و ٥,٠٠٠ اسير . وفي معركة بيدنا (١٦٨ ق.م) تباعدت «الفلانكسات» بصورة طبيعية عندما كانت تضغط على تشكيل « الليجيونات » المرن ، وهنا اخترقتها السرايا واعملت فيها القتل بكل سهولة . وقتل من الاغريقيين ٢٠,٠٠٠ رجل واسر ٥,٠٠٠ مع ان مجموع تعدادهم الاصلي لم يكن يزيد عن ٤٤,٠٠٠ رجل . وفي معركتي كيرونه (٨٦ ق.م) واورشومين (٨٦ ق.م) . قاتل الرومان عدوهم ميتريدات رغم تفوقه عليهم بمعدل ٣ ضد واحد . ولكنهم قاموا بحركة ماهرة على المؤخرات سببت انهيار جيش العدو قبل ان تستطيع عربات القتال الاسيوية الـ ٩٠ ان تجد مجالاً لعملها . ولم يتعرض الرومان خلال ذلك الى اية خسائر تقريباً (لقد قتل في كيرونه ١٤ رومانياً فقط) .

وبعد كل هذه المعارك اختفت جميع التنظيمات ، ولم يبق الا نظام « الليجيون » . وكان البربر قد انتهوا كقوة مقاتلة في المنطقة ، كما ان سكان البلاد الشرقية كانوا خاضعين على طول امتداد حوض البحر الابيض المتوسط . وفي هذه الفترة ظهرت الخيالة الاقوام الرُحّل لتعلن انهيار الرومان ، وتوفي يوليوس قيصر في عام ٤٤ ق.م. تاركاً خلفه الامبراطورية امام مصيرها المحتوم . ولكن قبل هذا التاريخ بتسعة اعوام (في ٥٣ ق.م) كانت خيالة البارتيين قد سحقت كراسوس في معركة كارهس .

ب ــ الانظمة الغربية وخيالة الرمي

(٤٥ ق.م الى ٥٠٠ م.)

وجد الجيش الروماني نفسه في هذه الحقبة مضطراً للقتال ضد نوعين من خيالة الاقوام الرُحّل يتمتع افرادها بحماية فردية قليلة او بدون حماية على الاطلاق ، وهذه الخيالة هي :

١) الخيالة الآسيوية (البارتيون والهون) المسلحة جيداً بأسلحة الرمي (قوس قوي) ، والقادرة على القتال وهي على ظهور الجياد . ولقد تغلبت هذه الخيالة بتكتيكها على الرومان بصورة مستمرة . وكان البارتيون عبارة عن عدو دائم ، اما الهون فلم يظهروا الا في عام ٤٥٠ م .

٢ – الخيالة الاوروبية (الغوطيون والفانـدال والغوط الغربيون) المسلحة بصورة بسيطة بأسلحة الرمي (قوس صغير) ، والتي كانت تترجل غالباً للاشتباك مع عدوها بالسلاح الابيض . ولقد كان تأثيرها وتفوقها ناجمين عن ضخامة كتلتها ، ولم تصبح عملياتها خطرة هامة الا بدءاً من عام ٤٠٦ م.

وادى ظهور هؤلاء الاعداء الى ادخال ثلاثة تعديلات متتالية في الجيش الروماني :

– ففي القرن الميلادي الاول تزايد عدد الخيالة (ارتفع عددها من $\frac{1}{15}$ الى $\frac{1}{5}$ من تعداد الجيش العام) كما تزايدت الحماية (دروع من الصفائح الفولاذية) وكان التحول الاول دائمياً ، اما التحول الثاني فكان موقتاً نظراً لحرارة الطقس في بلاد ما بين النهرين حيث جرت المعارك ضد البارتيين . وفي فترة حكم تراجان (١٠١ – ١٠٥) عاد الجيش الى الدرع المؤلف من حراشف فولاذية خفيفة .

وفي فترة حكم ديوكليتيان عام ٢٨٥ ارتفع عدد الخيالة التي اصبح $\frac{1}{3}$ تعداد الجيش العام ، وكانت هذه الخيالة منتظمة داخل وحدات صغرى مستقلة تضم ٥٠٠ – ١٠٠٠ فارس (انظر فصل ١٩) . وفي عهد جوليان عام ٣٦١ عاد عدد قليل من عربات القتال الى الظهور .

– اعتباراً من عام ٣٧٩ وفي عهد تيودوس الاول ادى انضمام اعداد كبيرة من الغوطيين مع تجهيزاتهم وسلاحهم الى الجيش الروماني الى ابطال بقايا آثار «الليجيونات» ، اذ كانت هذه الخيالة تصمد بشكل جيد امام الهون رغم تفوقهم عليها .

وبقيت الاستراتيجية والتكتيك الرومانيان بلا تغيير حتى عهد ديوكليتيان ، وكانا عاجزين عن اخضاع البارتيين الذين كانوا يستخدمون الاستراتيجية والتكتيك غير المباشرين (استراتيجية الفراغ وتكتيك الكر والفر) .

وكانت ليجيونات كراسوس قد غُلبت في كارهس (٥٣ ق.م.) من قبل خيالة البارتيين التي لا تُمسك . وفي عام ٥٢ ق.م خرج انطوان بحملة لمعاقبتها والثأر منها ،

ولكنه عاد الى قواعده دون جدوى . ومنذ عام ٩٨ حتى عام ١٩٣ قام الاباطرة الرومان بمساعدة بعض عناصر البارتيين المنشقين المعارضين ، او بعض الخيالة المساعدة المشابهة بثلاث هجمات وصلت حتى كتيسيفون دون فائدة ، ثم عادوا الى التصرف العقيم نفسه في عام ٣٦٩ . وكان البارتيون شعباً لا يغلب لانه لم يكن بوسع عدوهم اجبارهم على خوض المعركة ، ولانهم كانوا لا يقيمون وزناً للتمسك بالارض ، ولكنهم يتحينون الفرص الملائمة ، فما ان يروا المشاة الرومانية سائرة في السهل ودون حماية خيالة الرمي حتى يبدأوا هجومهم ويكرروا معركة كارهس دون ان يتعرضوا لاي خطر . وهكذا انتصر ارتابيان في نصيبين في عام ٢٠٠ ، وسحق سابور خصمه فاليريان في ايديس واسره في عام ٣٠٠ . ولقد تكرس عجز الرومانيين عندما ظهرت في صفوفهم عربات القتال القديمة الحاملة للنبالة . تلك العربات التي زال اوانها وبطل مفعولها واخذت جوليان ليموت تحت اسوار كتيسيفون (٣٦٩) .

وبعد اصلاحات ديوكليتيان ، حاولت النظرية الحربية بناء الاستراتيجية على مبدأ تجميع وبعثرة قطعات صغيرة — افواج — موزعة على مختلف مساحات الامبراطورية ، بشكل يمكن معه جمع هذه القطعات المستقلة في حقل المعركة داخل تشكيلات قتالية كبيرة — « ليجيونات » مؤلفة من ١١ فوجاً — والقيام بعد ذلك بحركات تكتيكية . ولم يعط هذا التدبير الفوائد المرجوة منه ، لان التجمع كان يتم بكل صعوبة ، ولان الافواج المنعزلة كانت تفقد تدريبها التكتيكي وقدرتها القتالية .

اما التدبير الذي بقي فعالاً حتى انهيار الامبراطورية النهائي فهو نظام التحصينات الذي اسس منذ القرن الاول الميلادي ، وكان مؤلفاً من خط مقاومة يضم الحصون والاسوار والخنادق ، يتقدمه خط المخافر الامامية المشكلة من مخافر الرصد والانذار ، وتتمركز خلفه قوات احتياطية موزعة على الطرقات الاستراتيجية الخلفية داخل معسكرات « الليجيونات » او داخل حصون تضم مخازن التموين .

ثم بدأت مظاهر الانحطاط بالظهور .

ففي ستراسبورغ (عام ٣٥٧) انتصر جوليان على خيالة البرابرة ، وكان هذا آخر انتصار تحققه « الليجيونات » . لقد استطاعت الخيالة الجرمانية في بادىء الامر بعثرة

الخيالة الرومانية ثم جاءت لتتحطم على مربعات الليجيونات ، عندها تمكنت الخيالة الرومانية من القيام بهجوم معاكس ناجح . وبعد ذلك بفترة قصيرة اخذ الخيالة البرابرة بثأرهم في اندرينوبل (عام ٣٧٨) وهزموا الرومان هزيمة ماحقة سببت الاختفاء الطويل لقطعات المشاة الثقيلة المسلحة للقيام بالصدمة فقط ، كما اكدت انتهاء فاعلية حمايتها ودروعها الثقيلة .

وعندما ظهر الهون في اوروبا في حوالي عام ٤٤٥ ، وجد الخيالة الغوطيون المكلفون بالدفاع عن الامبراطورية صعوبة كبيرة في مجابهة حركاتهم . ويمكن اعتبار انتصار كاتالونيا (٤٣١) الذي حققته المفارز الرومانية المدعومة ببعض مفارز خيالة البرابرة غير النظامية عبارة عن انتصار صُدفي ورمزي . وعندما انهارت الامبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٦ كان فن الحرب الروماني بلا محتوى حقيقي ، وكانت العمليات العسكرية تنفذ بخيالة خفيفة منظمة باسلوب عشائري ، اما الجيوش الرومانية النظامية فكانت معدومة الا في بيزنطية التي جاءت لتأخذ مكان روما .

الفصل السادس والعشرون

من سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية
الى سقوط بيزنطيــــة
(من ٥٠٠ حتى ١٥٠٠)

« إن اتساع مسرح العمليات ، وحركيــة القطاعات الواسعــة ، والاستخـــدام الأريب للمفاجـــأة ، جعلت معـــارك هولاء الآسيوين (المغول) تنافس جميع المعارك التي يذكرها التاريخ إن لم تتفوق عليها » .

(ليدل هارت)

تقع اهم مسارح العمليات في هذه المرحلة في شرقي اوروبا وجنوبي البحر المتوسط وشرقه نظراً لاندفاع خيالة الرمي القادمة من آسيا بهذه الاتجاهات . وبالاضافة الى ذلك كان هنالك مسرح عمليات ثانوي بعد اتفاقية (٨٤٣) التي خلقت دولة لوتارانجيا التي لم تتوقف الدول الاوروبية عن الصراع للسيطرة عليها . ولقد رأينا الاختلافات الجغرافية البينة بين المسرحين ، وكيف كان الاول مؤلفاً من ارض مكشوفة تصلح لعمل الخيالة ، على حين يتألف الثاني من ارض اشد ضيقاً واكثر تنوعاً ، تغطيها الاشجار وتتخللها الجبال ، وتصلح بذلك لعمل المشاة .

وكان تطور الجيوش يسير متأثراً بعاملين : الطبيعة الجغرافية ، وظهور اسلحة الرمي . ويمكن تقسيم هذا العصر الى مرحلتين ، لوحظ في المرحلة الثانية منهما تحول واضح جذري . وفي هذه المرحلة نفسها ظهر تطور كبير في البحرية (دفة القيادة —

البوصلة – مقياس الزوايا – استخدام الخرائط) الامر الذي فتح للاساطيل مجال الملاحة في اعالي البحار ، واعطاها قيمة متزايدة على المستويين التكتيكي والاداري .

وعندما كان القوس اداة الرمي الوحيدة ، كانت الخيالة النبّالة المسلحة باقواس قوية هي سيدة الموقف ، وكانت خيالة الاقوام الرُحّل قادرة على العمل بحرية في حوض البحر الابيض المتوسط دون ان تستطيع الجيوش السيطرة عليها الا بخيالة مشابهة لها .

وبعد غزوات الهون (٤٥٠) هاجم الافاريون بيزنطية (٦٢٦) وتمركزوا على نهر الدانوب حتى انهى شارلمان وبيبان لوبريف (٧٩١ – ٧٩٦) وجودهم العسكري . واجتاح العرب بلاد الشام ومصر وبلاد فارس في حوالي عام ٧٢١ ، وتوغلوا داخل فرنسا في عام ٧٣٧ ، وسيطر اسطولهم على شواطىء ايطاليا وفرنسا وكورسيكا وسردينيا ، وساعد على احتلال صيقيلية في عام ٨٥٠ . ثم ظهر الاتراك السلجوقيون (١٠٥٥ – ١٠٧٦) الذين ورثوا بعض اجزاء الامبراطورية العربية ، وبدأت عمليات استعادة اسبانيا (١٠٨٤ – ١٢٣٩) . وفي سهول اوروبا الوسطى كان للخيالة الهنغارية في عام ٩٠٠ نشاط كبير . ومنذ عام ١٢١٨ دخل المغول روسيا ، ووصلوا الى فيينا في عام ١٢٣١ ، واجتاحوا بولونيا في عام ١٢٤١ ، ثم تراجعوا بمحض ارادتهم الى روسيا . وبعدها قام الاتراك العثمانيون بالقضاء على آخر آثار الامبراطورية البيزنطية (١٤٥٣) لينطلقوا بعد ذلك في حملاتهم لاحتلال بلاد البلقان .

وكانت ردود فعل الشعوب التي ورثت روما تتجسد في ردود فعل بيزنطية التي قامت في عصر جوستينيان باعادة احتلال بعض اجزاء الامبراطورية (٥٢٧ – ٥٦٥) ، ثم قامت بالهجوم المعاكس (٩٧٥ – ١٠٤٥) . ولقد استفاد الغربيون من الخلافات السياسية الداخلية لشعوب الشرق ، فحصلوا بذلك على فوائد جمة في عدة مناسبات : كامبراطورية شارلمان (٧٧١ – ٨١٤) واعادة احتلال اسبانيا (١٠٨٤ – ١٢٣٩) والحروب الصليبية (١٠٩٧ – ١٢٩١) . ولكنهم كانوا عاجزين عن اخضاع شعوب الشرق عسكرياً بصورة نهائية . ويتمثل انحسار المد الاسيوي عن اوروبا بقيام ايفان الثالث بتحرير بلاد الروس من التتر في عام ١٤٨٠ .

وعلى جبهة لوتارانجيا كان الصراع مع الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، وحروب المائة عام يتمتعان باهمية نسبية محدودة ، وخاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار تأثيرهما على مصير الحضارات .

وفي اوروبا الغربية بدأت الشعوب تعود من جديد الى مبادىء الحرب ، [illegible] بين نسيت هذه المبادىء في بقاع العالم الاخرى رويداً رويداً بعد ان سادت [illegible] طويلة من الزمن . وبدأت مراكز القوة والحضارة تتحرك نحو الغرب .

أ ـ فترة استخدام الاسلحة البيضاء (من ٥٠٠ حتى ١٤٠٠)

ظهر في هذه الفترة نوعان من الجيوش هما : الجيوش البيزنطية والجيوش الغربية .

ولقد كان الجيش البيزنطي اهلاً للمقارنة مع الجيوش الرومانية باستثناء فترات ضعفه الناجمة عن صعوبات مالية وخلافات سياسية . فبعد ان اعاد جوستينيان تنظيمه في القرن السادس ، اصبح قادراً على مقارعة اعدائه ، وحقق انتصارات كبيرة حتى القرن التاسع .

واستفادت اصلاحات جوستينيان من دروس سقوط روما فاستبعدت الحرس المتحرك الذي اوجده ديوكليتيان ، وحاولت ملاءمة الجيش مع العدو الرئيسي المحتمل الذي لم يكن سوى الخيالة النبالة . وهكذا اصبحت الخيالة الثقيلة السلاح الفعال الاول بعد ان جهزت للصلمة والرمي . واصبح الخيال البيزنطي الثقيل المحمي بدرع من الزرد يحمل قوساً قوياً وسيفاً ورمحاً طويلاً . وغدت عدة الركوب متلائمة مع متطلبات الفروسية (ركاب وسرج) . وكانت المشاة الثقيلةَ المحمية بدرع من الزرد تحمل بدورها القوس والسيف والرمح الطويل . وظهرت مصالح الادارة والهندسة والصحة بشكل منظم جيد لاول مرة .

و « تمفصلت » الجيوش الى قطعات من سلاح واحد واسلحة مختلفة ، ومؤلفة من اقسام مرنة جداً ، ومبنية على المبدأ الثلاثي .

وكان لواء الخيالة يضم ٣,٠٠٠ فارس ، وينقسم الى ثلاثة افواج ، في كل فوج منها ثلاث سرايا .

اما الفرقة المختلطة فكانت تضم ٢٠,٠٠٠ رجل موزعين الى ثلاثة الوية ، في كل لواء منها ثلاثة افواج . ويتألف الفوج من عشر سرايا نصفها من الخيالة ونصفها الاخر من المشاة .

وكانت الجمهرة المختلطة تتألف من ١,٣٠٠ فارس ، و ٤,٠٠٠ جندي من المشاة .

ومنذ القرن السابع اصبحت هذه القطعات مرتبطة بمنطقة عسكرية تضم فرقاً تدعمها مليشيا الحدود المسلحة باسلحة خفيفة . اما الاحتياط العام فكان مؤلفاً من جمهرات مختلطة مقسمة الى جميهرات مختلطة . وكانت بعض المناطق العسكرية الهامة المرتبطة بتحصينات الممرات الاجبارية ممسوكة بالقطعات المحاربة بصورة دائمة . وفي القرن التاسع كان هناك ٧٠,٠٠٠ رجل يحتلون تحصينات المناطق العسكرية الشرقية من اصل القوات النظامية التي تعد ١٢٠,٠٠٠ رجل .

وكانت الاستراتيجية البيزنطية تعتمد على الحيطة والامن اعتماداً كلياً ، كما كانت تعطي الاستطلاع اهتماماً خاصاً . وفي حالة الهجوم كانت حاميات المناطق العسكرية تتحرك لتتلاقى عند العدو . ثم تحاول الاشتباك معه وتطويقه . اما في الدفاع فكانت الجمهرات المختلطة وقوات المناطق العسكرية تتجمع على الطريق العسكري الاسيوي (الطريق الملكي الفارسي القديم) لتقوم بالهجوم المعاكس . وهنا لا بد من ان نذكر بان المشاة كانت من الناحية التكتيكية مشاة مواقع واحتلال : انها تمسك نقاط العبور والقواعد والمعسكرات ، على حين تقوم الخيالة بالرمي على العدو لازعاجه على غرار الاسيويين . ولا تنقض عليه بالسيوف الا بعد ان تدب الفوضى بين صفوفه .

ولقد سمحت كل هذه الاساليب العسكرية للبيزنطيين بان يعيدوا في ايام جوستينيان احتلال معظم المواقع الرومانية في حوض البحر الابيض المتوسط ، وان يقاوموا بعد ذلك هجمات خيالة الشعوب المجاورة ، وساعدتهم طبيعة آسيا الصغرى الجبلية على ذلك.

وتعتبر حملة شمال افريقيا التي شنها جان الارمني في القرن السادس ضد الفاندال وادت الى سحقهم حملة نموذجية من الناحية التكتيكية ، علماً بان القوات البيزنطية المشتركة فيها كانت قليلة (١٠,٠٠٠) جندي مشاة و ٥,٠٠٠ فارس بيزنطي و ١,٠٠٠ خيال مساعد من الهون والهيرول) .

لقد سار جان الارمني نحو قرطاجنة متتبعاً خط الشاطىء ليحافظ على الارتباط الاداري مع اسطوله . وحاولت خيالة الفاندال — التي لم تكن خيالة رمي — ان تتغلب عليه بان ارسلت جمهرة رئيسية بقيادة آماتاس الى مضيق آديسوم على الطريق المباشر ، وجمهرتين ثانيتين بقيادة جيبا موند وجيليمير على مجنبة البيزنطيين اليسرى ومؤخراتهم .

وكان الجيش البيزنطي مغطى بمقدمة ومجنبتين من الخيالة . وتغلبت مقدمة الجيش على آماتاس واجبرته على الانسحاب باتجاه قرطاجنة ، واستطاع الهون العاملون على

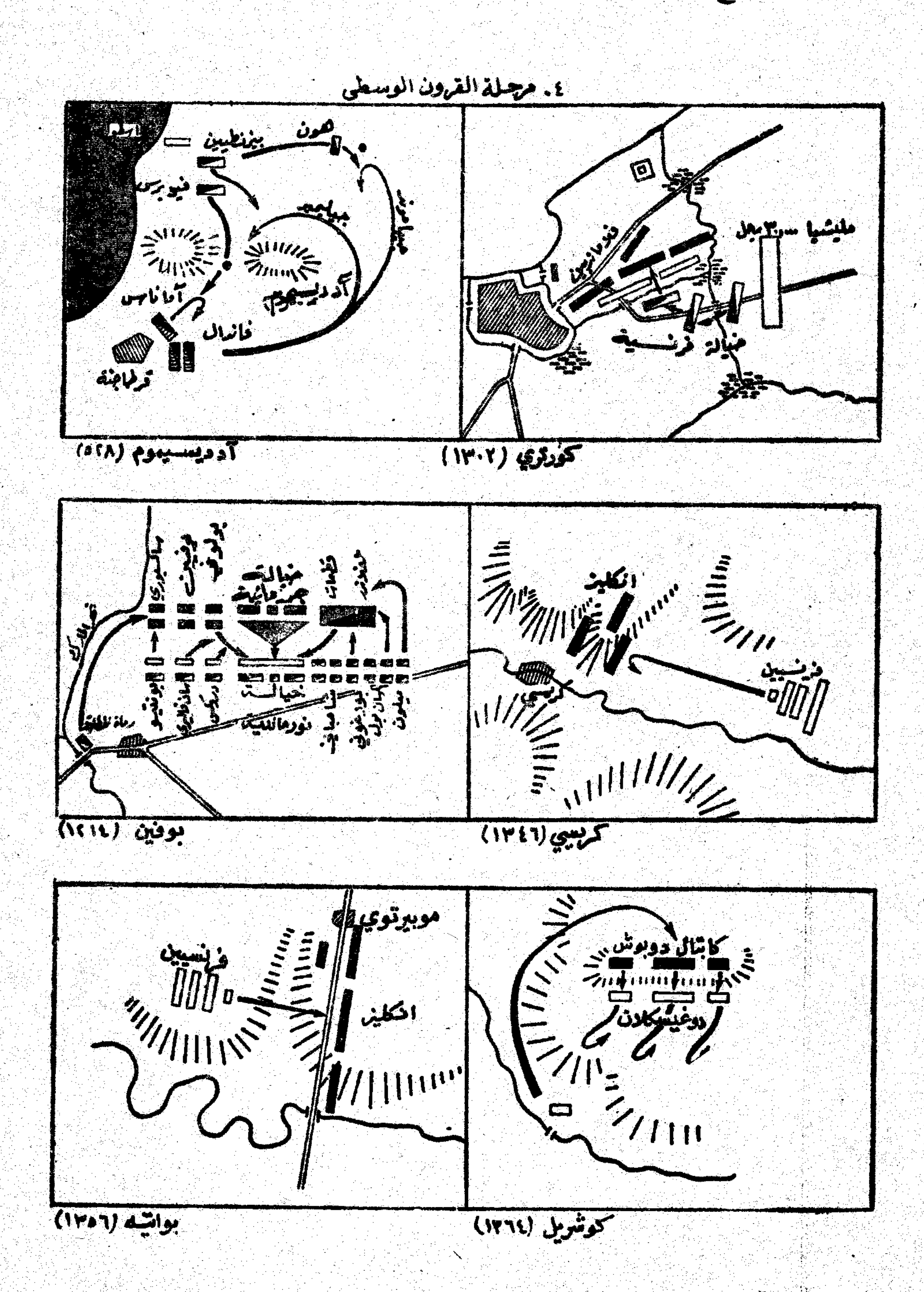
المجنبة سحق جيباموند في سيبكا اسيد جوني مع انهم كانوا ٦٠٠ خيال فقط مقابل ٢,٠٠٠ وكان جيليمير قد حقق نجاحاً محدوداً ضد المقدمة التي انتصرت على آماتاس، ولكن خيالة البيزنطيين ارتدت نحوه وسحقته. ولم تصل مشاة جان الارمني الى ارض المعركة الا بعد انتهائها. وفي تريكاماروم وقع امر مشابه اذ استطاعت خيالة البيزنطيين المدرعة سحق الفاندال قبل قدوم المشاة التي اشتهرت آنذاك بعمليات نهب معسكرات العدو. وهكذا استفاد البيزنطيون جيداً من درس معركة كارهس، واصبح فرسان بيليزير اونارسيس يعادلون الفرسان البارتيين او الفرس، الامر الذي جعل الفرس والبيزنطيين يستنزفون بعضهم بعضاً دون الوصول الى نتيجة حاسمة، الامر الذي استفاد منه العرب والاتراك فيما بعد. وعندما ظهر جنود المشاة البيزنطيون المسلحون بالاقواس في حقل المعركة كان هؤلاء الجنود يعرفون بان مهمتهم ثابتة، لذا كانوا يعدون حواجز وجدران من الحجارة ليعملوا من خلفها، على حين تقوم الخيالة بحركاتها القتالية حول منطقة الحواجز. ولزيادة المقاومة والصمود كانت المشاة تتحصن خلف الخنادق أو وراء سياج من الاوتاد، وكانت تجد خلف جدرانها المؤقتة الوقت الكافي لترمي باقواسها القوية سهاماً قادرة على خرق دروع الخصم دون ان يقلل من فاعليتها ايقاع رميها الضعيف.

وسجلت جيوش شارلمان مرحلة انتقالية بين البيزنطيين وجيوش الاقطاعيات في الغرب. وتشبه خيالة الكارولنجيين الخيالة البيزنطية الا ان قوسها اقل قوة وتأثيراً. اما مشاة شارلمان فكانت تضم حملة الرماح وتجهل القوس جهلاً تاماً. وكان تكوين جيوش الاقطاعيات مبنياً على وجود «الرمح المدعّم» اي على وجود فارس يسير من حوله عدد من المساعدين المؤلفين من (حامل السلاح، الحاشية، خيالة مدرعين، رقيب فارس). وعندما انشأ شارل السابع قطعات الفرسان في عام ١٤٦٠ حدد تشكيلة «الرمح المدعّم» وجعلها تضم فارساً وثلاثة من النبالة وخيالا مدرعاً وحامل سلاح يمتطون كلهم الجياد. وكان هناك في بعض الاحيان قطعات مؤقتة تضم الخيالة او حملة الرماح او النبالة فقط. وحافظ الانكليز على ميزة واضحة في التنظيم عندما جمعوا النبالة والخيالة المدرعة داخل قطعات المشاة. وانشأوا خيالة خفيفة حقيقية.. لم تعرف في اي جيش آخر. ولقد مالت الحماية الى التزايد بشكل واضح وخاصة بعد معركة بافي عام ٧٧٤ التي سحق شارلمان فيها اللومبارديين.

ويمكننا ان نقول بان التأخر الذي اصاب تكتيك جيوش الاقطاعيات اكبر بكثير

من التأخر الذي لحق باستراتيجيتها . فلقد كانت حيطة القطعات معدومة او مؤمنة بعمليات استطلاع خفيفة لا قيمة لها . واختفت المقدمات والمخافر الامامية . وغدت

٤. مرحلة القرون الوسطى



آدريسيوم (٥٢٨)
كورتري (١٣٠٢)
بوفين (١٢١٤)
كريسي (١٣٤٦)
بواتيه (١٣٥٦)
كوشريل (١٣٦٤)

التشكيلات بعد شارلمان متراصة ضخمة . ويعود كل ذلك الى الاهمية المعطاة للوقاية الفردية . تلك الاهمية التي تزدري تأثير المفاجأة بالرمي . وكانت الجيوش تكتفي بان ترى وتستكشف امامها مسافة لا تزيد عن مسافة الانقضاض . وفي كريسي كان ثلاثة من الخيالة الفرنسيين فقط يستطلعون امام الجيش الملكي وعلى مسافة قريبة جداً . وكان الفرنسيون عاجزين عن كشف وتثبيت القطعات الانكليزية الامر الذي يجعلها قادرة على التملص من المعركة عندما لا تحس بانها تملك التفوق اللازم . وكان لدى الانكليز على العكس خيالة جيدة ، إذ كان فرسان ادوارد الثالث يشكلون حرساً حقيقياً . ولقد اشتبكت هذه الخيالة مع خيالة الفرنسيين الثقيلة قبل معركة بواتييه (١٣٥٦) ، بهجمات مفاجئة سريعة اعدت للاشتباك الاساسي . ولكن حماية القطعات الإنكليزية اثناء التوقف كانت سيئة ، وهذا هو سبب المفاجأة التي حققها الفرنسيون في بون فالان حيث سارت الامور كما يلي : عندما علم دوغسكلان بان خصومه الثلاثة روبير كنوليس وكالفيلي وغرانسون تفرقوا في اتجاهات مختلفة انتقل بسرعة وخلال يومين من كان الى مانس ، فوجد نفسه على مسافة ٤٤ كم من غرانسون المعسكر في بون فالان . واحس كنوليس بان هناك حركة فرنسية تدعو الى القلق فاصدر الاوامر الى مساعديه للاجتماع به . ولكن احد المراسلين سقط في يد الفرنسيين ولم تصل الاوامر الى اصحابها . عندها سار دوغسكلان تحت جنح الظلام وباكبر سرعة ممكنة دون الاهتمام بنظام وتماسك قطعاته ، فوصل الى مسافة قريبة من معسكر غرانسون دون ان يحس الخصم بقدومه . ثم هاجم المعسكر مع ٢٠٠ فارس استطاعوا بالمفاجأة تشتيت ٤,٠٠٠ رجل . والحقيقة ان نجاح دوغسكلان يعود الى انه سار ليلاً ونهاراً خلال ثلاثة ايام (من ١ حتى ٤ ديسمبر — كانون اول) على طريق كان — بون فالان دون اي توقف .

وبصورة عامة كانت تشكيلات القتال في هذا العصر ضخمة ووحدات العمل ثقيلة جداً . كما كانت المناورات محدودة جداً . اما الاتصال والتعاون بين مختلف الصنوف فكان صغيراً ويكاد ان يكون معدوماً وخاصة لدى الفرنسيين . ولم يكن هناك ما يمنع الخيالة من ان تمر عبر صفوف المشاة لتنقض ، او ان ترسل الى العدو في طلب المبارزة والنزال بشكل يحرم الجيش من مميزات المفاجأة ، او ان تقسم الايمان بعدم اجداء اية مناورة تراجعية « تزيد عن ٤ Arpents [1] » .

(١) أي ما يعادل حوالي ١٦٩ آراً .

وبالرغم من خطورة خيالة الصدمة وقوتها فانها لم تكن تسيطر على حقل المعركة سيطرة تامة ، ذلك لانها كانت تترجل للقتال كمشاة عندما تجد الارض صعبة . ولان المشاة العادية ومشاة المليشيا والكومونات كانت قادرة على القيام باعمال جيدة اذا احسنت استخدام الارض . كما انها قادرة على الصمود امام صدمة الخيالة اذا ما ارتدت الدروع مثلها . وهذا عامل مهمل في معظم قصص التاريخ العسكري .

ففي هاستينغ (١٠٦٦) استطاعت « فلانكسات » المشاة السكسونية المدرعة صد الخيالة النورماندية . ولم تستطع هذه الخيالة تشتيتها الا بعد ان تظاهرت بالفرار وامطرتها بوابل من السهام بفضل الرمي المنحني . وفي كورترى (١٣٠٢) تعثرت المعارك الثلاث لخيالة روبير دارتوز داخل السواقي والحفر التي كانت تغطي المليشيا الفلامندية . وأثرت خيالة روبير دارتوز على مشاته نفسها وسببت الارتباك بين صفوفها وشتتتها ، الامر الذي سمح للمشاة الفلامندية بضرب الخيالة وتكبيدها خسائر فادحة . وفي آزينكور (١٤١٥) دفع لانكاستر مشاته في ارض متضرسة مغطاة بالاشجار ليجنبها الصدام المباشر مع ١٠,٠٠٠ خيال معاد . واستخدمت هذه المشاة رشقات السهام فاثرت على الخيالة تأثيراً كبيراً . وعندما تعثرت سرايا الخيالة المتراصة العاملة فوق ارض موحلة وتخلخلت صفوفها قام جنود المشاة بانقضاض كثيف واخذوا يقتلون الفرسان بعد اسقاطهم على الارض .

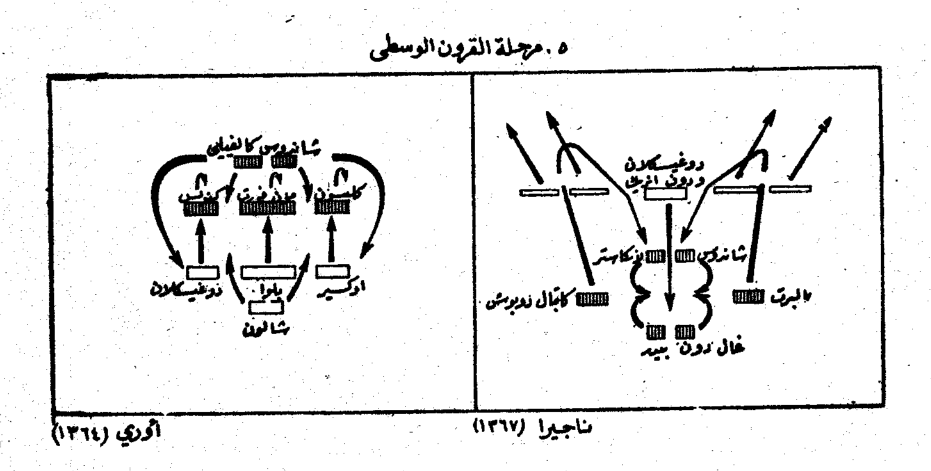
وفي بواتييه (١٣٥٦) تحطمت هجمات الخيالة الفرنسية على خط مشاة انكليزي مغطى بالكروم ومجاري السيول . فلما رأت تعثر هجماتها الراكبة ترجلت لتقاتل كمشاة فابادها هجوم معاكس قامت به الخيالة الانكليزية على ارض ملائمة . وفي لينيانو (١١٧٦) استطاعت مليشيا لومبارديا التغلب على الخيالة الجرمانية في معركة تشبه معركة كورترى . وهكذا نرى بان المشاة الانكليزية كانت تتصرف في الاراضي السهلة الصالحة لعمل الخيالة المعادية بشكل يشابه تصرفات المشاة البيزنطية القديمة ، وذلك بان تتخندق بسرعة بعد نصب سور من الاوتاد والاعمدة يسمح برمي الخيالة بالسهام من مسافة قريبة . وهذا ما يفسر معركة كريسي (١٣٤٦) . وهناك حالات استطاعت فيها مشاة شجاعة ومقودة بشكل جيد الانتصار على الخيالة الراجلة فوق ارض عادية . ففي سيمباش (١٣٨٦) استطاع ١٣٠٠ سويسري اختراق وتفتيت مجموعة من خيالة اللورين المترجلين مؤلفة من ٣,٠٠٠ فارس ، مع ان هذه الخيالة كانت تطوق السويسريين في بداية المعركة .

ولكن المشاة كانت تتعرض للتشتيت والهزيمة مهما كان عددها اذا ما هاجمتها

الخيالة فوق ارض مكشوفة ملائمة . ففي مونس – آن – بيفيل (١٣٠٤) استطاعت الخيالة الفرنسية سحق ٦,٠٠٠ فلامندى من حملة الرماح . وفي بوفين (١٢١٤) استطاع ٥,٠٠٠ فارس فرنسي الانتصار على ٣٠,٠٠٠ من رجال المليشيا الفلاماندين .

ومهما اسهبنا بالوصف فاننا عاجزون عن اظهار مدى تخلف الخيالة وخاصة الخيالة الفرنسية التي كانت تنقض على جبهة ضيقة داخل سرايا متراصة دون ان يكون في عملها اية فكرة مناورة . ولقد ضاعت معارك كورترى وكريسي وبواتيه بسبب هذا الاستخدام الخاطىء دون ان يؤدي ذلك الى تعلم أي درس . ففي بواتيه انقض رتل فرنسي مؤلف من جمهرات من الخيالة تضم كل واحدة ٧,٠٠٠ فارس على جبهة ٧٠٠ م على حين لم يكن مجموع الجيش الانكليزي المقابل يزيد على ٧,٠٠٠ رجل منتشرين على جبهة عرضها ٢,٠٠٠ – ٢,٥٠٠ م ، وموزعين الى افواج يضم كل فوج منها ١,٠٠٠ – ٢,٠٠٠ رجل . ويدفعنا هذا العمى العسكري الى الاعتقاد بانه لو تمتع ني ببعض الثقافة العسكرية لتحاشى القيام بانقضاضه الشهير في واترلو . والذي كان تكراراً لاخطاء حرب المائة عام ، دفع الجيش الفرنسي ثمنه غالياً .

٥ . مرحلة القرون الوسطى



ناجيرا (١٣٦٧) — أوري (١٣٦٤)

ومع هذا فان روح المناورة لم تختف نهائياً . بل ان هناك حالات استطاعت فيها وحدات عمل خفيفة نسبياً اخذ تشكيلات ذكية وتنفيذ مناورات فعالة . وتعطينا المعارك الرئيسية الثلاث التي شنها دوغسكلان المثال على ذلك . ويندر ان نجد في هذه المعارك وحدات عمل تضم اكثر من ١,٠٠٠ – ١,٥٠٠ رجل . وبالرغم من ذلك كانت هذه

الوحدات منسقة بالعمق بشكل يسمح بخلق وحدات احتياطية . ففي معركة كوشريل (١٣٦٤) جذب دوغسكلان قوات كابتال دوبوش خارج موقعها المنيع بان تظاهر بالانسحاب على حين كان احتياطه يلتف حول العدو ويهاجمه من الخلف . وكانت هزيمة دوغسكلان في معركة اورى (١٣٦٤) ومعركة ناجيرا (١٣٦٧) ناجمة عن مناورة احتياطات العدو اكثر من ان تكون ناجمة عن قوة الصدمة الجبهية . ففي اورى تراجع الخط الانكليزي تحت ضغط البروتون بيد ان قوات كالفيلي وشاندوس تابعت عملها ، وقام كالفيلي بدعم مون فورت في القلب ثم انسحب ليدعم كليسون في اليسار . كما هرع شاندوس الى اليسار وتعاون مع كليسون على مهاجمة مجنبة البروتون حيث تحطم اوكسير . اما احتياط البروتون بقيادة شالون فقد انطلق الى خط القتال بمفارز صغيرة ، فلما عاد شاندوس نحو ميسرة البروتون حيث يوجد دوغسكلان هاجم هذه المفارز وانتزع النصر . وهكذا فان نشاط القوات الاحتياطية التي لم تسمح للعدو بتثبيتها او استنزافها هو العامل الذي حقق النصر . (انظر المخطط في الصفحة ٣٢٦) .

وفي ناجيرا ذابت اجنحة دون انديك المؤلفة من قطعات خفيفة فقط (خيالة اسبانية) تحت تأثير صدمة البرت وكابتال دوبوش وكان هذا كافياً لتحديد مصير المعركة . بيد ان التنسيق الانكليزي الجيد بالعمق ساعد على القيام بعملية تطويق أسر فيها دون أنريك ودوغسكلان .

ومن المؤكد ان معارك القرون الوسطى لم تكن تدار ككل متماسك بل كانت تتجزأ الى مجموعة من الاشتباكات المستقلة . وتقدم معركة بوفين مثالاً واضحاً على ذلك .

لقد كان تفوق الجيش الامبراطوري واضحاً ، اذ كان في صفوف هذا الجيش ١٠,٠٠٠ فارس و ٥٠,٠٠٠ من جنود المشاة المتحالفين . ولم يكن مع الفرنسيين سوى ٥,٠٠٠ فارس و ٢٠,٠٠٠ من المشاة . واضطر فيليب اوغوست امام هذا التفوق المعادي الى توزيع قواته بتشكيلة متباعدة مرنة لم تكن الجيوش تستخدمها منذ اختفاء الجيوش الرومانية ، فاستفاد من هذا التوزيع فائدة لا تنكر .

ودارت الامور في البدء ضد مصلحة الجيش الفرنسي ، وكانت الحيطة سيئة كالمعتاد ، واشتبكت مؤخرة الرتل الفرنسي خمس مرات مع مقدمة الحلفاء . واستطاعت الخيالة الخفيفة والنبالة ان تصد بشكل جيد هذه الهجمات المتفرقة . ووصلت مؤخرة

الفرنسيين لتقدم المساعدة ، وانتشرت كدعم ، وشكلت الجناح الايمن للجيش .

وكان اول ما فكر به فيليب اوغوست هو ان يفرز الى موخرته قطعة قوية من حملة المطارق الفولاذية لتمسك الجسر على نهر مارك . ثم انتشر الجيش الفرنسي على يسار موخرته سانداً مجنبته اليسرى على نهر مارك . ولم يكن الاخ غيران الذي كان يعمل مراسلاً للملك ورئيساً لاركانه يشعر باي حرج امام الخيالة ، وهذا ما سمح له بان يكشف طبيعة الموقف بشكل واع .. لقد أحس بان تفوق العدو الكبير سيعطيه اندفاعاً قوياً يجرف قوات الفرنسيين اذا ما تجمعت في سرايا كثيفة كعادتها . لذا امتطى جواده وسار على طول جبهة القتال ، ونشر الجيش كله داخل مفارز صغيرة ، بحيث اصبح عرض الجيش الفرنسي معادلاً لعرض جبهة العدو . وكانت اوامره تنطلق مجلجلة باعدوا صفوفكم ، مددوا خطوط الجبهة حتى يتعذر على العدو تطويقكم ، قفوا جميعاً على الجبهة » .

وعندما انتشرت التشكيلة كان عمق الخط الفرنسي اكبر من عمق الخط الامبراطوري بثلاث مرات على حين كانت كثافته تعادل كثافة الخط الامبراطوري ، وكانت الشمس واقعة خلفه . وكانت الخيالة النورماندية في القلب مغطاة بالمشاة . وعلى الجناح الايمن كانت خيالة الشرق الفرنسية تقف على خطين ضمن وحدات تضم كل واحدة منها ٢٥٠ رجلاً . وعلى الجناح الايسر كانت خيالة الغرب محمية بالمليشيا ، وموزعة داخل وحدات تضم كل واحدة منها ٤٠٠ رجلاً . وفي المعسكر الاخر كانت ميمنة جيش الحلفاء فقط تتمتع بمثل هذه التشكيلة المرنة ، اما القلب فكان عبارة عن جحفل يضم ٣٠,٠٠٠ رجل من المشاة الفلامندية التي تحمل الرماح ، كما كان الجناح الايسر مؤلفاً من « فلانكس » يضم ٥,٠٠٠ فارس من الفرسان الفلامنديين[1] .

ولقد اظهر القتال ان الفاعلية مقتصرة على التشكيلات المتباعدة فقط . وبدأت المعركة بحركات تتجه نحو نقطة واحدة هي قلب الجيش الفرنسي . وقام بهذه الحركات المليشيا الفلامندية المشكلة على شكل سهم ، وفرسان الفلاندر وقطعات بولوني . وخرقت صفوف المشاة الفرنسية في الوقت الذي كان به درو وشامباني يأخذان الهجوم المعادى من الجانب ، بيد ان الحرس الملكي وجنود سان فاليرى قاموا بانقاذ الموقف المتدهور بشكل خطير .

---

(١) قد تكون هذه الارقام عارية عن الصحة ومبالغاً بها من قبل المؤرخين .

وفي خلال هذا الوقت كان هناك معركتان تدوران على الاجنحة ، فعلى ميسرة الفرنسيين تحطم بانتيو على ساليسبورى . ولم يستعد الفرنسيون السيطرة الا بعد ان تدخلت مفرزة حملة المطارق الفولاذية المنطلقة من المجنبة بقيادة الاسقف دوبوفي . اما على الجناح الفرنسي الايمن فقد قام سان بول وميلون بهجمات التفت حول الخيالة الفلامندية وحققت نتائج جيدة عندما بدأت تضغط عليها من الخلف . وتدخل بورغوني وشامباني وتبعثر الفلامنديون ، عندها هاجمت ميمنة الفرنسيين قلب الجرمانيين وسحقته .

وبعد قتال دام ثلاث ساعات لم يبق في القلب سوى جزيرة تضم ٧٠٠ فلامندى من حملة الرماح ، وبولوني الذي كان من اصعب القادة مراساً وأكثرهم صموداً . ولم يتم التغلب عليه الا بعد مشاق كبيرة ، ولم تتضمن المعركة مطاردة عامة . والجدير بالذكر ان الفرنسيين حققوا النصر بفضل رجلين من رجال الدين هما الاخ غيران والاسقف دوبوفي . كما ان الجزء الوحيد الذي صمد من خط العدو حتى المساء كان يتمثل في ميمنته « المتمفصلة » بتشكيلة مرنة على غرار الخط الفرنسي .

ونحن نفهم جيداً لِمَ لَمْ تستطع مثل هذه الاخطاء الغاء قدرة خيالة الرمي عندما كانت هذه الخيالة مسيطرة على التشكيلات الرومانية . ويجدر بنا ان نقول بان هذه الخيالة كانت تتفوق على الغربيين عندما كانت تتجابه مع مشاة الصدمة فقط . (هزيمة المشاة الغوطيين امام العرب في توليدا عام ٧١٢) ، او عندما كانت تصطدم مع خيالة ثقيلة (هزيمة نيكوبوليس امام الاتراك عام ١٣٩٦) ففي مثل هذه الحالة كان الهلال التقليدي — وهو تشكيلة المعركة لخيالة الرمي — ومناورات سرايا الفرسان المقودة بالاشارات والاعلام ، تفعل المعجزات . ولكن عندما اخذت الجيوش الغربية تتصف بالخفة والحركة والقدرة على الرمي — كالجيش البيزنطي — تبدلت الامور ، واصبح النصر حليف الشرقيين تارة والغربيين تارة اخرى. وعندها استطاع الفرسان الكارولنجيون ايقاف العرب على نهر غارون في عام ٧٩١ . وجاء تعاون الخيالة الثقيلة مع خيالة الاسبانيين ليحقق في عام ١٢٤٠ الانتصار على العرب في لاس نافاس وآلاركوس.

ولقد اصيبت الاستراتيجية باضرار تقل عن الاضرار التي اصابت التكتيك ، ولكننا لا نستطيع معرفة سبب ذلك . والحقيقة ان القطعات الكبيرة المختلطة اخذت بالاختفاء ، ولم يكن التقسيم الاقطاعي يتلاءم مع الحسابات العسكرية ذات الابعاد الواسعة . ولم يكن هناك اية حسابات في السياسة الحربية تتجاوز حدود المقاطعات . ولم يُتَحْ لاوروبا سوى فرصتين لتوسيع تطلعاتها وابعاد احلامها ، وهما الحروب الصليبية وامبراطورية

الكارولنجيين التي وجهت جهودها على محاور استراتيجية هامة . وعُمم استخدام التحصينات بشكل اعطاها اهمية كبيرة وجعلها قادرة على ان تحل محل الثقافة العسكرية وان تبطل مفعول كل انتصار . وكان الانتصار غالباً ما يأتي نتيجة لمسيرتين مباشرتين متلاقيتين ضد العدو يتبعهما انتظار . واصبح الفن التكتيكي كله يتمثل في الابتعاد عن الهجوم قبل الحصم ، لان المهاجم يصاب عادة بالهزيمة نظراً لانه يفقد منذ البداية كل قدرة على القيادة في هجوم عام خال من المناورة ، وعلى ارض غير مختارة ولا تصلح للهجوم .

ومع ذلك فاننا نرى ان هناك استثناءات تتجسد بظهور تركيبات استراتيجية حقيقية . ففي حملة ١٢١٤ ناور الفرنسيون على الخطوط الداخلية تقريباً . وذلك عندما تجمع المتحالفون ضدهم في الفلاندرونزل جان (Jean sans Terre) في لاروشيل . وكان فيليب اوغست يطارد الانكليز باتجاه نهر الغارون .. فلما علم بالموقف الجديد ترك ١٥,٠٠٠رجل مع ابنه لويس في وضع المراقبة على اللوار ثم اتجه مع ٢٥,٠٠٠ رجل نحو بوفين[1] . وفي ٢ يوليو (تموز) هزم لويس قوات جان في روش ــ او ــ موان ، وفي ٢٧ يوليو (تموز) سحق فيليب اوغست المتحالفين في بوفين . ومنذ ٤ يوليو (تموز) انسحب الانكليز الى لاروشيل بعد ان فقدوا كل امل بالعودة . ومع ذلك لم يحاول لويس اللحاق بابيه الذي كان سائراً لملاقاة ٥٠,٠٠٠ رجل ، وبهذا بقيت امكانية المناورة على الخطوط الداخلية إمكانية كامنة .

وفي عام ١٢٦٥ نجح الامير ادوارد في اجراء المناورة على الخطوط الداخلية ضد مون فور وابنه . فعلى حين كان مون فور يسير باتجاه نيوبورت قام ادوارد يقطع مواصلاته على نهر سيفيرن وهاجمه من الخلف واجبره على الانسحاب الى الشمال في بلاد الغال القاحلة . ثم عاد الى السيفيرن لان ابن مون فور جاء من الشرق . وبفضل وضع الاخر استطاع الامير ادوارد تحقيق النصر .

ولكن مثل هذه الحركات الاستراتيجية كانت نادرة في ذلك العصر . ولعل افضل العمليات الاستراتيجية في القرون الوسطى هي حملات جان (Jean sans Terre) في عام ١٢٦٥ ، وحملات دوغسكلان في الفترة الواقعة بين ١٣٧٠ و ١٣٧٥ . اذ

---

(١) تقدر احدث الدراسات ان عدد القوات في كلا الجيشين الفرنسيين لم تكن تتجاوز ٩,٠٠٠ – ١٠,٠٠٠ رجل .

استطاع كلا القائدين الانتصار على الغزاة بفضل المناورة غير المباشرة مع تحاشي اي صدام عام واسع النطاق.

فعندما نزل لويس الثامن على الارض الانكليزية (عام ١٢١٦) بالتواطؤ مع البارونات الانكليز كانت قوات جان موزعة على اربعة حصون منتشرة على نهر التايمز والدوفر. وكان الفرنسيون المسيطرون على لندن ووينشيستر يطوقون هذه الحصون. واستفاد جان من ثبات قوات الثوار والفرنسيين وانشغالها بسلسلة من عمليات الحصار فاحتل خط السيفيرت الامر الذي حدد التوسع نحو الغرب. ثم تظاهر بالهجوم على ويندسور واحتل كامبردج قاطعاً بذلك طريق الشمال. واستغل الخلافات الداخلية الناشبة بين اعدائه وطهر البلاد من الاحتلال المعادي مستخدماً الضربات الحذرة المستمرة دون القيام باشتباك كبير.

ولقد عمل دوغسكلان بشكل افضل عندما رفع المفاجأة الى مستوى الفن. ولقد كان يقاطع طريق القوافل الحربية، ويدمر المفارز الصغيرة، ويحتل المواقع المنعزلة والمدن بعد ان يؤثر على حاميتها نفسياً، ويبعثر القوات المعادية بخلق واثارة مجموعة بورات ثورية. ولقد جعل من الليل والسرعة والمفاجأة ادواته الرئيسية. واستمرت عملياته خمس سنوات انهار الجيش الانكليزي بعدها بفعل الانهاك، مع انه كان من قبل قوياً يسيطر سيطرة تامة على المنطقة المحصورة بين كاليه وبوردو.

ب ـ فترة ظهور الاسلحة النارية (من ١٤٠٠ حتى ١٥٠٠)

لقد كان القرن الخامس عشر قرناً ثورياً في جميع المجالات، وحقق انهيار الانظمة القديمة وآثارها واساليبها. وتتمثل ثورة ذلك العصر على المستوى العسكري بثلاث ظواهر هي:

ـ استعادة المشاة لمكانتها السابقة بعد ظهور الاسلحة النارية.

ـ العودة الى التشكيلات التي تسمح باستخدام السلاح بافضل شكل.

ـ ولادة الاستراتيجية الشاملة ذات الاهداف السياسية ـ العسكرية.

ولنذكر هنا ان المشاة لم تستعد اهميتها التكتيكية بفضل السلاح الناري الفردي بل بفضل المدفع. والحقيقة ان البندقية الارقبوز التي ظهرت في عام ١٤٢٥ كانت آنذاك قليلة الفاعلية وقليلة الانتشار ايضاً ($\frac{١}{٥}$ التعداد العام في عام ١٥٠٠) على حين استخدم

المدفع الحديدي فور ظهوره بكميات لا بأس بها (من ٣٠٠ الى ٤٠٠ مدفع في كل معركة داخل كل معسكر من المعسكرين المتحاربين) . وفي بداية ولادة الاسلحة النارية الفردية اندفع الجميع لاستخدامها . فعندما صف شارل المتردد (دوق دوبورغوني) ٤٠٠ مدفع و ٨٠٠ ارقبوز لدعم خيالته رد عليه السويسريون بان استخدموا ٦,٠٠٠ سلاح ناري فردي . فتخلخل نظام خيالة البورغونيين عندما تعرضت الى رشقة نارية كثيفة أطلقت عليها من مسافة قريبة ، ثم هوجمت بعد ذلك بالرماح القصيرة . واخذت المشاة تتلاءم مع الصدمة ونار الارقبوز وذلك بتنسيق استخدام الاسلحة الطويلة التي تساعد في التقرب مع الاسلحة القصيرة المستخدمة في الالتحام داخل التشكيلات المعادية . وهنا تمت العودة الى التفكير الروماني فيما يتعلق بالعدة او التنظيم .

وكانت « الفلانكسات » السويسرية تصطف حتى ذلك الحين على ١٠ — ١٥ نسقاً ، ولكن عددها تناقص من ٥,٠٠٠ رجل حتى اصبح ١,٠٠٠ رجل فقط . وكانت الصفوف الستة الاولى مسلحة بالرماح الطويلة في حين تحمل الصفوف الاخرى الرماح القصيرة . اما غونزالف دوكوردو الاسباني فقد بعث « الليجيون » الروماني عندما انشأ جمهرات مؤلفة من ٦,٠٠٠ جندي مشاة مقسمة الى ١٢ كتيبة تضم كل واحدة منها ٥٠٠ رجل ، منهم ٢٠٠ يحملون الرماح الطويلة و ٢٠٠ يحملون التروس والسيوف والرماح القصيرة و ١٠٠ يحملون الارقبوز . وكانت تشكيلات المعركة آنذاك قادرة على « التمفصل » إلى مربعات موزعة بشكل شطرنجي او على عدة صفوف متعاقبة . وغدا من الصعب وصول الخيالة الى جبهة الجيش المغطاة بالمدفعية بالرغم من الدروع التي تغطي هذه الخيالة والتي كانت تتراوح بين الدرع الكامل في الخيالة الثقيلة والدرع المتوسط في الخيالة الخفيفة .. وكانت قوات الخيالة مقسمة الى كتائب تضم كل واحدة منها ١٠٠ « رمح مدعّم » (يعادل مجموعها ٦٠٠ رجل) وتهاجم بعمق على ٣ — ٤ صفوف . وهذا يعني انها كانت « متمفصلة » بشكل كاف للمناورة بسهولة ، مع القدرة على اجراء الصدمة القوية ، بالاضافة الى كونها فعالة جداً بسبب ضعف مدى رمايات الاسلحة النارية وانخفاض سرعتها . ومع هذا بقيت الانتصارات الناجمة عن نشاط الخيالة انتصارات قليلة العدد . ففي فورميني (١٤٣٠) وكاستيلون (١٤٥٣) يعود النصر الى المدفعية ، وفي غرانسون ومورا (١٤٧٦) سيطرت المشاة السويسرية على خيالة البورغونيين . وفي سيناميرا وسيرينيول (١٥٠٣) تفوقت المشاة الاسبانية على الخيالة الفرنسية الثقيلة . كما ان المشاة وعربات القتال سحقت خمس حملات من الخيالة

الالمانية (١٤١٥ – ١٤٧١) . ولم يعرف هذا العصر سوى انتصار كبير واحد حققته الخيالة علماً بان هذا الانتصار يرجع الى خرق تم في ظروف يائسة . انه في الحقيقة انتصار فورنو (١٤٩٥) . ثم اخذت الخيالة النبالة نفسها بالتدهور ، وفقدت مع الزمن مكانتها ، واستطاع ايفان الثالث طرد التتر من روسيا في عام ١٤٨٠ ، وكان الصينيون قد تحرروا من نير المغول منذ عام ١٣٦٨ .

ومن الناحية الاستراتيجية جاءت جان دارك (١٤٢٩ – ١٤٣١) لتقلب روتين القرون الوسطى بشكل ثوري . ولقد افهمت هذه المناضلة الثورية طبقة النبلاء بان الحرب عمل هام ، وفن يقوم فيه النظام والمناورة بدور خطير ، لا لعبة نجريها بالاتفاق مع الخصم ، أو فرصة نستغلها لاظهار الشجاعة الفردية . وان للمدفع في الحرب مكانة تفوق مكانة الفروسية .. ولقد استطاعت جان دارك ان تستخدم تأثيرها المعنوي لتضع حداً لفكر القرون الوسطى ، ولتحل محله الشعور الوطني الجياش . كما عرفت كيف تفرض افكارها حول الاهداف « السياسية – العسكرية » التي تشكل مفتاح كل حملة (اورليان – ريمس – باريز) دون ان تخضع لمشوقات السير المباشر باتجاه الجيوش المعادية . ولا شك انها استخدمت **السياسة الحربية** اكثر من استخدامها **لاستراتيجية العمليات** . ولكنها فعلت ذلك بكل وعي وفطنة وبساطة ، ففاقت بذلك افضل الاختصاصيين الغارقين في روتينهم الجامد . وهكذا اثبتت جان دارك انها قائد وانسان ملهم لا يمكن قياس قدراته بالمقاييس العسكرية البحتة .

وعندما سقطت القسطنطينية بيد الاتراك في عام ١٤٥٣ بدأ عصر جديد ، لا لان سقوطها يعني انهيار آخر الاسوار الرومانية فحسب ، بل لان الفاتحين من احفاد الخيالة النبالة مدينون بانتصارهم للمدافع الثقيلة من عيار ١٠٠٠ مم ، ولقوة اسطولهم البحري . وهنا يكمن رمز العصر الجديد .

* * *

الفصل السابع والعشرون

من سقوط بيزنطية حتى الامبراطورية الفرنسية الأولى
(١٥٠٠ – ١٨٠٠)

« لو صرف ملك اسبانيا على تجهيز قطعاته المقاتلة ما كلفته عمليات الحصار وتحسين القلاع من رجال وأموال لكان اليوم اعظم ملوك الأرض طراً »

تورين

بقيت مسارح العمليات في هذا العصر مسارح عمليات العصر السابق نفسها . بيد ان اهميتها النسبية تبدلت اذ اخذ حقل المعركة اللوتارانجي اهمية اكبر من اهمية خطوط التحصينات الشرقية التي كانت تتعرض لهجمات الاتراك والعرب المغاربة . وسحق الروس فرسان المغول في قازان (١٥٥٢) . وبعد هزيمة موهاكز في عام ١٥٢٦ استطاع النمساويون في عام ١٦٨٧ الانتصار على الاتراك الذين كانوا قد تعرضوا للهزيمة البحرية من قبل في ليبانت (١٥٧١) ، في الوقت نفسه بدأت اسبانيا تؤسس « ممتلكاتها » على شواطىء شمالي افريقيا (١٤٧٩ – ١٥١٠) .

ولقد جاءت اهمية حقل العمليات اللوتارانجي لتؤكد قيمة ثلاثة انواع من المواقع العسكرية تناوبت فيها المناورات والمعارك وهذه المواقع هي :

١ – **المضائق او الممرات الاجبارية** : الممثلة بسهل الفلاندر ، وويستفاليا ، والسار ،

ومورافيا ، ومنخفض بالاتينا ـ الزاس ـ باد .

٢ ـ محاور العبور : التي تمر بها انهار البو والدانوب والإلب .

٣ ـ محاور استناد المناورة : المتمثلة بالهاس وبالعقدة الجبلية المكونة من قمم بوهيميا وتورنيجيروالد .

٤ ـ حواجز الاودر وحوضا الرين الاوسط والادنى ، وكلها واقعة داخل حقل المعركة اللوتارانجي او خارجه . وكانت حقول العمل بمختلف انواعها محصنة بصورة منهجية :

ـ فالمحاور والسدود محصنة بسلسلة من الحصون متباعدة بمقدار لا يزيد عن المدى الاداري العادي من (١٠٠ الى ١٥٠ كم) .

ـ اما المضائق وخاصة المسافة الكائنة بين الرين وخط السوم ـ المارن الاعلى فمحصنة بشبكة من القلاع تتسع المسافات فيما بينها او تضيق حتى تصل الى مسافة تعادل المرحلة العادية (٢٠ ـ ٢٥ كم) . ولقد فقدت الشبكات المحصنة كثيراً من اهميتها مع ظهور النظام الفرقي الذي تكتفي شؤونه الادارية وحيطته ببعض « الحصون ـ المستودعات » النادرة (بمعدل واحد لكل مسرح عمليات) بالاضافة الى مجموعة قلاع ومخافر حيطة مسلسلة على خطوط المواصلات ومتباعدة بمقدار المدى الاداري العادي .

واخيراً جاء التقدم التقني البحري والتوسع الاستعماري الكبير ليعطيا لفكرة السيطرة على البحار معنى جديداً .

ويتصف هذا العصر بتميّز الاسلحة وتوازنها . إذ أخذت كافة الاسلحة اهمية متساوية ، ولم يعد هناك سلاح يتفوق على الاسلحة الاخرى بشكل حاسم كما كانت الحالة في العصور القديمة ، وجاء تقسيم السلاح نفسه الى اقسام داخلية فيما بعد بصورة متدرجة . واخذ كل سلاح مهمة تلائمه واكتفى بها دون ان يحاول الحصول على أشكال متعددة متباينة لتحقيق مهمات متنوعة .

وفي الفترة الاولى من هذا العصر ، وهي فترة **الجيوش التي لا تقبل التجزئة** (١٥٠٠ ـ ١٧٠٠) نلاحظ ولا شك فرقاً بيّناً في استخدام قطعات خط القتال والقطعات الخفيفة لمختلف الاسلحة . ثم تزايد هذا الفرق خلال الفترة الثانية المسماة فترة « **الجيوش المتمفصلة** » (١٧٠٠ ـ ١٨٠٠) . ويعود اختفاء التقسيمات الداخلية لكل سلاح الى الغاء الدرع في سلاح الخيالة ، وتعميم البندقية في سلاح المشاة . وصارت

جميع الخيالة قادرة على الهجوم والانقضاض ، ومستعدة للقيام بمهمات الحيطة كما غدت جميع انواع المشاة المسلحة بالبنادق اهلاً للقتال في صف المعركة او للقتال كرماة ، او لتنفيذ مهمات الحيطة . ومع هذا بقي هناك قطعات تتصف بصفات المشاة والخيالة معاً ، وهي قطعات المشاة الراكبة (دراغون) المتصفة بصفات خاصة متميزة.

وفي عام ١٥٥٤ حققت خيالة تافان الخفيفة انتصاراتها في رينيه موكدة انه ليس من الضروري تدريب الفرسان للقيام بانقضاض فعال . وبدأت الخيالة الخفيفة منذ ذلك التاريخ تتزايد وتحتل مكانة اكبر ، وبدا هذا جلياً واضحاً اعتباراً من عام ١٧٠٠ . ولم يعد فرسان افواج الخيالة الثقيلة يرتدون سوى درع نصفي . ثم جاء اصلاح سان جرمان في فرنسا في عام ١٧٦٥ فسار شوطاً ابعد والغى الدروع بشكل كامل .. واختفت الخيالة المدرعة الفرنسية حتى عام ١٨٠٣ حيث عادت الى الظهور بعد ثلاث سنوات من التجارب . ومع هذا لاحظ الجميع ان الخيالة الخفيفة قادرة على الهجوم بفاعلية ، في حين تجد الخيالة الثقيلة في بعض الظروف صعوبات تمنعها من القيام بمهمة الاستطلاع ، علماً بان وجود البندقية يجعل دروعها عاجزة عن ان تزيد الحماية او ترفع مستواها . وهكذا يمكن ان نقول بان الخيالة الخفيفة كانت آنذاك كافية .

ونجم التوحيد في سلاح المشاة من احلال البندقية محل الرمح الطويل ، ومن تجهيز جميع قطعات المشاة بالشكل نفسه بعد الغاء القطعات المختارة (رماة القنابل ، والرماة ، والجوالة المتخصصون) . ولقد عبر نابليون عن تخطيط هذه الفترة بما يلي : « ليس هناك سوى نوع واحد من المشاة ، لان البندقية افضل ادوات الحرب التي ابتدعها الانسان » . وفي نهاية التطور لم يعد بين قطعات المشاة اي اختلاف يتعلق بالمهمات ، وبقيت بعض الفروق الشكلية التي لا اهمية لها . ووقف بعض العسكريين امام هذا التوحيد ، ولم تكن حججهم مبنية على ضرورات تكتيكية ، ولكنها كانت ناجمة عن قيود التقاليد القديمة .

وتطورت المشاة الراكبة (دراغون) والاسلحة التقنية (مدفعية — مهندسون) بصورة معاكسة . وظهرت الفروق والصفات الخاطئة في داخلها بشكل واضح متزايد . لقد ظهرت المشاة الراكبة في حوالي عام ١٥٥٠ ، وفي عام ١٧٤٠ اخذت مهماتها الاساسية في تأمين الحيطة واستثمار النصر حجماً كبيراً واهمية حاسمة . وفي الفترة نفسها اخذت المدفعية تنافس المشاة لتأخذ بعض مدافعها . وتمسكت المشاة بمدافع الكتيبة ، حتى فقدتها في ظل الجمهورية الفرنسية الاولى . وكانت الرغبة بالتجمع المتزايد قد جعلت سرايا المدفعية تشكل في عام ١٧٤٣ أفواج مدفعية مستقلة . ثم اخذت ارتال المدفعية صفة

عسكرية في عام ١٨٠٠ . وانفصلت وحدات المهندسين عن المدفعية في عام ١٧٧٦ ، ورأت ولادة اول كتائبها في عام ١٧٩٣ .

ولعل من اهم اسباب هذا الاتجاه هو التطور المستمر في « التمفصل » . فلقد تم تنظيم السرية في عام ١٤٤٥ ، كما نظم الفوج في عام ١٥٣٤ ، وسرية الخيالة في عام ١٦٣٠ ، واللواء المؤلف من فوجين في عام ١٦٥٧[1] . ومن الجدير بالذكر ان السرية والكتيبة واللواء هي وحدات تكتيكية ، اما الفوج فقد بقي وحدة تنظيمية وادارية تقليدية . وفي عام ١٧٥٩ ظهرت القطعات الكبرى من مختلف صنوف الاسلحة ، وكانت هذه القطعات قد اختفت منذ انهيار خطوط التحصينات البيزنطية الشرقية .

ولم تظهر الفرقة دون جدل ، بل سبق ولادتها نقاش طويل حول إنشاء القطعة التي تضم مختلف الصنوف والجمهرة التكتيكية ، ودعم مونتي كوكولي وفولارد الفكرة الاولى على حين ايد جيبير الثانية . ولقد احتج مونتي كوكولي وفولارد على ترتيب المعركة المنهجي الذي يكدس مشاة الجيش في القلب ، ويدفع الخيالة الى الاجنحة ، ويضع المدفعية علىجبهة المشاة . وكانا يطالبان بخلق **قطعات عضوية من مختلف صنوف الأسلحة** ، قادرة على العمل مستقلة ، والتعاون فيما بينها عند الضرورة . وكانا يستهدفان من ذلك الحصول على تشكيلة « لا يمكن استنزافها على اجزاء نظراً لان كل عنصر من عناصرها قادر على الدفاع في جميع الاتجاهات » بالاضافة الى تأمين ارتباط افضل للاسلحة « المختلفة » واستخدام اكثر مرونة لاجزاء الجيش المختلفة . واعتماداً على كل هذه الاسباب طالب مونتي كوكولي بخلق الفوج المؤلف من مختلف الصنوف ، وذهب فولارد الى ابعد من ذلك عندما طالب بقطعة اكبر من الفوج واطلق عليها اسم « فيلق » . ولنذكر هنا بان هذين القائدين لم يقصرا في تفكيرهما على الاستقلالية التكتيكية والاستراتيجية التي يمكن لقطعات مختلف الصنوف تحقيقها ، ولكنهما فكرا ايضاً بان المناورة التكتيكية التي تجمع بشكل دقيق اسلحة كل قطعة لا بد وان تؤدي الى اعاقة استخدام هذه الاسلحة وعرقلة تحركاتها بصورة متبادلة .

ولم يكن جيبير يهتم الا بالاستقلالية التكتيكية ويطالب بسهولة استخدام مختلف الاسلحة داخل العناصر المختلطة . وهو يعترض على الاراء السابقة بقوله : « اننا لا

---

(١) ان هذا الاصلاح مستوحى من اللواء الهولاندي الثلاثي الذي كان يضم منذ عام ١٨٥٠ حوالي ٣,٠٠٠ رجل موزعين داخل ٣ أفواج يضم كل فوج منها كتيبتين .

نحتاج اليوم الى خلط الاسلحة ولكننا نحتاج الى دعمها . ولا يمكن اعتبار الخلط والدعم عملين من طبيعة واحدة .. ان علينا ان نضع الاسلحة في مكانها الطبيعي ، اي في المكان الذي تفرضه الارض وطبيعة ظروف القتال ، دون ان نعمل على تقسيمها او خلطها في اية حال من الاحوال . ان طبيعتها تجعلها عاجزة عن القيام بجهد مشترك واحد ، فالاولى تسير ولكن الثانية تطير » .

ولقد كان جيبير محقاً بالنسبة لعصره . اذ لم تكن اسلحة ذلك العصر قادرة على ان تتماشى بعضها مع بعض . وكان على الجيوش ان تنتظر عصر التطورات والاختراعات الميكانيكية وان تتبنى المكننة العامة للاسلحة ، قبل ان تستطيع خلق الفوج العضوي الذي يضم اسلحة من مختلف الصنوف .

ويرى جيبير ان على الجيش ان يضم ٣ أقسام (غير عضوية) هي المشاة والمدفعية والمصالح الادارية بالاضافة الى هيئة اركان عامة . اما الخيالة الخفيفة التي تعمل لتحقيق الحيطة فقد كان يعتبرها خارج هذا التقسيم . وجاء سان جرمان وبريين وكارنو فذهبوا في هذا الامر الى طرفه المعاكس الاقصى ، واعطوا الفرقة تشكيلة ثابتة من الخيالة العضوية[١]

ومما يدعو الى الدهشة انه في عام ١٧٥٩ استخدم دوبروغلي الفرق الاولى ، فوجد معاصروه في ذلك كثيراً من سهولة « التمفصل » والحيطة وتدريب القادة ، ولكنهم لم يروا فيه **ثورة تكتيكية** . وكان اول من استرعى انتباههم واثار اعجابهم هو تناقص المشاكل الادارية والحركات الدائمة الناجمة عن الامدادات اليومية داخل جيش كثيف لا يقبل التجزئة .. وكانت المزايا كبيرة لدرجة دفعت جيبير لان يقول : « من منا لا يستطيع الاعتقاد بان الجيوش القديمة عرفت هذا النظام الفرقي ، وانا اضعنا كل هذا الوقت الطويل قبل ان نطبقه في جيوشنا التي غدت عديدة ومعقدة ؟ ونقرأ في كتب التاريخ ان جيش الاسكندر كان مقسماً الى فرق متعددة ، وتحدثنا هذه الكتب عن عدد الفرق وقوتها وقادتها . **ويدل هذا على ان كثيراً من الناس يقرأون دون جدوى » .**

---

(١) كانت فرقة كارنو تضم :
- فوجي مشاة في كل فوج منهما نصفا فوج بالاضافة الى نصف فوج مستقل . ويمتلك كل فوج سرية مدفعية ، كما تملك كل كتيبة ٤ مدافع عضوية (اختفت هذه القطع فيما بعد) .
- لواء خيالة من فوجين .
- سرية مدفعية راجلة واخرى راكبة (بالاضافة الى مدفعية الأفواج والكتائب)

في حين لم تكن فرقة جيبير تضم سوى ٢٤ كتيبة و ٣٦ مدفعاً .

ثم جاء بونابرت وهوشى فوسعا استخدام النظام الفرقي ، وخلقا فرق الخيالة المؤلفة من ٢ ـ ٣ افواج مقسمة داخلياً الى عدة اقسام متباينة (خيالة ثقيلة ـ مشاة راكبة) . ولكن المدفعية المحمولة لم تكن جزءاً عضوياً من هذه الفرق .. وبقي هذا المستوى التنظيمي حتى تم تجاوزه في عام ١٨٠٠ .

وبعد فترة طويلة من الزمن وجدت هذه الاصلاحات مجالاً رحباً لاستخدامها بفضل التقنية الحديثة والتطور العقائدي الناجم عنها .

أ ـ فترة الجيوش التي لا تقبل التجزئة (١٥٠٠ ـ ١٧٠٠)

عند انتهاء القرون الوسطى كانت السياسة الحربية قد غدت اكثر طموحاً واتساعاً ، وكان البعض يرغبون بالوصول الى حدودهم الطبيعية او تغطية هذه الحدود بدويلات تابعة لهم ، في حين كان البعض الاخر يودون انشاء مراكز مراقبة قوية على خطوط مواصلاتهم العالمية . واستمرت هذه السياسة حتى بعد عام ١٨٠٠ . والحقيقة ان الاهداف الاقتصادية لم تكن حتى عام ١٧٠٠ قد استعادت الاهمية التي كانت تتمتع بها في العصور القديمة ، ومع هذا فاننا نلاحظ ظهورها من جديد في الصراعات التي سبقت الحروب الاستعمارية والتي تجابهت فيها اسبانيا وفرنسا وانكلترا . وفي الغزوات التركية الاخيرة التي صدها اهل فينيسيا ومالطة . ولقد ادت بعض المعارك البحرية في هذه الفترة الى تحقيق انقلاب حقيقي في ميزان القوى (ليبانت ١٥٧١ ـ تدمير الارمادا التي لا تغلب ١٥٨٨) .

اما بالنسبة للقوات البرية فقد كانت الاهداف محدودة . كما كانت الجيوش تنتشر وتتحرك بكل حذر خشية الوقوع في المخاطر . وبقيت الجيوش مرتبطة ادارياً بالحصون والقلاع ، وتتحرك عبر مختلف الاراضي بارتال متوازية قادرة على ان تأخذ تشكيلة المعركة عندما يغدو اللقاء مع العدو محتملاً . وكانت هذه التشكيلة المتكتلة المتراصة تغني القطعات عن استخدام الحيطة القريبة أو البعيدة . وترك البحث عن المعلومات لبعض الوحدات الصغيرة الخفيفة او للجواسيس . وبقيت الاستراتيجية بسيطة موجزة نظراً للتمسك بمبدأ وحدة مسرح العمليات . ولم يتم التنسيق بين الجيوش المستقلة وانتقالها من مسرح الى آخر الا اعتباراً من عام ١٦٥٠ .

وطالب معارضو التقاليد القديمة ـ حتى قبل فترة التطورات التقنية الهامة ـ بالاستغناء عن القلاع ، واستخدام ارتال الطرق بشكل واسع النطاق ، بالاضافة الى

فتح التشكيلات باقسام « متمفصلة » . ثم جاء التطور العملي على ارض المعركة اذ ادى تأثير الاسلحة النارية الى انتقال التشكيلات من المربعات الى النسق . وعاد نظـــام ايبا مينونداس المائل الى الوجود .

وكان الجنرال غاستون دوفوا اول **قادة المخاطرات** ، اذ قبل بالمغامرة والتعرض الى اخطار الانقطاع الاداري واخطار ارتال الطرق ، وناور على الخطوط الداخلية بكل جرأة ، ونجم عن ذلك قيامه بحملات صاعقة من ٥ فبراير (شباط) حتى ١١ ابريل (نيسان) ١٥١٢ ، فهزم العدو ٤ مرات وسار ٦٠٠ كم قطع منها ٢٠٠ كم في ١٤ يوماً عبر بولوني ومانتوا وبريسا ورافين .

ولقد كان غوستاف ادولف وتورين ولوكسمبورغ ومونتي كوكولي اول من جرب فتح التشكيلات ، وتمت السيطرة على مسرح العمليات في بادىء الامر من قبل مخافر محصنة ، ثم غامر القادة وحققوا هذه السيطرة بقطعات كبيرة « متمفصلة » ومنتشرة على ارض غير محصنة . وكان لوكسمبورغ يفرز المقدمات الى المقاطع الحساسة التي يتوجه نحوها ، على حين كان تورين يفتح التشكيلات داخل كبد قواته ... وفي عام ١٦٥٧ كان جيشه المؤلف من ٥٠,٠٠٠ رجل « يتمفصل » الى ٣ فيالق منتشرة بين هسدن وميزيير على مسافة تبعد ٦ ايام عن مكان التجمع . وهذا انتشار كبير عظيم الخطر . وفي عام ١٦٧٢ قاد ١٢٠,٠٠٠ رجل موزعين الى ٣ جيوش منتشرة في الفلاندر وهولندا . وفي عام ١٦٧٤ قاد لوحده قطعات منتشرة من الموزيل الى سويسرا علماً بان الدول كان تزج في مثل هذه المساحة قبل ٤٠ عاماً اربعة جيوش مستقلة ... بيد ان تورين كان حالة استثنائية بين قادة عصره .

ولقد اظهر تورين في حملتي ١٦٤٦ و ١٦٧٤ — ١٦٧٥ مهارة وفناً في استخدام المناورة غير المباشرة ضد الاهداف الادارية ، واستخداماً جيداً لارتال الطرق .

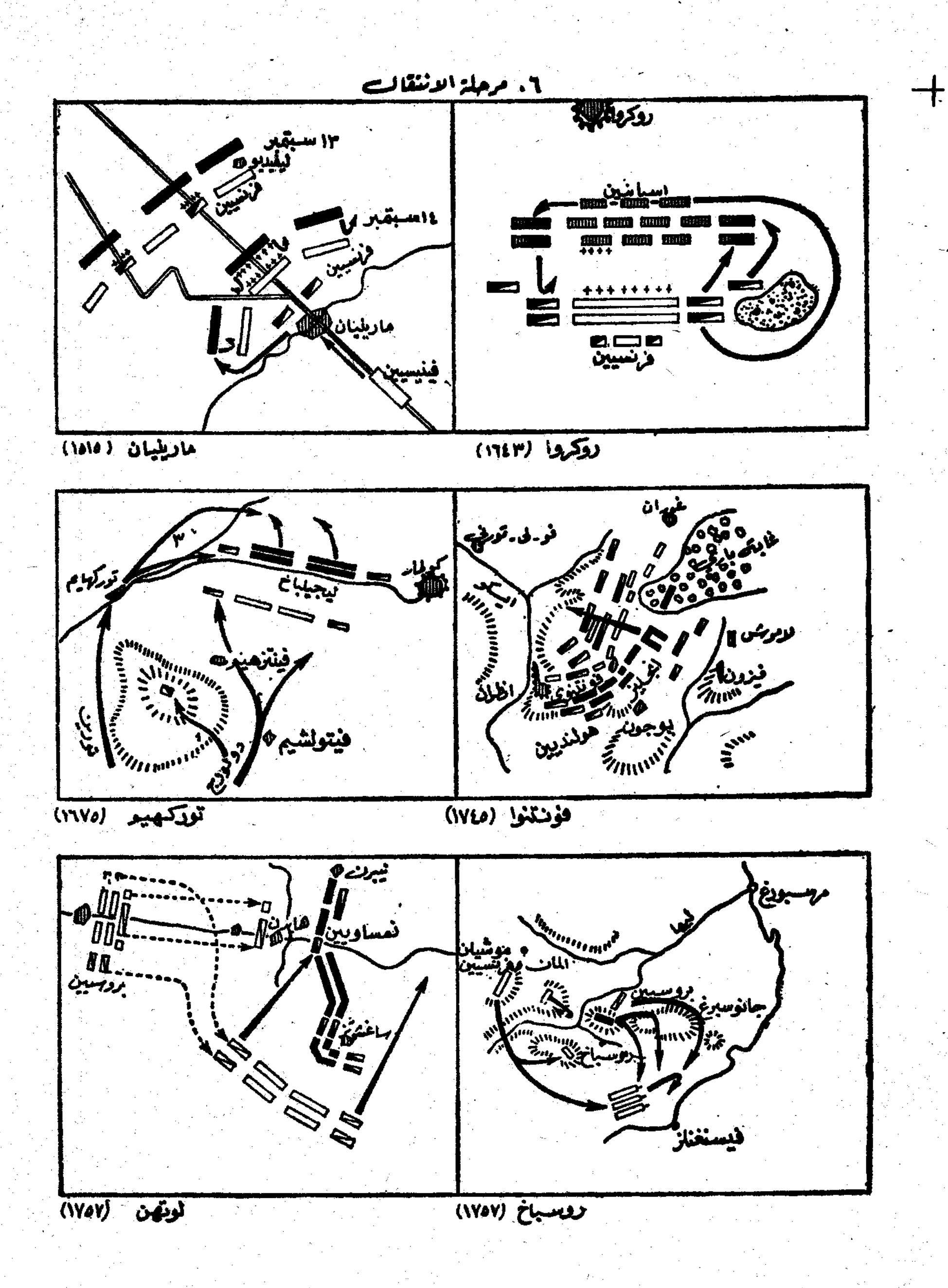
ففي الحملة الاولى قام تورين بتغطية مايانس ، ثم صعد باقصى سرعة واجتاز الرين في ويسيل ، واتصل بالسويديين ، ثم نزل الى الدانوب الاوسط بين الجيش البافاري المتمركز في اولم وجيش الارشيدوق الممتد باتجاه مونيخ ، فكان وضعه هذا يؤهله للاستيلاء على مستودعات اوغسبورغ وقطع مواصلات البافاريين ، وهذا ما اجبرهم على الاستسلام . ويمكن اعتبار هذه الحملة صورة مسبقة لحملة مارلبورو في عام ١٧٠٤ ، او حملة نابليون في عام ١٨٠٥ .

ولقد كانت الحملة الثانية شهيرة جداً . وبدأت عندما وجد تورين نفسه عاجزاً عن منع التقاء ولي عهد براندبورغ مع قوات بورنونفيل في حوض الالزاس الاسفل ، فاخلى المنطقة بان استخدم شبكة الطرق في اللورين الى اقصى مدى ، وسار على هذه الطرق بارتال مستقلة مستفيداً من الحاميات التي يلاقيها في طريقه لتقوية نفسه . ثم ظهر فجأة قرب بيلفورت . وكان بورنونفيل قد وزع قواته لقضاء فصل الشتاء ، فلم يستطع مجابهة مولهيس بقوة مجتمعة الامر الذي ادى الى هزيمته . وسحق تورين ولي العهد في توركهيم واستولى على مخازنه ، ولم يكن عليه ان يتابع السير نحو ستراسبورغ . لقدكان انتصاره ساحقاً لدرجة جعلت قطعاته قادرة على ان تتمون بكل حرية في الباد وحتى نيكار . ولقد اعتمد خلال عمله على السرعة ، وعدم التموين من المخازن الثابتة ، مع محاولة ضرب مخازن العدو .

ولقد أكد تورين وكوندى تطور تكتيك حقل المعركة الذي بدأه غوستاف ادولف ، احتلت المشاة أهمية تفوق أهمية الخيالة الثقيلة ، وجاءت الخطوط لتحل محل المربعات .

ومن المعروف ان غوستاف ادولف كان تكتيكياً اكثر من ان يكون استراتيجياً ، اذ استطاع خصمه فالنشتاين ان يتغلب عليه دائماً بمناوراته حتى معركة لوتزن (١٦٣٢) . ومع هذا فاننا لا نستطيع ان ننكر بان حسن اختيار غوستاف ادولف للتسليح والتشكيلات التي تستخدم النار بشكل جيد ادى الى حدوث تجديد تكتيكي واسع المدى .

ومن مارينيان (١٥١٥) حتى روكروا كان التكتيك يعتمد اكبر اعتماد على الخيالة الثقيلة ، وكانت المشاة تصطف للمعركة حسب الاساليب التي نادى بها من قبل غونزالف دوكوردو ، اذ كانت « تتمفصل » بمربعات على نسقين او ثلاثة انساق . فاذا قارنا مردود هذه التشكيلة مع مردود « الفلانكس » السويسري وجدنا ان التشكيلة الاسبانية افضل من مثيلتها السويسرية . ففي رافين (١٥١٢) هُزم الاسبانيون فخسروا ١٠,٠٠٠ رجل مقابل ٥,٠٠٠ خسرهم الفرنسيون ، على حين فقد السويسريون في مارينيان (١٥١٥) ١٤,٠٠٠ رجل مقابل ٢,٠٠٠ فرنسي علماً بأن خيالة الفرنسيين كانت مضطرة للسير على مسالك محددة بسبب المستنقعات . وفي عام ١٥٣٤ قام فرانسوا الاول باصلاح عسكري الغى به النظام الاسباني فادى ذلك الى تحسين في مردود القوات يمكن ملاحظته بمقارنة هزائم حملتي ١٥٢١ و ١٥٢٩ مع انتصارات حملتي ١٥٣٦ و ١٥٤٤ .



وفي روكروا ظهرت نقاط ضعف التنظيم الاسباني ، واكدت المعركة انه تنظيم قديم زال اوانه . ومما لا شك فيه ان انقضاض الخيالة الذي كان يستفيد من المفاجأة ليكنس المربعات الاسبانية في الخط الثالث كان له ثمنه . ولكن مربعات الخط الأول كانت تتعرض لضربات المدفعية القاصمة . وكان تكتلها وضعف قدرتها النارية وحساسية

مجنباتها هي نقاط ضعفها التي تعرضها للاخطار . لذا ظهر ان من الضروري نشر المشاة على انساق لتقديم اكبر كمية ممكنة من النيران كما كان يفعل غوستاف ادولف . واصبحت المعضلة منذ ذلك الوقت كامنة في ضرورة تحريك الخطوط الرقيقة دون قطعها ، مع محاولة تحاشي النيران الجبهية المعادية . ولقد اظهر تورين في توركهيم كيف يمكن التصرف في مثل هذه الحالات عندما جدد استخدام النظام المائل مقلداً بــذلك ايبامينونداس . وكان من الضروري القيام بتقدم غير مباشر ومختف ما امكن لضرب خط العدو ضربة عمودية او مائلة على الاقل ، وتدمير الجناح المعادي المشتبك بعد تحويل خط سير الرتل الصديق . ومن الجدير بالذكر ان فريدريك لم يفعل في معاركه غير ذلك .

وكانت نتائج معركة روكروا كبيرة لدرجة دفعت الفرنسيين الى اجراء اصلاح شامل في عام ١٦٥٧ . وظهر الجيش الفرنسي الجديد المؤلف من ألوية يضم كل واحد منها فوجين (فوج لكل خط نار عندما يتم الانتشار على خطين) . ومنذ ذلك الحين اصبح تعداد المشاة معادلاً لثلاثة ارباع التعداد العام . ولا يمكن ان نقول بان حملات تورين اثرت آنذاك كمعركة روكروا لان نابليون كان اول من اظهر قيمتها . ولقد مضى وقت طويل قبل ان يعبر الناس عن اعجابهم بجرأة تورين . ويقول سانت ايفريموند بهذا الصدد : « يتحدث الناس خلال اية عملية من العمليات عما يفعله الامير (دوكوندى) ولكن ما ان تنتهي العملية حتى يتحدث الناس عما فعله تورين » .

ب ـ ظهور الانظمة المتمفصلة المفتوحة (١٧٠٠ ـ ١٨٠٠)

تتصف هذه المرحلة قبل كل شيء بوجود عدة مسارح عمليات بآن واحد . وكان حقل المعركة يقدم غالباً مسرحين او ثلاثة او اربعة مسارح بآن واحد . وكان هناك المحاور التالية :

ـ المحور الشمالي : الفلاندر وويستفاليا .

ـ المحور المركزي الشمالي : بالاتينا وهيس .

ـ المحور المركزي الجنوبي : الدانوب وبوهيميا .

ـ المحور الجنوبي : نهر البو .

ومنذ ذلك الحين اضيفت الى هذه المحاور مسارح العمليات في اسبانيا وبلاد الهند واميركا الشمالية .

وأدى اتساع الصراعات في القرن الثامن عشر الى تزايد الاعباء المالية يوماً بعد يوم : وبدأت الحرب الشاملة تظهر على شكل نظام كثير التكاليف يتمثل بالسلم المسلح في عهد لويس الخامس عشر . وظهرت اول صورة للحرب الشاملة مع الجمهورية الاولى . واعطت هذه الحرب اهمية متزايدة للاهداف السياسية العسكرية ثم اصبحت حرب الحركة والحروب الاستعمارية ، والاحتلال المنهجي للبلاد الغنية بغية استثمارها (لومبارديا في ١٧٩٦) عبارة عن غاية في حد ذاتها . وانقلب الصراع على الممتلكات الاستعمارية ليصبح صراعاً على المواقع الهامة الرئيسية التي تسيطر على خطوط المواصلات العالمية باقل التكاليف (جبل طارق ـ مالطة ـ جزر الانتيل) .

وادى وجود عدة مسارح عمليات بآن واحد ، والفتح المتتابع لكل جيش على مسرحه ، الى ظهور عدة صفات يتصف بعضها بالجدة التامة .

فلقد عادت الى الظهور **المناورة على الخطوط الداخلية** المعروفة في التاريخ القديم . وصارت تتم في بادىء الامر بين عدة مسارح عمليات ، ثم اصبحت تتم فيما بعد بين اجزاء الجيش الواحد داخل كل مسرح على حدة ..

وادى **فتح التشكيلة** الى المعركة الاجبارية ، كما أن رفض الفتح في الوقت الملائم كان يعني التعرض للتطويق . فاذا انتشر الخصمان لمراقبة مسرح العمليات معاً اصبح الاشتباك ضرورياً لا مفر منه . اما اذا بقي احدهما متكتلاً فان تكتله يعرضه للتطويق من قبل خصمه المنتشر على شكل شبكة .

وغدت **المناورة على المواصلات** مجدية مبدئياً ، لان من يقوم بها يغدو قادراً على فرض المعركة .

وغدت **عمليات الجس ضرورية** لمعرفة الاتساع الاقصى لتشكيلة اية جيش من الجيوش . ويشرح جيبير مبدأ هذه الامور بقوله : « ينبغي على الجميع ان يناوروا معاً ، وان ينتشروا دون الوقوع في قبضة العدو . وان يلتفوا دون التعرض للفوضى على ان يتجنبوا انشاء المفارز الدائمة » . ولقد اضاف فريدريك الثاني الى ذلك قوله : « عندما نقسم جيشاً الى عدة فيالق غير متكافئة لا بد لنا من ان نتذكر بان اي فيلق منها لا يملك القوة الكافية ليضرب ضربة عنيفة حاسمة .. وينبغي ان يتم اجتماع الفيالق في مكان خلفي حتى يتعذر على العدو مهاجمتها وسحقها منفصلة متفرقة خلال وصولها الى مكان التجمع » وتنجم الصعوبة عن الشكل النفسي والميكانيكي للمناورات ، ويمكن التصرف بجرأة

تصل الى حد المغامرة امام خصم متردد قليل الفاعلية ، فاذا ما تساوى الخصمان بالمهارة والفاعلية اصبح اتساع التشكيلة الممكن مرهوناً بعلاقة سرعة ردود فعل العناصر مع قدرتها الاستقلالية التكتيكية والادارية . فاذا اخذنا العصر الذي نحن بصدده وجدنا ان الاتساع الاقصى لتشكيلات جيش مؤلف من قطعات المشاة الراجلة لم يكن يتجاوز ٢٠٠ كم . ولقد اضاع القادة حقبة طويلة من الزمن قبل ان يكتشفوا هذه الحقيقة .

وفي بداية المناقشات حول « التكتيك الكبير » كان موفيون لا يوافق على تباعد الفرق الا اذا كانت متمركزة على مواقع قوية ، وقادرة على التجمع بسرعة . اما بورسيه فكان يؤكد ان على جبهة الانتشار ان لا تتعدى مسير يوم بغية الوصول الى مكان التجمع في يوم واحد ، ولكنه كان يرى ايضاً ان هناك حالات كثيرة تجعل مثل هذه التشكيلة غير كافية لتحقيق الحيطة . ومن هنا نستنتج ان من واجبنا ان نمتد على ان لا نخلق مفارز منعزلة .

ومنذ ذلك الحين غدت مناورات فتح وضم التشكيلات القتالية للعمل على مواصلات العدو ، وعلى الخطوط الداخلية مشروطة بطبيعة الحيطة وامكانية المفاجأة .

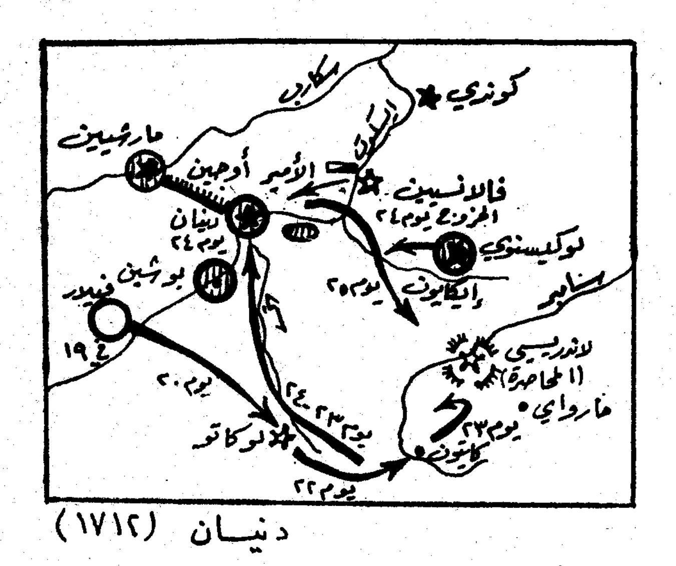
ففي مرحلة الجيوش التي لا تقبل التجزئة كانت المفاجأة نادرة ، ولا يتم التوصل اليها مطلقاً عن طريق التقرب المباشر ، ولقد رأينا كيف كانت اساليب المسير تقلل السرعة . وبالاضافة الى ذلك ، فان الانتشار للمعركة بصورة منهجية كان عملية بطيئة . ولقد قام فيلار بمحاولتين لتحقيق المفاجأة عن طريق التقرب المباشر وباء بالفشل في كلتا المرتين .

ففي عام ١٧١٠ سار فيلار بقواته بعد ان قسمها الى ٢٠ رتلاً ، وخرج من سهل ايسل – لي – ايسكيرشين قرب معسكر الامير اوجين . وهبط الظلام قبل ان يتم الانتشار بشكل ملائم ، الامر الذي اجبر الفرنسيين على الانسحاب .

وفي عام ١٧٠٩ حاول فيلار مهاجمة مارلبورو في كيغي على حين كان الامير اوجين يمسك مونس الواقعة الى الشمال قليلاً . بيد ان استطلاعاً معادياً قوياً كشف القوات الفرنسية في فجوة السار في الساعة الثامنة من صباح ٩ سبتمبر (ايلول) . فجمع كل جيش من الجيشين كبد قواته وانتشر للقتال . ولم تقع معركة مالا بلاكيه الا في اليوم التالي .

بيد ان فيلار استطاع تحقيق المفاجأة في عام ١٧١٢ (انظر المخطط في الصفحة القادمة)

فقد تظاهر في بادىء الامر بالحركة نحو لاندريسي المحاصرة ، الامر الذي جذب كمية كبيرة من قوات الامير اوجين التي كانت تتمركز على خطوط محصورة بين نهري سكارب وايسكوت ، وتسند جناحها الايسر على دينان. ولكن فيلار قام بمسير ليلي باتجاه دينان فاجتاز نهر ايسكوت في ٢٤ يوليو (تموز) اعتباراً من الساعة الثامنة . ولم ينتشر جيشه للقتال الا في الساعة ١٣,٠٠ حيث انطلق الهجوم الظافر دون ان يقوم الامير باي رد فعل جدي . وهكذا رأى الامير اوجين بام عينيه الارتال الفرنسية قرب منعطف الايسكوت ، ومع هذا فقد ذهب لتناول غدائه بكل هدوء لاعتقاده بان خصمه لا ينوي القيام بعمل فوري .

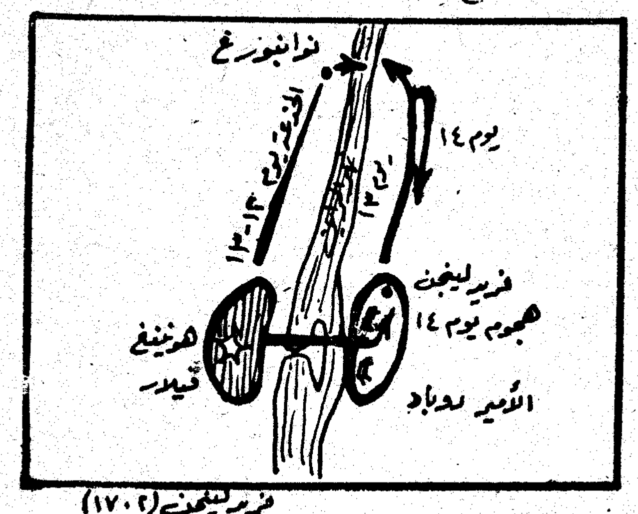


دنيـــان (١٧١٢)

والحقيقة هناك كثيرون ممن لا يؤمنون **بمفاجأة المعركة** ، ويرون ان المفاجأة تتم بفضل المسيرات والمسيرات المعاكسة الرامية الى احتلال افضل المواقع.. فبعد انتصار المـــارشال دوسلكس في فونتونوى دفع نحو غاند رتلـين صغيرين مستقلـين منفصلين عن بعضهما بمـــا يعادل مسيرة يوم واحد . وفعـــل الانكليز الامر نفسه ، ولم يكن لهـــذه الارتال اية حيطة بعيدة . وفي ميسل اصطدم رتل شايلا مع الانكليز وكانت المفاجأة متبادلة . ويعود نجاح الفرنسيين في هذا الاشتباك الى اندفاع قواتهم وجرأتها . ولقد كتب المعلقون عنه ما يلي : « يمكن اعتبار هذه المعركة عجيبة اذ انه ليس لها اشباه كثيرة » والحقيقة ان قتال التلاقي (المعركة التصادمية) كان في ذلك الوقت مقصوراً على القطعات الخاصة (رماة القنابل) او القطعات الخفيفة المكلفة بمهمات الحيطة .

بيد ان ظاهرة **مفاجأة المواقع** كثيرة جداً . وهي تتضمن ابعاد العدو عن المنطقة المرغوبة باستخدام حركة مخادعة او باعطاء معلومات كاذبة ، والانطلاق بعد ذلك الى الموقع لاخذه **دون قتال** . وتتضمن هذه العملية في معظم الحالات السير نحو مقطع في

خطوط العدو . وبهذا الشكل مثلاً عبر فيلار الرين قرب هونينغ في عام ١٧٠٢ بعد ان جذب الامير دوباد نحو نوإنبورغ في الشمال ، واحتل بكل سهولة التحصينات التي بقي العدو بها ، ثم هزم كبد قوات خصمه الذي تراجع متأخراً نحو فريد لينجن (انظر المخطط).



فريدلينجن (١٧٠٢)

وفي عام ١٧٠٤ كاد الامير اوجين ان يفشل في عبور نهر آدا في كاسانو لسبب بسيط هو ان قائد القوات المعادية في هذا المكان لم يفهم جيداً خطورة المعلومات الخاطئة التي جعلها تتسرب اليه ، والتي كانت توحي لمن يسمعها بان مانتوا معرضة لخطر جسيم ، وادى هذا الفهم الخاطىء لخطورة الموقف الى ان القائد المعادي لم يتحرك الا بعد ٢٤ ساعة من تلقي الاوامر ، فلما حاول الامير العبور وجد الجسور مكتظة بمؤخرات الخصم فتراجع بعد معركة قصيرة دون ان يصر على استمرار الاشتباك .

(كاسانو ١٧٠٤)

وبدأت المفاجأة تأخذ معنى خطيراً منذ بدأت القطعات تخرج من شبكة حصون وقلاع الحدود لتجابه جيوشاً تضم اعداداً كبيرة من الخيالة الخفيفة . وادى هذا الوضع الى خلق مقدمات كثيفة تجمع في داخلها قوات من مختلف صنوف الاسلحة . وهناك عاملان آخران دفعا الى تكثيف هذه المقدمات وهما :

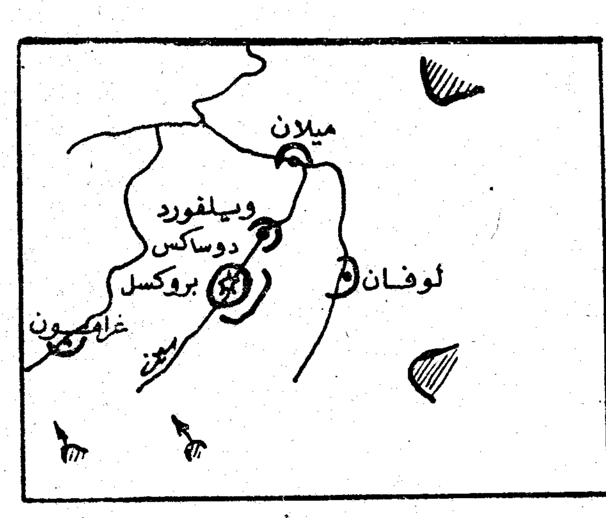
— الفتح النادر — والممكن — للتشكيل المعادي .

— ضرورة تغطية مناورات النظام المائل منذ الدخول الى حقل المعركة .

ولقد امتدت مرحلة **المقدمات** منذ ١٧٤١ حتى ١٧٥٩ ، واخذت الامور شكلها بوضوح في بافاريا وبوهيميا وهي بلاد قليلة الحصون ، كان الجيش النمساوي فيها مدعوماً بـ ٣٠,٠٠٠ خيال هنغاري مساعد .

ولم تعد القطعات تكتفي بالاعتماد على عدد صغير من الخيالة يقوم بالاستطلاع على شبكة طرق قليلة التطور ، ولا ان تحتمي في معسكر متخندق . وكانت القطعات الخفيفة والمشاة الراكبة تذوب تحت هجمات الهنغاريين الكثيفة الدائمة . لذا أصبح من الواجب دعمها بمفارز قتالية ضخمة ، وبعدد كبير من المدافع الأمر الذي لم يكن معروفاً من قبل . وهكذا اصبح الجيش مضطراً لان ينفتح **رغماً عنه** بمفارز تكتيكية تؤمن له متطلبات الحيطة .

وادت هذه الازمة الى المطالبة بزيادة جوهرية للقطعات الخفيفة وقطعات المشاة الراكبة [1] (الدراغون) . وبعد فترة وجيزة وجد كل جيش نفسه مضطراً لان يقلد ما قام به الهنغاريون . وانجب الاحتراس الدفاعي القدرة الهجومية ، واخذت الحيطة البعيدة تتزايد حتى على المسارح المغطـاة بشبكة كثيفة من الحصون . وعندما احتل دوساكس مدينة بروكسل في عام ١٧٤٦ كانت جميع الخيالة تغطي العملية على الشاطىء الايمن لنهر (senne) على حين كانت القطعات الخفيفة ، وقطعات المشاة الراكبـة تحيط به في لوفان ومالين وويلفورد وغرامون وفي السنة نفسها قامت جميع خيالـة ايستري باحتلال عتبة جمبلوكس لتغطية حصار شارلروا وسان جيسلان .



بروكسل (١٧٤٦)

ثم اخذت المقدمة معناها الكامل عند فريدريك الثاني والجنرالات الفرنسيين لحرب السبع سنوات . اذ انها اخذت تستكشف امام الجيش، وتعد الظرف المـلائم للدخول في

(١) اعتبر الفرنسيون ان افواج مشاتهم الراكبة وعددها ٢٤ فوجاً غير كافية لتنفيذ كافة المهمات المتوقعة .

المعركة . وصار استخدامها ضرورياً حتى عندما لا يفتح الجيش كبد قواته . ويمكن اعتبار حملات ١٧٥٧ نموذجية في هذا الصدد .

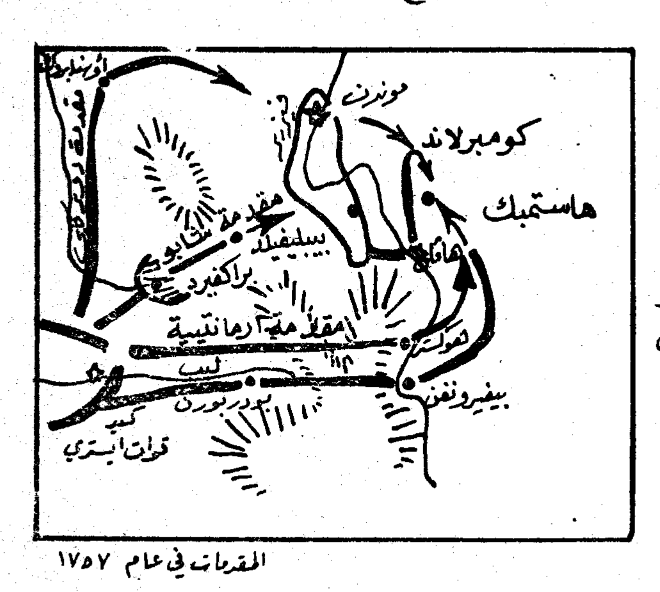
وعندما قام فريدريك بحصار براغ جعل الدوق امامه وغطى نفسه بفيلق يضم ١٧,٠٠٠ . وهذا ما سمح له بان يختار بين متابعة الحصار او نقل حقل المعركة بعيداً عن براغ . وفي سبتمبر (ايلول) انتصر فريدريك في معركة روسباخ ، ثم انتصر في ديسمبر (كانون اول) في معركة لوتهن ، وكان استخدام المقدمات عاماً في هاتين الحملتين .. ولقد تم دعم البروسيين لقواتهم قرب غوتا تحت تغطية الجمهرة التكتيكية لسيدليتز ، كما ان الحلفاء غطوا انفسهم قبيل روسباخ بمفرزة قوامها ٨,٠٠٠ رجل . وعندما اتجه فريدريك نحو لوتهن تعرضت مقدمات الخيالة النمساوية الى الهزيمة مرتين على يد مقدمات بروسية مدعومة بشكل استثنائي وتضم ١٢ كتيبة من المشاة و ٤٥ سرية خيالة و ١٧٦ مدفعاً .

وكانت المقدمات تحاول في حقل المعركة خلق ستارة يتحرك الجيش خلفها ليخرج فجأة على مجنبة الخصم . ولقد نجح البروسيون في اجراء هذا العمل في لوتهن ، اما في روسباخ فقد كانت الحركة قصيرة ومحمية من الجانب ، وكانت القوات الفرنسية الالمانية متكاثفة داخل بقعة ضيقة من الارض . وفي كولين فاجأ النمساويون الجيش البروسي وهو يقوم بالمناورة والحقوا به هزيمة نكراء .

ونشاهد لدى الفرنسيين المقدمات وهي تكنس مسرح العمليات امام كبد القوات . فعندما اجتاح ايسترى ويستفاليا وسار نحو كامبرلاند المتمركز على نهر ويسير ، دفع الجيش المتقدم ثلاث مقدمات كبيرة انفتحت على جبهة عرضها ١٠٠ كم من اوسنابروك حتى بادربورن . واستطاعت هذه المقدمات ان تتغلب ثلاث مرات على مفارز الحيطة الهنغارية ، الامر الذي ادى الى انسحاب الانكليز الى ما وراء الويسير ، وساعد على تغطية عبور الويسر من قبل كبد القوات الفرنسية في بيغير ونجن ، وسمح بالاشتباك في معركة هاستمبيك (١٧٥٧) .

ومنذ هذه الفترة اصبح خلق الفرقة ضرورياً ، اذ ان الحيطة اصبحت بحاجة لفتح القوات بمفارز تكتيكية تضم مختلف صنوف الاسلحة ، علماً بان هذا الفتح يأخذ شكلاً عملياً افضل اذا ما كان تشكيل المفارز عضوياً ، ودائماً ، شريطة ان تكون قادرة

على التمفصل للحصول على اكبر قوة فوق مسرح العمليات . وهذا هو التدا، "ي اخــذه جيش المارشال دوبروغلي في عام ١٧٥٩ . وفي هذه الاثناء اصبح إيقاع العمليات كبيراً . فمن عام ١٧٤٤ حتى عام ١٧٤٨ استخدم دوساكس في الفلاندر جيشاً لا يتمتع بتشكيل فرقي فنفذ ٢٢ حصاراً وشن ٣ اشتباكات و٣ معارك. وكان القائد نفسه قد عمـــل من عام ١٧٤١ حتى عام ١٧٤٣ مع جيش يضم جمهرات تكتيكية للحيطـــة خلقت



المقدمات في عام ١٧٥٧

تحت ضغط الهنغاريين ، فنفذ ١٠ عمليات حصار وشن ١١ اشتباكاً ومعركة واحدة . ومن عام ١٧٥٦ حتى عام ١٧٥٩ – وهي مرحلة من حرب السبع سنوات عُمم فيها استخدام المقدمات – قام الفرنسيون بـ ١٩ حصاراً وشنوا ١٥ اشتباكاً و ٤ معارك . ومن عام ١٧٦٠ حتى عام ١٧٦٣ ادى استخدام الفرق الى القيام بـ ١٢ حصاراً وشن ٤٣ اشتباكاً و ٦ معارك . وهكـــذا نرى انه **كلما زاد فتح الجيش تزايدت فرص الاشتباك وغدا فرض المعركة العامة اكثر سهولة .**

ولقد تطور استخدام المقدمات بشكل جعل التنقل بالارتال المتوازية عبر مختلف الاراضي وانتشار هذه الارتال بصورة تقليدية على حقل المعركة يتناقصان بشكل متدرج اعتباراً من عام ١٧٥٩ . كما اختفى استخدام الخط الثابت نظراً لان استخدام المقدمات والانتشار الفرقي كان يؤمن حيطة كافية . وصار من الممكن تبنّي كل ما يؤدي الى السرعة والتلاؤم مع الارض ، وهما عاملان يساعدان على تحقيق المفاجأة القتالية .

وعلينا الآن ان نعود الى خصائص الفتح المتتابع للجيوش ، والى الاخطاء التكتيكية التي رافقته كالمفارز الدائمة واختلاط فكرة الحزام مع « التمفصل » .

قبل حرب السبع سنوات كان فتح الجيش على مسرح العمليات عملية استثنائية

متروكة للقادة الممتازين . وحتى في هذه الحالة كان الفتح يتم غالباً بصورة جزئية لتسهيل عملية التجمع . وفي عام ١٧٠٩ وضع فيلار ٣ فيالق متمفصلة على مسافة ٤٠ كم بين دهول وايسكوت . وفي عام ١٧٤٧ — ١٧٤٨ استخدم المارشال دوساكس ٤ فيالق على جبهة عرضها ١٠٠ كم تمتد من انفرس الى مايستريشت ، بيد ان برفيك غامر بقيادة ٧ مجموعات منتشرة على ٢٥٠ كم بين البرت فيل ونيس منذ عام ١٧٠٩ .

ويمكن اعتبار هذه الحالة الاخيرة حالة خاصة جداً نظراً لان برفيك كان يتمتع بخصائص تلائم القتال في الجبال ، الذي تستطيع فيه قوات صغيرة متمركزة جيداً كسب الوقت والصمود بشكل يصعب معه قهرها . ولقد اعتمد برفيك على هذه الصفة عندما حرك كبد قواته المنتشرة على محور بريانسون من الشمال الى الجنوب وبالعكس ، متفوقاً بذلك على التهديدات المعادية . وهكذا استطاع ان يلغي المعركة بفضل « حركته ذهاباً واياباً » حتى عام ١٧٠٢ . ولم يضطر اي فيلق من فيالقه للاشتباك منفرداً نظراً لان الاحتياط العام كان قادراً في كل لحظة على دعم اي فيلق مهدد في الوقت المناسب .

وعندما كان الانتشار يتم في مرحلة المقدمات على ارض متوسطة كان التنفيذ يأخذ صفة المغامرة . ولقد اضطر فريدريك الثاني رغم مبادئه والاسس التي نادى بها الى ان يناور في بعض الحالات **بمفارز دائمة** . وفي عام ١٧٥٧ نشر ٤ فيالق يضم كل واحد منها من ١٠,٠٠٠ الى ٤٠,٠٠٠ رجل على جبهة عرضها ٤٠٠ كم ، ممتدة على طول السوديت والارزغوبرج . وتقدمت الفيالق نحو نقطة واحدة هي براغ على طرقات تفصلها عن بعضها كتل جبلية كثيفة او خطوط مائية كنهر الب او مالدو . ومن ١٥ ابريل (نيسان) حتى ٤ مايو (ايار) كان النمساويون قادرين على ضرب الفيالق البروسية منعزلة . ولكن دون لم يفعل ذلك بل جابه هذه الفيالق بخمس مفارز تضم كل واحدة منها من ٣,٠٠٠ حتى ٤,٠٠٠ رجل ، تتصف مثل فيالق فريدريك بضعف الاتصال فيما بينها .

وهناك حالات عملت فيها عدة جيوش مستقلة على مسرح عمليات واحد . ففي عام ١٧٥٨ وزع الفرنسيون — في المانيا ١٢١ كتيبة من المشاة و ١١٥ سرية خيالة داخل ثلاث مجموعات مستقلة هي : جيش لوزاس في ويستفاليا ، وجيش كونتاد في هيس ، وجيش سو بيز في ساكس . ولم تتحقق القيادة الموحدة الا بصورة موقتة في عام ١٧٥٩ . ونلاحظ هنا ان المتطلبات السياسية اخذت الافضلية على المتطلبات الاستراتيجية .

واعتباراً من عام ١٧٥٩ غدا التمفصل الفرقي قاعدة متبعة . وكانت سعة هذا التمفصل غالباً معقولة . فهي تسمح بالتقارب السريع والدعم المتبادل . ولكن بعض

القادة خلطوا بين الحيطة والمناورة فنشروا فرقهم على شكل حزام . وكان هذا الحزام يقدم لهم ولا شك كثيراً من المعلومات الجيدة ، ولكنه لا يسمح لهم بتحقيق ... كبير الا بعد التجمع امام الحزام او خلفه . وهكذا ضاعت محاسن «التمفصل» بتأثير امتداد الخطوط .

ومع هذا فنحن نعرف منذ زمن بعيد ضعف فاعلية الحزام ان لم تتمركز خلفه قطعات احتياطية معقولة . والحزام عبارة عن تشكيلة خاطئة استُخدمت غالباً في معسكرات الشتاء . ففي عام ١٦٧٤ فاجأ تورين حزاماً معادياً لم يكن قد نشر أمامه أية عناصر للمراقبة على نقاط عبور بروش . وفي عام ١٧٥٨ استطاعت قوات هانوفر التغلب بكل سهولة على الحزام الذي نشره الدوق دوريشيليو على نهري الويسير وآلير ، وادى ذلك الى تشتيت الجيش الفرنسي وانقسامه الى قسمين . ولم يلتقط هذا الجيش انفاسه ويستعد ترتيبه الا قرب فرانكفورت وكولوني . ومع هذا كان فريدريك ودون يحترمان مبدأ استخدام الحزام في معسكرات الشتاء ، ويأملان بتحقيق تجمع الربيع بهجوم ينطلق من عدة نقاط باتجاه هدف محدد .

وتزايد تأثير هذه الاخطاء حتى عام ١٧٩٦ . ففي عامي ١٧٦٠ و ١٧٦١ فتح دوبروغلي خمس فرق حول كبد القوات المتمركزة في كاسل . وكان مدى انتشار التشكيل ١٢٠ كم ، وكان خط المواصلات من فرانكفورت الى كاسل محمياً بثلاث فرق اخرى . وكانت العمليات في هيس مقتصرة على الحركة ذهاباً واياباً بين كاسل وفرانكفورت نظراً لان فرق التماس لدى الحصمين كانت منتشرة بشكل مبالغ به ، الامر الذي يعرضها للسحق امام التجمعات الهجومية . وكانت حملات ١٧٩٣ و ١٧٩٤ و ١٧٩٦ في المانيا اقل قيمة من الحملات الاخرى . وكان الحزام فيها مرضاً عاماً يبقى حتى تبدأ المعركة . ففي واتينيي (١٧٩٣) كان مع جوردان قوة مؤلفة من ٥٦,٠٠٠ رجل يمسكون جبهة عرضها ٢٠ كم فقط ، وفي نير يشيم (١٧٩٦) قام مورو بارسال دوهيسم ليتجول على بعد ١٠ كم عن يمينه . وانتشر بشكل جعله يكاد يلامس الهزيمة عندما دفع قوة غير متلاحمة من قواته وتضم ٢٨,٠٠٠ رجل لملاقاة ٢٤,٠٠٠ نمساوي علماً بان تعداد قواته كان يبلغ ٥٥,٠٠٠ رجل .. ومن المعروف آنذاك ان فرق الاجنحة كانت تقف في اغلب الاحيان بعيداً عن ساحة المعركة بشكل يمنعها من الاشتراك الفعلي في القتال . كما ان بعض الفرق المشتبكة كانت تمتد في القتال على جبهة عرضها ٣٥ كم.

ولقد زاد الاهتمام باستطلاع من دون شك وهذا ما ادى الى زيادة عمليات كشف

خطوط العدو وسبر غورها ، كما استمر وجود الستارات العاملة للاستطلاع والتأخير . وكان بوسع هذه الستارات ان تندفع مسافة ٥٠ كم بعيداً عن كبد القوات ، بيد ان ابتعادها لم يكن يتلاءم مع التجمع . ولم يتقن فن توزيع القوى واختيار نقطة الجهد الرئيسي التي تحدد التجمع سوى كارنو ودومورييز . ولكنهما كانا بطيئين وعاجزين عن تحقيق المفاجأة . اما هوش وجوردان ومورو والجنرالات النمساويون فكانوا يتصفون بالبطء نفسه بالاضافة الى عجزهم المطلق عن اجراء التجمع بشكل جيد . وبقي الامر كذلك حتى جاء بونابرت فنقل نظريات جيبير الى حيز التنفيذ العملي .

وقامت الجيوش « المتمفصلة » بتفضيل نوعين من المناورة ، ولكنهما في الحقيقة نوعان قديمان معروفان هما : **المناورة عـلى الخطوط الداخلية والمناورة على خطوط المواصلات .**

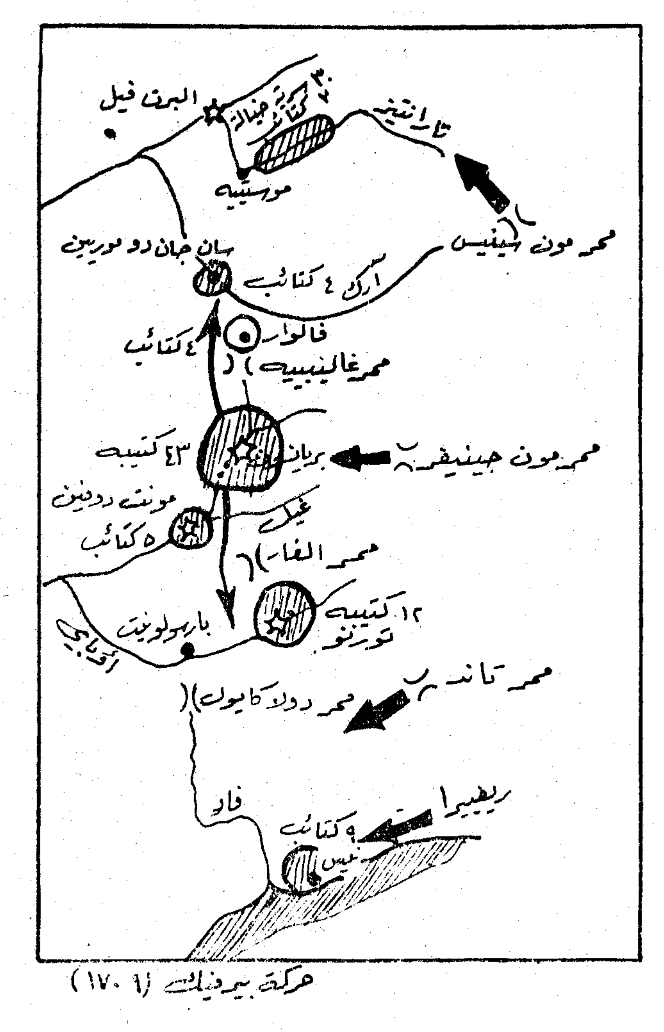
آ ــ وتدلنا دراسة المعارك على ان التاريخ القديم لم يعرف **المناورة على الخطوط الداخلية** الا بين مسارح العمليات. والجديد هنا تطبيقها على اجزاء الجيش العاملة على المسرح نفسه .

ففي عام ١٧٠٤ و ١٧٠٧ قام مارلبورو بالمناورة بين المسارح ناقلاً جيشه من الفلاندر الى الدانوب ، ثم عاد ادراجه الى الفلاندر قاطعاً بذلك ٦٠٠ كم . ولقد قام بحركاته في عام ١٧٠٤ بشكل رائع جعل فيلروا وتالارد ومارسين وولي عهد بافاريا لا يكادون يجرؤون على متابعته ولو من مسافة بعيدة . حتى جاء فاندوم في عام ١٧٠٧ ونافسه بفاعلية بان اخذ يتحرك على خطوط موازية لخطوط تحركاته .. ونحن نعرف كيف سار مارلبورو في عام ١٧٠٤ متعقباً تورين حتى وصل الى شمالي اوغسبورغ ، وكيف اتصل مع الامير اوجين

اشتراك ١٧٠٤ (بلنهيم)

ليسحق في معركة بلنهايم جيوش تالارد ومارسين وولي عهد بافاريا .

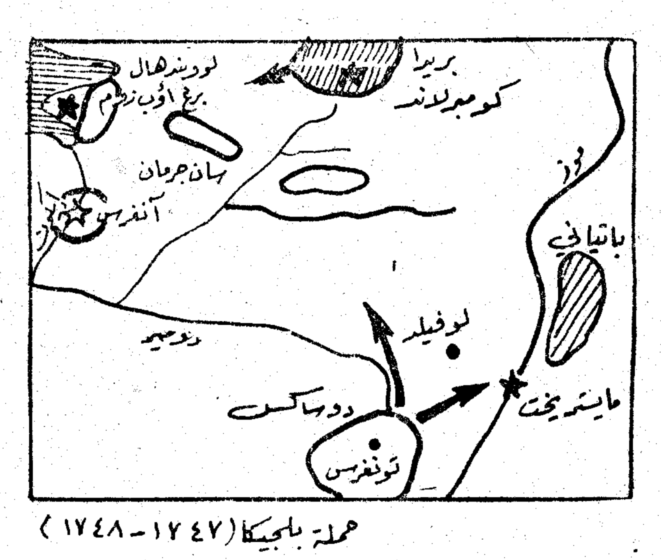
ومن عام ١٧٠٩ حتى عام ١٧١٢ كانت حركات الذهاب والعودة التي قام بها برفيك على مسرح العمليات الالبي تشكل اول المناورات على الخطوط الداخلية لتشكيلة متمفصلة . ولقد وصف مبادىء هذه المناورات بقوله : « وفكرت بموقع جديد استطيع منه الوصول الى كل مكان بالجيش كله ، او بقوات كافية على الاقل لقطع طريق العدو . وهكذا فكرت بايجاد خط محدب ذي مركز متقدم وجناحين متراجعين وكنت اتحرك دائماً على الوتر على حين يتحرك الخصم على طول القوس » . وبعد ان وصف انتشاره من لاتارانتيزا الى البحر استنتج ما يلي :



حركة بيرفيك (١٧٠٩)

« لقد دخلت في ادق التفاصيل لأن هذه الحرب مختلفة كل الاختلاف عن الحروب الاخرى ، ولا يمكن فهمها دون ما قدمته من شروح . أنها تبدو في بداية الامر غريبة عجيبة صعبة التنفيذ. ولكن بوسعي ان اؤكد بأن اتباع فكرتي يجعلها اسهل الحروب . وهي لا تتطلب الا ان يكون المرء عليماً بتحركات العدو ، وان يجري حركاته بناء على ذلك . وهذان امران يسهل تنفيذهما ؛ لان المكان الذي حددته لنفسي كان يجعلني قادراً على كشف تقدم العدو من مسافة بعيدة بشكل يسمح لقواتي بالوصول الى حيث اريد في الوقت المناسب » .

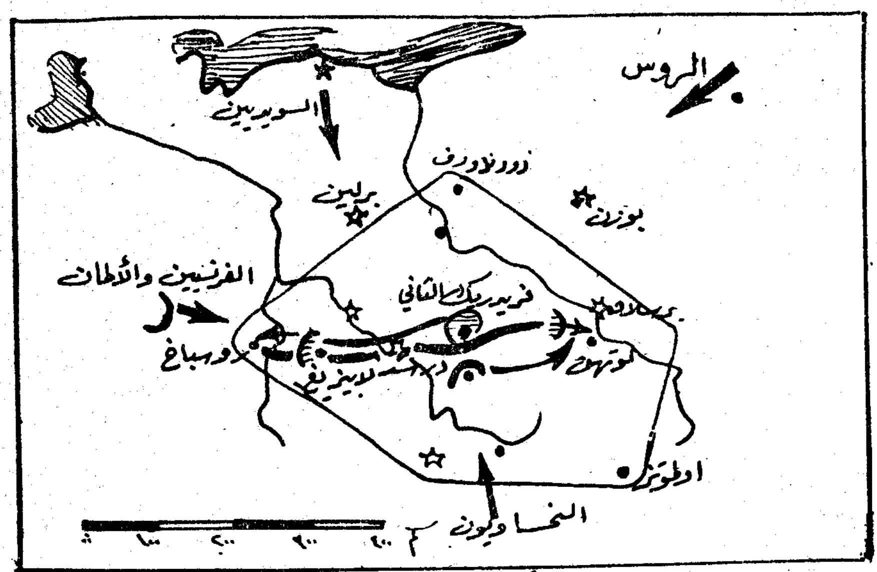
وهكذا نكون قد حددنا صفات المناورة على الخطوط الداخلية بكل وضوح . وهنا لا بد لنا من ان نضيف **بان الاخطاء توثر تأثيراً بالغاً على الاتساع المحتمل لحركة الذهاب والاياب .**



حملة بلجيكا (١٧٤٧ - ١٧٤٨)

وفي حملة بلجيكا (١٧٤٧ - ١٧٤٨) قلد الكونت دوساكس اسلوب برفيك اذ وضع دوساكس فيليقين بوجه كومبرلاند لتغطية حصار بيرج اوبزوم، في حين تمركز مع بقية جيشه في تونغرس يراقب تصرفات باتياني الذي كان يحتل مايستريشت . وعندما تظاهر كومبرلاند بالحركة امتد دوساكس نحو فيالق التغطية فاضطر كومبرلاند الى التراجع واستمرت اللعبة حتى سقوط بيرج اوبزوم . ولقد كانت في الحقيقة لعبة محدودة جداً نظراً لان التشكيلة الفرنسية كانت تمتد ١٠٠ كم .

بيد ان المجال الذي عمل عليه فريدريك مجال اكبر ، اذ كان طوله من الشرق الى الغرب ٥٠٠ كم كما كان عرضه من الشمال الى الجنوب ٣٠٠ كم . وكان فريدريك مهدداً من قبل السويديين في الشمال ، والروس في الشمال الشرقي ، والنمساويين في الجنوب ، والفرنسيين والالمان في الغرب ، وهذا ما دفعه الى العمل على الخطوط الداخلية بشكل واسع النطاق . وكانت غورليتز نقطة استناد مناوراته ، وهي المكان الذي إختاره نابليون ليكون نقطة استناد مناوراته في عام ١٨١٣ . وبالرغم من النجاح المستمر والشؤون الادارية المخففة والقدرة على أجراء مسير بطول ١٠٠ كم خلال اكثر من شهر بسبب ضعف فاعلية العدو وقدرته على الرد ، فقد استُنزف الجيش البروسي ، وغدت ضرباته اقل عنفاً وحسماً . ولقد كان هذا الجيش في عام ١٧٥٧ يتمتع بقدرة باهرة ، وما جاء عام ١٧٦٠ حتى غدا مُنْهَكاً عاجزاً عن الصمود بعد ان تجاوز امكاناته بشكل واضح . ولقد شوهدت هذه الظاهرة نفسها تتكرر مع الجيش الكبير في حملة فرنسا عام ١٨١٤ .



حقل مناورة كبير البروسيين خلال حرب السبع سنوات ومناورة
١٧٥٧ - (روسباخ - لوتهن)

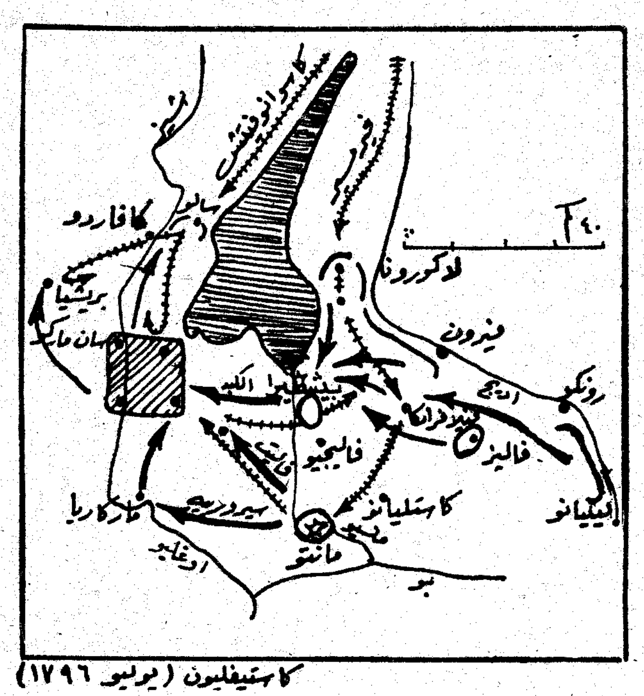
وتأخذ حملة ١٧٥٧ معنى خاصاً في هذا الصدد ففي هذه الحملة لم يستطع جيش فريدريك المتجمع قرب غورليتز ان يخرج النمساويين من زيتاو . وفي بروسيا الشرقية هزم الروس قوات ليهوالد في ٣٠ اغسطس (آب) في جايغير سدورف ، ثم انسحبوا بعد ذلك بمحض ارادتهم . هنا ترك فريدريك قوات بيفرن لتواجه النمساويين وتراقبهم ، وسار مع بقية جيشه نحو لايبزيغ وهزم الفرنسيين والالمان في روسباخ في ٥ نوفمبر (تشرين ثاني) ثم عاد ادراجه الى غورليتز . ولما علم ان بيفرن أصيب بالهزيمة في بريسلاو يوم ٢٣ نوفمبر (تشرين ثاني) تحرك من جديد وقطع ٣٠٠ كم في عشرة ايام ليمد الى بيفرن يد العون ، وهزم النمساويين في لوتهن يوم ٥ ديسمبر (كانون اول) . وفي اثناء ذلك تملص ليهوالد من الروس وضد السويديين في ستر السوند . ويمكن ان نقول بان سلبية النمساويين والانسحاب الروسي بلا مبرر اعطيا الجيش البروسي فرصة نادرة ووقتاً كافياً لاجراء المسيرات المعاكسة الداخلية .

وتقدم حملة ١٧٩٦ في ايطاليا مثالاً معاكساً لمناورة على خطوط داخلية في منطقة يقل طولها عن الحدود الطبيعية ولكنها كافية لتحقيق غرضها ، كما ان ريفولي وكاستيغليون تشكلان نموذجاً واضحاً للمعركة على موقع مركزي .

وفي خلال حملة ايطاليا من ١٧٩٦ حتى ١٧٩٧ فتحت التشكيلات الفرنسية بشكل

معقول (١٦٠ كم كحد اقصى) ، وقام بونابرت بمناوراته على خطوط داخلية لا يزيد مداها عن ٥٠ كم .

لقد استخدم مانتوا المُحاصَرَة كطعم ، وغطى نفسه بستارة على نهر آديج من كورونا حتى لينيانو (انظر الشكل بجانب الكلام) مع حيطة على الضفة الغربية لبحيرة غارد في سالو . وكان كبد قواته في مانتوا بالاضافة الى وجود فرقة او فرقتين على عقدة الطريق في فيلاجيو الى الشرق من مانتوا .



كاستيغليون (يوليو ١٧٩٦)

وفي ٢٩ يوليو (تموز) ١٧٩٦ نزل جيشان نمساويان على ضفاف بحيرة غارد ، وكان احدهما يعمل في الغرب تحت قيادة كاسدانوفيتش ويضم ٢٥,٠٠٠ رجل ، في حين كان الثاني يضم ٣٥,٠٠٠ رجل ويعمل في الشرق تحت قيادة فورمسير بعد ان طرد الحيطة الفرنسية من سالو وكورونا ، وفي يوم ٢٩ دخل كاسدانوفيتش بريسا ، وفي ٣٠ دخل مدينة لاناتو فعقد الفرنسيون آنذاك اجتماعاً حربياً شرح فيه بونابرت بانه قادر على ضرب كل جيش من الجيشين على حدة ، وذلك بتطويقه كاسدا نوفيتش والتوجه بعد ذلك لضرب فورمسير . وفي يوم ٣١ سحب بونابرت ستارة نهر اديج ورفع الحصار عن مانتوا ووضع لواء فاليت على نهر منسيو ليراقب قواتِ فورمسير وهاجم كاسد انوفيتش من ثلاثة اتجاهات هي بريسا ولوناتو وسالو . وتقهقر النمساويون من لوناتو نحو الشمال باتجاه غافاردو .

وفي اغسطس (آب) وصل فورمسير إلى مانتوا ، بيد ان كبد القوات الفرنسية لم يأبه بذلك ، بل تابع هجومه ضد كاسدانوفيتش ، وانسحب لـواء فاليت باتجاه كاستيغليون لينضم الى كبد القوات ، وفي ٢ اغسطس (آب) استمر الضغط باتجاه

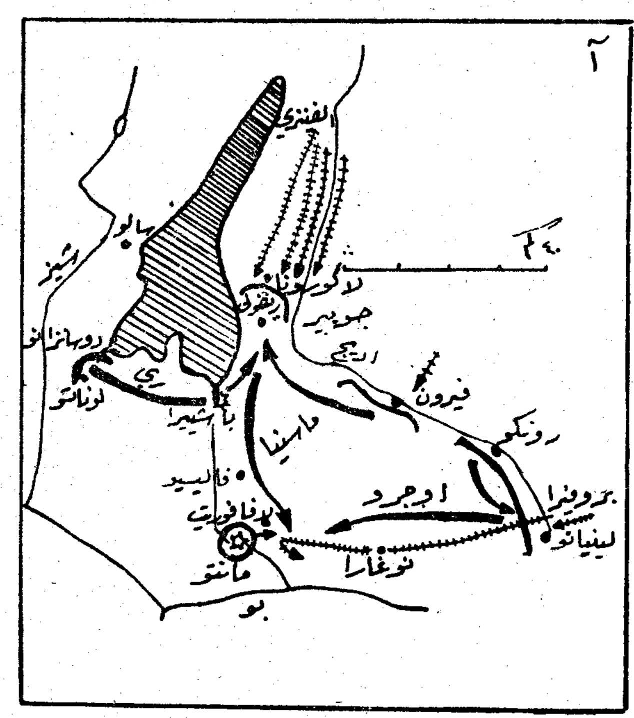
غافاردو ، وتجمع كبد القوات الفرنسية في المربع سان ماركو ــ لوناتو ــ كاستيغليون مونت شيارو ، واستطاع فورمسير طرد قوات فاليت من كاستيغليون .

وفي ٣ و ٤ و ٥ بقي فورمسير سلبياً ، على حين تابع كاسدانوفيتش الضغط باتجاه الجنوب محاولا الالتقاء به . ولكنههُزم في لوناتو ، كما تم ايقاف فورمسير في كاستيغليون . وفي يوم ٤ لاحظ كاسدانوفيتش ان الفرنسيين يحاولون تطويق مؤخراته فانسحب باتجاه ريفا . وفي يوم ٥ استدارت غالبية القوات الفرنسية نحو فورمسير وهزمته في كاستيغليون واجبرته على ان يعبر نهر منسيو مرة ثانية .

وفي هذه المعركة كانت فرقة سيرورييه متمركزة في وضع الانتظار في ماكاريا على بعد ٣٥ كم الى الجنوب ، فلما دعيت الى القتال فجأة استفادت من تثبيت قوات فورمسير وانقضت على مجنبته . وفي يوم ٦ قطع فورمسير اشتباكه قرب بيشييرا وانسحب نحو الشمال ، عندها عاد جيش بونابرت ليأخذ وضع المراقبة من جديد .

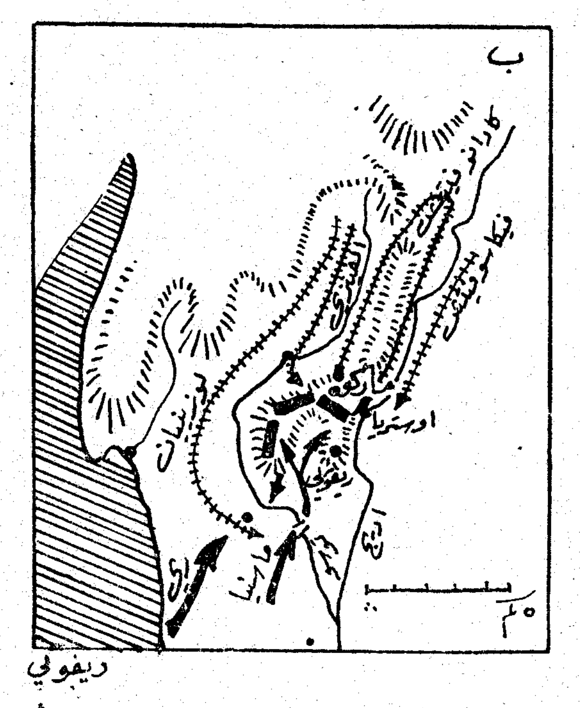
والحقيقة ان فورمسير وكاسدانوفيتش كانا في يوم ٣ اغسطس (آب) متباعدين بمقدار ٢٠ كم فقط . وكان ٤٠,٠٠٠ فرنسي يقفون في مجابهة ٦٠,٠٠٠ نمساوي . ولم ينج الفرنسيون من الهزيمة الا بسبب تردد القائدين النمساويين وانعدام فاعليتهما . علماً بان المسافة المخصصة للمناورة على الخطوط الداخلية (٥٠ كم) لم تكن كافية لتصفية قوات كاسدانوفيتش قبل قدوم فورمسير .

وفي يناير (كانون ثاني) ١٧٩٧ وقع وضع مشابه ، بيد انه لم يكن هناك اية فرقة تقف موقف المراقبة على الضفة الغربية لبحيرة غارد . ومن ٨ حتى ١٢ يناير (كانون ثاني) قامت فرقتان



ريفولي . لافافوريت (يناير ١٧٩٧)

نمساويتان بهجمتين متجهتين الى شمال لينيانو والى فيرونه بغية ضرب الستارة الفرنسية المنتشرة على نهر اديج . وفي يوم ١٢ قام الجيش النمساوي بقيادة الفينزي بالاندفاع نحو كورونا عبر الشريط المحصور بين نهر آديج والبحيرة (انظر الشكل آ في الصفحة السابقة) . وفي يوم ١٣ انسحبت ستارة نهر اديج نحو الجنوب على حين انسحبت قوات جوبير نحو ريفولي . وترك بونابرت قطعة حيطة صغيرة على نهر منسيو في فيرونه ودفع فرقة احتياطية من فاليجيو الى كاستيلنوفو ، ثم حرك قواته لتلتقي عند ريفولي ، ووقعت المعركة على موقع مركزي دون ان يسبقها اية مناورة على الخطوط الداخلية .



ريفولي

وانتشر الفرنسيون على موقع ترومباليرا الممتد بطول ٥ كم والمنتشر على شكل نعل فرس (انظر الشكل ب المرافق) وهاجم العدو هذا الموقع جبهياً كما هاجم الجوانب المعرضة للخطر ، وتم تطويقه بشكل مزدوج من قبل رتلين نمساويين سار احدهما بمحاذاة شاطىءالبحيرة ليضرب الموقع الدفاعي من الخلف ، في حين سار الرتل الثاني مع الشاطىء الايسر لنهر آديج ، ولكن حسن حظ الفرنسيين جعله يحجم عن اجتياز النهر . وجمع بونابرت قواته الاحتياطية في قلب نعل الفرس ، واعاد ترتيب المجنبات ودفع ارتال الاجنحة ، ثم التفت ليجابه الرتل القائم بالتطويق من الغرب ، علماً بان هذا الرتل كان محصوراً بين قوات بونابرت وفرقة ري التي استدعاها بونابرت من كاستيلنو . وتعرض الفرنسيون لخطر يفوق الخطر الذي تعرضوا له في كاستيغليون ولكن بونابرت عرف كيف يستفيد من وضع الارتال النمساوية الاربعة التي كانت تناور بصورة منعزلة داخل مناطقها دون ان تقوم بتنظيم التعاون والتنسيق فيما بينها .

ونستنتج من ذلك ان المناورة على الخطوط الداخلية كانت في هذه الحقبة **نابعة من اخطاء العاملين على الخطوط الخارجية وحالاتهم النفسية اكثر من ان تكون ناجمة عن**

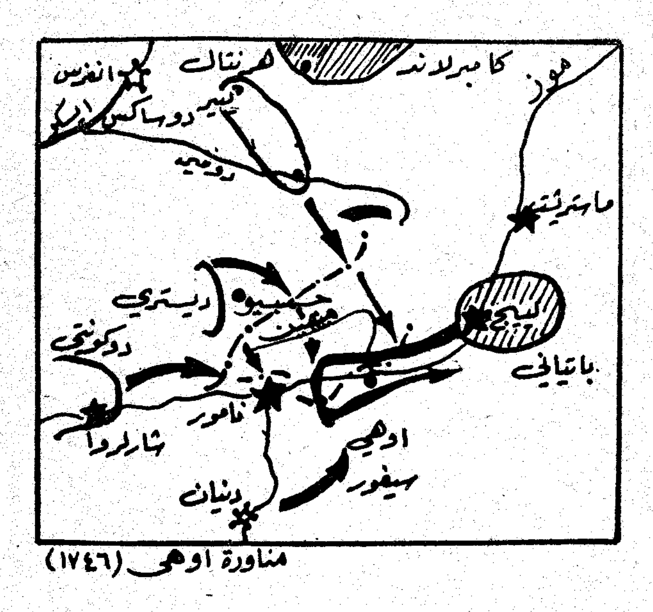
وسائط تكتيكية محددة . وينطبق هذا القول على مناورة فريدريك ضمن مجال اوسع من المجال المطلوب ، كما ينطبق على مناورة بونابرت داخل المجال الضيق . ومن المؤكد ان مثل هذه الحالة حالة انتقالية ، لان استمرار الهزائم جعل القادة في المعسكر الاخر يتعلمون كيف يستفيدون من الفرص التي تتيحها لهم المبالغة باتساع المناورة او ضيقها . وهذا ما زاد من صعوبة المناورة على الخطوط الداخلية ، وجعل المعركة على موقع مركزي عملاً بالغ الخطورة .

ب) **اما المناورة على خطوط المواصلات** فلم يكن لها في العصور القديمة سوى قيمة محدودة باستثناء الحالات التي تتدخل فيها الظواهر الجغرافية لتعطيها معنى هاماً . ولقد كان بوسع الجيوش التي لا تقبل التجزئة ان تلتف حول بعضها بصورة متبادلة ، دون ان يعرضها ذلك لمتاعب جسيمة . ولكن فتح التشكيلة بدّل شكل الخطر ، اذ غدا بوسع الجيوش قطع منطقة كاملة لا قطع اتجاه معين فقط . فاذا رجعنا الى المراحل التي سبقت خلق الفرقة ، وجدنا ان افضل نجاح لم يكن يؤدي الى المعركة لان الفكرة السائدة آنذاك كانت تعتمد على تحقيق الاحتلال باقل خسارة ممكنة . علماً بان المناورة كانت خلال اعداد التكتيك الفرقي صغيرة قليلة الابعاد .

ففي ١٧٤٦ جابه الفرنسيون كلاً من كومبرلاند وباتياني المتمركزين قرب هيرنتا وليبج ، واستخدموا في هذه المجابهة جيوش الكونت دوساكس المتمركزة بين لير وايبرشوت ، بالاضافة الى جيش كونتي القائم بحصار شارلروا والمغطى بقوات ايسترى وجيمبلو (انظر المخطط في الصفحة ٣٦١) وصعد باتياني مع الضفة اليسرى لنهر الموز ليخلص شارلروا ويغطي نامور . فترك دوساكس ستارة بسيطة امام كومبرلاند وحقق الاتصال مع ايسترى في ٣١ يوليو (تموز) . وفي ٥ اغسطس (آب) التحق بهما كونتي . واندفع الفرنسيون نحو نهر ميهيني بحركة تعتمد على نامور كمحور للدوران ، واحاطوا بباتياني الذي انسحب الى الضفة اليمنى من نهر الموز امام اوهي . وقطع التراجع نحو ليبج ، وكانت خطوط المواصلات الجنوبية عبر الاردين سيئة للغاية ، وانطلق سيغور من دينان ليعمل على مؤخرات باتياني بكل فاعلية . وشكل الفرنسيون رأس جسر جنوب الموز في حين كان خصمهم المحروم من الاعاشة مضطراً لخوض المعركة .

ولكن المعركة لم تقع ، وكان دوساكس تواقاً لاحتلال نامور ، ولكنه لما رأى خصمه مستعداً للانسحاب ارخى قبضته عن هوى عندها استغل باتياني الفرصة وانسحب حتى مايستريشت يرافقه فيلق فرنسي يسير بمحاذاته على الضفة اليسرى من النهر . وسقطت

نامور بيد الفرنسيين .

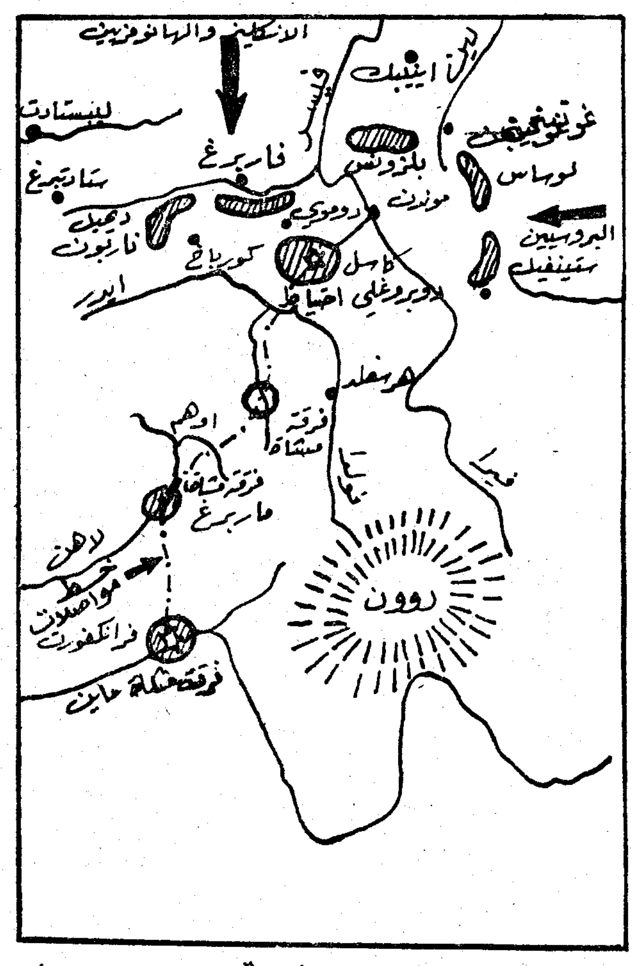


مناورة اوهي (١٧٤٦)

وفي عام ١٧٦٠ اعاد المارشال دوبروغلي احتلال هيس وكاسل وكان دوق دوبرانسويغ محصوراً بين الفولدا والديمل دون ان يكون له من مخرج سوى فاربورغ . وكانت فرقة دوموى منتشرة على يسار الفرنسيين بشكل حزام وتمسك كافة الجسور . وكان بوسع دوبرا نسويغ ان يرسل فرقة تصعد مجرى الديمل لتفاجيء دوموى وتستعيد احتلال الجسور بكل سهولة ، ولكنه لم يفعل ذلك بل انسحب الى الشمال قبل ان يقوم الفرنسيون بازعاجه . وفي عام ١٧٦١ تكررت الواقعة نفسها لمصلحة الفرنسيين اذ فاجأ دوبرانسويغ حزام الحيطة المنتشر حول كاسل وخرقه . وقامت قوات هانوفر بمهاجمة خطوط تراجع الفرنسيين ، ولكن هجماتها كانت ضعيفة قليلة الفاعلية . واعاد دوبروغلي تجميع قواته قرب فرانكفورت واندفع بهجوم ظافر حتى كاسل ، واستغرقت عملية الذهاب والاياب شهراً كاملاً لم تقع فيه اية معركة هامة . وفي عام ١٧٦٦ اعاد دوبرانسويغ هجومه من الشواب وزيبغنهايم ، ولكن فرقتي ستينفيل ولوساس المتمركزتين على خطوط المواصلات صدتاه بكل سهولة دون ان تكونا بحاجة لطلب الدعم من كبد القوات . وفي عام ١٧٦١ كان دوبروغلي في كاسل ، فحاول ان يساعد جيش سوبيز على الدخول في القتال فصعد مجرى نهر ليب . وكان دوبرانسويغ يتمركز حول ليبستادت بين الجيشين الفرنسيين . وتظاهر دوبروغلي بالحركة نحو هانوفر ومدد ميمنته بين الويزر وهارز ، فرد دوبرانسويغ على ذلك بان خرق حزام الديمل لتهديد مؤخرات الفرنسيين من كاسل وجنوب شرق موندن . ولكن قوة فرنسية اغارت في بادربون وتعرضت لقوافله فتراجع حتى ليبستادت . وعندها دفع دوبروغلي فيلقاً نحو مدينة برانسويغ على مسافة ١٨٠ كم من كاسل مركز ثقل خصمه ، فاضطر العدو لان ينقل ثقله الى اينبيك دون ان يحاول سوبيز التعرض للتغطية الموجودة امامه .

واعتباراً من يونيو (حزيران) ١٧٦١ اصبح الفرنسيون قادرين على صد الضربات الموجهة الى مؤخراتهم . ووصل برانسويغ الى نهر اوم ومجرى الفولدا الاعلى ، في حين كانت بعض قطعات دوبروغلي تتمركز بين الفولدا وويرا ، بالاضافة الى قطعات اخرى تتمركز في كاسل . وكان يتصل مع فرانكفورت عن طريق الممرات والوديان عبر الروون . وفي نهاية الحملة قطع دوبرانسويغ على نهر الاوم طريق كاسل المحاصرة . ووصلت الخيالة الفرنسية الى باتنبرغ وتريزا وفريتزلار ، بيد ان برانسوبغ لم يهتم بها ، وسقطت كاسل قبل محاولة عبور نهر الاوم .

وغدا من الواضح ان **المناورة على خطوط المواصلات لم تعد قادرة على أن تكون خدعة كبيرة او اغارة مؤثرة بفاعلية** . وغدا قلبها الى تهديد حقيقي بحاجة الى زيادة القوات القائمة بالمناورة مع تهديد حقيقي بشن معركة . وهذا هو ما فعله بونابرت عندما اخذ فيما بعد يدفع **مجموع الجيش على مواصلات العدو** .



الانتشار الفرقي (١٧٦٤-١٢٦٦)

ففي عام ١٧٩٦ فشلت عمليته الالتفافية على بايزانس ، ودفعت النمساويين لان يغلقوا الطريق المباشر من ميلانو الى فاليزا ، فما كان منه الا ان التف حول كافة خطوط المقاومة المحتملة ووصل الى بليزانس عبر تورونتا . وادى نقص اعتدة الجسور الى فقدان بعض الوقت عند عبور نهر البو ، وربح النمساويون وقتاً كافياً للانسحاب نحو مانتوا .

وفي عام ١٨٠٠ حاصر النمساويون جنوة وتجمعوا حول الاسكندرية (الايطالية) ووجهتهم الى الغرب ، وخرج القنصل الاول من جبال الالب عند ايفرى ، وكانت ميمنته مغطاة بفيلق لان الذي وصل الى شيفاسو ، وأخذ يسير مع محاذاة الضفة اليسرى لنهر البو . ووصل بونابرت الى ميلانو ثم نزل الى ممر ستراديلا حيث احتل موقعاً طبيعياً وشكل حاجزاً استراتيجياً يعتبر الاول من نوعه ، وقطع من ميلانو الى جنوب نهر البو كافة مواصلات العدو . ولكنه خشي ان يلجأ النمساويون الى جنوة التي كانت قد سقطت قبل فترة قريبة ، فحاول قطع الطريق في هذا الاتجاه ، ووقعت معركة مارنغو (انظر المخطط في الصفحة ٣٧١) .

وبالرغم من كل ما تقدم . فقد كان هناك حالات قام فيها بونابرت بدفع قوات صغيرة على مواصلات العدو ، ولكن العدو كان آنذاك مهزوماً . فبعد ريفولي رأيناه يحمل ٢,٠٠٠ رجل على مراكب تمخر بهم عبر بحيرة غارد لقطع الطريق على الفينزى الذي كان ينسحب امام تقدم المشاة الفرنسية .

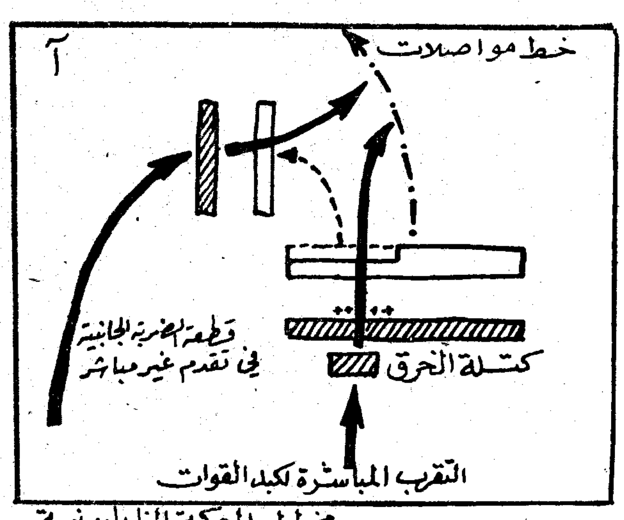
* * *

وفي نهاية هذا التطور تغيرت شروط المعركة نفسها وكان من نتيجة فقدان الخطوط والاساليب الجامدة المنهجية ، وسرعة التنقلات والانتشار ، وتشكيل الخطوط والارتال ، واعداد انساق الرماة ، ان اخذت المعركة قسطاً اكبر من العنف والمرونة والسرعة . وفقد مخططها العام شكله التقليدي السابق .

ففي عصر الجيوش التي لا تقبل التجزئة ، وخطوط الرمي الكبيرة ، كان على الجيش ان يناور تحت سمع العدو وبصره . وكانت الجيوش تتبنى النظام المائل او تحقق خرق الخطوط القتالية الرقيقة عند اللزوم بواسطة ارتال كثيفة تندفع في نقطة محددة كما هي الحالة في معركة فونتونوى ، او بواسطة ارتال منسقة كما كانت الحالة في دينان . وصار الفتح المسبق للتشكيلة يقدم منذ ذلك الحين امكانات اخرى يلخصها بونابرت بقوله : **اننا نربح المعارك بالالتفاف حول العدو وبضرب مجنبته .**

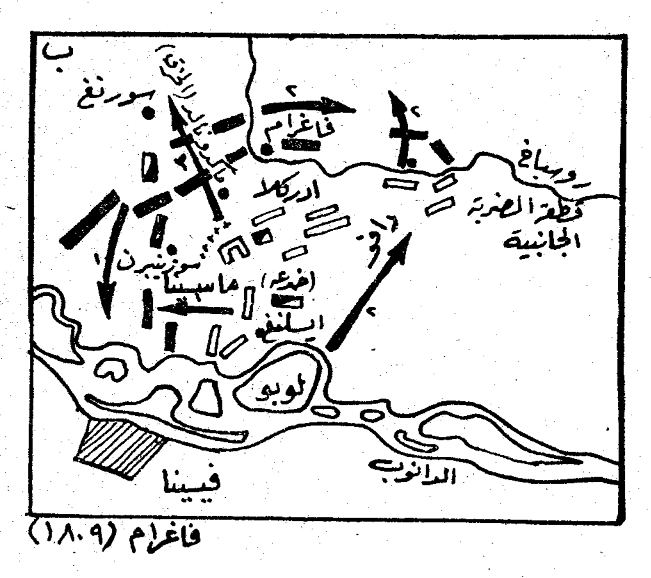
واذا قيمنا المعركة على موقع مركزي بانها نتيجة دفاعية لتشكيل مفتوح فان « الضربة الجانبية » من اليمين او اليسار هي نتيجة هجومية. ولقد حقق بونابرت هذه الضربة ايضاً.

وتتضمن آلية هذه العملية الاحتفاظ بعنصر « الضربة الجانبية » المعد لتحقيق « الحدث » بعيداً عن التجمع الهجومي الذي يسبق المعركة . وعندما تحتدم المعركة ويتم



مخطط المعركة النابليونية

تثبيت العدو يتحرك هـذا العنصر **نحو الجانب الذي يتحكم بخط تراجع الخصم**، عندها يضطر العدو لان يسحب بعض قواته من الجناح المعرض للهجوم ليدرأ بها الخطر ، فيضعف هذا الجناح ويغدو منطقة حساسة . وفي هذه اللحظة يتحرك احتياط الجيش المجمع مسبقاً امام المنطقة التي يتوقع المهاجم ان تكون حساسة ؛ ويندفع محققاً الخرق بعد رمي تمهيد بالمدفعيـة . (انظر المخطط آ المرفق جانباً)

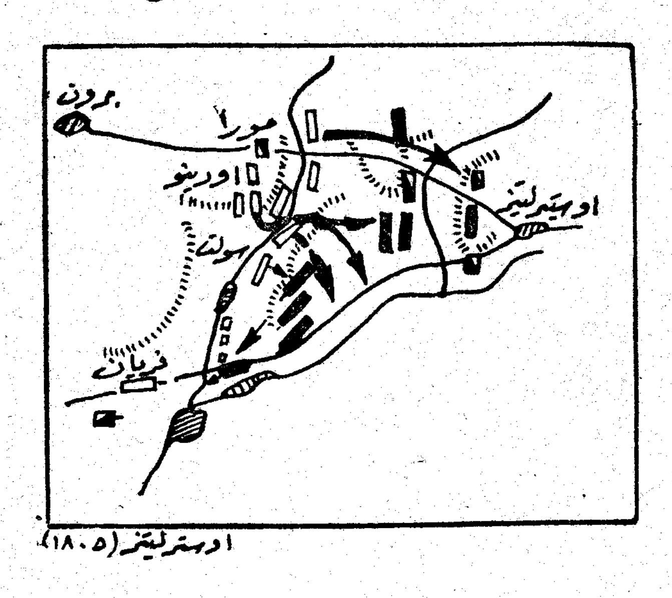


فاغرام (١٨٠٩)

وفي مونتي نوت كانت الضربة الجانبية قصيرة ومن اليسار فلقد اصطدم ارجينتو مع فرقتي رامبون ولا هارب المتخندقتين على مونتي ليجينو ، في حين انتقل ماسينا من سافون على قمة ألستار الى نقطة تبعد ٨ كيلو مترات عن ميمنة النمساويين. وعندما ظهر لاهارب قام ماسينا بالهجوم باتجاه مونتي نوت الواقعة على مؤخرة ارجينتو .

وفي كاستيغليون وريفولي كانت الضربة الجانبية طويلة ، اذ دعيت فرقتا سيروريه وري من مسافة ٣٠ ـ ٣٥ كم . ومن الجدير بالذكر ان جوبير قام بهجومه الجبهي في كاستيغليون بصورة مبكرة . اما في ريفولي فقد انقض ري على مؤخرات لوزيغان عندما

كان هذا الاخير يلتف حول الموقع الفرنسي .. وفي اوسترليتز كانت الضربة الجانبية بلا جدوى لِان هجوم ميسرة العدو كان السبب المباشر لخلق القطاع الضعيف الصالح للخرق.



اوسترليتز (١٨٠٥)

واصبحت المطاردة تأتي بعد النصر بشكل مؤكد دون ان تعترضها اية صعوبة. فالجمهرات الضرورية لهذا الغرض موجودة عضوياً ، وتستطيع كل واحدة منها « مطاردة » العدو ضمن حدود عملها ، كما انها قادرة على الاجتماع عندما يتوقف العدو ولا يستطيع التملص . والحقيقة ان المطاردة لم تؤد الى تدمير العدو الا بعد معركة ريفولي ، اما في المرات الاخرى فقد استطاع العدو النمساوي ان يتملص نحو الشمال او يلتجيء في مانتوا .

ومما لا شك فيه ان العناصر اللازمة لاستخدام الاسلوب النابليوني كانت موجودة منذ ذلك الحين فجاء التنظيم الدقيق ليأخذ منها كل ما تستطيع تقديمه من امكانات وفاعليات .

الفصل الثامن والعشرون

من الامبراطورية الفرنسية الأولى حتى الرايخ الالماني الثاني

(١٨٠٠ — ١٩٠٠)

تدهور الانظمة المتمفصلة المفتوحة

« ان علينا ان نفضل الصواعق على المدافع
بونابرت

ومع تزايد حجم الحروب واتساعها واتجاهها لان تكون عالمية ، تناقصت اهمية المواقع العسكرية التي تحدثنا عنها . ولقد نجم اتساع الحروب عن الاسباب التالية : انشاء مستعمرات غربية تستهدف اخضاع الشعوب واستغلالها ، والصراع على الاسواق او على المنابع الاقتصادية الهامة ، وتحضّر شعوب الشرق والشرق الاقصى واستيقاظها من سباتها ، وظهور العقائد التوتاليتاريه .

واخذت الاهداف الاقتصادية اهمية متزايدة لدرجة دفعت العالم لان يسير منذ ايام لويس الخامس عشر من السلم المسلح الى الحرب الشاملة . وجاءت زيادة تعداد الجيوش وارتفاع مستواها التقني وقدرتها التخريبية لتجعل الحروب اكثر تكلفة واشد غلاء مع الزمن . وغدت متطلبات القتال متزايدة يوماً بعد يوم ، وبدأ التنافس الاقتصادي الامبريالي بين الامم ، وصار على كل دولة تود القوة وتتوق الى المنعة ان تسعى الى السيطرة على المواصلات البحرية العالمية .

وغدت السيطرة على البحار ، وعلى الاجواء من بعدها عوامل استراتيجية بالغة الاهمية ، لدرجة تجعل النجاح البري بدونها مجدباً لا جدوى منه . وفي خلال البحث عن

هذه السيطرة كانت العمليات الناجحة كمعركة الطرف الاغر في عام ١٨٠٥ تحمل معنى اقتصادياً كبيراً ، وتعطي الملامح الاساسية للحصار الاقتصادي والتدابير المضادة لهذا الحصار . وتدل على امكانية مهاجمة المنابع الاقتصادية للخصم . وبهذا تمت العودة الى الصفات القديمة للاستراتيجية غير المباشرة ، وكانت العودة قوية لدرجة جعلت الوسائط اللازمة لحسم المعارك بسرعة (الاستراتيجية المباشرة) تفقد جزءاً كبيراً من اهميتها مع اختفاء الوسائط النابليونية .

والحقيقة ان التطور العسكري الاخير بقي متأثراً بذكريات المناورات الامبراطورية والمحاولات الرامية الى بعث الحياة فيها من جديد ، رغماً عن الظروف غير الملائمة .

وفي القرن التاسع عشر تزايدت قوة الاسلحة وسهولة استخدامها ، بيد ان طبيعتها لم تتبدل بشكل واضح . وبالرغم من ابتداء ظهور الالية آنذاك ، فانها لم تصل الى نتائج عملية الا في القرن العشرين . ومع هذا فقد كان المغلاق المتحرك والبارود عديم الدخان عاملين هامين من عوامل التطور ، لانهما سمحا باجراء الرمي السريع والقتال في وضعية الانبطاح مع الاختفاء التام (١٨٥٠) .

وهناك امر يسترعي الانتباه هو ان ايقاع الصراع لم يمنع هذه المرحلة من ان تكون مرحلة التطورات التي ادت الى نتائج خاطئة . علماً بان هذا الخطأ كان يصيب المشاة احياناً ويصيب الخيالة دائماً .

ويتعلق هذا الامر عند المشاة بظهور القطعات الخفيفة وتشكيلات القتال المتراصة .. نحن نعرف ان نابليون انكر امكانية تقسيم المشاة حسب مهماتها ، ولكن حملات افريقيا الشمالية اعطت القطعات الخفيفة اهمية خاصة جديدة . وظهر ذلك في بداية الامر عند محاولة ملاءمة الاعتدة مع الطقس ، ثم تمثل بعد ذلك بتزويد الرماة القناصة ببنادق دقيقة الرمي . ثم استفادت كل قطعات المشاة بسرعة من مميزات الاعتدة ، والغى تعميم استخدام البندقية ذات الابرة (١٨٦٨) كل ما يتعلق بتباين التسليح . ولم يعد هناك سوى نوع واحد من المشاة . ومال استخدام هذا السلاح تحت ضغط عنف النيران المعادية وقوتها الى اخذ تشكيلات على شكل خلية دون ان يكون هناك اية تشكيلات جامدة . وبدأ التطور يأخذ تشكيلات مؤلفة من خطوط متقطعة يغطيها الرماة ، وانتهى بسلسلة من الرماة ينتقلون بالوثبات . وهنا كان لا بد من ظهور صعوبة تتمثل في تحقيق التلاؤم بين امكانية القيادة ومتطلبات التنسيق بالعمق . فظهر من جراء ذلك اناس يمتدحون الهجوم بارتال ضخمة كثيفة وينادون به . ولكن تباعد التشكيلات استمر مع ذلك رغماً عنهم .

وكان نابليون قد اكد في سلاح الخيالة على اهمية مهمتي الحيطة واستثمار النصر. ومن هنا كان ٦١ ٪ من الخيالة عبارة عن مشاة راكبة (دراغون) و ٢١ ٪ منها خيالة ثقيلة و ١٦ ٪ من التعداد العام خيالة خفيفة . ثم فقدت قطعات المشاة الراكبة بسرعة قدرتها العملية على القتال راجلة ، واعطت الخيالة الاوروبية للسلاح الابيض اهمية خاصة منذ عام ١٨١٥ . وظهر الفرسان حملة البنادق في امريكا وجنوب افريقيا (البوير) . وكان هؤلاء الفرسان يتقنون القتال بالنار وهم راجلين او على ظهور الجياد . (الحرب الاهلية الامريكية ، حرب الترانسفال) . ومما يدعو الى الدهشة ان الخيالة الفرنسية كانت تناقش حتى ذلك الحين مدى اهمية وضرورة استخدام الرمح الطويل(١) .

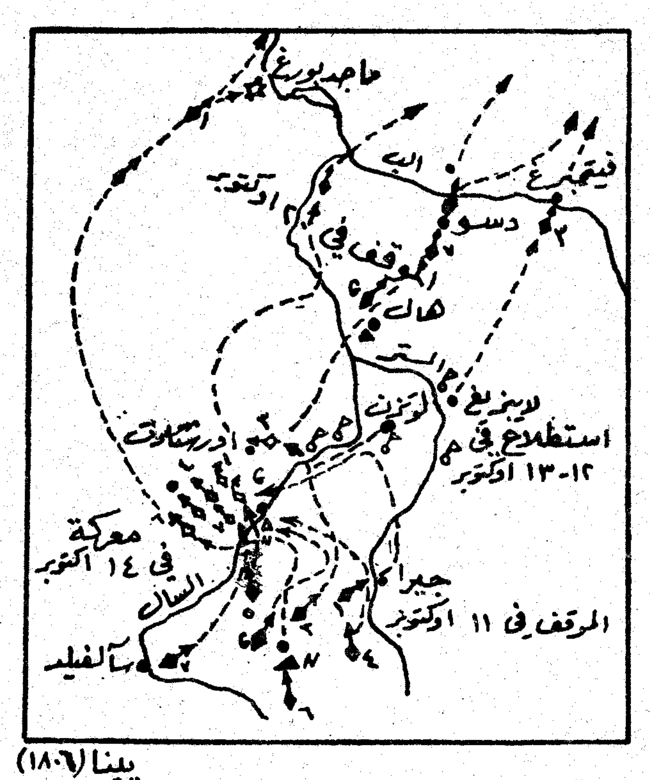
وفي نهاية هذه المرحلة فقدت الخيالة قدرتها على الانقضاض الا في حالات المفاجأة ، وغدت عاجزة عن استطلاع مواقع كبد قوات الخصم او استثمار النصر عند اللزوم نظراً لضعف قوتها النارية . ولكنها حافظت مع ذلك على اهميتها كاحتياط متحرك وكقوة للغزوات وعمليات الاغارات عندما تكون مسارح العمليات فسيحة لدرجة تجعل اشباعها بالقوات متعذراً (الحرب الاهلية الامريكية ، والحرب في منشوريا) .

وتفوقت المدفعية على الخيالة واخذت مكانها كمطرقة للمعركة . ولقد كان هذا التحول محسوساً منذ نهاية الامبراطورية الاولى ، ولكنه اخذ شكله الواسع في عام ١٨٧٥. ففي عام ١٨١٣ كانت المدفعية وسيلة نابليون الاساسية للتعويض عن ضعف مشاته الكيفي والكمي . ولقد تأثر تكتيكه بهذا الامر في فاغرام (١٨٠٩) وبعد عام ١٨٧٥ اصبح استخدام المدفعية النتيجة الطبيعية للتطور التقني العام . وكانت عمليات التمهيد المدفعي تنتهي بهجمات غير مدعومة ، ثم أُلغيت هذه الطريقة وحلت محلها الهجمات المسبوقة بتمهيد مدفعي يسبق الانطلاق ويستمر طوال مراحل المعركة حتى الانقضاض على الخنادق المعادية . واخذ رمي معاكس البطاريات منذ الحرب الاهلية الامريكية اهمية لم تكن معروفة من قبل ، علماً بان فائدة هذه المهمة الجديدة بالنسبة للمهمات الاخرى بقيت خاضعة للمناقشة .

ويتعلق التقدم الاساسي للقرن التاسع عشر **بانشاء القطعات الكبرى من مختلف صنوف**

---

(١) أقر استخدام الرمح الطويل في فرنسا في عام ١٨١١ ، ثم ألغي في عام ١٨١٥ ليعود الى الاستخدام في عام ١٨٩٢ ، وفي عام ١٩١٤ اصبح السلاح الخاص بالمشاة الراكبة الفرنسية !! ويدل ذلك على ان الفرنسيين تناسوا تماماً المهات الرئيسية للمشاة الراكبة (دراغون).



يينا (١٨٠٦)

الأسلحة والتي تزيد قوتها عن قوة الفرقة (الفيلق في عام ١٨٠٥ والجيش في عام ١٨١٢) بالاضافة الى خلق قوات الاحتياط العام (خيالة في عام ١٨٠٠ ومدفعية في عام ١٨٠٥).

وكان الفيلق معداً للصمود امام جيش معـاد خلال يوم كامل. وهذا ما سمح باجراء **تعديل جذري على مبادىء الحيطة**. ويضم الفيلق ٢ – ٣ فرقة مشاة، وفرقة خيالة واحدة، وفوج مدفعية، وسرية او سريتين لهندسة القتال والجسور، ورتل تموين، ورتـلاً طبياً. والحقيقة ان تعداد الفيالق النابليونية كان يتراوح بين ٢٠,٠٠٠ و ٩٧,٠٠٠ رجل..

وتمت اعادة التنظيم على حساب فرق المشاة التي فقدت خيالتها عند انشاء فرق الخيالة (١٧٩٦)، ثم فقدت جزءاً من مدفعيتها عندما شكلت الفيالق وقطعات الاحتياط العام. وكان تعداد فرقة المشاة النابليونية يتراوح بين ٣,٠٠٠ و ٢٠,٠٠٠ رجل. اما تعدادها الوسطي الدائم فكان ٦,٠٠٠ – ٨,٠٠٠ رجل. وهذا ما يدل على تنوع التشكيلات واختلافها.

وبعد عام ١٨٧٥ تلقت فرق الخيالة مدفعية محمولة على الرواحل، ولكنها فقدت في هذه الفترة مشاتها الراكبة التي انقلبت الى خيالة خفيفة.

وكان من نتيجة التطور ان حصلت القطعات على جميع نتائج وفوائد التشكيلات المفتوحة، واستفادت من مميزاتها في تطبيق عملي جديد للحيطة. وسمحت قوة تشكيلة الفيلق بتحاشي انشاء الستارات او المفارز المبعثرة من الخيالة. تلك الستارات والمفارز

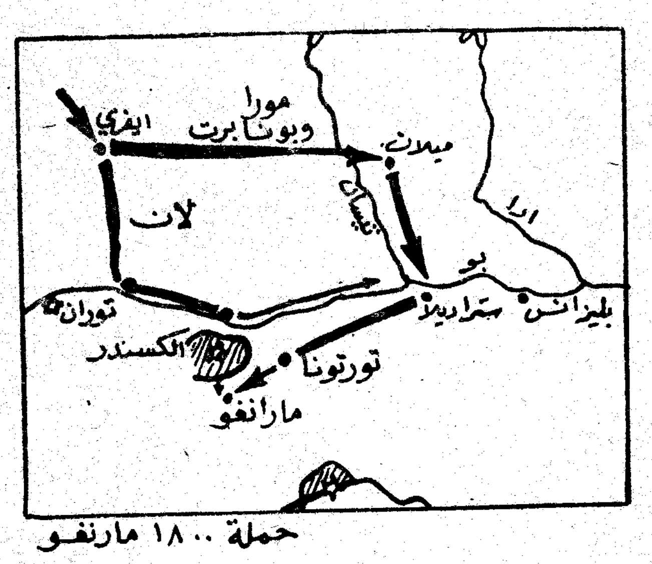
التي كانت ترافق المناورات المبنية على الفرق . وكان النظام المتمفصل للفيالق محروماً في حالات عديدة من المقدمة او المجنبة العامة . اذ كانت القطعات الامامية والجانبية تراقب الاتجاهات الخطرة ، على حين تبقى خيالة الاحتياط العام متكتلة لاجراء الصدمة . وفي عام ١٨٠٥ شوهدت الخيالة مجمعة داخل قوة ضاربة في متناول كبد قوات المشاة . وفي عام ١٨٠٦ بقيت الخيالة بلا عمل حتى دفعت الى الاستطلاع باتجاه لايبزيغ . وكانت الفيالق نفسها تتحرك مجتمعة ولا توزع خيالتها الا بفرج محدودة ، وتكتفي بان تدفع امامها بعض الدوريات فقط . ففي عام ١٨٠٦ لم يستخدم فيلق لان خيالته ككتلة ضاربة الا مرتين اولهما عند الخروج من تورينجيروالد في يوم ١٠ اكتوبر (تشرين اول) (معركة سالفيلد) . والثانية في يوم ١٢ اكتوبر عندما اكتشفت العدو قرب يينا . وبالاضافة الى ذلك فاننا نجد الفيالق تضطر عند انعدام الخيالة بين صفوفها الى الوقوع ثانية في اخطاء عصر الجيوش التي لا تقبل التجزئة . وتتمثل هذه العودة بترك ارتال الطرق والتقدم عبر مختلف الاراضي بفرق متراصة معرضة للنار ، ومستعدة للرمي وتشكيل المربعات . واحست الفيالق المنعزلة وحدها (مارمون ومورتييه في عام ١٨١٤) بحاجة ماسة لمقدمة دائمة على مستوى وسائلها .

والحقيقة ان « تمفصل » الفيالق بشكل جيد يؤمن حيطتها ، كما ان تحركاتها بشكل مرن بعيد عن الاساليب والتشكيلات الجامدة المهجية تخفي حقيقة نواياها ، وتؤمن انتشارها حسب متطلبات الفرضيات والاوضاع المتوقعة ، وانقلابها الى تشكيلة القتال عندما يبدو امامها اتجاه هام وحيد كما كانت الحالة في عامي ١٨٠٥ و ١٨١٢ . ولقد كان الانتشار الاستراتيجي يحاول غالباً احتلال مجمل مسرح العمليات، مع اخذ امتداد اقصى يلائم المناورات ولا يتجاوز ١٥٠ — ٢٠٠ كم . (١٨٠٥ — ١٨٠٦—١٨١٤) . ولقد وصل هذا الامتداد الاقصى في عام ١٨١٢ الى ضعف الامتداد الاقصى المعهود ، دون ان يؤدي ذلك الى اضعاف التشكيلة نظراً لوجود ثلاثة جيوش . بيد ان القيام بالعمل نفسه مع جيش واحد في عام ١٨١٣ كان يمثل ولا شك افراطاً في الانتشار والتبعثر ... وكان مجمل القوات يتجمع قبل المعركة بعدة ايام في منطقة لا تزيد ابعادها عن ٣٠ — ٦٠ كم ، ثم تتناقص هذه الابعاد في ليلة المعركة لتغدو ١٠ — ٣٠ كم . وكانت السرعة العامة تنجم عن توافق الحركات اكثر من ان تنتج عن طول المراحل التي لم تكن لتتجاوز مسافة ٢٠ كم الا نادراً . علماً بان الفرق كانت في عام ١٧٩٦ مضطرة للقيام بمسيرات طويلة مجهدة [في يناير (كانون ثاني) ١٧٩٧ قام ماسينا بثلاثة اشتباكات ، وسار

١١٠ كم في ٤ ايام .]

ولقد كانت هناك حالات انتشرت فيها ستارة او مقدمة عامة لتغطية تشكيلات الفيالق ، ولكن هذا الانتشار لم يكن يهدف الى تطهير الارض امام القوات او كسب الوقت اللازم لعمل الكبد نظراً لان مثل هذه الامور كانت قليلة الاهمية . بيد ان وجود بعض الامثلة المعاكسة النادرة يعتبر دليلاً على وجود دافع كبير لذلك يتمثل في خطر كبير او قلق جسيم كما قد يدل على ضعف الدافع المعنوي داخل القطعات .

ففي عام ١٨٠٥ جمع نابليون المتمركز في برون فيلقي برنادوت ودافو المتمركزين في ايغلو وفيينا وراء ستارة من الخيالة طولها ٢٠٠ كم . وفي عام ١٨١٢ كان مورا مدعوماً من قبل دافو ، ثم من قبل لابو من بعده ويعمل كمقدمة حقيقية على نهري فيلنا ودريسا . وفي عام ١٨١٥ وضع نابليون على الحدود البلجيكية في بادىء الامر ستارة ازعاج ، ثم اضطر لان ينشر امام ارتال الجيش الثلاثة ١٢ فوجاً من الخيالة للقيام بمهمة الاستطلاع . ولم تعلم الاركان البروسية بحركته الا في ليلة ١٤ — ١٥ ، في حين كان كبد القوات الفرنسية قد وصل الى شارلروا .



حملة ١٨٠٠ مارنغو

ويمكن اعتبار المقدمات الامبراطورية كلها مقدمات مرتجلة أنشئت تحت ضغط الظروف . ولم يكن هدفها يتجاوز حدود حيطة الجيش. وكانت تعمل لازعاج العدو على محور تقدم كبد القوات ، او لتستولي على نقطة عبور اجبارية . وهكذا سار لا ن في عام ١٨٠٠ نحو العدو على محور ايفرى — تورين ، في حين كان مورا يسبق الكبد مندفعاً على محور ايفرى — ميلانو ، بغية احتلال نقاط العبور على نهر تيسان (انظر الشكل المرفق) كما ان المقدمات كانت تعمل في حالات عديدة لاستجلاء الموقف واستبعاد اكبر عدد من الفرضيات المحتملة . ففي عام ١٨٠٦ وقبيل معركة يينا دفع نابليون نحو لايبزيغ خيالة مورا المدعومة بقوات دافو وبرنادوت ليعرف حقيقة ما

اذا كان البروسيون ينتظرون المعركة قرب فيمار أو انهم ينسحبون نحو برلين على محور نومبورغ – لايبزيغ او عبر ماغدبورغ . وجاءت معلومات الاستطلاع الخاطئة لتؤدي الى خطأ في تقدير الموقف[1] .

ولقد استخدمت العقيدة النابليونية امكاناتها في هذا الصدد تحت اشكال اربعة هي :

(١) الاقتصاد بوحدة العمل .

(٢) المناورة الكبيرة على المؤخرات .

(٣) المناورة الالتفافية المنتهية بمعركة على الجناح .

(٤) المناورة على الخطوط الداخلية ، وتتويج هذه المناورة بمعركة على موقع مركزي .

ويتعلق الاقتصاد بوحدة العمل في النظام الامبراطوري بالخطوط الادارية وهو يفترض ان على الجيش والمسرح الوحيدين ان يملكا قاعدة عمليات وخطوط ادارية وحيدة ومحروسة باقل حراسة ممكنة بغية توفير اكبر عدد ممكن من القطعات للمعركة .

وهكذا فان مهمة الانتشار هي تغطية خط العمليات مباشرة وخط المواصلات بصورة غير مباشرة ، بالاضافة الى فتح قاعدة عمليات في نقطة لقاء هذين الخطين ، على ان ينعدم التموين بالاغذية في هذه القاعدة ، ولا مانع من وجود كمية قليلة من التموين بالعتاد لدرجة لا تستحق وضع حراسة قوية . وعندما كانت قوات نابليون تتمتع بتفوق معنوي كان الامبراطور يندفع بدون تردد نحو خطوط العدو حتى ولو ادى ذلك الى تعريض خطوطه للخطر . ففي عام ١٨٠٥ قبل اوسترليتز ، وفي عام ١٨٠٦ قبل اولم ، كان خط فيينا – كريمس وخط بامبيرغ – مايانس مكشوفين ومعرضين لاخطار كبيرة .

ولكن هذه الجرأة تختفي في الايام العصيبة . فمنذ عام ١٨٠٦ ضاعف نابليون خط بامبيرغ – ماياناس بخط بامبيرغ – اوغسبورغ – ستراسبورغ . وفي عامي ١٨١٢ – ١٨١٣ انهار مبدأ الاقتصاد بالوحدة ، واصبح من الضروري فتح سلسلة من القواعد

---

(١) اعتقد نابليون ان الجيش البروسي سينسحب عبر ماغدبورغ متغطياً بنهر السال ، في حين اختار البروسيون طريق نومبرغ – لايبزيغ لانسحابهم ولكن اختيارهم جاء متأخراً . ولم تستطع قواتهم التملص في الوقت المناسب . فعندما قام دافو « بالضربة الجانبية » المعدة في الأصل لضرب القوات المحتملة على طريق ماغدبورغ اصابت ضربته عن غير قصد هدفا ثمينا هو كبد القوات السائر نحو نومبرغ ، وهزمته في اورشتادت .

لتغطية المسير نحو موسكو ، بالاضافة الى انشاء مخازن ضخمة في درسد ، وتغطية الخطوط الادارية على نهر الب بثلاثة فيالق منسقة ومنتشرة من هامبورغ حتى ويتمبرغ . والتخلي عن المواقع المركزية الاقتصادية نظراً لنقص الخيالة . وهكذا اخلى الامبراطور موقع لوكاو ليأخذ موقع غورليتز بعد ان اعترف بانه عاجز عن السيطرة على خطوط مواصلاته بين برلين ودرسد وتورغو بسبب نقص الخيالة ؟

ثم تم التطور المعاكس عند الخصم ، وكان النمساويون يعيشون على مخازن متحركة على حين كان البروسيون يعيشون على مخازن ثابتة . وكان الاسلوب الاول يعيق المسير لدرجة جعلت ٣ فرق فرنسية قادرة على ايقافه على نحو ٦٠ كم ولمدة خمسة ايام . اما الاسلوب الثاني فقد حدد مدى العمل وادى قبل معركة يينا الى « مناقشات » بروسية لا تنتهي . وفي عامي ١٨١٣ و ١٨١٥ لم يأبه الحلفاء بالتدخل على خطوط مواصلاتهم (دوبن — سان ديزيير) ولم ينجم عن ذلك اي ضرر نظراً لأنهم كانوا اقوى من خصومهم بكثير . ويقول كلاوزفيتز ان الامبراطور اضطر منذ عام ١٨١٢ الى حماية خطوط مواصلاته بشكل يشبه حماية خطوط العمليات خوفاً من التعرض للنكسات . والحقيقة ان الطرف الاقوى قادر دائماً على سحق محاولات خصمه المغامر الذي يتعرض الى مؤخراته . ويتم هذا السحق بسهولة تشابه السهولة التي يستطيع معها الاستيلاء على مستودعات العدو وهو مندفع الى امام . واخيراً ادى تزايد العدد و « تمفصل » الجيوش الى الدفع في خط زيادة القواعد وخطوط العمليات ، علماً بان **تطبيق مبدأ اقتصاد الوحدة الادارية كان يقترب آنذاك من نهايته .**

ب) ويرتبط ضعف اهمية الاسلوب السابق مع المردود المتناقص للمناورة الكبيرة على المؤخرات .

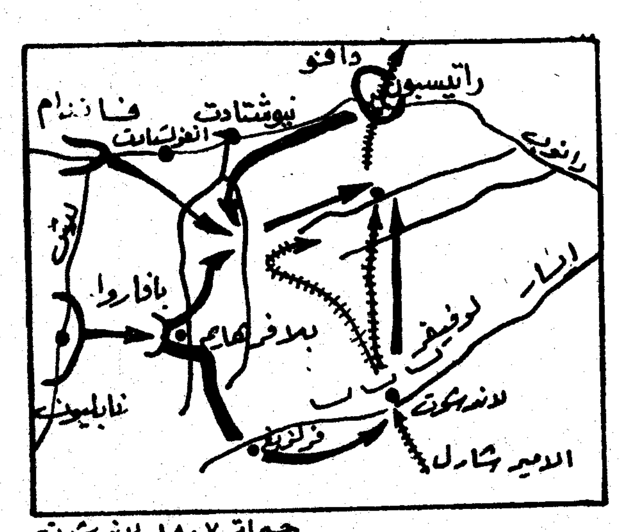
فعندما كان نابليون يضرب بكل جيشه مؤخرات العدو ، كان عمله يتمثل باحتلال عقدة حيوية او حاجز طبيعي ، وكان من نتيجة ذلك ان يتم حسم المعركة او انهيار الخصم بشكل سريع . ومع هذا فان نابليون لم يكن واثقاً من تصرفه الا في مارنغو . ولم ينجح بشكل كامل مؤكد الا في اولم ويينا . وتتضمن طريقته ثلاثة اساليب :

(١) الضرب مع الالتفاف حول الجناح (اولم)

(٢) المسير الالتفافي البعيد (سمولنسك — لاندشوت) .

(٣) الضغط على جناح (يينا)

ويفترض نجاح الاسلوب الاول ان يكون العدو غير فعال (اولم) . اما نجاح الاسلوب الثاني فيفترض وجود العدو مثبتاً على محور واحد (سمولنسك) . ويحتفظ الاسلوب الثالث بحد اقصى من حرية العمل بعيداً عن الاشتباك ، ويعمل بشكل مؤكد حسب موقف العدو الفعلي (يينا) . وتتوافق هذه المناورات غالباً مع خلق منطقة امن لمصلحة المواصلات (المنطقة الشرقية لنهر ليش في عام ١٨٠٥ قبل اولم . والمنطقة الشمالية لخط نييمن – فيلنا في عام ١٨١٢ عندما قرر نابليون الاتجاه نحو غرودنو) .

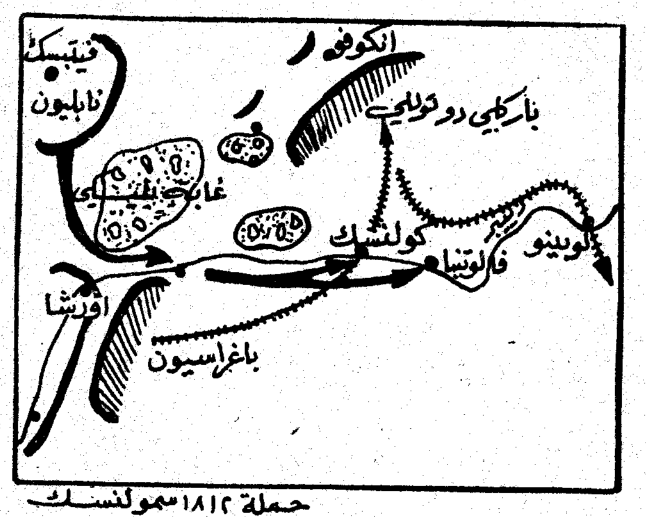


حملة ١٨٠٧ لاندسهوت

ومن عام ١٨٠٩ حتى عام ١٨١٤ كانت الهزائم متتالية كثيرة . ففي عام ١٨٠٩ كان الارشيدوق شارل محصوراً في ايكموهل ، ولكنه استطـاع الانسحاب الى شمال الدانوب عبر راتيسبون . وفي عام١٨١٢ بينما كان باركلي وباغراسيون يهاجمان معـاً باتجاه فيتبسك التف نابليون حول مسيرتهما متغطياً وراء غابـة بييسكي . بيد ان مقاومة سمولنسك غير المتوقعة ، وعـدم فهم جونو للاوامر ، وتردده في زيادة سعة الحركة سمح للروس بان يجتازوا نهـر الدنيبر في لوبينو . (انظر المخطط في الصفحة القادمة) وفي عام ١٨١٣ عندما قام نابليون بمناورة فورزن ، قام جيش الشمال وجيش سيليزيا باجتياز نهر الب واتجها نحو لايبزيغ . (انظر المخطط في الصفحة ٣٧٩) واحتل الفرنسيون الجانب الاخر من النهر وهزموا جيش سيليزيـا في دوبن . ولكن العدو تابع سيره نظراً لانه كـان قد قطع الجسور خلفه . وفي عام ١٨١٤ ، وبالرغم من وجود نقـاط مقاومة دائمة على مؤخرات بلوخر وشفارزنبرغ ، فقد عجز نابليون عن منع اتصالهما . ولم تستطع مناوراته الاخيرة نحو سان ديزيير ان توقف حركة الحلفاء نحو باريز حيث تم الاستيلاء على المستودعات . وهنا لا بد لنا من ان نلاحظ بان هذه المناورة قاربت على النجاح ، وكادت ان تحقق اهـدافها لولا قليل. كما ان الحلفـاء احسوا بالمميزات التي يمكن للامبراطور ان يحققها بعد ان نقل مركز عملياته نحو ميتز ، واصبح قادراً على جمع

كل حاميات حصون الشرق وضمها الى قطعاته ، ففكروا بالانسحاب نحو بال ، وبدأت حركتهم التراجعية بالفعـــل ، ثم جاءتهم معلومات مشجعة عن الحالة السياسية في باريز ، فجعلتهم يأخذون خط مواصلات جديد نحو البلاد الواطئة عبر ريمس ومونس . واجتمع جيشا سيليزيا وبوهيميا وسارا معاً نحو العاصمة الفرنسية .

وهكذا كـــان العامل السياسي البحت الموثر الاول الذي دفع الى اخذ القرار العسكري .



حملة ١٨١٢ سمولنسك

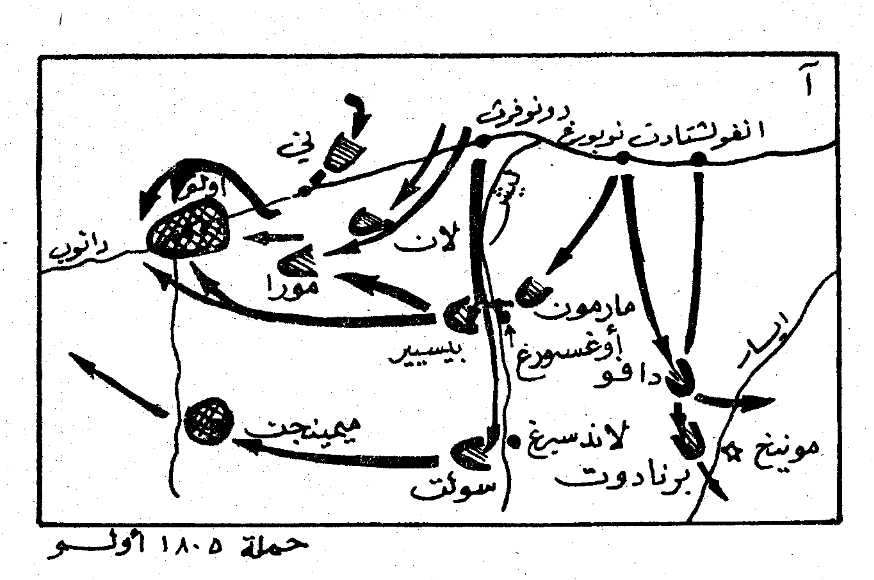
وهنـــاك امر يدعو الى الدهشة هو ان نابليون صرح قبل هذه الهزائم مراراً بان العدو « يعرف اسلوبه جيداً » لدرجة تمنعه من ان يغامر بلقائه . وكـــان الامبراطور « يأمل » قبل دوبن ان يسير الحلفاء نحو لايبزيغ . كما كان يشك بقدرة شفارزنبرغ على التقدم نحو فونتينبلو ما دام الجيش الفرنسي يسيطر على جسر نوجين . وكان مطمئناً غاية الاطمئنان عندما اندفع نحو سان ديزيير . ولقد كتب بهذا الصدد : « ان الجيش كله في آرسيس ، ويحتمل ان يسير نحو برين » علماً بان السباق اليائس نحو ايسون كان ينتظره .

والحقيقة ان معرفة العدو لاساليب نابليون جعلت هذا العدو اكثر قدرة وشجاعة على مواجهتها . وصار ينظر الى التفاف الفرنسيين كامر عادي ، ويفكر عند وقوعه بقطع خطوط مواصلاتهم ما دام يتمتع بالقوة والتفوق . ولقد برهنت الوقائع على انه اهل لذلك .

ج) وقلت اهمية المناورة المتلاقية ايضاً بعد ان استنفدت كل امكانياتها .

ومن المعروف ان هذه المناورة اقل جرأة وسعة من المناورة على المؤخرات ، لذا كان بوسعها ان تنجح في مرات اكثر . ولكي يتم ذلك كان لا بد لقطعة الجناح المعدة لضرب مجنبة العدو من استغلال تثبيت الجبهة وعجز العدو عن التملص او توقع هذه المحاولة ودرئها بسحق الجناح المنعزل المبتعد عن كبد القوات مسافة تعادل ٣٠ ــ ٥٠ كم . ولقد

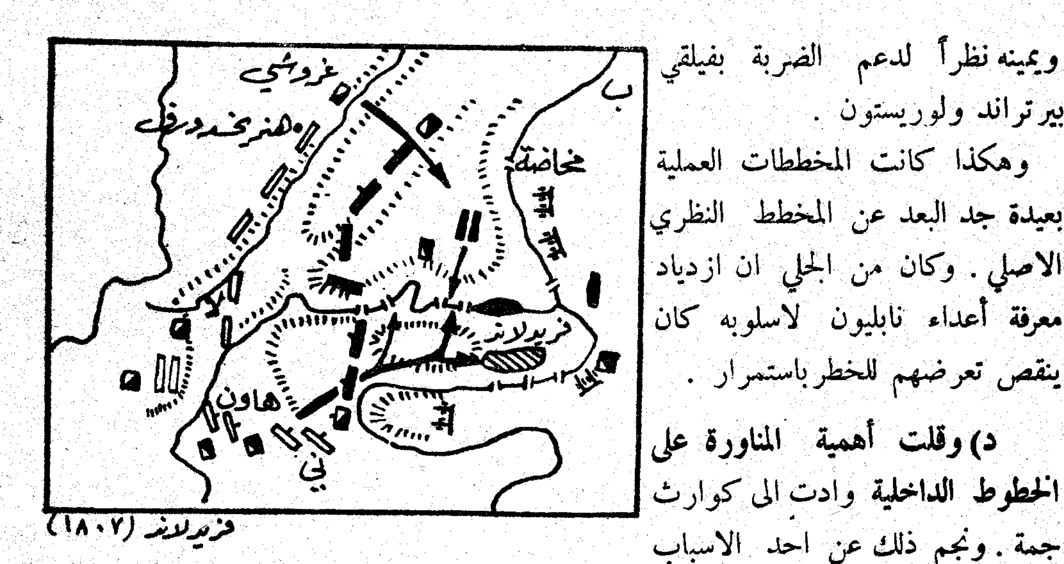
كان نابليون يحاول التخفيف من حدة هذا الانعزال وذلك باستخدام فيلق اتصال (كفيلق برنادوت الذي ساعد دافو في يينا . وفيلق دافو الذي أمن الاتصال مع لان في فريدلاند) .



حملة ١٨٠٥ أولـــو

ولقد نجحت العملية تمام النجاح في اولم عندما ضرب سولت ضربته الجانبية من ميمينجن على بعد ٣٠ كم جنوبي كبد القوات (انظر المخطط اعلاه) ولكن هناك مرتين او ثلاث مرات كانت فيها الضربة فاشلة او ذات نتائج غير مجدية . ففي اورشتادت دخل دافو دون ان يدري وسط كبد قوات العدو فتعرض لخطر الابادة ، ولم ينج الا بصعوبة بالغة . وفي يينا بقي فيلق الاتصال بقيادة برنادوت يتحرك دون جدوى الامر الذي دفع نابليون لان يسحب جزءاً من فيلق سولت ويدفعه للقيام بالالتفاف . وفي سان بولتن سقطت ضربة دافو في الفراغ . وادى تأخر ني في ايلو الى استنزاف مبكر لقوات الفرنسيين المثبتة للجبهة ، على حين تابــع دافو حركته الالتفافية . وفي لوتزن نجم الاستنزاف نفسه من بطء حركة الالتفاف التي قام بها الامير اوجين . وفي فريدلاند نجم الاستنزاف من قيام لان بالتفاف سابق لاوانه ، وقبل ان يتم تثبيت الجبهة . لهذا تم الخرق في هذه المعركة بعد هجوم مباشر من اليمين .

وفي بوتزن كانت ٤ فيالق تعمل لتأمين الاستنزاف الجبهي . ولكن انكشاف الحركة الجانبية التي بدأها ني عرضها لدمار مؤكد . ثم توسع الالتفاف بعد ذلك يسار ني



فريدلاند (١٨٠٧)

بوتزن (١٨١٣)

ويمينه نظراً لدعم الضربة بفيلقي بيرتراند ولوريستون .

وهكذا كانت المخططات العملية بعيدة جد البعد عن المخطط النظري الاصلي . وكان من الجلي ان ازدياد معرفة أعداء نابليون لاسلوبه كان ينقص تعرضهم للخطر باستمرار .

د) وقلت أهمية المناورة على الخطوط الداخلية وادت الى كوارث جمة . ونجم ذلك عن احد الاسباب التالية :

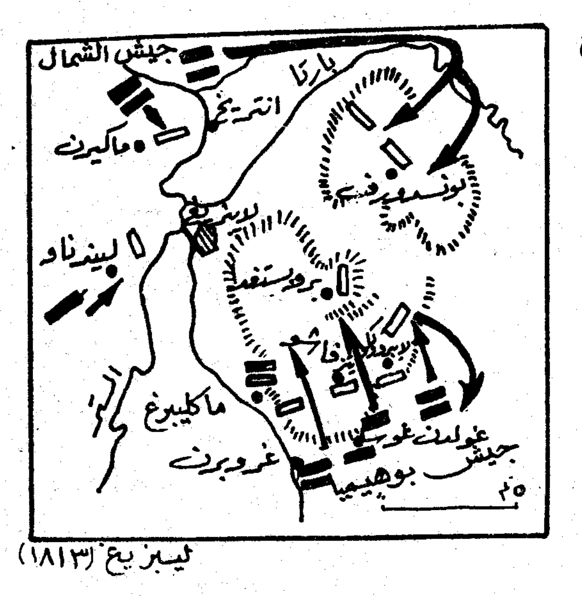
— اتساع مسرح العمليات بشكل مفرط ، وقيام العدو بعمليات تملص ناجحة مما أدى الى انهاك القوات الفرنسية (غورليتز) .

— صغر مسرح العمليات بشكل يسمح للقوات المعرقلة بان تقاتل وتناور تراجعياً ،او ان تتناوب الدعم بصورة متبادلة (فورزن١٨١٣ ولينيي١٨١٥).

— علم كفاية قوة الضربات المتناوبة نظراً لنقص القوات المتوفرة بالرغم من وجود مسرح عمليات ذي حجم معقول ، والقيام بمناورات سريعة (حملة فرنسا ١٨١٤) . وادى ذلك الى استنزاف القطعات او اشتباكها بمعارك غير متلائمة على موقع مركزي (لايبزيغ ١٨١٣ — واترلو ١٨١٥) .

وخلال مناورة غورليتز التي تمت على مسافة ٤٠٠ كم بين ثلاثة جيوش حليفة كان الخصم ينسحب امام كبد قوات نابليون ليعود الى الهجوم عند ابتعادها . وكان مساعدو

الامبراطور يصابون بالهزيمة بصورة متتابعة متناوبة قبل ان يتمكن جيشه من التدخل والرد (جوير — غروسبيرن — كولم — دينيفيتز) . لذا جمع نابليون تشكيلته على ١٠٠ كم حول فورتزان . وفشلت مناورة دون على مؤخرات البروسيين . وكان مارمون معرضاً للضغط في الشمال ، ومورا معرضاً لضغط مشابه في الجنوب فتراجعا قبل ان يتمكن الامبراطور من نجدتهما بصورة متناوبة في الوقت المناسب .وطُرد الجيش الفرنسي نحو لايبزيغ . وبدأ الفرنسيون المعركة بان اخذوا موقعاً هجومياً في الجنوب ودفاعياً في الشمال . وحقق الهجوم الجنوبي بعض النجاح ، ولكن تراجع القوات الشمالية ادى الى التطويق ، فبدأ التراجع نحو الغرب ثم انقلب هذا التراجع الى كارثة لان الفرنسيين قطعوا جسور لايبزيغ قبل الاوان ، وتركوا ٢٠,٠٠٠ رجل من رجالهم على الضفة الشرقية .



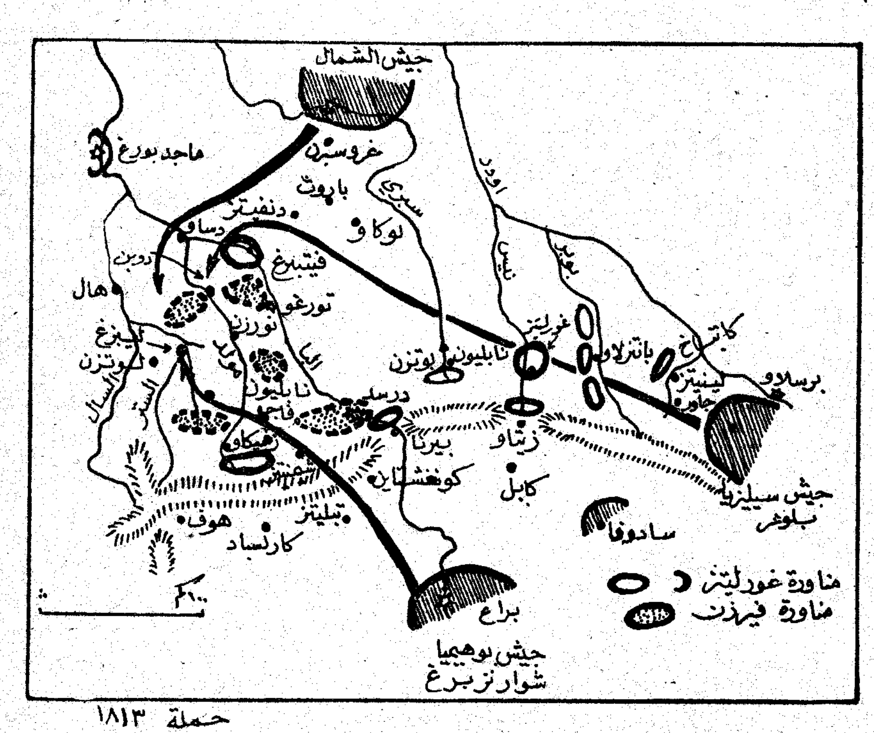
ليبزيغ (١٨١٣)

وفي عام ١٨١٤ كان مسرح حملة فرنسا يمتد على طول ٢٠٠ كم وهي مسافة كافية معقولة . ولكن تباين القوى كان واضحاً ، اذ كان ٨٠,٠٠٠ فرنسي يقابلون ٢٥٠,٠٠٠ رجل من الحلفاء . ولقد استخدم نابليون الى الحد الاقصى مقاطع الانهار التي تندر فيها الجسور ، وتقف فيها تحصينات فوبان القديمة لتحرس الجسور القليلة . وبالرغم من قدم هذه التحصينات وعدم تلاؤمها مع طبيعة معارك ذلك العصر فقد كانت كافية لان تعطي قطعات صغيرة القدرة على ايقاف العدو مدة تتراوح بين يوم وثلاثة ايام . وكان جيشا بوهيميا وسيليزيا يستهدفان باريز انطلاقاً من السين والمارن ، لذا وقف نابليون غالباً بين الايسن والسين (وكانت مراكز عملياته المتتالية هي شالون وآريس وسيزان ونوجين وبروفين) ، وكان مساعدو نابليون يوقفون احد الجيشين المعادين على مقطع جيد ، على حين يناور الامبراطور مع كبد قواته ضد الجيش المعادي الاخر . وبهذا الشكل فشل الحلفاء في هجمتين متتاليتين ، ولكن تم اخيراً التقاء جيشي بوهيميا

وسيليزيا بين فيترى وايبرناى . وسار الحلفاء نحو باريز دون ان يأبهوا بحركة نابليون باتجاه سان ديزيير ، وكنسوا امامهم القوات الفرنسية الضعيفة العاملة تحت قيادة مارمون ومورتييه .

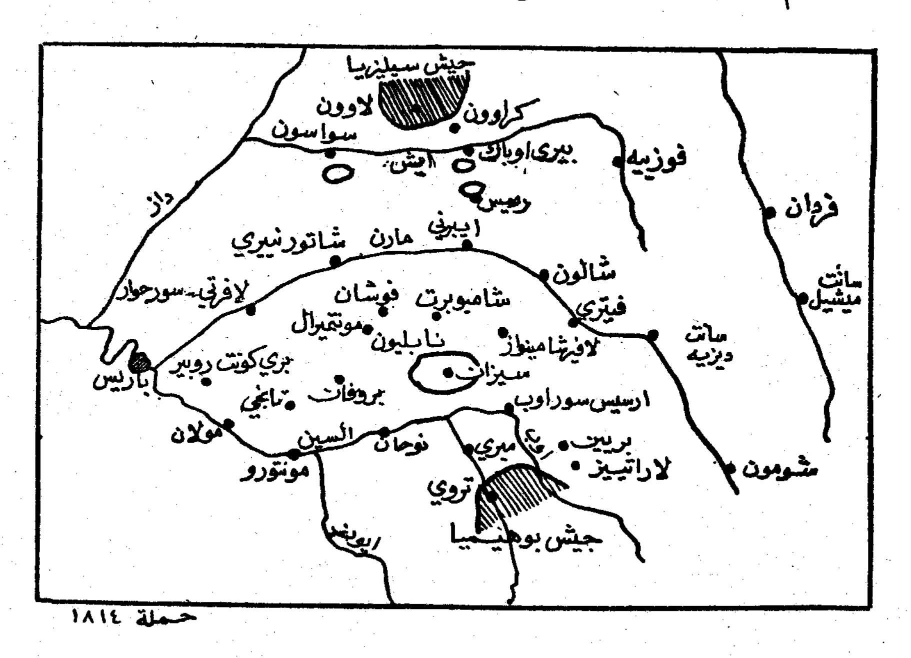
ولقد تمكن الفرنسيون من تحقيق نجاحات متتالية وغير حاسمة بيد ان المسيرات والمسيرات المعاكسة المتكررة اضعفت قواتهم وانهكتها . ففي المناورة على لاوون مثلاً كانت قطعات مارمون تنام في مكان وقوفها من شدة الاعياء . وبدأت القطعات الضعيفة اصلاً تذوب بسرعة نظراً لسوء حالة التموين التي كانت تجبر الجنود على التبعثر بحثاً عن الغذاء باية وسيلة .

ولقد تأثر كلاوزفيتز من الضعف والاستنزاف اللذين اصابا مناورات الامبراطور وحركاته الماهرة ، فاستنتج من ذلك ان مثل هذه المناورات والمهارات لا تؤدي الا إلى فقدان الوقت وتبديد فرص النجاح ، **وان التشكيلات « المتمفصلة » تعرض الاجزاء الى الضرب منفردة واحدة تلو الاخرى** . وأن على الجيوش (ان لم تتوفر بعض الظروف الخاصة) ان تناور متقاربة ما امكن، وان تسير مجتمعة قبل المعركة بوقت طويل، وان لا يتم مسيرها بقوى متقاربة « متمفصلة » . وهذا ما يلغي امكانية اجراء الالتفاف على



حملة ١٨١٣

الجناح . بيد ان الالتفاف الصغير يكفي لقلب توازن الخصم ودفعه خارج خط تراجعه . كما ان المناورة على المؤخرات والمناورة على الخطوط الداخلية تفقدان اهميتهما **اذا كانت الحالة النفسية للخصم مستعدة لدرئهما** . واذا لم يتمتع القائم بهما بتفوق معنوي كبير ، وكان الخصم قوياً مصمماً فقدت الاولى كل فاعليتها . وادت الثانية الى الوقوع في التطويق ، وخاصة اذا كان الاتصال بين اجزاء القوات المعادية سريعاً وفعالاً[1] . بالاضافة الى ان المسيرات والمسيرات المعاكسة تغدو منهكة بسبب طولها وتكرارها ، كما ان حسم الضربات يتناقض في كل لقاء .



حملة ١٨١٤

ولقد برع كلاوزفيتز في اظهار اهمية العوامل النفسية للمناورة في حرب مباشرة ، بالاضافة الى العوامل السياسية (العاصمة ، والمواقع الهامة) والعوامل المعنوية (قيمة العامل الشعبي في اسبانيا وروسيا وبروسيا) بيد انه لم يهتم اهتماماً كافياً بالحرب غير المباشرة والحرب الثورية . ويعتبر كلاوزفيتز الرجل الذي **يبحث** عن المعركة ، بكل حذر طبعاً ، وينادي باجراءها مع الحد الاقصى من **العنف** ، وهو يرى فيها الحجة الوحيدة الحاسمة في مختلف الاوضاع . ولكنه يمتدح مع ذلك الدفاع ومواقف الانتظار

---

(١) كان الزمن اللازم لنقل المعلومات من الفيلق الى الجيش في ايام الحروب الامبراطورية يكفي لانتقال العدو مسافة ٢٠ كم .

المثمرة التي تساعد الجيش حتى تحين « الفرصة » لان « الدفاع الذي يحافظ على الجيش اسهل من الهجوم الرامي الى احتلال الاهداف » . وتُظهر النتائج التي حققها الروس في عام ١٨١٢ ، ونتائج الانكليز في اسبانيا هذه الحقائق بكل وضوح – وبالرغم من كل هذا كان كلاوزفيتز ينكر انكاراً تاماً امكانية الوصول الى اية نتيجة دون تدمير العدو في المعركة ، ويطالب بان تكون المعركة فورية .

ونحن نعرف ان حملتي روسيا واسبانيا تتمتعان بعاملين مشتركين هما ندرة المعارك ، واستنزاف الفرنسيين عن طريق عمليات الازعاج والانهيار الاداري . ولم تعرف حملة روسيا حرباً ثورية حقيقية ، بل كان الازعاج المستمر من عمل القوزاق . ويرى الجنرال موراند الذي اشترك في حملة روسيا أن عملياتهم كانت السبب الاول في تدمير الجيش الكبير . وبالرغم من احتياطات نابليون ، كانت الفوضى الادارية وتصرفات المنفذين الخاطئة واضحة بكل جلاء . وهنا يمكننا ان نقول بان الجيش الكبير انتحر عندما رفض تغيير اسلوب حياته في الميدان ... اما في اسبانيا فقد كان للحرب الثورية التي شنها الشعب الاسباني باسره بالتعاون مع مناورات ويلنغتون النظامية اثر كبير يشبه ما اصاب الفرنسيين في روسيا . وبالرغم من التفوق العددي الفرنسي الكبير على ويلنغتون فقد كان هناك تناقض دائم بين ضرورات الحرب على السطح (توزيع القوات) وضرورات التجمع ضد الجيش الانكليزي . فعندما كان ويلنغتون يجذب الفرنسيين نحوه كان الثــوار يستعيدون السيطرة على البلاد والمواصلات ، وعندما كان الجيش الفرنسي ينتشر لضرب العصابات كان ويلنغتون يعود ليصبح سيد الموقف . وكان ويلنغتون يعطي الاهداف الادارية اهمية المعركة . وعندما دفع ماسينا الجيش الانكليزي في عام ١٨١٠ – ١٨١١ حتى خطوط تورس – فيدراس رد عليه ويلنغتون بحرمانه من موارده وتموينات بغية استنزافه . (انظر الفصل السابع عشر)

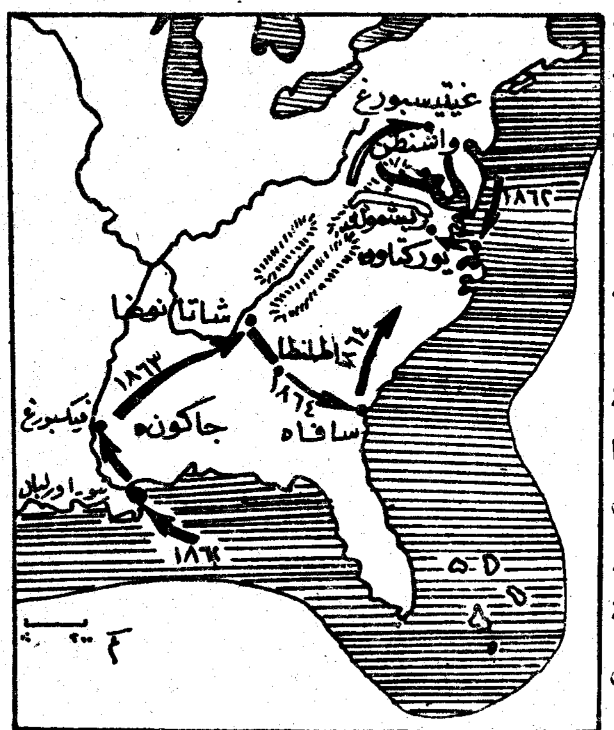
وكانت الحرب الاسبانية تتصف بخطر احتمال نزول القوات الانكليزية على الشاطئ الامر الذي كان يجبر الفرنسيين على الانتشار . كما اتصفت هذه الحروب باهمية عمليات الحصار (كاديكس ، الميدا ، باداجوز ، سيوداد رودريغو ، سراقس ، تورس – فيدراس) وتعود هذه الصفة الى متطلبات وضرورات الحرب السطحية . وكان «تربيع» الحيطة يتعلق بالقلاع مهما كانت سيئة ، اذ انها كانت الوسيلة الوحيدة لحماية خط المواصلات وتأمين حيطة المراحل للقوافل خلال الازمة الادارية العامة التي خلقتها العصابات في كل مكان .. ولم تلعب العاصمة في هذه الحروب دور الهدف السياسي الهام ،

وهذا ما يخالف آراء كلاوزفيتز ، فلقد وصل ويلنغتون الى مدريد في ١٨١٢ بفضل اغارة مفاجئة دون ان يؤثر ذلك على العمليات بشكل واضح . وهكذا نرى ان هذه العمليات تناقض المبدأ المشهور القائل « بان النتائج التكتيكية الكبيرة وحدها قادرة على تحقيق نتائج استراتيجية كبيرة .. وان الهدف الرئيسي هو التدمير المباشر للعدو »[1] .

ومنذ الحروب الامبراطورية حتى عام ١٩١٤ كانت الحرب تتم بثلاثة اشكال هي :

- حروب تقوم بها هيئات اركان قرأت كلاوزفيتز وتبنت آراءه .
- حروب تقوم بها هيئات اركان تجهل مبادىء كلاوزفيتز ولكنها تعرف الاساليب الامبراطورية جيداً .
- حروب تشنها هيئات اركان جاهلة بكل الامور .

ويمكن ان نضع الانكليز والنمساويين والفرنسيين والروس مع الزمرة الثالثة . ولقد اظهرت حرب القرم التي اشترك بها ٣ منهم ماذا تقدم الجيوش المحترفة المقودة من قبل هيئات اركان جاهلة من بطولات وغباء وعدم قابلية . وهذا ما يجعلنا قادرين على اعتبار حصار سيباستبول الشكل الممثل لهذه الحرب .



ويمكن اعتبار ثقافة هيئة الاركان الامريكية ثقافة نابليونية بحتة . ولقد اظهرت هذه الاركان خبرتها ومارست تجربتها خلال الحرب الاهلية الامريكية . وكان الجنوبيون مقيدين بقلتهم العددية وضعفهم الاقتصادي ، ولكنهم كانوا يتمتعون بمهارة تكتيكية جيدة . اما الشماليون فقد كانوا استراتيجيين مهرة .. بيد ان ارتباط الاستراتيجيين بقيود سياسية تفوق القيود السياسية التي تربط التكتيكيين جعل ظهور المناورة الحاسمة يتأخر

(١) كارل فون كلاوزفيتز - في الحرب .

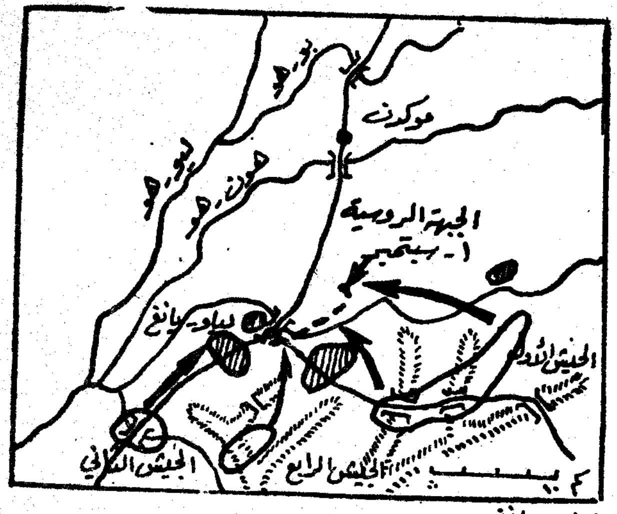
قليلاً ، كما جعل الصفة غير المباشرة للمناورات تبدو غير مجدية .

واخذت قوات الجنوب وضعاً دفاعياً ــ هجومياً فحققت كثيراً من النجاحات التكتيكية ولكنها خسرت الحرب . وكان بطل الجنوب ستون وول جاكسون الذي اظهر عبقرية تكتيكية تسترعي الانتباه في فن تدمير العدو وتشتيته ، وفي الاستفادة من مزايا المناورة على الخطوط الداخلية ، والمعركة على الاجنحة بالالتفاف . ولقد قال بانه «يخدع ويغش ، ويفاجيء » ملخصاً بذلك عقيدته المبنية على فن ومهارة يتركان العدو حائراً امام « طرفي معضلة دائمة » . ولكن البداهة الجنوبية لم تبتعد عملياً عن الخط الاستراتيجي المباشر الذي يصل بين العاصمتين : واشنطن وريتشموند . كما لم تخرج عن مسرح العمليات الفرجيني الضيق (من ١٠٠ الى ٣٠٠ كم) حيث كان ملايين الرجال يتجابهون بلا جدوى .

وكان في الشمال استراتيجيان مشهوران هما ماك كليلان وشيرمان . ولكن سوء حظ الاول جعله يعمل تحت امرة الرئيس لينكولن والجنرال هاليك ، الذي شاءت الظروف السياسية البحتة ان يكون رئيسه . ولقد عرف ماك كليلان كيف يستغل التفوق البحري الشمالي ليحقق التفافاً استراتيجياً على غرار الالتفاف النابليوني . ويعود فشل التفاف ١٨٦٢ ، الذي لم يكن حجمه الصغير يستهدف سوى ريتشموند ، الى عمليات المشاغلة التي فرضها لينكولن . اما التفاف ١٨٦٢ ــ ١٨٦٣ الذي نقل الصراع الى الميسيسبي ومن ثم الى التينيس فقد ادى الى سقوط فيكسبورغ وشاتانوغا ، وكان خطوة مجدية في اعداد العمل الحاسم التالي ..

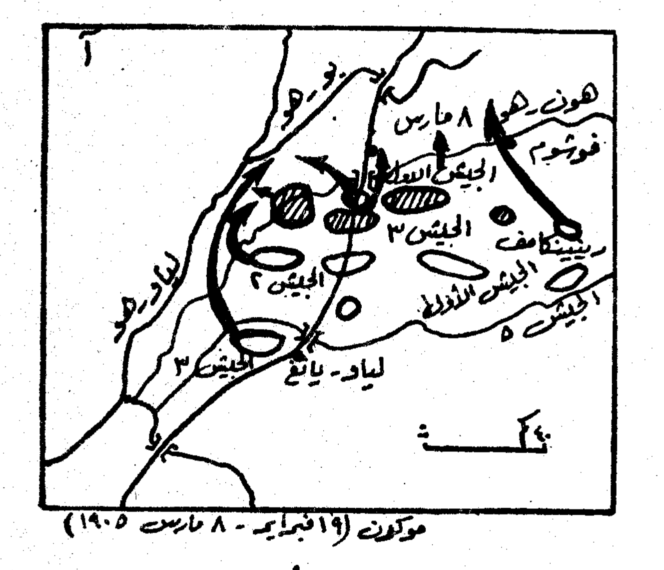
وفي عام ١٨٦٤ عُين غرانت في ادارة العمليات ، وبدأ معركة فرجينيا من جديد ، بيد ان عمله كان بلا جدوى وتكبد من جرائه خسائر فادحة . ولقد تم العمل الرئيسي تحت قيادة شيرمان الذي انطلق من شاتانوغا مستهدفاً المنابع الاقتصادية المعادية . وكان هدفه الاول اتلانتا ، وهي مركز رئيسي للصناعة والسكك الحديدية . ثم اتجه نحو جورجيا وهي « اهراء حبوب ضخم » ، واندفع نحو ميناء سافانا . وادى اتجاه شيرمان نحو فرجينيا الى حرمان الجيش الجنوبي من التموين وقطعه عن مؤخراته ، وهذا ما ساعد

غرانت على القيام بهجوم مباشر ادى الى استسلام لي[1] .



لياو - يانغ
(٢٠ اغسطس - ١ سبتمبر ١٩٠٤)

وكان البروسيون واليابانيون يؤمنون بعقيدة كلاوزفيتز . ولقد طبقوا عقيدتهم ضد هيئات اركان معادية جاهلة وغير فعالة . الامر الذي ادى الى اعطاء استنتاجات خاطئة عن معنى انتصاراتهم . وكان هذا صورة مشابهة لما حصل في الثورة الفرنسية ، حيث اصطدم القادة الفرنسيون المُحدثون المُشبعون بعقيدة ديناميكية دقيقة واضحة مع هيئات اركان اوروبية غارقة في الاساليب الروتينية .



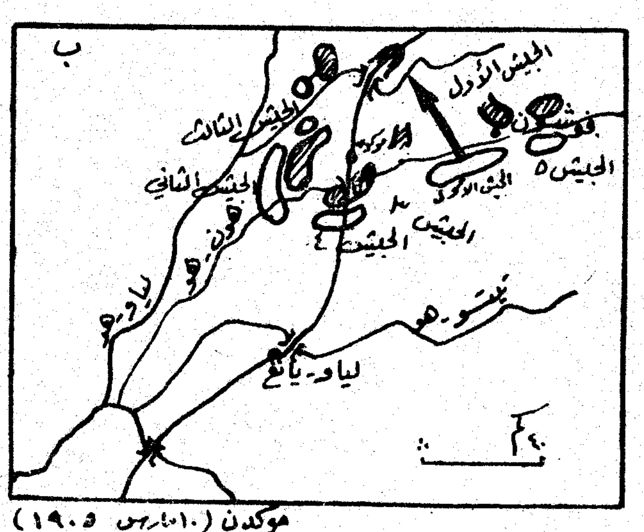
موكدن (١٩ فبراير - ٨ مارس ١٩٠٥)

فاذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى الشكل العام للوسائط المستوحاة من عقيدة كلاوزفيتز نشأ لدينا شبه اعتقاد باننا نحضر تجديد وسائط الجيوش التي سبقت المرحلة الفرقية . اذ اننا نرى اختفاء التشكيلة المفتوحة من كل الانساق خلال السير نحو المعركة . اما

(١) لقد تقدم شيرمان من شاتانوغا الى اتلانتا متجنباً التقدم المباشر بالسكك الحديدية . ودفع خصمه هود الى اجراء هجمات تكتيكية باهظة التكاليف . وعند التقدم من اتلانتا الى سافانا ، تجاهل شيرمان جيش هود الواقع على مؤخرته ، وقطع خط السكك الحديدية ، وعاش على التموين الذي تقدمه البلاد ، وقطع ٥٠٠ كم في ٢٥ يوماً ليعيد الاتصال مع اسطول الشماليين في المحيط الاطلسي .

«الارتال» المتوازية التي كانت تتقدم فيما مضى عبر مختلف الاراضي ، فقد غدت اليوم ارتال فيالق قادرة على استخدام الطرق ما دام بوسعها ان تجد امامها طريقاً جيداً كل ٦–٨ كم ، بدلاً من طريق كل ٢٠ كم ، كما كانت الحالة ايام الامبراطورية . وادت الرغبة الملحة باستخدام اعداد كبيرة الى الانتقال من ارتال الفيلق الى الخط الذي يغدو التجمع فيه خطيراً اذا ما ظهر العدو على الاجنحة .. ولم يعد الامر مقصوراً على تقدم الجيش بفيالق متراصة مع وضع اصغر عدد ممكن من الفيالق في النسق الثاني ، بل غدا من الطبيعي ان يسير عدد من الجيوش بصورة متلاصقة .

وكانت التشكيلات البروسية لا تميل الى احتلال مسرح العمليات ، وكان حجمها يعادل ربع حجم تشكيلات نابليونية مساوية لها عددياً . ففي عام ١٨٦٦ ابتعد الجيش الالماني الثاني عن التجمع العام متجهاً الى الجنوب الشرقي ، وكان ابتعاده هذا رغم ارادة مولتكه ، علماً بانه كان يستهدف تغطية سيليزيا لاعداد معركة متلاقية . وفي عام ١٩٠٥

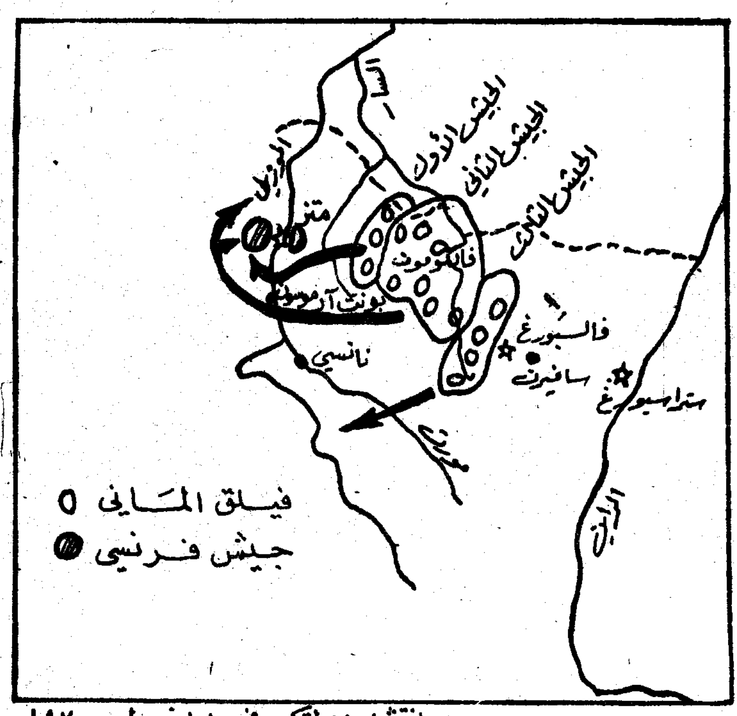


موكدن (١٠ مارس ١٩٠٥)

ابتعد الجيش الياباني الاول عن الجيش الثاني والرابع ليلتقي بهما على لياو — يانغ . (انظر المخطط في الصفحة ٣٨٤) ولم يتجاوز ابتعاده اكثر من مسافة ٢٠ كم . ومع هذا فقد اضطر للقتال منعزلاً ، لان هذه المسافة القصيرة كانت مشكلة من كتلة جبلية صماء . وكان بوسع الروس ان يضربوا المهجومين اليابانيين المنعزلين بمناورة على الخطوط الداخلية ، وان يضعوا الجيش الأول في مأزق حرج . ولكن حقل مناوراتهم التراجعية لم يكن يزيد عن خمسة وعشرين كيلومتراً ، الامر الذي جعل من المتعذر العمل على الخطوط الداخلية .

وكانت حيطة هذه الجيوش معدومة تقريباً كحيطة الجيوش التي لا تقبل التجزئة . وكانت تغطية خط الفيلق تتم بمقدمات ضعيفة تكتيكية محرومة من الوسائط النارية . في حين كانت الخيالة غير كافية ، وتقوم باستطلاعات متبعثرة لا تقدم اية معلومات هامة

ومركزة . وكانت الاغارة على المؤخرات مثل اغارة انكيو (١٩٠٣) تعطي نتائج متواضعة ، اذ أن ستارة ضعيفة من المشاة كانت قادرة على شلها وحرمانها من الحركة . ونجم عن ذلك أن مناورات الجيش اصبحت تجرى بشكل مسبق كامل . وعندما يتوضح الموقف تصبح التشكيلات الخطية مضطرة للقيام بعمليات منهكة لتبديل الاتجاه علماً بأن هذه العمليات كانت تعرضها لخطر كبير قبل ان تترتب الأوضاع من جديد ، ومنذ ٧



انتشار مولتكو في ١٠ اغسطس ١٨٧٠

حتى ١٦ أغسطس (آب) ١٨٧٠ مثلاً كان الجيش البروسي المندفع على خط نحو الجنوب الغربي بين ميتز وجبال الفوج يقدم جناحه الأيمن المكشوف لأية ضربة محتملة يقوم بها بازين المتمركز قرب ميتز . وعندما بدّل هذا الجيش اتجاهه للتوجه نحو معركة ريزونفيل خلق هذا التبديل رتلاً يسهل ضربه ولا يزج في المعركة الا نصف التعداد فقط . وعند المسير نحو باريز ، وبعد كشف حركة ماكماهون نحو مونتميدى وقع أمر مشابه ، اذ تلاصقت ثلاثة فيالق المانية سائرة بأرتال كثيفة وضايقت بعضها بعضاً ، كما ان اربعة فيالق اخرى لم تستطع الاجتماع الا على ارتفاع ستون .

وكان الدخول الى حقل المعركة يتم بفيالق متجاورة متلاصقة . فلقد اجتمع في سان

بريفات ٧ فيالق ، كما اجتمع ٨ فيالق ونصف في سيدان على جبهة عرضها ١٧ كم . ولم يتم التطويق إلا لأن الجيش الفرنسي وقف بلا حراك داخل مثلث يبلغ طول ضلعه ٤ كم فقط (ا). وكان أي التفاف قصير يقوم به فيلق من الفيالق الواقفة على الاطراف يؤدي إلى قلب توازن العدو النفسي. وهذا هو في الحقيقة ما وقع مع الفرنسيين في عام ١٨٧٠ . أما في منشوريا فاننا نلاحظ على العكس لعبة مدهشة تتمثل بعمليات التفاف متبادلة ومتناوبة يقوم فيها احد الخصمين بالالتفاف ليتعرض بعد ذلك الى التفاف معاد دون التوصل الى حسم سريع . وكان كل طرف من الاطراف يُبدي عناداً في استخدام قواته الاحتياطية ــ القليلة بسبب التشكيل الخطي ــ حتى ولو ادى ذلك الى استنزافها . وعندها يحاول العودة بلا تخطيط الى استخدام الأساليب النابليونية في المعارك . ففي موكدن أنهى جيش نوغي التفافه القصير ، ثم لاحظ بأن عمله قليل الفاعلية ، فحاول قلب هذا الالتفاف الى حركة تطويق ، وامتد نحو الشمال بمسير جانبي ، ومدد حركته بدفع فيلق منعزل الى مسافة أبعد . ولما اراد الروس صد حركته احسوا بنقص قواتهم الاحتياطية ، فاضطروا الى سحب بعض القوات من قلب تشكيلتهم ، فأصبح القلب بذلك ضعيفاً يسهل خرقه .

ومع هذا لم يحصل الاندفاع الياباني على نتيجة ساحقة . ويستغرب الجميع لماذا لم يتعرض خط المواصلات الروسي الحيوي الحساس والسائر عبر سيبيريا لأي ازعاج[1].. وهكذا وقف الجميع امام صعوبات القيام بهجوم جبهي يجعل التكتيك مباشراً كثير التكاليف وقليل الفاعلية . ولقد عُرف هذا النوع من الهجوم من قبل خلال معارك فرجينيا الدامية والتي كانت تدوم اسبوعاً كاملاً . ولكن معارك منشوريا كانت تدوم من ١٠ الى ٢٠ يوماً . وعندما أوقف الاتراك هجمات الحلفاء البلقانيين الذين اكتسحوا خطوط تشاتالدجا كانت المعارك المعتمدة على بعض التحصينات الميدانية تدوم عدة أشهر .

وهكذا انتهت مرحلة النظام المتمفصل . وتم هذا الأمر دون أن يكون الدافع اليه اشباع حقل العمليات بشكل يجعل القطعات مضطرة للعمل بصورة متراصة . ومنذ ذلك الحين اخذت الحروب تميل الى زيادة خطورة العمل بتشكيلات متراصة وجبهات مكتظة نظراً لاشباع حقل العمليات بالقوات .

---

(١) عندما تحدث ليدل هارت عن الاستراتيجية غير المباشرة أبدى استغرابه من لجوء القادة اليابانيين الى استخدام الضربات المباشرة ضد الجيش الروسي بدلا من الافادة بشكل مغال من « اعتماد اعدائهم الروس على خط حديدي واحد يسير عبر سيبيريا » خاصة وأن الجيش الروسي كان « يتنفس بقصبة طويلة ضيقة بشكل لم يعرفه التاريخ العسكري من قبل . وزادت ابعاد روسيا الشاسعة من صعوبة هذا التنفس » .

(المعربان)

الفصل التاسع والعشرون

من الرايخ الثاني الى الرايخ الثالث

(١٩٠٠ ــ ١٩٥٠)

الجيوش التقنية :

لقد شهد النصف الأول من القرن العشرين حربين عالميتين أخذتا صفتهما العالمية من اشتراك امم عديدة فيهما ، بالاضافة الى تعدد واتساع مسارح عملياتهما . فمنذ اللحظة الأولى امتدت هذه المسارح لتشغل بحر الشمال بحرب القوافل ، ولتضيف الى مسارح القارة الأوروبية معظم مناطق الشرق الادنى ، ومسارح شمالي افريقيا والشرق الاقصى والمحيط الهادي من بعد . وأعطى حجم الحرب نفسها اهمية حاسمة لسيطرة الاساطيل على البحار وللقواعد الهامة المسيطرة على خطوط المواصلات ، ثم اضيفت الى ذلك بعد فترة وجيزة ضرورات تحقيق السيطرة الجوية . وتأكدت كل هذه المتطلبات بنتائجها الاستراتيجية والادارية بأن اصبح العالم كله صغيراً امام سعة الصراع ، واصبح بوسع الانسان استخدام كافة منابع القدرة اللازمة للقتال ، مما ادى الى زيادة التنافس عليها أو محاولة تدميرها . وكان لقدرة الدول على استثمار منابع ضخمة بشكل مكثف واسع تأثير على عنف واستمرارية الحرب ، فارتفع هذان العاملان الى حدود لم يعرفها الانسان من قبل .

وتتمتع الحربان العالميتان بصفات استراتيجية متشابهة فيما يتعلق بطبيعة مسارح العمليات . بيد أن لهما طرائق وصفات تكتيكية مختلفة ناجمة عن التطور التقني والفكري.

ولقد بدا مسرح أوروبا الغربية ضيقاً صغير الحجم أمام الجيوش الاوروبية الضخمة

التي تشغله . ولم يكن ضيق المسرح هو كل شيء ، بل ان كثافة شبكات طرقاته وسككه الحديدية وغزارة المصادر الادارية فيه ، أعطتاه صفة متميزة خاصة ، بالاضافة الى ان التحصينات الدائمة وتحصينات الميدان أمكنها ان تخلق فيه موانع مستمرة عميقة تستند على مرتكزات ثابتة ممثلة بالحصون . وبالرغم من خطأ استخدام هذه الحصون والحواجز والاعتماد عليها في الأصل فان وزنها في الحساب الاستراتيجي كان كبيراً .

أما المسارح الاخرى (بما في ذلك اوروبا الشرقية) فكانت تتمتع بصفات معاكسة هي : كبر المساحات بشكل لا يسمح للقوات بتحقيق الاشباع ، وضعف شبكات المواصلات من كل نوع ، بالاضافة الى ضعف المصادر الادارية القابلة للاستثمار ، وندرة التحصينات أو اقتصارها في اغلب الاحيان على الحصون الدائمة أو المؤقتة .

وأدى انخفاض مردود المعارك ، والتوافق المتزايد بين التقنية والضرورات الحربية الى خلق مشكلة حادة أمام العقيدة عبّر عنها لو دندروف بقوله : « ان علينا ان نهتم بالتكتيك اكثر من اهتمامنا بالاهداف الاستراتيجية التي لا يقدم تحقيقها أية فائدة اذا لم يكن النجاح التكتيكي الأولي ممكناً » . ولقد استخدمت الجيوش وسائط تكتيكية متعددة لحل هذه المعضلة ، فكان من جراء ذلك ان غدت الحرب العالمية الاولى حرب خطوط وخنادق ، وأصبحت الحرب العالمية الثانية حرب أرتال آلية .

* * *

عند الخروج من معارك الحرب العالمية الاولى الدامية أحس المنظرون بكل مرارة بضعف وسائطهم وعدم كفايتها . وقبلت قلة منهم مع الرائد ماير بالأمر الواقع ، وارتضت بقتال الانهاك الطويل بين جيشين متخندقين . الا أن معظم المنظّرين وضعوا آمالاً جساماً على المناورة الضخمة التطويقية كالجنرال فون شليفن ، أو وجدوا المخرج في الهجوم المنهجي الذي نادى به العقيد دوغران ميزون . وهناك قادة اكثر ذكاء وفطنة كالعقيد كولين ، كانوا يبحثون عن خلق « مجنبة محلية » بعد اقتلاع اجزاء صغيرة من الجبهة المستمرة . ويرون بكل وضوح تعلق المعركة المقبلة بعاملين هامين هما :

ــ **المتطلبات الادارية** الناجمة عن كبر التعداد ، وتطور التقنية ، وطول مدة القتال .

ــ **تطور الخيالة والمدفعية** لتتلاءم مع المتطلبات الجديدة للخرق واستثمار النصر .

ولم يكن هناك من يجرؤ على الاعتقاد بخطأ بعض افكار كلاوزفيتز ، وبالتالي على الاعتقاد بامكانية تطبيق المناورة الامبراطورية النابليونية ، أو البحث عن اية فكرة خارج

الصورة التي رسمها نابليون لهذه المناورة ... وانطلاقاً من هذه المقدمات تطورت كافة الاسلحة ، واصاب تنظيمها واستخدامها تعديل ناجم عن صورة الحرب الجديدة .

وكان تطور التقنية يؤدي بالضرورة الى تحقيق تشابه بين **الأسلحة بصورة متدرجة** ، وتشمل هذه التسوية العتاد ، وأساليب استخدام الوسائط ، والنتيجة العضوية لهذا التحديد . وهذا ما يعني **الاتجاه بالجيوش نحو الحالة البحرية** ، حيث يتفوق مفهوم الاختصاص والجمهرة التكتيكية على مفهوم تمييز الاسلحة .

ولم تتوقف المشاة عن التناقص عددياً مع تزايد واضح في تقنيتها وتنوعها . ففي عام ١٩١٤ كان جندي المشاة كجندي لويس الخامس عشر ، أي انه كان عبارة عن مقاتل يسير على الأقدام ، ويحمل البندقية فقط . وكانت الرشاشات ووسائط النقل الحديثة نادرة لا يصادفها المرء الا في الانساق العليا . واعتباراً من عام ١٩١٦ بدأ جنود المشاة يستخدمون السلاح الآلي حتى في الانساق الصغرى ، وغدا جندي المشاة مدفعياً ومهندساً بفضل الهاون والمدفع الخفيف وأدوات التحكيم . ومنذ عام ١٩١٨ عاد مدفع الميدان ليعمل معه داخل صفوفه ، وتكوّن لديه اعتقاد بأن الدبابة ملكه . وبعد عام ١٩٢٨ ورث أسلحة متنوعة مضادة للدبابات والطائرات ، وعرف الآلية والمكننة الجزئية أو الكاملة ، كما بدأ يستخدم وسائط الاتصال اللاسلكي على اوسع نطاق . والخلاصة ان جندي المشاة انقلب الى جندي مشاة محمول ، كما ان هناك انظمة أعطته دباباته الخاصة .

وأخذت قطعات المشاة منذ ذلك الحين تتميز عن بعضها حسب المهمات المتوقعة بسبب كثافة وطبيعة الوسائط القتالية . وظهر في الجيوش قطعات المشاة التالية :

مشاة « الخطوط » .

مشاة « الاحتياط العام » (وتعمل بالتعاون مع الخيالة والطيران) .

مشاة « الاحتلال » (وتعمل بالتعاون مع سلاح المهندسين) .

مشاة « الحصون » (وتعمل بالتعاون مع البحرية) .

ويتشابه النوعان الأولان بما يملكانه من اسلحة ثقيلة ووسائل اتصال . ولكنهما يختلفان من ناحية الحركية . ولا تعرف مشاة « الخطوط » إلا مكننة جزئية ، أما مشاة

« الاحتياط العام » فهي محمولة وآلية بشكل كامل ، حتى ان قسماً منها محمول جواً أو قادر على الهبوط بالمظلات .

ويمكن تشبيه مشاة « الاحتلال » بالقريب الفقير المجهز بشكل سيء على جميع المستويات. وتقوم هذه المشاة غالباً باعداد الارض او تحقيق النار الكثيفة الثابتة . أما مشاة « الحصون » المتلائمة مع المواقع التي ينبغي مسكها فانها تقتصر على الوسائط الثابتة القوية ، وتذوب على شكل « سدنة » مؤلفة من عدد كبير من اخصائيي مختلف صنوف الأسلحة .

وتطورت **الخيالة** تطوراً مشابهاً . فبعد بداية الحرب العالمية الاولى التي جعلت منها مجرد خيالة انقضاض منذ عام ١٩١٦ ، نجدها وقد عادت لتستعيد مكانتها بفضل المكننة والآلية التي بدأت تأخذ دورها في جميع الاسلحة ، وبفضل محاولاتها الدائبة للحصول على مشاة ومدفعية خاصة .

وتابعت المدفعية على احتكار النيران القوية . بيد أن مكننتها أخذت شكلاً مضطرباً ، لأن مدفع الانقضاض والمدفع ذاتي الحركة والمدفع العامل من برج محمول على سلاسل لم تكن وسائط خاصة بها . وزادت القذائف الصاروخية من قيمة امكاناتها النوعية ، ولكنها بقيت تحاول الحفاظ على مشاتها الخاصة لتأمين الحيطة .

أما الطيران فقد كان مولوداً جديداً ، ومع هذا فقد مال الى توزيع وحداته الى طيران استراتيجي وآخر تكتيكي ، بالاضافة الى مجموعات من الطائرات قادرة على ان تقدم للوحدات الارضية عدداً من الخدمات الصغيرة .

لقد كان نوع العتاد الذي يستخدمه الجندي فيما مضى يحدد بكل سهولة نوع السلاح الذي ينتمي اليه . ولكن التمييز اصبح في ذلك العصر متعذراً الا بواسطة الشارة التي يحملها الجندي على بذته .

وظهر موضوع الذوبان في العلاقة بين الاسلحة ، ذلك لان مهمة المرافقة المباشرة تحتل في الحرب مكانة هامة . الا أن الاسلحة تقاوم عادة فكرة الذوبان خوفاً على استقلالها ، وتطالب بأن تكون معركتها مستقلة . ولقد شاهد هذا العصر تكامل فكرتي الاستخدام المركزي والاستخدام اللامركزي وسهولة استخدامهما بآن واحد ما دامت وسائط الدعم قوية ومتوفرة وتتمتع بتنظيم مرن .

فمنذ **الحرب العالمية الأولى** عرفت المرافقة المباشرة لصالح المشاة في كلا المعسكرين

حقل عمل واسعاً . وكانت اسلوباً كبير الانتشار . كما استخدم الدعم المباشر والعمل المشترك في ذلك الوقت ايضاً[1] . اذ تدخل الطيران في المهمات الأرضية وضرب أهدافاً قريبة من خطوط القتال منذ عام ١٩١٧ (كامبرى) ، وتابع القيام بهذه المهمة في معارك ١٩١٨ الرئيسية التي تم الاشتباك فيها دون دعم مدفعي [١٨ يوليو (تموز) ١٩١٨ في الجيش الفرنسي العاشر] . وفي الوقت نفسه كانت كتائب الانقضاض الألمانية تتعايش بشكل جيد مع المجموعة المكونة من « فصيلة مهندسين وسرية مدفعية ميدان » .

بيد أن هذا الأمر لم يمنع المعركة الخاصة بالطيران أو التمهيد الكثيف بالمدفعية . وكانت معارك السوم والفردان تضع في خط النار مدفعاً لكل ١٢ متراً من جبهة الاشتباك، وكانت النسبة في معركة ماليزون مدفعاً لكل ٨ أمتار .

وأدى انهيار الفرنسيين في مطلع الحرب العالمية الثانية الى اعادة الجدل حول مبدأ المرافقة ، وخاصة مرافقة الدبابات . بيد أن الاخطاء المرتكبة كانت تتعلق قبل كل شيء بتبعثر الدبابات الفرنسية الاستراتيجي ، واشتباكها التكتيكي المتتابع سواء تعلق ذلك بدبابات المرافقة أم بالقطعات المدرعة الكبيرة . ومع هذا لم يهجر الروس أو الانكليز فكرة الدبابات المرافقة ، بل تجرأ الروس ودفعوا لا مركزية استخدام الدبابات حتى مستوى سرية المشاة . وعرف طيران الانقضاض الوضع نفسه وأخذ يظهر على النسق الأول . وبدأت مجموعات كبيرة من المدفعية تعمل بالرمي المباشر وبدون اية تغطية لدى الألمان والانكليز والروس . وذهب الروس الى حد زج افواج مدفعية كاملة في الاشتباك دون أن تتبع هذه المدفعية بأية تغطية من المشاة . وكانت كثافة النار ودقتها كافيتين لتحقيق النجاح .

وازداد حجم الاشتباك المركزي ، وشوهدت حالات تعمل فيها جيوش مدرعة تضم ٢٠ فرقة مدرعة و ٧٠٠٠ دبابة وتضع على محور الجهد الرئيسي من ٤٠ الى ٢٠٠ دبابة في الكيلومتر الواحد . (٦٠ دبابة ـ كيلومتر في كورسك ٢٠٠٠ دبابة ـ كيلومتر خاصة بالجيش السوفيتي المدرع الثاني في معركة الأودر) . وفقدت بطاريات ماليزون أهميتها

---

(١) تم استخدام عمل المجموع في بيرى ـ أو ـ بال في عام ١٩١٧ . وقدمت الدبابات العاملة على محور مستقل الدعم المباشر لقطعات المشاة في مولين دولافو في عام ١٩١٧ ، وفي معارك متعددة في عام ١٩١٨ . كما ظهرت مهمات المرافقة التي تربط الدبابات بالمشاة على محور واحد في معركة ماليزون التي وقعت في نهاية عام ١٩١٧ .

وضخامتها أمام بطاريات معارك ستالينغراد وكورسون وبرلين (مدفع لكل ١,٥ — ٣ م من جبهة الجيش الروسي) . واخيراً اخذت معركة الطيران الاستراتيجية التي ابتدعها دوهي أهمية حاسمة بالهجوم على المواصلات ومنابع القدرة الادارية . ولكنها بذلت خلال تنفيذ مهماتها جهداً ضخماً (قام الحلفاء بحوالي ١,٤٤٠,٠٠٠ طلعة قاذفة و ٢,٦٨٠,٠٠٠ طلعة مطاردة ضد المانيا والقوا ٢,٧٠٠,٠٠٠ طن من القنابل في الفترة الواقعة بين عام ١٩٤٠ وعام ١٩٤٥) .

ومع هذا لم يكن استخدام التجمع والبعثرة ممكناً خلال الحربين العالميتين الا في حالة وجود اعداد كبيرة من المعدات القتالية . ففي عام ١٩١٨ اندفعت كمية كبيرة من مدفعية الميدان وسط خطوط المشاة بغية ايقاف الدبابات ، فاضطرت القيادة الى تحقيق توازن احتياطاتها من المدفعية الثابتة بغية اجراء هجمات كبيرة ، فنجم عن ذلك فترات ميتة هامة . ومنذ عام ١٩٤٢ حتى عام ١٩٤٥ استطاعت روسيا استخدام الدبابات والمدفعية مبعثرة ومجمعة بكل سهولة نظراً لضخامة ما تملكه من هذين السلاحين (١٢٠,٠٠٠ مدفع و ١٥٠,٠٠٠ دبابة) ولكن ضعف امكانيات سلاح الطيران اضطرها الى التخلي عن معركة الطيران الاستراتيجية والاكتفاء باستخدام الطيران لدعم القطعات البرية خلال الهجوم أو الدفاع .

ولقد كرّس التنظيم هذه الامور بسبب النزول المستمر لمستوى التعاون بين مختلف الصنوف ، اذ حاولت الجيوش في بداية الأمر ضغط الفرق التي غدت كبيرة جداً ، ثم تم تفتيت الفرق الى جمهرات تكتيكية موقتة أخذت فيما بعد شكلاً عضوياً .

ومن المعروف ان فرق عام ١٩١٤ كانت تتمتع بتشكيلة (٤ أفواج من المشاة) ، وكانت هذه التشكيلة من اكثر التشكيلات عملية وصلاحاً . بيد ان ضرورات تشكيل قطعات جديدة من الاسلحة الثقيلة دفعت الى تخفيض حجم الفرق في عام ١٩١٦ واعطتها تشكيلة ثلاثية (٣ أفواج من المشاة) ومع هذا تزايدت أعباء الفرقة الادارية بمقدار الثلث اذ صارت بحاجة لـ ٤٢ رتلاً بدلاً من ٣٠ رتلاً . وعندما زادت بداية الآلية من جسامة الاعباء الادارية حاول البعض تشكيل فرق ثنائية (مؤلفة من فوجي مشاة) ولكن الدراسة لم تؤد الى نتيجة ايجابية . وفي خلال هذا التطور ، ولاسباب استراتيجية بحتة (تنظيم التعاون في هجمات الجيوش) شاهد عام ١٩١٧ ولادة نسق أعلى جديد هو « مجموعة الجيوش » التي حافظت على وجودها في الحرب العالمية الثانية .

وكانت هذه المرحلة الاخيرة في الوقت نفسه مرحلة المجموعات التكتيكية التي يقل

حجمها عن حجم الفرقة ، ومرحلة تقسيم القطعات الى جزئين غير متساويين ، أولهما كبير ويضم قوات تقليدية مزودة بقسط صغير من الآلية ، والآخر صغير وميكانيكي بشكل كامل يساعده على أن يكون جزءاً خاصاً بالمناورة[1] .

ولقد تجسدت فكرة وجود جمهرة أصغر من الفرقة وتضم مختلف صنوف الاسلحة وذلك باستخدام افواج المشاة بعد دعمها بسرية دبابات ومجموعة مدفعية ، أو أفواج الدبابات بعد دعمها بكتيبة مشاة ومجموعة مدفعية . ثم تطورت الفكرة فاصبحت نواة الجمهرة مؤلفة من كتيبة مشاة أو سرية دبابات . ثم ظهر الى الوجود « مجموعات القتال » و « زمر القتال » الأمريكية و « الجحافل » البريطانية . وكانت أول تشكيلاتها العضوية مؤلفة من « مجموعة مدرعة » . وبعد الحرب العالمية الثانية ظهر الفوج الذي يضم مختلف صنوف الاسلحة ، وساعد التطور التقني على تشكيل جيوش من مختلف الأسلحة ، وغدا من الممكن تحقيق ذوبان الاسلحة الداخلي الكامل الذي حلم به مونتي كوكولي .

ويبقى علينا أن نعرف كيف تطورت معضلة لودندروف ، أو بمعنى آخر طبيعة العلاقات بين التكتيك والاستراتيجية خلال الحربين العالميتين .

ففي الحرب العالمية الأولى كان ضيق الجبهة في اوروبا الغربية يضع التكتيك في موقف حرج ، ولا يسمح بتطبيق استراتيجية غير مباشرة . كما أن ضعف الامكانات التكتيكية الفعلية لم يسمح بتطبيق استراتيجية فعالة الا بصورة متأخرة .

ولقد كانت امكانات استخدام المناورات التكتيكية في عام ١٩١٤ موجودة في كل الجبهات (بسبب ندرة الاسلحة !؟ . والقيام بالمناورات على أرض لا موانع فيها ولا حصون ... الخ) ولكن الوسائط المتوفرة آنذاك لم تكن تتلاءم مع المخططات الاستراتيجية وبوجه التحديد مع المخططات المعدة للعمل في الغرب . (مدفعية وخيالة غير كافيتين لتحقيق مخططات الخرق أو التطويق ـ مسخ مخطط شليفن بعد اخذ اعداد كبيرة من جناح المناورة الألماني[2] وأخذ القتال في الغرب شكل محاولات التفاف متبادلة (المارن،

---

(١) ـ كان عدد الفرق الالمانية في عام ١٩٤٢ ثلاثمائة فرقة . ولم تكن تضم سوى ٥٦ فرقة مدرعة و ١٧ فرقة محمولة .

(٢) وضع فون شليفن مخططه في عام ١٩٠٥ وكان يقتضي نشر القوات الألمانية على طول الجبهة الفرنسية مع تركيز الجزء الاكبر من القوات على الجناح الأيمن الذي كان عليه ان يجتاز بلجيكا وشمال فرنسا بسرعة ثم ينحرف نحو الشرق. على أن يقوم الطرف الأيمن لهذا الجناح باجتياز السين قرب روان والتوجه =

والسباق الى البحر) وهذا ما كان متوقعاً . ثم انتهى بأن وقفت الجيوش امام بعضها بصفوف متراصة متخندقة . بيد أن الألمان استخدموا في الجبهة الشرقية بشكل أفضل الامكانات الاستراتيجية التي توفرها شبكة السكك الحديدية ، وطوقوا البروز البولوني . وطبقوا المناورة على الخطوط الداخلية في تاننبرغ ضد جيشين روسيين محرومين من الاتصال فيما بينهما ، فادى ذلك الى تطويق احد هذين الجيشين وتدميره . وأوقفت مناورة لودز الاندفاع الروسي المنطلق من فارصوفيا باتجاه برسلاو بفضل حركة الجيش الالماني الحادي عشر على الخطوط الحديدية الخارجية . اذ تحرك الألمان في بادىء الأمر من بروسيا الشرقية الى الجزء الجنوبي الغربي من بولونيا بغية ايقاف التقدم الروسي ، والقيام بعد ذلك بهجوم معاكس جانبي باتجاه الجنوب الشرقي ، انطلاقاً من منطقة ثورن—بوزن. وكلل النجاح المناورة الالمانية مرة اخرى دون ان يؤدي ذلك الى اخراج الجيوش الروسية نهائياً من حلبة القتال .

ومنذ عام ١٩١٥ حتى عام ١٩١٧ كانت المعضلة تتمثل في تحقيق خرق جبهة متخندقة (وهذا ما يتطلب قوة نارية كثيفة) ، واستثمار هذا الخرق رغم تدفق الاحتياطات المعادية (وهذا ما يتطلب سرعة وحركة كبيرتين) . ففي الجبهة الشرقية كان ضعف تنظيم العدو ، وقلة كثافة القوات ، وضرورة نشر الاحتياطات بالعمق نظراً لعرض الجبهة الكبير ، عبارة عن عوامل مساعدة سهلت تحقيق الخرق واستخدام الخيالة في استثمار النصر . ولم يوقف هذا الاستثمار سوى صعوبات الدعم الاداري في بلاد فقيرة بالمواصلات . أما في الجبهة الغربية ، فقد بقيت صعوبة الخرق واستثمار النصر متساوية نظراً لقوة الجبهات ومناعتها ، وقدرة الاحتياطات القريبة والبعيدة على الحركة والالتقاء في المعركة ، الا أن امكانية الدعم الاداري كانت عاملاً مساعداً على توسيع حقل العمليات .

وهكذا وجدت استراتيجية الحلفاء نفسها مقيدة بضعف الامكانات التكتيكية ، فاقتصرت على القيام بهجمات خارجية محيطية معدّة لتخفيف الضغط عن مسارح العمليات المهددة ، او لفتح مسارح جديدة مساعدة (البلقان — الدردنيل — فلسطين —

= الى باريس . ويتصف هذا المخطط بأنه غير مباشر لأن الفرنسيين سيهاجمون الجناح الالماني الأيسر الضعيف الذي يتراجع أمامهم ، بينما يتقدم الجناح الأيمن كباب يدور حول محوره ليضربهم من الخلف . ولم ينفذ هذا المخطط في الحرب العالمية الأولى لأن مولتكه (الشاب) عدله وافقده بعض مزاياه .
(المعربان)

ما بين النهرين – رومانيا) ولكن العدو رد على ذلك بسهولة لانه كان يحتكر المناورة بالسكك الحديدية التابعة لخطوط « Mittel Europa »

وكانت الإمكانات التكتيكية في الشرق متوفرة ، لذا حاولت الاستراتيجية الالمانية الاستفادة منها والعمل على قطع تيارات الخطوط الحديدية الثلاثة داخل البروز البولوني ، وساعدت حملة رومانيا رغم قصرها على القيام بمناورات هامة على الخطوط الداخلية . ثم انهارت الجبهة الروسية برمتها مع الثورة البلشفية في عام ١٩١٧ .

وكانت الاستراتيجية في الجبهة الغربية تبني مخططاتها وفقاً لشبكة السكك الحديدية (وخاصة بالنسبة للخطوط العرضانية الموازية للجبهة والصالحة للمناورة) . كما اهتمت هذه الاستراتيجية بنقاط الاتصال بين الجيوش (وخاصة اذا كان الجيشان المتجاوران تابعين لدولتين متحالفتين) . وأعطت أهمية خاصة لخطوط التراجع وللأهداف المعنوية (موانىء المانش بالنسبة للانكليز وباريز بالنسبة للفرنسيين) . الا أن انعدام الاتجاهات الصالحة للعمل جعلها مضطرة الى أن تقبل قتال الاستنزاف في سبيل هدف ذي اهمية تاريخية (الفردان) .

وكانت الجبهتان حقل تجارب مستمرة للبحث عن الوسائط التكتيكية القادرة على اعطاء الاستراتيجية فعالية كبيرة . لان العجز عن تحقيق العمل على محاور هجومية عميقة جعل الجيوش تقبل بالعمل على خطوط متتابعة هجومية ودفاعية بآن واحد . ولم تظهر الحلول الفعالة عند المعسكرين الا في عام ١٩١٦ ، ولم تصبح فعالة تماماً الا في عام ١٩١٨ . وكان كل طرف من الاطراف المتنازعة يحاول جاهداً تحقيق تلاؤم القوة مع الحركية ، والاسلوب المنهجي مع السرعة ، والتجميع مع المباغتة ، والمفاجأة مع حجم الاعدادات.

فحتى عام ١٩١٦ كان هناك عقائد تود الوصول الى السرعة دون أن تملك الوسائط اللازمة لتحقيقها ، أو تطالب بالاسلوب المنهجي الصلب الدقيق الذي يفقد النجاح ثماره . ولم تحاول هذه العقائد اللجوء الى استخدام المفاجأة أو السرية . وفي عام ١٩١٧ استخدم الطرفان وسائط جديدة ، فلم يؤد ذلك الا الى زيادة حدة الاتجاهات السابقة دون الوصول الى نتائج حاسمة (ايسن – ماليزون) . وهكذا كانت مستحدثات عام ١٩١٧ غير مجدية لان انتصارات عام ١٩١٨ نجمت عن اساليب كانت بذرتها موجودة داخل العقائد الاخيرة لعام ١٩١٦ .

ويعود الفضل في ايجاد الاساليب الملائمة الى جهود هيئات أركان جوفر وماكزن

التي سعت بكل جهدها للتخلي عن العمليات ذات الاهداف المحدودة ، والابتعاد عن الجبهات الهجومية الضيقة ، والاوقات الميتة ، وعن فكرة التجمع والاسلوب الجامد في سبيل الاعداد ، او فكرة الامتناع عن استخدام السرعة والبداهة خلال التنفيذ . ولتحاشي قتال الانهاك كان على المشاة المتطورة ان تتقدم بلا توقف ، دافعة نجاحاتها في الاماكن التي تستطيع فيها العمل من القوي ضد الضعيف ــ **ولو ادى ذلك الى السير على اتجاهات مخالفة للاتجاهات المحددة أو المتوقعة مسبقاً** ــعلى أن ترافقها نيران ثقيلة قادرة على تدمير وابطال المقاومات الصغيرة المفاجئة دون انتظار .

وغدت اساليب التنفيذ خلال العمل متعددة متباينة بحيث تتلاءم مع الوسائط المتوفرة.

ففي الجانب الالماني قسم لودندورف وسائطه الى قسمين وخصص اولهما للهجوم ، وكان عبارة عن « فرق الانقضاض » المختارة والمدعومة بنيرانٌ مدفعية قوية ، كما خصص الثاني للعمل على الجبهات الساكنة « فرق المواقع » . ونجم عن ذلك هجمات المانية متتابعة تفصلْ بينها اوقات ميتة لازمة لنقل وجمع الوسائط المختارة المختصة .

وتبنى **الحلفاء** فرقاً متوسطة القيمة ، ذات شكل موحد بعد دعمها باحتياط كبير من المدفعية ، قادر على دعم عدة هجمات بآن واحد . ولم يكن النقل عند الحلفاء يهتم الا بالدبابات وبعدد من الفرق الاحتياطية يقل عددها عن عدد فرق الالمان . ومن الممكن تصور تطوير الهجمات بفضل جيوش تنطلق متتابعة بحيث تثبت الهجمات الأولى الاحتياطات المعادية وتأتي الهجمات التالية لتستفيد من هذا الوضع . وكانت هيئات اركان مجموعات الجيوش تؤمن توافق هذه الهجمات اعتباراً من عام ١٩١٧ .

وبعد التخلي عن عمليات تمهيد المدفعية الرامية الى افناء العدو قبل الهجوم ، اخذت الجيوش ــ وخاصة الجيوش الألمانية ــ تحاول الاستفادة من مزايا السرعة والسرية . وبدأت تستخدم على نطاق واسع اساليب التنقل الليلي ، والتمويه عند الانتشار على المواقع . وصار الانطلاق الهجومي يتمتع بالعنف والسرعة والسرية بفضل تقصير مدة رمي التمهيد وتكثيف حدته[1] ، أو الغاء هذا الرمي كلية ، ودعم القطعات المهاجمة بنيران مرافقة ثلاثية تضم رمايات المدفعية والدبابات وطيران الدعم المباشر ، وكانت المشاة تتقدم بعد الانطلاق مدعومة بنيران المدفعية والدبابات ، مستخدمة اساليب التسرب

(١) ــ زادت قيمة رمي التمهيد وأهميته باستخدام القذائف الغازية الخانقة ، والهاونات اللازمة لضرب الاهداف القريبة .

والالتفاف ، محاولة القيام باعمالها من القوي ضد الضعيف . وكان الالمان يزجون ... م الاحتياطية في المواقع التي يستخذي فيها الخصم ، دون أن يحسبوا لاتجاه الهج... الأولي أي حساب . **وهكذا أخذ التكتيك يقود الاستراتيجية** ، وصارت قطعات المدفعية تتبع التقدم بالوثوب على أنساق متتالية ، كما اخذت هيئات الاركان تقترب من القطعات لتراقب تنسيق أعمالها وتقوم بزج القطعات الاحتياطية بشكل اقتصادي .

وكانت الاساليب القتالية تأخذ بعين الاعتبار ايضاً الاختلافات النوعية بين قطعات الانقضاض . وكانت قطعات الحلفاء التي افقدها المكوث مدة طويلة في الخنادق جزءاً كبيراً من فاعليتها تقف على الأرض المفتوحة للمناورة عاجزة عن مجاراة القطعات الألمانية المرنة المتميزة نظراً لاختيارها المسبق الجيد ونظراً لوجود حقل عمل ملائم أمامها على الجبهة الشرقية . ولقد استخدم الحلفاء الدبابات ، ولكنهم كانوا يضيعون في تنظيف الجيوب مدة تعادل ثلاثة اضعاف المدة التي كان الألمان يتوصلون خلالها الى النتائج نفسها ... وبعد انتصارات تكتيكية باهرة توقفت الهجمات الالمانية بسبب نقص القوات الاحتياطية ، وانهاك الفرق المختارة واستنزافها ، ولان سرعة التنقل الرائعة على الاقدام بغية استثمار النصر كانت عاجزة عن مجاراة سرعة حركة قوات الحلفاء الاحتياطية المنقولة بالسيارات.

ولقد حاول البعض اعادة هزائم الألمان الى التبعثر التكتيكي الناجم عن استثمار النصر بيد أن الدراسات الأخيرة تؤكد بأن التضحيات المبذولة على الاتجاهات الاستراتيجية المتوقعة كانت السبب الاساسي للتأخير والاستنزاف ، لانها كانت تؤدي بسرعة الى **الهجوم غير المثمر من القوي ضد القوي .**

وكان اسلوب الحلفاء الخاص بالهجمات الجبهية المتتابعة أصغر حجماً وأكثر تواضعاً من الاسلوب الالماني ، ولكنه كان اكثر فاعلية . لقد كان يتجنب الجيوب الحساسة ، ويثبت القوات الاحتياطية المعادية ، ويكتسح العدو بدلاً من أن يناور ضده أو يلتف عليه . ولم يكن للاتجاهات الاستراتيجية سوى معنى شبه رمزي . كما ان عجز الحلفاء عن الاعتماد على البداهة في الخطوط الاولى (تلك البداهة المتوفرة للألمان) جعلهم يؤمنون مناورة القطعات في الخلف مع الاستعانة بالسكك الحديدية العرضانية .

وفي المسارح الشرقية كانت الجبهات في فلسطين وبلاد البلقان ضعيفة لا كثافة فيها . ولقد ادى انهيار هذه الجبهات الى استثمار النصر والاندفاع حتى فيينا وحلب . وظهرت الخيالة هنا بشكل واضح متميز بسبب وجود الفراغ الاستراتيجي (جونيو — غامبيتا في اوسكوب واللنبي في نابلس) . كما أن التكتيك غير المباشر لعصابات الانصار العربية

على مؤخرات الاتراك من نجد الى فلسطين أكد بشكل لا يدع مجالاً للشك كافة استنتاجات الحملة الاسبانية في ايام نابليون الاول . والحقيقة أن صغر أهمية هذا المسرح الثانوي اعطى عملياته حجماً صغيراً بالرغم من كتابات لورانس عنه ، ولم يكن هناك من يفكر جدياً باهمية الدروس التي امكن استنتاجها فيما بعد من دراسة عمليات هذا المسرح .

* * *

لقد اظهر الفحص الدقيق للشروط التقنية التي ساعدت على تحقيق النصر النهائي في الحرب العالمية الاولى اهمية الدبابات والطائرات ، واحتمالات استخدامها في المستقبل . وتوصل الجنرالات ايتيين وديغول وايمانسبيرجر وغودريان الى استنتاجات خاصة بالدبابات تشابه الاستنتاجات التي توصل اليها دوهي بالنسبة للطيران ، والقائلة **بأن الاستراتيجية استعادت مكانتها بصورة كاملة** . وتوقع كافة هؤلاء القادة استخداماً كثيفاً للوسائط الميكانيكية الأرضية والجوية ، ولكن أي واحد منهم لم يتوقع بأن هذه الوسائط التي كانت في عام ١٩١٨ وسائط تكتيكية اقتصادية ستنقلب بعد فترة قريبة الى وسائط استراتيجية باهظة التكاليف .

وفُهمت الصلات بين الاستراتيجية والتكتيك بشكل متباين من قبل مدرستين ، **وخاصة فيما يتعلق بالمدرعات التي ادى ظهورها الى بعث حرب الحركة من جديد .**

وطالبت المدرسة الأولى بخلق **قطعات السلاح المدرع المستقلة القادرة على أن تنفذ مختلف المهمات** ، وأن تحقق لوحدها الخطوط العريضة للخطة الاستراتيجية ، على أن تتبعها جيوش المشاة التقليدية بسرعتها الخاصة ، بغية الحفاظ على المناطق المحتلة ، ودعم وحماية الجيش المدرع عند اللزوم

وأخذ أنصار هذه الفكرة المعضلة ودرسوها في جو مشابه لجو معارك الحدود لعام ١٩١٤ . وكانوا يرون أن معركة الجيوش المدرعة ستسحق العدو وتحتكر حرية العمل لمجموع القوى – ولا يترددون في شطب الجيوش التقليدية من قوى المعركة . ولم يكن أي واحد منهم يسمح بوجود الدبابات خارج الفرق المدرعة . ووقف الألمان مع هذه المدرسة ، وكانوا يرون أن تكتيك استثمار النصر المتهور الذي تبناه لودندروف فيما مضى سيجد مجاله الكلي الملائم بفضل سرعة النجاح التكتيكي ، وسيصبح بوسع الجيوش تطبيقه مع احترام الاتجاهات الاستراتيجية العامة .

هكذا صار بوسع الجيوش ان تزيد من سرعة ايقاع المعركة بحيث تكون الجيوش ،

التقليدية ـــ غير الميكانيكية ـــ والبطيئة عاجزة عن صدها . ولم يعد هناك ضربات متتا:
أو اوقات ميتة تقسم المعركة الى « مراحل » متميزة . وحل محل هذا كله مناورات
بسيطة غير مباشرة غالباً ، وتبحث مذ البداية عن أبعد الاهداف . واختفت معارك
الخنادق والخطوط لعام ١٩١٨ لتظهر بدلاً عنها معركة الارتال المستقلة المتمفصلة العميقة
القادرة على الرد بسرعة والانتشار الجانبي ، والمستعدة لدفع رأسها على خط متعرج عنيد
للوصول الى اهداف حاسمة عميقة .

وكانت المدرسة الثانية تنادي بتوزيع **القطعات المدرعة حسب المهمة** . وتقسم المدرعات
الى قطعات ميكانيكية كبيرة معدة للمناورة واستثمار النصر الاستراتيجي ، وقطعات
صغيرة من الدبابات لتحقيق الخرق التكتيكي بالتعاون مع القوات التقليدية .

وعالج اصحاب هذه النظرية معضلة عام ١٩١٦ ، وكانوا يرون أن معركة الحدود
قد لا تكون حاسمة نظراً لان الدبابات ستصطدم في نهاية المطاف بجدار خطير فعال من
الاسلحة المضادة للدروع فتضطر الى التوقف كما اضطرت المشاة في الماضي الى التوقف
امام نيران الرشاشات . عندها تظهر أهمية القطعات التقليدية المتشبثة جيداً بالارض ،
والمجهزة بوسائط قتالية حاسمة والقادرة على دعم صدمة المدرعات . ويغدو من الواجب
حل معضلة الخرق بالتعاون الوثيق بين جميع الوسائط . ولقد دفعهم هذا التصور للمعركة
الى الحفاظ على بعض الدبابات خارج الفرق المدرعة ، مع ايمانهم بأن الفرق المدرعة ستجد
جميع فاعلياتها الاستراتيجية بعد الخرق مباشرة .

وفي مثل هذه الحالات كان لا بد من وجود « مراحل » معركة واضحة مع اهتراء
بطيء ومنهجي ، يتبعه تطوير النجاح واستثمار النصر والمطاردة بسرعة وايقاع
ولا مركزية متزايدة .

والحقيقة ان كلتا الفكرتين صحيحتان . ففي بداية الحرب العالمية الثانية كان عامل
المفاجأة وضعف اسلحة الدفاع ضد الدروع والاستخدام المرن السريع للمدرعات
الحديثة ، والأوضاع المتبدلة الخاصة بالاشتباكات الاولية عبارة عن حجج قوية دعمت
فكرة مدرسة السلاح المستقل المتفوق . ولكن التطور التقني لصالح الدفاع ، والتعود على
هذا النوع الجديد من الحرب ، والتعزيز الجزئي للجبهات ، رجح كفة مدرسة « تخصص
المهمات » . ومن هنا يمكن تقسيم الصراع الى ثلاث مراحل رئيسية هي :

المرحلة الأولى : من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤١ (حملات بولونيا وفرنسا والبلقان
وروسيا وشمالي افريقيا) وكان الألمان يستفيدون خلالها من ثلاث مميزات :

ـ عتاد يحقق تفوق التسليح والحركية على الحماية .

ـ قطعات مدرعة كبيرة مستقلة .

ـ دعم بنيران « مرافقة » تقدمها المدفعية والطيران .

لذا كان بوسعهم استخدام اساليب قتالية جريئة ، تتزايد جرأتها كلما كانت جبهة الخصم ضعيفة أو مزودة بعدد قليل من المدافع المضادة للدبابات أو تستخدم دباباتها بصورة موزعة .

المرحلة الثانية : في عام ١٩٤٢ (حملتا روسيا وشمالي افريقيا) . ولقد دعم الدفاع ضد الدروع في هذه المرحلة باعداد كبيرة من المدافع المضادة والبنادق الخاصة المجهزة بقنابل ضد الدروع . وهذا ما جعل الدبابات تصطدم بجدران نارية فعالة تعيق تقدمها رغم سماكة دروعها المتزايدة[1] . وصار لزاماً عليها ان تعود الى استخدام أساليب ذات صفة منهجية اكبر ، أو أن تركز عدداً من الدبابات يفوق العدد الذي كان يستخدم من قبل لخرق الجبهات الصلبة .

المرحلة الثالثة : من عام ١٩٤٣ وحتى عام ١٩٤٥ (حملات روسيا وافريقيا وايطاليا وفرنسا والمانيا) ولقد ظهرت فيها على مسرح العمل الحشوات الجوفاء وصواريخ الطائرات ، وتناقصت القدرة الاستقلالية لسلاح المدرعات . واستعادت الاساليب الحذرة المنهجية اهميتها في عمليات الخرق .

والآن يمكننا ان نتابع دراسة تطور العقائد ضمن هذا الاطار .

أ ـ « الحرب الصاعقة الالمانية وفكرة الإسفين »

(١٩٣٩ ـ ١٩٤١)

في بداية الحرب قامت قوات البانزر الالمانية بالعمل بكل سهولة ، مسيطرة بعقيدتها القتالية على خصوم لا يتجرأون حتى على استخدام دباباتهم ، وينهزمون بالرغم من

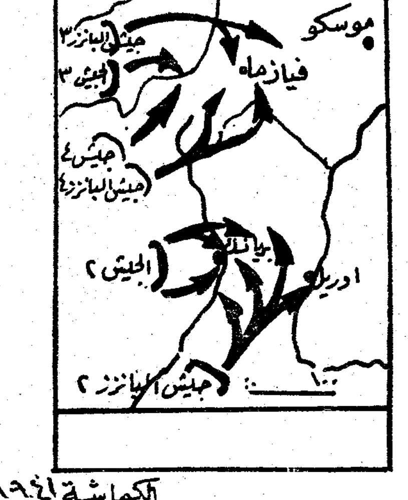
---

(١) كان وزن الدبابات حتى عام ١٩٤٢ لا يتجاوز ٢٥ طناً ، وكان التدريع الاقصى ٤٠ م . واعتباراً من ١٩٤٢ اختفت كافة دبابات القتال التي يقل وزنها عن ٢٢ طناً ، وظهرت دبابات متعددة تزن أثقلها ٥٨ طناً ، وكان الصفيح يتراوح بين ٦٠ و ١٥٠ م . وفي عام ١٩٤٥ اصبح وزن الدبابات يتراوح بين ٣٠ و ٧٦ طناً ، كما اصبح التصفيح من ٧٦ الى ١٧٠ م .

امتلاكهم لدبابات تفوق دبابات عدوهم قوة وعدداً[1] .

ونلاحظ في حقل الاستراتيجية كيف استخدم الالمان الاقتصاد بتركيز القوى ضد الجبهات الضعيفة التي لم يحسن الخصم اعدادها نظراً لاهماله أو لاعتماده على قوة الارض (الآردين ــ البلقان) وفي هذه الحقبة كانت الفيالق المدرعة الاداة المباشرة بيد القيادة الالمانية العليا ، فهي التي تحدد المناورة الاستراتيجية ، أو تعمل بتطابق كلي مع هذه المناورة ، وتستطيع ان تتقدم بصورة مستقلة عن الجيوش التقليدية لمصلحة عدة جيوش أو مجموعة جيوش ، حتى أن بوسعنا اعتبارها مقدمة عامة للجيش يضم كتلاً كبيرة من المشاة . وهي تستطيع بعملياتها ان تدق « اسفيناً مدرعاً » يمزق الموقع المعادي ويفتح الطريق أمام الجيش التقليدي . ويكون اسفينها على **شكل مروحة او كماشة** .

المروحة ١٩٤٠



الكماشة ١٩٤١

ففي حالة المروحة تنفتح الهجمات متباعدة داخل قطاع من الأرض يحدد جوانبه انهار أو سيول كبيرة تسهل حماية المجنبات . وتتقدم هذه الهجمات حتى تصل الى الحدود الطبيعية لمجال المناورة (بحر أو حدود) قاطعة بذلك جيوش العدو .

أما في حالة الكماشة ، فإن حقل المناورة يتجاوز قدرة القوات المدرعة ، لذا فهي تتقدم لتتلاقى على شكل كماشة على مسافة ١٥٠ ــ ٢٠٠ كم على مؤخرات العدو انطلاقاً من مكاني خرق متباعدين .

---

(١) استخدم الألمان في حملة فرنسا ٣٫٨٥٠ دبابة مقابل ٦٫٣٧٠ دبابة حليفة . وفي الحملة الروسية استطاعت ٤٫٠٠٠ دبابة المانية اكتساح ٩٫٠٠٠ دبابة روسية . وفي حملة شمالي افريقيا حققت ٥٠٠ دبابة المانية ــ ايطالية النصر على ٦٦٥ دبابة انكليزية .

وإذا نظرنا الى الناحية التكتيكية وجدنا قتال قطعات مختلف الصنوف يسير حسب ايقاع عمل الدبابات بشكل يؤمن لها الحد الأقصى من الدعم مع حرية المناورة . ويتعلق الاختلاف البسيط الناجم عن معرفة من « يكون في الرأس المشاة أم الدبابات » بقوة وصلابة الجبهة المعادية وطبيعة القطعات التي تشغلها[1] . وفي نهاية عام ١٩٤١ تشكلت لدينا عدة نتائج وتعاليم يمكن تلخيصها في النقطتين التاليتين :

ـ تم تجاوز ايقاع عمل جيوش المشاة من الناحية الاستراتيجية .

ـ يتم العمل بتعاون وارتباط تكتيكيين مع مشاة آلية قوية كبيرة العدد .

وأمام هذه العقيدة الالمانية استخدم الحلفاء عقيدة مشابهة تقوم بتنفيذها تنظيمات غير مشابهة تسيء استخدام العقيدة في معظم الحالات . اذ كان الانكليز والفرنسيون والروس يتصورون أن للدبابات ثلاثة انواع من المهمات (المرافقة أو الدعم المباشر ، الدعم البعيد أو العمل المشترك ، العمل بحرية واستقلال تأمين واستثمار النصر) وقسم الفرنسيون والانكليز قواتهم الى قطعات مدرعة كبيرة وقطعات صغيرة تضم دبابات المرافقة . ولم يتجاوز الروس في تشكيلاتهم مستوى اللواء المدرع ، وكانوا يرون أن تنفيذ المهمات الثلاث المذكورة آنفاً يتم بقطعات كبيرة تقليدية مدعومة بدبابات المرافقة أو بألوية مدرعة مستقلة . وكان كافة القواد مجمعين على ضرورة القيام بأعمال كثيفة ضخمة في العمق . ومع هذا كان التبعثر التكتيكي أو الاستراتيجي ظاهرة واضحة تمام الوضوح . ولعل هذا هو السبب الرئيسي للهزائم المتكررة التي تعرض لها الحلفاء .

وليس هناك ما يظهر تعارض الاستخدامات العملية (لا تعارض العقائد) مثل حملة فرنسا في عام ١٩٤٠ ففي لحظة العمل كان التوزيع الاستراتيجي للوسائط كما يلي :

---

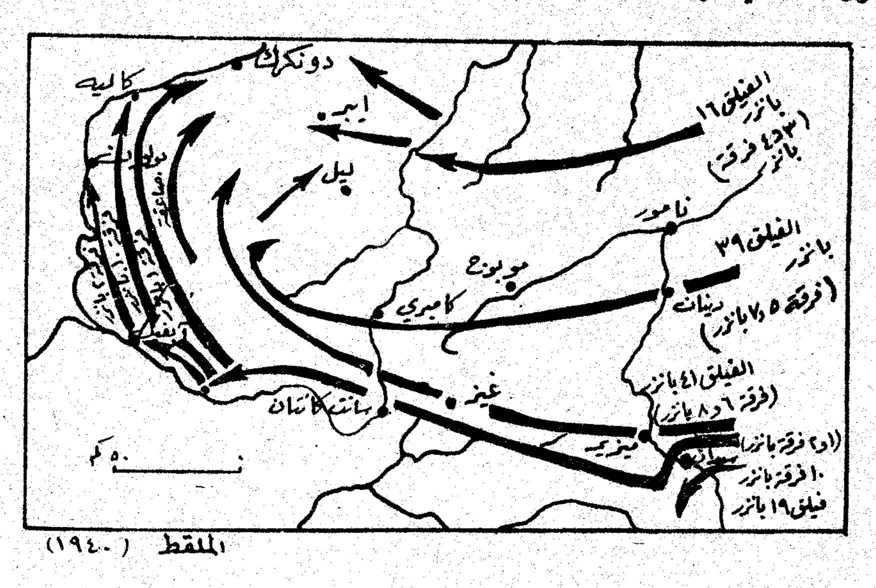
(١) تكون كتل الدبابات في النسق الثاني عندما يتم الهجوم ضد مواقع حصينة ودفاع معد بشكل متين ، كما انها تكون في النسق الأول وتعود المشاة لتحتل النسق الثاني عندما يكون الهجوم ضد مواقع معدة على عجل ولا تتمتع بقوة نارية كافية أو حواجز فعالة ضد تقدم المدرعات .

(المعربان)

المكان	الفرنسيون والانكليز	الالمان والايطاليون
من بحر الشمال حتى الحدود الغربية للوكسمبورغ (٣٥٠) كم	٢٣٤٣ دبابة منها ٣٦ دبابة قديمة تحت امرة مجموعة الجيوش الأولى (وتدخل ٣ فرق آلية ثقيلة في هذا المجموع)	٣٧٩١ دبابة حديثة تحت امرة مجموعة الجيوش آ و ب .
من الحدود الغربية للوكسمبورغ حتى سويسرة (٣٥٠) كم	١٠٨٢ دبابة منها ٣٨٨ دبابة قديمة بقيادة مجموعتي الجيوش ٢ و ٣	٦٠ دبابة حديثة مشكلة من الاحتياط الفرقي لمجموعة الجيوش جـ .
حدود الألب (٢٥٠) كم	٦٣ دبابة قديمة	مجهول
الاحتياط العام	٥١٦ دبابة حديثة (٣ فرق مدرعة و ٣ مجموعات احتياطية آلية)	لا شيء بالنسبة للالمان
الحرس المحلي	١٥٠٠ دبابة قديمة	لا شيء
احتمال قدومها من المستودعات والمراتب والورشات	٨٧٣ دبابة حديثة	مجهول
المجموع	٦٣٧٧ دبابة منها : ٢٠١٤ قديمة ٤٣٦٣ حديثة دون أن تدخل في الحساب القوات المدرعة البلجيكية والهولندية التي تقدر بحوالي ٣٠٠ دبابة .	٣٨٥١ دبابة حديثة كحد أدنى .

وازدادت حدة عدم التوازن النسبي بين الطرفين لان القوات الفرنسية ـ الانكليزية لم تكن تملك سوى كتلتين مدرعتين معدتين للعمل بصورة مجمّعة كقوة ضاربة وهما فيلق الخيالة المؤلف من فرقتين آليتين خفيفتين (٥٥٨ دبابة) ، والفيلق المدرع المؤلف من ٣ فرق دبابات (٤٨٠ دبابة) . ومقابل هذه القوة وضع الألمان ٣ فيالق بانزر تضم معظم الدبابات . وهي فيلق البانزر ١٦ المؤلف من فرقتين (٨٢٤ دبابة) ، وفيلق البانزر ٣٢ المؤلف من فرقتين (٧١٨ دبابة) ، ومجموعة مؤلفة من فيلقي البانزر ٤١

و ١٩ وتضم ٥ فرق (١٧٠٤ دبابات) . ولم يكن هناك اية دبابات منعزلة سوى فرقة البانزر العاملة في هولندا .



المقط (١٩٤٠)

وأدى توزيع الحلفاء الى أسوأ العواقب . ولم يكن لفيلق الخيالة أو الفيلق المدرع أي وجود عملياتي ، واستطاع العدو تشتيت الفرق الآلية الخفيفة والفرق المدرعة وتدميرها دون أن تستطيع هذه الفرق الدخول في اشتباكات مترابطة ، ولنذكر هنا بعض الاحداث :

ـ عندما جابه فيلق الخيالة الفرنسي فيلق البانزر ١٦ قرب جمبلوكس كان مع الأول ٥٥٨ دبابة ومع الثاني ٨٢٤ دبابة . ومع هذا لم يستفد الفرنسيون من دعم ٤ أفواج من الدبابات متمركزة على قناة شارلروا (١٨٠ دبابة) أو من دعم جمهرة تضم فرقة آلية خفيفة وفوجين من الدبابات (٣٦٩ دبابة) دُفعت بلا مبرر نحو أنفرس . ولقد كان بوسع الفرنسيين أن يجمعوا لدحر فيلق البانزر ١٦ قوة فرنسية مؤلفة من ١١٠٧ دبابات بالاضافة الى بعض القطعات البلجيكية ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل اشتبكوا وهم متفرقون .

ـ عندما اندفع فيلق البانزر ٣٩ بين هوكس وايفوار قامت دباباته ، وعددها ٧١٨ دبابة ، بتدمير قوات الفرنسيين ومقدارها ٣٧٠ دبابة نظراً لان هذه القوات كانت موزعة الى فرقة مدرعة وفرقتين من الدبابات الخفيفة وفوجي دبابات . وكانت هذه القطعات تدخل المعركة حول فلورين بصورة متتابعة ، وتقاتل دون أي ارتباط فيما بينها .

– وعندما اندفع فيلقا البانزر ١٩ و ٣٩ من سيدان ومونتيرمي استطاعت دباباتهما ومقدارها ١٧٠٤ دبابة اكتساح ٣٨٠ دبابة حليفة موزعة بين فرقة مدرعة وفرقة دبابات خفيفة و ٤ أفواج دبابات دخلت المعركة متتابعة .

– وعندما وصلت ٦ فرق بانزر الى نهري السامبر والواز بين لاندريسي وفاندوى ، سحقت هذه القوة ستارة من الدبابات المنتشرة على عرض ٧٥ كم ، خاصة وأن ٢٠٠ دبابة حليفة فقط كانت تقف أمام حوالي ٢٠٠٠ دبابة ألمانية .

وتُظهر هذه الأرقام بكل وضوح أن العقيدة الفرنسية التي نادت باشتراك الدبابات في القتال **بكتلة كبيرة، وعلى جبهة عريضة ، بغية اجراء العمليات بالعمق** كانت عقيدة صحيحة لا تقبل النقض ، ولاأدل على صحتها من نجاحها العملي مع الألمان . ثم أثبتت الوقائع بعد ذلك بأن تطبيقها ممكن حتى في حالة استخدام تنظيم يختلف عن التنظيم الذي تبناه الألمان .

ففي برقة تمت معركة سيدي رزق (١٨ نوفمبر – ٨ ديسمبر ١٩٤١) بشكل آخر . ولقد حافظ كل طرف من الخصمين المتحاربين على عقيدته . وكانت قوات رومل متمفصلة الى ٣ فرق مدرعة (٥٠٥ دبابات) على حين كانت قوات الانكليز تضم فرقة مدرعة (٤٥٥ دبابة) و ٣ ألوية مرافقة (٢١٠ دبابات) .

وكان هجوم الفيلق الافريقي قد دفع الانكليز حتى ممر حلفايا (مارس – ابريل ١٩٤١)، ثم تمت استعادة جميع الأرض الضائعة بعد معركة سيدى رزق (نوفمبر – ديسمبر ١٩٤١) . ويمكن تقسيم هذه المعركة الى عملين مستقلين . أولهما عمل الفيلق ٣٠ (المؤلف من فرقة مشاة وفرقة مدرعة ولوائي دبابات وكلها ٥٢٥ دبابة) الذي التف حول الجناح الألماني ، ووصل الى مؤخرات عدوه عند سيدى رزق بشكل يساعد على رفع الحصار عن طبرق . أما العمل الثاني فهو عمل الفيلق ١٣ (المؤلف من فرقتي مشاة ولواء دبابات ومجموع دباباته ٧٠ دبابة) الذي اندفع على طول خط الشاطىء متجهاً نحو طبرق . واصطدم عمل الفيلق ٣٠ مع فيلق البانزر الألماني الثالث ، ودفع ثمن تقدمه غالياً ، ولم يستطع منع رومل من أن يشق طريقه نحو الغرب بكل أمان . أما الفيلق ١٣ الذي كان يستخدم الدبابات حسب أساليب المرافقة القديمة ، فقد خرق دفاعات العدو على الشاطىء، وحقق الاتصال مع حامية طبرق ، فحدد بنجاحه هذا مصير المعركة .

ومنذ يوم ٨ ديسمبر (كانون أول) ١٩٤١ ، بدا من الواضح ان افلاس الحلفاء

في عام ١٩٤٠ لم يكن ناجماً عن خطأ في التنظيم أو العقيدة ، بل عن امور اخرى . ثم أكدت احداث المستقبل هذه الفكرة . ويقدم الجدل الذي دار بين المُنظّرين الألمان بعد هزيمتي موسكو وروستوف مادة مؤيدة لهذه الفكرة . والحقيقة انه كان بين قادة قطعات البانزر والقيادة الألمانية العليا اختلاف في وجهات النظر خلال حملة روسيا التي تقدم نموذجاً واضحاً لتبدل العلاقات بين المدرعات والمشاة ... ففي بداية العمليات كان التعاون كاملاً بين الجيوش المدرعة والجيوش التقليدية (المشاة) . وادى هذا التعاون الى تحقيق نتائج رائعة ، ولكنها غير حاسمة . واختفت فكرة العمل المستقل للجيوش المدرعة . وبعد عدة اشهر من الانتصارات احست المشاة بانها منهكة لا تستطيع ملاحقة الدبابات في تقدمها ، وظهر بكل جلاء أن تموين جيوش المشاة الضخمة التي غامرت بالاندفاع بعيداً عن قواعدها أصعب من تموين الجيوش المدرعة ذات العدد المحدود . واضطرت الدبابات الى التوقف ريثما تستعيد المشاة نشاطها وتتابع اندفاعها . ولما طالت مدة التوقف اضطرت القيادة الى فصل فيالق البانزر عن جيوش المشاة عند موسكو وروستوف . ولكن هذه الفيالق تعرضت للفشل عندما جابهتها افواج المدفعية المضادة للدبابات واسراب طائرات ستورموفيك وسط طقس سيء لا يساعد على التقدم[1] .

ولم يُنظر الى هذه الوقائع من زاوية واحدة ، بل فهمت بشكلين مختلفين :

- اذ قدرت القيادة الألمانية العليا أن الفشل كان نتيجة طبيعية للعمل المستقل النهائي الذي قامت به الدبابات .

- على حين رأى قادة قطعات البانزر بأن ارتباط الدبابات في بداية الامر مع جيوش المشاة جعلها تفقد كثيراً من الوقت بشكل جعلها عاجزة عن القيام فيما بعد بعمليات مستقلة ملائمة ، خاصة وأن الدبابات لم تنفصل عن المشاة وتنطلق بكل حرية الا بعد أن جمع العدو قواته الاحتياطية « الطازجة » لمجابهة قوات المانية انهكها الاشتباك في عمليات محلية غير حاسمة كانت مضطرة للقيام بها لصالح جيوش المشاة . وهذا ما أدى الى التأخر والعمل في فترة الوحل والصقيع والثلج .

وبقي الجدل موجوداً حتى جاءت احداث عام ١٩٤٢ لتحسم الأمور .

---

(١) خسر الألمان في عام ١٩٤١ وخلال معركة موسكو وحدها ١١٠٠ دبابة دمرتها المدافع المضادة للدبابات من عيار ٧٦ مم ، و ٤٠٠ دبابة دمرتها طائرات ستورموفيك .

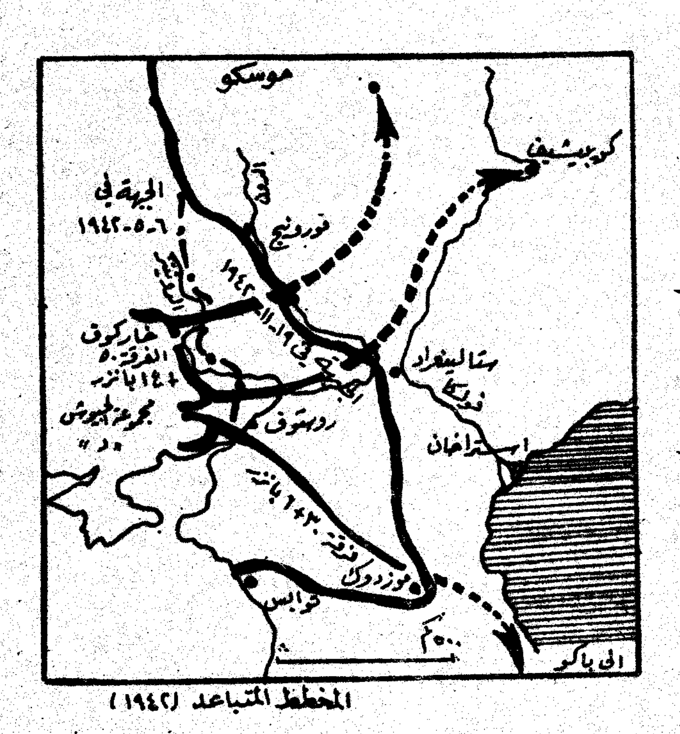
ب – الجمهرات المدرعة والجحافل والميكانو (١٩٤٢)

ومنذ هذا التاريخ بدأت المدرعات الألمانية تصطدم بجدار ناري قوي تقوم بانشائه المدافع المضادة للدبابات والمدافع العادية من مختلف العيارات . ونجم ذلك عن زيادة الانكليز لعدد مدافع الفرقة ، وعن قيام الروس بخلق أول فرق المدفعية (١٤٤ مدفعاً).

وللرد على ذلك لجأت فرق البانزر الى تكثيف قوتها ، فزادت عدد دباباتها ، ورفعت نسبة مشاتها المدرعة وكتل مدفعيتها ، واستغنت عن الفرق المحمولة التي لا تتحمل الصدمة واستبدلتها بفرق البانزر لرماة القنابل ، وهي فرق تعتمد على المشاة المدرعة . وتطور الاسفين ليأخذ شكل « موتبولك » أو « فلانكس » مدرع ضخم يتحرك فوق السهوب بكتلة واحدة داخل تشكيلة مغلقة . وكانت هذه الكتل المحمية بطيران الانقضاض تحطم الكماشات الروسية ولا تتأثر الا بنيران فرق المدفعية التي تستخدم الرمي المباشر . وحققت الكتل المدرعة في حالات متعددة عمليات الخرق والمطاردة بنجاح . ولكنها استنزفت كل مميزاتها نتيجة للمبالغة في زيادة حجم المخططات الاستراتيجية .

وانطلق الهجوم الالماني الاخير على جبهة عرضها ٧٥٠ كم ، ولكنه اضطر الى أن ينفتح ويأخذ جبهة عرضها ٢٣٠٠ كم ممتدة عبر أرساماس – كوبيتشيف – ستالينغراد– باكو . وغدت فرق البانزر العشرون بقيادة فون بوك غير كافية رغم امتلاكها لـ ٧٠٠٠ دبابة . وأبدى قادة قوات البانزر استغرابهم من عدم تعزيز هذا الجهوم الرئيسي بمجموع الدبابات . وادعوا بانه كان هناك مجال لتبديل النتائج لو أن الجيوش المدرعة الثلاثة لم تتقدم على محورين متباعدين ، بل عملت تحت قيادة موحدة لتحقيق الكماشة التقليدية . ولقد حقق الألمان فيما بعد نتائج أفضل وفاعلية أكبر عند هجومهم المعاكس بين الدنيبير والدونيتز في مارس (آذار) ١٩٤٢ . وكان النجاح ناجماً عن تطبيقهم الاسلوب الصحيح بالرغم من استخدامهم لامكانات تقل عن امكاناتهم في معركة موسكو .

وكان الحلفاء ينظرون الى الأمور بصورة مختلفة ، اذ كانوا يميزون بشكل واضح بين الخرق واستثمار النصر ، الأمر الذي دفعهم الى خلق جمهرات موقتة تصلح لكافة ظروف المعركة .



المخطط المتباعد (١٩٤٢)

ثم زالت حدة التخلف التقني بين صفوف الانكليز بعد استخدام دبابات حديثة تفوق دباباتهم القديمة. ولكن تنظيم الدبابات مال نحو الأساليب التقليدية. وغدت الفرقة المدرعة البريطانية بلا شك اداة صالحة لاستثمار النصر ولكنها لاتملك كفرقة البانزر صلابة كافية لتحمل الصدمة بالاضافة الى قدرتها على تحقيق مهمات الخرق، وانضمت معظم ألوية دبابات المرافقة الى فرق المشاة لتحل في التشكيلة الثلاثية محل الفوج الثالث. وأدى هذا التنظيم الى دفع المبادىء الفرنسية لعام ١٩٤٠ حتى حدودها القصوى. ومع هذا حقق الانكليز النجاح.

فبعد أن فوجىء الانكليز مرتين قرب بنغازي وجسر كنيجت قامت قواتهم بالانسحاب نحو العلمين في يونيو (حزيران) ١٩٤٢. ووقفوا هناك عند موقع يستند الى البحر من الشمال ومنخفض القطارة من الجنوب ووقف الألمان أمامهم. واخذت الجبهة في شمالي افريقيا لاول مرة شكل جبهة ثابتة تتطلب الخرق نظراً لتعذر الالتفاف.. ولقد حقق الانكليز الخرق بعد قتال ضار دام عشرة أيام (من ٢٤ أكتوبر حتى ٢ نوفمبر) وكانت «الجحافل» الأداة التكتيكية في هذا القتال. وهي عبارة عن مجموعة موقتة مختلطة يتم تشكيلها بأخذ قطعات عضوية من مختلف الصنوف وضمها الى بعضها البعض بحيث تحقق ـ حسب الطلب ـ مفارز من مختلف صنوف الأسلحة متلائمة مع المواقف المتبدلة. ولقد بدأت العملية بأن قامت المدفعية برمي تمهيد عنيف وقصير (٣٠ دقيقة) في يوم ٢٣ اكتوبر (تشرين اول) ليلاً. وبعد فتح الثغرات في حقول الألغام انقضت القطعات مع فجر يوم ٢٤. وقام الفيلق البريطاني ١٣ بالمشاغلة في الجنوب، على حين شن الفيلق البريطاني ٣٠ في الشمال قتال انهاك عماده فرق المشاة ودبابات المرافقة

العضوية . وكانت الفرق المدرعة تسير وراء خط الهجوم دون أن تشتبك بالمعركة . وفي يوم ٢ نوفمبر (تشرين ثاني) وبعد تقدم يعادل ١٨ كم وصلت مجموعة مؤلفة من ٤ ألوية مشاة و ٣ مدرعة و ٤ أفواج مدفعية الى ارض حرة قليلة الدفاعات والحواجز ، فانفصلت الدبابات ومدافع الانقضاض — لأول مرة — عن كتل المشاة ، وانطلقت لتقوم بالتطهير وتوسيع الثغرة . وردت فرقتا بانزر على ذلك بهجوم معاكس ، ولكنهما كانتا منهكتين ، فتحطم هجومهما قبل أن يصل الى أية نتيجة . ووجدت المدرعات البريطانية الأرض مفتوحة امامها فاندفعت الى أمام . وفي هذا الوقت كانت فرق البانزر وتعدادها ٧٠٠ دبابة قد فقدت ٥٤٨ دبابة ، على حين لم تصب دبابات الحلفاء الـ ٨٠٠ الا بخسائر قليلة . ولم تتوقف المطاردة بعد ذلك الا على أبواب تونس ولاسباب ادارية بحتة .

وكان الميل الى توزيع الدبابات اشد وضوحاً عند الروس . ففي عام ١٩٤٢ لم يكن الجيش السوفييتي يملك اية فرقة مدرعة حقيقية . وكانت قواته المدرعة منظمة داخل الوية مدرعة وألوية آلية تُستخدم وكأنها قطع من لعبة « ميكانو »[1] داخل جمهرات تضم اما ٢ — ٣ ألوية مدرعة مشكلة « فيلقاً مدرعاً » مع آلاف المشاة المحمولين على الدبابات أو ٣ — ٤ ألوية آلية مشكلة « فيلقاً آلياً » ، أو فوجاً ثقيلاً من ٣ كتائب مدعومة بكتيبة مهندسين وعدد من مدافع الهجوم مشكلة « فيلق خرق » .

وكان الروس يعتمدون عند الخرق على رمايات كثيفة من نيران المدفعية ، وكانت مدرعاتهم وافواجهم الثقيلة تعمل بتعاون وثيق مع المشاة التي تقاتل ضد دبابات العدو وتحمي المدرعات من أي هجوم مدرع مفاجئ بفضل المدافع المضادة للدبابات . وكانت مهمة المدرعات الروسية تدمير مشاة الخصم على أن يكون ايقاع تقدمها منسجماً مع ايقاع تقدم مشاتها . وما أن ينتهي الخرق حتى تندفع الالوية والفيالق الآلية من الثغرة لاستثمار النصر . ولهذا السبب كان شكل الهجوم السوفييتي الشهير في عام ١٩٤٢ يعيد الى الأذهان صورة الهجوم الفرنسي في شامباني في سبتمبر (أيلول) ١٩١٨ ، مع استخدام عتاد حديث مستقل .

وغدا رمي التمهيد بالمدفعية رهيباً ضخماً ، وصارت المشاة تنقض لوحدها ، على حين تقف الدبابات خلفها على قاعدة الانطلاق . وما أن تعطي المشاة الاشارة الدالة على

(١) تضم الألوية المدرعة ٦٠ دبابة بالاضافة الى المدفعية ، وتضم الألوية الآلية ٦٢ دبابة و ٤ كتائب مشاة محمولة بالاضافة الى المدفعية .

احتلال الموقع الأول حتى تندفع الدبابات وراءها وتخرق معها الموقع الثاني ، وعندما تصل القوات المهاجمة الى ارض حرة لا دفاع فيها ولا حواجز تنفصل الدبابات عن المشاة وتندفع بعمق وراء مؤخرات العدو ، على حين تهتم قطعات المشاة بتوسيع الثغرة . ومنذ هذا الوقت جمعت العقيدة السوفييتية عدة صفات هامة يمكن ايجازها فيما يلي :

– الرغبة بالتدمير حيث يسيطر عامل « القوة » على عامل « المناورة » ، مع تمويه الميول تحت ستار من عمليات التشتيت والمواقف الخداعية .

– تنظيم دقيق لدور ومكان القادة وهيئات الأركان الرئيسية ، بالاضافة الى التبعثر لصالح عنصر الرأس .

– وبهذا الشكل كانت العقيدة السوفييتية تعتمد على مبادئ الحرب غير المباشرة في التحضير ، وعلى مبادىء الحرب المباشرة المتطابقة مع عقائد كلاوزفيتز خلال التنفيذ .

جـ – حرف × عند كونييف و « مجموعات القتال » (١٩٤٣ – ١٩٤٥)

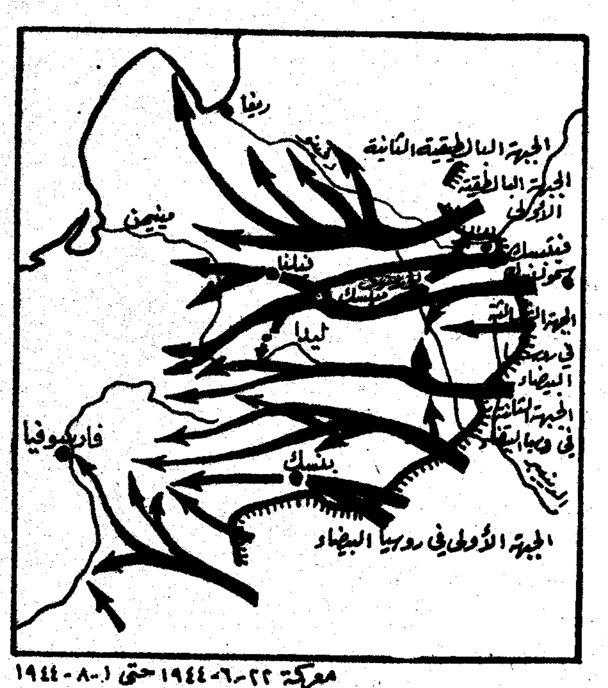
ومنذ ذلك الحين أصبحت الدبابة فريسة يمكن اصطيادها بكل سهولة . وانتقل التفوق الى الدفاع بفضل القذائف ذات الحشوات الجوفاء ، والصواريخ الارضية والجوية ونجم عن ذلك تطور في العقائد والتنظيمات .

وزاد الروس كثافة ألويتهم ، وأدخلوا عدداً كبيراً منها في القطعات الكبرى العضوية التي وصلت ، كما هي الحالة عند الألمان ، الى مستوى الجيش المدرع الذي يضم عدة فيالق . وفي هذه الفترة أنقص الألمان عدد فرق البانزر ليشكلوا كالروس ألوية خفيفة مدرعة لا تدخل ضمن نطاق الفرق المدرعة ، ولكنها قادرة على الانضمام الى مختلف التشكيلات المحتملة . وتبنى الامريكيون التنظيم البريطاني الذي يضم فوج دبابات عضوي داخل فرق المشاة ، بالاضافة الى الفرق المدرعة . وتوصلوا الى تنظيم عمل «الجمهرة المدرعة » تحت شكل « زمر القتال » و « مجموعات القتال » التي تقسم فرق المدرعات وفرق المشاة الى ٣ جمهرات موقتة متشابهة تقريباً ، وتضم قوات من مختلف صنوف الاسلحة .

ورغبة في زيادة قوة الاتصال بين مختلف صنوف الأسلحة ، صار من الضروري

عند اختيار العناصر المشكلة للجمهرات بذل جهد كاف لتكون هذه العناصر متلائمة مع بعضها وقادرة على العمل بكل تعاون . ونجم عن ذلك نوع جديد من القطعات لا تحمل صفة القطعات العضوية ولكن يتعذر اعطاؤها صفة موقتة كاملة ... ويجدر بنا أن نذكر بأن استخدام « مجموعات القتال » اصبح ممكناً داخل الفرقة المدرعة أو لدعم فرق المشاة، وان هذه « المجموعات » أصبحت تشبه الالوية الروسية بشكل واضح . وهكذا نلاحظ أن معظم الجيوش مالت الى استخدام أساليب مرنة تعتمد على وحدة عمل مختلف صنوف الاسلحة داخل قطعات أصغر من الفرقة (عضوية كانت أم غير عضوية) .

وأدت ظروف الحرب الى اهتراء قطعات الألمان . وفقدت فرقة البانزر ثلثي الدبابات التي كانت تملكها عام ١٩٤٥ كما فقدت فرقة المشاة ثلث تعدادها الأصلي . وانخفضت نوعية المعدات ، على حين تزايدت مهمات السلاح المدرع وتشعبت . ففي مايو (أيار) ١٩٤٢ استخدم فون بوك فرقة مدرعة لكل ٤ فرق من المشاة ، وفي نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٤٣ استخدم الألمان في هجومهم المعاكس (هوث) فرقة مدرعة لكل ١,٦ فرقة من المشاة ، وفي ديسمبر (كانون أول) ١٩٤٤ قام الألمان بهجومهم المعاكس الشهير في الآردين مستخدمين فرقة مدرعة لكل فرقة مشاة . وفي الأوضاع الدفاعية كانت قطعات الصدمة الالمانية تضطر الى القيام بمهمات تكتيكية بحتة في المواقع التي تحتلها مشاة ضعيفة. ولهذا تبعثرت الامكانات بشكل يشبه التبعثر الفرنسي في عام ١٩٤٠ ، وصارت الألوية المدرعة تستنزف جهودها في عمليات متفرقة جزئية . ولم تشترك المدرعات الالمانية في عام ١٩٤٣ الا بعمليتين مدرعتين هامتين هما : عملية كورسك في يوليو (تموز) واشترك فيها ٤٠٠٠ دبابة . وعجزت



معركة ٢٢-٦-١٩٤٤ حتى ١-٨-١٩٤٤

المدرعات الألمانية خلالها عن خرق موقع دفاعي عميق ومحصن منذ أشهر . وعملية جيتومير في نوفمبر (تشرين ثاني) واشترك فيها ١٫٨٠٠ دبابة . ولقد دفعت هذه العملية الروس مسافة ٥٠ كم ، ثم توقفت . وتابعت القوات السوفيتية تقدمها ، الا أن قطعات البانزر استطاعت رغم عدم تفوقها الصمود لمدة عام تقريباً امام جميع محاولات الروس للقيام بالمطاردة واستثمار النصر بصورة حاسمة .

وتمسك الانكليز بمخطط العلمين ، وكانوا يتميزون باختيار اتجاهات المطاردة واستثمار النصر . ولم تكن مدرعاتهم « تبحث عن العدو » بل تبحث عن اهداف العمل غير المباشر القادرة على تحقيق التفتيت المادي والمعنوي عند العدو .

وحافظ الروس على اسلوبهم الحذر في الخرق مع اعتمادهم على رمايات المدفعية المكثفة (مدفعين في كل متر ـــ ٤٠ طناً من الذخيرة في كل كيلومتر ـــ ساعة) بالاضافة الى استخدام مدافع الانقضاض بالتعاون مع الدبابات على نطاق واسع خلال الهجوم نفسه . وكان لاسلوبهم في استثمار النصر صفات خاصة ، ولم تعد الويتهم المدرعة تكتفي بتحقيق الكماشة بل صارت تعتبر نقطة التقاء الكماشة الواقعة خلف خطوط العدو عبارة عن نقطة انطلاق لهجمات جديدة متباعدة . وهذا ما دعي باسم « حرف x لكونييف » (انظر المخطط في الصفحة ٤١٢) .

وكانت اساليب الفرنسيين والامريكيين بعد الانزال في النورماندي مشابهة لذلك . ولقد بدأ خرق أفرانش في يوليو (تموز) ١٩٤٤ بقصف جوي كبير دام يومين . وانطلق الهجوم بعد ذلك بفرق المشاة ، ثم قامت الفرق المدرعة بعد ١٢ ساعة باستثمار النصر . وعندما خرق الجيش الفرنسي الأول صفوف الالمان في بيلفورت (الألزاس) ، لم تتحرك الفرق المدرعة الا بعد تحرك المشاة بمدة ٢٤ ساعة ، كما أنها لم تبدأ هجومها المستقل الا بعد ثلاثة أيام من بداية الهجوم العام . وبالاضافة الى ذلك ، قامت قيادة الحلفاء عند عبور الرين في معركة الالزاس بتقسيم فرقتين مدرعتين لتوزيع جمهراتها المدرعة على فرق المشاة بصورة دائمة . وشوهدت حالات عديدة كانت الدبابات موزعة فيها الى فصائل تعمل داخل صفوف المشاة ، وهذا ما يذكرنا بمهمة المرافقة المطبقة في عام ١٩١٨ . بيد أن فرق الحلفاء المدرعة كانت تجد بعد الخرق كل « زخم » الاندفاع الذي عرفته فرق البانزر في عام ١٩٤٠ . وكانت تنطلق بسرعة لتنتشر وتضرب العدو من الخلف ، وتسبقه الى المواقع الحساسة الهامة . ولقد تم هذا الامر في مناورة جبال الفوج ،

والسباق نحو ستراسبورغ من قبل الفرقة المدرعة الثانية .

فاذا ما اخذنا الأمور بظواهرها وجدنا أن هناك ما يدعونا الى الاعتقاد بأن اساليب القتال لم تتغير منذ مايو (أيار) ١٩٤٠ حتى نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٤٤ ، وان هناك تشابهاً بين خرق فيلق البانزر ١٩ لدفاعات الفرنسيين في سيدان وخرق الفرقة الحليفة المدرعة الثانية لدفاعات الالمان بين بلامونت وبادونفيللر . اذ تم تحقيق كلا الخرقين بكل سهولة بفضل قطعات مدرعة كبرى هاجمت « نطاقات » دفاعية سيئة الاعداد . وتلا الخرق في الحالتين مطاردة تبعت العدو « على اعقابه » . علماً بأن المهمة الأساسية خلال الانقضاض الاولي كانت تقع على عاتق المشاة على حين قدمت الدبابات الدعم بنيرانها البعيدة . والحقيقة ان تشابه الحالتين المذكورتين في الموقف والنتائج يخفي وراءه اختلافاً في العقيدة والنوايا . اذ أن فيلق البانزر ١٩ كان يعتقد عندما تحرك باتجاه سيدان ان عليه اختراق موقع محصن تدافع عنه قوات جيدة . وان بوسعه رغم ذلك القيام بجميع مراحل المعركة دون توقف أو اضاعة للوقت . أما الفرقة المدرعة الثانية فقد خرقت الدفاع وهي تعلم علم اليقين بأنه مؤلف من ستارة ضعيفة لا تحتاج في خرقها لوسائط قوية تشابه الوسائط التي استخدمت في خرق افرانش .

ومنذ عام ١٩٤٦ اخذت الكتابات والنظم العسكرية تشرح طبيعة التطور الذي لحق بأساليب القتال . وتؤكد الدروس المستنبطة من تجارب الحرب العالمية الثانية . ولقد جاء في « المذكرة التوجيهية حول تعليم واستخدام القطعات المدرعة » فقرات ذكرتها « تعليمات استخدام القطعات الكبرى » منذ عام ١٩٣٦ ، ووجه اليها النقد بعد الهزيمة في عام ١٩٤٠ . وتذكر هذه التعليمات ما يلي « ... ولا تقوم الدبابة الا باشغال المواقع التي يتم الاستيلاء عليها مسبقاً بفضل رمايات كثيفة تقوم بها المدفعية والطيران ... وجاء تعميم استخدام الاسلحة الفردية الخفيفة المضادة للدبابات وسط القطعات المدافعة ليمنع المهاجم من استخدام الدبابات منعزلة دون مشاة . وغدا استخدام مشاة مختصة مرتبطة بالدبابات ، ومجهزة بوسائط تدمير قريبة فعالة امراً حيوياً لا غنى عنه لتأمين حماية القطعات المدرعة ... » .

وهكذا أيدت النتائج والاستنتاجات رأي اتباع النظرية الموضوعة انطلاقاً من معضلة عام ١٩١٦ . واحتفظ السلاح المدرع بكل فضائله وامكاناته الاستراتيجية ، ولكنه فقد كثيراً من قدراته التكتيكية التي أثبتها من قبل .

الفصل الثلاثون

نحو الامبراطورية الذرية

ان ادارة الحرب امر هام يتعلق بعمل منظم لا يمكن تحقيقه في حالة الفوضى .

ونستون تشرشل

على السياسة في عصر القنبلة الهيدروجينية ان لا تهتم بالأهداف فحسب ، وأن توسع مجال اهتمامها ليشمل حقل العمليات . ان من واجبها ان توجه تخطيط الدفاع وانشاء العقيدة الحربية .

ليدل هارت.

في ٦ أغسطس (آب) ١٩٤٥ القى الحلفاء أول قنبلة ذرية على هيروشيما ، فسبب ذلك قتل وجرح ١٥٠,٠٠٠ انسان . ولم تكن هذه العملية تستهدف سوى دب الرعب في قلب الشعب الياباني . وفي يوم ٩ ألقيت قنبلة اخرى على ناغازاكي فمحتها من الوجود . وادعى الحلفاء انهم قصفوا هذه المدينة لانها ورشة بحرية هامة ومركز صناعي ومرفأ حربي . وأدى هذا القصف الى فتح جدل سياسي وتقني ومعنوي واسع النطاق لم ينته حتى اليوم . ولقد أدت عملية القصف الذري في حد ذاتها الى الدخول في مجال الاساليب الجديدة أو المجددة والخاصة بعنف وامتداد وفاعلية الحروب الثورية والنفسية . وهي صفات تطرقت اليها محكمة نورمبورغ من قبل .

ولقد جاءت القنبلة الذرية لتطرح معضلات عويصة ذات صفات تكنولوجية

وعسكرية . فاذا فكرنا بهذه المعضلات وجدنا أن النتائج التي حققتها قنبلة هي ... ما كانت نتائج مقصودة لاصُدفية . اذ أن القنبلة الذرية كانت وسيلة مثالية لإ... المدنيين . وليس هناك وسيلة للحماية من تأثيراتها سوى التبعثر ، والذوبان ، واللجوء الى الملاجىء المطمورة ، وبناء التحصينات الكثيفة ، واستخدام اساليب الوقاية الفردية أو الجماعية . وكلها عبارة عن وسائل كثيرة التكاليف تتطلب مالاً وفيراً ولا تستخدم الاّ خلال فترة محدودة . وهذا ما يجعلها وسائل خاصة بمراكز القيادة السياسية — العسكرية ، والوسائط الادارية والاقتصادية الهامة ، ووسائط القتال . أما السكان المدنيون ، ومعظم الصناعات ، ومجمل وسائط النقل ، والزراعة فليس أمامها الاّ أن تتعرض للضربة الذرية دون أن يكون هناك أي أمل بحمايتها بصورة فعالة . ولقد كان هذا صحيحاً عندما كانت القنبلة الذرية تنقل بطائرات يصل مداها الى ۱۰,۰۰۰ كم . ثم تأكدت صحته عندما ظهرت القنبلة الهيدروجينية بمختلف انواعها ، وقدمت سلاحاً ذا قدرة تدميرية غير محدودة ، تستطيع الصواريخ حمله الى مسافة تعادل ۱٥,۰۰۰ — ۲۰,۰۰۰ كم خلال ۳۰ دقيقة[1] .

وفي خلال الحرب العالمية الثانية قتل القصف الجوي ، والحرب الثورية ، والابادة الجماعية لاصحاب الايديولوجيات المناوئة عدداً من المدنيين يفوق عدد العسكريين (قتل في فرنسا ٤۰۰,۰۰۰ مدني مقابل ۲۰۰,۰۰۰ عسكري ، وفي يوغوسلافيا ۱,٤۰۰,۰۰۰ مدني مقابل ۳۰۰,۰۰۰ عسكري) ولقد قتل في مجموع البلاد التي تعرضت للحرب وكان فيها احصاء دقيق ۱۸ مليون مدني مقابل ۱۲ مليون من العسكريين . وتعطي توقعات المستقبل واحصاءاته صورة أشد قتامة . ويمكننا تقدير خطورة الموقف من النتائج التالية :

— دلت تجارب الحرب التقليدية على أن كل قتيل يسقط في صفوف المقاتلين يسقط الى جواره ۳ — ٤ جرحى .

— قد ترتفع هذه النسبة في الحروب الذرية فتصبح قتيلاً مقابل كل جريحين من المقاتلين ، وقتيلين ونصفاً من المدنيين مقابل كل جريح .

وفي مثل هذه الظروف يكون الدعم الذي يستطيع الشعب تقديمه محدوداً للغاية ،

---

(۱) كانت أقوى القنابل التقليدية في الحرب العالمية الثانية تحتوي على ۱۰ أطنان من المتفجرات . أما قنابة هيروشيما فقد كانت قوتها تعادل قوة ۲۰,۰۰۰ طن من المتفجرات ، على حين تعادل قوة القنابل الهيدروجينية قوة ۱۰ ملايين الى ۱۰۰ مليون طن .

وتصاب الجماهير العزلاء بخسائر كبيرة . فاذا ما تقدم الخصم واجتاح البلاد أصبح الشعب المدني رهينة بيد العدو وترساً يحميه ، لان وجود هذا الشعب يقلل قدرة الجيش على الرد الذري . وتغدو قدرة البلاد الاقتصادية اداة بيد العدو تعمل في خدمته . ونحن نعرف أن هناك أوضاعاً يرمي فيها القائد بصورة اضطرارية على المواقع الصديقة بعد أن يحتلها العدو ، ولكن مثل هذا العمل في العصر الذري يعني **أن العسكريين في كلا المعسكرين يعملون لابادة المدنيين تحت ضرباتهم بغية تأمين مناوراتهم التكتيكية** ، خاصة وأن من الصعب اصابة هدف عسكري محدد بضربة ذرية مباشرة ، على حين أن ضرب المدنيين يعني المجزرة في كل مرة . وهكذا يكون خلق الجيوش الذرية التي تزداد تكاليفها يوماً بعد يوم ، عبارة عن اجبار المواطن العادي على دفع المال لتأمين موته بشكل محقق .

ولقد فكر العسكريون والمدنيون في بادئ الأمر بان الحرب الذرية الشاملة مستحيلة الوقوع . ثم فكروا باستخدام قذائف محدودة التأثير نظراً لانها صغيرة (بحدود ١٠٠٠ طن فقط) ، أو نظيفة ليس لها سوى تأثيرات الصدمة والحرارة ، أو مشعة (قنابل النوترون) التي تنقص فيها تأثيرات الصدمة والحرارة ولكنها تستطيع قتل البشر بفضل ما تنشره من اشعاعات . وتصلح القنابل الأولى (الصغيرة والنظيفة) للعمليات في حقول المعارك ، على حين تصلح الثانية للعمليات الاستراتيجية اللازمة لقتل قوة العدو البشرية دون التأثير على مصادره الاقتصادية المبتغاة . كل هذا يعني أن المدنيين مدعوون لدفع الثمن حتى في حالة استخدام القنابل الجديدة .

ولا تكفي هذه الاحتياطات لالغاء أخطار حرب ذرية شاملة . ويتذكر الروس جيداً كيف سبب لهم الهجوم الألماني في عام ١٩٤١ خسائر ذات حجم شبه ذري ، وكانت عبارة عن مقتل وجرح وأسر ٤ ملايين رجل وخروج ثلثي الدبابات والطائرات خارج المعركة ، وتدمير ٩٥ ٪ من الصناعة الحربية المختصة (الذخيرة بصورة محددة) و ٦٠ ٪ من مصادر الفحم والحديد والألمنيوم و ٤٠ ٪ من السكان وقدرتهم الانتاجية أو وقوعها تحت سيطرة العدو . ومع هذا عاش الاتحاد السوفياتي وصمد لينتصر بعد ذلك . وتعتبر الدول الكبرى كالاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية ان اية دولة صغيرة محدودة الارض ، وذات اقتصاد مركز قليل الاعداد معرضة للسقوط بسهولة في المرحلة الحرجة للحرب الذرية . ولكن لا يمكن لهذه المرحلة أن تكون حاسمة أو أن تضع حداً للحرب بالنسبة للدول الكبرى .

ويرى خبراء البنتاغون ان تبادل القصف النووي بين الاتحاد السوفييتي ودول حلف

الأطلسي سيؤدي الى سقوطِ ٣٠٠ مليون قتيل خلال ٦٠ دقيقة . ومع هذا فسيحتفظ السوفييت بعد القصف المتبادل بقوة قادرة على اجتياح اوروبا وآسيا والسيطرة عليهما . كما أن تدمير معظم المراكز الحيوية الروسية وتلويث الأرض السوفييتية بالاشعاعات الذرية سيجبر السوفييت على أن يندفعوا بلا انتظار نحو المناطق غير الملوثة من العالم ، ونحو أوروبا بصورة خاصة اذا لم تكن اوروبا قد تعرضت للقصف الذري . وهنا لا يمكننا أن ننسى بأن زعماء الصين صرحوا أكثر من مرة بأن بلادهم مستعدة لتحمل خسارة ٣٠٠ مليون قتيل مقابل الحفاظ على حياة ٣٠٠ مليون آخرين قادرين على السيطرة على عدوهم بعد أن يُفقده القصف الذري الجزء الأكبر من امكاناته البشرية . وتدلنا هذه الأمثلة على أن وجود الردع الحاسم أمر غير مؤكد ، وان توازن الخوف لا يزال ناقصاً .

أما الحروب الذرية المحدودة فهي تشكل بداية انطلاق صراع يتعذر علينا تحديد تأثيراته أو توقعها . فقد تصل هذه الحروب المحدودة الى الحرب الشاملة عبر ضربة محدودة ورد يليه رد معاكس . وقد تؤدي الحروب المحدودة الى تدمير قياداتِ الخصم أو شلها ، ووضع ادارة الوسائط الذرية الحاسمة في أيدي سلطات صغيرة غير مسؤولة ولا تتمتع بالوعي الاستراتيجي الكافي ، ويحتمل أن تلجأ هذه السلطات وسط جو الشك والخوف الى تطبيق تعليمات الحرب الشاملة بلا مبرر .

ويتمثل الاحتمال الوحيد لتحاشي الكارثة باقتناع الخصمين بخطورة الانتصارات غير المجدية . تلك الانتصارات التي تدمر الاهداف العسكرية وتدمر معها كل ما يمكن الاستفادة منه بعد النصر لدرجة تجعل هذه الانتصارات تفقد كل معناها العسكري . وهكذا نجد اليوم أنفسنا في وضع يقلب الفكرة التي تحدث عنها لودندروف في عام ١٩١٨ . اذ يجبرنا هذا الوضع على أن نقول : **ان على الاستراتيجية ان لا تبحث عن الاهداف التكتيكية التي يصبح الوصول اليها عديم الجدوى اذا كان النجاح الاستراتيجي النهائي متعذراً .**

ومما لا شك فيه اننا لا نستطيع اعتبار الافناء المتبادل نجاحاً استراتيجياً ، كما أن افناء الخصم وحده لا يمثل نجاحاً كبيراً ما دامت الضربة الذرية قادرة على حرمان المنتصر من جميع ثمار النجاح . اننا اليوم بعيدون عن تعاليم كلاوزفيتز اكثر من أي وقت مضى . فنحن نبغي الآن الوصول الى اغراضنا بصورة استراتيجية مع الابتعاد عن الأعمال التكتيكية الحاسمة . اننا نسعى الى ربح الحرب دون شنها ... ولقد سببت نهاية التفوق الامريكي النووي بعثاً مفاجئاً لأهمية الوسائط التقليدية . ومما لا شك فيه ان الحصول على

الوسائط النووية بغية الردع أمر غير كاف ، ومن الضروري السعي الحثيث لايجاد السبيل الذي يجعلنا لا نضطر الى استخدامها . وهذه حالة عرفها العالم من قبل بالنسبة لغازات القتال الخانقة .

ولقد اخذت نظريتا وولفير وكيسينجر هذه الاستنتاجات بعين الاعتبار وحددت النقطتين التاليتين :

- ينبغي اجراء فصل كامل بين الأسلحة الذرية والأسلحة التقليدية حتى لا تضيع مسؤوليات الاستخدام .
- ان من المستحيل استخدام الرد الذري الآني الكثيف في جميع الظروف بلا استثناء . وهذا ما يدفع الى تبني مفهوم « الردع المتدرج » بدلاً من « الردع الشامل » في حالة الحفاظ على السلم ، ومفهوم « الرد المرن » بدلاً من « الرد الكثيف » عند اندلاع الحرب . وبهذا يتم تحاشي التعرض للمعضلة الأزلية «كل شيء أو لا شيء».

وهذا ما يعني انه لم يعد من الممكن بناء حيطة منطقة جغرافية بفضل التهديد بالانتقام الذري الشامل وحده . بل أن هناك مناطق متميزة ذات أهمية خاصة تجعل هذا الانتقام اكثر احتمالاً من أي انتقام آخر .

كما أنه يعني بأن على الرد ان يكون متناسباً مع الخطر والهدف في كل حالة من الحالات ، بغية ايقاف الميل الى التصعيد نحو التبادل الذري الشامل .

وهكذا سادت فكرة تحديد الصراعات ان امكن ضمن أشكال أقل خطورة من الحرب الذرية الشاملة ، وتخفيض التبادل الذري للوصول به الى الحد الأدنى . وأدت هذه الفكرة الى ظهور ميلين استراتيجيين غربيين هما :

- ميل البلاد « الجزيرية » التي لا تخشى الهجمات البرية التقليدية كثيراً .
- ميل البلاد « القارية » التي لا تملك قوة تقليدية كافية وتخشى التعرض لآثار الهجمات التقليدية . ولا تستطيع مع ذلك التأكد من أن دعماً تكتيكياً ذرياً قادر على تعديل ضعفها التقليدي اذا كان الحصم حائزاً على التعادل التكتيكي الذري على الأقل .

ولقد أوجد هذان الميلان النظريتين التاليتين :

- تلح البلاد « الجزيرية » أو « البحرية » المالكة لوسائط ذرية الحاحاً مستمراً على حلفائها « القاريين » ليبذلوا في مجال التسليح التقليدي جهداً يعادل الجهد الذي بذلته في مجال التسليح الذري . **وهذه هي نظرية الأعباء المتكاملة .**

– يحاول الحلفاء « القاريون » الحصول على مخطط استراتيجي يهتم بمصالحهم ، ويطالبون بتوزيع القيادات بشكل ملائم ، ويلحون على ضرورة القيام بمراقبة جزئية للوسائط الذرية الموجودة فوق اراضيهم **وهذه هي نظرية المسؤوليات المتكاملة .**

ومهما يكن من أمر فان الاستراتيجية المعاصرة ترتبط مع السياسة اكثر من أي وقت مضى . وعلى السياسة ان تراقب العمليات في أيام الحرب وأن تتدخل منذ زمن السلم في تحديد العقيدة العسكرية . وهذا ما يؤكد بطلان معنى جملة كليمانصو الشهيرة[1] التي لا بد من تعديلها على الشكل التالي : « ان الاعداد للحرب أمر كثير الجدية بشكل لا يسمح لنا بأن نتركه للعسكريين وحدهم . وعلى رجال الدولة ومستشاريهم السياسيين أن يملكوا معرفة عميقة بفنون القتال ، كما أن على العسكريين أن يخضعوا الى نواياهم بشكل دقيق جداً » .

وتأخذ الاستراتيجية المعاصرة شكلاً تركيبيا لم تعرفه من قبل . لقد اهتمت من قبل بالعقد والخطوط الهامة التي اخذت مع الزمن شكلاً عالمياً ، ورسمت مخططاتها بناء على هذه العقد والخطوط ، ثم أحست بالأهمية البالغة لهذه النقاط فاندفعت الى تبني نظريات هيلفورد وماكيندر وسبيكمان حول الجغرافيا السياسية (الجيوبوليتيك) التي ظهرت منذ عام ١٩٠٤ حتى عام ١٩٤٣ ، وأكدت على أن التقنية المعاصرة لوسائط النقل قادرة على اعطاء البلاد « القارية » تفوقاً على البلاد « البحرية » عندما تستطيع الأولى القيام بالعمل بعيداً عن متناول الثانية ، ويكون تحت تصرفها منابع واسعة قابلة للاستخدام ، ويكون وضعها مساعداً على جمع مزايا الموقع المركزي والخطوط الداخلية . ونجم عن ذلك تقسيم دول العالم الى ثلاث مناطق وهي : العالم القاري والعالم الجزيري أو البحري والعالم الساحلي .

ويستنتج المنظّرون وجود تنافس حتمي بين العالمين القاري والبحري مع تفوق الأول على الثاني . ولقد اضاف سبيكمان الى ذلك أن الصفة البرمائية الخاصة بالعالم الساحلي ، والتي تعرضه لان يدافع ضد هجمات العالمين الآخرين بآن واحد هي أصل معضلات الأمن . واستنتج من ذلك : **أن من يسيطر على العالم الساحلي يسيطر على أوروبا وآسيا ، ويقبض بالتالي على زمام مصائر الأمم** . ويمكن اعتبار هذا القول أقوى وأوجز ما قيل في الاستراتيجية العالمية .

---

(١) الجملة الشهيرة مذكورة في الصفحة ١١٣ .

ولم يأخذ سبيكمان بعين الاعتبار الحقائق الذرية المعاصرة التي تسمح للخصمين الكبيرين بأن يشتبكا ويدمرا بعضهما بعضاً عبر محور القطب دون أن يتنازعا على العالم الساحلي . ولم يكن بوسعه أن يتصور القدرة البحرية السوفيتية الحالية بحجمها الكبير المتزايد . ومع هذا فان جميع الاعتبارات الجديدة تحتفظ للعالم الساحلي بأهميته الكبيرة على اعتباره هدفاً من أهداف الرهان . ويرى العالم البحري الممثل بالولايات المتحدة الامريكية أن السواحل الأوروبية والآسيوية تشكل تغطية للعالم القاري الروسي . وتراقب الطريق الحر نحو البحار . ويشكل العالم الساحلي بالنسبة للسوفييت والامريكيين قوة اقتصادية وتقنية وفكرية لا يستهان به. وهذا ما يجعل استنتاج سبيكمان صالحاً رغم تبدل الظروف.

ويتمثل الشكل الآخر للاستراتيجية العالمية في اختيار « الحروب البديلة » ما دامت الحرب الذرية الشاملة مرفوضة نظراً لانها تؤدي الى آثار تخالف المبادئ الاستراتيجية . ولدينا في صدد الحروب البديلة ثلاثة احتمالات :

- **الحرب الذرية المحدودة** التي تحتفظ بالاسلحة النووية لاستخدامها في حقل المعركة كما يقول البعض ، أو ضد الأهداف العسكرية كما يقول البعض الآخر . ولكن كيف يمكن تعريف وتحديد هذه الاهداف ؟ ان هذا سؤال تصعب الاجابة عليه ، كما أن الحرب الذرية المحدودة قد تنقلب الى حرب شاملة تؤدي الى الشلل ، لان كل تفوق حاسم بالنار يقتل الحركة .
- **الحرب التقليدية** التي تستبعد الاسلحة الذرية . ولكن كيف يستطيع شعب لا يملك التفوق بالاسلحة التقليدية ولا يستطيع تحقيق « المفاجآت غير الذرية » ان يغامر بالدخول في مثل هذه الحرب دون أن يؤدي دخوله الى الانتحار أو الاستسلام دون قيد أو شرط ؟ واذا نظرنا الى الموضوع من الناحية العملية وجدنا أن من المستحيل الحفاظ على الأشكال التقليدية للاستراتيجية والتكتيك الا في حالة وجود ضمان مطلق بعدم استخدام الاسلحة الذرية من قبل الطرفين . ولكن الوصول الى هذا الضمان أمر متعذر . ويكفي مجرد احتمال استخدام الوسائط الذرية الى دفع الاستراتيجية والتكتيك نحو الانماط الحديثة الملائمة . كما يكفي ان يقوم احد الطرفين ، حتى ولو لم يكن يملك الوسائط الذرية ، باقناع خصمه بأنه قادر على استخدامها في ظرف من الظروف حتى ينقلب شكل الحرب انقلاباً كلياً[1] .

---

(١) وهذا هو السبب الذي يجعل من المتعذر تمييز الحرب الذرية عن الحرب تحت التهديد باستخدام الاسلحة الذرية . فهما متشابهتان من ناحية الاشكال التي يفرضها احتمال وقوع الضربة في الحالة الثانية .

– **الحرب الثورية** ذات الامتدادات التقليدية ، وهي حروب تبادلية من ناحية الشكل والاعداء المتحاربين أيضاً . اذ يتم القتال فيها بين شعبين لا بين جيشين . وقد يكون استخدام الشعب كله من طرف واحد أو من الطرفين معاً . والحرب الثورية هي الحل الوحيد ، من بين الحلول الثلاثة ، الذي طبق حتى الآن في كوريا وفيتنام والجزائر ولاووس وكوبا .

وتبين هذه الحلول المختلفة واحتمالاتها بأن الاشكال التكتيكية والاستراتيجية التقليدية التي استخدمت من قبل في الحروب « قبل الذرية » هي اشكال زال أوانها . بيد أن جميع الحلول والحالات تؤكد على ضرورة الحفاظ على القوات التقليدية ، وعدم انقاص عددها ، والاكتفاء بملاءمتها مع الظروف الجديدة . وهذا ما دفع السوفييت لان يقولوا : « اننا نرى بأن الحرب المقبلة ستختلف عن الحروب الماضية اختلافاً كلياً . ولا تستند الاستراتيجية السوفييتية على المبادئ المطروحة من قبل كلاوزفيتز وليبروفوش وغيرهم من الاستراتيجيين . ولكنها تعتمد على دراسة الظروف الحالية . ونحن نؤمن بأن وسائط الدمار الجماعي لا يمكن أن تبدل قيمة الجيوش البرية والبحرية والجوية التي يتعذر على أي بلد من البلاد الدخول في حرب حديثة دون الاعتماد عليها . » .

ومهما يكن من امر فان الهدف الاول للاستراتيجية المعاصرة هو « الردع » ولكن كيف يتم الوصول الى ذلك ؟؟؟

ان بوسعنا تحقيق الردع باقناع الخصم بأن الهجوم الذري الشامل المفاجئ عاجز عن منع الرد الفعال المدمر بفضل قواعد **الرد الثابتة** المتعددة المبعثرة المطمورة ، أو **وسائط الرد المتحركة** المستنفرة بصورة دائمة والعاملة في مكان يصعب تحديده (استراتيجية الطائرات المحلقة في الجو باستمرار – الغواصات الذرية المزودة بصواريخ بولاريس – القطارات المدرعة) .

ويمكن تحقيق الصمود والردع رغم انعدام التفوق بالوسائط التقليدية وذلك عن طريق تحضير الأرض واعدادها بشكل واسع عميق بسيط متطور تستطيع اليد العاملة المدنية تحقيقه بسرعة . اذ يؤدي تحضير الأرض الى تفتيت الخصم الذي يود اجتيازها مادياً ومعنوياً ، ويجعله في نهاية المطاف حساساً امام الصدمات نظراً لتعرضه الى الاهتراء والصعوبات الادارية الناجمة عن تقدمه بعيداً عن قواعده .

ويستطيع الحل الأول (قواعد الرد الثابتة أو المتحركة) الغاء الحرب الذرية الشاملة ،

على حين يستطيع الحل الثاني (تحضير الأرض) الغاء الحرب الذرية المحدودة . ومن الضروري زواج هذين الحلين اذا لم نكن نبغي أخذ المبادهة والقيام بالضربة الذرية الأولى، حتى ولو كانت ضربة تكتيكية ، ولكننا نود مع ذلك ردع العدو .

ومن الضروري أن يكون الجهاز العسكري المختار متعدد الاشكال قادراً على التطور ومجابهة الاحتمالات الثلاثة التالية الممكنة وهي الحرب التقليدية ، والحروب الذرية على مختلف اشكالها ، والحرب الثورية . دون ان يكون ذلك سبباً في اجراء تعديل جذري على تكوين الجهاز العسكري الأساسي .

ويتطلب هذا الأمر تحديد تكتيك متعدد الأشكال ويتلاءم مع الفرضيات الثلاث المذكورة آنفاً .

ويفهم التكتيك الذري بشكلين هما : المناورة بأنساق رقيقة ، والمناورة بتشكيلة مفتوحة . أما الحروب الثورية الماضية فلم تعرف سوى تكتيك التربيع المفتوح (من الفصل ١٥ حتى الفصل ١٧) . ولقد اختارت الدول الغربية التشكيلة المفتوحة لاسباب تتعلق بالاقتصاد بالقوى (قوات تقليدية غير كافية) كما تتعلق بالحيطة الذرية (فرجة حيطة لا تسمح الا بتدمير عنصر واحد من التشكيلة بضربة ذرية واحدة) . على حين فضل السوفييت تشكيلة الانساق الرقيقة . وسنرى فيما بعد مميزات التشكيلتين وفاعليتهما .

وتخضع المناورة الذرية الى نتائج الاجابة على السؤالين التاليين :

١ ــ كيف يمكن أن ندفع العدو الى أخذ مواقف تجعل الضربة الذرية مؤثرة تماماً ؟ وهذا هو « الاقتصاد بالقوى » .

٢ ــ كيف يمكن تحاشي الضربة الذرية دون أن يؤثر ذلك على الفاعلية الهجومية أو الدفاعية لتشكيلنا ؟ وهذا هو « الحيطة الذرية » .

وسنحاول فيما يلي الرد على هذين السؤالين :

١ ــ الاقتصاد بالقوى

للاجابة على السؤال الأول لا بد لنا من افتراض التصرف الذي سيقوم به الخصم . على اعتبار انه يتساوى معنا من الناحية الذرية ويتفوق علينا في مجال الاسلحة التقليدية ، مع التأكيد على تفوق الفاعلية عنده على الاعتبارات الأخلاقية .

فاذا ما سارت عملية الردع بصورة عادية ، وحاول العدو استغلال تفوقه التقليدي

كان اجباره على خوض حرب ذرية يعني خسارته لكل ما يتميز به من تفوق . وعندها لا بد له من أن يلجأ الى التشكيلة المفتوحة لا تحت تأثير نقص عدد القطعات بل تحت تأثير متطلبات الأمن . أما اذا بقي الصراع تقليدياً ، فان بوسعه تحقيق الجبهة المستمرة بكل سهولة اذا وجد ذلك ملائماً له . ومهما تكن نتيجة الصراع فان الخصم سيعمد الى استخدام التشكيلات القادرة على اضعاف تأثير الضربات الذرية حتى الحد الأدنى ، واستغلال مميزات الوسائط التقليدية الى أبعد الحدود . ويمكن اختصار كل ذلك في مبدأ واحد هو : **السعي لتحقيق التماس مع العدو وعدم اجراء تجمعات معرضة لضربة ذرية الا بعد تحقيق هذا التماس ، الأمر الذي يمنع العدو من استخدام سلاحه الذري عسكرياً ، ويخلق لديه معضلة معنوية لا حل لها** . وهكذا فان العقيدة العسكرية الجيدة هي العقيدة التي تطالب بالهجوم الأولي على أوسع نطاق . وينجم عن هذه الفكرة ثلاث نتائج هي :

أ- في حقل المعركة : ينبغي استخدام التسلل والتطويق القصير بتشكيلات مبعثرة ، مع تحديد « المواقع المليئة » والابتعاد عن « الفراغات » عند تنفيذ المناورة .

وقد تكون الفراغات في الحقيقة « مناطق قتل » تركها العدو بين عناصره الدفاعية لكي يتمكن من استخدام وسائطه الذرية . وقد تكون الفراغات عبارة عن مناطق تم فيها سحق الخصم تحت ضربة ذرية فعالة . وفي هذه الحالة يعمد الخصم الى ضربها بلا تردد اذا ما احتلتها قوات المهاجم بشكل كثيف .

فاذا لم يعمد المهاجم الى الضرب في أقوى الأماكن مع استغلال تفوقه التقليدي ، فان عليه أن يقوم بالمناورة قريباً من خطوط المدافع بحيث يحقق معه تشابكاً يمنع الرد الذري . فاذا ضرب المدافع منطقة ما بالسلاح النووي كان المهاجم قادراً على اجتياز المنطقة الملوثة ، ولكن عليه أن لا يحتلها للمكوث فيها . ويمكن للقطعات اجراء المناورة دون احترام هذه المبادى شريطة الاستفادة من السرية والصمت وسرعة الحركة ، والا تعرضت لضربة ذرية ساحقة .

ب- خارج حقل المعركة : يمكن استخدام نظام الرهائن ، وذلك بالعمل في مناطق معادية تتميز بكثافة السكان وأهمية الأهداف الاقتصادية . ولكن هذا لا يعني أن نتجاهل كلية ضرورة الاستفادة من المناطق الصديقة المأهولة بالسكان أو الغنية اقتصادياً ، لان العدو يرغب باستثمار القدرات البشرية والاقتصادية لهذه المناطق . وهذا ما قد يجعله يحجم عن ضربها بوحشية أو ضربنا ونحن نعمل عليها ... وقد يكون احجامه في بعض الاحيان

ناجماً عن اعتبارات فكرية أو خلقية (؟) .

جـ ــ فاذا لم يتم تحقيق ذلك ، أمكن استخدام التفوق التقليدي بشكل يمنع التحديد الدقيق للتشكيلة الحقيقية ومواقع القوات . وفي مثل هذه الحالة يضطر الخصم الى الوقوف موقف المتفرج نظراً لانعدام الوسائط التقليدية ، أو أن يقوم بهجمات ذرية واسعة وعميقة ضد اهداف محددة مسبقاً ، وهذا ما يتطلب امكانيات نووية كبيرة ، ويفتح « الدائرة الرهيبة » للرد والرد المعاكس النوويين .

ويمكننا أن نتساءل ضمن هذا الاطار كيف تستطيع التشكيلة التي تبناها الغرب أن تحافظ على معنى « الاقتصاد بالقوى » اذا رفض العدو الاندفاع داخل الفُرج التكتيكية والاستراتيجية التي ينبغي على القنابل الذرية سدها والرد على ذلك هو ان هذه التشكيلة قادرة على ذلك عندما تأخذ شكلاً ثابتاً ، ذلك لان « المواقع المليئة » تشكل أقطاب جذب . ولكنها لن تصبح كذلك الا اذا كان العدو عاجزاً عن أن يدمرها ذرياً بعيداً عن التماس مع وسائطه التقليدية . ويمكن أن تلعب أساليب التمويه والخداع في هذا المضمار دوراً فعالاً . (مواقع خداعية كاذبة ــ مراكز مقاومة ضائعة وسط شبكة مستمرة من التحصينات غير الكاملة) ولكن هذه الاساليب تبقى غير كافية ، اذ يصل الخصم في النهاية الى تحديد نقاط القوة في الترتيب الدفاعي الا اذا كان بوسع المدافع خلق جبهة قادرة على ايهامه بانها قوية في كل مكان . وهذا ما يوصلنا الى التشكيلة المستمرة والخطوط المتصلة التي عرفناها من قبل . ولكي تبقى القطعات سليمة رغم الضربة النووية لا بد لها من تبني الشكل الشطرنجي للتشكيلة المفتوحة . على أن تغطي هذا الشكل **ستارة حيطة** قوية متصلة ، وقادرة على الانسحاب نحو الفُرج مع الاستناد الى مراكز المقاومة . **بحيث تُبقي العدو عاجزاً عن تحديد مكان النقاط القوية أطول مدة ممكنة .**

ويصح هذا القول أيضاً بالنسبة للهجوم الا اذا اهمل المدافع تدابير الأمن ، أو كانت لدى المهاجم قدرة كبيرة على جمع المعلومات . أما في الحالات العادية الاخرى فان المهاجم مضطر الى استطلاع منطقة هجومه لتحديد النقاط القوية وسبر غورها وعجم عودها ، مع التمييز بين « الاشتباكات الأولية » والهجوم العام .

وفي حالة كهذه يظهر أمامنا السؤال التالي : **ما هي الظروف** التي تدفع العدو الى الى اجراء تجمع يمكن ضربه بالسلاح الذري ؟

أ ــ في الدفاع :

١ ــ **اعداد الأرض** بشكل تخلق معه ممرات متلاقية ونقاط مرور اجبارية وسط حواجز مستمرة .

٢ ــ **الاشتباكات المحلية** التي يضطر العدو خلالها الى التجمع . ويمكن تطبيق هذه الاشتباكات في كل الحالات الا عندما يؤدي تلاقي محاور الاشتباك الى تحقيق تجمع القوات المهاجمة مع التماس بآن واحد .

٣ ــ **مناورات الانسحاب الدفاعية** الهادفة الى جذب تجمع معاد نحو منطقة فراغ .

فاذا أمعنا النظر في هذه النقطة الاخيرة وجدنا أن فراغات التشكيلة الأولية لاتشكل بالضرورة أفضل الامكنة لاجراء الضربة النووية في نهاية العملية . ويمكننا أن نتصور المهاجم وهو يندفع داخل الفراغ بسبب انسحاب ستارة الأمان أمامه . أو يقع في فراغ بعد أن يحدد نقطة قوية ويندفع نحوها ويدخلها . ليتلقى في كلتا الحالتين ضربة نووية على المكان الذي حدده خصمه . كما يمكننا أن نتصور إنشاء مركز مقاومة دفاعي كاذب ومموّه بصورة سيئة مقصودة ، لأن مثل هذا المركز يدفع المهاجم الى تبذير قنبلة ذرية بلا جدوى ، أو شن هجوم تقليدي على موقع فارغ يمكن للمدافع ضربه بالقنابل الذرية بكل سهولة ودون أي رادع معنوي .

وهناك حالات لا يملك فيها المدافع وسائط ذرية محلية ، ولكنه يخدع عدوه كيما يظن عكس ذلك . وبما أنه حر لا تجبره الظروف الذرية على خلق « مناطق قتل » حقيقية مع ممرات اجبارية لتحديد الهجوم المعادي ، فانه يحتفظ بوسائطه لخلق انساق متتالية من ستارات الحيطة المعدة لايهام العدو ، مع خلق عدد من « الجيوب الكاذبة » .

وعلى كل حال يغدو **الدفاع الثابت دون أية فكرة للتراجع أمراً غير ملائم** في ظروف القتال الذري . كما أن التمسك بنقطة يعرف العدو أهميتها وأهمية القوات التي تحتلها دون تحقيق التماس مع قوات الخصم يعني التعرض لضربة ذرية مؤكدة ، **دون أن تكلف هذه الضربة المهاجم أية خسارة** . ويمكن اعتبار مسك كافة النقاط القوية بلا استثناء تخلياً عن مناورات الانسحاب باستثناء انسحاب ستارة الحيطة . وهذا يعني تنفيذ الخطة التي يرغب بها الخصم .

ب ــ في الهجوم :

١ ــ الهجمات المتلاقية التي تجبر العدو على التجمع رغماً عن انفه .

٢ ــ مناورات الجذب في الصراع على النقاط الحيوية . وغالباً ما تكون هذه النقاط واقعة على المؤخرات . وهذا ما يجعل المناورة الهجومية تسعى الى بلوغ المواقع التي تسيطر عليها ، دون أن تجمع في هذه المواقع قوات كبيرة قابلة للكشف . ويدخل هذا العمل في مجال التكتيك غير المباشر . وعلى المهاجم في هذه الحالات تجنب المحاور المؤدية الى اهداف مؤكدة ، وخدع العدو وتضليله وابقاؤه وسط الشك اطول مدة ممكنة ، واستغلال جميع الفرص المواتية حتى لو لم تكن منسجمة مع المخطط الاساسي . اذ تؤدي كل هذه الاعمال الى تجميع عدو مبعثر على اهداف رئيسية هامة ، وهذا ما يجعله عرضة لضربة ذرية .

٣ــ مناورات الازعاج القادرة على دفع العدو الى تبديل مواقعه ، وانهاكه بشكل يجعل جزءاً هاماً من قواته يقف ثابتاً في مكان محدد ، مشكلاً هدفاً ملائماً للضربات الذرية .

٢ ــ الحيطة الذرية

تنقسم معضلة الحيطة الذرية الى موضوعين هما :

ــ مقارنة حساسية التشكيلات الثابتة المفتوحة مع حساسية التشكيلات المتصلة .

ــ المناورات القادرة على تحسين الحيطة انطلاقاً من هذه التشكيلات .

ولقد تمت الاجابة على السؤال الاول في الفصل التاسع عشر الذي يتحدث عن التشكيلات . ونحن نعرف أن التشكيلة الخطية الرقيقة هي أقل التشكيلات حساسية . ولكن النظر الى هذه التشكيلة من زاوية تماسك القطعات وضرورات القيادة والمناورة يُظهر لنا أن التشكيلة المفتوحة افضل منها بكثير . وينجم عن ذلك ضرورة استخدام التشكيلة المفتوحة الشطرنجية بالنسبة لكبد القوات ، على أن تكون ستارة الحيطة المتصلة منتشرة بصورة خطية على الاتجاهات الخطرة .

وعلينا هنا أن ندرس المناورات التي تقلل من حساسية القطعات . ويقول دولا باليس أن الوصول الى هذه النتيجة يعني سقوط ضربات العدو الذرية في الفراغ ، أو عجزه المطلق عن الرمي .

وينجم **منع العدو من الرمي** عن سببين هما : الرد عليه برمي معاكس فعال وآني ، أو تحقيق التماس معه . وفي الحالة الثانية يتفوق الطرف الذي يملك التفوق التقليدي اصلا. أما الطرف الذي لا يملك هذا التفوق فلا يستطيع تحقيق التماس دون مخاطرة ، الا اذا استفاد من المناورات التي تؤدي الى التفوق المحلي ، مع اجراء رمايات تغطي الجزء الهام من حقل المعركة وتحيط به .

أما **اسقاط ضربة ذرية في الفراغ** رغم محاولات الخصم لجعلها ضربة دقيقة مؤثرة فينجم عن سببين ، أولهما احساس المدافع بأن عدوه يستعد لضربه ذرياً (ينجم هذا الاحساس عادة عن ابتداء العدو بالانسحاب لقطع التماس ، أو عن قيامه باحكام رمي المدفعية الثقيلة بقنابل تنفلق عالياً في الجو) ، **فينسحب بصورة سرية** الى موقع آخر . أما السبب الثاني فهو تعرض العدو الى الانهاك بفضل ستارة حماية فعالة تعطي نفسها حجماً أكبر من حقيقتها . ويتطلب الامر في كلتا الحالتين امتلاك مواقع متعددة تكون الأولى معدة للقتال على حين تكون الثانية مخصصة للانتظار بعيداً عن مواقع المقاومة . وتحتل حاميات الحيطة في بادئ الامر مواقع القتال ، اما القوات المقاتلة فتبقى في مواقع الانتظار حتى يحين الوقت اللازم فتنتقل الى مواقع القتال أو تبدل هذه المواقع الى مواقع قتال تبادلية اخرى تتلاءم مع تطورات الموقف .

ولنلاحظ هنا أن القدرة على المناورة بين لحظة اكتشاف التهديد ولحظة الضربة تقل كلما نقصت قوة السلاح الذري المستخدم . اذ تبلغ المدة التي تنقضي بين طلب رمي قنبلة ذرية من عيار ٢٠ كيلو طن واجراء هذا الرمي بعد اخذ تدابير الحيطة والانذار ساعة واحدة . على حين ان المدة التي تحتاجها القذيفة الذرية من عيار ١ كيلوطن (Davy Crocett) والتي يمكن دفع قواعد اطلاقها الصاروخية الى مستوى الجمهرات التكتيكية عبارة عن مدة قصيرة جداً لا يمكن للمدافع الاستفادة منها ، كما لا يمكن الاستفادة من الظواهر الكاشفة التي تسبق مثل هذا الرمي الذري .

فاذا كانت المواقع الدفاعية التي ينبغي الحفاظ عليها هامة لدرجة لا يمكننا معها خداع العدو أو اغراقه في الشك ، امكننا ان نستخدم بالاضافة الى مناورات الانسحاب والكشف وسيلة حيطة جديدة تتمثل في اعداد الارض وتحصينها بتحصينات دائمة . ومما لا شك فيه ان اعداد الارض بشكل عاجل وتحصينات مؤقتة لا يقدم الا فوائد محدودة ، اذ يبلغ القطر الخطر لقنبلة من عيار ٢٠ كيلو طن ٣,٠٠٠ م بالنسبة للقطعات المكشوفة و ٢,٤٠٠م بالنسبة للقطعات المتمركزة داخل تحصينات مؤقتة مبنية على عجل .

ولقد رأينا في الفصل ٢١ كيف نستطيع الحفاظ على حياة القطعات بفضل التحصينات العميقة جداً داخل باطن الارض والتحصينات السطحية المكونة من عناصر متباعدة تفصل بينها فرج حيطة كافية (١,٦٠٠ متر من أجل القنبلة من عيار ٢٠ كيلو طن) . كما رأينا كيف يؤدي انشاء مثل هذه التحصينات وسط أرض كثيرة التموجات الى زيادة المقاومة وسهولة الانشاء ... وهكذا يمكننا ان نرى في المستقبل تربيعاً كاملاً من « الحصون ـ المستودعات » التي يبلغ محيط كل واحد منها من ٥٠ الى ١٠٠ كم ، وتستطيع تقديم مردود عسكري واداري جيدين . ويمكن ان تستند مناورة القطعات الميدانية وحياتها على هذه « الحصون ـ المستودعات » شريطة أن تكون الفرج القصوى بينها مساوية لضعف المدى الأقصى الذي تستطيع القطعات بلوغه في مختلف الظروف .

ان الجيوش الحديثة المعدة للعمل وسط احتمالات المستقبل ستجد ان الحرب الذرية المحدودة التي لا تؤدى منذ البداية الى خراب شامل عبارة عن حرب تجمع صفات حروب القرن السابع عشر والخاصة بندرة المعارك وفداحة خسائرها ، وأهمية «الحصون ـ الملاجئ » ، ومرونة وتواتر مناورات الالتفاف والانسحاب ، مع صفات حروب القرن الثامن عشر الخاصة بامكانية اجراء المناورة النابليونية . وسيظهر هذا الامر بكل وضوح اذا ما جرت العمليات في اوروبا الشرقية ، نظراً لان مسرح العمليات هناك واسع ولا يحتوي على اهداف اقتصادية كبيرة الاهمية .

وسيتخلل الحرب الذرية في المستقبل اوقات ميتة نظراً لأن العمليات لا تتم الا على السطح وبوسائط بسيطة . كما ستأخذ هذه الحرب شكل حروب القرون الوسطى لان الهجوم والرد الذريين حددا أو ألغيا تماماً امكانية الدعم الاداري بوسائط ثقيلة أو آلية ، وقللا كمية الذخيرة المستخدمة في المعركة . وهكذا سيظهر اتباع دوغسيكلان من جديد ليأخذوا مكانهم على المسرح .

ولا نستطيع هنا استبعاد احتمال الثبات الدائم للعمليات على جبهة مستمرة ، تحت تأثير اعداد الارض عرضاً وعمقاً ، وبسبب وجود « الحصون ـ الملاجئ » ، وتأثيرات القنابل الهيدروجينية الصغيرة . وفي هذه الحالة الأخيرة تفوق تأثيرات اشعاعات النترون كل تأثيرات الدمار بالصدمة والحرارة . ويستطيع جندي المشاة الملتجئ الى ملجأ من الاسمنت المسلح أو الى ملجأ مطمور على الأقل ان يقاوم هذه الاشعاعات على حين تخترق الاشعاعات دروع الدبابات لتقتل السدنة دون أن تؤثر على العتاد نفسه . وهذا عامل هام من العوامل المؤدية الى الثبات .

ومع هذا فالحرب الحديثة هي حرب الجيوش الحديثة ، وليست هذه الحـ ـش في الوقت الحاضر موجودة ، وكل ما هو موجود عبارة عن بدايات على الـ ـين . وتتألف الحقائق الآنية من حروب جيوش تقليدية وسط التهديد باستخدام السلاح الذري . وهي لا تستخدم الارض المعدة أو « الحصون ــ الملاجئ » وتستفيد من القطعات الآلية ضمن أضيق الحدود . وهذا ما دفع بعض المنظرين الى القول بأن هذه الحرب تلائم الأمم التي اعدتها الاحداث والظروف الى خوض الحرب الثورية بمختلف اشكالها. ويمكن تفسير هذا الرأي بشكلين ، يرى أولهما أن نتخلى عن الحرب الذرية فيجتاحنا العدو بقوات تقليدية متفوقة، ولا نجد امامنا سوى اللجوء الى حرب العصابات ، على حين يرى الشكل الثاني ان نقبل الحرب الذرية ونخوض غمارها حتى نصل مع الخصم الى الاستنزاف والتفتت المتبادل « المرحلة الميتة »، وعندها تختفي الجيوش المقودة بصورة نظامية وتبدأ الحرب بعصابات صغيرة مستقلة .

* * *

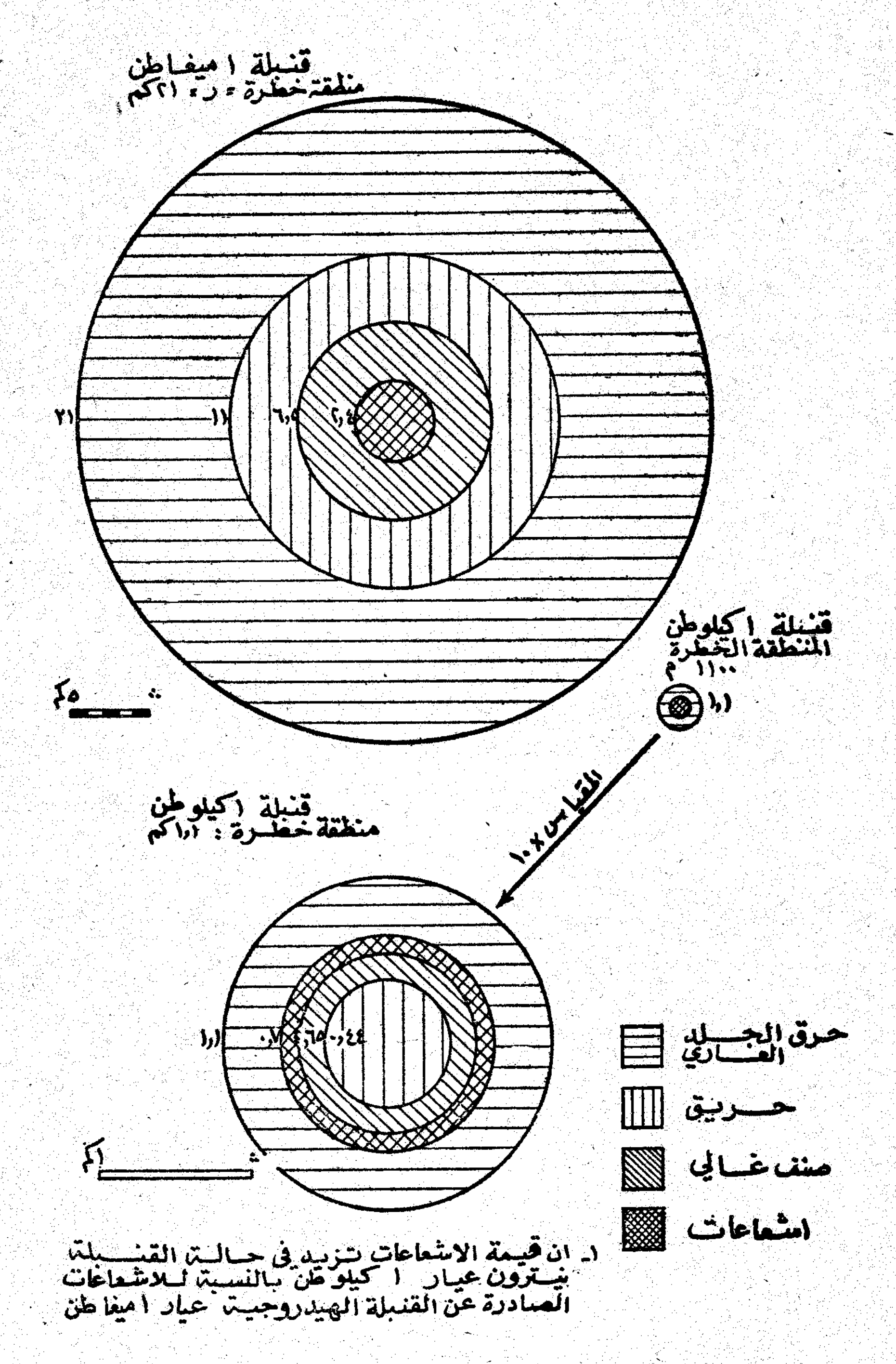
تتصف الحرب الذرية في هذا المضمار بكثير من صفات الحرب غير المباشرة ، كما أن مناوراتها المتناوبة للتجمع والتبعثر تجعلها قريبة الشبه بالحرب الثورية . ان تجمعها يستند عادة على التشكيلة الشطرنجية المضادة للتأثيرات الذرية ، كما أن تبعثرها يعتمد على التربيع الملائم للسيطرة في حرب ثورية .

وهكذا فان من الممكن تصور تشكيلات متشابهة بالنسبة لكلا الحربين ، مع اقتصاد عام بمختلف الاسلحة ، على أن تبنى هذه التشكيلات على ثلاثة أمور .

يجب أن تلبي التشكيلات متطلبات الحرب الذرية والحرب الثورية في مجالي العمل الحربي والدفاع السلبي .

ينبغي ان تؤمن شروط استخدام القطعات الحد الاقصى من سهولة تشكيل الجمهرات التكتيكية من مختلف صنوف الاسلحة . وخلق فيالق من مختلف الصنوف لتحقيق التلاحم السريع بين مختلف الاسلحة داخل التشكيلات كبيرها وصغيرها ، ولتأمين حيطة النفير والمناورات المباشرة . على ان لا يلغي ذلك وجود قطعات كبرى من الاسلحة الثقيلة أو الاختصاصية داخل تشكيل الاحتياط العام .

ومن الضروري تحقيق تعاون وتعايش مختلف الجيوش البرية والجوية لتحقيق ثلاث مهمات رئيسية هي : الردع النووي ــ التغطية والتدخل ــ الدفاع عن مناطق محددة .



١ـ ان قيمة الاشعاعات تزيد في حالة القنبلة نيترون عيار ١ كيلوطن بالنسبة للاشعاعات الصادرة عن القنبلة الهيدروجية عيار ١ ميغاطن

فاذا استثنينا عمليات الانزال وجدنا ان الجيوش لم تمارس حتى الآن الا تعاوناً مزدوجاً يتم بناء على طلبات معينة (العمليات الجوية ــ البرية ، والجوية ــ البحرية ، والمحمولة

جواً ، والبرمائية) وتميل الجيوش في الوقت الحاضر الى استخدام التعاون الثلاثي تحت قيادة عضوية واحدة .

والحركية الكاملة ضرورية في الحرب الذرية أو الثورية . وتشارك الآلية في تحقيق ذلك خلال الحرب الذرية . ومن الضروري اشراك التدريع في تأمين الحيطة ، أو لاقلال تأثيرات القصف الذري الخاصة بالصدمة والحرارة على الأقل . وتفضل العصابات تحقيق الحركية في الحرب الثورية عن طريق خفة القطعات حتّى ولو جاءت الآلية واستخدام الهليكوبتر لتساعد في تحقيق ذلك .

اما فيما يتعلق **بمستقبل كل سلاح** فيمكننا ان نتوقع ما يلي :

ان الصواريخ بعيدة المدى قادرة على الغاء دور **الطيران الاستراتيجي** اذا كانت رماياتها دقيقة ضد الاهداف المختارة .

وتستطيع **الصواريخ الذرية التكتيكية** القادرة على اصابة الاهداف بدقة الغاء دور **المدفعية التقليدية** .

ولكن هذا لا يلغي دور المدفع أو الطائرة لان بوسعهما ان يتلاءما مع مهمات **الدعم والمرافقة** في حقل المعركة وبأشكال جديدة .

وستتعايش **المشاة والخيالة المدرعة** بشكل جديد . وستعملان معاً دون انفصال مهما كانت نسبة السلاحين داخل الجمهرة . والمشاة عاجزة عن العمل داخل تشكيلات مكشوفة ومبعثرة . أو تأمين حيطتها ودفاعها ضد الدبابات ، دون ان يكون معها دبابات مرافقة لها نفس قدرتها الحركية . وهي عاجزة ايضاً عن المناورة بسهولة في ظروف التهديد الذري دون ان تكون آلية أو محمولة بالهليكوبتر . ولا يمكن للدبابات او المدفعية بمختلف انواعها ان تصمد وتبقى في تشكيلات مكشوفة دون مشاة مدافعة .

وستضطر **المشاة وقطعات المهندسين** الى التعايش داخل اطار القواعد المطمورة ، أو وحدات المواقع المخصصة لاعداد الارض بصورة قوية عميقة ، والدفاع عنها بعد ذلك بفاعلية .

ولكن هذا لا يلغي وجود القطعات المدرعة الكبرى الثقيلة أو قطعات المهندسين المختصة أو الصواريخ . بيد أن تنظيم كل هذه القطعات سيجعلها قادرة على تأمين حيطتها في جميع الحالات العادية دون دعم او اعداد اضافيين .

وتميل سرعة المناورات وعزلة المفارز بصورة متدرجة نحو امور ثلاثة هي :

ـ تفوق مفهوم التخصص على مفهوم السلاح . والميل مرة اخرى من جديد نحو الحالة البحرية .

ـ الثبات العضوي للجمهرة التكتيكية على شكل قطعات من مختلف صنوف الاسلحة ، قادرة على القيام بالمهمات العادية .

ـ تقسيم القطعات الحالية الى ثلاثة اقسام : قسم صغير للمعركة ، يتمتع بتقنية عالية ويضم عسكريين محترفين ـ وقسم للدفاع سطحياً ، وهو مسلح بصورة تقليدية وآلية ما أمكن . ـ وقسم الخدمات الوطنية المعد للحراسات الثابتة على ارض الوطن بالاضافة الى تأمين النقل واعمال الدفاع السلبي . ويتألف القسمان الاخيران من القوات الاحتياطية الكثيفة التي تم تدريبها حسب اختصاصها .

وتكون فيالق المعركة والدفاع السطحي منظمة داخل قطعات من مختلف صنوف الاسلحة . وينبغي ان تكون ذات تكوين متقارب حتى يمكن اجراء التبادل فيما بينها عند اللزوم . وتدل الدراسات المختلفة على أن حجم هذه القطعات العملي يتراوح بين ٢,٥٠٠ و ٣,٠٠٠ رجل .

والحقيقة اننا اليوم اقرب من أي وقت مضى الى تكوين الجيوش البيزنطية التي كانت تقسم قواتها الى ثلاثة اقسام هي : خيالة المعركة ، ومشاة الحيطة والتربيع ، والقطعات الملحقة . وفي ذلك الوقت كانت فكرة مختلف الصنوف تتجسّد داخل المقاتل نفسه ، لان الفارس البيزنطي كان قادراً على القيام بمختلف اشكال القتال على الاقدام او على ظهر جواده .

وهكذا قامت الامبراطورية على انقاض روما المدمرة المحتضرة .



الفَصل الواحِد وَالثلاثونَ

المصــــير

ليس هناك من اهتمام أحب الى النفس من اهتمامها بالمسائل العسكرية ، ذلك لأن هذا النوع من الاهتمام يشغل النفس بشاغل مليء بشعور النبالة في التنفيذ . ويتميز العمل العسكري بالبسالة التي تعتبر من أقوى الفضائل وأكرمها وأكثرها سمواً . كما أن هذا الاهتمام يدفع صاحبه للعمل من أجل قضية شريفة . فليس هناك أجدى ولا اكثر شرفاً من حماية أمن البلاد ومجدها . كما أن مرافقة عدد كبير من هؤلاء الحماة البواسل شيء محبب الى النفس لأنهم يمثلون الرجال النبلاء الشجعان الفعالين . وبعد كل هذا فالاهتمام بالمسائل العسكرية من شأنه ان يجعل الانسان يعتاد رؤية المشاهد الأليمة التي يتعرض لها أولئك الحماة في سبيل الشرف ، أضف الى ذلك تميز الحياة العسكرية بالحديث غير المنمق ، والقوة الخالية من التكلف ، وتنوع الأعمال في الميدان العسكري .. كل هذا يصنع سيمفونية شجاعة تعزفها الموسيقى الحربية التي تغذي الانسان وتبعث الدفء في الروح والأذن ، واخيراً فان شرف ممارسة العمل العسكري ، والعنف والصعوبة اللذين تحتاجهما هذه الممارسة ، تجعل من الاهتمام بالمسائل العسكرية شيئاً محبباً الى القلب .

مونتين ــ الدراسات 111 — X111

في ٢ أغسطس (آب) وجه الجنرال ديغول الكلمة التالية لطلاب سان سير : « اني لا أشفق عليكم لأنكم اخترتم المهنة العسكرية . فهي تتطلب منكم التنازل عن الحرية والمال . وتحمل لكم أياماً عصيبة ، وساعات مريرة ، كما انها تتصمن أحياناً سنوات من الأسى والألم . الا أنها بالمقابل تتيح لكم مغامرة دائمة مليئة بالأحداث تختلط فيها القيادة بالعمل وبالمخاطرة ... » .

« ان المهنة العسكرية ستتيح لكم شرف النضوج . وحينما تتركون هذه المهنة فانكم ستعيشون المستقبل وسط مزيج من الذكريات الشامخة ... ذكريات الدموع التي ذرفتموها في يوم الخدمة الاخير ، والفرح النفسي الذي أتاحته لكم تلك الخدمة ، وأحلام المجد التي عشتموها تحت الرايات الخفاقة ... كلا ، انني لا اشفق عليكم ابداً » .

يا قائد المستقبل ، اذا فكرت في هذا فانت منا لأن الساعات التي قضيناها معاً ستمتد وتطول الى مدى أبعد من مدى الاتفاق على تجارة فكرية ، وستعيش لتحس احساساً واعياً باكتشاف كان ضرورياً لك ، وبنمو مزدهر لقدراتك كعسكري . وقبل أن اتركك على عتبة مستقبل غريب عنك ، يحركه صخب النبوة ، أود أن انقل اليك بعض التأملات القادرة على تنظيم مهنتك العسكرية ، وتجعل وعيك فعالاً .

قبل كل شيء ، ابق شاباً . فالنصر امرأة لا تحب الشيوخ . ان ثلثي القادة الكبار الذين سجلوا أسماءهم في التاريخ كان عمرهم أقل من أربعين عاماً عندما لمعوا وبرزوا ، فيما عدا تورين الذي ارتفع شأنه بينما كان يتقدم في السن . ومما لا شك فيه أن القواعد والبينات ومجموعة المعارف المفيدة لا تسمح في أيامنا هذه ابداً للقادة الكبار بالحصول على الشهرة قبل سن الخمسين . فقد كتب فون درغولتز : « مع أنظمة التسلسل العسكرية التي تثقل كاهل جيوشنا في الوقت الحاضر ، فان رجالاً كالاسكندر ويوليوس قيصر ، لو أتيح لهم أن ينضموا الى صفوفنا لوجدوا أنفسهم مضطرين الى تسلق كل المستويات ببطء وصعوبة من رتبة ملازم الى رتبة قائد عام ، قبل أن يكونوا في وضع يمكنهم من اظهار مواهبهم أو كشف عبقرياتهم . فهناك على هذا الطريق الطويل ، عثرات كثيرة لا بد من تخطيها . وهي مكونة من عثرات الحياة الغادية ، وعثرات الخدمة . وتتحطم على هذه العثرات والصعاب عادة طبائع قيادية قوية ، ومخلصة وكريمة . فليكن ما يكون ، ولكن ابق على الأقل فتي القلب والفكر ، واقبل دون مرارة كل الشكوك في مهنتك .

ولا تحصر نفسك في القيود المفروضة على المصارع حينما ينزل الى حلبة المصارعة . ولا تسقط نفسك في قيود أسوأ ، من النوع الذي يطبق على الموظف الوجداني الروتيني .

ان الدلائل الأولى للشباب هي الواقعية والخيال . فليس هناك ما يشوش الفكر ويمنع انتظامه من نظرنا الى الاشياء كما نريدها ان تكون ، بدلاً من أن نقبلها كما هي . واعرف ايضاً انه ينبغي ان لا تترك حرفية النصوص تستعبدك وتخضعك وتلزملك باحترامها التام . وقد كتب غوته ما يلي : « ان العلاقة الدائمة لعصر مجدب هي التقيد الدقيق بالنظرية . كما اننا نكتشف افتقار الفرد الى الخصوبة الفكرية عندما يكثر الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة » . وقد دعمه المارشال فوش في قوله هذا دون تحفظ اذ قال : « ان الانظمة دليل غبي تشجع على الكسل الفكري » .

ونتيجة لهذه القاعدة السليمة . ستجد هذا الاستنتاج الجريء المحفوف بالمخاطر للجنرال ديغول حيث يقول : « ان اولئك الذين حققوا شيئاً عظيماً قد تجاوزوا في الغالب مظاهر الانضباط الشكلي المزيف » وستجد الدهشة المشوبة بالاسف التي اطلقها تشرشل عندما حلل شخصية الاميرال جليكو قائلاً : « انه يتمتع بكل صفات نلسون ما عدا صفة واحدة . انه لا يعرف كيف يعصي الأوامر ... » .

وينبغي ان لا تأخذ هذا الكلام ، بصورة خاصة ، على انه دعوة الى نقد السلطة باستهزاء ، والى عصيان الانضباط . **فليست مثل هذه التصرفات من علامات العبقرية ، ذلك لأن اللجوء اليها أمر سهل جداً** . فالشخصيات ذات القيمة التاريخية والتي تجد نفسها مضطرة الى ذلك العصيان ، هي شخصيات نادرة وتشكل نموذجاً فريداً من نوعه . انك مدعو فقط الى حرية الفكر . اذ ينبغي ان تستند تأكيداتك وقراراتك على شيء آخر غير شخصيتك ومزاجك ، وخاصة حينما يكون هذا المزاج سيئاً — ويجب أن تستند تأكيداتك وقراراتك على قناعات توصلت اليها بعد طول تفكير ، وأن تضع في نتيجة هذا التأمل حداً فاصلاً بين ميدان الحرفة وميدان الفكر .

ولا يقع على عاتق رؤسائك ان يفكروا بالنيابة عنك . فافكارهم ليست مقدسة . ولقد كان من عادة الجنرال ايتيين أن يكرر ما يلي : « ليس للحجج والأفكار رتب » ولقد عانى هذا الجنرال كثيراً عندما حاول فرض افكاره الصحيحة الجديدة على أركان « روتينية » وحذرة . وقد ذهب أردان دوبيك الى مدى أبعد في عباراته التالية : « كم من الجنرالات لا يفكرون الا بشيء واحد . هو اظهار انفسهم بأنهم وحدهم الذين

يعرفون . وذلك بأن يطرحوا تفوقهم ويعلنوه ــ سواء كان حقيقياً أو كاذباً ــ ، وهذا هو الشيء الاساسي بالنسبة لهم ، وهم يعتزون وأوداجهم منتفخة باساءتهم الى الانضباط. وأذكر جيداً ذلك التفكير المرير لقائد قطعة من القطعات، اثر توبيخه علناً من قبل احد الجنرالات ، وهو توبيخ لا يستحقه أبداً ، وهذه الأشياء تحدث . وتحتاج مهنتنـــا العسكرية الى نوع من الفلسفة يبرر حدوث هذه الاشياء ويفلسفها .

وفي القتال . تبقى حرية الحكم حرية كاملة عريضة . أما القدرة على الجمع والعرض والاجمال والانذار المشوب بالاحترام فانها هي التي تضيق . وذلك لاننا لا نملك عادة الا معلومات تقل عن معلومات رؤسائنا عن الضرورات العامة ، ومن ثم ليس هناك وقت متسع للمناقشة المتبادلة . ومن المعروف انه بعد حدوث تمرد ١٩١٧ اتخذ بيتان اجراء كان له أثر نفسي هائل . فقد وافق على أن من حق القائد الذي يتلقى اوامر يجد أنها اوامر مخربة ، ان يطلع القيادة فوراً على اعتراضاته . ولا يصبح الأمر قابلاً للتنفيذ الا اذا إكدته القيادة وثبتته .

ان من واجبك اذن ان تتعلم الحكم بصورة واضحة ، وأن تكون مسؤولاً مسؤولية كاملة ، وقادراً في الوقت نفسه على القيام بمبادرات ناجحة . ولا تستطيع التبجح بالقيام بمثل هذه الاعمال قبل ان يكون فكرك قد استفاد من كل تجربة الماضي . افعل كبونابرت واقرأ ، وتعلم بصورة خاصة كيف تقرأ بصورة ذكية . فليست الثقافة عبارة عن مجموعة المعارف المكتسبة ، انها تركيب لكل المعارف التي قرأتها وهضمتها ونسيتها . وهذا التركيب هو الذي سيسمح لك بربط ما لم يربطه انسان قبلك . ان سان توماس . والميكانيكا التموجية ، والمفحم وحضارات المايا[1] مرتبطة ببعضها وتستمد كل واحدة حياتها من الأخرى ولست أقصد هذه الحالات الحدية فقط ، ولكنني ذكرتها كأمثلة ، وفي الفن العسكري تتكون الثقافة بالشكل نفسه .

انك بحاجة الى جهد تركيبي لكل المعارف التي تكتسبها ، ويفرض هذا الجهد ذاته ، بمقدار ما تكون العزلة ثمن القيادة . هذا أنت ، وقد أصبحت وحيداً على رأس ١٠٠٠ جندي ، و ١٠٠ من المرؤوسين الأعوان . وهناك ١٠ من زملائك يضعونك في مرتبة

---

(١) المايا (هنود امريكا الوسطى) . وهم مقسومون حالياً الى ست جماعات . وكانت حضارتهم مزدهرة الا انها اندثرت بوصول الاسبانيين .

(المعربان)

تتجاوز الصداقة القائمة بينك وبينهم . فاذا ما ارتفعت وتشامخت عليهم ، غدت وحدتك ثقيلة وقاسية . وكلما جعلت معاونيك المباشرين يحسون بحاجتك اليهم بصورة دائمة ، شك رؤساؤك في صلابتك ، وتضاءلت ثقة مرؤوسيك في فضائلك . واذا تجنبت ذلك ضحيت بنفسك لصالح التقاليد القديمة . وعند وصولك الى نهاية خدمتك ، ستجد نفسك وانت تقبل ان تودع اسرارك غير العادية عند أحد مرؤوسيك التافهين والصامتين الذي يشاركك عن طريق المصادفة ، جزءاً من العزلة التي تعيش فيها . ففي وسعك أيضاً أن تحذو حذو رجال الماضي الكبار في حفاظهم على اسرارهم وذلك بأن تدفن سرك في قلبك .

لقد بذلت جهودك ، فالأزمنة الحديثة تطالبك بما هو أكثر من الفضائل العسكرية البسيطة ، أو المعارف المتخصصة لرجل فني . ففيما عدا الحرب يطالبك هذا العصر بمعالجة أوضاع قلقة . وظواهر جوية ونكبات . وسواء رضيت أم لم ترض ، فانت مطالب بان تكون مهندساً ، وبناء ، ومنقباً ، وطبيباً ، ومربياً ، ومخبراً سرياً ونبياً . ان عدد الذين سيفرضون أنفسهم على العلوم والأدب والفنون والتصوف عدد لا حصر له . اما الذين يحتكرون صفة « المفكرين » ، فانهم عندما يدعونك الى الجدل يتخيلونك قابعاً تحت قشرة من الحديد ، كما يتخيلونك رجلاً عملياً معداً لعمليات القتال فقط . وهذا هو الدليل على عدم فهمهم لك . وقد كان مونتين يعرف ذلك جيداً وكتب عنه مطولاً . سوى ان من المؤسف أن « المثقفين » لم يقرأوا ما كتبه أبداً . كما انه تحدث عن العمل العسكري الذي يضم « الف عمل متنوع » . ومنذ وقت قصير فتح ليوتي وغالييني أبواب عمل اخرى . فانت مطالب بأن تكون خادماً لفنون لم تتعلمها ، ولتقنية يفرضها عليك التقدم الحالي . وسرعان ما تجد نفسك مضطراً الى تعلم « فن الافكار العامة » . كل هذا سيخلق لك التزامات اكبر ، اذ أنك لست عالماً بكل الامور ، ولكن لا تخف بداً ، فهناك من هم أكبر منك مهدوا لك الطريق وأصلحوه وساروا عليه قبلك ، فلا تتردد عن السير خلفهم .

ومهما كان مصيرك ، ابق متواضعاً وقانعاً . فنادراً ما تجتمع صنعتا الحكمة والانكباب على العمل في رجل واحد بالحدة ذاتها . فاذا جمعت بين الصفتين ، وكان نجمك سعيداً جداً ، فقد يكون الجيش ساحة صغيرة بالنسبة اليك . وسيكتب القادة الأذكياء في سجل وصفك ما يلي : « سيكون له مستقبل باهر جداً ، اذا ما ساعدته الظروف » .

واذا لم تكن منتمياً الى هذه الفصيلة الاستثنائية من القادة ، بوسعك ان تتطلع ايضاً

الى نوع معقول من التوازن الذي يتلاءم مع كفاءتك . والعثرة الوحيدة أمامك هي أن تتسم بازدراء بلا حدود لكل المقاييس . ويتمثل هذا الازدراء بأن تدلي برأيك وانت جاهل . أو ان تحدد مصير العالم بقلمك دون أن تكون مثقفاً . ان مثل هذا التصرف يضعك في مصاف الرجال الذين زال أوانهم في هذا العصر . فالجيش في ايامنا هذه يحتاج الى نوع آخر من الرجال ، وخاصة في المرحلة الانتقالية الحاسمة . فعليك ان تفهم ذلك حق الفهم وان تتلاءم معه .

واذا مسّك المجد بجناحه فلا تسكر بذلك . واذا أهمل المجد تضحياتك فلا تتوسل اليه ، نظراً لأن المجد امرأة سيئة الاخلاق . صدقني ، انه لشرف عظيم ان يمارس المرء مهنة المحارب القديم الفيلسوف ، التي ابرزها الجنرال دوغومييه ، هذا الرجل الذي اجتاز الاعصار الثوري ، وسلاحه في خضم هذا الاعصار كتاب **حياة الرجال البارزين لبلوتارك** . ومن ثم ، فكر بمروُوسيك من الملازمين ، فان عليهم أن يتعلموا شيئاً كثيراً ، وبوسعك ان تكون العلاّمة الذي يرد على اسئلتهم . وتذكر دوماً كم بذلت في حياتك كجندي من الجهد وتعبت لتكتشف هذه القواعد التي تجنبوا كشفها لك في الكلية الحربية. واذا اقتصر نجاحك على اكتشاف هذه القواعد فقط ، كان بوسعك ان تنعم بتقاعدك في سلام وأمن .

واني لأعتمد كثيراً ، في هذه الكلمة الاخيرة . على مشاركتك لي بوعي كل هذه الحقائق ، وبخاصة اذا كنت شاباً فعلاً .

نيينبرغ آم فيسر
١٩٤٠
باريس ١٩٦٠





الفهرس

الموضوع	الصفحة

مقدمة ٥

الجزء الاول

أهمية التاريخ ونقاط ضعفه ٧

الفصل الأول : دور التاريخ العسكري في إعداد الضباط ٩
الفصل الثاني : تطور النظريات المفسرة للتاريخ العام ١٤
الفصل الثالث : إمكانات التاريخ العسكري وحدوده ١٩

الجزء الثاني

عناصر الفن العسكري ومجالاته (العوامل الثابتة) . ٢٥

الفصل الرابع : العوامل الثابتة ٢٧
الفصل الخامس : مجالات الفن العسكري ٢٨
الفصل السادس : المبادئ الثابتة وأصحاب نظريات الحرب . . . ٤٠
الفصل السابع : الأنواع العقلانية ٥٤
الفصل الثامن : العوامل الجغرافية والبشرية ٦١
الفصل التاسع : الفكر العسكري وروح القطعة ٦٥
الفصل العاشر : النزعة العسكرية والنزعة المضادة للعسكرية والحرب . ٧٧

الجزء الثالث

أشكال الحرب الناتجة عن : المتحولات السياسية والتقنية – الآلية التطورية ٨٧
الفصل الحادي عشر : المتحولات ٨٩
الفصل الثاني عشر : إطارات التطور السياسية والفنية ٩١
الفصل الثالث عشر : الجيش والدولة ١١٢
الفصل الرابع عشر : اقتصاد الحرب والحرب الشاملة ١٣١
الفصل الخامس عشر : علاقة الجيوش بالشعوب – الحرب والانسانية ١٣٩
الفصل السادس عشر : تأثير الحضارات على أشكال الحروب – الحرب غير المباشرة ١٥٠
الفصل السابع عشر : التأثير الشعبي على نماذج الحرب – الحرب الثورية ١٦٥
الفصل الثامن عشر : الصدمة والنار ١٨٢
الفصل التاسع عشر : الترتيب والتنظيم ١٩٢
الفصل العشرون : التحصينات ٢١٨
الفصل الحادي والعشرون : الشؤون الإدارية (اللوجيستية) ٢٣٩
الفصل الثاني والعشرون : تطورات الحرب عبر العصور ٢٦٨

الجزء الرابع

المراحل الكبرى للتاريخ العسكري ٢٧٩
الفصل الثالث والعشرون : عصور وفترات التاريخ العسكري . . . ٢٨١
الفصل الرابع والعشرون : من الامبراطورية المصرية حتى بداية الأمبراطورية الفارسية (من ٣٠٠٠ ق.م حتى ٥٠٠ ق.م) ٢٨٣

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس والعشرون : من الامبراطورية الفارسية حتى سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية (من ٥٠٠ ق.م حتى ٥٠٠ م)	٢٩٣
الفصل السادس والعشرون : من سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية إلى سقوط بيزنطية (من ٥٠٠ حتى ١٥٠٠ م)	٣١٨
الفصل السابع والعشرون : من سقوط بيزنطية حتى الامبراطورية الفرنسية الأولى (١٥٠٠ — ١٨٠٠)	٣٣٤
الفصل الثامن والعشرون : من الامبراطورية الفرنسية الأولى حتى الرايخ الألماني الثاني (١٨٠٠ — ١٩٠٠) تدهور الأنظمة المتمفصلة المفتوحة . .	٣٦٦
الفصل التاسع والعشرون : من الرايخ الألماني الثاني إلى الرايخ الثالث (١٩٠٠ — ١٩٥٠) الجيوش التقنية . .	٣٨٨
الفصل الثلاثون : نحو الامبراطورية الذرية	٤١٥
الفصل الواحد والثلاثون : المصير	٤٣٤

